بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

In the Name of

ALLAH

The Most Gracious

The Most Merciful

Whose Help We Solicit



الصراع الإسلامي البرتغالي
واثره في حركة التجارة الدولية
١٥٠٠ / ١٧٣٠ - ٩٠٦ / ١١٤٣هـ

رسالة دكتوراه

اعداد الباحث/

رياض محمود الأسطل

بإشراف الدكتور /
ابو الفتح محمد صغير الدين

قسم الدراسات الإسلامية
جامعة السند/باكستان

C E R T I F I C A T E.

Certified that Mr. REYADH AL-ASTAL S/o MAHMOUD has carried out research on the topic الصراع الاسلامي البرتغالي وأثره في حركة التجارة الدولية "١٥٠٠/١٧٣٠م-٩٠٦/١١٤٣هـ. under my supervision and that his work is original and distict and his dissertation is worthy of Presentation to the University of Sindh for award of the degree of Ph.D in Islamic Culture.

A-F Mubeen [signature] 9/8/91

DR.ABUL FATEH MUHAMMAD SAGHIRUDDIN
SUPERVISOR AND RETIRED PROFESSOR
DEPARTMENT OF COMPARATIVE RELIGION
AND ISLAMIC CULTURE,
UNIVERSITY OF SINDH, JAMSHORO.

جامعة السند .

كلية الاداب .

قسم الحضارة الاسلامية ومقارنة الاديان .

الصراع الاسلامي البرتغالي

وأثره في حركة التجارة الدولية

١٥٠٠ / ١٧٣٠ - ٩٠٦ / ١١٤٣ هـ

"تتناول هذه الدراسة الصراع الاسلامي البرتغالي في شرق أفريقيا والخليج العربي ، والممالك الاسلامية بالهند ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتبين أثر هذا الصراع في حركة التجارة الدولية"

(إشراف الأستاذ الدكتور/ أبو الفتح محمد صغير الدين)

اعداد الطالب / رياض محمود الأسطل

(بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه)

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

شكر وتقدير

أتوجة بالشكر والعرفان ، وعظيم التقدير للأستاذ الدكتور /

* أبو الفتح محمد صغير الدين ؒ

الذي تفضّل بالإشراف على هذه الرسالة ، فمنحني من وقته وجهده وفكره الكثير ، حتى خرجت هذه الرسالة إلى حيز النور . جزاه الله عني و عن العلم وأهله خير الجزاء .

كما أشكر جميع الأخوة والأصدقاء الذين أعانوني في هذا البحث ،فجزاهم الله عني خيرا .

والحمد لله أولاً وآخرا .

الباحث /

رياض محمود الأسطل

الصراع الإسلامي البرتغالي وأثره في حركة التجارة الدولية
(١٥٠٠-١٧٣٠م - ٩٠٦ - ١١٤٣ هـ)

(تتناول هذه الدراسة الصراع الإسلامي البرتغالي في شرق أفريقيا والخليج العربي والممالك الإسلامية بالهند ، خلال القرنين :السادس عشر والسابع عشر ،وتبين أثر هذا الصراع في حركة التجارة الدولية)

الباب الثالث

المقاومة الاسلامية للاستعمار البرتغالي في المحيط الهندي

الباب الرابع

نتائج الاستعمار البرتغالي للسواحل الإسلامية في مياه المحيط الهندي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

شكل الصراع الإسلامي البرتغالي في مياه المحيط الهندي ، سواء في سواحل الهند الغربيــة أم في السواحل العربية أم سواحل أفريقيا الشرقية ، شكل حلقة مهمّة في سلسلة الصراع الإسلامي الصليبي ، الذي لا زال قائماً إلى يومنا هذا ، فقد تعددت أشكاله وتنوعت أهدافه ، وتعقدت وتشابكت أساليبه ومناهجه ، وازداد الجانب الغربي الصليبي فيه ضراوةً وحدةً وطمعاً في النَّيل من الإسلام والمسلمين وفي نهب خيراتهم وتسخير طاقاتهم وتذليل عريكتهم وكبح شكيمتهم ، ليسهل قيادهم ويهون أمرهم وتذل أمتهم. ومما يؤسف له أنَّ كلَّ ذلك يحدث ، والمسلمون لاهُونَ أو مُتلاهون وكأنَّهم جَسَدٌ مُسَجَّى تحت التخدير ، لا يقوى على الرد ولا يملك من أمر نفسه شيء .

لقد كان الغزو البرتغالي للمياه الإسلامية الشرقية محاولة لتدمير الأمة الإسلامية من خلال القضاء على اقتصادها ومراكز الإنتاج فيها ، ومهاجمة مقدساتها والالتفاف حولها لضربها من الخلف ، بتهديد دولة المماليك، ولردّ الدولة العثمانية عن خططها لاجتياح أوروبا بعد أن بلغت في عهد السلطان سليم إلى أوج قوتها ومجدها ويضاف إلى ذلك أن البرتغاليين قد غزوا الشرق الإسلامي وهم يحملون حزازات القرون وأحقاد الهزائم أمام القوات الإسلامية سواء في أوروبا نفسها على زمن الفتح ، أم في بلاد الشام ومصر في عصر الحروب الصليبية. وقد أذكت هذه الأحقاد نار الصراع ، وزاد من لهيبها أنّ الكنيسة في روما كانت متحمسة لنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي على حساب الأديان والمذاهب الأخرى .

ومما زاد من أهمية هذا الصراع أنه بدأ متزامناً مع بدء تغير أساليب الحياة ومظاهر الحضارة في أوروبا إيذاناً بنهاية العصور الوسطى وميلاد العصر الحديث وإيذاناً بدخول العالم الإسلامي تحت تأثير الهجمة الاستعمارية الحديثة ، والتي لا زالت قائمة إلى اليوم . لقد كان لهذا الصراع آثاره الخطيرة على الساحة الدولية فهو لم يؤثِّر على مُسلمي المحيط الهندى فحسب ، ولكنه أثر على جميع الدول الإسلامية ، حتى البعيدة منها. وهو لم يُقلِق دولة البندقية أو غيرها من الجمهوريات الإيطالية ، ولكنه

أثر على كل أوروبا ، وخلق فيها جَوّاً من المنافسة السياسية وأنماطاً جديدة من الاقتصاد السياسي ومن الفكر الاقتصادي، وتجاوز كل ذلك بأن رسم أنماطاً ومناهج جديدة لعلاقة الشرق بالغرب .

وإذا كان لهذا الصراع آثاره السياسية الخطيرة ، فإن له من الآثار الاقتصادية عامة ، والتجارية على وجه الخصوص ما هو جدير بالبحث والتمحيص ، فمما لا شك فيه أن هذا الصراع قد أثّر على اقتصاد أكبر دولة إسلامية في الشرق آنذاك ، فضلاً عن تأثيره السيء على سائر الأقاليم والدول الإسلامية المطلة على سواحل المحيط الهندي . ومما يذكر أن هذا التأثير قد لعب دوراً مهماً في سقوط دولة المماليك وتحويل سائر ممتلكاتها إلى مجرد ولايات تابعة لسلطة الباب العالي في الآستانة . أما البندقية وسائر المدن الإيطالية ذات الهيمنة على الاقتصاد التجاري الأوروبي ، فقد كانت مصيبتها عظيمة ، إذ فقدت كلّ نفوذ سياسي واقتصادي لها، واضطرت لأن تلعب دوراً ثانوياً كان من العسير عليها أن ترضى به ، وهو ما أنذر بصراع وتنافس أوروبي اتخذ أشكالاً وميادين عديدة تجاوزت أوروبا حتى وصلت أقاصي المياه الشرقية للمحيط الهندي .

ومع أن لهذا الصراع تلك الأهمية القصوى وذلك الدور الخطير فإن حظه من الدراسات التاريخية العربية لا زال قليلا ، وذلك بالرغم مما أُوليَ من العناية في السنوات القليلة الماضية . ومما استرعى انتباهي أن ما قُدّم من دراسات عن الصراع الإسلامي البرتغالي في مياه المحيط الهندي لا زال غير شامل ، ولا مستوعب فهو إما عبارة عن أبحاث ودراسات إقليمية تهتم بإقليم ما أو منطقة بعينها ، وإما عبارة عن دراسة لدور محدود ، كدور المماليك أو العثمانيين أو اليعاربة ومن ثم فإن هذه وتلك - من وجهة نظر الباحث - تعوزها النظرة الشاملة المستوعبة ، وقد أَغفلَتْ في مُجْمَلِها - جانبين مُهمَّين من جوانب الصراع وهما الجانب الاقتصادي والجانب الصليبي الديني، وكذلك أغفلت عن قصد أو غير قصد - النظر إلى الصراع على أنه صراع بين الأمة الإسلامية ككلٍّ متكامل واحدٍ في مواجهة الاستعمار البرتغالي كواجهة لموجة صليبية جديدة تدعمها أوروبا كلها وتقدم لها كل ما تحتاجه من دعم سياسي واقتصادي ومعنوي وديني ، وهو ما جعلنا

نتوقف - من جديد - أمام صفحة جديدة من صفحات الصراع بين الإسلام والصليب
ومما زاد من الحاجة لهذه الدراسة أن الساحة الفكرية تزخر بمئات الدراسات الأوروبية
التي تأخذ وجهة النظر المُخَالِفة ،وتنظر إلى دور العالم الإسلامي في ذلك الصراع
نظرة التحقير والازدراء! وما يؤسف له أنّ كثيراً من الأبحاث التي كتبها الدارسون
العرب والمسلمون تأخذ عن تلك الكتابات الأوروبية بقليل من الفحص والتمحيص والحذر ،
مما قلَّل من شأن كتاباتهم في أعين المختصين من جهةٍ ، وزاد من خطورتها على عامة
المتلقين من جهة أخرى . وقد زاد ذلك من الحاجة إلى النظر إلى الصراع من وجهة
النظر الإسلامية.وأبادر إلى القول إن الأخذ بوجهة النظر الإسلامية لا يعني الأخذ
بمبدأ الانحياز - مع أن بعض المدارس التاريخية الأوروبية تنادي به - بقدر ما يعني
الأخذ بأسس الموضوعية والإنصاف ليبدو كل حدث في إطاره الطبيعي وضمن فلسفته
المنطقيه الخاصة .

وليس من أهداف هذا البحث في ظروف كهذه - أن يحصيَ كلّ شاردة وواردة
في هذا الصراع فحسبه أن يتتبع مجريات الأحداث من حيث الأهداف والظروف والنتائج
وذلك ضمن الإطار التاريخي العام ،الذي يمنح الحدث السياسي أو الاقتصادي أو
الحربي من الاهتمام بقدر ما له من أثر على أهداف أو مجريات أو نتائج ذلك الصراع .
ولا بدّ من القول إن هذه الدراسة قد أغفلت عن عمدٍ،وفي كثيرٍ من المواقف - الآراء
والمواقف والأقوال المغلوطة اكتفاءً بذكر ما يراه الباحث صحيحاً ، وذلك حرصاً على
الاختصار وتوفيراً لوقت القارئ وجهده ، فلا يتوه في دهاليز الجدل والأخذ والرد،وحسبه
أن يسير في القنوات الموضوعية المنسجمة مع ذاتها .

* * *

اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية ،
ولا بد أن نسجل هنا - أن ما كتب عن الصراع الإسلامي البرتغالي في المصادر العربية
يُعَدُّ نذراً يسيراً ،لا يكاد يفي بالغرض وتعوزه الدقة والوعي في كثير من الأحيان ،ومع
ذلك فقد حظيت الدراسة بمعلومات وفيرة من المصادر العربية وذلك مثل ما كتبه ابن
إياس في كتابه بدائع الزهور والذي أفاد البحث في دراسة أولية الصراع الإسلامي
البرتغالي،وفي دراسة العلاقات بين المماليك وسائر الدول الإسلامية التي كانت قائمة

آنذاك . ومثل بعض المصادر اليمنية كقلادة النحر لبامخرمة وقرة العيون والفضل المزيد لابن الديبع والنور السافر للعيدروسي والسنا الباهر بتكميل النور السافر للشبلي اليمني وكلها مصادر ألقت أضواء مهمة على الصراع الإسلامي البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي ،العاشر الهجري . ويضاف إليها ما كتبه المليباري في تحفة المجاهدين وما كتبه عبد الله بن خلفان بن قيصر في سيرة الإمام ناصر ،وما كتبه السالمي في تحفة الأعيان . . . . إلى غير هذه المصادر التي أمدت هذا البحث بمعلومات قيّمة عن ذلك الصراع وخاصة في منطقتي الخليج العربي وشرق أفريقيا .

ومن المصادر المهمّة لهذا البحث ما كتبه الكتاب والرحالة الأوروبيون الذين عاصروا طرفاً من أحداث ذلك الصراع أو شهدوا أثراً من آثاره ويأتي على رأس هذه المصادر ما كتبه فاريا سوزا (Faria Sousa) وترجمه إلى الإنجليزية جون ستيفن (John Steven) بعنوان البرتغاليون في آسيا . وكذلك ما جمعه سلدانها (Soldanha) من وثائق مختارة ،وما كتبه الرحالة الأجانب مثل الكسندر هاملتون وتكسيرا من معلومات ومشاهدات كان لها دور كبير في تجلية كثير من الحقائق . وأخيراً لا بد من القول إن هذه الدراسة مَدِيْنَة في بعض الجوانب إلى عددٍ من المراجع الحديثة التي أتيح لأصحابها الاطلاع على الوثائق والمصادر البرتغالية أو التركية أو الفارسية التي لم يتيسر للباحث الاطلاع عليها .

* * *

وبعد فقد وُضِعت خطة البحث في أربعة أبواب ومقدمة وخاتمة تناول الباب الأول منها أحوال العالم الإسلامي إبان الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية ، وقد اشتمل على ثلاثة فصول ،عالج الفصل الأول العلاقات العثمانية مع كل من المماليك والصفويين ، وتبين أن توتر العلاقات بين هذه القوى الإسلامية قد أعطى فرصة ذهبية للبرتغاليين ليوطّدوا أركانهم الاستعمارية في مياه المحيط الهندي ، دون كبير عناء . أما الفصل الثاني فتناول مشكلة الفراغ السياسي والتفكك الإقليمي

الذي كانت تعاني منه الشعوب الإسلامية المطلة على المحيط الهندي . وتفرّد الفصل الثالث بمعالجة دور المسلمين في حركة التجارة الدولية قبيل الغزو البرتغالي ، وما كانوا يقومون به من نشاط تجاري سواء في مجال الإنتاج أم في مجال النقل والتجارة ، وكذلك أهم المراكز التجارية وأهم البضائع وطرق المواصلات والمواسم التجارية إلى غير ذلك من القضايا التي شكلت النشاط التجاري آنذاك .

أما الباب الثاني فقد خصص لدراسة الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي الإسلامية وقد اشتمل على خمسة فصول ، بحث الأول منها الأسباب الاقتصادية والسياسية والدينية والجغرافية للغزو البرتغالي . بينما تناول الثاني الحملات البرتغالية على السواحل الإسلامية الشرقية ، وقد قسم هذه الحملات إلى مراحل ثلاثة هي : مرحلة جس النبض ومرحلة الهيمنة التجارية ومرحلة التثبيت والاستقرار بإقامة الحصون والقلاع الحربية في المواقع المهمة من الوجهتين الاستراتيجية والجغرافية . وجاء بعد ذلك الفصل الثالث ليعالج المحاولات البرتغالية لاحتكار التجارة الدولية بين الشرق والغرب في النصف الأول من القرن السادس عشر . وقد عرض هذا المبحث لأساليب الاحتكار التي اتبعها البرتغاليون ومنها فرض السيادة البحرية البرتغالية على البحار الشرقية وسد منافذ الطرق التجارية التقليدية وخاصة البحر الأحمر والخليج العربي ، وإقامة المراكز التجارية المحميّة ، وتعقب السفن التجارية الإسلامية بالنهب أو الإغراق أو التدمير ، وفرض الرسوم الجمركية واحتكار السلع المهمّة ومطاردة التجار المسلمين ... إلى غير ذلك . وكان لا بد من دراسة سياسة البرتغاليين في إدارة الصراع الإسلامي البرتغالي وفي إدارة المستعمرات البرتغالية ، حيث اختار البرتغاليون الساحل الغربي للهند ليكون مقرّاً رئيسياً لمستعمراتهم في الشرق ، بينما اكتفوا بأن يتخذوا من هرمز وموزمبيق مقرين إقليميين أولهما لبسط السيطرة على السواحل العربية والآخر لبسط السيطرة على سواحل أفريقيا الشرقية . وأخيراً أُفْرِدَ الفصل الخامس لدراسة بعض محاولات التعاون بين البرتغاليين وبعض القوى الإقليمية كمملكة الحبشة ، وإمارة بالندى وغيرها من الأقاليم التي كانت خاضعة لسلطة المنتفعين أو المستضعفين .

وتناول الباب الثالث حركات المقاومة الإسلامية التي كان لها دورها في وضع نهاية للغزو البرتغالي وأطماعه في المياه الإسلامية الشرقية . وبرز في هذا المجال دور المماليك الذي خصص له الفصل الأول من الباب الثالث وتناول جهود المماليك واتصالاتهم في المجال السياسي ، وما قاموا به من جهود في إعداد الأساطيل وعمليات المقاومة التي استمرت حتى سقوط دولتهم . وجاء بعدهم العثمانيون ليخصص لهم الفصل الثاني الذي بين أن جهود العثمانيين في مقاومة الغزو البرتغالي قد انصبت على عدة محاور ، هي محور البحر الأحمر الذي لاقى فيه العثمانيون نجاحاً كبيراً ؛ ومحور الخليج العربي الذي حققوا فيه نجاحاً محدوداً ، ومحور شرق أفريقيا الذي لم ينل ما يستحق من الجهد والعناية ومحور السواحل الهندية الذي كان مساوياً لمحور شرق أفريقيا في الإهمال السياسي، وضعف المواقف العثمانية . وبعد ذلك تتبع الفصل الثالث السياسة الصفوية تجاه البرتغاليين وبين تذبذبها بين المهادنة والصراع العسكري الذي انتهى بتحرير هرمز وضمها للسيادة الصفوية سنة ١٦٢٢ م . وأما الفصل الرابع فقد تتبع جهود اليعاربة في تحرير مسقط وسائر السواحل العربية ثم تتبع جهودهم في زعزعة الوجود البرتغالي في الهند ،ومساعدتهم في تحرير سواحل أفريقيا الشرقية وتحويلها إلى التبعية اليعربية .

وأخيراً تناول الباب الرابع نتائج الاستعمار البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية وقد قسم إلى أربعة فصول ، خُصص الفصل الأول منها لدراسة الأسباب السياسية والاقتصادية والإدارية لفشل الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية . وتناول الفصل الثاني دور البرتغاليين في استقدام الأساطيل الاستعمارية الغربية إلى سواحل المحيط الهندي وصراع تلك الأساطيل من أجل السيادة على تجارة ذلك المحيط . وبعد ذلك عالج الفصل الثالث نتائج الاحتكار البرتغالي للتجارة الشرقية حيث بين فشل الجهود البرتغالية

في تحقيق الأهداف الاحتكارية إلى أن أفسح البرتغاليون المجال لغيرهم من القوى الأوروبية بشكل كامل . وأخيرًا تناول الفصل الرابع فشل جهود البرتغاليين التبشيرية والعوامل التي كانت وراء ذلك الفشل .

وبعد فقد بذلتُ في هذا البحث جهداً مُضنياً وتكبّدت في إعداده عناءً كبيراً ، ولكنني لا أدعي له الاقتراب من الكمال ، فهو مجهود الباحث الفرد الذي وقف أمام بحر محيط بأدوات يسيرة وطاقة محدودة بتحديد الله لها . ومن ثم فإن ما أصابه هذا البحث من الصواب فمن الله وبفضله،وما اعتراه من الخطاء فمني ومن الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ وأسأل الله العفو والعافية والحمد لله أولاً وآخرا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الباب الأول

أحوال العالم الإسلامي إبان الغزو الكبرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية

الفصل الأول

توتر العلاقات بين القوى الاسلامية الكبرى
(العثمانيون ـ المماليك ـ الصفويون)

يعتبر وصول فاسكو دى جاما إلى كاليكوت على الشاطئ الغربي للقارة الهندية في ٢٧ آيار ١٤٩٨ من وجهة نظر كثير من المؤرخين "١" نقطة تحول رئيسية في تاريخ أوربا وبلاد الشرق على حد سواء ، ولعل ذلك لا يرجع إلى المتغيرات الاقتصادية المباشرة التي ترتبت على هذه الرحلة بقدر ما يرجع إلى التطورات السياسية التي تلت نقطة البداية ، تلك التطورات التي جعلت من البرتغال امبراطورية تجارية كبرى يمتد نفوذها السياسي والاقتصادي على طول السواحل الأفريقية والآسيوية بدءاً من منطقة الريف على الساحل المغربي وانتهاءاً بكاليكوت والممالك المرتبطة معها اقتصادياً عن طريق التجارة .

ولم يكن وصول فاسكو دى جاما ضربة قاصمة لدولة منافسة لها باع طويل في مجال تجارة العصور الوسطى هي البندقية فحسب ، ولكن كان أيضا فاتحة لعهد احتكارى جديد أدى إلى دخول عدد كبير من الدول الأوربية في ميدان المنافسة التجارية حتى غدت سواحل أفريقيا الشرقية وبحر العرب والممالك الإسلامية بالهند مع أوائل القرن السابع عشر مسرحاً للسفن البريطانية والهولندية والبرتغالية وغيرها .

ولما اقتصرت رحلات البرتغاليين الأولى على منطقتي جنوب القرن الأفريقي والساحل الغربي للهند متجنبة السواحل العربية ، ومدخل البحر الأحمر ، ولما كان البرتغاليون حريصين على مغادرة السواحل الهندية قبل وصول السفن التجارية الإسلامية إليها "٢" ، فقد كان ذلك سبباً في تأخر اكتشاف النوايا البرتغالية من جهة ، وفي تأخر المواجهة الإسلامية للبرتغاليين بسبب سوء تقدير المماليك للأمور من جهة أخرى، وخاصة أن التعليمات البرتغالية الأولى كانت توصي بعدم التعرض لمواطني السواحل بسوء ، وبعدم اللجوء إلى سياسة العنف الحربي "٣" حتى يحين الوقت المناسب الذي يتمكن فيه البرتغاليون من تثبيت أقدامهم ومن إجراء مزيد من الدراسات عن طبيعة السواحل وعن المزايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتمتع بها سكانها ، فضلاً عن رغبتهم في التمكن من اكتساب الخبرة الكافية للإبحار عبر سواحل شرق أفريقيا والمحيط الهندى بكفاءة . وقد نجح البرتغاليون بهذه السياسة في تدعيم مركزهم الحربي عن طريق تمكنهم من زيادة قطع الأسطول البرتغالي ورفع مستواه الحربي من جهة ، وعن طريق تحقيق

الانتشار البرتغالي الواسع في المياه الشرقية وإقامة المراكز التجارية والقلاع والحصون قبل الدخول في مواجهة مباشرة مع السفن الإسلامية أو القيام بإغلاق منافذ البحر الأحمر والخليج العربي ، لإحكام الحصار على الدور الإسلامي في حركة التجارة الدولية "١" من جهة أخرى .

ومع حلول عام ١٥٠٢ م بدأت الأطماعُ البرتغاليةُ تظهر للعيان وبدأت سياستهم تتحول إلى العنف ، وقد صَحِبَ ذلك تنبيه البندقية لخطورةِ التطورات التي أوجدَها البرتغاليون ، كما صحب أيضا بدء الوعي على طول السواحل الإسلاميه بحقيقةِ الأخطار البرتغالية ، وما يمكن أن تؤدي إليه من نتائج سياسية واقتصادية ، ويتضح ذلك الوعي في بدء تدوين التاريخ العربي "٢" لتلك الهجمة الأوربية الجديدة . ولمّا لمْ يكنْ ذلك الوعي مدعوماً بالتحرك السياسي الإسلامي المناسب فقدْ قرَّرَ ملك البرتغال عمانويل الأول سنة ١٥٠٥م أن تقوم القوات البرتغالية بالاستيلاء على عدن وهرمز وملقا للقضاء على التفوق التجاري الإسلامي قضاءً نهائياً . وهكذا أخذ الصراع يبلغ أشده في وقتٍ قصير دون أن يكون العالم الإسلامي على مستوى الأحداث ودون أن يُقَدِّمَ الرَّدَ السياسيَّ أو الحربيَّ أو التجاريَّ المناسب ، تاركاً الأمور تجري في غير صالح المسلمين . وهذا يدفعنا إلى دراسة الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي آنذاك ، والوقوف على طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين قواه السياسية التي كان من المفترض فيها أن تكون مُؤَثِّرةً في الأحداث بشكلٍ مباشر أو غير مباشر .

* * *

كانت الدولةُ المملوكيةُ هي المعنيَّ الأول بالغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية ، ومع ذلك فقد كانت علاقاتها مع العثمانيين والصفويين وكذلك أوضاعُها الداخليةُ غيرَ مُعِيْنَةٍ لها على القيام بالمجابهة الحاسمة للتحرك البرتغالي .

وإذا كان لا بدّ من الإشارة إلى الأوضاع الداخلية ، فإنه يمكننا القول إن الدولةَ المملوكيةَ كانت تعاني من حالة فوضى سياسية متمكّنة من صفوف الهرم القيادي المملوكي ، وليس أدلَّ على ذلك من كثرة الثورات المملوكية على السلطان "٣" والتي أدّتْ في وقتٍ من الأوقات إلى تناوبِ خمسةٍ من السلاطين على دست السلطنة في مدةٍ لا تزيدُ عن خمسِ سنواتٍ "٤" وكانت نهايةُ أكثرِهم الموتَ بالقتل . وقد تزامنَ ذلك في كثيرٍ من الأحيان

---

(١) في طلب التوابل سونيا هاو . ص. ٢٠٠ - ٢٠٢

(٢) انظر قرة العيون . ابن الديبع . ورقه ١٤٨ ب وقلادة النحر . بامخرمة . ورقة

(٣) دليل الخليج ، القسم التاريخي . ج .ج . لوريمر جـ ١ ص ١١ ، ١٢

(٤) انظر تفاصيل ذلك في وقائع الزهور لابن إياس جـ٣ ٤٥

مع حدوث الفتن والقلاقل "١" في بعض نواحي الدولة ، ولا شك أنّ ذلك قد أثّر على قدرة المماليك الحربية ، ويتجلى ذلك في اضطرارهم إلى تجهيز ثلاث حملات حربية في آن واحد ، كانت اثنتان منهما لإخماد الفتن السياسية في الكرك ومكه ، بينما كانت الثالثه فقط لمواجهة الخطر البرتغالي "٢" الذي أخذ يُطَوّق سواحل الهند الإسلامية بعنف ، وقد ازداد موقف المماليك صعوبةً بازدياد أعمال القرصنة في سواحل البحر الأبيض المتوسط المملوكية "٣" ولمّا كان المماليك لا يملكون الموارد التي تؤهلهم للاطلاع بالمهام الحربية التي فرضت عليهم ، فقد أدّى ذلك إلى ارتكابهم لكثيرٍ من المظالم الاجتماعية والاقتصادية "٤" التي باعدت بينهم وبين عامة الناس في مصر والشام ، وأضعفت مواقفهم السياسية الخارجية إلى حدٍّ كبير ، وخاصة مع البرتغاليين ، لأنه لم يكن بمقدور الدولة العثمانية الأكثر قوةً في ذلك الوقت أن تُمِدَّ المماليك بالعون الحربي المناسب نظراً لعدم وجود قواعد عثمانية بحرية في البحر الأحمر والخليج العربي "٥"

وإذا كانت هذه هي الظروف الداخليه فإن الدولة العثمانية كانت مشغولةً بالحروب في أوربا "٦" من جهة ومتحفزة لتوسيع نفوذها في آسيا الصغرى من جهه ثانية وخاصة لأن تلك المنطقه كانت نقطةَ غليانٍ سياسيّ نظراً لكثرةِ الانقسامات في أسرة الآق قويونلو من جهة ولحروبهم مع جيرانهم التركمان والأوزبك من جهة أخرى ، فضلاً عن توسط هذه المنطقة بين القوى الإسلاميه المتنافسة الثلاث ، العثمانيين والمماليك والصفويين ، وتَطَلُّع كلّ واحدةٍ من هذه القوى إلى تلك المنطقه برغبةٍ جامحةٍ في التوسع والامتداد "٧"

---

(١) انظر على سبيل المثال بدائع الزهور ، ابن اياس ج ٤ ص ٤٧ و مابعدها

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٨٢

(٣) انظر تفاصيل ذلك في المرجع السابق ج٤

(٤) انظر تفاصيل ذلك في بدائع الزهور لابن إياس ج٣ ، ٦ ج٤

(٥) دور العرب والفرس في مكافحه الاستعمار البرتغالي في كتاب حصاد الندوة العمانية ج٤ ص٦٤

(٦) المرجع السابق ج٤ صـ ٦٣ .

(٧) بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان . بكنجهام . س . حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٦ ص ١٩١

وقد كان ذلك منذراً بتطورات سياسية حاسمة سوف تحدث بعد ذلك بقليل . وقد كانت تلك المنافسة أحد العوامل المهمّة التي أضعفت الموقف الإسلامي العام أمام الغزو البرتغالي في أول مراحله .

وعندما وصل فاسكو دي جاما إلى سواحل الهند كانت الحركة الصفوية تستجمع صفوفها لإعلان دولتها في شمال فارس وكان الشاه إسماعيل لا يزال تحت رعاية كاركيا ميرزا حاكم لاهيجان (١) .

وهكذا فإن المنطقي أن تكون الدولة الصفوية منشغلةً بتثبيت أركان دولتها في الداخل وفي مواجهة عددٍ من المنافسين الأقوياء في أواسط آسيا ، ولا سيما أنها تختلف معهم في السياسة الخارجية وفي المذهب الديني أيضاً .

وإذا انتقلنا إلى السواحل الإسلامية أمكننا القول إنّ السواحل الإسلامية الشمالية كانت تعاني من أعمال القرصنة ومن الاعتداءات البرتغالية والأسبانية المتكررة بينما كانت السواحل الشرقية تعاني من التوزع بين إداراتٍ محليةٍ متنازعةٍ فيما بينها و لاتملك من القوة الحربية ما يؤهلها للقيام بدورٍ حربي حاسم ، وهذا ما سنعود إليه بمزيدٍ من التفاصيل .

أولاً :- العلاقات المملوكية العثمانية :- *

لم تنشأ بين المماليك والعثمانيين على مدى سنواتٍ طويلةٍ أيُّ خلافاتٍ سياسيةٍ أو عقائدية ولا حتى تنافس تجاري أو اقتصادي أو غيره. وقد ظل العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء لدار الإسلام "٢" ويرجع ذلك إلى أن العثمانيين كانوا يتّخذون طابع الجهاد ضد الصليبية في أوربا ولم يكونوا بَعْدُ قد استكملوا إطار دولتهم الامبراطورية أو تَهَيَّأوا للدخول في طور المنافسة حول زعامة العالم الإسلامي مع الدولة المملوكية التي تحتفظ بالخلافة

---

(١) تشكيل شاهنشاهي صفويه نظام الدين شيباني ص
(٢) الفتح العثماني للأقطار العربيه . نيقولاي إيفانوف . ص ٥٣
* انظر الخريطة رقم (١) . ص ٥٥٦

العباسية الاسمية وبحق الدفاع وحمايه الحرمين الشريفين وسائر المقدسات الإسلاميه .
ولكن التطورات السياسية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر حولت دفة العلاقات العثمانية المملوكية إلى العداء المستتر تارةً والسافر تارةً أخرى .
ويذهب كثيرٌ من الباحثين "١" إلى أنَّ فتحَ العثمانيين للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م كان نقطة التحول في العلاقات العثمانية المملوكية ، ولكننا نرى أن توتر العلاقات بين الدولتين يرجع إلى فترة لاحقة نسبياً وذلك حين ثبَّتَت الدولةُ العثمانيةُ أقدامها في أوربا وأخذت تتصرفُ كدولةٍ عُظمى ، ولعلّ ذلك تجلّى عندما تيقن العثمانيون أن ذلك لن يتم إلاّ ببسط نفوذهم على الأماكن المقدسة وتولي قيادة العالم الإسلامي . ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول بأنّ صفاء علاقات العثمانيين والماليك بعد فتح القسطنطينية لم يكن إلاّ أمراً ظاهريّاً لأنّ طبيعة الدولة العثمانية التوسعية سرعان ماجعلتها تتجه إلى محاولة التوسع في مناطق آسيا الصغرى ولا سيما أن معالم الحدود في منطقة طوروس لم تكن واضحة "٢" . ويمكن القول إنّ توتر العلاقات العثمانية المملوكية يرجع إلى عدةِ عواملَ تضافرت مع بعضها لتصعيد التوتر والتأزّم السياسي بين الطرفين إلى أن آلت الأمور إلى النزاع المسلح وأسقطت الدولة المملوكية تحت جحافل الجيش العثماني .

لعل أول الأسباب وأهمها هو انتهاج العثمانيين لسياسةٍ منافسةٍ للدّولة المملوكية على ريادة العالم الإسلامي "٣" وقد تجلّت هذه السياسة في اتخاذ الحكام العثمانيين للألقاب السلطانية ، وهو مايرمز إلى تحول العثمانيين إلى استراتيجيّة جديدة ، كان المقصود منها تأكيد الدور العالمي الجديد للعثمانيين "٤" بوصفهم قادة للعالم الإسلامي ، وقد تأكّد هذا الاتجاه عندما حاول العثمانيون كسوةَ الكعبةِ المشرفةِ "٥" وفي مظاهر التقرب الأخرى التي اتخذها العثمانيون تجاه الشعوب الإسلامية وخاصة في المناطق المقدسة وعلى سبيل

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص٥٢ . وتاريخ الصفويين . بديع جمعة وأحمد الخولي الدكتوران . ص ٧١ . والعصر المماليكي في مصر والشام سعيد عبد الفتاح عاشور الدكتور ص ٢٦٩

٢) بلاد الشام في علاقة المماليك والعثمانيين . تاج السرحان ، الدكتور ص ٤١٩

٣) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ٥٣

(٤) المرجع السابق ص ٥٤ والحروب العثمانيه الفارسية ، محمد عبد اللطيف هريدي . الدكتور . ص ٥٤

(٥) بدائع الزهور . جـ ٣

الشال فقد انتهز العثمانيون صلح ١٤٩١م لكسب التعاطف الإسلامي والحصول على تأييد الطبقات المسلمة وذلك عندما تنازلوا عن كيليكيا بما فيها أدنه وطرسوس على أن يكون دخلها وقفاً على الحرمين الشريفين في بلاد الحجاز (١) وقد أشعل أوارَ هذا الاتجاه اتخاذ العثمانيين لاستراتيجية توسعيّة تهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي كله "٢" وكانت هذه الاستراتيجية كأبرز ما يكون وضوحاً في سياسة العثمانيين تجاه الأراضي المشمولة بالحماية المملوكية في آسيا الصغرى "٣" وفي توسع العثمانيين وسيطرتهم على الجهات الغربية من البحر المتوسط التي كانت تتميز بالوجود النسبي للمماليك فيها (٤)، ومما أثار حفيظة المماليك أن تلك الاستراتيجية بدأت تحقق نجاحات متلاحقة في ظل الانهيار التدريجي لدولتهم وتعرضها لكثير من الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي لم تكن تهدأ إلا لتثور من جديد . ولعل أبرز علامات نجاح تلك الاستراتيجية يتجلّى في استنجاد المسلمين بالسلطان العثماني في أكثر من موقف وكان من أهم هذه المواقف استنجاد مسلمي الأندلس بالسلطان محمد الفاتح لإنقاذهم "٥" من الهجمة الصليبية القادمة من شمال شبه الجزيرة الإيبيرية .

وقد تعاقبَ عددٌ من العوامل الأخرى على مهمّة تأزيم العلاقات العثمانية المملوكية ومن بينها تنافس العثمانيين والمماليك حول إمارة دلغادر وظهور إمكانية تحالف بين القوى الإسلامية المعادية للعثمانيين والقوى الصليبية في الغرب ، ورغبة العثمانيين في بسط سيطرتهم على السواحل الإسلامية في شمال أفريقيا بعد تحريرها من الاستعمار الأوربي وعدم قدرة المماليك على حماية الأراضي والممالك الإسلامية القريبة منها أو تلك التي تطلب منها العون والنجدة "٦" ،

---

(١) الدولة ، العثمانية و البلاد العربية ساطع الحصرى . ص ٣٧ ، ٣٨

(٢) الفتح العثماني للبلاد العربية . محمد أنيس ، الدكتور ص ١٠٨

(٣) العصر المماليكي . ص ٢٧٠

(٤) بلاد الشام في علاقة المماليك و العثمانيين . تاج السر أحمد حران . د . ص ٤٢٠

(٥) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . عبد العزيز الشناوي جـ٢ ص ٩٠٢

(٦) الحروب العثمانية الفارسية . ص ٤٣ - ٤٨

ورغبة العثمانيين في حمايه ظهورهم من الغرب إذا اضطروا لحرب الصفويين ومايتيحه لهم ذلك من تأمين خطوط الإمداد والتمويل عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط "١".

وهناك مظهر آخر من مظاهر العداء ، ومن أسبابه في ذات الوقت ، وهو قيام كل واحدة من الدولتين بحماية اللاجئين والفارين إليها من رجال الدولة الأخرى وكثيراً ماحصل هؤلاء الفارون على المساعدات السياسية والاقتصادية والحربية للعمل ضد حكوماتهم "٢" ، فقد فرَّ إلى العثمانيين حوالى سنه ٨٧٠هـ جانى بك حبيب ، وفى سنه ٨٧٩هـ فرّ أينال الحكيم . و أستمر العثمانيون فيما بعد ، وخاصة السلطان سليم على هذه السياسة ، حيث استقبل في عهده عدداً من المماليك اللاجئين وعلى رأسهم خوشقدم شاد الشون وأخيه "٣".

وقد اتّبع المماليك نفس السياسة فاستقبلوا كثيراً من الفارين من السلطان العثماني وكان مِن أخطر مَنْ استقبلهم المماليك الأمير جم أو جمجمه أخو السلطان بايزيد ومنافسه على السلطة فقد ساعد السلطان المملوكي قايتباى الأمير العثماني جم في حربه مع أخيه بايزيد في سنتي ١٤٨١ / ١٤٨٢ م ، وذلك قبلَ أنْ يُهزَم ويفرّ إلى مصر "٤" ، حيث استقبله المماليك هناك وأمدوه بعون جديدٍ فتوجّهَ إلى بلاد ابن قرمان المشمولة بالحمايه المملوكية وخاض من هناك ـ مرّةً أخرى ـ معركةً كبيرةً مع أخيه السلطان بايزيد ، ولكنّه هُزِمَ وفرَّ من ميدان المعركة "٥".

وتكرّر مثل هذا التدخل عندما تولى السلطان سليم دست السلطنه وقام السلطان المملوكي بإيواء الأمراء العثمانيين الفارّين من السلطه العثمانية "٦" وعلى رأسهم

---

(١) الحروب العثمانية الفارسية ، محمد عبد اللطيف ، د . ص ٥٤

(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ٥٥

(٣) بدائع الزهور ، ابن إياس . جـ ٣ ص ١١

(٤) المرجع السابق جـ٣ صـ ٩٨

(٥) العراك بين المماليك و العثمانيين الأتراك . محمد أحمد دهمان ص ٢٣٢ .

(٦) parry , op. cit, pp400-401

(٧) بدائع الزهور . جـ ٣ . ص ١٩٥

(٨) . الفتح العثماني للبلاد العربية . محمد أنيس د . ص ١٠٩ .

وَلَـدَي الأَمـير أحمد الذى كان قد لاذَ بنفسـه إلى البلاط الصفـوي .

ولعـل من المناسب الآن أن ندخل في تفاصيل العلاقات المملوكيـة العثمانيـة لـنرى كيف أثّرت هذه العلاقات على الصراع الإسـلامي البرتغالـي موضـوع البحـث .

تمثـّل أولُ اختبـار سافـر للتنافـس العثمانـي المملوكـي بفضيحـة دبلوماسيـة حدثت سنـة ٨٦٨هـ-١٤٦٣م عندما رفض السفير العثمانـي الانحنـاء للسلطـان المملوكـي في مصـر "١" . وبعدها اتخـذ التنافسُ شكلَ مناصـرةٍ قـوةٍ أو أخرى من القوى التركمانيةِ الواقعـةِ على الحـدود بيـن الدولتـين وخاصه إمارتى قرمـان ودلغادر "٢" ، ففي عام ٨٦٩ هـ-١٤٦٤م أدّى الصراع على السلطـة في قونية ، وقضيـةُ ميراث إماره قرمان إلى أوّلِ صـدامٍ سياسيٍ كبـير "٣" . ثم كان اغتيال حاكـم إماره دلغادر الأمـير سيف الديـن فى القاهـرةِ سنه ٨٧٠هـ ١٤٦٥م على عهد السلطان المملوكـي خوشقدم ، وما تبعه من تعيين شاه بداق واليـاً جديـداً للإمـارة ، واستيلاء شاه سـوار على السلطـة وما ترتـب عليـه من صـراع الأخويـن ، كـان ذلك أوّلَ مواجهـةٍ غير مباشـرةٍ بين المماليـك والعثمانيين،فقـد ناصرَ العثمانيون شاه سـوار حـتى تمكّـن من الاستيـلاء على السلطـة "٤" في حيـن اتخـذ المماليـك جانب شاه بداق وأخـذوا يشجّعـون أُمـراء كرمـان في نزاعهم مـع العثمانيـين "٥" وقد استمر هذا التوتـر نحـو سبـع سنوات قبـلَ أن يميل إلى التحسـن النسبـي ، فبعد ذلـك خاض المماليـك مع شاه سـوار أربعـةَ حروبٍ متعاقبـةٍ تكبّدوا فيهـا خسائر فادحـةً قبل أن يتمكنـوا من القضاء عليه . فتنته . ومالا شـك فيـه أنّ شاه سـوار ما كان ليصمـدَ أمام الحملات المملوكيـة طوال هذه الفترة لولا المساعدةُ العثمانيـةُ خاصةً وأنّ قبائـل بني رمضـان التركمانيّـة كانت على وفاق مـع المماليـك

---

(١) بدائع الزهور جـ ٣ و الفتح العثماني للاقطار العربية ص ٥٥

(٢) بلاد الشام في علاقة المماليك و العثمانيين ص ٤١٩

(٣) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ٥٥

(٤) النجوم الزاهرة . أبو الفدا . جـ ٧ ص ٧٣٧ .

(٥) بلاد الشام في علاقه المماليك و العثمانيين . ص ٤٢٠

(٦) بدائع الزهور . ابن اياس . جـ ٣ ص ٥١

وقد ساعدتهم في حربهم مع شاه سوار ، حيث هاجم بنو رمضان أعوان شاه سوار وانتزعوا منهم مدينة سيس "١" . وقد تزامن ذلك مع استيلاء العثمانيين على قونية وضمّهم لقرمان سنه ٨٧٤هـ-١٤٦٨م . وهكذا تحولت الدول والإمارات الفاصلة بين المماليك والعثمانيين ، كدولة الرمضانيين في كيليكيا (أسيا الصغرى) ودولة دلغادر في كبادوكيا (قيسارية) إلى ساحة رئيسيّة للصراع بين الدولتين حيث دعّمت كلّ منهما المناصرين لها وأمدتهم بالمال والسلاح وأحياناً بالقوات المسلحة "٢" أيضاً ويلاحظ الباحث أنّ العثمانيين كانوا ينظرون إلى منطقة القبائل التركمانية في طوروس هذه نظرةَ ريبةٍ وحذر لأنها كانت مصدر فوضى واضطراب ، وكثيراً ماشكّلت خطراً مُحْدِقاً بالدولة العثمانية التي بدأت تستقر وتتخذ دورها كامبراطورية كبرى "٣" والتى كان من الطبيعي لها في مثل هذه الظروف ـ أن تتطلّع للسيطرة على هذه المنطقة على أنها مفتاح بلاد الشام والطريق المؤدّي إلى قلب العالم الإسلامى الذي يتطلّع العثمانيون إلى ريادته بعين الشوق واللّهفة . ولما كانت تلك الإمارات تفصل بين وسط الأناضول وشمال الشام "٤" ، ولما كانت تلك المنطقة ذات موقع استراتيجى هام لأنها تسيطر على المنطقة المطلة على الفرات "٥" فإنّ من الطبيعي أن يتمسك بها المماليكُ أيضاً . وهكذا كانت تلك الإمارات منطقة ترقّب وتحفّز دائم بين العثمانيين والمماليك،وفي ظلّ هذه الظروف يمكن أن نتصور فترة الهدوء الحَذِر وحسن العلاقات التى سادت بين المماليك والعثمانيين خلال الفتره التى أعقبت فتنة شاه سوار وحتى تولي السلطان العثماني بايزيد الحكم سنه ٨٨٦هـ ١٤٨١م ومنذ ذلك الحين بدأت دولة المماليك تقلق على مكانتها كدولةٍ رائدةٍ للعالم الإسلامي "٦".

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٣ ص ٤١

(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ٥٥

(٣) V.J.Parry:The Ottoman Empire(1481-1520)in The New Cambridye modern History , 1,p399

(٤) تاريخ الدول الإسلامية . أحمد السيد سليمان ، جـ ٢ . ص ٤٢٩ .

(٥) بلاد الشام في علاقة المماليك و العثمانيين ص ٤١٩

(٦) الحروب العثمانية الفارسية، محمد عبد اللطيف هريدي ، د . ص ٣٧ .

بدأت العلاقات العثمانية المملوكية تتطور نحو الأسوأ منذ سنه ٨٨٦هـ ـ ١٤٨١م، بعد أن تُوفِّيَ السلطان محمد الفاتح حين بدأ المماليك في مناصرة الأمير العثماني جم في حربه مع أخيه السلطان بايزيد سنه ١٤٨١ ـ ١٤٨٢م تلك الحرب التي انتهت بهزيمة جم "١" وفراره إلى القاهرة حيث استقبله المماليك "٢" وكان ذلك بمثابة مواجهة مستترة أدّت إلى أول حرب حقيقية بين الطرفين، وقد تجمّع عددٌ من العوامل لإشعال تلك الحرب، ففي هذه الأثناء شك العثمانيون أن المماليك كانوا يُحَرِّضون القبائلَ التركمانيّةَ لإحداث الفوضى في إقليم كرمان، وأن قوافل الحج العثمانية أصبحت غير آمنه بسبب قُطّاع الطرق الذين كانوا يتعرضون لها عند مضائق كيليكيا "٣". وقد أشيع بين الناس أنّ سبب الفتنة يرجع إلى أن بعض ملوك الهند كان قد أرسل إلى السلطان العثماني هديةً حافلةً على يد بعض تجار الهند ولكنّ والي جده المملوكي تحفّظ عليها وأحضرها للسلطان المملوكي "٤".

يضاف إلى ذلك لجوء علي دولات إلى السلطان العثماني بايزيد ونجاحه في إيغار صدره على المماليك "٥". ويخيّل للباحث أن تلك الحرب كانت ستنشب على أي حال وفي كل الظروف طالما أنّ العثمانيين كانوا يتبنّون سياسة التوسع في شرق الأناضول ومناطق آسيا الصغرى، وطالما كانوا يُكِنّون عداءً مستحكماً ضد سلطان المماليك في مصر "٦".

* بدأت الحرب العثمانية المملوكية الأولى سنه ٨٨٩ هـ ـ ١٤٨٥م على جبهتين، فقد هاجمت الجيوشُ الدلغادريةُ ـ مُعَزَّزَةً بعدد كبير من الجنود العثمانيين ـ ملطيةَ وحلب، وألحقتْ بالقوات المملوكية المصرية والحلبية هزيمةً منكرةً في ملطية ولكنها سرعان ما انهزمت أمام الحشود المملوكية المتزايدة، وغَنِمَ المماليكُ من الجيش المنهزم غنائم كثيرة قبل أن يعودوا بالأعلام العثمانية مُنَكَّسةً إلى حلب "٧". وفي نفس الوقت كان كراغوز باشا حاكم كرمان قد

---

(١) parry, op. cit, pp: 400-1

(٢) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٣ ص ١٨٣ .

(٣) بلاد الشام في علاقه المماليك و العثمانيين . ص ٤٢١

(٤) بدائع الزهور . جـ ٣ . ص ٢١٥

(٥) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة

(٦) المرجع السابق جـ٣ صـ ٢١١

(٧) المرجع السابق جـ٣ صـ ٢١٠ ـ ٢١١

هاجم كيليكيا واستولى على أدنة وطرسوس ٨٨٩هـ ١٤٨٥م.وظلت هذه المنطقة محل نزاع بين الطرفين لعدة سنوات كان فيهما الأمير الدلغادري يقف في صف العثمانيين في الوقت الذي جنّدَ فيه المماليك بعض القبائل التركمانية وخاصة بني رمضان ، وآلت الأمور إلى أن كوّن المماليك حملةً شاميّةً ضخمةً سنة ٨٩٢هـ ١٤٨٨م من دمشق وطرابلس وحلب وقوات ابن رمضان استطاعت أن تحسم النزاع نهائيّاً حول كيليكيا لصالح المماليك "١" وترتّب على ذلك أن قوي أمرُ المماليك وتحوّل علي دولات للتبعية المملوكية من جديد "٢". وهكذا فكّر المماليك في إحراز نصرٍ سياسي كبير فأرسلوا سفيرًا إلى البلاط العثماني مصحوبًا بهديّةٍ حافلةٍ قدرت بنحو عشرة آلاف دينار وبتقليد من الخليفة العباسي يعترف فيه بسلطنه السلطان العثماني على بلاد الروم وسائر مايفتحه اللهُ على يديه من البلاد الكفريّة ، وقرّنَ الخليفة العباسيُّ تقليده هذا برسالةٍ تحثّ العثمانيين على إخماد الفتنه الناشبة بينهم وبين المماليك "٣" ويتضح من هذه الخطوة أنّ المماليك إنما كانوا يهدفون إلى عدة مكاسب منها إنهاء الأزمة السياسية بينهم وبين العثمانيين ، وتأكيد زعاماتهم للعالم الإسلامي ، وإبعاد العثمانيين عن منافساتهم على تلك الزعامة ، وأخيراً توجيه العصا العثمانيةِ المحاربةِ إلى بلاد أوربا بدلاً من شرق الأناضول وبلاد آسيا الصغرى .

كان طبيعياً ألّا يقبل العثمانيون هذا العرض "٤". وهكذا استمرت الحرب بين الطرفين من سنه ٨٩٠ هـ-١٤٨٦م إلى سنه ٨٩٦هـ ١٤٩٢م . وقد بدأ العثمانيون هجومهم هذه المره بمهاجمة قلعه كولك التي سلّمها حاكمها بالأمان تحتَ وطأةِ القوةِ العثمانيةِ الضخمة التي استولت على أطراف الدولة المملوكية في بلاد الشام ، وعندئذ استنجد نائب حلب بالسلطان المملوكي في مصر فجهّز حملةً استطاعت أن تردَّ

---

(١) بلاد الشام في علاقة المماليك و العثمانيين . ص ٤٢٢

(٢) المرجع السابق ، نفس الجزء و الصفحة

(٣) بدائع الزهور ، ابن إياس ج ٣ ص ٢١٣ - ٢١٥

(٤) وقد ذكر ابن أياس أن السفير المملوكي لم يستقبل استقبالا وديا وأنه عاد مؤكدا للسلطان المملوكي النوايا العدوانية لدى العثمانيين . انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٢٢١ .

العثمانيين على أعقابهم وأن تسترد ماسلبوه من أراضٍ مملوكية ، بعد أن قتلوا من جنود هم نحواً من أربعين ألفاً واستولوا على كثيرٍ من أسلحتهم وما كان في حوزتهم من الحاجيات والغنائم "١" . وهنا حاول المماليك تهدئة الموقف مرّةً أخرى إذ قام السلطان المملوكي سنه ٨٩٢هـ ١٤٨٨م بفكّ أسرى العثمانيين وأمَرَ بتجهيزهم استعداداً للعودة إلى بلادهم ، وكان المماليك يأملون أن تؤدي هذه الخطوة إلى حدوث الصلح بين الطرفين "٢" ، ولكن ذلك لم يحدث بل ماحدث هو عكسه ، إذ استمرت الحشود العثمانيةُ بضواحي كولك كما كانت سنه ٨٩١هـ ١٤٨٩م وأتبعها العثمانيون بخطوةٍ عدائيةٍ أخرى هي استقبالهم لشاه بضاع الذي كان مسجوناً بقلعة حلب وقاموا بدعمِهِ سياسياً وحربياً حتى تمكن من مهاجمه إمارة دلغادر ومحاربة أخيه علي دولات وأسر اثنين من أولاده سنه ٨٩٤هـ ١٤٩٢م . ويضاف إلى ذلك أن العثمانيين هاجموا الأراضي المملوكيّة مرّةً أخرى سنه ٨٩٣هـ "٣" ١٤٩١م وأنهم احتلوا قلعة أياس ووصلوا إلى أدنة حيث حاصرهم المماليك فيها واضطروهم إلى الجلاء بأمان بعد ثلاثه أشهر "٤". وقد دعم العثمانيون توجههم العسكري هذا بتجهيز حملة بحرية عثمانية في عدّةِ مراكب استطاعت أن تصل إلى باب الملك بقصد قطع الطريق على الجيش المصري ولكنها مُنِيَتْ بالفشل وغرق معظم مراكبها. "٥" ولعل هذين الأمرين هما اللذان أكدا أن المعركة الحاسمة بين الطرفين لم يحنْ وقتُها بعد، خاصة أن حملة العثمانيين البحرية الفاشلة قد أعْقَبَتْ بهزيمةٍ منكرةٍ للجيوش العثمانيةِ في معركةٍ بريّةٍ غنمَ فيها المماليك الكثير من الخيل والسلاح والعتاد "٦".

وهكذا بدأ العثمانيون اللجوء إلى سياسة التودد الظاهري التي حاول المماليك إقامتها قبل ذلك مرتين . وبناءً على ذلك نجدهم يتخلّون عن شاه بضاع بل يُسيؤون معاملته حتى اضطروه سنة ٨٩٥هـ إلى الهروب واللجوء إلى عدوّه السلطان المملوكي الذي استقبلهُ وأكرَمَهُ بعد أنْ عَفَا عنه "٧" . ويبدو للباحث أنّ الخطوةَ المملوكيةَ

---

(١) بدائع الزهور، ابن إياس ج ٣ ٢٢٦
(٢) المرجع السابق ج٣ ص ٢٢٧
(٣) المرجع السابق ج٣ ص ٢٦٨
(٤) المرجع السابق ج٣ ص ٢٥٦ _ ٢٥٧
(٥) المرجع السابق ج٣ ص ٢٥٤ _ ٢٥٥
(٦) المرجع السابق ج٣ ص ٢٥٦
(٧) المرجع السابق ج٣ ص ٢٦٨

كانت بمثابةِ تشجيع للعثمانيين حتى يستمروا في طريقهم السلمي ٠

كان العثمانيون في ذلك الوقت ـ يميلون إلى مهادنةِ المماليك ليتفرغوا لحروبهم في المجر "١" وخاصة بعد أن عجزوا عن حسم المعركةِ الحدوديّةِ مع المماليك رغم استيلائهم على عددٍ من القلاع والحصون وكان للمماليك نفس الرغبة نتيجةً لظروفهم "٢" السياسية والاقتصادية الحرجة على الصعيد الداخلي ٠ ومن هنا عرض العثمانيون الصلح على المماليك ولكنهم رفضوا ذلك الصلح قبل أن يعيد العثمانيون القلاع المملوكية التي استولوا عليها "٣" ، وعندئذ لم يجد العثمانيون بُدّاً من الاستجابةِ للمطالب المملوكية فأعادوا مفاتيح القلاع التي استولوا عليها "٤" واعترفوا للمماليك بالسيادة على كيليكيا على أن يكون دخلها وكذلك دخل أدنه وطرسوس وقفاً على الحرمين الشريفين "٥" ٠ وباتفاق سنه ٨٩٦هـ ١٤٩١م هذا استطاع المماليك أن يستردوا مافُقِدَ من أراضيهم وأن يُؤَمِّنوا حدودهم في حين اكتفى العثمانيون باكتسابِ مزيدٍ من الشعبية الإسلامية وذلك باشتراطهم وقف ريع كيليكيا على الحرمين الشريفين ، وهم إنما يهدفون بذلك إلى تدعيم مركزهم وتعزيز خطتهم المهادنة إلى نقل لواء ريادة العالم الإسلامي إلى البلاط العثماني ٠ ومن هنا يمكن القول إن صلح ٨٨٦هـ ١٤٩١م استطاع أن يُحِلَّ السلام الظاهري بين الدولتين في حين ظل الصراع مستمراً دون انقطاع ، خاصة أن العثمانيين قد استطاعوا خلال فترة الهدنة أن يكسبوا مزيداً من التعاطف الإسلامي من جهة وأن يدعّموا طاقاتهم العسكرية من جهة ثانية ،وهما الأمران اللذان خَلَقَا قلقاً استثنائياً لدى البلاط المملوكي في مصر "٦"

---

(١) Parry:pp 401 (2) Ibid , p ,400

(٣) بدائع الزهور ، ابن إياس ج ٣ ص ٢٨٢

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٥) الدولة العثمانية و البلاد العربية . ساطع الحصري . ص ٣٧ ، ٣٨ Parry:pp401

(٦) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف ص ٥٦

ومهما يكن من أمر ذلك الصلح فإن العلاقات العثمانية المملوكية قد استمرت منذ ذلك الحين تنهج منهجاً ظاهريَّ الود في الغالب ، لا تكاد تتخلله الأحداث الصدامية أو الأعمال العدوانية إلّا نادرًا كما حدث سنة ٩٠٣هـ ١٤٩٨م من مهاجمة العثمانيين لبعض أراضي الدولة المملوكية وتدخلهم في شئون الشام الداخلية "١".
واستمر تبادل السفراء بين الجانبين بشكل شبه منتظم حتى سنه ٩١٨هـ ١٥١٢م حين فرَّ الأمير العثماني أحمد بك بن بايزيد إلى الصفويين في حين فرّ وَلَدَاه سليمان وعلاء الدين إلى المماليك في مصر . فبالرغم من أن الغوري لم يرحب كثيرًا باستقبال الأمراء العثمانيين الفارّين إلّا أن مجرد استقبالهم كان كافياً لأن يعتبره السلطان سليم عملاً عدوانياً من جانب المماليك "٢"، ولا بد أنْ يُرَدَّ عليه بموقفٍ سياسيٍّ واقتصاديٍ حازم .

ومن هنا بدأت دفّة العلاقات العثمانية والمملوكية تتحول سريعاً وتتجه حتماً إلى الصدام المسلح ، إذ نجد السلطان العثماني سليم الأول يردّ على الموقف المملوكي بإغلاق أسواق الرقيق في وجه المماليك وهو مايعني توجيه ضربةٍ قاصمة للعسكريةِ المملوكيةِ التي تستمد رجالها من أسواق العبيد "٣". ويبدو أن السلطان سليم المتعطش للتوسع والفتح لم يقنع بذلك الإجراء فأخذ يتعلل الأسباب التي تؤيده في مهاجمة المماليك ، فاحتجّ بأنهم سمحوا لسفير الصفويين بالمرور عبر الأراضي السورية أثناء محاولة الصفويين للتحالف مع البندقية "٤" ، وتعلل أيضا برفض المماليك للتعاون معهم ضد الصفويين منذ سنه ٩٠٧هـ ١٥٠٢م "٥". وبناءً على ذلك سعى لدى العلماء حتى استصدر ثلاث فتاوى تقول بأنّ المماليك خانوا الإسلام بتعاونهم مع الكفار وأعلن مفتي اسطنبول الأكبر أن من يساعد أعداء الله هو عدوٌ لله أيضاً "٦". وهكذا تحولتْ مسأله النزاع مع

---

(١) بدائع الزهور ، ابن إياس ج ص ١١ ٤١ .

(٢) العراك بين المماليك و العثمانيين الأتراك . محمد دهمان ص ٢٢٩

(٣) الفتح العثماني للبلاد العربية . محمد أنيس . د . ص ١٠٩ ، ١١٠

(٤) الحروب العثمانية الفارسية . محمد هريدي . د . ص ٤٥

(٥) وتذهب بعض المراجع إلى أبعد من ذلك إذ تقول بأن السلطان الغورى قد عرض على الصفويين التعاون معهم للقيام بعمل حربي ضد العثمانيين راجع العراك بين المماليك و العثمانيين الأتراك . ص ٢٣١

(٦) الخليفة و السلطان . بارنولد . نقلاً عن الفتح العثماني للأقطار العربية ص ٦٠

المتطرفين الشيعة إلى حجر عثرة بين الدولتين السنيتين ، وقد كانت هذه المسألة هي القشة التي قصمت ظهر البعير في النزاعات العثمانية المملوكية "١" فما أن فرغ السلطان سليم من حربه مع الصفويين في جالديران سنه ٩٢٠هـ ١٥١٤م حتى أستولى في طريق عودته على إمارة دلغادر المشمولة بالعناية المملوكية "٢" وما لبث قليلاً حتى اجتمعت حشوده على حدود الشام حيث وقعت بينه وبين المماليك وقعة فاصلة في مرج دابق سنه ٩٢٢هـ ١٥١٦م ، أُتبعت بوقعه أخرى أشد خطراً في الريدانية سنه ٩٢٢هـ ١٥١٧م وقد انتصر فيهما العثمانيون انتصاراً ساحقاً آلت بعده شمس الدولة المملوكية كلها إلى الزوال الكامل .

ومن تتبع سير العلاقات العثمانية المملوكية يتضح لنا أنه كان من المتعذر على المماليك أن يقوموا بعمل عسكري حاسم ضد المحاولات البرتغالية الأولى الهادفة إلى السيطره على المراكز التجارية الإسلامية في سواحل الهند وشرق أفريقيا ، وإن كان من الإنصاف أن نسجّل أن التحسن النسبي في العلاقات العثمانية المملوكية فيما بين سنتي ٨٨٦هـ و ٩١٨هـ ـ ١٤٩١م و ١٥١٢م ، قد أتاح للمماليك أن يقوموا ببعض الأعمال الحربية غير الحاسمة تجاه الغزو البرتغالي "٣" ولولا ظروف المماليك الداخلية وما تميزت به علاقاتهم مع المسلمين في المياه الشرقيه لأمكن لهم أن يتخذوا سياسةً أكثر إيجابية و حسم في صراع قُدِّرَ له بسبب ذلك أن يستمرّ لأكثر من قرنين من الزمان . ولا بد أن نسجل للعثمانيين هنا أنهم تناسوا خلافاتهم مع المماليك ـ ولو موقتاً ـ وقاموا بإمدادهم بكثير من الإمدادات الحربية وما تتطلبه من خبرات عسكرية لم تكن متوفرةً لدى المماليك في ذلك الحين ، ومن ذلك ما أرسله السلطان سليم سنة ٩١٦هـ ١٥١٠م من مراكب حربية محملة بالعدة والعتاد . وكان من بين هذه العده نحو ثلاثمائة مدفع وثلاثين ألف سهم وأربعين قنطاراً من البارود وألفي مقداف من الخشب إلى غير ذلك من " نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب وبراسي حديد وغير ذلك مما تحتاجه المراكب "[٤] الحربية .

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ٥٧

(٢) المرجع السابق صـ ٦١

(٣) سوف يأتي تفصيل ذلك فيما بعد

(٤) بدائع الزهور، ابن إياس جـ ٤ . ص ٢٠١

العلاقات الصفوية مع الدول الإسلامية السنية في الأناضول وبلاد الشام ومصر :-

لعب توتّر العلاقات بين الدولة الصفوية وسائر القوى الإسلامية السنيّة سواء مع العثمانيين في غرب الأناضول أم مع مملكتي الآق قويونلو والأوزبك في شرقه وجنوبه أم مع المماليك في مصر ، لعب ذلك التوتر دوراً كبيراً في زعزعة الموقف الإسلامي تجاه الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية ، وقد كان ذلك التوتر من أكبر العوامل التي أضعفت الدفاع المملوكي ، ومن بعده الدفاع العثماني ، وخاصة أن ذلك التوتر كان قد دفع السلطان الصفوي الشاه إسماعيل ، لا إلى مقاومة التهديد البرتغالي لقلب العالم الإسلامي والرد على محاولاته الدائبة لهدم الاقتصاد التجاري الإسلامي عبر الخليج العربي والبحر الأحمر ، بل إلى عكس ذلك تماماً حيث لجأ الشاه إسماعيل -كما سيتضح فيما بعد- إلى التحالف مع أعدائه البرتغاليين لكي ينصروه على القوى الإسلامية الأخرى التي تنافسه في السيادة وتخالفه في المذهب الديني . ومن هنا كان لزاماً علينا أن نقف وقفةً سريعةً مع طبيعة العلاقات بين أنصار الإسلام السني وأنصار الإسلام الشيعي في أوائل القرن السادس عشر حيث كانت طلائع الغزو البرتغالي تتتابع في غير ما كللٍ ولا هوادة .

أولا : العلاقات الصفويه العثمانيه :-

تزامن قيام الدولة الصفوية سنه ١٥٠٢م مع قيام البرتغاليين بأول أعمالهم الحربية ، وكان قيام هذه الدولة محفوفاً بالمخاطر لعدةِ أسبابٍ منها أنّ هذه الدولة قد قامت على مذهب شيعي تحيط به القوى السنية من كل جانب ، وأن الشاه إسماعيل مؤسس هذه الدولة بدأ دولته مستخدماً استراتيجية التوسع على حساب الدول السنيّة المجاورة ، وعاملاً على نشر المذهب الشيعي قسراً في المناطق السنيّة التي يتم فتحها. يضاف إلى ذلك أن قيام تلك الدولة الشيعية قد تزامن مع وصول الدولة العثمانية إلى أوج مجدها وتطلعها إلى ريادة العالم الإسلامي من جهة وإلى التوسع في المناطق الآسيوية من جهة أخرى ، علاوةً على أن الدولة العثمانية قد أسلمت بلاطها إلى رجل محارب خَبِرَ مناطق الأناضول جيداً وكان على علم بأحوال دولها وإماراتها وما يحتمل فيها من تيارات دينية مخالفة لما عليه الدولة العثمانية في القسطنطينية .

بدأت العلاقات العثمانية الصفوية متخذةً طابع الود الظاهري ،

ولعل ذلك كان مجرد محاولات جس اختبار لكلا الطرفين من جهة ، ومحاولة لتهدئة الموقف مع الطرف الآخر من جهة ثانية ، وذلك حتى يتسنى لكل منهما أن يحقق أهدافه السياسية الخاصة . ولكن الأمور سرعان ما تصاعدت بشكل خطير نحو العداء السافر بعد أن اجتمعت مجموعة من العوامل التي جعلت الصراع بين القوتين أمرًا لا مناص منه .

وأول دوافع العداء ـ حتى قبل قيام الدولة الصفوية ـ يستند إلى الخلاف المذهبي ، فقد كان الصفويون يتخذون من الأناضول ميدانًا لنشر دعوتهم الشيعية ، وقد نشطت هذه الدعوة على عهد الشاه إسماعيل إلى الحد الذي دفع السلطان العثماني بايزيد إلى التفكير الجدي في الحد من نشاط الرحلات الصفوية إلى أردبيل "١" ، عاصمة الصفويين الروحية في ذلك الحين وكان الشاه إسماعيل يقصد من وراء تلك الرحلات أن يمدّ نفوذه في أراضي الدولة العثمانية ، وأن يخلق وجودًا لمذهبه الشيعي داخل حدود الدولة العثمانية السنيّة "٢" ، ومما زاد الوضع سوءًا أن الشاه إسماعيل كان قد أعلن ـ منذ اللحظة الأولى لقيام دولته ـ أن المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة ، وأنه فرض هذا المذهب على الأهالي فرضًا في الوقت الذي كان فيه معظم هؤلاء الأهالي على المذهب السني باستثناء بعض التجمعات الرئيسية في بعض المدن مثل كاشان وقم والري "٣" . وقد اتبع الشاه إسماعيل سياسة القسر الديني هذه مع كل المدن والبلدان السنيّة التي قام بفتحها وضمّها إلى دولته سواء من أراضي الأوزبك أو من ممتلكات الآق قويونلو ، وعلى سبيل المثال فقد كان حوالي ثلاثة أرباع سكان تبريز حين فَتَحَها إسماعيل يَتَّبِعُون المذهب السني ولا يكادون يعلمون عن المذهب الشيعي شيئًا ، ولكنّه أجبرهم على اعتناقه مُهَدِّدًا إياهم بأنه لن يترك معارضًا لمذهبه على قيد الحياة "٤" .

---

(١) منشآت سلاطين . فريدون جـ ١ ص ٣٣٨ . نقلاً عن الحروب العثمانية الفارسية ص

(٢) العراق بين المماليك و العثمانيين الأتراك . ص ٢٣١

(٣) تاريخ الصفويين و حضارتهم . بديع جمعة . د . و أحمد الخولي . د . ص ٥٥

(٤) عالم آرى صفوي . مجهول . ص ٥٥ - ٦٤

وهكذا كان الصفويون يقتلون كلّ من كان يرفض المذهب الشيعي ، لدرجة أن بعض المصادر تذكر أنّ ضحايا التعصب الصفوي في صفوف السنّة قد بلغوا أكثر من مليون إنسان "١" وكان من الطبيعي أن يُغير ذلك التعصب الدولة العثمانية التي كانت تتطلع إلى سيادة العالم الإسلامي وتسعى إلى كسب تأييد العالم الإسلامي السني، وهكذا أمر السلطان سليم بتعقب الشيعة في دولته وخاصة في مناطق آسيا الصغرى "٢" .

ويتصل بالتعصب الصفوي الشيعي ما كان يُدَبّره الصفويون من مؤامرات وفتن داخليّة ضد الدولة العثمانية، وما فتنةُ شاه قولي "عبد الشاه" التي استمرت نحو عامين ٩١٥ – ٩١٧هـ إلا نموذجاً لتلك الفتن "٣" وقد قوي أمر ذلك التمرد وكثر أتباعه إلى الحد الذي لم تقتصر فيه حركته على المناوأة السياسية بل تعدتها إلى أعمال السلب والنهب وقتل الرجال وسبي النساء حتى أتَوا على الأخضر واليابس "٤" في كثيرٍ من مناطق الحدود الشرقية للدولة العثمانية .

كانت الدولة الصفوية في البدء دولة داخليه لا يمكن لها الاتصال بأوربا إلا عن طريق الأناضول،أي عبر أراضي الدولة العثمانية التي كانت تقبض على مقاليد التجارة البرية بين أوربا والشرق "٥" في ذلك الوقت . وكان ذلك من أشد الضربات التي وجهت إلى الاقتصاد الصفوي . وما

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر الدولة الصفوية . احمد الخولي . د. ص ٥١

(٢) تاريخ أدبيات أيران إدوارد براون . جـ ٤ ص ٧٣

(٣) لمزيد من التفصيل عن هذه الفتنه انظر . الحروب العثمانية الفارسية . ص ٤٦ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق . ص ٤٥

(٥) المرجع السابق ص ٤٥

زاد الأمر سوءاً أنّ السلطان سليم أطبق الحصار الاقتصادي على التجارة الصفوية وذلك بإصداره مرسوماً يمنع الاتجار في البضائع الفارسية أو السماح بمرورها عبر أراضي الدولة العثمانية ، وبناءً على ذلك كانت تتم مصادرة كل البضائع الفارسية التي يتم ضبطها ويعاقب المُتَّجرون فيها بأحكام رادعة "١" .

ولعل الموقف الاقتصادى السابق هو مادفع الشاه إسماعيل إلى التفكير في التحالف مع الاعداء الأوربيين للدولة العثمانية من جهة ، وإلى التحالف مع المماليك في مصر من جهة ثانية لفتح خط الخليج التجاري . لقد حاول الشاه إسماعيل أن يعقد تحالفاً مع البنادقة ضد العثمانيين ، حيث قام بإرسال سفير صفوي إلى البندقية في شوال سنه ٩٠٦هـ ليعرض عليهم التحالف ضد بايزيد العثماني "٢" . ولم يكتفِ بذلك بل اتصل أيضاً بقانصوة الغوري في مصر ، وبعلي دولات حاكم إمارة دلغادر "٣" بهدف القيام بعمل مشترك للتصدى للخطر العثماني الذي يتهدد الطرفين ، وقد بين حاكم ديار بكر للسلطان العثماني بايزيد حقيقة الأطماع الصفوية ، وما كان بينهم وبين مملكه الآق قويونلو ، وكشف له عن تطلع الصفويين للتحالف مع البنادقة ، وأنهم بدأوا يهددون ديار بكر ومرعش "٤" وغيرها من التخوم العثمانية .

جذب العراق أنظار الشاه إسماعيل وذلك لظروفه السياسية وما يحيط به من أضطرابات ، وما تتميز به أرضه الزراعية الخصبة وموقعه التجاري الهام ، فضلاً عن أهميتهِ الدينيةِ كمركز شيعي له ارتباط بتراث الشيعة ومعتقداتهم "٥" ، ومن هنا قام باحتلاله سنة ١٥٠٨م وقد أدى احتلال الصفويين للعراق وما قاموا به من قبل حيث احتلوا كثيراً من أراضي الأوزبك وأراضي إمارات الآق قويونلو المنقسمة على نفسها ، قد أدى ذلك إلى احتكاك العثمانيين والصفويين وجهاً لوجهٍ في منطقةٍ حدوديةٍ واسعةٍ لم يكن قد تَمَّ البتُّ في أمرها بعد وهذا ما أنذر بالمواجهة الصفوية العثمانية القادمة دونَ أدنى شك . ويُضَافُ

---

(١) الحروب العثمانية الفارسية . ص ٥٥ عن Namik Kemal.A.G.E,A.C.S 4g 195,d3

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة . وقد نقل من Uzun Garsili,Ismail Kakk,

(٣) تاريخ الصفويين و حضارتهم . ص ٧٧ ، ٧٨

(٤) الحروب العثمانية الفارسية . ص

(٥) الفتح العثماني للبلاد العربية ، محمد أنيس . د . ص ١٠٥ ، ١٠٦

إلى تلك العوامل ما أقدم عليه الصفويون من إيواء الفارين من وجه السلطة العثمانية "١" وعلى رأسهم الأمير أحمد الذي خاض مع أخيه السلطان سليم منافسة شرسة على السلطة قبل أن يلجأ إلى الصفويين ويبدأ في ممارسة سياسته العدوانية من هناك .

وفي ظل العوامل السابقة كانت العلاقات العثمانية الصفوية ، منذ قيام الدولة الصفوية عند مطلع القرن السادس عشر ، علاقات تعتمد على عنصر القلق أو الحذر المصحوب بالترقب والانتظار لمتغيرات الأحداث السياسية وما تسفر عنه ، وذلك بالرغم مما تظاهر به الطرفان من النوايا الطيبة ، وقد استمرت هذه السياسة نحواً من عشر سنوات تقريباً قبل أن تنجرف العلاقات في تيار التوتر المتصاعد . وبناءً على هذه السياسة نجد السلطان العثماني بايزيد يبعث بسفارةٍ عثمانيةٍ سنه ٩١٤هـ ١٥٠٨م إلى البلاط الصفوي للتهنئة بفتح الصفويين للعراق وفارس ولإجراء المشاورات الثنائية حول قضية إقامة العلاقات الوديّة بين الجانبين "٢" . وقد أبدى العثمانيون حُسْنَ النوايا عندما سمح السلطان بايزيد لرعايا الصفويين بزيارة أردبيل مع أنه يعلم أن تلك الزيارات كانت ترمي إلى نشر المذهب الشيعي في الأراضي العثمانية "٣" . وكان واضحاً أن ذلك التصرف العثماني إنما يهدف إلى المحافظة على سياسة الود "٤" الحذر . ولكنّ الشاه إسماعيل لم يقابل سياسة التسامح هذه بمثلها بل استمر على تعصبه وبالغ في تعقبه للمسلمين السنّة مما اضطرهم إلى الفرار إلى داخل الأراضي العثمانية وعندئذ طلب بايزيد من الشاه إسماعيل أن يلتزم الحكمة في معامله أهل السنة أمواتاً وأحياء "٥" وقد مرّ معنا قبل قليل أنّ الشاه إسماعيل لم يستجب لتلك الدعوة واستمر في أذى قبائل الأوزبك والآق قويونلو السنّة .

كان العثمانيون يحرصون على مساندة دولة الآق قويونلو في حروبها مع الصفويين "٦" ، وذلك لاعتبارين هامين أولهما أن رعايا هذه الدولة كانوا من

---

(١) الفتح العثماني للبلاد العربية . محمد أنيس د . ص ١٠٦

(٢) تشكيل شاهنشاهي صفوية . نظام الدين شيباني . ص ١٠٤

(٣) الحروب العثمانية الفارسية ص .

(٤) تشكيل شاهنشاهي صفوية . ص ١٥٠

(٥) تاريخ الصفويين و حضارتهم . ص ٧٤

(٦) عالم آري صفوي . مجهول ص ٨٩

المسلمين السنّة ، والثاني لأن هذه الدولة ، مع أمارتي طرابزون وكرجستان المسيحيتين ، كانت تَفصِلُ بين العثمانيين والصفويين ، مُشَكِّلَةً خطّ الدفاع الأول أمام التهديد الصفوي .

ولما تمكن الصفويون من هزيمة إمارات الآق قويونلو أصبحت ممتلكاتهم محل تنافس شديد فيما بين الصفويين والعثمانيين . وقد استمر هذا التنافس طوال معظم عهد بايزيد ولكنه ظل مستتراً تحت رماد الاضطرابات الداخلية في كلا الدولتين وقد تبادل الجانبان في هذه الفترة عدداً من الرسائل التي تبطن من العداء أكثر مما تظهر من الود "١" .

وعندما هاجم الصفويون إمارة دلغادر . انتهكوا حرمة الأراضي العثمانية ، ومرّوا خلالها بجيوشهم . ويبدو أن هذا التصرف قد أزعج العثمانيين مما دفع الشاه إسماعيل إلى الاعتذار الرسمي وتأكيد حرص الدولة الصفوية على استمرار العلاقات الودّية بين الجانبين " ٢ " . ولكن هذا الاعتذار جاء متأخراً ، أذ انتهز الأمير سليم (والسلطان سليم الأول فيما بعد) حاكم طرابزون انتهاك الصفويين للحدود العثمانية وقام باختراق الحدود الإيرانية عدة مرات ، وقد وصل في مناوشاته هذه إلى أرزنجان وتمكن من أسر أخي الشاه إسماعيل نفسه . وتكشف الأحداث أن اختراق سليم الأول للحدود الصفوية كان بإيعاز من والده بايزيد ، إذ أنه عندما احتجّ الشاه إسماعيل لدى البلاط العثماني على هذه التعديات ، لم يستجب له بايزيد ، بل أساء استقبال السفارة الصفوية "٢" القادمة لهذا الغرض .

ولم يقبل الشاه إسماعيل هذه الإهانة ، فعمد إلى ردّها الصاع صاعين لسفير البلاط العثماني عندما قدم بعد ذلك قاصداً البلاط الصفوي .

وما أن آلت الدولة العثمانية إلى السلطان سليم سنة ٩١٧هـ ١٥١٢م حتى بدأ التوتر في التصاعد المستمر بسرعة ، فقد فرّ الأمير أحمد العثماني إلى البلاط الصفوي حيث استقبل استقبالاً حافلاً وقُدِّم له العون الذي عزز تمرده ضد أخيه ورفض تسليمه للسلطان سليم "٣" كما بادر الشاه إسماعيل أثناء تلك الفترة إلى تأييد الشيعة في تكه آيلي "٤" عندما تمردوا على الحاكم العثماني وقد مكنتهم المساعدات

(١) تاريخ الصفويين وحضارتهم . أحمد الخولي . د . بديع جمعة . د . ص ٧٣

(٢) الحروب العثمانية الفارسية ص .

(٢) تشكيل شاهنشاهي صفوية . نظام الدين شيباني . د . ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٥) تكه آيلي : منطقه داخل الحدود الشرقية للدولة العثمانية آنذاك

الصفوية من مهاجمة منطقة قرمان وسيواس ، وقتل الحاكم العثماني في منطقة الحدود الشرقية "١" . وقد ردّ العثمانيون على ذلك بانتهاك الحدود الصفوية واستغلوا انتهاك الصفويين وتعديهم على المسلمين السنة للقيام بعملية حاسمة ضد الشيعة في شرق الأناضول وفارس . وقد ساعد العثمانيون في هذا التوجه أنّ فتوحاتهم في غرب أوربا كادت أن تتوقف في ظل السياسة الجديدة التي انتهجها السلطان سليم والتي كان عمادها التوسع على حساب الشرق الإسلامي وتحقيق امبراطوريه الإسلام العثمانية .

وهكذا اندفع الطرفان إلى معركة جالديران سنه ٩٢١هـ ١٥١٤م تلك المعركة التي انتهت بانتصار العثمانيين وهزيمة الشاه إسماعيل وفراره إلى آذربيجان ، وقد استغل العثمانيون هذه الهزيمة فخاضوا سلسلةً من المعارك أحتلوا بفضلها منطقة ديار بكر وماردين وسائر مدن كردستان . وبناءً على ذلك أصبح العثمانيون والصفويون على حدودٍ متقابلة من بحيرة أروميه وأذربيجان وحتى ملطية عند أعالي الفرات "٢"

ويمكن أن نسجل على العلاقات العثمانية الصفوية في هذه الفترة جملة ملاحظات أولها أنّ الدولة العثمانية لم تقم بأي عمل مباشر لمواجهة الغزوة البرتغالية ، ولم تستغل هذه الغزوة لتوجيه الصفويين نحو السواحل الجنوبية لبلاد فارس ، ولم تحاول أيضا أن تقوم معهم بأي عمل إسلامي مشترك تاركةً الخلافات المذهبية تنحت مجراها في إطار النزاعات السياسية المتصاعدة في منطقة الغليان السياسي بشرق الأناضول .

ويبدو للباحث أنّ نتائج جالديران قد أثرت على الاستراتيجية الصفوية تجاه جنوب بلاد فارس وتجاه الغزو البرتغالي بوجهٍ عام ، وأن الهزيمة الصفوية في تلك المعركة كانت أحد العوامل التي دفعت الصفويين إلى مهادنة البرتغاليين ، بل إلى سعيهم وراء التحالف الاقتصادي والعسكري معهم لصدّ الخطر العثماني الذي كان يشكّل خطراً داهماً لكلا القوتين .

---

(١) تاريخ أدبيات إيران جـ٤ صـ ٧٢ وما بعدها

(٢) تاريخ الصفويين و حضارتهم . أحمد الخولي و بديع جمعة ص ٨٧

وليس آخر هذه الملاحظات ما يمكن تسجيله على السياسة العثمانية التي اتجهت مباشرة بعد نصر جالديران إلى مهاجمة إمارة دلغادر والتعدي على الحدود المملوكية في بلاد الشام . وهو الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى القول بأن معركة جالديران كانت ذات تأثير حاسم على مصير المعركة المرتقبة بين العثمانيين والمماليك "١".

ثانيا : العلاقات الصفوية المملوكية :-

مرّ بنا من قبل أنّ قيام الدولة الصفوية قد تزامن مع وصول الطلائع الأولى للبرتغاليين إلى السواحل الإسلامية في شرق أفريقيا والهند ، وإذا كان لذلك أثره فيما يخصّ القدرة القتالية الصفوية كدولةٍ ناشئةٍ أمامها كثيرٌ من المهام الحربية داخلياً وخارجياً وخاصةً على الجبهة الشمالية فإنّ لطبيعة العلاقات التي نشأت بين المماليك والصفويين دورٌ بالغ في تأثر القدرة القتالية المملوكية في مواجهة القوى المسيحية المعادية وخاصة أعمال القرصنة الصليبية في البحر الأبيض المتوسط ، وحملات الغزو البرتغالي على السواحل الإسلامية الشرقية .

وقفت الدولة الصفوية على شفير الحرب مع المماليك منذ عام ١٥٠٢م "٢" .

ولم يكن هناك أية دلائل على حسن النوايا بين الجانبين ، وقد هاجم الصفويون أطراف الدولة المملوكية بدءاً من عام ٩٠٨هـ حيث ترك ذلك أسوأ الأثر لدى السلطان المملوكي في مصر "٣" . وتكرر العدوان الصفوي مرّةً أخرى سنه ٩١٣هـ عندما هاجم الصفويون الحدود المملوكية وتوغلوا داخل أراضيها حتى وصلت طلائع جيشهم إلى ملطية واجتازت مياه الفرات "٤" . وكان ذلك سبباً لأن يشتبك الصفويون مع علاء الدولة أمير دلغادر حيث ألحق بهم هزيمةً نكراء واضطرهم بعدها إلى الانسحاب داخل حدودهم "٥" . ولم يجد المماليك بدّاً هذه المرّة من أخذ الأهبه والحذر تجاه الصفويين فصدرت الأوامر إلى نائب حلب أن يكون يَقِظاً في حراسة الحدود المملوكية الشاميّة

---

(١) الفتح العثماني للاقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص٦٠
(٢) المرجع السابق . ص ٣٥
(٣) بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٩
(٤) المرجع السابق . ص ١١٨
(٥) المرجع السابق . جـ ٤ ص ١١٩

لحين وصول المدد العسكري من مصر "١" . ويبدو أن هذه التعديات كانت بسبب تحالف علاء الدولة الدلغادري مع السلطان مراد ابن ألوندميرزا حاكم الآق قويونلو "٢" . ومهما يكن من أمر فقد أرسل الشاه إسماعيل رسوله معتذراً ومؤكداً أن هذه التعديات لم تكن بإذنه ولا بعلمه "٣" . وقد كان ذلك سبباً في تحسن العلاقات نسبياً بين الجانبين ، ويبدو للباحث أن تحسن العلاقات يرجع – من جانب آخر – إلى عدم قدرة المماليك ، بسبب ظروفهم الداخلية على القيام بعمل حربي مضاد وحاسم .

ومهما يكن من أمر فقد أفاد الصفويون من هذا التحسن في حروبهم مع الآق قويونلو ، حيث استطاعوا أن يجعلوا المماليك على الحياد مع أنهم يعتبرون دولة الآق قويونلو خط الدفاع الأول ضد الصفويين "٤" في سنة ٩١٤هـ حضر رسول مراد خان بن يعقوب إلى البلاط المملوكي ليبين خطورة التعديات الصفوية ، وخاصة بعد أن هاجم الصفويون دولة الآق قويونلو واضطروا حاكمها إلى الفرار داخل الأراضي المملوكية . وطلب السفير من السلطان أن يمده بالعساكر ليتمكن السلطان مراد من دحر الصفويين . ولكن السلطان المملوكي لم يستجب لذلك الطلب ولم يقدم للآق قويونلو أيّ عون "٥" .

كان التحسن النسبي في العلاقات لا يعدو كونه هدنةً موقتةً بين عدوين لدودين بينهما صراعٌ أبديٌّ، وهذا ما تؤكده عودة الشاه إسماعيل سنة ٩١٦هـ إلى محاربة المماليك حيث هاجم جنوده أطرافَ البيرة وسلبوا بعض

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ١٢١

(٢) عالم آرى صفوى ص ١١٣

(٣) بدائع الزهور . جـ ٤ ص ١٢٣

(٤) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٠٧

(٥) المرجع السابق جـ٤ ص ١٤٣ – ١٤٦

الغنائم "١" . وتعزز هذا السلوك العدائي عندما حاول الشاه إسماعيل أن يعقد تحالفاً مع بعض ملوك الفرنجة على أن يهاجموا المماليك من البحر ، ويقوم هو بمهاجمتهم من البر "٢". ومما زاد الأمر سوءاً أن أمر هذه المحاولات قد انكشف عندما أمسك حاكم البيرة من قِبَل المماليك رسول الصفويين واطلع على محتوى رسالتهم "٣" ومن هذا القبيل ماجرى بين الشاه إسماعيل والسفير البرتغالي ، حيث كشف الأول عن نواياه ومخططاته للاستيلاء على مكة وأجتياح الأراضي العربية الخاضعة لسلطة المماليك في مصر (٤).

* أدى انتصار الصفويين على الأوزبك إلى توتر العلاقات العثمانية الصفوية إلى حد كبير ، وقد تأثر السلطان المملوكي بهذا النصر "٥" تأثراً كبيراً لاحتمال أن يؤدي ذلك إلى نشوب حرب مسلحة بين الجانبين "٦" لم يكن المماليك على استعداد لخوض غمارها . وقد أكد ابن إياس هذا الرأى عندما قال : " وكان أزبك خان ضد الصوفي ، وكان مشغولاً بمحاربته عن ابن عثمان وسلطان مصر ، ولما أشيع قتل أزبك خان خشي السلطان (المملوكي) أمر الصوفي أن (لا) يزحف على البلاد " "٧".

وتأكدت شكوك السلطان المملوكي ، كما تأكَّدَ العداء بين الجانبين عندما وصل سفير صفوي إلى البلاط المملوكي في مصر في ربيع الأول سنه ٩١٧هـ "٨" وتجلى ذلك الموقف في عدة مظاهر منها أن المماليك استقبلوا السفير الصفوي استقبالاً حربياً قُصِدَ به استعراضُ القوى أكثر مما قُصِدَ به من إظهار التكريم

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ٤ ص ١٨٤

(٢) المرجع السابق جـ٤ص ١٩١

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحه

(٤) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ٣٥

George Stipling:The Ottoman Turks and The Arabs.p34

(٥) بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٠٧

(٦) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ٣٥

(٧) بدائع الزهور . جـ ٤ . ص ٢٠٧ .و(لا) زائدة

(٨) المرجع السابق جـ٤ ص ٢١٨ ــ ٢١٩

والاحترام ، فقد قابل السفيرَ الصفويَّ « الجمُّ الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء » "١". ومنها أن السلطان المملوكي نزل على غير عادته مع السفراء لمراقبة أثر العرض العسكري على السفير الصفوي عن بُعْد ، ولما فشل في ذلك ولم يتمكن من رؤية السفير احتال مرّةً أخرى على ذلك وحاول رؤية السفير خفيةً ، وإذا كان ابن إياس يعلق على ذلك بخفةِ السلطان "٢" فإن الأرجح أن نقول إن هذا الموقف إنّما يعبّر عن مدى تخوف السلطان وهلعه من الخطر الصفوي المرتقب ؛ ومن ذلك أيضاً أن السفير كان قد أحضر أيضاً رأس السلطان الأوزبكي أزبك خان "٣" وأنه كان يحمل معه رسالة تهديد خفيّ للمماليك "٤" وأخيراً فإن السلطان المملوكي منع السفير الصفوي من الاجتماع بالناس قاطبةً طوال مدّة إقامته في مصر "٥".

هاجم الصفويون سنة ٩١٨هـ الحدودَ المملوكيةَ مرّةً أخرى ، وعندما علم السلطان المملوكي بذلك غضبَ غضباً شديداً ، وقد أثّر ذلك على خططه الدفاعية تجاه أعمال القرصنة الصليبية في البحر المتوسط إذ ألغى سفره الذي كان مقرّراً للاسكندرية "٦" ، بهدف زيادة تحصينها لمواجهة الأخطار المحتملة وبعد ذلك بقليل كان بعض جنود الصفويين يتحبّثون ببعض نواحي سيس التابعة للسلطان المملوكي في مصر حيث قام حاكم سيس بمحاربتهم وقَتَلَ عشرةً منهم ، ثم أرسل رؤوسهم إلى مصر . "٧". وقد كانت هذه الواقعة بمثابة نذير بحرب وشيكة بين الطرفين . وتزايدت احتمالات الحرب عندما تبادل الطرفان الرسائل العدائية ذات " "الألفاظ اليابسة والكلام الغثّ" " . وكان ذلك إيذاناً بحدوث العداء السافر بين الجانبين "٨" ولكن تطوّر الأوضاع السياسيّة في شرق الأناضول قد أوقف المواجهة الحربية

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ٢١٩

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحه

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحه

(٤) المرجع السابق نفس الجزء صفحه ٢٢١

(٥) المرجع السابق نفس الجزء صفحه ٢٢٠

(٦) المرجع السابق نفس الجزء صفحه ٢٨٠

(٧) المرجع السابق جـ٤ صفحه ٢٦٢

(٨) المرجع السابق جـ٤ صفحه ٢٦٥ ـ ٢٧١

المحتملة ، ولكنه لم يوقف العداء الذي ظل قائماً إلى أن سقطت دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م ، وبناءً على هذا العداء نجد السلطان المملوكي يُسَرّ كثيراً لهزيمة الشاه إسماعيل أمام الأوزبك سنه ٩١٩هـ ١٥١٣م "١" وأنه يُسَرّ أكثر لهزيمته في جالديران سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤م أمام القوات العثمانية "٢" وذلك بالرغم من علمه أن هذه الهزيمة إنما تعني أن العثمانيين قد أوشكوا على الالتفات إليهم وهذا ما يؤكده قيام السلطان المملوكي بتعيين تجريدة كبيرة للتوجه إلى الحدود الشامية لمراقبة التطورات الحربيّة المحتملة بعد المعركة المذكورة "٣". إنّ المماليك لم يتخوفوا في ذلك الوقت من العثمانيين فقط ولكنهم كانوا يتخوّفون من المنتصر أيّاً كان عثمانياً أم صفوياً . ومن هنا يتأكد للباحث أنّ المماليك ماكانوا ليجرؤوا على القيام بعمل حربي كبير ضد البرتغاليين في ظل ظروف كهذه .

د) ممالك الأوزبك والآق قويونلو في تشكيل العلاقات بين المماليك والعثمانيين والصفويين

أبان الغزو البرتغالي :-

ليس من هدف هذا البحث أن يتتبّع حروب الصفويين مع الأوزبك أو مع الآق قويونلو ، ومن هنا فأن التعرض لها سوف يكون سريعًا وعلى قدر حاجةَ البحث الذي نحن بصدده الآن .

كانت قبائل الأوزبك تحكم في بلاد ماوراء النهر بينما كانت دولة الاق قويونلو تمتد فتشمل آذربيجان والعراق وكرمان وفارس وديار بكر وكردستان وأرمنستان . وكان الأهالي يتّبعونَ المذهب السنّيّ ، وقد اجتمعت لهذه المناطق في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري عدّة أوضاع سياسية متشابهة إلى حدٍّ ما .

استطاع حسن الطويل أن يجعل من دولة الآق قويونلو دولةً قويةً استطاعت أن تنافس كلاًّ من العثمانيين والمماليك في آن واحد ، ولذا فقد تذبذبت علاقته معهما فيما بين الودّ والعداء عدّة مرات .

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ .ص ٣١١

(٢) المرجع السابق جـ٤ ص ٣٩٣ـ٣٩٦ـ٣٩٨

(٣) المرجع السابق جـ٤ ص٣٨١

لقدهاجم حسن الطويل بعض النواحي الحلبية " " الشامية " " مثل كختا وكركر واستولى عليها ،وقام بتهديد شاه بضاع بن دلغادر سنه ٨٧٧هـ مما دفع السلطان المملوكي إلى توجيه حملة مصرية إلى بلاد الشام على وجه السرعة. (١)
ولم يقف أمر حسن الطويل عند هذا الحد ، بل نجده سنه ٨٧٨هـ يتطلع إلى منافسة المماليك على ريادة العالم الإسلامي ، فنجده يطمع في بسط نفوذه على الأراضي المقدسة في الحجاز ويطلب من أهل مكة والمدينة أن يخطبا باسم الملك العادل حسن الطويل وقد حاول أن يؤكد سلطته بإرسال كسوة للكعبة "٢" على عادة المماليك في ذلك الوقت . ولعل هذه الأطماع وحدها تكفي لأن يستمرَّ التوترُ قائماً بين الجانبين وإنْ شابتْهُ بعضُ مظاهرِ الصفاء في بعض الأحيان .

ولم تكن علاقات حسن الطويل سيئةً مع المماليك وحدَهم بل كانت سيئةً كذلك مع العثمانيين ، ويرجع ذلك إلى رغبة كلا الطرفين في السيطرة على إمارتي طرابزون وكردستان المسيحيتين ، ولذا كانت سيطرةُ العثمانيين على طرابزون إيذاناً ببداية الصراع بينهم وبين حسن الطويل ، وقد تصاعدت الأمور إلى أن نشبتْ حربٌ بين الطرفين عند أعالي الفرات سنه ٨٦٤هـ ١٤٦٠م وأُتْبِعَتْ بأخرى سنة ٨٧٧هـ ١٤٧٢م . وكانت نتيجه الحربين هزيمة حسن الطويل ودولة الآق قويونلو "٣" وقد استطاع العثمانيون أن يعقدوا بعد ذلك صلحاً مع الآق قويونلو على أن يكون حسن الطويل في عون العثمانيين في مواجهة التحركات الصفوية "٤" الخفية والتي كانت ترمي إلى إعلان الدولة .

ويبدو أن ذلك الصلح لم يكن سوى مظاهرة سياسية ترمي لكسب الوقت وإخفاء العداء لا غير ، إذ نجد أن حسن الطويل يسعى سنه ٨٧٧ هـ من جانبه لعقد تحالف فرنجي ـ آق قويونلي ضد العثمانيين والمماليك في وقت واحد . وقد كُشِفَ أمرُ تلك

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٣ . ص ٨٠ و ٨١

(٢) المرجع السابق . جـ ٣ ص ٩٠

(٣) تاريخ الصفويين وحضارتهم . بديع جمعة . د . وأحمد الخولي . د . ص ٧٢

(٤) المرجع السابق : نفس الصفحه

المحاولات مما دفع العثمانين والمماليك من جانبهم إلى التفكير في التحالف الجدي أو التعاون لمواجهة المؤامرات التي يحكيها حسن الطويل في الخفاء "١"، وقد كان ذلك سبباً كافياً لحدوث تقارب نسبي في العلاقات العثمانية المملوكية . وكان من نتيجة ذلك التحالف العثماني المملوكي أنْ طَرَد المماليكُ قواتَ حسن الطويل من ألبيرة وضواحيها في حين ألحق العثمانيون بقوته سنة ٨٧٨هـ هزيمةً نكراء.(٢)

وهكذا يمكن أن نتصور أن كلّاً من العثمانيين والمماليك كانوا يعنون أنفسهم بالتوسع على حساب مملكة الآق قويونلو عندما آل أمرها إلى الاضمحلال في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى . ومن هنا فإن من المتصور أيضا أن أي محاولة من الصفويين للتوسع على حساب هذه المملكة سوف يُقَابل بالرفض من كلا القوتين السابقتين وسوف يؤدي إلى مزيدٍ من التوتر في العلاقات، وهو الأمر الذي ترتب عليه انشغال جميع الأطراف، بنسب متفاوتة ، عن الالتفات للمحاولات البرتغالية موضوع هذا البحث . ومع ذلك فأن الشاه إسماعيل قد بادر عند إعلان دولته سنة ٩٠٧هـ ١٥٠٢م . إلى مهاجمه مملكه الآق قويونلو وكذلك فعل مع إمارات الأوزبك في بلاد ما وراء النهر .

كان الأوزبك عند مطالع القرن العاشر الهجري قد ثبّتوا أقدامهم في بلاد ماوراء النهر باحتلال بخارى وسمرقند وخرسان "٣"، وكرمان في شرق بلاد فارس "٤" وأدّى ذلك إلى وقوفهم وجهاً لوجه مع الصفويين الذين كانوا قد شكلوا دولتهم في غرب بلاد فارس . من هنا يمكن القول إن انقسام الشعبين إلى سنّة وشيعة ، واختلاف التوجيهات السياسية لكلٍّ من الدولتين قد ساهم في تصاعد التوتر بين الطرفين إلى أن وقعت بينهما سنة ٩١٦هـ ١٥١٠م معركة حربية في محمود آباد، قرب مرو، انتهت بهزيمة الأوزبك "٥" والتنكيل بهم "٦" وكان الشاه إسماعيل يرمي إلى إبعاد الأوزبك عن حَلْبَةِ الصراع بينه وبين العثمانيين

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ٣ . ص ٨٦ ، ٨٧

(٢) المرجع السابق نفس الجزء ص ٨٦ ـ ٩١

(٣) زندگاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ١ ص ١٦٠

(٤) تشكيل شهنشاهي صفوية . نظام الدين شيباني . د . ص ٢٩

(٥) المرجع السابق . ص ١٢٥

(٦) تاريخ أدبيات إيران : جـ٤ ص ٦٩

من جهة "١" وإلى التوسع على حساب دولتهم من جهة أخرى . ولكنه لم يستطعْ أن يحقق أياً من الأمريين ، إذ تمكن العثمانيون من هزيمته في جالديران سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤م كما سبق القول ، وكذلك ظل الأوزبك مصدر قلق مستمر لدولته ولفترة طويلة من الزمن .

كانت وفاة حسن الطويل سنه ٨٩٦هـ ١٤٩٠م بداية النهاية لدولة الآق قويونلو ، إذ كانت وفاته سبباً لصراعات طويلة بين أبناء البيت الحاكم بعضهم والبعض الآخر من جهه وبينهم وبين الطامعين المنافسين من جهة أخرى . فما أن توفي حسن الطويل حتى نشب صراع بين أبنائه الثلاثة ، مراد وحسن وبايسنقر ، أدى إلى تقسيم المملكة فيما بينهم لفترة قبل أن يتمكن بايسنقر من هزيمة أخوية وتوحيد المملكة ولكنه لم يهنأ بالعرش حتى وجد منافساً قوياً في انتظاره هو رستم ميرزا الذي تمكن من هزيمته وقتله والاستيلاء على عرشه في نهاية المطاف "٢" لكن هذا الأخير فقد عرشه أمام أحمد بن أوغولو محمد بنفس الطريقة ، والذي اغتيل في اضطراب داخلي أيضاً سنة ٩٠٣هـ ١٤٩٧م "٣" وفي هذا التاريخ انقسمت دولة الآق قويونلو إلى ثلاث إمارات إحداها في شيروان بقيادة مراد بن يعقوب والثانية في تبريز بقيادة ألوند ميرزا والثالثة في يزد بقيادة محمد ميرزا ."٤" وقد استمرت الأمور مضطربة بين هؤلاء الثلاثة حتى سنه ٩٠٨هـ "٥" . مما ساعد الشاه إسماعيل على التوسع على حسابهم في يسر وسهولة . فنجده يهاجم شيروان سنه ٩٠٦هـ ١٥٠١م وينكل بأهلها "٦"، وفي سنه ٩٠٧هـ ١٥٠٢م يستولي على تبريز ويجبر أهلها على اعتناق المذهب الشيعي "٧" وبعد ذلك بقليل نجده يستولي على شيراز وأبوقو وبعض نواحي العراق "٨" وقد أثبتت الأحداث أنّ كلاً

---

(١) تاريخ الصفويين وحضارتهم . بديع جمعة . د . وأحمد الخولي . د . ص ٦٨

(٢) لمزيد من التفصيل : راجع لب التواريخ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٨

(٤) تاريخ إيران . از مغول تا إفشارية . رضا بازوكي . ص ٢٦٤ وما بعدها

(٥) راجع لب التواريخ ص ٢٢١ . ٦) تشكيل شاهنشاهي صفوية ص ٨٥

(٧) تاريخ الصفويين وحضارتهم ص ٥٤

(٨) تشكيل شاهنشاهي صفوية . نظام الدين شيباني . ص ١٠١ ، ١٠٢

من المماليك والعثمانيين لم يكونوا بعيدين عن ميدان الصراع وأنهما كثيراً ما تدخّلا لصالح الأوزبك أو الآق قويونلو ضد الصفويين، ومن هنا كانت هزيمة الحلفاء أمراً له آثاره السلبية على تاريخ العلاقات العثمانية الصفوية المملوكية . وخاصة لأن هزيمة الآق قويونلو أتاحت لدولة الصفويين أن تمد نفوذها فتستولي على فارس والعراق وديار بكر وأذربيجان في وقت قصير وهو الأمر الذي دفع بها لأن تقف وجهاً لوجه مع أكبر قوتين إسلاميتين في ذلك الوقت وأن تشكل خطراً ماثلاً لكل منها في نفس الوقت .

وقبل أن ننهي هذا الفصل لا بدّ أن نسجّل ملاحظة جديدة فيما يتعلق بموقف القوى الإسلامية من طلائع الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية تلك هي أن انشغال الصفويين بالتوسع ، في شمال فارس وشرقه ، على حساب دولها الضعيفة ، قد صرفهم عن التطلع إلى الجنوب إلى فترة متأخرة مما أعطى للبرتغاليين فرصتهم الذهبية في تثبيت أقدامهم قبل أن تتمكن أي قوى إسلامية كبرى من الالتفات إلى تحركاتهم أو القيام بمحاصراتها . لقد كان أمام الصفويين فرصة كبرى لكي يسجلوا في التاريخ أروع صفحة بطولية في مواجهة البرتغاليين وذلك لقربهم للسواحل الإسلامية موضع التهديد من جهة ولأنه كان في إمكانهم أن يسيطروا على مقاليد الحركة التجارية ويقوموا بتحويلها عبر الخليج بالتعاون مع المماليك أو العثمانيين ، وهو الأمر الكفيل بإفشال كل المخططات البرتغالية . ولكن ذلك لم يحدث للأسف لأن الصفويين كانوا قد التفتوا بدلا من ذلك إلى التنافس مع العثمانيين والمماليك وأغراهم توسعهم على حساب الأوزبك والآق قويونلو عن القيام بواجب إسلامي كان كفيلاً بأن يكسبهم وجهاً جديداً ووجوداً إسلامياً واسعاً كان من أكبر أمنياتهم أن يحصلوا عليه .

الفصل الثاني

ضعف القوى السياسية في السواحل الإسلامية الشرقية وأثره على حركة الصراع

كانت العلاقات السياسية العدائية بين الدول الإسلامية الكبرى (المماليك والعثمانيون والصفويون) إحدى الفرص الكبرى التي هيأت للبرتغاليين الظروف السياسية الملائمة لكي يبسطوا نفوذهم على السواحل الإسلامية الشرقية على غفلة من الزمن ، وفي وقت قياسي ، ساعدهم في ذلك أن الدول الثلاث كانت مشغولة بظروفها وأهدافها السياسية الخاصة ، حيث كان المماليك يعانون من الاضطراب والفوضى وكثرة الفتن والثورات والاعتداءات الخارجية في حين كان العثمانيون يعانون في شرق الأناضول من تهديد الخطر الشيعي ، ومن جهة الغرب كانت هناك مهمات عسكرية كبرى لازال أمام العثمانيين شوط كبير قبل أن يتمكنوا من حسمها لصالحهم . بينما كانت الدولة الصفوية منشغلةً بتثبيت أركانها الداخلية من جهة ، وبأمور نشر الدعوة الشيعية على حساب القوى السنية في شرق فارس من جهة أخرى . وفي ظروف كهذه ، فإنه يمكن القول إن أيّاً من القوى الإسلامية الثلاث لم يكن لها وجود سياسي فعّال في مناطق السواحل الإسلامية الشرقية ، فلم تتعد سلطة المماليك الوجود الإسمي في بعض مناطق شرق أفريقيا واليمن وفي بعض الإمارات الإسلامية في الهند كسلطنة كجرات ، بينما لم يكن للصفويين أو العثمانيين أي نفوذ سياسي يذكر ، بل لم يكن لهم أية نفوذ على الإطلاق .

وهكذا كانت السواحل الإسلامية الشرقية إبان الغزو البرتغالي مستقلة أو شبه مستقلة عن السلطات الإسلامية المركزية ، كما كانت تعاني من الاضطراب

السياسي والتفكك والتنازع الحربي الذى كثيراً ما كان يخضع للأطماع الشخصية أو القبليّة أ والمذهبية والتي كثيراً ما كانت تزجّ بأتباعها في حروب طويلة لا هوادة فيها . *

* * * *

كانت العلاقات بين المماليك والممالك الإسلامية في الهند حسنة في الغالب ، وكان ملوك الهند المسلمون يقرّون بالتبعية الإسمية للمماليك ، وذلك لرغبتهم في الحصول على نوع من الشرعية التي كثيراً ما كانوا يحصلون عليها عن طريق السفارات والهدايا (١) . وقد أثبت ابن إياس هذا النمط من العلاقات فذكر أن ملك الهند (دلهي) الملك غياث الدين أرسل إلى البلاد المملوكي سنة ٨٧٦ هـ ، ١٤٧١ م سفيراً خاصاً وأرسل معه هدية للسلطان المملوكي قايتباي وأخرى مماثله للخليفة العباسي المستنجد بالله ، وطلب منهما تقليداً على بلاد الهند (٢) . وكان ملوك الإمارات الإسلامية يحرصون على التقليد المملوكي ليتخذوا منه ذريعة لكسب التأييد الشعبي الواسع من جهة ، وللوقوف في وجه المنافسين السياسيين والطامحين الحربيين من جهة أخرى ، فضلا عن أن مثل ذلك التقليد كان كفيلاً بضمان حياد السلطان المملوكي إنْ لم يكن مباركته لتحركات ملوك المقاطعات الموالية له . ولهذا ظلت علاقات الإمارات الإسلامية بالهند مع المماليك وديّة وقائمة على احترام السلطان المملوكي في مصر (٣) ، إلى أنْ آل أمر المماليك للزوال .

===============

١) مصر في عصر المماليك الجراكسة . إبراهيم طرخان . ص ١٤٣

٢) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ٣ . ص ٦٥

٣) مصر في عصر المماليك الجراكسة . ص ١٤٣

* انظر الخريطة رقم (٢) . ص٥٥ وفيها توزيع تقريبي للقوى الاسلامية شبه المستقلة في سواحل المحيط الهندى

كانت مملكة دلهي هي أكبر الممالك الإسلامية في الهند ، ولكنها لم تتمكن من بسط سيادتها على المقاطعات المجاورة بشكل دائم ، بل كثيرًا ما كانت تلك المقاطعات تستقل في فترات ضعف السلطة المركزية في دلهي ، فإذا قويت تلك السلطة عادت إلى بسط نفوذها على ما حولها من الإمارات من جديد .. وهكذا . ومنذ قدوم البرتغاليين إلى سواحل الهند كانت مملكة دلهي قد آلت لحكم التيموريين الذين كانوا قد أهلكوا الحرث والنسل وأتوا على الأخضر واليابس في تلك البلاد (١) وبعد سقوط دلهي كان الخطر المغولي يتهدد الإمارات الإسلامية الأخرى في الهند بشكل سافر . وهكذا يمكن القول إنه لم يكن في الهند عند قدوم البرتغاليين ، سلطة مركزية قوية تستطيع أن تدافع عن السواحل الإسلامية (٢) (٣) أو أن تحمي مصالحها الاقتصادية على أقل تقدير .

ويعنينا في هذا المقام بالذات أن نتعرف على سلطنة كجرات الإسلامية لأنها كانت من أهم الممالك الإسلامية المستهدفة في الهند من قبل البرتغاليين .

كانت كجرات في أوائل القرن الرابع عشر تابعةً إلى سلطنة دلهي ثم استقلت الأسرة البهمنية في كجرات سنة ١٣٤٥ م تقريبًا عن مملكة دلهي

===============

١) بلاد الهند في العصر الإسلامي . عصام الغقي ، د . ص ١٠١
٢) تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية . إحسان حقي . د . ص ٢٧ وما بعدها
(٣) المرجع السابق ص١١٥ .

واستطاعت أن تضم إليها الدكن سلمياً في العام التالي سنة ١٣٤٦ م وهكذا أصبح ظفر خان مؤسس الدولة حاكماً على الإقليمين معاً ، وتلقب بعلاء الدولة حسن بهمن شاه واتخذ مدينة گلبرگه عاصمة له وأسماها حسن آباد ، ثم انتقلت عاصمة البلاد إلى بيدر فيما بعد وسميت أحمد آباد (١) وقد امتدت حدود الدولة البهمنية من إيلچپور شمالاً إلى نهر كرشنا جنوباً ومن البحر غرباً إلى حدود إمارة ورنكل شرقاً (٢) ولكنها انقسمت إلى أربع ولايات كانت كل منها تتمتع بقدر من الاستقلال وكان لكل حاكم جيشه الخاص وسلطاته الإدارية ، وكان له حق فرض الضرائب (٣) وتسيير دفة الاقتصاد في ولايته .

ويبدو أن كجرات قد انفصلت عن السلطنة البهمنية وعادت إلى سلطان دلهي فيما بعد . إذ إنه عندما هاجم سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٨ م دلهي فرّ سلطانها إلى كجرات واحتمى بها مدة ، ولما لم يتمكن من العودة إلى دلهي نتيجة لكثرة الاضطرابات والفتن السياسية ولما عانته من الضعف الشديد ، لم يجد سلطان دلهي الفار ظفرخان مناصاً من الاستقلال بكجرات ، فأُعلن استقلالها وتسمى باسم مظفر الأول وكان ذلك سنة ٨١٠ هـ ١٤٠٧ م (٤) ، وقد استمرت مملكة كجرات منذ ذلك الحين تتمتع باستقلالها وسيادتها الكاملة إلى أن تمكن الامبراطور المغولي

====================

(١) تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية . إحسان حقي . د . ص١١٦ ، ١١٧

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

٣) بلاد الهند في العصر الإسلامي . عصام الفقي . د . ص١٠٣

٤) تاريخ بلاد الهند . عبد المنعم النمر . د . ص٢٠٢

جلال الدين أكبر سنة ٩٧٨هـ ١٥٧٢م من الاستيلاء عليها وكان ذلك في عهد مظفر شاه الثالث (١) وعند قدوم البرتغاليين كانت مملكة كجرات تحت سلطة محمود شاه (٨٦٣هـ - ١٤٥٨م - ٩١٧هـ ١٥١١م) الشهير باسم محمود بيكرو أي صاحب القلعتين (٢) ، وكانت كجرات في ذلك الوقت تحظى بكل المهابه والقوة اللتين تنعم بهما أية مملكة عظمى (٣) ، وقد استطاع محمود شاه هذا أن يقيم علاقات طيبة مع سلطان دلهي اللودى "اسكندر لودى" وأن يتبادل معه الرسائل والهدايا (٤) ، كما استطاع أن يقيم علاقات ودية مع السلطان المملوكي في مصر وأن يستعين به على مجابهة الغزو البرتغالي في سواحل دولته (٥) ، ورغم أنه كان محارباً من الطراز الأول إلّا أنه لم يحاول التوسع على حساب الولايات الاسلامية المجاوره له (٦) ، وعندما قدم البرتغاليون كان منشغلاً بحروبه مع الإمارات الهندوسية غير الإسلامية (٧) ، ولما أحسّ بمدى فداحة الأخطار البرتغالية التي لاتهدد كجرات وحدها بقدر ماتهدد سائر السواحل الإسلامية ، باعتبارها شريان الاقتصاد الإسلامي الذى كان قائما على

==================

(١) تاريخ بلاد الهند . عبد المنعم النمر . د . ص ٢١٤، ٢١٥

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ ، وذكر الدكتور عصام الفقي ان اسم سلطان كجرات في ذلك الوقت كان عنها بياجارها وهذا خطأ .

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٤ ، ٣٥

(٤) تاريخ بلاد الهند . ص ٢٠٤ هامش

(٥) بدائع الزهور . ابن اياس . جـ ٤ ص ١٨٢ ، ١٨٣

(٦) تاريخ بلاد الهند . عبد المنعم النمر . د . ص ٢٠٥

(٧) بلاد الهند في العصر الإسلامي . عصام الفقي . د . ص ١٠٢

التجارة آنذاك - اتصل بالسلطان المملوكي في مصر وطلب منه المساعدة الحربية . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا لم يستعن محمود شاه بالسلطان اللودي في دلهي أو بغيرها من الممالك الإسلامية في الهند ؟ ويبدو للباحث أن الإجابة على هذا السؤال ذات شقين : الشق الأول يتعلق بمكانة الدولة المملوكية كرائدة للعالم الإسلامي في ذلك الوقت ، وكونها المعنيّ الأول بالتهديد البرتغالي الذي وجه الضربة القاضية للاقتصاد المملوكي ودون مقدمات تذكر ، ويرجع الشق الثاني إلى طبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين كجرات وجيرانها من جهة ، تلك العلاقات التي لاتخلو من التنافس وتنازع مناطق الحدود والمقاطعات بين حين وآخر ، حيث كانت تلك المنطقة تمر في مرحلة غليان سياسي خطير ، وربما أدى أيّ تدخل كبير من جانب القوى الإسلامية المجاورة إلى فقدان كجرات لسيادتها كدولة مستقلة . ولعل الظروف الداخلية التي كانت تعاني منها الإمارات الإسلامية في الهند عند أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر جعلت من الاستعانة بها أمراً غير كبير الجدوى في الصراع مع امبراطورية كبرى كالبرتغال التي كانت قد بلغت أوج مجدها في ذلك الحين .

كانت مملكة دلهي تعاني في أواخر القرن الخامس عشر من الصراع على السلطة بين أبناء البيت اللودي ، فقد حدث صراع بين السلطان عادل نظام الدين المعروف باسكندر شاه اللودي وبين أخيه باربك حاكم جونبور سنة ٨٩٤ هـ - ١٤٨٨ م ودار بينهما صراع طويل قبل أن يتمكن السلطان عادل من

القضاء على تمرّد أخيه . ولما توفى السلطان العادل سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م خلفه ابنه السلطان إبراهيم اللودى ، وقد أدت إدارته السيئة إلى حدوث نزاع بينه وبين أخيه من جهة وإلى اشتعال سائر البلاد بالفتن والثورات التى انتهت باستقلال كثير من الولايات التى كانت تابعه لحكومة دلهى (١) ، ولم تكن السلطنه البهمنيه فى الدكن أسعد حظا ، إذ كانت هذه السلطنه قد آلت إلى التفكك والضعف منذ عهد محمود شاه الذى تولى سنة ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م ، حيث عمت الفوضى البلاد وساد القتال فى الشوارع بين المواطنين والهنود والوافدين من الأجانب (٢) . ولما كان محمود شاه صغير السن لا حول ولا قوة له ، ويخضع لنفوذ أحد رجاله وهو قاسم بريد الذى استطاع أن ينفرد إلى حد ما بتسيير الأمور ، منذ ذلك الحين ، فى كل أمور الدولة ، حتى بعد وفاة السلطان محمود شاه (٣) ، وقد طمع حكام الأقاليم فى ذلك العهد فى الاستقلال بأقاليمهم ، وناضلوا من أجل ذلك حتى قامت فى الدكن خمس دول مستقلة إلى جوار الدولة المركزية ، وقد دفعت هذه الظروف خليفته " كليم الله " إلى طلب نجدة السلطان المغولى بابر (٤) ، وكذلك كان الحال فى مملكة مالوا التى تميزت فى ذلك الحين بالصراع

================

١) تاريخ بلاد الهند . عبدالمنعم النمر . د . ص ١٩٦ ، ١٩٧
٢) بلاد الهند في العصر الإسلامي . عصام الفقي . د . ص ١٠٢ وما بعدها
٣) تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية . إحسان حقي . د . ص ١١٩
٤) تاريخ بلاد الهند . ص ٢٢٠

بين أبناء البيت الحاكم من جهة والفساد وقوة النفوذ الهندوسي من جهة (١) أخرى .

وقد تميزت الظروف السياسية للممالك الإسلامية بالهند - بالإضافة لما سبق - بعدد من العوامل التي جعلت من صمودها (وخاصة مملكة كجرات) أمام الغزو البرتغالي وتمكنها من طرده، أمراً غير متوقع ، فقد كان إلى جوار الدولة البهمنية في الدكن دولة هندوسية قوية هي امبراطورية فيجايا ناجار التي كانت تتفق مع البرتغاليين في نزعة القتال الصليبي ضد المسلمين في الجنوب ، وقد كان وجودها إلى جوار الدولة البهمنية يمدها بدافع قوى يحفزها إلى حماية العقيدة والثقافة الهندوكية بجنوب الهند ، وعلى مظاهرة الاستقلال القوى ضد الدول الإسلامية ، ومن هنا كان العداء المشترك بينهم وبين البرتغاليين في مواجهة الإسلام عاملا مهماً ساعد على تثبيت أقدام البرتغاليين في جوا وغيرها من السواحل الإسلامية في الهند (٢) .

وعندما جاء البرتغاليون إلى السواحل الهندية اختاروا سواحل مالابار لتكون محط أقدامهم الأولى ، ولم تكن هذه المقاطعه دولة إسلامية في ذلك الحين ، إذ لم تدخل مالابار في حظيرة الإسلام في أي عصر من العصور ،

=====================

(١) لمزيد من التفصيل انظر تاريخ بلاد الهند . ص ٢٢٢

(٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٤

ولم تمتد إليها الفتوحات الإسلامية ولم تدخلها الجيوش ، بل انتشر فيها الإسلام على يد التجار العرب وغيرهم من المتصوفين (١) ، وقد حاول البرتغاليون بذلك أن يزيدوا الشقة بين الإمارات الإسلامية وبين حاكم مالابار ، بأن يفصلوه عنهم ويربطوه بعجلة الاقتصاد البرتغالي ، ولكن ذلك لم يحدث بدليل أنه قد استنجد مع حاكم كجرات ، بالسلطان المملوكي في مصر ليمده بالمساعدة (٢) الكفيلة بدحر النفوذ البرتغالي من السواحل الهندية .

وثمة ثلاثة عوامل أخرى كانت ذات تأثير بالغ على المجريات السياسية إبان الغزو البرتغالي للسواحل الهندية ، وهذه العوامل هي : وجود الامبراطورية الهندوكية في وحدة سياسية واحدة كبيرة في مواجهة انتشار الإسلام في الوقت الذي كانت فيه القوى الإسلامية من التفكك الشامل الذي أشرنا إليه من قبل ، وتسلط الصينيين على المنطقة الجنوبية من القارة الآسيوية وحتى سلطنة ملقا بل حتى الجزائر الأندونسية ، حيث كان سلاطين ملقا وبيتانج وغيرهما من الولايات يشخصون بأبصارهم نحو الصين طلبا للحماية في معظم الأوقات وأنهم كانوا على استعداد لبذل الغالي والنفيس في سبيل ذلك ، وأخيراً ذلك الكفاح المرير الذي كان يشتجر على الدوام بمنطقة ذلك الأرخبيل بين الإسلام والهندوكية ، والذي كان قد انتقل من كجرات

===============

(١) تاريخ الصلات بين الهند والعرب والترك والفرس . محمد الندوي . د . ص

(٢) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ٤ ص١٨٢

ودخل الملايو وما يليها من الجزر (١) .

* * *

وإذا انتقلنا إلى دراسة الأوضاع السياسية لسواحل الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي نُفَاجأ بتفكك الأقاليم العربية ومرورها في حالة من التردي السياسي والصراع الحربي اللذين كانا يستندان إلى الخلافات المذهبية أو إلى النزعات القبلية أو المطامح الشخصية في أغلب الأحيان ، ويرجع ذلك إلى غياب السلطة الإسلامية المركزية عن تلك الأقاليم ، إذ لا يكاد يكون للمماليك أية نفوذ فعلي على تلك المناطق ، وإن كان لهم علاقاتهم الحسنة مع حكامها في كثير من الأحيان (٢) .

كان الساحل العربي فيما بين باب المندب ورأس مسندم في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر مقسماً إلى أربع ممالك ، مملكة عدن في الغرب وكانت تحت حكم الطاهريين وإلى الشرق منها كانت مملكة الشحر التي كان يحكمها آل كثير ، وكثيراً ما كانت تخضع لمملكة عدن ، وإلى الشرق منها كانت مملكة قشن أو فارتاق وهي رأس فرطاق ومعها جزيرة سوقطرة وتعرف هذه الدولة بالسلطنة الأمهرية ، وإلى الشرق منها بدءاً من رأس الحد

=================

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص٣٤ وما بعدها

(٢) فقد ذكر محمد الانصاري في تحفة المستفيد حـ ١ ص ١١٩ ، ١٢٠ ان حكام تلك المناطق كانت لهم علاقات حسنة مع المماليك في مصر .

كانت بداية الأقاليم العربية التابعه لمملكة هرمز (١) .

كانت هرمز فى أقصى شرق الجزيرة العربية عاصمة للامبراطورية التى عرفت باسمها واشتملت على جانب كبير من شبه جزيرة العرب من ناحية وعلى فارس من ناحية ثانية ، إذ كانت تسيطر على الشريط الساحلى فى جانبى الخليج وقد امتد نفوذها السياسى والاقتصادى حتى البصرة (٢) ، وبذلك كانت هرمز تتحكم فى مدخل الخليج العربى وفى تجارته ، وتشكل فى نفس الوقت أكبر تنظيم سياسى واقتصادى عرفته المنطقة فى السنوات الأولى التى سبقت الغزو البرتغالى (٣) ، وكان نفوذ هرمز قد امتد إلى البحرين والقطيف وبعض أجزاء عمان حتى البصرة قبل مائتى عام من وصول البرتغاليين (٤) ، ومن هنا فقد كانت موانئ صحار وقلهات ومسقط (٥) وصور وسورات (٦) وخور فكان خاضعة لمملكة هرمز حتى أوائل القرن السادس عشر ، وتعتبر مسقط فى ذلك الحين بمثابة المركز التجارى الرئيسي لمملكة هرمز (٧) ، وهناك خلاف على هوية مملكة هرمز فالكتاب الإيرانيون يغالون فى إصباغ الهوية القومية عليها ، ويصفونها بأنها

==================

(١) بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان . بكنجهام . س حصاد ندوة الدراسات العمانية حـ ٦ ص ١٩٠ .

(٢) الخليج العربي . مجمل تاريخي . سيرأرنولد ويلسون . ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٣) د. الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي ، جمال زكريا قاسم . د. أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية . ص ٢٧

٤) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى عقيل الخطيب . ص ١٩

٥) التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق أفريقيا . جي كيركمان . حصاد ندوة الدراسات العمانية . جـ ٥ ص ٢٨٢

٦) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٢٧

٧) دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا . عائشة السيار . د . ص ٢٢ ، ٢٣

فارسية ، على حين يؤكد الباحثون العرب على الصبغة العربية لهرمز على اعتبار أن لغتها السائدة كانت اللغة العربية وأن أغلب سكانها من العرب ، وأن ملوكها يعودون إلى أصول عربية ، وأن المذهب السني هو المذهب السائد (٢) وهذا بخلاف الأقاليم الفارسية المجاورة لها .

لم تكن هرمز عند مطلع القرن السادس عشر مستعدة لمواجهة الغزو البرتغالي ، فقد كانت دولة تجارية كبيرة الثراء ، ولكنها – مع ذلك – كانت قليلة الخبرة في الأمور الحربية ، ولم يكن لها – شأنها في ذلك شأن الإمارات المجاورة – أسطول ذو شأن يذكر (٢) ، وكانت – كذلك – تعاني من تفاقم الصراع بين أفراد الأسرة المالكة (٣) . ومن هنا فليس من المستغرب أن نجد مملكة هرمز تعاني من التقلبات السياسية ، وأن حكامها كثيراً ما كانوا يعلنون تبعيتهم واستقلالهم حسب مصالحهم ، فتارة نجدهم يعلنون تبعيتهم للشاه إسماعيل وذلك حين تسوء علاقاتهم مع البرتغاليين ، ومع ذلك فهم لا يأنفون من الاتصال بالعثمانيين ومن طلب النجدة منهم بعد ذلك (٤) ، بل هناك ما هو أشد من ذلك إذ نجدهم يتعاونون مع البرتغاليين أنفسهم سنة ٩٢٦هـ ١٥٢٠م للقيام بعمل مشترك ضد البحرين ومنى جبر (٥) ويبدو أن اعتماد المملكة على الجنود المرتزقة (٦) الذين لم تكن لهم

====================

(١) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص٢٧

(٢) دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي . صلاح العقاد . د حصاد ندوة الدراسات العمانية جـ ٤ ص ٦١ ، ٦٢

(٣) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . ص٢٩

(٤) دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي . جـ ٤ . ص ٦٢

(٥) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . ص ٣٢

(٦) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٢٠

أهداف سياسية ، ولم يكونوا يبالون بالنتائج ، هو الذى ساعدها على ذلك التذبذب السياسى والحربى الواضح ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان يترك المناطق الساحلية الجنوبية - غالباً - لحكام شبه مستقلين ليتفرغ هو لفتوحاته فى الشمال ، ولحروبه مع العثمانيين (١) ، بل نجده يتحالف مع البرتغاليين لهذا الغرض ، ويتنازل لهم عن السيادة على هرمز لتكون خاضعة للملك البرتغالى فى لشبونه (٢) .

وبالإضافة إلى مملكة هرمز كان فى عمان ثلاث قوى سياسية أخرى هى : الإمامة العبادية فى نزوة وبنونبهان فى بهلا وبنو جبر فى الاحساء ، وكانت هذه القوى السياسية الأربعه تميل للصراع مع غيرها من القوى الأخرى ، ولكن أكثر صراعاتها استمراراً كان بين الأئمه والنباهنه للسيطره على عمان الداخلية وبين هرمز وبنى جبر للسيطره على القطيف والبحرين (٣) .

كانت عمان الداخلية فى أوائل القرن السادس عشر تمر بفوضى سياسية (٤) عارمة إذ كثيراً ما تعرضت المقاطعات الداخلية لثورات الإباضيين المتحمسين لبعث الإمامة الإباضية (٥) ، وعند قدوم البرتغاليين كان هناك صراع بين محمد بن

================

١) دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي . ج ٤ . ص ٦٢
٢) دليل الخليج ، القسم التاريخي . ج . ج . لوريمر . ج ١ . ص ١٤
٣) بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان . بكنجهام . ج ٦ ص ١٩٠
٤) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٣٩
٥) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٣٠

اسماعيل وسليمان بن سليمان النبهاني ، انتهى بهزيمة الأخير وتولى الأول للإمامة سنة ٩٠٦هـ ١٥٠٠م (١) وقد استمرت إمامته حتى سنة ٩٤٢هـ حين خلفه ابنه بركات (٢) ، وفى عهده ، كثرت الخلافات بين القبائل العمانية ، وأصبح لكل قبيلة إمامها الخاص ، وقد نصب فى عهد بركات هذا إمامين آخرين هما عمر بن قاسم الفضيلي وعبد الله بن محمد القرن (٣) وهذا يدل على مدى الخلاف الذى وصلوا إليه ، والذى ترك أثره - بلا شك - على مواقفهم السياسية والحربية اللاحقة .

وفى الساحل كان الجبور (بنى جبر) الذين بدأ نجمهم يصعد فى أواسط نجد منذ النصف الثانى للقرن الخامس عشر (٨٧٢هـ ١٤٦٧م) وتمكنوا مع بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من القاطعات الداخلية فى الجزيرة العربية بالإضافة إلى الإحساء والقطيف والبحرين وبعض الأقاليم العمانية الساحلية والداخلية (٤) ، ومن هنا كان هناك احتكاك حدودى واسع بين بنى جبر ومملكة هرمز ، يضاف إليه تنافس اقتصادى ورغبة مشتركة فى بسط النفوذ على الأقاليم الساحلية ، فقد كان بنو جبر يغيرون على المدن الساحلية ويجبرونها على دفع الجزية (٥) ، ومن هنا تنشأ الخلافات السياسية

==================

١) عمان عبر التاريخ . سالم السيابي . ص ٢٧
والتنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٣٩ ، ٤٠
٢) تاريخ أهل عمان . مجهول . ص ١٠٢
٣) المرجع السابق . نفس الصفحة . وعمان عبر التاريخ ص ١٤٣ - ١٤٥ والتنافس الدولي في الخليج العربي ص ٤٠
٤) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٣٠
٥) بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان . بكنجهام . ج ٦ ص ١٩٠

مع مملكة هرمز التى كثيراً ما كانت تؤدى إلى الصدام المسلح بين الطرفين ، واستمر نزاع هرمز مع بنى جبر حتى بعد قدوم البرتغاليين ، ففى سنة ٩١٧هـ ١٥١١م كان هناك صراع بين الطرفين حول البحرين ولما لم يحسم ذلك الصراع لصالح مملكة هرمز لجأت للتحالف مع البرتغاليين ضد منافسيهم من شيوخ بنى جبر حتى نجحوا فى السيطرة على البحرين والإحساء والقطيف وبعض المقاطعات العمانية (١) وقد استمر النزاع بين الطرفين إلى أن سقطت هرمز نهائياً تحت أقدام الغزو البرتغالى الذى لم يأت إلّا لتحقيق مصالحه الخاصه .

* * *

وكانت اليمن إبان الغزو البرتغالى تخضع لحكم بنى طاهر (٨٥٨هـ-٩٢٣هـ ، ١٤٥٤م - ١٥١٧م) ، ولم يكن الطاهريون يدينون بالولاء التام للمماليك فى مصر ، ولعل ذلك راجع إلى سياسة المماليك الودية مع سلاطين زبيد (٢) الذين كان بينهم وبين بنى طاهر عداء مستحكم ، وعلى هذا الأساس وقف السلطان الظافر عامر الثانى موقفاً معادياً للمماليك أثناء حملتهم على البرتغاليين بقيادة حسين الكردى ، وهو الأمر الذى أخر سير الحمله وغير وجهتها ووضع المماليك فى مواجهة حربية مع بنى طاهر استمرت حتى سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م حين تمكن المماليك من قتل السلطان الظافر عامر الثانى نفسه (٣) ، ومهما يكن من أمر فقد كان لذلك الموقف أثره الكبير على سير الأحداث فيما يتعلق بالصراع الإسلامى البرتغالى فيما بعد .

==================

١) الأوضاع السياسية في الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٢٦ - ٣١
٢) الفضل المزيد على بغية المستفيد . ابن الديبع . ص ١٤٦ ، ١٤٧
٣) المرجع السابق ص ٢٧٨ . والنور السافر في أخبار القرن العاشر . العيدروسي . ص ١١٨ والسنا الباهر بتكميل النور السافر . الشبلي اليمني . ص ٢٠٤

وكانت دولة الطاهريين تعانى كثيراً من الفتن والقلاقل والاضطرابات السياسية والحروب سواء كان مصدر ذلك أبناء البيت الطاهرى نفسه أم ما تحدثه القبائل المتمردة على الحكم الطاهرى أم ما يدور من صراع تقليدى بينهم وبين الأئمة الزيديين . فعلى صعيد المنافسة بين أبناء البيت الطاهرى نجد أن أبناء السلطان عامر الأول يطمعون فى أن تصير السلطة إليهم . فلما انتقلت تلك السلطة من المجاهد على إلى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود . استمرت وراثيه فى أبنائه . وكان قد تولى حينئذ عامر بن عبد الوهاب وتلقب بالظافر عامر الثانى . أحس أبناء الظافر الأول أن الأمل فى السلطة قد تبخر من بين أصابعهم . وكان لابد لهم من إعلان الثورة . ومن هنا قام هؤلاء الأبناء: عمر وعبد الله ومحمد . بثورتهم على السلطان الجديد فى مدينة جبن بالمنطقة الشرقية . حيث جمعوا حولهم كثيراً من الأتباع وقاموا بنهب المدينة والاستيلاء على حصنها سنة ٨٩٤ هـ ١٤٨٩ م (١) . ثم حاولوا بسط نفوذهم على المناطق المجاوره لهم . بل قاموا بمحاولة للاستيلاء على تعز وعدن . وكانوا قد حققوا عدداً من الانتصارات حتى اضطروا الظافر عامر الثانى إلى الموافقة على اقتسام إيرادات عدن (٢) . ولم يتمكن السلطان الظافر عامر الثانى من القضاء على ثورتهم إلاّ بعد ثلاث سنوات من قيامها (٣) . وقد شجعت الخلافات بين أبناء البيت الحاكم عدداً من القبائل الأخرى على القيام بثورات مماثلة

==================

(١) قلادة النحر . بامخرمة . جـ ٢ ص١١٦٩ . وبغية المستفيد . ابن الديبع . ص ١٥٢

(٢) قرة العيون . ابن الديبع . ص ١٢٦ ب

(٣) المرجع السابق : ١٤٤أ ـ ١٤٦أ

بهدف الاستقلال في مناطقهم والانفصال عن السلطان الظاهري في عدن ، وقد كلفت هذه الثورات السلطان الظافر كثيرا من الجهد والوقت والمال والمحاربين قبل أن يتمكن من إخمادها والقضاء عليها (١) .

نعم لقد واجه السلطان الظافر الثاني عدداً من ثورات القبائل الأخرى ومنها قبائل يافع الذين انضموا لأبناء السلطان الظافر الأول وأعلنوا ثورتهم في بعض نواحي عدن سنة ٩٠٣ هـ ١٤٩٨ م ودارت بينهم وبين الظافر الثاني عدة مواجهات حربية قبل أن يتمكن من هزيمتهم وإرغامهم على الطاعة (٢) ، وثارت كذلك القبائل القرشية في تهامه وشمال مدينة زبيد ، فكانوا مصدر قلق دائم (٣) ، ومما زاد من خطورتهم تحالفهم مع قبائل المعازبة في شمال زبيد الذين تزامنت ثورتهم مع قيام دولة بني طاهر واستمرت ما بين هدوء واشتعال إلى ما بعد وصول طلائع الغزو البرتغالي ، وقد كان السلطان الظافر عامر الثاني مشغولا بإحدى ثوراتهم سنة ٩٠٣هـ ١٤٩٨ م بينما كان فاسكو دي جاما يضع قدمه لأول مرة في كاليكوت على سواحل المحيط الهندي ، ولم تكد ثورتهم لتهدأ إلّا لتشتعل من جديد سنة ٩٠٨هـ ١٥٠٣ م حيث قاموا بنهب كثير من المناطق المجاورة لهم ، واستمرت ثوراتهم بعد ذلك عدة مرات (٤) إلى أن آذنت الدولة الطاهرية بالزوال .

====================

١) قرة العيون . ابن الديبع . ص ١٣٦ ب

٢) قلادة النحر . بامخرمة . جـ ٣ ص ١١٩٧ . وقرة العيون ص ١٤٢ أ

٣) قرة العيون . ص ١٢٦ ب . وبغية المستفيد . ابن الديبع . ص ١١٧-١٢٢

(٤) المرجع السابق : ص ١٥٠أ ، ١٥١ ب .

واذا كانت هذه الصعوبات التى واجهت السلطان الظافر عامر الثانى داخل حدود دولته صعوبات تقليدية كثيراً ماتحدث عند انتقال السلطان أو عند ضعف الحكومة ، فإن الصعوبات التى واجهته فى الشمال كانت من نوع آخر إذ تزعم لواءها الأئمة الزيديون الذين لا يعترفون بسلطان الدولة الطاهرية عليهم (١) ، وقد كان الأئمة الزيديون يقتسمون المناطق الشمالية فيما بينهم ، فى غير ما كبير اتفاق ، إذ لم تكن علاقاتهم تقوم على الصلح الدائم ولا على الحرب المستمره ، لأن تلك العلاقات كانت معقدة متشابكة لاتحكمها وحدة المذهب بقدر ما تسيطر عليها المصالح المادية المتناقضة (٢) فى كثير من الأحيان ، وهكذا يمكن القول إن السلطان الظافر عامر الثانى كان قد اضطر لمواجهة أكثر من إمام من أئمة الزيدية فى وقت واحد ، إذ كان هناك إمام لصعدة وآخر لصنعاء وثالث لذمار (٣) وهكذا .

بدأت أولى الصادمات بين السلطان الظافر عامر الثانى وبين الزيدية بقيادة الإمام الوشيلى فى ذمار سنة ٩٠٢ هـ ١٤٩٦ م ، وذلك عندما حرض الإمام الوشيلى بعض قبائل ذمار وقادهم فى ثورة لم يكتب لها النجاح أمام قوات السلطان الظافر الثانى ، وفى سنة ٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م قام الوشيلى وأتباعه بمهاجمة

====================

(١) الفتح العثماني الأول لليمن . سيد مصطفى سالم . د . ص ٥١ ، ٥٢

(٢) المرجع السابق :ص٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٣ .

بعض مقاطعات الدولة الطاهرية ، وكان نصيبه من هذه الثورة كنصيبه من سابقتها . ولما كانت صنعاء بمثابة المركز الرئيسي لنشاط الزيدية وجد السلطان الظافر الثاني أنه لابد من إخضاعها لنفوذه نهائياً ليكون ذلك رادعا لأخطار الأئمة الزيدية ، فقرر أن يهاجمها ، وقام بمحاصرتها سنة ٩٠٧هـ ١٥٠١م لمدة خمسة أشهر ولكنه اضطر للانسحاب وفك الحصار (١) ثم كرر المحاولة مرة أخرى ، فحاصر صنعاء في صفر سنة ٩١٠هـ ١٥٠٤م بجيش كبير لمدة ستة أشهر قبل أن يتمكن من فتحها ونفيِ حاكمها إلى تعز (٢) ، وبانتهاء هذه الفتنة ، لم تنته ثورات الزيدية في الشمال مما اضطر السلطان الظافر للقيام بتعزيز حملاته في تلك الجهات لمدة سبع سنوات بعد ذلك ، تمكن خلالها من الاستيلاء على كثير من المدن والحصون الواقعة إلى الشمال من صنعاء (٣) ، ومع ذلك فقد كانت نهاية السلطان الظافر قبل نهاية الفتن الزيدية ، إذ نجد الأئمة الزيدية يقومون بعدة محاولات أخرى لبسط نفوذهم على بعض مناطق اليمن بعد مقتل السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م ، وبخاصة لأن الظروف كانت مواتية لتحركات الزيدية ، لأن موت السلطان الظافر كان إيذاناً بنهاية الدولة الطاهرية وتفككها ووقوعها في ذلك التنازع القبلي بين أبناء البيت

==================

(١) انباء أبناء الزمن عن تاريخ اليمن . يحيى بن الحسين الصنعاني . ص١١٢أ

(٢) قرة العيون . ابن الديبع . ص١٤٦ب - ١٤٧أ

(٣) بنو رسول وبنو طاهر . محمد عبد العال . د. ص٢٨١

الطاهرى ، برغم ما كان يتوجب عليهم من وحدة الصف حرصاً على إحياء الدولة التى بدأ نجمها فى الأفُول ·(١)

ومما هو جدير بالذكر أن بنى حفص الزيديين الذين كانوا يسكنون فى تهامة بالقرب من جزيرة كمران ، كثيراً ما اتخذوا من مدينتهم الزيدية مركزا للتمرد على السلطة الطاهرية إلى أن اضطرهم السلطان الظافر الثانى إلى الاستسلام والتزام الخضوع والطاعة مكرهين سنة ٩٠٥ هـ ـ ١٤٩٩ م ، وقد كان لثوراتهم أثرها الكبير على سير الأحداث بين الطاهريين والائمة الزيدية فى الشمال ·

بقى أن نقول إن مملكة عدن قد قاست فى زمن الطاهريين عددا من الأخطار والعوامل الأخرى التى أثرت على موقفها وعلى قدرتها القتالية فى مواجهة الخطر البرتغالى ، ومن ذلك تعرض البلاد للوباء أكثر من مرة ، كما حدث ـ قبلا ـ سنة ٩٠٦ هـ حيث كان الوباء يودى بحياة ستين شخصا فى اليوم فى مدينة زبيد وحدها (٣) ، ومنها أن ملوك الطاهريين كانوا يتخذون حرسهم الخاص من الأحباش (٤) ، وأنهم كثيراً ما استغلوا وجود التجار فى ثغر عدن لتحقيق مآربهم الشخصية (٥) ، فضلاً عن عدم تمتع القوات الطاهرية

==================

(١) بنو رسول وبنو طاهر . محمد عبد العال . د . ص ٢٨٢

(٢) قرة العيون . ابن الديبع . ص ١٢٦ أ وما بعدها

(٣) الفضل المزيد . ابن الديبع ص ١٤٦ . (٤)

(٥) قلادة النحر . بامخرمة . جـ ٣ ص ١١٦١

بالأسطول البحري القوي القادر على حمايه مصالحها الاقتصاديه في شرق أفريقيا والبحر الأحمر والمحيط الهندى .

* * *

تمتد سواحل أفريقية الشرقية من بلاد الدناقل وعدل شمالاً إلى موزمبيق وما جاورها من جزيرة مدغشقر جنوباً "١" . وقد ذكر المسعودي أن الإمارات العربية المسلمة تمتد على طول سواحل أفريقية الشرقية من مقديشيو شمالاً وحتى سوفالا جنوباً ، كانت تضم عدداً من الموانئ مثل براوة ومالندي وسيوه وكلوه وغيرها .

ومن المعروف أن العرب في شرق أفريقيا كونوا إمارات متفرقة ولم يكونوا امبراطورية مترامية الأطراف ذات وحدة سياسية واقتصادية ولها قيادة مركزية واحدة ولكن الإنصاف يقتضي أن نسجل أنه كان هناك عدد من المحاولات التي قامت بها إمارات للتوسع على حساب جاراتها "٢" ، ومثال ذلك نجاح ممباسا في السيطرة على كثير من المدن الساحلية خلال بضع سنوات من القرن الثاني عشر الميلادى ، وكما فعلت باتا حين سيطرت على معظم مدن الساحل من مالندي إلى كلوة جنوباً فيما عدا زنجبار حوالى ١٣٣٠م . وكذلك حاولت مقديشيو وممبا وزنجبار في أوقات متفرقه أن تفرض قيام وحدات سياسية من ذلك النوع "٣" . ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح طويلاً .

كانت مدن سواحل شرق أفريقية ـ إذن ـ مستقلة بطبيعة الحال إحداها عن الأخرى ـ في أغلب الأحيان ـ وتشبه إلى حدٍّ بعيد المدن الحرّة التي أسسها الإغريق والفينيقيون في جهات مختلفة من البحر المتوسط "٤" .

---

(١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الاوروبي . السيد رجب حراز . د .ص

(٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل .د . ص ٥٥

(٣) الروابط العربية الأفريقية . جمال قاسم . د . العلاقات العربية الأفريقية ص ١٩

(٤) العرب في شرق أفريقيا . جلال يحيى . د . مجلة النهضة المصرية .العدد ٢٢ سبتمبر ص ٨ ـ ٩

ورغم أنّ هذه المقولة تخضع للمنطق النسبي إلى حدّ كبير إلّا أن كثيراً من الباحثين حاولوا أن يعطوا تفسيرًا لها ، فذهب بعضهم إلى القول بأن العوامل الجغرافية الخاصة بالمدن نفسها لم تيسر لها الاندماج في نظام سياسي موحد "١" . وذهب بعضهم إلى أن تلك المدن إنما قامت على أسس تجارية بحتة ومن ثم افتقرت إلى العناصر الحربية والمنتظمة "٢" وإلى قمة الهرم السياسي الذي يمكن أن يتربع على رأس دولة كبرى،ولكن هناك رأي يبدو غريباً إذ إنه يتهم العرب الذين استوطنوا المراكز الإسلامية في شرق أفريقيا بأنهم " نقلوا معهم خلافاتهم ومنازعاتهم ، ولذلك ظهر العداء سافراً بين هذه المدن والإمارات بعضها بالبعض الآخر حتى أصبح من المستحيل قيام وحدة تجمع بينها طواعية "٣" " وأوجه الغرابه والخلط في هذا الرأى الأخير تكمن في أنه يتهم العناصر العربية وحدها بأنها أهم أسباب الفرقه والعداء مع أن الثابت تاريخياً أن العرب والفرس والزنج والهنود كانوا قد استوطنوا في تلك المناطق ولكن بدرجات متفاوته.ولو أن الباحث نسب الفرقه والتفكك إلى كون العناصر التى استقرت هناك من أصول مختلفةلكان له بعض العذر أو لكان لرأيه بعض الوجاهة وكثيراً من القبول . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من الهجرات العربية كانت نتيجة خلافات سياسية أو مذهبية في الوطن الأم وأنها لجأت إلى تلك المناطق فراراً من أتون تلك الخلافات . وهناك أمثله تاريخية ثابتة تؤكد أن بعض القيادات السياسية العربية في أفريقيا قد عملت جاهدة على تكوين دولة كبرى من مختلف موانىء ساحل أفريقيا الشرقي . ويبقي القول إنّ الاتحاد أو الفرقه أو غيرها من المواقف السياسية أو الاجتماعية أو الفلسفية لا يمكن أن تستند إلى الأصول العرقيه وتعزى إليها وحدها دون سواها ، وإلّا لوجب علينا أن نُقِرَّ بمقولة تفوق الجنس الآرى أو أتباع الديانة اليهودية على من سواهم

---

١) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا . حسن أحمد محمود . د . ص ٤٣١ - ٤٣٢

٢) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ١٠

٣) الروابط العربية الأفريقية . جمال قاسم . د . ص ١٩

ولوجب علينا أن نخضع وأن نذل لهم إلى الأبد وهو الأمر الذي لا يمكن أن يسلم به أحد . وأخيراً فإن اتصال العرب بشرق أفريقيا لم يكن بهدف إقامة وحدات سياسية من أي نوع - في الغالب - بقدر ما كان يهدف إلى تصريف منتجات سكانها في شتى الأسواق وإلى ربطها بأهم مصادر الإنتاج العالمي في الشرق الأقصى وبلاد البحر المتوسط "١" . وكان ذلك بهدف الكسب التجاري والتطور الاقتصادي في المقام الأول .

كانت الإمارات العربية على ساحل أفريقيا الشرقي إمارات ساحلية في الغالب ولم يكن تعمقها للداخل إلا بالقدر الذي يخدم الغرض التجاري ، فكل ما كان يهم تلك الإمارات هو تسويق منتجاتها الواردة من الجزيرة العربية وجهات آسيا الأخرى ومبادلتها بالعاج والذهب الروديسي والعبيد وغيرها من منتجات هذه الجهات . ولم يكن لهذه الإمارات قوات حربية منتظمة "٢" . وهو الأمر الذي ظهرت آثاره السيئة عند قدوم الغزو البرتغالي لسواحل أفريقيا الشرقية . حيث كان حكام تلك الإمارات في ذلك الحين متذبذبي التبعية السياسية ، فبعضهم كان يعلن استقلاله بإمارته وبعضهم كان يعلن تبعيته السياسية لكلوة وبعضهم كان يدين بالولاء للسلطان المملوكي في مصر "٤" .

وتعتبر كلوة إحدى أكبر الإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا عندما قدم الغزاة البرتغاليون إلى هناك ، ولكنها لم تكن أكبر إمارة بطبيعة الحال . وقد بلغت مملكة كلوة سنة ١٣٢٠م أوج مجدها في عهد ثاني سلاطينها سليمان ابن علي الذي أخذ يمدُّ نفوذه إلى المدن المجاورة ، فبسط سلطته إلى سوفالا ووضع يده على مناجم الذهب ، كما أخضع لحكمه جزيرة بمبا (الجزيرة

---

١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢
٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ٥٥
٣) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . ص ١٠
٤) زنجبار . صلاح العقاد . د . وجمال قاسم . د . ص ١٩

الخضراء) وزنجبار ومافيه وجزر الكومور (القمر) . وأصبح حكام المدن والإمارات والسلطنات العربية التي أمتدت على طول الشاطئ الأفريقي من مقديشيو شمالا إلى سوفالا وموزمبيق جنوباً ، يعترفون بسلطان كلوة على أنه أعظمهم مقاماً ورفعةً "١" ، إلا أن مقديشيو التي كانت تحكمها أرستقراطية عربية تجارية احتفظت بأستقلالها ، في حين انضمت إليها بمبا وبشكل أكبر زنجبار "٢" ، وقد أشتهرت مملكة كلوة في ذلك الحين بحسن عمارتها وجمال منظرها . كما اشتهر أهلها بحب الجهاد لأن مملكة كلوة الإسلامية في ذلك الحين كانت تواجه تحدياً مباشراً من كفار الزنوج في المناطق المجاورة . ولذا كان حاكمها كثيراً ما يُغير على أرض الزنوج ويعود بكثير من الأسلاب والغنائم "٣" .

ولكن هذه المملكة المزدهرة قد أخذ نجمها في الأفول منذ منتصف القرن الخامس عشر ، إذ اضطربت أحوالها نتيجة للقلاقل الداخلية والتنافس بين الحكام من جهه ، وأغتصاب بعض الوزراء للسلطة من الحاكم الشرعي ، وقيامهم بعزل هذا وإقامة ذاك تبعاً لأهوائهم من جهة أخرى . هذا بالإضافة إلى أن مملكة الزنج (كلوة) كانت قد فقدت في القرن الخامس عشر جزءاً من أملاكها كنتيجة للصراع على السلطة بين الحكومة المركزية في كلوة وبين حكام الموانئ والجزر الذين نجحوا في توطيد دعائم سيطرتهم المحلية . ومع ذلك فقد ظل سلاطين كلوة حتى مجيء البرتغاليين في أواخر القرن الخامس عشر ، يحكمون القسم الجنوبي حتى ساحل سوفالا وموزمبيق "٤" . فعندما وصل فاسكو دى جاما إلى موزمبيق وجد أن حاكم المدينة كان نائباً عن سلطان كلوة وأنه كان يجبى الضرائب والرسوم الجمركية على كل السفن التجارية التي

---

١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٤ ، ٥
٢) الروابط العربية الأفريقية . جمال قاسم . د . ص ٢٠ .
٣) ساحل شرق أفريقيا . محمود الحويري . د . ط١ . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٦م ، ص ١٢٢
٤) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . ص ٥

كانت ترد على المدينه لحسابه . وسع ذلك فإننا لا نستطيع القول إنه قد كانت لكلوة سيادة كاملة ، بالمعنى المتعارف عليه ، على تلك المناطق "١" .

وقد لعبت عدة عناصر أدواراً جوهرية في إضعاف مملكة كلوة سياسياً وعسكرياً أمام الغزو البرتغالي ، إذ عندما وصل فاسكو دي جاما إلى شواطئها كانت قد فقدت أهم مصادر ازدهارها وقوتها الاقتصادية وهو تجارة الذهب ، وذلك حين أعلنت سوفالا استقلالها عنها "٢" . وفي سنة ٩٠١هـ ١٤٩٥م حدث صراع بين حاكمي كلوه وزنجبار ، ورغم أن كلوة خرجت منتصرة من ذلك الصراع إلا أن الحرب - بلا شك - كانت أنهكت المنتصر والمهزوم على حدٍّ سواء . وهكذا اضطر السلطان إبراهيم أنكوني حاكم كلوة أن يعترف بالسيادة البرتغالية سنه ٩٠٧هـ ١٥٠٢م وأن يوافق على دفع جزية سنويه قدرها تسعمائه جنيه ولكنه عاد فألغى ذلك الاتفاق الظالم بمجرد ابتعاد الأسطول البرتغالي ولسوء طالع مملكة كلوة أن قدوم فاسكو دي جاما كان متزامناً مع تمرد داخلي كان يقوده محمد أنكوني أخو السلطان ولا شك أن البرتغاليين قد أفادوا من ذلك النزاع حين ناصروا الأمير المتمرد مقابل أن يحكم البلاد تحت السيادة البرتغالية . ومما يؤسف له أن ذلك الأمير قَبِلَ ذلك نكايةً في أخيه وخصمه السلطان الشرعي إبراهيم أنكوني "٣" .

وأخيراً فقد لعبت الخلافات السياسية بين حاكم مالندي وسلطان كلوة وبينه وبين حاكم موزمبيق اللذين تصاعد الأمر بينهما إلى حد النزاع المسلح لقد لعب ذلك التفكك دوراً خطيراً كانت نتيجته الحتمية سلسلةً من المكاسب السياسية والاقتصادية لملك البرتغال ولأساطيله في المحيط الهندي . إذ أدرك البرتغاليون ذلك الخلاف وعملوا على استثماره كما استثمروا خلاف أبراهيم وأخيه في كلوه من قبل - وعقدوا تحالفاً مع حاكم مالندي الذي أراد أن يجعل من

---

(١) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص٥٥ والروابط العربية الأفريقية جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ١٩

(٢) Chitt Cop , op , cit pp206-207

(٣) زنجبار . صلاح العقاد . د . وجمال قاسم . د . ص ٢٠

البرتغاليين رادعاً لحاكم موزمبيق ، منافسه الحربي "١" ، ولحاكم مبلسا منافسه التجاري ، فضلاً عن أنّ ذلك التحالف كان سوف يحرره – من وجهة نظره – من التبعية السياسية لسلطان كلوه "٢" . وهكذا قام ذلك الحاكم الخائن بتوطيد علاقاته مع البرتغاليين على حساب جيرانه من مدن ساحل شرق أفريقيا إذ نجده يرتمي في أحضان الغزاة ويُقدّم لهم كل أنواع المعونة . ومما يُؤسف له أن خلفاءه قد ظلوا محافظين على ولائهم للبرتغاليين طوال فترة الصراع الإسلامي البرتغالي في شرق أفريقيا .

وهكذا يتضح لنا أن جميع السواحل الإسلاميه الشرقية من مطلع القرن السادس عشر كانت تعاني من التفكك السياسي ، وتدهور الأوضاع الحربية وانفصام العلاقه الحميمة بين أقاليمه وبين السلطه الإسلامية المركزية في مصر ، وبينها وبين القوى الإسلامية الأخرى أيضاً . وهو المناخ الذي وجد فيه البرتغاليون فرصتهم ووجهوا أكبر ضربةٍ اقتصادية يتلقاها العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل ، فضلاً عمّا استطاعوا أن يتركوه من آثارٍ سياسية واجتماعيةٍ لم ينمحِ أثرها إلّا بعد فترة طويلة ، حلّت بعدها قوى استعمارية أخرى محل البرتغال وواصلت الشوط الصليبي الذي بدأته حتى آل أمر العالم الإسلامي إلى الحال الذي نشاهده عليه اليوم .

---

(١) ساحل شرق أفريقيا . محمود الحويرى . د . ص ١٠٧

(٢) المرجع السابق ص ١٩

الفصل الثالث

دور المسلمين في حركة التجارة الدولية قبيل الغزو البرتغالي
(النشاط التجاري - البضائع - طرق المواصلات - المراكز التجارية)

كانت حركة التجارة الدولية ، منذ أقدم العصور ، ولا زالت بمثابة العصب المحرك لتطور الاقتصاد العالمي . وقد انتقلت الهيمنة التجارية عبر تاريخ التجارة الطويل من أيدي الإغريق إلى أيدي الفرس إلى أيدي البيزنطيين إلى أيدي العرب والمسلمين ... وأخيراً إلى الأيدي الأوربية التي أخذت تقبض على مقاليد الأمور منذ مطلع القرن السادس عشر وإلى الآن ، بقبضة من حديد ، ومن الجدير بالذكر أن عوامل القوة التجارية في العصور القديمة والوسطى كانت تعتمد على الظروف الجغرافية وطرق المواصلات وأنواع الحاصلات الزراعية وأشكال الصناعات والحرف اليدوية ، فضلاً عن قدرة السلطة السياسية في التعامل مع المعطيات السابقة ، ولذلك كان التفوق التجاري لأي أمّة من الأمم - في العصرين الوسيط والقديم - له ما يبرره ويشفع له إلى حدٍّ ما ، ولكن التحكم التجاري في العالمين الحديث والمعاصر يفتقد إلى عناصر التبرير المنطقي ، لأنه يخضع إلى منطق آخر وعوامل أخرى ، من أهمّها الهيمنة الاستعمارية والامبريالية ، واحتكار التكنولوجيا وأسرار التصنيع ، وتصدير مقومات التخلف إلى العالم الثالث ، والتحكم في حركة النقل والمواصلات التجارية وهو الأمر الذي أقدمتْ عليه البندقيةُ منذ العصر الوسيط، إلى غير ذلك من العوامل التي تخضع لمنطق الهيمنة الأوربي الأمريكي . والذي يبرر كل شيء - بما في ذلك كوارث القحط والمجاعات وما يتصل بهما من عوامل التهديد بالفناء الأممي أو الشعبي الكامل - ما دام ذلك يخدم مصلحة المهيمن التجاري الغربي .

وإذا كان ما يعنينا - هنا - هو حركة التجارة العالمية ودور المسلمين فيها في أواخر العصر الوسيط ، إبّان الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الجنوبية الشرقية ، فإنه لا بد من دراسة طبيعة النشاط التجاري العالمي في ذلك الحين والتعرف على الدور الإسلامي فيه ، ومعرفة البضائع التجارية المُهِمّة آنذاك على اختلاف أنواعها ، وكذلك الطرق التجارية ومراكزها الهامة إلى غير ذلك من العوامل المؤثرة فيها . ولما كان هذا الأمر لا يكتفي بمجهود الباحث الفرد، ويحتاج إلى عدّة مجلدات لتتمّ تغطيته فإن من المفضل عدم الخضوع لمغريات

وفرة المادة العلميه والاكتفاء بذكر المعالم الرئيسية مع عدم الخوض في التفريعات حرصاً على سلامة البحث ، وتحقيقاً للتوازن بين جوانبه المختلفه .

كانت حركة التجارة الدولية في أواخر العصر الوسيط ، لازالت تنعم بحركة نشاطها الاستثنائية والتى تتمحور حول التبادل التجاري بين الشرق والغرب عبر أواسط أسيا "١"، أو عبر الخليج العربى أوالبحر الأحمر ، فالبحر المتوسط إلى أوربا . كما كانت تتجه إلى شرق أفريقيا وقلبها ، وسواحل الهند والصين قادمة من الغرب ولما كانت المياه العربية هي المنافذ الرئيسية لحركة التجارة العالمية آنذاك فإن من المنطقي أن يلعب مسلمو الهند والبلاد العربية ومناطق شرق أفريقيا دوراً متميزاً في النشاط التجارى انذاك والذي ظلّ سائداً طوال العصر الوسيط وحتى تحويل البرتغاليين للنشاط التجاري عبر طريق رأس الرجاء الصالح .

ومن الجدير بالملاحظة أن العرب والمسلمين لم يقوموا بدور الوسيط فحسب ـ كما هو سائد في كثير من الأوساط ـ ولكنهم لعبوا دورَ المنتج والوسيط والشريك والتاجر في نفس الوقت ، ولذلك كانت حركة التجارة في العصر الوسيط مصحوبة بازدهار واسع في مختلف المراكز الاقتصادية والإسلامية ، ذلك الازدهار الذي تجلّى في حركة العمران الواسعة ووفرة الرخاء ومظاهر الترف ، ونشاط الأسواق وكثرة المترددين والتجار ، واعتماد الحكومات فى اقتصادها ـ في معظم الأحيان ـ على عوائد التجارة . وليس ذلك فحسب بل إنّ نشاط التجارة في الموانى الإسلامية أدى إلى ازدهار مجالات أخرى كالزراعة والحرف الصناعية والصناعات ، وأعمال التعدين والتنجيم إلى غير ذلك من الأنشطة .

لقد شارك مسلمو الهند وشرق أفريقيا فى الإنتاج، وفى التصدير للموانى العربية بينما قام العرب بالاتجار وأعمال النقل البحرية والبرية ومهمات التزويد بالغذاء

---

(١) كانت معابر آسيا الصغرى تلعب دوراً ثانوياً في ذلك الحين كما يتبين فيما بعد

وإنتاج بعض السلع وفتح الأسواق ، وتسهيل مهمات التجار الأوربين عن طريق فتح الاعتمادات والوكالات والمخازن ، وإقامة الفنادق والخانات . ويمكن القول إن نشاط المسلمين التجاري كان من أكبر العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام في العصر الوسيط . وإذا كان نشاط التجار المسلمين قد اقتصر - في مجال الدعوة ونشر الإسلام - في بعض مناطق الهند وخاصه سواحل مليبار ، وبعض مناطق الصين على نشر مبادئ الإسلام والحرص على إقامة المساجد وبناء الأحياء الإسلاميه والقيام بنشر ثقافه المسلمين ، والمشاركه في نواحي الحياه المختلفة حتى السياسية منها فإن نشاطهم في شرق أفريقيا قد تعدى ذلك إلى إقامه المدن والممالك "١" حيث اتخذوا منها مواطن للاستقرار ومراكز للتجاره ونشر دعائم الإسلام داخل القاره الأفريقية .

وهكذا يمكن القول إن هناك علاقة حميمه بين نشاط المسلمين التجاري وبين نشاطهم في مجال الدعوة ونشر الإسلام . وفي ظل العلاقه الجدليه بين النشاط التجاري والنشاط الإسلامي نلاحظ أن الوحدة الإسلاميه - وإن كانت مُفتقَدة على المستوى السياسي في ذلك الحين - قد أعطت زخمًا خاصًا لحركة التجارة الدولية ، وأكسبتها ديناميكية فريدة ، جعلتها - على الأقل في جانبها الشرقي - تنعم بالاستقرار والنَّماء وسهوله الحركة نظراً لأن معظم القائمين عليها ، بدءاً من سواحل مليبار وحتى شواطئ البحر المتوسط في الشام ومصر وبلاد المغرب ، هم من المسلمين ، ولم يكن الانتقال بين ميناء وآخر من الموانئ الإسلاميه يلاقي نفس الصعوبة التي تتعرض لها التجارة عند الانتقال إلى الموانئ غير الإسلاميه في الغرب . وهكذا يمكن القول إن البحر الأحمر والخليج العربي لم يكونا في ذلك الحين - مسلكين متنافسين حول تجاره روما أو القسطنطينية ، بل كانا طريقين متساويين يسلك كل منهما لبلوغ ماقاربه من أرض المسلمين "٢" أو بلاد الغرب .

لعب عرب الجنوب من سكان اليمن وحضرموت وعمان دوراً هاماً في حركة التجارة من سواحل الهند وشرق أفريقيا إلى الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر

---

(١) المزيد من التفصيل راجع كتاب العلاقات العربيه الأفريقيه نشر معهد البحوث والدراسات العربيه وكذلك كتاب ساحل شرق أفريقيا للدكتور / محمود محمد الحويري

(٢) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . حصاد ندوة الدراسات العمانية جـ ٣ . ص ٥٥

بحيث كانوا يشكلون أعمدة الرباط التجارى "١" بين تلك المناطق وبين الممالك الذين كان لهم دورهم المتميز فى تلك التجارة نظراً لأنّهم كانوا يتحكمون في المنافذ التجارية فى البحر المتوسط وأوربا . وقد أتاحت لهم خبرتهم العالية في ركوب البحار أن يحيطوا بأسرار الملاحه . ليس فى المياه الجنوبية التى تربط السواحل الشرقيه والجنوبية بشبه جزيرة العرب ، بالساحل الأفريقى الشرقى فحسب ، بل كذلك فى تلك اللجه الشاسعه من المياه الشرقيه التى تربط تلك السواحل من شبه الجزيرة الهنديه ، وما بينهما من شواطئ وجزر وبلاد "٢" بل إن العرب ــ وخاصة فى الفترة موضوع البحث ــ تجاوزوا تلك المناطق ووصلوا إلى شواطئ الصين أيضا ، فقد وفد فيما بين سنتى ١٤٠٦م ــ ١٦٠٠ م من جزيرة العرب وحدها إلى شواطئ الصين نحواً من أربعة وثلاثين وفداً ، بمعدل وفد لكل خمس سنوات وكان الوفد الواحد يضم أحيانا سبعة وثلاثين مندوباً معظمهم من التجار "٣" وتهيأت بذلك الفرصه لعرب الجنوب لكى يربطوا مصادر الإنتاج في شرق أفريقيا ببلاد الشرق الأقصى متخذين من سواحل عمان واليمن نقطة التلاقي للبضائع الشرقيه كلها "٤" . وقد وقف نشاط عرب الجنوب التجارى وراء تطور المدن الساحليه ووراء انتشار شبكه المسالك التجاريه البحرية والبرية على حد سواء "٥" .

ولم يكن عرب الجنوب وحدهم فى ميدان النشاط التجارى الوسيط ، فقد شاركهم عرب الشمال من سكان نجد والحجاز ، إذ كانوا يتولون نقل المتاجر الشرقيه بواسطه قوافلهم البريه إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر ، وقد أسسوا لهذا الغرض الكثير من المدن والقواعد لكى تزودهم بالتموين وتمكنهم من تخزين البضائع "٦" وحفظها من التلف . كذلك كان لهم دورهم فى حركه التجاره عبر البحر الأحمر

---

١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢
٢) العلاقات بين الصين والعرب في العصر الوسيط . ذانج هو . حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٦ . ص ٥٣
٤) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . ص ٣
٥) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . ج ٢ ص ٥٥
٦) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . ص ٣

حيث أسسوا لذلك عدداً من الموانئ الهامه والتى تقف على رأسها جده التي لعبت دوراً هاماً بنسبه لتجار الحجاز وتجار المماليك ومصر والشام وبلاد المغرب على حد سواء .

وكان للمماليك في مصر والشام دورهم الفعال فى حركة التجارة العالمية أواخر العصر الوسيط ، وساعدهم على ذلك أنهم فرقوا بين الدين وبين التجارة فقدموا كافه التسهيلات للتجار الغربيين حتى فى الوقت الذي كانوا فيه يحاربون الصليبيين ومن ورائهم الغرب الأوربى "١" ولكى يؤمن المماليك دورهم التجارى حرصوا على تأمين طرق التجارة البرية والبحرية في البحرين:الأبيض المتوسط والأحمر ، وعلى تشجيع التجار الأوربيين والتجار المشارقه على حد سواء لكى يفدوا بتجارتهم إلى مصر "٢" ويتخذوا منها مركزاً لنشاطهم التجارى ، ولذلك عمل المماليك على تحصين الموانى المصريه على شاطئ البحر المتوسط فكانت مراكز تجارية وثغور حربية فى نفس الوقت ، وزودوها بالأساطيل الحربيه القادرة على التصدي لأعمال القرصنه البحريه فى عرض البحر الأبيض المتوسط وكذلك قام المماليك بتأمين مياه البحر الأحمر ، حيث أنشأوا أسطولاً حربياً صغيراً تتراوح عدد سفنه بين خمسة وثلاثة سفن وكان يتولى قيادته في الغالب والي قوص "٣" باعتبار أنّ قوص كانت أكبر المراكز التجاريه التى تستقبل تجارة البحر الأحمر القادمه من شرق أفريقيا والهند .

وقد أفاد المماليك من تعسف ملوك عدن وتجاوزهم في جمع المكوس والضرائب إذ دفع هذا التصرف التجار إلى الابتعاد عن عدن والإبحار فى مياه البحر الأحمر مباشرة إلى جدة أو عيذاب أو غيرها من الموانئ . وكان فى ذلك فرصه ذهبيه للمماليك في مصر للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الغرب وتجار الشرق .

---

(١) تاريخ الصلات بين الهند والعرب والترك والفرس . محمد الندوي . د . ص ١٦٠

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ _ ١٦٠

(٣) صبح الأعشى . القلقشندي . جـ ٣ ص ٥٢٠

ومن الجدير بالملاحظة أن الصليبيين قد سعوا لمحاصرة تجارة المماليك عبر البحر الأحمر ، وكان رائدهم في هذا المجال جنوه التي اتصلت بإيلخانات فارس لتحويل تجارة المحيط الهندي إلى الخليج العربي بدلاً من البحر الأحمر "١" . وازداد تفكير الأوربيين في كشف طريق آخر غير طريق البحر الأحمر منذ بدأ السلاطين المماليك في احتكار بعض السلع والبضائع ومنذ أن أبطلوا التعامل بالنقد الأجنبي وأحلوا محله النقد المملوكي وقد تجلى ذلك في عهد الأشرف بوسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٢٨م) . الذي أبطل التعامل بالنقد الأجنبي وسك بدلاً منه الدينار الأشرفي "٢" . إذ كان إبطال الأشرف بوسباي التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي سبباً في ضيق التجار الأوربيين وتفكيرهم في منافذ أخرى "٣" ، وزاد من هذا الاتجاه أن العملة المملوكية لم تكن تتمتع بالاستقرار ، بل كثيراً ما تعرضت للتذبذب والانهيار اللذين يؤديان إلى حدوث الضرر الشامل على حد تعبير ابن إياس "٤" .

وهناك عدد من العوامل الأخرى التي لعبت دوراً هاماً في نزع الثقة من المشاركة المملوكية في أواخر العصر الوسيط ومن ذلك ارتفاع قيمة المكوس والضرائب المفروضة من قِبَل المماليك على التجارة والتي وصلت في زمن الغوري إلى عشرة أمثال العشر أي ما يعادل قيمة البضاعة الواردة إلى مصر تماماً "٥" ومنها ـ أيضا ـ كثرة الأوبئة ومنها الطاعون الذي كان يتهدد المراكز التجارية المهمة في الدولة المملوكية . "٦" ولم يكن عبث الفرنجة بشواطئ البحر المتوسط قرب الاسكندرية ودمياط واستيلائهم على كثير من البضائع والتجارات "٧" سبباً أقل أهمية ، خاصة أن ذلك التعبث كان قد ازداد مع زيادة الضعف والاضطراب في أركان الدولة المملوكية .

---

١) البحرية في عصر سلاطين المماليك . ابراهيم حسن سعيد . د . ص ١٤٨
٢) العصر المماليكي في مصر والشام . سعيد عاشور . د . ص ٢٩٥
٣) المرجع السابق نفس الصفحة
٤) بدائع الزهور . ابن اياس . جـ ٣ ص ٢٠ وما بعدها
٥) مصر في عصر المماليك الجراكسة . ابراهيم طرخان . د . ص ٢٩٠
٦) بدائع الزهور . ابن إياس . . جـ ٣ ص ٢٦ وما بعدها
٧) المرجع السابق . جـ ٣ ص ٧٥

ومما يذكر أن هذه العوامل المملوكيه قد تضافرت مع عامل جغرافي وسياسي مهم وهو أنه قد أدت الظروف السياسية أحياناً إلى إغلاق البحر الأحمر أو الخليج العربي أو الاثنين معا في وقت واحد ، وهو ما يتسبب عنه انقطاع مدد البضائع الشرقيه عن أوربا إلا بالقدر الذى يمكن فيه سلوك الطريق البرى غير المأمون عبر آسيا "١" وتضافرت الجهود الأوربيه من هذا المنطلق ـ بالإضافه إلى العوامل الأخرى ـ إلى أن تمكن فاسكو دى جاما من الوصول إلى الهند فى أغسطس ١٤٩٨م عبر رأس الرجاء الصالح ، وكان ذلك إيذانا بتوقف التجاره المملوكيه من جهة،وإيذانا بثورة فى تجاره أوربا ، ومجداً عظيماً للبرتغال ـ على حد تعبير لوريمر؛إذ أصبح ملوكه منذ ذلك الحين ينعتون أنفسهم بـ (سادة الفتح والملاحه والتجارة فى الهند والحبشه وجزيرة العرب وفارس) "٢" . ومما يؤسف له أن ذلك المجد الزائف لم يكن إلا على حساب شعوب أخرى هى الشعوب الإسلاميه فى الهند وفارس وبلاد العرب وشرق أفريقيا والمغرب .

طرق المواصلات :ـ *

تعددت الطرق البرية والبحرية التى كانت تربط تجاره الشرق بالغرب منذ زمن طويل ، ومع أن بعضها قد أهمل فى فتره من الفترات إلا أنه لم يهمل تماماً وإنما ضعف شأنه وقلّ رواده نتيجه لظروف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية خاصة . ومع أن الطرق البريه بين الشرق والغرب عبر آسيا كانت قد أهمل شأنها في القرن الحادى عشر إلاّ أنها عادت تلعب دوراً ما فيما بعد ، ولكنها بالتأكيد لم تكن الطرق الرئيسيه لمعظم المنتجات التي آثر أصحابها والمتجرون فيها أن يتم نقلها بالطرق البحريه عبر الخليج العربى والبحر الأحمر حيث فاز الأخير بنصيب الأسد في تلك العمليات التجارية .

---

(١) دليل الخليج ،القسم التاريخي . ج . ج لوريمر . جـ ١ ص ٩

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٩

* انظر الخريطة رقم (٣) . ص٥٥٨ وتبين طرق المواصلات البرية والبحرية

ومما يؤكد أن الطرق البرية عبر آسيا لم تهمل تماماً في فترة البحث أن هذه الطرق كانت تخدم تجارة الدولة العثمانية مع الشرق من جهة ومع باقي بلدان أوربا من جهة ثانية ، وفضلاً عن ذلك فإن الطرق البرية لا يرتبط استخدامها بموسم معين أو فترة زمنية ما ، وهذا بخلاف الطرق البحرية التي كانت تعتمد في العصور الوسطى، وإلى حد كبير، على حركة الرياح الموسمية وتتأثر تحسناً أو رداءة تبعاً لحركة تلك الرياح ونشاطها وموعد قدومها .
وهذا هو ماجعل التجار يسلكون المعابر البرية مضطرين لتلبية حاجة السوق وإرضاء المستهلك الأوربي الذي يدفع بسخاء نظير ما يشتريه من بضائع الشرق .

كانت الصين ترتبط ببلاد فارس والخليج العربي عن طريق الصغد (بخارى وسمرقند) وهذا الطريق يمتد بمحاذاة جبال سيان شان ويمر بنوفان وكاراشان وكوتشن ثم يجتاز ممر تريك الجبلي غربي الكاشغار ثم يمتد إلى إقليمي فرغانة وأرسروشنال ، مارا بأسواق بلاد الصغد القديمة (بخارى وسمرقند) ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربي ويجتاز ميرف حتى يصل بلاد فارس والخليج العربي "١"
وكان هناك طريق بري قديم عبر البنجاب ، ومعابر جبال الندكوس ، وآخر من كابيا قرب كابول وأوتكاندا القريبة من بشاور ثم إلى الأقاليم البيزنطية عند أرتاجزات أو نصيبين "٢" . وكانت الطرق القارية للواحات تقود مابين النهرين إلى بلاد فارس وآسيا الوسطى فبلاد الترك إلى الصين الشمالية أو إلى الهند الشمالية الغربية "٣" .

أما الطرق البرية بين آسيا وأوربا فمتعددة ، منها ما يخرج من تركستان إلى شرق إيران إلى حدود أرمينيا فسوريا أو القسطنطينية ويمر هذا الطريق بعدد من المدن مثل دارا وأرتكساتا وكاليفيكوم ونصيبين "٤" . ومنها ما يتجمع

---

(١) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى . ف . هايد . ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) المرجع السابق ص ١٩

٣) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . ج ٣ . ص ٥٤

٤) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . أرشيبالد لويس . ص ١٦ ، ١٧

من مصادر الإنتاج إلى بخارى ويتفرع منها فى ثلاثه طرق : الأول يتجه من بخارى إلى جنوب بحر قزوين (الخزر) ويمر بتبريز ثم يعبر آسيا الصغرى إلى البحر الأسود فالقسطنطينيه ومنها إلى مختلف أسواق أوربا . والثانى ينطلق من بخارى إلى دجله أو الفرات ومن هناك إلى سواحل البحر المتوسط فالموانى الأوربيه بطريق البحر . أما الثالث فيتجه من بخارى إلى شمال بحر قزوين عبر وادى نهر الفولجا ثم الى سواحل البحر الأسود الشماليه،وقد كان هذا الخط كثير الاستخدام خلال القرنيين الثالث عشر والرابع عشر "١" .

وكذلك كانت هناك ثلاثه طرق رئيسيه تمر عبر الأناضول وتربط بين أوربا والشرق ، كان الأول يمتد من أسكدار ماراً بخليج أزميت إلى أزنيق و(أسكى شهر) فقونيه وأدنه إلى سوريا وأخيراً إلى أرض الجزيره فالأناضول بينما كان الثانى يربط بين أوربا وإيران ويبدأ من أسكدار ماراً بأماسيا وأزميت وبولى وأرزنجان أو أرضروم ومن ثم إلى الشرق . أما الطريق الثالث فيبدأ من أسكدار فأماسيا ثم يتفرع من هناك إلى طوقات فسيواس ثم يمر بملطيه وديار بكر حتى يصل الى الموصل فبغداد "٢" وهناك طريق آخر كان يجتاز القسم الجنوبى من الامبراطوريه التركيه ، ويقطع مسافه طويلة عبر صحراء جنوب غربى بحيره لوب حتى مملكتى خوتان ويرقند ثم يجتاز غالبا هضاب البامير المرتفعه وإقليمى باداقشان وطخارستان ليصل أخيراً إلى الهند عبر ممر باميان ومدينه غزنه . وكان هذا الطريق مستخدماً منذ القرن السابع الميلادى "٣" . وهناك ـ أيضا ـ طريقان أحدهما يقع فى الشمال ويبدأ من تركستان ثم يتجه إلى بحر الخزر والبحر الأسود وينتهى عند شبه جزيره القرم "٤" ، أما الآخر فيبدأ من وسط آسيا ويمر محاذيا الساحل الشمالى لبحر قزوين وينتهي إما إلى بحر أوزون أو إلى شبه جزيرة القرم

---

١) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . القاهرة ١٩٧٣م . ص ١١٨ وما بعدها
ونحو الشرق . محمد عبد المنعم الشرقاوي . د . ص ١١ وما بعدها
٢) الحروب العثمانية الفارسية . محمد عبد اللطيف هريدى . د . ص ٤٤
٣) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى . ف . هايد . ص ٢٧
٤) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ١٦

حيث ينقل إلى سفن أخرى وتبدأ المرحلة الثانية حيث تبحر السفن محاذيه للساحل الغربي للهند والساحل الجنوبي لكرمان فالخليج الفارسي "١" . وكانت الملاحه في الخليج تقطع على مرحلتين أيضاً : الأولى من عمان الى سيراف ويبلغ طولها مائه وستين فرسخاً ، والثانية من سيراف إلى البصرة وطولها مائة وأربعون فرسخاً "٢" .

وعند البصره كانت الحركه التجاريه تسلك عدة طرق منها ما يتجه إلى بلاد الشام فيصر بحلب وأنطاكيه ومنها إلى آسيا الصغرى فدول أوربا "٣" . ومنها ما يتجه من شواطىء الخليج إلى الرقه فنصيبين وآسيا الصغرى إلى أرتاجزات إلى البحر الأسود ومنه إلى نهر فاز وبعده نهر أراكسى، إلى بحر قزوين فبلاد الأجزوس "٤" . ومنه ما يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرمله ودمشق ثم إلى مصر ومنها إلى بلاد المغرب عبر طرابلس وبرقه فشمال أفريقيا ومن جبل طارق إلى الأندلس فأوربا "٥" .

ويؤخذ على الطرق البريه عبر آسيا أنها كثيره التكاليف شاقه ، لا تتناسب إلا مع المواد والأدوات الثمينة ، أما البضائع العاديه فكان التجار يفضلون الحصول عليها عن الطرق البحريه "٦" وكانت الطرق البريه ـ كذلك ـ في كثير من الأحيان أكثر عرضه لنهب قطاع الطرق وسلب الجماعات المعاديه في وسط آسيا "٧" . وكثيراً ما كانت هذه الطرق عرضه للتقلبات السياسيه ، فعندما كان أباطره المغول يقدمون للتجار التسهيلات الكبيره ،

---

١) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى . ف . هايد ص ١٨

٢) مروج الذهب . المسعودي . جـ ١ ص ٢٢٧ . وأخبار عن عمان في الأدب الجغرافي العربي ماديلا مارين . حصاد ندوة الدراسات العمانية . جـ ٧ ص ٨٧ ، ٨٨

٣) القوى البحرية التجارية . أرشيبالد لويس . ص ١٧ . والفتح العثماني للأقطار العربية نيقولاي إيفانوف . ص ٣٣

المرجع السابق ص ٣٢   Wilson A.T:The persan gulf,pp10,13

٤) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى . ف . هايد . ص ١٧ - ١٨ . والبحرية في عصر سلاطين المماليك ابراهيم حسن سعيد . د . ص (١٦١ ٥) المسالك والممالك ص ١٥٣

(٦) Pirenne:The Tidesof History,vol.2p379

(٧)

كإقامة الفنادق على طول الطريق ، وتخفيض أعباء الرسوم الجمركية ، والسماح للتجار بالتغلغل داخل الامبراطوريه للوصول إلى هرمز، وكاليكوت، وكولم وكانتون وغيرها من موانئ الصين ، وعندما عمل إيلخانات فارس - أيضا - على تشجيع الملاحه في الخليج والتي كانت قد تأثرت بسبب زيادة أعمال القرصنه البريه والبحريه على طول الطريق ، عندما فعلوا ذلك نشطت التجارة الهندية عبر آسيا "١" ، وحين آلت الامبراطوريه البيزنطيه إلى السقوط في الوقت الذى كانت فيه المناطق الآسيويه تخضع لغارات تيمور لنك المدمرة وخلافات أبنائه من بعده ، ضعف أمر هذه الطرق وتأثرت به جنوه إلى حد بعيد بينما استطاعت البندقيه أن تحافظ على علاقاتها التجاريه عبر آسيا "٢" بالتعاون مع العثمانيين . ومهما يكن من أمر فإن أمر الطرق الآسيويه التى تبدأ من الخليج أو تمر بالأناضول كان قد آل إلى الضعف بدءاً من القرن الحادى عشر واستمر حاله كذلك طوال القرنين التاليين وتقدم عليه طريق البحر الأحمر فشواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى حد كبير "٣" .

يعتبر الخط الملاحي القادم من الهند إلى البحر الأحمر الخط الرئيسى والأكثر أهميه فى القرن الخامس عشر وكان يبدأ من سواحل الصين عند كانتون إلى سيلان فمضيق ملقا متبعاً خطاً مستقيماً إلى البحر العربى عند هرمز أو مسقط ، وقد يسلك طريقاً ساحلياً فيمر بسواحل مالبار فكجرات فموانئ السند وفارس إلى البحر العربى عند مسقط حيث يمر بالشواطئ العربية متجهاً إلى الغرب حتى ميناء عدن ثم يدخل مياه البحر الأحمر

---

١) إيضاحات جديدة عن تحول تجارة البحر الأحمر . أحمد دراج . د . ص ١٨٨
والحركة الصليبية . سعيد عاشور . د . جـ ٢ ص ١٢٩
٢) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٠٩
٣) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ٢٨٨ والعلاقات بين الصين والعرب في العصر الوسيط . ذانج هو . جـ ٦ . ص ٣٢

ويمر بموانئه الرئيسية قبل أن ينتهي إلى السويس أو العقبة .

ومن الجدير بالذكر أن الطرق التجارية في البلاد العربية كانت تسلك مسالك متعددة وذلك تلبية للحاجات المحليه من جهة وبحثاً عن الأسواق ومراكز الترانزيت إلى الغرب حيث كانت هذه منتشرة على سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وعلى مجرى النيل أيضا . وكان هناك طريق يبدأ من ميناء الشحر على الساحل الجنوبي لليمن وينطلق إلى عدن وهناك يتفرع إلى فرعين : فرع جبلي يخترق الهضبة اليمنية ماراً بتعز وإب وذمار وصنعاء وصعدة ومنها إلى مكه التي كانت مركزاً لأسواق الجزيره العربيه ومتسوقاً لعامه المسلمين . وفرع سهلي ينقسم بدوره إلى شقين أولهما يمرّ بمحاذاة الساحل ويربط بين الموانئ اليمنية التي تمتد على طول ساحل البحر الأحمر حتى جيزان شمالاً ، وثانيهما يمرّ من داخل تهامة عبر المدن التهاميّة الهامة مثل موزع وحيس وزبيد وصور ثم يلتقي بالطريق الساحلي عند جيزان ، وهناك يواصل طريقه على الساحل إلى جده أو يتجه إلى الداخل حتى مكة "١" .

وهناك طريق آخر يبدأ من عيذاب على شواطئ البحر الأحمر ومنها إلى قوص ومن هناك تنقل في النيل إلى القاهرة ومنها إلى الاسكندرية أو دمياط وقد ظل هذا الجزء من الطريق مستخدماً بصورة فعالة إلى أوائل القرن الخامس عشر ثم قلّ استخدامه لطوله وكثره النفقات التي يتطلبها السفر خلاله "٢" ، فضلاً عن وجود موانئ أخرى أقرب إلى القاهره أو الشام من جهة أخرى وثمة طريق ثالث كان ينطلق من السويس إلى القاهرة وكانت تحتكر عمليات النقل البرى فيه أربع قبائل وكانت كل واحدة تسلك طريقاً خاصاً بها وهذه القبائل هي قبائل طرابين والحويطات وعرب الطور والعايدى وكانت هذه القبائل تقدم الجمال بحماليها . وكان الجمل الواحد يحمل من

---

١) تاريخ اليمن . عمارة اليمني . ص ٤٠ - ٤٢

٢) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ١٢٣

٣) دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام . ليلى عبداللطيف أحمد . د . ص ١٢٤

خمسة إلى ستة قناطير في الرحلة الواحدة "١" . وفي القاهره كانت تشحن السفن من بولاق "٢" وتنطلق في فرع رشيد إلى قرب مدينه الرحمانيه ومن هناك إلى الاسكندريه إما بالملاحه في ترعه كانت تصل ما بين النيل وبين الاسكندرية ،أو على ظهور الدواب "٣" . وقد تنطلق السفن من القاهره الى سواحل البحر الأبيض المتوسط عن طريق دمياط وكان هذا الطريق الأخير يستخدم في حاله الشحن إلى موانئ بلاد الشام وتركيا . وقد كان طريق السويس ـ القاهره هذا هو الأكثر أستخداماً منذ أوائل القرن الخامس عشر وخاصه بعد زوال الخطر الصليبي الذى كان يتهدد مصر وبلاد الشام (٤) .

أما الطريق الرابع فكان ينطلق في البحر الأحمر حتى العقبه ومنها إلى موانئ بلاد الشام "٥" ماراً بمراكز هامه كالرمله ودمشق حتى يصل إلى حلب أو بيروت أو طرابلس أو أنطاكيه حيث يعاد الشحن من هناك إلى أوربا عبر عدة طرق .

وكانت التجاره تسلك من الموانئ المصريه إلى أوربا عدة طرق منها طريق الشام الذي أشير إليه سابقاً ومنها طريق مصر ـ بلاد المغرب ، ومنها إلى أوربا وكانت الحركة التجارية بين مصر والمغرب تسلك طريقين أحداهما ساحلى وينطلق من الاسكندرية ماراً بالموانئ الساحليه "٦" كبرقه وطرابلس وقابس وبجاية ووهران وسبته ومنها إلى الأندلس فالممالك الأسبانيه في الشمال

---

(١) دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام . ليلى عبد اللطيف أحمد . ص ١٢١
(٢) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ١٢٤
(٣) المرجع السابق ص ١٢٤
(٤) المرجع السابق ص ١٣٢
(٥) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢
(٦) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . جـ ٣ ص ٥٤

فى الموقع الذى شيّد فيه البيزنطيون مدينتي بستو وخرسون باعتبارهما مخفرين متقدمين "١" . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطرق لم تكن كلها مستخدمة في آن واحد ، بل كان يزدهر إحداها على حساب غيره بينما يظل باقى الطرق يقوم بدور ثانوى ويخدم المناطق القريبه منه .

وهناك العديد من الطرق بين الشرق والغرب تنطلق من الصين والهند شرقاً عبر المحيط الهندى والخليج العربى ثم تنطلق براً عبر آسيا فى عدة اتجاهات . فكانت السفن تقلع من الصين والهند إلى بحر العرب ومن ثم إلى الخليج العربى أو البحر الأحمر عن طريقين أحداهما ساحلى يمر بمدن الساحل وموانئه الهامه للتزود بالمؤن أو الاتجار أو غير ذلك ، بينما يتخذ الآخر خطاً مستقيماً فى أعالى البحار وكانت تسلكه السفن ذات القدره على التحمل وقطع المسافات الطويلة "٢" وكان هذان الطريقان يبدآن من الطرف الجنوبي للصين سواء من ميناء كوانشو في فوجيان أو من كانتون إلى جزر الهند الشرقيه حيث يمر بسيلان والجزر الأندونيسيه إلى مضيق ملقا حيث ميناء كويلون . ومن هناك تنقسم الطريق البحرية القادمة من الصين إلى فرعين أحداهما ساحلى وهو الذى يمر بسواحل الملبار إلى كجرات فسواحل السند حيث يمر بموانئ الديبل والمنصورة ومكران ثم إلى جزيرة قيس وهرمز حيث يدخل الخليج إلى سيراف والبصرة فبغداد ، أما الآخر فينطلق من مضيق ملقا إلى هرمز ومسقط فالخليج مباشرة وفي خط مستقيم دون أن يمر بالساحل "٣" . ويبدو أن الطريق الساحلي كان يقطع على أربعة مراحل: الأولى من الصين إلى سيلان

---

(١) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى . ف . هايد ص ٢٤

(٢) صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي . محمد عدنان مراد . دمشق ١٩٨٤م ص ٩١

(٣) عن هذين الطريقين راجع : المسالك والممالك ص ١٥٣ .
وطرق التجارة الدولية .نعيم زكي فهمي .د . ص ١١٨ . ونحو الشرق . عبد المنعم الشرقاوى . د.ص ٧ . والبحرية في عصر السلاطين المماليك . ابراهيم سعيد .د ص ١٩

ومنها عبر ممرات البرانس إلى بلاد الإفرنج والغرب الأوربى . وقد تخرج من الأندلس مباشرة عبر المحيط وتستمر حتى الجزر البريطانية "١" . أما الطريق الآخر فهو صحراوى وتتبعه قوافل فزان المغربية ، ويمر عبر الصحراء الغربية فالواحات الخارجة فأسيوط فالقاهرة "٢" . وبواسطه هذين الطريقين كان المغاربه حلقه وصل مهمة فى عمليات الاستيراد والتصدير بين الموانى التجارية العربية على البحرين المتوسط والأحمر وبين الموانى الأوربيه التى كان لهم فيها وكالاتهم التجارية كما كان لهم فيها وكلائهم المقيمون فى تلك الموانى "٣" .

وكانت البندقية المركز الرئيسى للتجارات الشرقيه خلال القرن الخامس عشر وحتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وكانت البضائع الشرقيه تنقل إليها إما من الاسكندرية ودمياط وإما من الموانى الشامية وخاصة حلب وأنطاكيا "٤" . ومن البندقيه أو جنوه كانت هناك عدة طرق تجارية تسلكها البضائع الشرقية فكان هناك طريق ينطلق من البندقيه إلى البحر الأسود للاتجار مع الروس والتتار وطريق آخر ينطلق من البندقيه عبر بحر الادرياتيك إلى الامبراطورية البيزنطية إلى القسطنطينيه فموانى بلاد الإغريق ورومانيا . وثم طريق يربط بين البندقيه وبلاد الفلمنك ويستمر إلى أسبانيا حيث يعبر مضيق جبل طارق الواقع على الساحل المغربى ثم يمر بأعلى سواحل البرتغال وفرنسا ويصل إلى أنجلترا "٥" .

وكذلك كانت البضائع الشرقيه تنقل عبر طرق أخرى : فكان تجار بيزه وجنوه ينقلون بضائعهم إلى شواطئ أوربا بين برشلونه ونهر التيبر وكان يربط بين برشلونه ومونبلييه على مدخل طريق نهر الروان وناربون "٦" ومن مونبلييه ومرسيليا

---

(١) المغاربة في مصر في العصر العثماني . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . المجلة التاريخية المغربية ص ٢٦

٢) العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية . عبد الرحيم عبد الرحمن د . مجلة العلوم الإنسانية . العدد التاسع ١٩٨٢م . ص ١٤ - ١٥

٣) المغاربة في مصر . ص ٥٨

٤) العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى . قايد عاشور . د . ص ٢١٦

٦) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ٣٤٧ - ٣٤٨

إلى غرب أوربا "١" . كما كانت التجارة تمر إلى ألمانيا وفرنسا عبر وادى البو أو عبر ممرات برنر وبونتيبه ، ويلوكن إلى ألمانيا وقد كان أباطرة ألمانيا يفضلون السير عبر ممر بونر "٢" . وقد كانت تجارة البندقية تنطلق من البحر الأدرياتى إلى سهل لمبارديا فألمانيا، وكانت الطريق إلى فرنسا عبر ممرات الألب "٣" ومهما يكن من أمر هذه الطرق فإن أشهرها هو طريق الراون وممرات الألب وحوض الدانوب "٤" .

ومن الجدير بالذكر أن هناك حلقة وصل مهمة في التجارة الشرقية مع أوربا وتلك هى تجارة شرق أفريقيا التى كانت تنطلق إلى الهند من جهة وإلى البحر المتوسط وغرب أوربا من جهة ثانية . فكانت شرق أفريقيا تتصل بالبحر المتوسط عن طريق البحر الأحمر حيث تمر الطريق بموانى عيذاب وسواكن وبربر وتستمر على طول سواحل شرق أفريقيا "٥" وحتى سوفالا فى أقصى الجنوب وكذلك كانت التجارة بين شرق أفريقيا والهند تسلك الطرق المعروفة بين الهند وبحر العرب ، وهناك تمر بموانى عمان وحضرموت كالمكلا والشحر والشحير وعدن إلى سوقطرى ومنها إلى السواحل الصومالية ثم تنحدر جنوباً على طول الساحل إلى زنجبار وسوفالا وموزمبيق . وكذلك كان هناك خط مباشر بين موانى عمان وساحل شرق أفريقيا وخاصه بين عمان وزنجبار "٦" أو بين عمان وكلوه .

الرياح الموسمية :*_

وكانت الطرق البحرية بين الصين والهند من جهة وبين شرق أفريقيا أو البحر الأحمر من جهة ثانيه تتبع حركة الرياح الموسمية وكانت هذه الرياح

---

(١) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ٢٤٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٧ _ ٢٤٨

(٣) المرجع السابق نفس الصفحه

(٤) المرجع السابق ص ٣٩٢

(٥) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . ج ٢ ص ٦٢

٦) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ٩١

* انظر الخريطة رقم (٤) ص ٥٥٦ وتبين حركة السفن تبعا للرياح الموسمية

تهب بانتظام في اتجاهين متعاكسين تماما من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وبالعكس وهو الأمر الذى يسّر حركه التجاره بين المحيط الهندى والبلاد العربية وشرق أفريقيا ، وكانت هذه الرياح تهب فيما بين شهرى ديسمبر ومارس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي فتدفع معها السفن والمراكب الشراعيه القادمة من الهند الى البحر العربي وشواطئ أفريقيا وفي نفس الوقت كان البحارة العرب يستغلون هبوب هذه الرياح فيُسَيِّرون رحلاتهم إلى أفريقيا للاتجار معها ، والقيام بعمليات الاستيراد والتصدير المعتاده ، ويتغير اتجاه الرياح الموسمية فتهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فيما بين شهرى أبريل وسبتمبر وعندها تكون فرصه التجار العرب في العوده إلى موطنهم الأصلي ، كما يمكن للتجار الأفارقه والعرب ومن كان مقيما بسواحلهم من الهنود والصينيين أن يبحروا عبر مياه المحيط الهندى باتجاه سواحل الهند والصين "١" . وقد أصبح العرب والهنود والصينيون بالطبع مع الزمن على خبره تامه بمواقيت الرياح الموسميه واتجاهاتها ، مما نظم رحلاتهم إلى الساحل الأفريقي تنظيما دقيقا وذلك تبعاً لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم "٢" .

وتبعاً لحركة الرياح الموسمية الرطبة التي تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي كان التجار يبحرون من شواطئ الصين باتجاه ملقا وجنوب الهند في شهر نوفمبر حيث كانوا يبدأون رحلاتهم من كانتون أو كوانجو ويقضون أربعين يوما في البحر قبل أن يصلوا إلى لانلى عند طرف سومطره الشمالي ومع بدء العام الجديد يبدأون رحلتهم الجديدة التي تستغرق حوالى شهر حتى تصل إلى (جو - لين) كويلون ، عند الطرف الجنوبي لشبه القارة الهندية

---

١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ١٠
وتاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ٤٧

٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . ص ٤٧

وكانت بمثابة الميناء التحويلي بالنسبة للتجارة الصينية ، حيث تنقل بعدها إلى السفن الهندية أو العربية وتنقل للخليج وشرق أفريقيا أو البحر الأحمر وكان ذلك يتم مع هبوب الرياح الموسمية القادمة لأن الأنواء تكون في ذلك الحين قد تغيرت ، ولذا كانت الرحلة تستغرق نحواً من ثمانية عشر شهراً في الذهاب والإياب "١" . وكثيراً ما كانت السفن تقلع من الصين إلى السواحل العربية مباشرة حيث تبدأ من كانتون أو كوانجو في شهر نوفمبر وتصل إلى سومطرة في نحو أربعين يوماً ثم تقلع عبر المحيط الهندي إلى الشواطئ العربية مباشرة أو حتى إلى سواحل شرق أفريقيا وتكون قد وصلت مع نهاية هبوب الرياح الشمالية الشرقية حيث تقيم هناك إلى أن تبدأ هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وعندها تبدأ رحلة العودة ، وكانت السفن عبر هذا الطريق المباشر تتخذ خطاً منحنياً تجنبا للعواصف الاستوائية ، ولذلك كانت السفن تتجه جنوبا – في طريق العودة – حتى جزر المالديف ثم تدخل سواحل سومطرة "٢" .

ويتبع البحر الأحمر نفس دورة الرياح الموسمية التي كانت غالبا ما تتحكم فيه "٣" ، ولذلك كانت السفن تقلع من باب المندب باتجاه السويس والعقبة من بداية شهر ديسمبر وحتى أوائل فبراير ، أما الإقلاع من السويس باتجاه باب المندب فكان – أيضا – يبدأ من أبريل وحتى أواخر شهر ديسمبر "٤" وكانت السفن تقطع المسافة من بين جدة والسويس في خمسة عشر أو ستة عشر يوماً إذا كانت الرياح مواتية ، أما الرحلة العادية فكانت تستغرق عشرين أو اثنين وعشرين يوماً ، وكذلك كانت الرحلة القادمة من ينبع تستغرق خمسة وعشرين أو ستة وعشرين يوماً "٥" .

---

١) العلاقات بين الصين والعرب في العصر الوسيط . ذانج هو . ج ٢ ص ٣١

(٢) المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢

٣) سفرنامة . ناصر خسرو علوى . ص ٧٣

٤) دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام . ليلى عبد اللطيف . د . ص ١٢١ .
وتجارة مصر في البحر الأحمر . عطية القوصي . د . ص ١١

٥) المرجع السابق . نفس الصفحة

البضائـــــع : *

كـانت البهارات والتوابـل أهـم البضائـع وأكثرها رواجـاً في العصـر الوسيـــط ومطـلع العصـر الحديـث ، ولكنهـا لم تكـن وحـدها ذات الأهمية الكبرى في حركة التجـارة العالميـة ، إذ كانت تجـاره الذهـب والأخشـاب والرقيـق وبعض المـواد الأخـرى لا تقل أهميـه عنهـا . ومع ذلـك يلاحـظ الباحـث أن تجــارة التوابـل اكتسبت شهرتهـا الخاصـة وتفوقـت على غيرهـا من البضائـع لندرتهـا في الغرب من جهـة ولاحتكـار بلدان بعينها لعمليـات الانتاج والتصدير ، وذلـــك بحكـم طبيعتهـا الجغرافيـة واهتمامـات سكانهـا منذ القدم من جهـة أخرى .

كانت الصيـن تشارك في التجـارة الشرقيـة بكـثير من المنتجـات والبضائـع ومـن ذلـك الكافـور الجيـد والعـود والكاذى والنارجيـل والبقـم (الرمان) "١" والغلغل والقرنفـل والدارصيني والبهارات والصندل والذهـب والأبانـوس "٢" وخشـب النـد والمسـك "٣" وكذلـك الفخـار من سيـام والخزف الصينى والمعـادن "٤" بالإضـافـه إلى بعـض أنـواع الأخشـاب الأخـرى ، وبعـض المنسوجـات "٥" وخاصـه الحريريـة منهـا .

وتنتـج الهنـد بالإضـافة إلى مشاركتها في تجـاره الصيـن بالاتجـار والنقـــل تنتـج الأرز والدخـن والقمـح ، وكـانت هذه المنتجـات تصـدر إلى السواحـــل العربيـة وشـرق أفريقيـا على وجـه الخصـوص "٦" وكذلـك كانت تصـدر الحديـــد والسيـوف والصنـدل إلى عمـان "٧" كمـا كانت تنتج الذهـب "٨" والمنسوجـــات

---

(١) صبح الأعشى . القلقشندي . جـ ٥ ص ٧٥

(٢) ص١٥٣ ، ومـا بعدهـا .

(٣) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . جـ ٣ ص ٩٧ . والعرب والملاحة في المحيط الهندي . جورج فضلو حوراني . ص ١٩٥

٤) العرب والملاحة في المحيط الهندي . جورج فضلو حوراني . ص ٢٤٧

٦) انظر وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية . جيان . ص ٢٥

٧) العرب والملاحة في المحيط الهندى .ص ٢٤٧ .

٨) معجم البلدان . ياقوت الحموي .ص١٦٧

* انظر الخريطة رقم (٥) . و فيها توزيع لأهم البضائع حسب الأقاليم . ص ٥٦ .

الحريريــه والتوابــل والكافــوروالمســك والبخــور والعــود "١" . وهنــاك الكثير من المنتجات الهنديه مثل آلات الصيادلة والعطر بأنواعه حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندروس والصبر والرصاص والخيزران والغضار والبلور والغلفل إلى غير ذلك "٢" . وكان إقليم السند يزود النشاط التجارى بالذهب والعقاقير والآلات والفانيذ والأرز والموز وغيرها من عجائب التجارات والبضائع رخيصه الثمن "٣" .

واشتهرت بلاد فارس بالمنسوجات القطنيه والصوفيه فضلاً عن شهرتها ببعض أنواع العطور فماء الورد المنتج في كوار وجور هو أفضل أنواع ماء الورد في العالم ، وهو يصدر إلى سائر أنحاء الأرض بدءاً من بلاد الهند وحتى بلاد الأندلس وسائر الممالك الاوربية "٤" .

وكانت موانىء السواحل العربيه تتميز بوفرة البضائع فيها وهى متنوعه ما بين منتجات محليه وبضائع مستوردة يلعب فيها العرب دور التجار والوسطاء في وقت واحد "٥" . فمن المنتجات العمانيه اللؤلؤ والنخيل والصبر الأسود واللامع والنحاس والسمك والأقمشه واللبان "٦" ـ ويأتى الإنتاج الرئيسى للبان القابل للتسويق من إقليم القارا ـ "٧" وكذلك النارنج والأترج المدور "٨" ، والمقل ـ وهو يشبه الكندر "اللبان" ويستعمل فى الأدوية ـ

---

١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ٩١
٢) أحسن التقاسيم . المقدسي . ص ٩٧
(٣) المرجع السابق ص ٤٧٤
٤) صورة الأرض . ابن حوقل . ص ٢٦٠
٥) مروج الذهب . المسعودي . جـ ٢ ص ٨
٦) أخبار عن عمان . ماديلا مارين . جـ ٢ . ص ٨٠ - ٨١
٧) النشاط الملاحي العماني . آر . سارجنت . حصاد ندوة الدراسات العمانية جـ ٦ ص ١٢٧
٨) مروج الذهب . المسعودي . جـ ٢ ص ٤٣٢

والتامول والزنجبيل والتمر هندي "١" . ومن المنتجات العربية أيضا المن وهو من أهم سلع اليمن في العصور الوسطى وقد أقبل عليه الأوربيون إقبالا شديداً . وكذلك التمر الذى كان ينتج فى عمان والحجاز واليمن والأخيرة كانت تصدر الجمال وأحجار العقيق "٢" .

وكان التاجر العربى يتجّر فى الحديد والعاج وجلود النمور ، والصمغ العطرى والملح والأقمشه الهندية والأدوات الحديدية والأوانى الفارسية المصقولة والخزف الصينى والذهب والسجاجيد الصغيرهوالمنسوجات الحريريه والمصنوعات المعدنية والأحجار الكريمة كالبجادى والعطور والبنفش الماذنبى والبلخشى "٣" والأبنوس والكافور والعود والصندل والأفاوية كلها إلى غير ذلك مما يتسع ويطول شرحه "٤" .

وكان العرب فى سواحل عمان يستوردون المنسوجات الحريرية والديباج من الصين والثياب القطنية من الهند . وتحتل الأخشاب مكانة بارزة فى قائمه الواردات حيث كان خشب الساج يستخدم فى بناء البيوت والخيزران فى صناعة الرماح وخشب جوز الهند فى صناعه السفن ، وكان يوتى بهذه الأنواع من الهند وأندونسيا وسيلان وجزر المالديف "٥" .

وكانت الإمارات العربيه فى سواحل شرق أفريقيا تصدر الذهب والعنبر والمواد الترنجية والشمع والريش والمنتجات الاستوائيه وجلود البقر وبعض أنواع الطيور والكافور والأبنوس والعاج ـ الذي كان تصديره سببا فى ندرته في العالم الإسلامى "٦" ـ واشتهرت أفريقيا بتصدير الرقيق "٧" ولعبت

---

١) الروض المعطار في خبر الأقطار . الحميرى ، محمد عبد المنعم . بيروت ١٩٧٥م ص ٣٢٩
٢) سفرنامة . ناصر خسرو علوى . ص ٧٣
٣) التاريخ المبكر لعمان الإسلامية . جي . كيركمان . جـ ٥ . ص ٢٧٦
٤) رحلة السيرافي . ص ٧٨
٥) العرب والملاحة في المحيط الهندى . جورج فضلو حوراني . ص ٢٤٧
٦) مروج الذهب . المسعودي . جـ٢ ص ٨
٧) سفرنامة . ناصر خسرو ص ٦٠ . ودور عمان . حبيب الجنحاني . د . جـ ٣ ص ٩٢ - ٩٧

سواحلها الشرقية دوراً كبيراً في ذلك ، وقد راجت تجارة الرقيق لأنهم كانوا يمثلون القوة المنتجة الأساسية في جميع ميادين النشاط الاقتصادي .
فهم العاملون في الأراضي الزراعية الشاسعة ، وفي المعادن ، وحراسه القوافل التجاريه ، وفي البناء والصناعات وفي الأعمال المنزلية والجندية ولا سيما في فئة الحرس الخاص "١" ومن الجدير بالذكر أنّ تجارة الرقيق لم تقتصر على الرجال فقط بل شملت النساء أيضا ، فقد ذكر ابن بطوطه أنه قد عاد إلى طنجة في قافلة من الرقيق الجواري تضم نحواً من ستمائه فتاة .
وقد كانت تجارة الرقيق مربحة إلى الحد الذي استطاعت فيه أن تنافس تجارة الذهب "٢" .

وكانت مصر تنتج الزبوجد "الزمرد" والمعادن والمصنوعات الزجاجيه الصوف "٣" ومعدن الشب ـ الذي كان ينتج في أخميم بالوجه القبلي ـ وفي منطقتي البحيرة والخطارة "٤" ، هذا بالإضافة إلى كثير من المنتجات التي تميزت بها أرض مصر الخصبة . وكذلك كانت مصر تستورد الزيت والكشك والأبقار والخراف "٥" وجلود الأبقار وبعض أنواع الطيور والذهب وريش النعام والأبنوس والعاج والصمغ والروائح العطرية والأخشاب ذات الرائحه العطريه "٦" . وكانت الأخشاب أهم الواردات المصرية حيث كانت تستوردها ـ وخاصة خشب الأرز ـ لبناء السفن ، من بلاد الشام وآسيا الصغرى ، والأناضول والبلقان ، وغرب أوربا "٧" .

---

١) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . جـ ٣ ص ٩٢
٢) تحفة النظار . ابن بطوطة . ص
٣) سفرنامة . ناصر خسرو . ص . ٦٠ وما بعدها .
٤) قوانين الدواوين . ابن مماتي . ٣٢٨ - ٣٢٩
٥) سفرنامة . ناصر خسرو . ص ٩١
٦) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص ٤٩
٧) تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ ٢ ص ٢٥٧ وبدائع الزهور . ابن إياس جـ ٢ ص ١٨٢

وأخيراً كانت السفن الأوربية تأتى إلى سواحل الشام ومصر لشراء المنتجات الشرقيه ولتسويق بعض منتجات أوربا الهامه مثل الفراء والجوخ والأخشاب والحديد والنبيذ وغيرها من المنتجات الأوربية "١" . وقد كانت البندقيه مصدراً مهما لتوريد أخشاب بناء السفن إلى مصر ، وذلك بوغم أنها توقفت فى بعض الأوقات بسبب ضغوط الامبراطوريه البيزنطية "٢" . ونظراً لأن الأخشاب كانت مادة أستراتيجيه هامة فيما يتعلق بالسياسات البحريه فقد سارعت البندقيه إلى تقديمها إلى المماليك إبان الغزو البوتغالى للسواحل الشرقيه "٣" . وذلك لمساعدتهم على التصدى للبوتغاليين على أمل أن تستمر سيطرتها على التجاره الشرقيه ، وخاصة تجارة التوابل بالغة الأهميه فى العصر الوسيط .

السياسات الجمركية :ـ

أدت السياسات الجمركية المرنة سواء عبر طريق الخليج العربي أو عبر البحر الأحمر إلى نشاط حركة التجارة بين الشرق والغرب طوال العصر الوسيط تقريباً . فقد كانت النسبة الجمركيه على تجارة الترانزيت تتراوح ما بين اثنين واثنين ونصف في المائة (٢ ـ ٢,٥٪) "٤" . وكان لانتهاج الدولة المملوكية ـ خاصه في عهد أسره بنى قلاوون ـ سياسة جمركية متزنه، وفي الوقت الذي كثرت فيه الاضطرابات السياسية على جانب المعبر الخليجي بعد عهد الإيلخان بوسعيد ، أثر كبير في إنعاش طريق البحر الأحمر وتقدمه إلى الصدارة في التجارة الشرقيه مع أوربا "٥" .

ويبدو أنّ السياسات الجمركية كانت تلعب دوراً هاماً في اقتصاد الإمارات والممالك العربية في شرق أفريقيا وبحر العرب والخليج العربي حيث أنه كثيراً ما

---

١) العصر المماليكي في مصر والشام . سعيد عاشور . د . ص ٢٩٠ .
٢) البحرية الإسلامية في مصر والشام . أحمد مختار العبادى . د . ص ٢١٦ . والبحرية في مصر الإسلامية . سعاد ماهر . ص ١٧٠ .
٣) المرجع السابق . ص ٢١٦ .
٤) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص ٢١٥ .

(٥) المرجع السابق ص ١٤٩

كان الحاكم نفسه يشرف على حركة التجارة في مواسمها المعتادة فضلاً عن أن دور الجمارك كانت من المؤسسات الأساسيه فى معظم الموانى الوسيطة تقريباً . وعلى سبيل المثال فقد كان للمماليك دور للجمارك فى كل من جدة والسويس والطور وعيذاب والقصير على البحر الأحمر وقوص وبولاق على النيل وفى دمياط والبولس والاسكندرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط قبالة مصر فضلاً عن دور الجمارك في موانى الشام الهامه كطرابلس وصيدا وصور وعكا ، وحيفا وبيروت "١" . وكان يقيم فى دور الجمارك المقوّمون أو المثمّنون الذين يقدرون أثمان البضائع ثم تؤخذ عنها الجمارك بنسبه ١٠ ٪ أحياناً . "٢" .

لم تكن نسبة الجمارك ثابتة فى كل الأحوال ، فقد كانت تقل حتى تصل ٢٪ فقط فى بعض الأحيان ، ولكنها كانت ترتفع فى أحيان أخرى لتصل العشر أو السدس أو حتى الخمس أو الثلث . وقد وصلت أخيراً إلى النصف أو إلى ما يوازى ثمن البضاعة تماماً ، ومع ذلك فأن نسبة الجمرك كانت تسمى فى معظم الأحيان " " عشراً " "(٢).

وفي أواخر العصر الوسيط كانت نسبة الجمارك قد ارتفعت إلى حد كبير مما أدى إلى ارتفاع ثمن السلع الشرقيه ارتفاعاً فاحشاً بسبب الضرائب الجمركية الباهظه التى كان يفرضها حكام الدول الشرقيه الواقعه على الطريق،من أماكن تصديرها الى الشواطئ الأوربيه ، وبخاصه سلاطين المماليك فقد كانوا يفرضون رسوماً جمركية عند تفريغ البضائع من السفن في السويس ، ورسوما أخرى عند إعادة شحنها فى الاسكندرية . وقد بلغت الرسوم الجمركية التي تفرض في كل من المدينتين وحدهما ـ في بعض الأحيان ـ نحو سدس قيمة البضاعه " ٣" .

---

١) رحلة بن جبير . ابن جبير . ص ٢٥٠ وما بعدها
٢) أثر تحول التجارة العالمية . فاروق عثمان أباظة . دار المعارف . القاهرة ص ١٨
٣) المرجع السابق . ص ٣٢

ومع زيادة الرسوم الجمركية والتي كانت مصحوبة في معظم الموانى الشرقية بمكوس أخرى غير ثابتة وغير عادلة ، وتتبع نزوة السلطان ، ومع ارتفاع النسبة الجمركية المملوكية على عهد السلطان قانصوه الغوري ، والتي كان يجبيها حاكم جدة حسين الكردي على أساس العشرية من ثمن البضاعة "١" كان لابدّ أن تتأثر حركة التجارة عبر البحر الأحمر إلى حد كبير .
وهكذا ضعفت أهمية هذا البحر التجارية ، واتجه التجار إلى تشجيع التجارة عن طريق الخليج ، وتفضيلهم للتعامل مع المغول عبر آسيا بسبب ما يقدمونه من تسهيلات في المعاملات التجارية وفي حرية التنقل ونسبة الرسوم "٢" .

كانت سياسة المماليك المتأخرين المتطرفة في فرض الضرائب ، سياسة اقتصادية عامة ، وليست خاصة بالبحر الأحمر وحده فقد ازدادت الرسوم على التجارة الواردة إلى الاسكندرية ودمياط من السلع الأوربية إلى الحد الذي دفع الأوربيين وخاصة البنادقة إلى الامتناع عن تصدير منتجاتهم إلى الشرق عبر الموانى المملوكية "٣" .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن السياسة الجمركية المتعسفة التي انتهجها المماليك في أواخر عهدهم "كانت في أعقاب وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨م مما أضعف من حجم التجارة الشرقية المارة بطريق البحر الأحمر "، ثم يفسر مغالاة المماليك في رفع الرسوم الجمركية عند جدة برغبتهم في الحصول "على أكبر عائد يغطي احتياجاتهم مع قلة حجم التجارة الواردة" "٤" .

---

(١) وقد زادت الضرائب احيانا انظر : بدائع الزهور . ابن اياس جـ٥ ص٨٢
٢) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص ١٤٨
٣) بدائع الزهور . ابن إياس جـ ٣ ص ٦٠
٤) أثر تحول التجارة العالمية . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٣٥

ومع أن هذا التفسير يبدو معقولا من الوجهة النظرية البحتة ، إلّا أن الوقائع التاريخية لا تؤيده ، فقد كان ارتفاع نسبة الرسوم الجمركية سابقاً على الوصول البرتغالى للسواحل الهندية ، هذا من جهة أما من الجهة الثانية فقد كان الأجدى سياسياً واقتصادياً فيما يخص المماليك ومن ورائهم البندقيه أن تخفض نسبة الرسوم الجمركية عبر البحر الأحمر ، أو أن تلغى كلية ولو لفتره موقته وذلك لتتمكن التجارة الشرقية عبر الموانئ المملوكية من منافسة الأساطيل البرتغالية العاملة فى التجارة ، وحتى تبرهن للبرتغاليين فشل سياستهم فى المياه الشرقية ، والتى كانوا قد أخذوا في تثبيت أركانها وقطعوا فى ذلك شوطاً كبيراً .

سياسة الاحتكار التجارى :-

لم يستمر تدفق التجارة الشرقية الى الغرب على وتيره واحده طوال فتره العصور الوسطى ، وإن كان ما يعنينا - هنا - هو الفتره السابقة على الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية في المحيط الهندي ، فإن هناك قضيه أخرى تتعلق بتلك الفتره غير قضيه ارتفاع نسبه الرسوم الجمركية وتلك القضيه هى احتكار المماليك لحركة التجارة بين الشرق والغرب وخاصة فيما يتعلق بتجارة التوابل وبعض البضائع الأخرى الهامة .

شارك المماليك في النشاط التجاري بين الشرق والغرب طوال العصر الوسيط تقريباً بطريقين ، طريق العمل كوسطاء بين تجار الشرق والغرب ، وهو ما يميز نشاطهم التجارى فى المراحل الأولى من تاريخ دولتهم ، وطريق القيام بعمليه التجارة "١" وهو الأمر الذى تحول فيما بعد إلى عمليه أحتكار شبه تامة لبضائع الشرق . ومن المهم - فى هذا

---

(١) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ١٣٥

المقام ـ أن نميز بين فترتين أو نوعين من الاحتكار ، نوع فرضته الطبيعة الجغرافية ، وما يتصل بها من طرق ملاحية ، ولعبت فيه الظروف السياسية دوراً كبيراً ونوع قام فيه سلاطين المماليك أنفسهم بدور التجار واحتكروا تجاره البضائع الهامة والمربحه لصالحهم الخاص وليس لصالح الدوله أو المجتمع الذي يعيشون فيه .

ميز النوع الأول من الاحتكار النشاط التجارى المملوكى حتى بداية القرن التاسع الهجرى تقريباً ، حيث كانت معظم تجاره الشرق تمر عبر الأراضى المملوكيه فى مصر والشام ، وذلك بسبب الاضطرابات السياسيه فى منطقتي آسيا الصغرى والأناضول من جهة وبسبب العلاقات الخاصه بين مصر والبندقيه من جهة ثانية ، وبسبب العوامل الجغرافية التى تفرض على التجارة أن تمر ـ فى الغالب ـ عبر البحر الأحمر الواقع تحت السيطرة المملوكية وفى هذا الطور نجح البنادقة ، بما تميزوا به من مهارة دبلوماسية وروح مغامرة وبعد نظر وقوة سياسية على الصعيد الداخلى ، أن يكسبوا ثقه المماليك فى مصر التى كانت حلقه الاتصال بين الشرق والغرب ، وقد أدى التعاون الوثيق بين الطرفين إلى احتكار التجارة بين الشرق والغرب عبر مصر. وفى ظل ذلك حظي التجار العرب والهنود بالحمايه وتقديم التسهيلات ، حيث كان لهم مستودعات كبيرة على سواحل البحر المتوسط وخاصه فى الاسكندرية . وفى هذا الطور حصلت البندقية على امتيازات ومنافع كثيره بسبب تعاونها مع التجار العرب "١" . واستطاعت البندقيه ـ فى هذا الطور ـ أن تحتكر معظم البضائع الشرقيه الواردة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر "٢" كما تنافست البندقية وجنوة على احتكار التجارة الواردة عبر طريق الحرير العظيم من الصين إلى الأناضول فبغداد والشام وآسيا الصغرى فالقسطنطينية "٣" وهكذا يتضح أن البندقيه كانت المستفيد الأكبر من هذه المرحلـه .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٠٩

(٢) تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية . محمد رفعت ص ٦٠ .

Pirenne: The Tides of History .Vol,2,P379

(٣) نفس المرجعين السابقين : نفس الصفحات

بدأت المرحلة الثانية من الاحتكار في النصف الأول من القرن التاسع الهجري وفي عهد السلطان برسباي على وجه التحديد . وترجع أسباب هذا الطور إلى عدد من العوامل الداخلية والخارجية ، فقد وقف المماليك لفترة طويلة يرقبون الأرباح الطائلة التى تنهال على البندقية في الوقت الذي لم يفوزوا فيه إلا بالفتات ، ولعله تمثل في ذهن الحاكم المملوكى ما فعلته الدولة البيزنطية من قبل إبان العهدين الأموى والعباسى ثم في العهد المملوكي ، من احتكار وهيمنة على حركة التجارة ولقد لعبت الحاجة المادية ونقص الأموال دوراً هاماً فى هذا المجال ، هذا بالإضافه لما تميز به حكم المماليك الجراكسه من الاضطراب السياسى وكثرة الفتن والثورات ، وتوزع مراكز القوى بين عدد من الأمراء الذين يعودون إلى أصول أو منابت سياسيه مختلفه ، وليس من شك أن تلاعب التجار بالأسعار وحصولهم على نسبه ربح مرتفعة وصلت في بعض الأحيان إلى ٣٠٠٪ "١" قد ساهم فى دفع حكام المماليك إلى القيام باحتكار التجارة في البضائع الهامة وأخيراً فإنه يمكن القول إنّ احتكار المماليك للبضائع الهامه على الصعيد الدولي قد جاء كردّ على الحصار الذي كانت تفرضه الدولة البيزنطية ، والدول التى كانت تقف وراء الحملات الصليبيه على بعض المواد الهامّة والتى تؤثر على الدولة المملوكية من الناحيتين السياسية والاقتصاديه ، وذلك مثل أخشاب صناعة السفن التي كان المماليك في أمسّ الحاجة إليها .

بدأ برسباى سياسة الاحتكار باحتكار تجارة التوابل ، وذلك حين أصدر مرسوماً سنه ٨٣٢هـ ١٤٢٨م يحرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان ، وفى نفس الوقت أجبر تجّار الشرق على شراء البضائع التي تبيعها مصر بسعر مرتفع وذلك مثل العقيق والنحاس وغيرها من السلع الرائجة "٢" . وقد

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٠٨

(٢) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٣٤

ذكر ابن حجر أن السلطان بوسباى قام باحتكار تجارة البهارات الهندية منذ سنة ٨٣٥هـ ١٤٣١م حين اشتراها بأسعار بخسة وباعها بأثمان مرتفعة "١" . وأكد ابن فهد هذه السياسة عندما ذكر أن السلطان بوسباى قد احتكر تجارة المرجان والنحاس أيضا "٢" . وكانت هذه السياسة الاحتكارية بمثابة ضربة قاصمة لتجار الكارم الذين كانوا يتولون أمر تجارة التوابل حتى أصبح لهم نفوذهم الواسع ، سياسياً واقتصادياً ، في ذلك الحين "٣" . وازداد الأمر سوءاً بالنسبة لأولئك التجار ، ولغيرهم أيضا عندما قام كبار رجال الدولة بتقليد سادتهم السلاطين في الاحتكار التجارى حيث قام كل أمير منهم بتولى أمر سلعه أو أكثر من السلع ، وقصر تجارتها على نفسه "٤" وهو الأمر الذى يشبه احتكار الوكالات التجارية في الوقت الحاضر ، وبمرور الوقت أحتكر المماليك تجارة ومعظم البضائع "٥" التى كانت ترد إلى مصر والشام "٦" ومن الجدير بالذكر أنّ سلاطين المماليك لم يكونوا جميعاً على نفس الدرجه من الشدة في سياستهم الاحتكاريه ، فقد كان السلطان جقمق معتدلاً في سياسته الاقتصادية مخففاً حدّة الاحتكار "٧" في عهده . ولكن هذه السياسة لم يكتب لها الاستمرار طويلاً بعده ، بل ظلت تتغير تدريجيّاً إلى أن بلغت مداها في عهد السلطان قايتباى ومن بعده السلطان قانصوه الغورى .

أدت سياسه الاحتكار التى انتهجها السلاطين المماليك إلى ارتفاع الأسعار منذ البدء ، وقد أستمرت الأسعار في ارتفاعها حتى وصل سعر قنطار البهار ما بين ١٢٠ و ١٣٠ ديناراً في كلّ من مصر والشام بعد أن كان لا يزيد عن

---

١) انباء الغمر . ابن حجر . جـ ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ
٢) إتحاف الورى . ابن فهد . جـ ٤ ورقة ٤١٧
٣) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ١٢٦
٤) السلوك . المقريزى . جـ ٤ ص ٧٢٣
٥) حوليات دمشقية . مجهول . ص ١١٩
٦) ابناء الغمر . ابن حجر . جـ ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ
٧) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٢ ص ١٦٢

خمسين ديناراً في القاهرة وثمانين ديناراً في الاسكندرية "١" . وكان لابد أن يتذمر التجار الأوربيين على سياسة الاحتكار هذه، وما نتج عنها من ارتفاع باهظ فى الأسعار فجاء أول احتجاج من القطلانيين عام ١٤٣٢م حين أبلغ ممثلوهم السلطان برسباى أنهم يرفضون شراء البضائع من مخازن السلطان . ثم احتجت مملكتا قشتاله وأرغونه ، ومارستا ضغوطاً اقتصادية على المماليك حين قابلت احتكارهم برفع أسعار السلع الأوربيّة التى ترد إلى مصر ، وقد حاول البنادقه - أيضا - قطع علاقاتهم التجاريّة مع مصر ولكن السلطان المملوكى استطاع استرضاءهم وإن لم يتخلّ عن سياساته الاحتكارية "٢" .

ومهما يكن من أمر فإن الجدير بالملاحظه أن سياسه الاحتكار المملوكية قد أثرت على التجار الغربيين والتجار المشارقة على حدٍّ سواء ، هذا بالإضافه إلى آثارها السيئه على التجار المحليين وخاصة تجار الكارم .
ومن الجدير بالملاحظة - أيضا - أن المماليك لم يكونوا هم صنّاع الاحتكار في حركة التجارة الدولية ولم يكونوا أول من مارسها فى التاريخ ، فالاحتكار تجارة مارسها الغرب طويلاً وعانى من آثرها المسلمون عدة قرون ، فقد كانت الدوله البيزنطية تمنع أثناء القرن الثانى الميلادى وصول سفن التجار المصريين والسوريين إلى غرب البحر الأبيض المتوسط ، واستمرت الدولة البيزنطية في حصر التجارة الشرقية اللازمة لها خاصة ولأوربا على وجه العموم عبر ثغر طرابيزون على البحر الأسود "٣" واستمرت هذه السياسة طوال القرون الثلاثه التالية ، ففى سنه ٩٧١ م حاول حكام بيزنطه منع إرسال السفن المحمله بالخشب والحديد والسلاح إلى البلاد الإسلامية "٤" وكانوا

---

(١) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ١٠١ - ١٠٢ . ومصرفي عصر المماليك الجراكسة إبراهيم علي طرخان . د . ص ٢٨٩

(٢) أثر تحول التجارة العالمية . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٣٤

(٣) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ١٧٥

(٤) المرجع السابق ص ٣٣٥

قد حذّروا التعامل التجارى بين جزر بحر إيجه وشواطئ آسيا الصغرى وبين مصر وسوريا "١" . كما نفّذ الحكام البيزنطيون ـ كذلك ـ فيما بين عامي (١٠١٥ ـ ١٠٢٧ م) سياسة منع الاتّجار مع الفاطميين "٢" . وانتهى الأمر بأن حددت الدولة البيزنطية عدداً معيناً من المنافذ التجارية واشترطت ألّا تسلك التجارة غيرها . وجعلت توزيع البضائع الثمينة مثل الحرير والتوابل احتكاراً لتجار تلك المنافذ التجارية ولمن سُمِحَ لهم بالقدوم لأغراض التجارة "٣" فقط . ثم خلف التجار الإيطاليون من بنادقة وجنوية الدولة البيزنطية فى سياستها الاحتكاريه وكان ذلك دون المماليك أو بالتعاون معهم ثم جاءت السياسه المملوكية الاحتكارية كحلقة في سلسلة متصله . ولكن ما ينبغي ذكره أن سياسة المماليك الاحتكاريّة كانت أقل حِدَّة وأقل قسوة من السياسات البيزنطيه والإيطاليه السابقة عليها ، وهى بالتأكيد لا يمكن مقارنتها بسياسة الاحتكار البرتغالية والتى تم فرضها قسراً على عالمى الشرق والغرب على حدٍّ سواء. وكان البرتغاليون قد ارتكبوا فى سبيل تحقيق سياستهم الاحتكارية أبشع الجرائم الإنسانية، كما سيتضح فيما بعد . وإذا كان البرتغاليون قد نجحوا فى احتكار تجاره القرن السادس عشر فإن الهولنديين قد بدأوا احتكار تجارة التوابل بدءاً من أواخر القرن السادس عشر بسبب رفض البرتغال بيع التوابل في غير لشبونة وكانت سفنهم تلتقى بالأسطول البرتغالى فى لشبونة وتشترى التوابل جمله ، وتحصل على أرباح الوسيط من توزيعها فى غرب أوربا ، ثم سرعان ما بلغ الهولنديون مرتبة أعلى فبدأوا خلال القرن السابع عشر يذهبون إلى مصادر هذه السلعة في مناطق النفوذ البرتغالية في الشرق الأقصى ، ثم لم تلبث أن تركزت في يدهم عمليه نقل تلك التجارة من الشرق وعمليه توزيعها فى الغرب "٤" ، ولكن

---

(١) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ٧٩

(٢) المرجع السابق ص٣٢٥

(٣) المرجع السابق ص١٨٥

(٤) المرجع السابق ص١٨٦

إلى أمـد قصير حيث دخل النشاط التجاري في تنافس دولي خطير لا مجال لتقصّي أبعاده هنا .

المراكز التجارية :ـ*

أدى النشاط التجارى بين الشرق في العصور الوسطى وحتى قدوم البوتغاليين إلى ازدهار العديد من المراكز التجارية سواء كانت موانئ ساحلية أم مدنا داخلية . وقد امتد هذا الازدهار على طول الخط التجاري بدأ من سواحل الهند وانتهاءً بسواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية والشمالية على حد سواء .

كانت سواحل مليبار مركزاً مهمّاً للتجارة الشرقية ففيها تتجمع معظم بضائع الصين والهند كالفلفل والزنجبيل وجوز الهند والمنسوجات القطنيه والنحاس والديباج والمعصب بالذهب والجرائر والشاش وسبائك الذهب والفضة فضلاً عن أنواع كثيرة من العقاقير التى تغردت مليبار بإنتاجها "١" . وكان من أشهر موانئ مليبار ـ في ذلك الحين ـ كاليكوت ومنجرور وكولم وقد قصد البوتغاليون سواحل الأولى لأول مرة لأن حاكمها غير مسلم "٢" ، وربما لأن أكثر التجار المسلمين من الفرس والعرب كانوا ينزلون ميناء منجرور فقد ذكر ابن بطوطه أن منجرور من أكبر منازل تجار الفرس واليمن ، كان يقيم بها أكثر من أربعة آلاف من المسلمين "٣" إلّا أنها كانت تحسن معاملة تجار المسلمين ويبدو أنّ سياستها مع الدول الإسلامية كانت تتميز بطابع الود والصداقه وليس أدلّ على ذلك من أن حاكمها استعان على البرتغاليين بالسلطان المملوكى ويذكر أن المسافة بين كولم فى شواطئ مليبار ومسقط على الشاطئ العربى

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . الدمشقي . ص ٢٢٠

(٢) تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ ٢ ص ١١٨

(٣) المرجع السابق ص ١١٣ ـ ١١٤

* انظر الخريطة رقم (٦) التي تبين المراكز التجارية المهمة . ص ٥٦١

كانت تقطع في نحو أربعة أسابيع "١" .

وكانت مملكة كجرات في شمال الهند إحدى الممالك المهمة التي كانت تشارك بنشاط في حركة التجارة الدولية وهي دولة إسلامية بها العديد من الموانئ والمدن الهامة من الناحية التجارية مثل فهلواره وكنباية وتانة وسومنات وسندان "٢" ، وكانت كنباية من أشهر المدن التجارية في كجرات ، وهي " من أحسن المدن إتقان بناء وعمارة مساجد لأن أكثر سكانها من التجار الغرباء الذين يتنافسون أبداً في بناء الديار الحسنة والمساجد العجيبة "٣" . ويبدو أن الفوضى السياسية واضطراب السواحل وكثرة القراصنة فيها كانت قد أضعفت دور كجرات التجاري عند أواخر القرن الخامس عشر ، فقد كانت الملاحة الهندية في كجرات قد فسدت بعد السلطان محمد البهمني الذي توفي سنه ٨٩٦ هـ ١٤٩٠م ، بسبب ضعف حكامها من جهة وانتشار الفوضى من جهة ثانية ، مما أدى إلى سيطرة القراصنة بقيادة بهادر كيلاني على موانئ كجرات الشهيرة مثل سومنات وكوك وكنبايه واستيلائهم على أموال التجار وبضائعهم . وقد بذل السلطان محمود جهداً كبيراً قبل أن يتمكن من إحلال الأمن والقضاء على نفوذ القراصنة "٤".

وكان ميناء الديبل مركزاً من المراكز التجارية المهمّة على سواحل الشرق الأقصى ، فكانت الديبل بالسند " مدينة كثيره الناس جداً ، جدبة الأرض قليلة الخصب ليس بها شجر ولا نخل وجبالها جرد عديمة النبات ، ولكن مركزها التجارى الهام قد جعلها قبله التجار من كل مكان حتى عمرت بالناس والأسواق " فكانت فرضه بلاد السند وغيرها.وتجارات أهلها من وجوه شتى وأسباب متفرقه ، وتقصدها أيضا مراكب العمانيين بأمتعتها وبضائعها ،

---

١) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى . ف . هايد . ص ٤٥
٢) صبح الأعشى . القلقشندي . جـ ٥ ص ٧٠ ، ٧١
٣) تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ ٢ ص ١٠٦
٤) تاريخ الصلات بين الهند والعرب . محمد الندوي . د . ص ١٦٦

وقد ترد إليها مراكب الصين والهند بالثياب والأفاوه العطرية الهندية)" ١ "

وإذا انتقلنا إلى المياه العربية الجنوبية فإننا نجد عدداً من المراكز التي ازدهرت ازدهاراً كبيراً إبان القرن الخامس عشر وظل لها نفوذها الاقتصادي المتميز إلى أن تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وقام البرتغاليون بتحويل التجارة الشرقية عبره . فقد جعل الموقع الجغرافي من موانئ عمان – وسائر الموانئ العربية في بحر العرب والبحر الأحمر – مراكز مهمة لتجار العصور الوسطى ، استيراداً وتصديراً بين منطقتي الشرق الأقصى (الصين والهند وجزر الهند الشرقية) من جهة وداخل مناطق شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى فضلاً عن علاقاتها مع أفريقيا الشرقية " ٢ " ومع موانئ البحر الأبيض المتوسط في مصر والشام . وكان لازدهار هذه الموانئ دور كبير في ازدهار كثير من الحرف من حياكة وحدادة وصناعة جلود وصوغ، وتشكيل الذهب والفضة "٣" . وليس من شك أن طبيعة الخليج العربي وما فيه من خيرات كانت عاملاً مساعداً على الازدهار السريع ، فهو " مبارك مأمون كثير الخير ، لم يزل مركوباً ، وهيجة واضطرابه أقل من سائر البحار وفيه مغاص اللؤلؤ الصافي والدر الجيد ، وفيه معادن العقيق والبجاوى والماذنبي والذهب والفضة والحديد، و فيه أنواع الطيب والبهار " "٤" .

وكانت هرمز من أهم المراكز التجارية في العالم في العصور الوسطى ويعتبر ميناؤها – في ذلك الحين – واحداً من أكبر ميناءين في العالم بالنسبة لحجم التجارة ، وكانت نسبة الحركة فيه إلى غيره من الموانئ "٩٩ إلى ١ " "٥"

---

١) كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . الدمشقي . ص ٢٤٩ – ٢٥٠
٢) دور عمان في نشاط التجارة العالمية . حبيب الجنحاني . د . جـ ٣ ص ٥٣
٣) صحار . أدولف كروهمان . دائرة المعارف الإسلامية . جـ ٤ مادة صحار
٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٦٦
٥) العلاقات بين الصين والعرب . ذانج هو . جـ ٦ ص ٤١

وقد تميزت هرمز بهذه المكانة قبل مجيء البرتغاليين بقرنين من الزمان ، وكان ذلك بسبب تدهور ميناء سيراف تحت بطش المغول "١" ومن الجدير بالذكر أن هرمز استمرت تحتفظ بمكانتها حتى بعد قدوم البرتغاليين إذ ظلت أهم مركز تجاري في منطقة الخليج العربي إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر "٢" .

وتعتبر هرمز ميناء لتصدير منتجات كرمان والمناطق المجاورة لها إلى الهند والبصرة والساحل العربي وفارس "٣" . وكان يرتاد ميناءها التجار من كل أرجاء الهند ، وهم يجلبون التوابل والعقاقير والأحجار الكريمة واللؤلؤ ومنسوجات الذهب وأنياب الفيلة ، وأنواعاً أخرى مختلفة من البضائع .

وفي هرمز كان التجار الهنود يبيعون البضائع لمجموعة مختلفة من التجار يتولون توزيعها في كل أرجاء العالم . وقد كان يغلب على هرمز الطابع التجاري وإن كان لها نفوذ سياسي على عدد من المناطق المجاورة لها . وتعد هرمز المكان الرئيسي بمملكة كرمان كلها "٤" .

ولهرمز مكانة تجارية تاريخية كانت تتنافس عليها مع صحار وعدن ، ويبدو أن هرمز وعدن قد علا شأنهما على صحار في فترات متأخرة "٥" . وكان لطابع هرمز التجاري ـ تاريخياً ـ أثر كبير على سكانها ، إذ كانوا أخلاطاً من الناس من العرب والفرس والأفارقة والهنود إلى غير ذلك. ويرجع ذلك إلى نشاط حركة التجارة وكثرة التجار القادمين والمقيمين "٦" من مختلف الجنسيات . وهذا ما أكده فارتيما حين ذكر أنه كان يرى في مينائها ـ أحياناً ـ أكثر من ثلاثمائة سفينة من مختلف أنحاء العالم ، وأنه كان بها نحواً من أربعمائة تاجر يقيمون بها بصفة دائمة "٧" وكان أكثرهم من العرب والفرس "٨" .

---

(١) دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي . صلاح العقاد . د .

(٢) جـ ٤ ص٦٦

٢) الموسوعة العربية . محمد شفيق غربال . جـ ٢ ص ١٨٩٥

٣) رحلات ماركو بولو . ماركو بولو . ص ٥٢

٥) نزهة المشتاق الإدريسي . جـ ٢ ص ٥٦ . ومعجم البلدان . ياقوت الحموي .

(٥) جـ ٣ ص٢١٢

(٦) صورة الأرض . ابن حوقل . ص٢٩٦ . معجم البلدان . جـ ٣ ص٣٩٢ . وأحسن التقاسيم . المقدسي ص٤٦

(٧) Wilson, p,1o7

(٨) Sykes, Sir Percy: Hist. of Persia,Vol,2,p,185

وكانت مسقط في ذلك الحين تابعة لهرمز ، وكانت قد حلّت محل صحار في الأهمية التجارية "١" ولذا وصفها ابن المجاور بأنها مرسى صحار ومنها تصدر البضائع إلى أنحاء كثيرة "٢" .

وكانت مسقط – عند قدوم البرتغاليين – من أهم موانئ مملكة هرمز ، وقد وصف البوكيرك جمالها ومبانيها وحصانتها ثم قال بأنها كانت مركزاً تجارياً رئيسياً بالنسبة لمملكة هرمز ، وكان على السفن التجارية أن تدخلها تجنباً للعوائق المائية في الساحل المقابل ، ومنها يتزود التجار بالخيول والتمور ، وهي أيضاً مركز لتزويد التجار بما يحتاجون إليه من مواد غذائية في رحلاتهم البحريه إذ كانت المؤن تجلب إليها لهذا الغرض من الأقاليم الداخلية "٣" . ونظراً لأهميه مسقط التجارية ، فقد كان معظم سكانها من الهنود والبلوحستانيين والزنوج والعرب "٤" .

وتعتبر ظفار مركزاً مهمّاً من المراكز التجارية العربيه ، وهي تتميز بموقعها المتوسط على سواحل البحر العربي ، إذ تقطع المسافه بينها وبين الهند، إذا كانت الرياح مواتية في شهر كامل ، وبينها وبين عدن مسيرة شهر في الصحراء وبينها وبين حضرموت مسيرة سته عشر يوماً ، وبينها وبين عمان نحواً من مسيرة عشرين يوماً "٥" وما زاد من أهميه ظفار قبيل قدوم البرتغاليين أن حكامها من آل كثير كانوا يسيطرون على مناطق داخلية شاسعة "٦" وهو الأمر الذي جعل ظفار تتمتع بوفرة الحبوب والخضروات وأنواع الماشية المختلفة وكان يكثر في أسواقها اللبان والزيوت والتوابل والبخور "٧" ، وإن كانت

---

(١) أخبار عن عمان في الأدب الجغرافي العربي . ماديلا مارين . جـ ٢ ص ٨٣
(٢) تاريخ المستبصر . ابن المجاور . ص ٢٨٤
(٣) Wilson, op. cit., P. 148
(٤) الموسوعة العربية . محمد شفيق غربال . جـ٢ص . ١٧٠٠
(٥) تحفة النظار . ابن بطوطة . ص ١٦٤
(٦) دراسة لمدينة ظفار . باولو . إم . كوستا . ص ٦٨
(٧) العلاقات بين الصين والعرب . ذانج هو . جـ ٦ ص ٥٠ - ٥١

تتميز بإنتاج الخيول واللبان الأبيض "١" على وجه الخصوص ، وكانت السفن والأساطيل الموسميه تأتى إليها سنوياً لشراء الخيول حيث تراوح سعر الرأس ما بين مائه ومائتى أشرفى . ومما يذكر أن قدوم البرتغاليين قد وضع نهاية لدور ظفار التجارى وسبب لها خسارة فادحة "٢" ، أثرت على مختلف مناحى الحياة فيها .

وكانت عدن من الموانى ذات الأهميه الخاصة فى حركه التجارة الدولية بين الشرق والغرب فى العصر الوسيط وتتميز عدن بأنها واسطه العقد بين البحر الأحمر وبحر العرب وعن طريقها يتم غالبا ، معظم حركة التجارة المارة إلى البحر الأحمر أو إلى شرق أفريقيا أو العكس وهي مدينة يمنية بينها وبين أبين إثنا عشر ميلا ، وكانت مدينه صغيره ـ ولكنها نمت بسرعه ـ لأنها مرسى البحرين ومنها تسافر مراكب السند والهند والصين "٣" ، وكانت من أكثر بلدان العالم تجاره وبها أكثر التجار ثراءً ، فقد كانت تفدُ إليها السفن من مختلف بلدان العالم فكانت تفد إليها البضائع المصريه والسوريه والأوربية عن طريق جدة والبحر الأحمر ، كما كانت تأتى إليها السفن من سواحل أفريقيا الشرقيه بدءاً من سوفالا وموزمبيق وحتى زيلع وبربره للاتجار فى المواد الغذائيه وسبائك الذهب والفضه وكذلك الحال بالنسبه للسفن الهندية التى كانت تأتى من السواحل الغربيه للهند أو من جزر الهند الشرقيه حتى ملتقا الاتجار ومبادلة البضائع التى كان يأتى منها إلى عدن كمٌ لا حصر له "٤" .

وكان لارتفاع شأن عدن دور كبير فى أن يقصدها التجار من كل مكان ، كما كان له دور كبير أيضاً فى تحديد طبيعه سكانها حيث قيل إنّ معظم سكانها كانوا من المصريين والمغاربه والأحباش والفرس والأفارقه الشرقيين "٥"

---

(١) دراسة لمدينة ظفار . باولو . إم كوستا . ص ١٢

(٢) المرجع السابق ص ٧٠

(٣) المرجع السابق " ص ٨ ٤

(٤) Duarto Barbosa: A Description of The coasts of East Africa and Malabar ,Translated by Henry. E.J stanls pp,27-28

(٥) تاريخ ثغر عدن . بامخرمة . جـ ٢ ص ٥٤

ومما يذكر أن دور عدن في النشاط التجاري الوسيط كان متذبذباً ، ولم يدم على وتيرة واحدة ، ففي أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المماليكي مثلا - كان يرد على ثغر عدن ما بين سبعين وثمانين سفينة في العام ، تدر دخلا من الرسوم يقدر بنحو ثمانين ألف دينار "١" ، وقد ازداد دورها التجاري فيما بعد. ولكن دورها أخذ في التذبذب طوال عهد بني رسول ، فحين يتعسف الرسوليون في جمع الضرائب والمكوس ينفر التجار من الرسو في مينائها لكثرة ما كان يلحق بهم من أضرار "٢" ، وحين تتحسن السياسه الجمركيه للرسوليين كما حدث في عهد المظفر الرسولي يعود لعدن نشاطها من جديد "٣" . ومع ذلك فقد بدأت عدن تفقد أهميتها عند مطالع القرن الخامس عشر حيث تحول دورها إلى ميناءي عيذاب "٤" وجدة ، ولم تُجْدِ محاولات الرسوليين لإحياء دور عدن التجاري رغم أنهم لجأوا إلى القوه وقاموا بمحاصره البحر الأحمر عند باب المندب لإجبار السفن على الرسو في عدن . وكانت نتيجه ذلك التصرف الأرعن سوء العلاقات الرسوليه المملوكيه من جهه "٥" ، ونفور التجار من النزول على أسواق عدن من جهه ثانيه ، وتحرك المماليك في مصر اقتصادياً للرد على حصار الرسوليين للبحر الأحمر وما تمرُّ فيه من تجارة مملوكية ، حيث أصدر السلطان المملوكي أوامره بمصادره البضائع العدنية في جده أو رفع رسومها الجمركيه على الأقل وذلك لتضعف قدرتها على المنافسة التجارية في أسواق الحجاز الهامة ، وكذلك عمل على جذب السفن التجارية إلى البحر الأحمر مباشرة لتبتعد عن أسواق عدن . وبهذه الإجراءات ساءت أحوال عدن وتقلص دورها التجاري إلى آخر عهد الرسوليين "٦" ، ولما تولّى بنو طاهر أمر اليمن أولوا عدن اهتماماً

---

(١) تاريخ ثغر عدن . بامخرمة . جـ ١ ص ٦١

(٢) المرجع السابق جـ١ ص١٢ ود. أحمد دراج : إيضاحات جديدة عن تحول التجارة إلى البحر الأحمر ص ١٨٧

(٣) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص١٤٦

(٤) رحلة ابن جبير . ابن جبير . ص ٤٢ . وتحفة النظار . ابن بطوطة . ج ١ ص ١٢٧

(٥) زبدة كشف الممالك . ابن شاهين . ص ١٢٧

(٦) السلوك . المقريزي . جـ ٤ ص ٩٢٩

كبيراً ، وخاصة السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب الثاني الذى اهتم بعمارة عدن وعمل على تجديد نشاطها التجاري "١" لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على حركتها التجاريه فى مواسمها المعتادة في كثير من الأحيان "٢" . وكان لذلك أثره في تجدد نشاط عدن وبلوغها شأناً كبيراً قبيل قدوم الغزو البرتغالى للسواحل الإسلاميه الجنوبية .

وتميزت سواحل أفريقيا الشرقيه بعدد من المراكز التجارية الهامة مثل كلوه ومباسا ومالندى ومقديشو وبراوة وسوفالا وغيرها من الموانى ، ومما ساعد موانئ ساحل أفريقيا الشرقى على الازدهار التجارى أن موانئها كانت صالحة لرسو السفن وذلك بخلاف موانئ الساحل الغربي ، وهو الأمر الذي أدهش فاسكو دى جاما عند وصوله لسواحل أفريقيا الشرقيه لأول مره "١" . ومما زاد من الأهميه التجاريه لموانئ ساحل أفريقيا الشرقيه أن تلك الموانئ كانت منفتحه للداخل وكان بين المنطقتين كثيراً من الاتصالات التجاريه "٢" التى عززت دور الساحل الأفريقي في حركة التجارة الدولية وخاصة في الفتره موضوع البحث .

كانت كلوة في القرن الخامس عشر من أهم المراكز التجارية في شرق أفريقيا وكان نفوذها التجارى يمتد من مانيا حتى سوفالا "٣" ، ولأهل كلوه يرجع الفضل في إنشاء مدينة سوفالا ، وكان ذلك بهدف الحصول على المزيد من تجاره الذهب "٤" حيث كان يؤتى إليها بالذهب من يونى ، وبين كلوة وسوفالا مسيرة نصف شهر "٥" ، وقد كانت سوفالا غاية مقصد التجار القادمين من بحر العرب والخليج العربي "٦" والهند . ولا عجب في أن تهتم كلوه بأمر سوفالا

---

(١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٩
(٢) موجز تاريخ أفريقيا . رونالد أوليفر . وجون فيج . ص ١١٠
(٣) Oliver, op, cit, VOL,1,p,133
(٤) أطلس التاريخ الأفريقي . كولين ماكيفيدي . ص ٩٢
(٥) تحفة النظار . ابن بطوطة . ج ١ ص ٢٠٠
(٦) مروج الذهب . المسعودي . ج ١ ص ٤٢٤

فقد كانت تجارة الذهب وراء ازدهارها الذي جعل منها أهم مدينة تجارية على الساحل الأفريقي الشرقي "١" ، وقد وصفها ابن بطوطة بقوله " وكلوه من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها من الخشب وسقف بيوتها الديس" كما وصف أهلها بأنهم " أهل جهاد لأنهم في برٍّ واحد مع كفار الزنج والغالب عليهم الدين والصلاح "٢" .

وتشتهر كلوه بمعدن الرصاص صافي الجوهر والكافور الجيد والخيزران وأنواع العطور والأبنوس والبقم والجوز والقاقلة ، وقد كانت لذلك محط التجار من سائر بلاد الهند والصين ومن عدن والخليج العربي وغيرهما من بلاد المسلمين "٣" .

وتعتبر ممباسا ـ أيضاً ـ من أشهر المراكز التجارية في ساحل أفريقيا الشرقي ، وهي جزيرة كبيرة بينها وبين الساحل مسيرة يومين في البحر ، ولا برّ لها ويزرع بها الموز والليمون والأترج والجمون " يشبه الزيتون " وتجلب إليها معظم حاجاتها الغذائية من الساحل "٤" . وكان ميناء ممباسا من أكبر موانئ الساحل الأفريقي ، وهو الأمر الذي أكسبها شهرةً جعلت منها مركزاً ضخماً لحركة التجارة الدولية وخاصة بين شرق أفريقيا "٥" وسواحل الهند وكان ميناء ممباسا يعج بالسفن التجارية الغادية والرائحة فيما بين السواحل الأفريقية من جهة وبين تلك السواحل والعالم الخارجي من جهه أخرى "٦" ، ويذكر لممباسا بفخار وقفتها البطولية أمام الغزو البرتغالي منذ البدء وإلى نهايه النصف الأول من القرن السادس عشر تقريباً "٧" .

---

(١) أطلس التاريخ الأفريقي . كولين ماكيفيدي . ص ٩٢

(٢) تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ ١ ص ١٦٢ - ١٦٣

(٣) Marsh and Kingsnorth: The Hist. of East Africa, pp25-26

(٤) تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ١ ص ١٦٢-١٦٣

(٥) Olive, op.cit, vol,1,pp151,152

(٦) Marsh and Kingsnorth: Ibid, pp26

(٧) Ingrams: Zanzibar, p,101

ومن مراكز شرق أفريقيا الهامة تجارياً ـ في ذلك الحين ـ مقديشو ـ التي كانت تشتهر بكثرة الإبل وجودة المنسوجات وحسن معاملة التجار الوافدين إلى مينائها "١" . ولذا كانت منذ القرن الثالث عشر مركزاً تجارياً مهماً استقر فيه كثير من تجار العرب والفرس وغيرهم ، وقد ازدادت مقديشو ازدهاراً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حتى بلغت ذروة مجدها "٢" وقد استطاعت مقديشو بفضل مناعتها وقوة تحصينها أن تحافظ على سيادتها إبان الغزو البرتغالي لساحل أفريقيا حتى نمت نمواً كبيراً وأصبحت بمثابة العاصمة لجميع البلدان المجاورة "٣" .

ومن المدن التجارية الهامة في ساحل أفريقيا الشرقية مدغشقر "٤" ومالندي "٥" وبراوه "٦" وزيلع "٧" وغيرها من المراكز التجاريه التي كان لها شأنها الخاص قبيل قدوم الغزو البرتغالي لساحل أفريقيا الشرقي .

ثمة عدد من المراكز التجاريه المُهمّة التي كانت تمر من خلالها حركة التجارة الدولية بين الشرق والغرب خلال القرن الخامس عشر ، ومن أهم هذه المراكز جدة والسويس على البحر الأحمر والإسكندرية ودمياط على البحر المتوسط ، والقاهرة على النيل . وكانت هذه المراكز تمثل عصب الحركة التجارية في العصر المملوكي ، وقد تميزت جميعها بخضوعها المباشر لسيطرة السلطان المملوكي في مصر .

كان البحر الأحمر في القرن الخامس عشر الممر الرئيسي للتجارة بين الشرق والغرب ، وذلك بالرغم من وعورة مسالكه وصعوبة الإبحار فيه "٨" ولا سيما

---

١) تحفة النظار . ابن بطوطة . ج١ص ١٥٥
٢) بين الحبشة والعرب . عبدالمجيد عابدين . ص ١٥٢
٣) ساحل شرق أفريقيا . محمود الحويري . د . ص ١٠٣ - ١٠٤
٤) عن تجارتها راجع رحلات ماركو بولو . ص ٢٢٩
٥) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٣٢٠
٦) الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا . عبدالرحمن زكي . د . ص١٥٣
٧) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص١٤٢
٨) عن صعوبة الابحار فيه راجع رحلة ابن جبير . ج ص١٦٢ - ١٦٣

أن السفن التي كانت تسلكه كانت تتميز بضعف البناء وكانت السفن تبحر فيه نحواً من ثلاثين يوماً مابين ١٤٠٠، ١٥٠٠ ميل "١" ويبدو أن حركة التجارة قد ازدادت نشاطاً في البحر الأحمر بعد سقوط القسطنطينية "٢" ، وكانت السويس وجده في هذه الفترة أهم ميناءين يقعان على سواحله .

تتميز جده بأنها ميناء الحجاز كله ومدخل كثير من المسلمين الى الديار المقدسه في مكة والمدينة ، ولذا كانت سوقاً عامرةً ، كان لها دورها التجارى النشط منذ بدأ الإسلام وخاصة في مواسم الحج ، ويبدو أن ميناء جده كان قليل الأهميه قياسا بعدن في القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، وذلك لموقع عدن الجغرافي من جهة ، ولسوء معاملة والي جده من جهة ثانية "٣" . ولكن سوء معاملة بني رسول للتجار القادمين إلى عدن وتحسن معاملة والي جده للتجار منذ سنه ٨٢٨هـ١٤٢٥م ، وما قدمه من التسهيلات التجاريه بإيعاز من السلطان برسباى كان عاملا مهماً في نشاط الدور التجارى لمدينة جده حتى ارتفع عدد السفن التي ترسو في مينائها من أربعة عشر سفينه سنه ٨٢٨هـ١٤٢٥م إلى أربعين سفينه في العام التالي وكان نصيب المماليك من الرسوم الجمركيه المفروضة عليها في ذلك العام نحواً من سبعين ألف دينار "٤" . وقد استمر نشاط جده التجارى في تحسن حتى بلغ عدد السفن التي ترسو بها نحواً من مائة سفينة في العام "٥" .

وكانت الرسوم التي تجبى في جدة تبلغ عشر البضاعة ، ولكنها زيدت في أواخر عصر المماليك الجراكسة حتى بلغت ما يوازى قيمه البضاعة تماماً أثناء نيابة حسين الكردى . ولعل ذلك كان أحد العوامل التي أدت إلى تدهور نشاط ميناء جده إبان الغزو البرتغالي للسواحل الإسلاميه الجنوبيه الشرقيه ، "٦" .

---

١) قلزم . بيكر . وبكنجهام . دائرة المعارف الإسلامية . مادة قلزم

٢) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص١٥٩

٣) انظر . السلوك . المقريزى جـ١ ص ٦٨١ . وإيضاحات جديدة . أحمد دراج . ص١٨٧

٤) مصر في عصر المماليك الجراكسة . ابراهيم طرخان . د . ص ٢٨٧ - ٢٨٨

٥) Staly Lane Poole:Hist of Egybt in the middle age,p,309

٦) مصر في عصر المماليك الجراكسة .ص ٢٩٠ .

تقع السويس عند الطرف الشمالي للبحر الأحمر ، وقد حلت محل القلزم منذ القرن الثاني عشر الميلادى فأصبحت تجارة الهند والشرق الأقصى ترد إليها ومنها إلى القاهرة فالاسكندرية أو دمياط "١" . وقد تميزت بدورها التجاري كميناء رئيسي لمصر على البحر الأحمر . ولذا كان معظم سكانها من التجار ووكلائهم ، فكان يقيم بها وكلاء من تجار القاهرة والإسكندرية ووكلاء من تجار الهند واليمن والحجاز والسودان "٢" . وقد تقاسمت السويس والطور والقصير الأهمية التجارية منذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر حين أتخذ المماليك من السويس ميناءً حربياً في المقام الأول "٣" .

وكانت القاهرة طوال العصر المملوكي بمثابة عاصمة العالم التجارية وخاصة بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب نظراً لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار "٤" . وتعتبر القاهرة المركز الرئيسي للتجارة الشرقية على النيل الذى كان أحد الطرق المهمة التى تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط "٥" . وقد مهد دور القاهرة التجارى بالإضافة إلى دورها السياسي السبيل أمام توسعها وازدهارها حتى اكتظت بالقصور والمنشآت الدينية والاجتماعية والمؤسسات التجارية ، كما اكتظت أيضا بالمماليك والأهلين من العلماء والتجار وأصحاب الحرف وعامة المسلمين والرحالة والسفراء وغيرهم من الذين كانوا يفدون من مشارق الأرض ومغاربها على حدّ سواء .

---

١) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ١٣٤
٢) دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام . ليلى عبد اللطيف . د . ص ١٦٢
٣) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ١٦
٤) المرجع السابق ص ٩
٥) أحسن التقاسيم . المقدسي . ص ١٩٨
والمآصر في بلاد الروم والإسلام . ميخائيل عواد . ص ٥٣

وتعتبر الاسكندريه ـ وإلى يومنا هذا ـ ميناء مصر الأكبر على البحر المتوسط ، وقد كانت في القرن الخامس عشر محط التجار من الشرق والغرب على حد سواء ، ومنها كانت تصدر البضائع إلى بلاد المغرب والأندلس وموانئ غرب البحر الأبيض المتوسط وغيرها "١" . وكانت الاسكندريــة مقراً لكثير من تجار الشرق والغرب . وكان البنادقه خاصه لهم فيها كثير من المؤسسات والوكالات التجاريه وعن طريقها كانت تنقل معظم تجاره العصر الوسيط ، وخاصه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، إلى الموانئ الأوربية . كما كانت الاسكندريه محطه أساسيه للتجار المغاربه ، وقد أنشأوا فيها أو استأجروا الوكالات والمخازن لشراء أو تخزين السلع التي يجلبونها من الهند والشرق الأقصى ، وموانئ شبه الجزيرة العربية والموانئ الشاميه في شرق البحر المتوسط "٢" . ونظراً لأهمية الاسكندريه التجاريه فقد عمل المماليك على تزويدها بكافه التحصينات العسكريه اللازمه "٣" لحمايه النشاط التجارى الكبير الذى كانت تطلع به طوال العصر الوسيط وحتى تَحَوُّل حركةِ التجارةِ إلى رأس الرجاء الصالح .

ولعل الكشف عن مدى الازدهار التجاري الذي وصلت إليه البندقية في القرن الخامس عشر يكشف لنا من وجه آخر ، عن مدى النشاط التجاري الإسلامي ، وذلك على اعتبار أن البندقية كانت الشريك الأول في النشاط التجاري الدولي في العصر الوسيط والممثل الأكبر للجانب الأوربي في ذلك النشاط ، وإذا كان تفوق المدن الإيطالية في تجاره الغرب المسيحي قد بدأ منذ القرن الحادى عشر ، حيث غدت تلك المدن بالذات مراكز الوساطه الكبرى في التجارة بين الشرق والغرب ، فإن ذلك يعني أن الإيطاليين قد أعادوا

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ١ ص ١٩
Pirenne,op,cit,vol,1,pp80. Lewis Naval power and Tarde pp167-168

(٢) الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري . سعد زغلول . د . ص ٢٠٧

(٣) لمزيد من التفصيل راجع تحفة النظار . ابن بطوطة . جـ١ ص ٩ . وزبدة كشف الممالك ابن شاهين الظاهري . ص ٣٩ وأحسن التقاسيم . المقدسي . ص ١٩٦

على نطاق واسع سير التجاره إلى طريق حوض السرون مع بقاء ممرات الألب محتفظة بأهميتها ، كما يعني نشاط الحياه الاقتصاديه على طول الشواطئ الممتده بين بوشلونه وبين مصب نهر التيبر من جهه ، وربط التجارة العابرة لهذا الإقليم نحو الشمال مع كل من فرنسا وبلجيكا وإنجلترا ربطاً محكماً بحوض البحر المتوسط من جهه أخرى "١" .

وظلت جنوة والبندقية أعظم الدول الأوربية نصيباً من تجاره الشرق في مطلع القرن الخامس عشر ، ولكن جنوه فقدت مكانتها في عالم التجارة منذ سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنه ١٤٥٣م "٢" . خاصة أن جنوة قد فشلت في تقوية الطريق التجاري عبر الخليج فشرق موانئ الشام إلى الحد الذي يقوى فيه على منافسه البحر الأحمر في حركة التجارة الدولية "٣" .

وقد ساعد البندقية على التفوق التجاري في القرن الخامس عشر أنها كانت في نهايه القرن الرابع عشر على جانب عظيم من القوة في الوقت الذي أنهكت فيه جنوه الثورات الداخليه إلى أن اختفت عن ساحه المنافسة التجارية وقد كانت الامبراطورية البيزنطية في ذلك الحين في شدة الضيق إذ انتقصت أطرافها ، واستعصت أزمتها المالية ، فكانت مضطرة للرضوخ لمطالب البندقية جميعها . ولكن ظهور العثمانيين كقوه جديدة كبيرة حتم على البندقيه أن تحسب حسابها ، إذ إن تقدم الأتراك قد ازداد بشكل كبير منذ استيلائهم على غاليبولي "٤" .

---

١) القوى البحرية والتجارية . أرشيبالد لويس . ص ٢٩٠ - ٢٩٣
٢) دليل الخليج القسم التاريخي . لوريمر . ج ١ ص ٩١
٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٠٠
٤) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٢٤

وهكذا يمكن القول إن حركة التجارة العالمية بين الشرق والغرب في القرن الخامس عشر قد تركزت بين يدى البندقية كدولة أوربية مسيحية من جهة، وفي أيدى العثمانيين والمماليك كقوتين إسلاميتين من جهة ثانية ، إذ كانت الدولة العثمانية تسيطر على طرق التجارة المارة عبر الأناضول وأواسط آسيا بينما كان المماليك يقفون على رأس الطريق التجاري العظيم عبر البحر الأحمر . ومهما يكن من أمر تفوق البحر الأحمر فإن ما ينبغي تسجيله أنّ طرق التجارة بين الشرق والغرب عبر آسيا ظلت محتفظةً بدور فعّال ، دفع البندقيه إلى الحرص على الاحتفاظ بعلاقتها الطيبة مع العثمانيين .

وهكذا كانت البندقية تمارس نشاطها التجارى في اتجاهين :
الأول كان مع العثمانيين عبر آسيا والأناضول ، والثاني مع المماليك عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى .

كان على البندقية لكي تستمر تجارتها عبر الأناضول أن تتفق مع الدولة العثمانية ، ولذا عقدت معها عدداً من المعاهدات والاتفاقات التي نالت بموجبها كثيراً من الامتيازات التجارية وكان ذلك بدءاً من عام ١٣٦٨م حين حاولت أن تنشىء قاعدة تجارية في أشقورة . وتوالت البعثات والسفارات بين البنادقة والعثمانيين بعد ذلك فقد وصلت بعثة تركية إلى البندقية سنة ١٣٨٤م بينما مثل مبعوث بندقى في بلاط مراد الأول العثمانى وكثرت بين الطرفين في ذلك الحين عهود الصداقه وتأكيدات الرغبة في السلام "١" . وقد توجتْ العلاقات الودّية بين الطرفين بمعاهدة ١٤٠٦م التى ضمنت للبنادقة حرية التجول في الامبراطورية العثمانية ، كما ضمنت عدم رفع العثمانيين لنسبه الرسوم الجمركيه التى يؤديها تجار البنادقة ، ونصّت المعاهدة أيضاً على عدم تهديد الممتلكات البندقيه في أراضي الدولة العثمانية "٢" .

---

(١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٢٤

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

ونظراً لسياسه العثمانيين التوسعية توترت العلاقات بين الطرفين إلى أن نشبت الحرب بينهما سنه ١٤١٢م واستمرت حتى سنة ١٤٢٩م ، وهنا قامت البندقية بالاستعانة بكل من ملك ألبانيا أسكندر بك وسلطان مملكة آلاق قويونلو حتى دخل هذا الأخير في حرب مع العثمانين وكانت البندقية تمدّه بالمال والسلاح "١" .

ويبدو أن البندقية قد أحست بخطوره الوضع على تجارتها عبر آسيا فعادت إلى تودد العثمانيين وتحسين العلاقات معهم وقد عملت في هذه الفتره لتحقيق مصالحها الخاصه بغض النظر عن الظروف السياسيه التي كانت تشغل العالم الأوربي كله ، وقد حاولت البندقية أن توازن بين حرصها على حسن العلاقات مع العثمانيين وبين حرصها على القسطنطينية وحسن معاملتها مع الامبراطور البيزنطي "٢" ويبدو أيضا أن المصالح الاقتصادية والتجارية قد أثبتت تفوقها على المصالح الدينيه لدى البنادقة في ذلك الحين "٣" . وكذلك أستفادت البندقيه من هزيمة جنوة أمام العثمانيين فهي لم تكتفِ باتفاق ١٤٥٤م الذي حدد نسبه الرسوم الجمركيه بنحو ٢٪ بل حاولت – كذلك – أن تحتكر تجارة الشب في نوسيه كما حاولت استغلال مناجم النحاس وصناعه الصابون ومصانع سك العملة وجباية رسوم الجمارك "٤" وفي معاهدة ١٤٧٩م تعهدت البندقية بأن تدفع للسلطان عشرة آلاف بندقي كل سنه ثمناً للإذن لها بالاتجار في الأراضي العثمانية "٥" .

ومهما يكن من أمر ذلك الاتجاه فإن البندقية قد عملت على تدعيم نشاطها التجاري مع المماليك عبر البحر المتوسط والأحمر بعد سقوط

---

(١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص١٣٨ - ١٤٠

(٢) المرجع السابق ص ١٣٤

(٣) أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى . قاسم عبده قاسم . د . ص٩٧

(٤) البندقية جمهورية أرستقراطية . ص١٣٧

(٥) المرجع السابق ص١٤٠

القسطنطينية سنة ١٤٥٣م حتى غدت أكبر عميل تجاري في شرق البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الخامس عشر "١" . وكانت جالية البندقية قوية النفوذ ، واسعة الثراء، ولا عجب في ذلك فقد جنت البندقية أرباحاً خياليّةً من جرّاء نقل التجارة الشرقية إلى أوربا والقيام بتصريفها هناك "٢" وكانت فنادق البنادقة ، وهي أبنية فخمة مربعة على شكل الحصون ، من المؤسسات الظاهرة في الإسكندرية وكانت الحوانيت تجتمع في الدور الأرضي حول الفناء الداخلي وفوقها مساكن التجار ، وتمتد خارج البناء الحدائق ذات الأشجار الغريبة التي تعطي للفندق مظهراً بديعاً يفتن السائحين "٣"

وفي ظروف كهذه ، ليس غريباً أن كان حوالي ثلثي سكان البنادقة من التجار بينما كان الباقون يعملون في الحرف المتعلقة بالتجارة تقريباً "٤" . وقد كان سوق ريالتو " " في البندقيه من أشهر الأسواق التجارية في حوض البحر المتوسط "٥" ، وكان يوجد به مختلف البضائع الشرقية بالإضافة إلى مختلف المواد الغذائية ، وكان يعج بالحركة حتى لكأن المدينة فى عيد دائم "٦" . وكانت البضائع الشرقيه توضع في عربات وتخرج من هذا السوق متجهةً إلى مختلف أرجاء أوربا عن طريق سهل لمبارديا وممرات جبال الألب وطريق الراين لتصل أخيراً إلى تجار التجزئة في شتى بلاد أوربا "٧" .

وكانت الأرباح المجزية التي يحصل عليها البنادقة دافعاً لهم على احتمال محاولات المماليك لاحتكار تجارة التوابل والبهار "٨" ، من جهة

---

(١) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص١٠

(٢) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٢٧

(٣) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل .ص١٤٢

(٤) Wiel,Navy of Venice pp327-328

(٥) أوروبا في مطلع العصر الحديث . عبد العزيز الشناوي . د . جـ١ ص١٠٧

(٦) Molmenti ,Venice ,Vol,1,pp127-129

(٧) أوروبا في مطلع العصر الحديث .جـ ١ ص ١٠٧

(٨) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص١٤٢

وعلى الاهتمام بأمر السيطرة على قبرص كقاعدة متقدمة لتجارة البندقية في جنوب البحر المتوسط "١" من جهة ثانية ، وعلى الاهتمام بالأساطيل التجارية من جهة ثالثة . ولعل نظرةً سريعةً على الأسطول البندقي تعطي الباحث فكرة واضحةً عن تطور التجارة الشرقية مع الغرب الأوربي ، فقد كانت سفن البنادقة تحمل الجزء الأكبر من تجارة الشرق إلى ميناء البندقية (٢) .

وكانت القوافل التجارية البحرية تقلع من ميناء البندقية مرتين في العام ، واحدةً في الخريف والثانية في الشتاء "٣" وكانت القافلة الواحدة تتراوح بين ثمان وعشر "٤" أو ثلاث عشرة سفينةً تُقَدَّرُ حمولتها بمليون بندقي على أقل تقدير "٥" . وقد اهتمت البندقية ببناء أساطيلها وإدخال التحسينات عليها "٦" فأنشأت عند نهاية القرن الخامس عشر ستة أساطيل من طراز واحد "٧" حيث كانت تحرص على أن تكون سفنها من طراز ، ووفقاً لمقاييس ومواصفات معينه ، وكانت تحرص على الاحتفاظ بأسرار صناعة السفن "٨" لتحقيق تفوقها التجاري الدائم .

وبعد فلعل هذا العرض السريع للنشاط التجاري الإسلامي عند مطلع القرن السادس عشر وبيان دور المسلمين في التجارة العالمية آنذاك يكون مُعيناً على تصور أحد الجوانب المهمة في الصراع الإسلامي البرتغالي ، من جهة وعلى تصور التأثيرات الاقتصادية والتجارية التي أحدثها البرتغاليون في حركة التجارة الدولية من جهة ثانية ، وهي الأمور التي سيتم إيضاحها في مباحث أخرى إن شاء الله تعالى .

---

(١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٤١
(٢) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ٥٠
(٣) البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٢
(٤) Molmenti,vol,1p,133
(٥) البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٢
(٦) Molmenti, vol, 1 ,p,118 Wiel,p,323.OKey , Venice...,p.104
(٧) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ٢٧
(٨) Molmenti , vol.1 , pp 132 -133

الباب الثاني

الغزو البرتغالي لشرق أفريقيا والخليج العربي والممالك الإسلامية بالهند

الفصل الاول

أسباب الغـــزو البرتغــالي للسواحل الإسلاميـــة الشرقيـــة

تعـــود أسبـاب الغــزو البرتغالـي للسواحـل الإسـلاميـة الشرقيـة إلـــى مجموعـــة مـن العوامـل المتضافـرة ، الـتى بوزت للـعيـان في أوقـات متفـاوتة وقـد سبـق بعضهـا مرحلـة الغـزو الفعلـي ، كالعـوامل الكشفيـّة أو العوامل الجغرافيـة ، وكـان بعضهـا متزامنـاً مـع المرحلـة الكشفيـة ومـع فـترات الغزو الفعلـي، وذلـك كالعوامـل السياسيـة ، وبعضهـا جـاء متأخـراً ، أو قـل أتتضـح أمـره فـي فـترة متأخـرة نسبيـاً أذا ما قيـس بالعوامـل الأخـرى وذلـك كرغبـة البرتغاليـين في الحصـول علـى الرقيـق الأسـود للعمـل فـي إطـار عجلة الاقتصـاد البرتغالـي أولاً ، ثـم تصـدير الفائـض منـه إلـى أسـواق أوربـا فيمـا بعـد . وقـد حاول بعـض الكتـاب والمؤرخـين الأوربيـين إخفـاء ، أو تجميـل بعـض الدوافـع ، وذلـك علـى أقـل تقديـر بهـدف التخفيف من صورة العـداء الأوربيّ للشـرق الإسـلامـي ، ولإضفـاء طـابـع المشروعيـة السياسيـة أو الاقتصاديـة على أعمـال القرصنـة الـتي مارسها البرتغاليـون علـى طـول السواحـل الإسلاميـة الشرقيـة . هـذا مـن جهـة ، ومـن جهـة أخـرى كـان عمدهـم إلى إخفـاء الطابـع الصليـبي والأهـداف التبشيريـة والرغبـة في تدميـر الإسـلام كقـوة دينـية وسياسيـة ، مظهـراً مـن مظـاهـر الخبث السياسـي الهادف إلـى أستبعـاد القـوه الإسلاميـة المشتركة ـ وهـي القـوه الوحيـدة القـادرة علـى المواجهـة الفاعلـة ـ عـن ساحـة المواجهـة ، وذلـك لتفريـق الصـف ، وإضفـاء الصبغـة الإقليميـة والطابـع القـومي على الجبهـة الإسلاميـة لتظـل ضعيفـة مفككة بعيـدة عن أسبـاب قوتهـا وفاعليتهـا . ومهمـا يكـن مـن آمـر فـإن محاولـة إخفـاء بعـض

الأهـداف البرتغاليـة مـن وراء صراعهـم مـع المسلمين فى الميـاه الشرقيـة ،
لـم يكـن ديدناً عـاماً اتبعـه كـل كتـاب الغـرب إذ نجـد مـن بينهـم مـن
صـدع بالحـق وإن اختلـف الحافـز الذاتـي عندهـم ما بـين الفضاضـة
والموضوعيـة العلميـة .

أولا : حقيقـة الدوافـع الاقتصاديـة :-

يدعي كثير من الكتاب الغربيين أن حركة الكشوف الجغرافية (١) عامة ،ومنها
الكشوف البرتغالية ،التي اتخذت طابع الغزو وانتهت بالاستعمار السافر للمياه الإسلامية
الشرقية ، إنما تعود أساساً إلى الرغبة في الحصول على الأفاويه والتوابل . (٢)
وقد تابع بعض الباحثين العرب هذا الاتجاه ، فقالوا بأنه قد ((أصيب الاوروبيون
بحمى البحث عن مصدر التوابل وعن طريقٍ جديدٍ مُوصلٍ إليها . وأصبحت جزائـر
التوابل كأنها الجنة التي يريد كل أوروبي أن يصل إليها .وكان البرتغاليون أشد
الأوروبيين رغبة في ذلك)) . (٣) وخاصة لرغبتهم في الحصول على المال . (٤)
وفي منافسة المدن الإيطالية على الأرباح الطائلة التي تدرُّها تجارة الشرق .
ويكمن الخطر في هذا الادعاء أنه لا يخلو من تبسيط مخل للأحداث ولمجريات الصراع
الإسلامي الصليبي والذي حملت البرتغال رايته الأوروبية منذ مطلع القرن الخامس
عشر . ورغم أن هـذا الادعاء يستند إلـى عـدد من العوامل التاريخية والاقتصادية
الواهيـة ، ومنهـا أن البرتغاليين كانوا قد تستروا أول أمرهم وراء الأهداف
التجاريه البحتة ، ولم يكشفوا عن أهدافهم الحقيقيـة .لسكان السواحل الإسلامية (٥)
وأن الأفاويه والتوابل كانت في ذلك العصر من الأهمية بمكان لدرجة أنها كانت
تقف على قدم المساواة مع الأحجار الكريمة ، وإلى الحد الذي جعل الأوروبيين يستعدون
لمجابهة مخاطر البحار والاستماتة في سبيل الحصول على الفلفل . (٦)

---

١) الكشوف الجغرافية . محمود شاكر . المكتب الإسلامي . ص ١١
٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢١ .
٣) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوى . د . ص٥٢ .
٤) الكشوف الجغرافية . محمود شاكر . ص ١١
٥) أضواء جديدة . محمد عبد العال . د . ص١٥٧
٦) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص٢١

رغم أن هذا الادعاء يستند إلى مثل هذه التعليلات ، فإنه لا يستند إلى حقيقة علمية ، ولا يقبله المنطق السليم . فقد كانت الدولتان اللتان تقودان حركة الكشوف - اسبانيا والبرتغال - لا تزال أهم أجزائها الجنوبية في ظل الحكم الإسلامي وكان شغل الأسبان والبرتغاليين الشاغل هو إخراج المسلمين من الأندلس ومع هذا فقد وصل البرتغاليون رأس الرجاء الصالح وهم في غمرة الحروب مع المسلمين ، وقبل سقوط الأندلس بست سنوات . وكانوا يلاقون من أوروبا كلها كل دعم وتأييد . فهل يُقبَل أنْ يكون هَمُّ الأسبان والبرتغاليين - في حالة كهذه - ينصبُّ على الحصول على التوابل أم أنّ الأجدر بنا أن نفكر في جدية الموقف وأن نقول بأن وصولهم كان لتنفيذ خطة سياسية (١) تم الاتفاق عليها سلفاً .

ويذهب بعض الكتاب إلى أن أسباب الغزو البرتغالي إنما تعود إلى رغبة البرتغاليين في القضاء على سياسة الاحتكار التجاري التي كان الشرق الإسلامي ينتهجها . والتي كانت من أقوى العوامل على استثارة التوسع الأوروبي أثناء القرن الخامس عشر (٢) . ومع أن هذا التوجه له بعض ما يبرره فإنه لا ينهض كعامل اقتصادي بمفرده لتفسير هذه الظاهرة . فلم يكن الشرق محتكراً لتجارة التوابل كما يقول الادعاء ، ولم تظهر هذه السياسة إلّا في وقت متأخر من حكم المماليك في مصر . ومع ذلك فقد ظلت الموانئ والمدن التجارية الإسلامية في دولتي المماليك والعثمانيين مفتوحة للتجار القادمين من المدن الإيطالية ومن غيرها . وكان لهم أن يشتروا ما يريدون طالما التزموا بالنظم والقوانين المعمول بها والتي نظمت عملية التجارة وأُخضعتها لرقابة الدولة الإسلامية في كثير من جوانبها ولا شك أن ذلك عمل مشروع إذا ما أُخذت مصلحة الدولة العليا في عين الاعتبار (٣) .

---

١) الكشوف الجغرافية . محمود شاكر . ص ١١

٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢١

٣) تمّ تفصيل ذلك في غير هذا الموضع .

وهـذه سياسـة تتبعها كافـة الدول حتى يومنا هـذا وهي في الغـرب اليوم تبدو بشكل بشع وسافر يحرم كثير من الدول الفقيرة حتى من حاجاتها الأساسية .

وهكذا يبدو أن الأسباب الاقتصادية للكشف والغزو البرتغالي للمياه الإسلامية الشرقية أعمق من ذلك بكثيـر . بل لعل الباحث لا يخطئ إذا قـال إنها تعـود إلى تراكمات عدة تضافرت على مدى عشرات السنين . فقد استفادت البرتغال من موقعها الجغرافي ووحدة أراضيهـا في ريادة حركة الكشوف الجغرافية ، فانفتاحها على المحيط الأطلسي وضيق أرضها،وعدم تمكنها من دخول البحر المتوسط ، وحماسها لنشر المسيحية،وقربها من القارة الأفريقية ،حيث أصبحت منذ أوائل القرن الخامس عشر مستودعاً لتجارة أفريقيا من العاج والبلح واليد العاملة ،وامتداد سواحلها وعمق موانئها ، كانت عوامل رئيسية دافعة جعلت شعبها ينزع لركـوب البحر واستكشاف المجهول للحصول على الثروة (١) .

لقد أحدث استقلال البرتغال في القرن الثالث عشر تغييرات جذرية في حياة البرتغاليين ،حيث اشتد ساعد الملكية التي تدعمها الطبقة المتوسطـة وسقط النظام العشارى ، وانتشرت اللغة البرتغالية ، وازداد النشاط التجـاري وازدهرت الزراعة بعد الاستيطان البرتغالي في منطقة الجرف الواقعة في جنـوب البرتغال والتي كانت تخضع لحكم المسلمين .وازدهرت الصناعة وخاصة صناعـة صيد السمك التي نَمّتْ في المزارعين البرتغاليين حب حياة البحر وحب الاستكشاف (٢) . وخاصة بعد سنة ١٣١٨م حين أصبحت قيادة الأسطول البرتغالي في يد أحد النبلاء الجنويين وهو مانويل بسانيا ،وأصبح حكمه وراثياً .

---

١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١١٣

٢) المرجع السابق . ص ١١٣ ، ١١٤

وكان ذلك سبباً في نهوض الأسطول البرتغالي،وفي ازدياد التعاون وقيام العلاقات الوثيقة بين سكان جنوة والبرتغاليين لضرب احتكار البندقية للتجارة مع الهند (١) .

وبدأ البرتغاليون في الربع الأخير من القرن الخامس عشر - بدأوا العمل على اكتشاف الأراضي الجديدة واستثمارها . وساعدتهم التحسينات التي أدخلوها على أسطولهم على القيام بسفرات بعيدة وجريئة . كما ساعدت المشاكل الداخلية على حركة التوسع الخارجي ، وذلك بالإضافة إلى ازدياد عدد السكان ، وعدم إمكانية التوسع في القارة الأوروبية بسبب تزايد قوة الدولة الأسبانية . وتفاقم النقص في الحبوب . واشتداد الطلب على الأسماك والسكر والجلود والأصباغ وازدياد الحاجة لإيجاد الأراضي الصالحة لزراعة القصب ،وهو مما أدى إلى ازدياد الطلب على العمال،وإلى التفكير في جلبهم من أفريقيا للعمل في مطاحن السكر وصناعته (٢) .

لقد اختمرت هذه العوامل الداخلية والإقليمية لسنوات طويلة لتشكل مجموعة من العوامل الاقتصادية المتضافرة والتي شكلت جزءاً من الخلفية الاقتصادية للأهداف البرتغالية العامة من وراء غزوها للمياه الإسلامية الشرقية . وقد تضافرت هذه العوامل مع مجموعة من الأهداف والأطماع الاقتصادية البرتغالية ، والتي كان البرتغاليون يهدفون إلى تحقيقها على حساب السيادة والمصالح الاقتصادية الإسلامية في الغالب .

لقد أدركت أوروبا والبرتغال خاصة أن تجارة التوابل تشكل أساساً مُهِمّاً من الأسس الاقتصادية للدولة المملوكية في مصر والشام . واستقر في أذهان كثير من الأوروبيين أن تلك التجارة هي العامل الأول في قوة العثمانيين وأساس مهم من أسس تقدمها في أوروبا ودك عرشها .

---

١)صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١١٤

٢) المرجع السابق . نفس الصفحة .

فزاد حقدهم ازدياداً بحثهم على الإقدام للبحث عن طريق آخر غير الخليج العربي والبحر الأحمر (١) . وهكذا يبدو أن إضعاف القدرة الاقتصادية للدولتين: المملوكية والعثمانية كان أحد الأهداف الاقتصادية السياسية التي شكلت بُعداً استراتيجياً لكافة الغزوات والكشوف البرتغالية . ولعلهم أدركوا أن هذا الهدف لن يتحقق إلا بإحكام السيطرة الاقتصادية واحتكار التجارة الشرقية ،حيث يقضون بذلك على الأرباح التي كان يحصل عليها سلاطين المسلمين ويحرمونهم من أموال التعرفات الجمركية ووسائل النقل البري والبحري ويرمون بأعداد كبيرة من العمال التجاريين في أتون البطالة ،ويحرمون المدن الإسلامية من كثير من المواد التي يصعب العيش بدونها (٢) . لقد هدف البرتغاليون -إذن - إلى تدمير الحضارة الإسلامية عن طريق تجميد أشكال الإنتاج (الصناعة والزراعة) السائدة آنذاك في العالم الإسلامي والتي كان بإمكانها التطور إلى مراحل راقية وصولاً إلى مجتمعات متقدمة بالمفهوم السائد اليوم (٣) إذ ليس من شك في أن تطور الإنتاج يعتمد على حركة تجارية نشطة ،وأن توقف النشاط التجاري سوف يقوض حتماً وسائل الإنتاج إلى حدٍّ كبير .

ولم يكن هذا الهدف جديداً على الأوروبيين فقد أدركوا بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية أن الدول الإسلامية في الشرق تعتمد في اقتصادها بشكل كبير على تجارة الهند ،ولذا وضعوا الخطط لتدمير هذه التجارة ولا شك أنهم أرادوا أن يحققوا بذلك عدة فوائد: أولها أن تصل المواد والسلع التي يحتاجونها من الهند والأرخبيل الأندنيسي والشرق الأقصى دون وساطة . وثانيها إضعاف المسلمين عن طريق قفل باب التجارة ومصدر الرزق الأساسي ، وثالثها تأمين أسواق لتصريف منتجاتهم الفائضة،وقد تجلّى هذا الهدف بعد أن أخذ نظام الإنتاج الرأسمالي

---

١) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوي . د . ص ٥٤
٢) الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي . محمد الكيالي . د .ص١٠٨
٣) المرجع السابق . نفس الصفحة .

يحل محل نظام الإنتاج الاقطاعي في أوروبا مع بدء القرن الخامس عشر (١) . وهكذا يبدو أن أهداف البرتغاليين الاقتصادية إنما هي وليد شرعي لأحلام أوروبية غير شرعية سبقت الغزو البرتغالي بعدة قرون .

لقد كانت البرتغال في أمس الحاجة إلى الحصول على المواد الأولية وخاصة المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة واللؤلؤ . ولما كان الذهب يشكل أساساً مهماً للتعاملات النقدية آنذاك ، فقد كان أكثر المعادن أهمية وخاصة بعد أن ظهرت العملة الذهبية البرتغالية سنة ١٤٤٩م (٢) . حيث حرصت البرتغال على الحصول على الذهب من القارة الأفريقية بشكل منتظم ، ومما يذكر أن حاجة البرتغاليين للذهب ازدادت بعد الوصول إلى مياه المحيط الهندي وبدء الاتجار على موانئه حيث كان تجار السواحل الهندية لا يتعاملون إلا به (٣) . ومن هنا كان الحصول على الذهب من بين الأسباب الهامة للغزو البرتغالي للمياه الإسلامية الشرقية وخاصة سواحل أفريقيا الشرقية التي تميزت بشهرة خاصة في إنتاج الذهب .

إن الوصول إلى الشرق والتحكم في تجارته وفي سلعه التجارية وفي المواد الخام ذات الأهمية الخاصة لا يعني الهيمنة الاقتصادية على الشرق فحسب بل يعني كذلك التحكم في أسواق أوروبا وإخضاعها للهيمنة الاقتصادية البرتغالية والتي ترتبط حتماً بالتفوق البرتغالي على سائر الدول الأوروبية وهو ما يعني أن تحل البرتغال محل المدن الإيطالية وخاصة البندقية في مجال الهيمنة الاقتصادية وأن تَفُوقها بازدياد النفوذ السياسي المدعّم من الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابا .

وهكذا يصبح العامل الاقتصادي من أهم العوامل التي دفعت البرتغاليين إلى غزو السواحل الإسلامية الشرقية ، ومع ذلك فإننا نجد من الباحثين من يرتفع بهذا العامل ويقدّمه على سائر العوامل الأخرى ويرى أن اهتمام الاستعمار - ومنه الاستعمار البرتغالي بالايرادات والنفقات أكثر بكثير من اهتمامه بنشر التعاليم

---

١) الأسس الاقتصادية . محمد الكيالي . د . ص٧٠ . وانظر كذلك حركة الكشوف الجغرافية وأهدافها . بشير كاظم . ص١٢١ . (٢) صراع القوى في المحيط الهندي . ص١١٥
٣) المرجع السابق ص١٢٤ .

المسيحية والقيم الغربية[1] بينما نجدُ آخرين يجعلون العامل الديني أساس الدوافع البرتغالية ، وأن العوامل الاقتصادية تأتي في المقام الثاني[2] ، من حيث الأهميّة .

ثانيا : العوامل السياسية :

لقد لعبت مجموعة من العوامل السياسية المتفاعلة دورها في توجيه الغزو البرتغالي ، وفي تحديد زمنه في وقت واحد ، فمن جهة كان الصراع الحضاري ، والحربي بين المسلمين والأوربيين على جبهتين : الأولى في الشرق وكانت الغلبة فيها للعثمانيين والثانية في شبه الجزيرة الإيبيريّة حيث كان نجم المسلمين في أفول (٣) ، ومهما يكن من أمر فإن ما ينبغي التركيز عليه هو جوهر الصراع نفسه ، ذلك الصراع الذي كان على أشده ، والذي كان يُحَرِّكُه من الجبهة الأوربيّة ميراث الفشل الصليبي في مصر والشام ، والأحقاد الدفينة على المسلمين ،(٤) والرغبة في النيل منه ، فضلاً عن الرغبة الأوربية في إعلاء شأن الحضارة الغربية في مواجهة الحضارة الإسلامية ، والرغبة في تسخير السياسة والحرب في خدمة الأهداف التبشيرية ، ويغلف كل ذلك رغبة عارمة في الحصول على خيرات الشرق والإمساك بعصب الاقتصاد العالمي عن طريق التحكم في حركة التجارة الدولية . ولما كان الأمر كذلك فلا عجب أن نرى الدولتين الإيبيريتين تتنافسان ، لا في طرد المسلمين من الأندلس فحسب بل في تعقبهم فيما وراء

---

١) الأسس الاقتصادية . محمد الكيالي . د ص ١٠٥

٢) موقف المماليك ودول الخليج من النفوذ البرتغالي . يوسف الثقفي . د ص ١٤٦
وكذلك الكشوف الجغرافية . محمود شاكر . ص ١١-١٢

٣) المرجع السابق ص ١١

٤) المرجع السابق ص ٢١

وكـــان التنافـس بـين الدولـتين الإيبيريتين ـ أسبانيا والبرتغـال ـ إذن الوجـه الثانـي للمؤثـرات السياسيـة التي دفـعت بالبرتغـال إلـى غـــزو السـواحـل الإسلاميــه الشرقيـة ، فقـد كانـت الدولتـان تتنازعـان اكتشـاف العوالـم الجديـدة ، وتتنازعـان أيضـا ، مناطـق النفـوذ إلى أن أبرمـت معاهـدة ترود يسيلهـاس سنه ١٤٩٤م والـتى نصّت علـى وضع خط وهمـى علـى بعـد ٢٧٠ فرسخـاً مـن جـزر رأس فـردى وجعلتـه حـداً فاصـلاً بين ممتلكـات البرتغـال والممتلكـات الأسبانيـه ، وقـد أيّد البابـا الاسكندر السادس هـذه الاتفاقيـة ، حيـث أصبـح ذلـك الخط حـدّاً نهائيـاً بين مستكشفـات وممتلكـات كـل من الدولتين "١" مـن جهـة ، وأطلقـت يدُ البرتغـال ـ بذلـك ـ لاكتشـاف الشـرق ، ولعلنـا لا نكـون مغالـين إن قلنـا : ولمهـاجمتـه ـ أيضـــاً ـ مـن جهـــة أخـرى . ومهمـا يكـن من أمـر فإن مـا حـــدث أن البرتغـال استمـرت في تنفيـذ برنامجهـا السياسـي الـذي كـان معـدّاً مـن قبـل ، ولكـن بخطى أسـرع ، وبمباركـه أوربيـة شبـه كاملـة.وقـد أشـار أحـــد الكتـاب الغربيين إلى ذلـك البرنامـج السياسـي حـين سمّاه " الخطة الاستراتيجية الكبرى المرسومه ضـد قـوة الإسـلام السياسيـة "٢" ، تلـك الخطـة التي كـان مـن أهدافهـا :

تطويـق المسلمـين من الشـرق لتشتيـت جهودهـم الحربيـة مـن جهـة ولإضعـاف قدرتهـم علـى المقاومـه في الأندلـس مـن جهـة ، ولإضعـاف قدره العثمانيـين القتاليـة مـن جهـه ثالثـة ، ولإذكـاء الروح الصليبيـة من جهـه أخـرى . ولـذا يمكـن القـول إن البرتغاليـين كـانـوا يهدفـون إلى محاربـة المسلمـين العـرب أكثـر مـن تنصـير الوثنيـين "٣" . وهكـذا كـان الغـزو البرتغالـي وسيلـةً

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٩
(٢) المـــــرجـــع السابق ص ٣٠
(٣) المرجـع السابــــــق ص ٥٤

للرد على قوة الإسلام وتدميره وللقضاء على قوة البندقية وسيطرتها التجارية في آن واحد وكان لا بد من اكتشاف طريق بحري جديد يمتد من أوله لآخره "١" بعيداً عن قبضة السيطرة الإسلامية في مصر والشام ٠

ويندرج تحت هذه الخطة عدد من الأهداف السياسية والاقتصادية والدينية في آن واحد ، ومن ذلك رغبة البرتغاليين في تهديم المدينة المنورة ، ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذ كنوزه ، حيث كان البوكيرك يتصور أن ضريحه ملي ، بالجواهر واللالئ ، وسرقه رفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعلها رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين "٢" ٠ كذلك كان البرتغاليون يهدفون إلى الاتصال بملك أثيوبيا والتعاون معه لضرب المسلمين في مصر عسكرياً من الخلف تمهيداً للقضاء على المسلمين ومقدساتهم "٣" ٠ وكان البوكيرك يهدف - أيضا - إلى تحويل مياه النيل إلى البحر الأحمر ليحرم دولة المماليك من ري أراضيها "٤" ، وبذلك يحرم مصر من مقومات الحياة الآهلة ٠

ثالثاً : حركة الكشوف وعامل الامتداد الجغرافي :

ولا يمكن للباحث أن يقلل من أهميه روح الكشف والمغامرة ، فقد أصبحت شبه جزيرة إيبيريا ، والبرتغال بوجه خاص ، على نحو ما ، وريثة لمأثور التقاليد الجنوية ، فلم ينقض قرن من الزمان حتى تشبع البرتغاليون بروح المغامرة البحرية المتسلط على جنوة ٠٠٠ وكانت البرتغال في موقع جغرافي

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار ٠ ص ٢٣

(٢) الكشوف الجغرافية . محمود شاكر ص ٢٨

(٣) Sergeant, RB: The; Portuguese of The South Arabian Coast, Oxford, 1963 p.21

وانظر عبد الملك عوده : السياسة والحكم في أفريقيا القاهره ١٩٥٩ ص ٦٠

(٤) المرجع السابق ٠ ص ٢٨

حسن شديد المواءمة لمواصلة هذا العمل ، إذ لم يكن بأوربا كلها ميناء أصلح لهذا العمل من لشبونة التي أصبحت منذ أوليات القرن الرابع عشر مستودعاً تمرُّ من خلاله تجارة أفريقيا من العاج والبلح في طريقها إلى أوربا "١" . وكان أمل البرتغال طوال القرن الخامس عشر أن تصل إلى الهند عن طريق جديد "٢" ، وفي سبيل ذلك أرسلت البعوث، وجهزت الحملات ، وخاضت المعارك على طول سواحل أفريقيا الغربية وقد حفز البرتغاليين على ذلك ما جَنَتْهُ من خيراتها من ذهب وصموغ وطيوب على عهد هنرى الملاح "٣" . وقد سعت البرتغال لتحقيق هذا الهدف بكل طريق ، ومن ذلك أنها جنّدت الباحثين والرحالة والجغرافيين لجمع المعلومات حيث كانت تصنف وتبوّب وتستخدم في رسم الخرائط "٤" وإقامة الخطط ، ومن أشهر الرحلات في هذا الصدد ، ما قام به الرحالة البرتغالي بيدرو دى كوفلهام الذي وصل إلى الهند سنه ١٤٨٧م عن طريق البحر الأحمر وزار في طريق عودته سواحل شرق أفريقية حتى سوفالا "٥" ، ولا شك أنّ ما جمعه من معلومات أكد للبرتغاليين إمكانيه الالتفاف حول أفريقيا والوصول إلى الهند من هناك ولا سيما أن بارثليميو دياز (Barthelomew Diaz) كان قد وصل إلى رأس الرجاء الصالح قبيل ذلك بقليل أي في العشرين من نوفمبر سنه ١٤٨٦م "٦" . وقد كان عامل الامتداد الجغرافى أحد الدوافع المهمّة في هذا المجال ، فقد توالت رحلات البرتغاليين إلى ساحل أفريقيا الغربي بعد فتح سبتة سنه ١٤١٥م ، فاحتلت جيوشهم جزر كناريا

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٤

(٢) انظر علاقة ساحل عمان ببريطانيا . عبد العزيز عبد الغني . د . ص ١٩

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحه

(٤) المرجع السابق . ص ١٨

(٥) Johnston OP.cit. p82

(٦) Low. C.R: History of Indian Navy, London, 1877, p. 3

سنه ١٤٢٤م وجزر ماديرا (Madera) سنة ١٤٣٠ وأزورس (Azores) سنة ١٤٣٧م واكتشفوا ريودى أورو (Rio De Oro) سنة ١٤٣٦م والرأس الأبيض (Cape Blanc) سنه ١٤٤١م ثم مصب السنغال والرأس الأخضر (Cape Verde) وأستمر نشاطهم حتى وصلوا إلى ساحل سيراليون سنة ١٤٦١م "١" .
وكان ذلك تمهيداً كافياً لتحقيق الهدف الكبير بالوصول إلى الهند من حول أفريقيا .

رابعا : الدوافع التبشيرية :

ثمة عامل قوى أمتزجت فيه الدوافع السياسية بالدينية وبَدا كلٌّ منها حافزاً على الآخر وقد أشار بعض الكتاب الغربيين إلى ذلك صراحةً ، ومن هؤلاء بانيكار الذي قال :

(وقد أصبحت البوتغال أيضا في القرن الخامس عشر نصيرة المسيحيه وراعيتها على الإسلام فكأن روح الحروب الصليبية لم تبق فيها جذوة الحياة متقدةً فقط ، بل لقد ازدهرت أيضا مكتسبةً قوةً على قوتها بشبه الجزيره الإيبيرية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وبينما لم يكن الإسلام في نظر دول الغرب الأوربي الأخرى إلّا شبحاً بعيداً لتهديد شاسع ، فإنه لدى شعوب شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولدى شعب قشتالة وأرغونة والبوتغال ، كان يمثل قوة على الأبواب تهدد بالثبور ، وتنفرد بالقهر وشدة المراس ..... وكان الإيبيرى المخلص لدينه المتفاني في حبّ وطنه يَعُدُّ القتال على الإسلام ضرورة ماسةً صارمة ، ويراه خليطاً يجمع على حدٍّ سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية . لقد كان الإسلام هو عدوّه اللدود الذي لا بدّ من قتاله في كل مكان . وسيظل الشيء الكثير

---

(١) Duffy : OP.cit.p.8

مـن تصـرفـات البوتغـال في آسيـا (وأفريقيـا) غامضـاً لا سبيـل إلى تفسيره مالـم نتـذكـر هـذه الحقيقـه علـى الدوام "١" .

لقـد كـانت الحمـلات الكشفيّـة والحربيّـة البرتغاليـّة منـذ عهـد هـنرى الملاح ومروراً بديجـوكـام وبارثلميـوديـاز وفاسكـودى جامـا وغيرهـم ، تحقيقـاً لدافـع قـوي هـو(ضـرب العـرب في مقتـل) ، أي توجيـه ضربـة قاتلـة للقـوى العربيّـة بالقضـاء علـى نفوذهـا التجـارى بحيـث يجـف مصـدر ثروتهـا وقوتهـا المـاديـة والعسكريـة . "٢"

غُـذّي هـنري المـلاح منـذ أيـام طفولتـه الأولـى بإيمـان تصـوف ديـني مسيحـي عسكـري يخالطـه بُغـضٌ مريـر للإسـلام ، وكـان أكـبر همّـه في وضـع الخطـة الاستراتيجيـة الكـبرى الـتي تطوق جنـاح الإسـلام ، وتحمـل العالـم المسيحـي رأسـاً إلى المحيـط الهنـدي "٣" . وكـان هـنرى (الثـالث ابـن ملـك البوتغـال) علـى رأس جمـاعـة عرفـت باسـم (جمـاعة المسيـح) ، ونـواة هـذه الجماعـة بعـض الفرسـان الصليبيـن الـذين لجـأوا للبوتغال بعد تعقـب المسلميـن لهم في جـزر البحـر الأبيـض المتوسـط "٤" .

وليـس مـن قبـيل الصدفـة أن تقتفي البعثـات التبشيريّـةُ خطـى الرحالـة والجيـوش والتجـار حـتى أصبـح مـن الطبيعـي أن يوجـد في كـل قلعةٍ واحـد أو أكـثر مـن الجزويـت ؛ الأمـر الـذي تطـوّر فيمـا بعـد ليـوجـد مبشـرون مـن الفـرق الأخـرى كالدومينيكـان والبروتستانـت "٥" . وعلـى سبيـل المثال

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار ص ٢٥ . وتاريخ كشف أفريقيا . شوقي الجمل . د . ص ١٦٤
وكذلك السياسة والحكم في أفريقيا . عبدالملك عودة . ص ٦٠
٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٢٢
٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار ص ٢٥
٤) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . ص ١٦٤
٥) المرجع السابق ص ١٨٧

فقد كان مع ديجوكام سنة ١٤٩١م بعض رجال الدين المسيحي الذين قاموا بنشاط تبشيري عند مصب الكونغو وتوغلوا داخل القارة نحو مائتي ميل ، ويقال إن هذه البعثة التبشيرية قد نجحت في إقناع الملك وشعبه باعتناق المسيحية "١" .

وليس أدل على قوة الدافع الديني من أن البابوية كانت تبارك تلك الحركات وترعاها ، وكثيراً ما تدخلت لترشيدها وتسديد خطاها نحو الأهداف الصليبية المنشودة ، وقد ذكرنا من قبل أنها تدخلت لفض النزاع بين البرتغال وأسبانيا والذي انتهى بمعاهدة توردسيلاس المشار إليها آنفا "٢" . وفي هذا الإطار كانت البابوية تعتبر هنري الملاح جندياً باسلاً من جنود المسيح الذين يسعون لنشر الكاثوليكية بين (الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفره) "٣" على زعم البابا . وعلى هذا الأساس رسمت البابوية له خطة العمل على النحو التالي :

(فإذا تم على يديه اختراق المحيط ملاحة حتى بلاد الهند التي يقال إنها خاضعة آنفاً للمسيح ، وإن هو توصل إلى إنشاء العلاقات بينه وبين هؤلاء الناس ، فإنه سيتمكن من حملهم على النهضة لبذل العون لمسيحي الغرب على أعداء الدين ، وسيستطيع في الحين نفسه أن يُدْخِل في الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الإسلام ، ويدخل أسم المسيح في نطاق علمهم) "٤" . ويعلق أحد الكتاب الغربيين على ذلك بقوله " الشيء الوحيد الذي يبرز بأقصى غاية الوضوح في المرسوم البابوي الذي قدر أن يكون له أثرٌ قويٌ في السياسة إبان مائة السنة التالية (القرن السادس عشر) هو المزج بين الدافع الروحي إلى فتح الأرض الوثنيَّة من أجل المسيح ، وبين الحميَّة المتعصبة

---

(١) Johnston,H.H: The Opening up of Africa, London, 1928, p244

(٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٧

(٤) المرجع السابق ص ٢٨

بالدعوة إلى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف "١"

ولم يتورع فاسكو دي جاما أن يعلن صراحة أن أهدافه تتلخص في جانبين، أولهما ديني صليبي يهدف إلى نشر المسيحية ، وهو الأهم والدافع الأكبر ، والثاني اقتصادي يتمثل في الوصول إلى الهند، بلاد التوابل "٢" واحتكار تجارتها وهو الهدف الذي يصب في سابقه ويخدمه في ذات الوقت فقد أراد البرتغاليون أن يتحكموا في هذه التجارة ، ويتمكنوا منها ، ليدقوا عصب الاقتصاد الإسلامي ، ويتمكنوا من تحقيق هدفهم النهائي في بناء حضارة مسيحية "٣" .

وكانت سفينة الربان الأكبر في أول حملة حربية برتغالية تعبر رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م ترفع على ساريتها علماً رسم عليه صليب كبير للمسيح كما كانت تحمل المدافع أيضاً ، وهما الرمزان اللذان اتخذتهما القوة الجديدة الزاحفة على الشرق رمزاً لها "٤" .

وقد ساعد الصراع بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتيه في إذكاء هذا الاتجاه الصليبي التبشيري ، حيث لم تلبث موجه الصراع أن توجهت إلى مجال التبشير بالمسيحية بين القبائل القاطنة في المناطق التي كانت تسود فيها الوثنية في المستعمرات الجديدة "٥" من جهة ، وإلى إلهاب حماس الجنود ضد الإسلام والمسلمين من جهة ثانية وهو الأمر الذي أثبتته الأحداث التالية على طول سنوات الصراع الإسلامي البرتغالي في سواحل شرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد الهند . وعلى سبيل المثال فقد حاول البرتغال أن تحول الشعب الأثيوبي وحكومته وهي الدولة الأفريقيه المسيحية الوحيدة (في ذلك الوقت) إلى المذهب الكاثوليكي "٦" ، بهدف عزل

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٨ ، ٢٩

(٢) Duffy, Ibid, p, 107

(٣) علاقه ساحل عمان ببريطانيا ص ١٨، ١٩ عن Garratt: G.T. Indo British Civilization The Legecy of india Oxford, 3rd ed1957, p395

(٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٩

(٥) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٢٤

(٦) المرجع السابق ص ١٣٢

السكان عن الكنيسة في مصر وتحويلهم ليكونوا أداة عون للبرتغاليين في حربهم ضد المسلمين في الشرق العربي . وقد نجحت البرتغال ، إلى حد ما ، في أن تقيم مع أثيوبيا نوعاً من التعاون السياسي والحربي المشترك لتحقيق هذا الهدف ، وهو الأمر الذي سنتعرض له تفصيلاً فيما بعد .

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف الديني للاستعمار البرتغالي أن المدن الإيطاليه المسيحية وخاصة البندقية ، قد تضامنت مع القوى الإسلامية في مصر لمقاومة محاولات البرتغال للتعرض للتجارة الشرقية واحتكارها ، فقد كانت هذه المدن بمثابة المُكَمِّل الأوربي في سلسلة تجارة الشرق القديمة وقد حتَّمت عليها مصالحها الاقتصادية هذا الاتجاه "١" ، وخاصه بعد أن برزت النوايا البرتغالية القائمة على الاستئثار بتجاره الشرق واحتكارها دون شقيقاتها الأوربيات "٢" .

ولا يفوت الباحث أن يسجل هنا أنه رغم أنّ البعثات الدينية البرتغالية ظلت تمارس نشاطها أكثر من قرن من الزمان ، أى حتى عام ١٦٣٢م ، فإنها قد فشلت في تحقيق أهدافها الدينية بسبب ما أحاط بها من شكوك "٣" ، خاصة وأن بعض تلك البعثات كانت تقوم بدورها مخلصةً للدين المسيحي بينما كان الكثير منها يمثل مجرد جماعات دينيّة غير مرغوب في بقائها في مواطنها الأصليه "٤" ويضاف إلى ذلك أن رغبة البرتغاليين في مهاجمة الإسلام كانت أشد من رغبتهم في نشر المسيحية ، وأن الحقد الصليبي وروح التحدي الحضاري والحربي كانا الغالبين على أحاسيس محاربي البرتغال في السواحل الإسلاميّة الشرقيّة .

---

(١) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص١٢٢

(٢) تم تفصيل ذلك في غير هذا الموضع .

(٣) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص١٢٤

(٤) موجز تاريخ أفريقيا . رونالد أوليفر وجون فيج . ص ١٤٥

خامساً : الحصول على الرقيق :

كان الحصول على الرقيق دافعاً ثانوياً من دوافع الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية ، وذلك إذا ما قورن بالدوافع السياسية والدينية ولكن حاجة أوربا إلى أيدي عاملة في المزارع والمصانع والبيوت ، وتزايد هذه الحاجة مع تزايد التقدم الصناعي ، ودخول أوربا في العصر الحديث ، جعل الرقيق ذا أهمية خاصة ، وخاصة عندما تبين أثره الفعال في إدارة عجلة الاقتصاد الأوربي واشتداد الحاجة الأوربية إليه .

بالغ الأوربيون عامة ، والبرتغاليون على وجه الخصوص ، في الاهتمام بالحصول على الرقيق ، وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والرخيص ، فأعدوا السياسات ، وخاضوا المعارك وجهزوا الخطط الاقتصادية ، واستخدموا كل الأساليب اللاإنسانية للحصول على الرقيق ، وفي معاملته ، كاستخدام الصيد ، والقنص والمطاردة ، والقتل والتعذيب والتشريد ، والحرمان من الحقوق البشرية ... إلخ ، مما جعل قضية الرقيق وصمة عار في جبين أوربا العصر الحديث ، وعلى مر التاريخ وستظل شاهداً على انحطاط الحضارة الأوربية ، وعلى أساليبها الرخيصة في استعباد إنسان الشرق لبناء حضارتها على أشلائه ودمائه وقد أحس كثير من الكتاب الغربيين "١" بجريمة أوربا فحاولوا إخفاءها وإلصاق وصمتها بالمسلمين والعرب ، حيث ادعوا أن نظام الرق قد بدأ مع ظهور المسلمين وأن المسلمين هم أصحابه ومؤسسوه متغلين حقيقة الرق وأوليته وموقف الإسلام منه ونسوا أن هناك فارقاً كبيراً بين استرقاق الإنسان لتحريره من العبودية لغير الله ومنحه حريته وكرامته كإنسان كامل الأهلية للتصرف والتملك ، والعمل الحر والاختيار ، وممارسة العمل السياسي . وبين استرقاقه لاستعباده وجعله مجرد ترس في آلة صماء هي عجلة الاقتصاد الأوربي ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً . ونسوا - أيضاً - أن هناك فارقاً

---

(1) Coupland, R: East Africa and its Invaders, London, 1938 p, 35

كبيراً بين أنظمة الرقيق وحقوقه وأساليب الحصول عليه في الإسلام وبين الأساليب الغربية الهمجيّة في معامله الرقيق وفي طرائق الحصول عليه .

وتعتبر البرتغال أول دولة أوربية تسعى للحصول على الرقيق ، وهي أول دوله تتخذه سلعةً تجاريةً سرعان ما برزت أهميتها الاقتصادية ، ومردودها المادي المجزي ، ولذا يمكن أن يقال إن البرتغال هي مؤسسة السرق في العصر الحديث "١" . وأنها ـ أيضا ـ صاحبة الوصمة الأولى في هذا المجال . فإذا كان البرتغاليون الأوائل قد أسروا في إحدى رحلاتهم البحرية عدداً من الأفريقيين لتعليمهم مبادىء المسيحية ليعملوا على نشرها في بلادهم بعد العودة ، فإن أذهان البرتغاليين قد اتجهت ـ فيما بعد ـ إلى شراء الرقيق الأسود أو خطفه ثم بيعه للعمل في البرتغال "٢" أو غيرها من الدول الأوربيّة أو مناطق العالم الجديد . وقد تكونت أول شركة لتجارة الرقيق والذهب في عهد هنرى الملاح وبتأييده وتشجيعه ، ولم تلبث تجارة الرقيق أن ازْدَهَرَتْ حتى بلغ عدد الرقيق في وقت قصير في مدينة لشبونة وحدها ،على سبيل المثال ما يزيد على عشر السكان الأصليين "٣" وقد بدأ شحن الرقيق إلى أمريكا منذ وقت مبكر من القرن السادس عشر وحوالي سنة ١٥١٠م على وجه التحديد . ويذكر ـ على سبيل المثال ـ أن عدد العبيد الذين بيعوا في أسواق لشبونه سنة ١٥٣٩م يقدر بنحو عشرة آلاف إنسان "٤" ، وأن مالا يقل عن مليون عبد قد أُخذوا من أفريقيا ليعملوا في مزارع الغرب ، وأن مثل هذا العدد قد قتل بسبب استخدام أساليب القنص والتعذيب ووسائط النقل غير المأمونة "٥" . حيث كان يُقَدَّر عدد المفقودين ما بين ١٥ و ٢٠٪ من مجموع المستعبدين في كل

---

(١) الاستعمار البرتغالي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٠
(٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٢٩
(٣) Duffy: op.cit ,8
(٤) الاستعمار الحديث . تشرس ٠ر٠ج . هاريسون . الترجمة العربية . ص ٣٠ ، ٣١
(٥) Counland, op.cit ,35

رحلة ، هذا بخلاف من كان يسقط منهم صرعى أثناء عمليات المطاردة والاصطياد والأسر "١" .

هكذا اتخذ الاستعمار البرتغالي ، وقبل أن يصل إلى سواحل المياه الإسلامية الشرقيه ، شكل الاستعمار الديمغرافي القائم على استغلال الإنسان عن طريق الرق بدلاً من استغلال المكان ، فقد كان الرقيق أغلى سلعه اكتشفتها القوى الاستعماريه في أفريقيا ، وأصبحت هذه السلعة الأساس الذي بنت عليه الدول الاستعمارية اقتصادها ورخاءها "٢" . وظلت البرتغال تحتكر هذه التجارة البشرية لمدة طويلة قبل أن تنافسها فيها هولندا وفرنسا وبريطانيا . فقد كانت البرتغال عند نهايه القرن السادس عشر مازالت تموّل أملاكها والأملاك الأسبانية ومناطق العالم الجديد بالرقيق،حيث كان الرقيق عماد الحياة الاقتصادية البرتغالية "٣" .

يتضح لنا مما سبق وكما يقول أحد الباحثين الغربين أن الدوافع المستترة وراء جهود البرتغاليين وراء رحلاتهم العسكرية إنما تكمن في الخطة الاستراتيجية الكبرى المرسومه ضد قوه الإسلام السياسية،والتبشير بالنصرانية ، والرغبة في احتكار تجارة الأفاويه "٤"،فضلاً عن تجارة الرقيق . وأن هذه الأهداف قد أصبحت ومنذ وصول فاسكو دي جاما إلى سواحل الهند بمثابه المناهل الكبرى للسياسة البرتغالية في الشرق "٥" ولمدة تزيد على مائة وخمسين عاما من بداية الغزو .

---

(١) موجز تاريخ أفريقيا . رونالد أوليفر وجون فيج ص ١٣١

(٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٤٠

(٣) المرجع السابق : ص ١٣٩

(٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٠

(٥) المرجع السابق : ص ٢١

الفصل الثاني

الحملات البرتغالية لاحتلال السواحل الاسلامية الشرقية فـي شـرق افريقيا وبحر العرب والهنـد

كان حلم الوصول إلى الهند ، وقطع شريان التجارة الإسلامية ، ومصدر قوتهـا ، والالتفاف حول المسلمين من الخلف لطعنهم وتدمير مقدساتهم ، من الأحلام الـتي راودت البرتغال في فترة مبكرة من القرن الخامس عشر ، ولازم هذا الحلم هنـري المـلاح ومن جـاء بعده من ملوك البرتغال ، الذين دأبـوا على تحقيقـه وبـذلوا فـي سبيل ذلك كلّ ثميـن إلى أن تمكنـوا من جمع المعلومات اللازمة ، ومن الالتفـاف حول أفريقيـا عن طريق رأس الرجاء الصالح في رحلة بارثلميـوديـاز المشهورة سنة ١٤٨٦م [١] ٨٩١هـ وقد رتّب البرتغاليون ما جمعـوه من ثمرة الكشف والبحث والتجسس والرحلـة عبر الأراضي الإسلامية وأفـادوا منـه في وضـع الخطط الاقتصادية والسياسيـة والحربيـة ، حيث كانت تلك المعلومات المعيـن الاول للبرتغاليين في تنفيـذ استراتيجيتهـم وتيسـير حملاتهم وتثبيـت أقدامهـم في السـواحل الإسـلاميـة الشـرقيـة ، ولعل أهـم ما تجـدر الإشـارة إليـه في هذا المقام تلك البعثـة التي تزامنـت مـع رحلـة بارثلميـو ديـاز Borthelomew Dial سنة ١٤٨٦م ٨٩١هـ فقد أعـد يوحنـا الثاني (١٤٨١ ـ ١٤٩٥) بعثـة تجسسيـة ، خلفـاً للبعثـة السابقـة التي مُنِيَتْ بالفشـل في بيـت المقدس [٢] ، كـان عليها أن تخترق بلاد المسلميـن بـرا وتتبـع خط سـير تجـارتهـم حتى منابعهـا ، وفي ذات الوقت كان عليها أن تدرس الطبيعـة الجغرافية والاسـتراتيجية للمناطق التـي تمـر بهـا ، وأن تتعرف علـى مملكـة الحبشـة المسـيحية [٣] ، وعلـى مدى استعـدادهـا للتعاون مع البرتغاليين لتحقيـق أهدافهـم الصليبية [٤] . وبنـاء على ذلك خرجـت

---

1) Low. C.R. Hist of Indian Navy, London, 1977, P. 3

(٢) لمزيد من التفصيـل راجـع

3) Serjent, R.B, op.cit.P.4

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في فصل مستقل .

هذه البعثة من برشلونة إلى القاهرة سنة ١٤٨٦م ، ومنها اتجهت إلى عدن عبر البحر الأحمر ، حيث انقسمت هناك إلى مجموعتين عمل : فذهب بترو دي كافلهام Cavilham قائد البعثة إلى سواحل الهند الغربية للتعرف على مصادر تجارة التوابل ولِسَبْرِ غور الإبحار عبر المحيط الهندي ، وذهب أحد زملائه إلى ملك الحبشة . وتمكن كافلهام في هذه الرحلة من جمع المعلومات عن سواحل الهند الغربية وسواحل البحر العربي ، وأهم المراكز التجارية فيها مثل كاليكوت وهرمز وعدن ، ثم زار ساحل أفريقيا الشرقي وتعرف على طبيعة وأهم مراكزه التجارية (١) . وبعد أن استوعب تلك الحقائق استيعاباً كاملاً عاد إلى القاهرة ومنها بعث إلى ملك البرتغال دوم جوا بتقرير مفصل عن رحلته (٢) ، حيث تم - دون شك - توظيف ذلك التقرير في إعداد الخطط البرتغالية وفي تنفيذها أيضاً .

وهكذا يتبين لنا أن وصول البرتغاليين إلى الهند ، وقيامهم باحتكار التجارة الشرقية ، والسيطرة على أهم مراكزها لم يكن مجرد مغامرة غير محسوبة حالفها الحظ ، بل كان نتيجة تبصر وإعمال فكر ودراسة ورَوِيَّة ، وبَعْدَ تخطيطٍ مُضْنٍ (٣) . وقد برهنت الأحداث على أنّ السياسة البرتغالية في الشرق ، كانت ، طوال القرنين التاليين (السادس عشر والسابع عشر) ، امتداداً تاريخياً وحضارياً لحركة الحروب الصليبية التي اجتاحت منطقة الشرق الأوسط في العصر الوسيط .

وإذا تتبع الباحث الحملات البرتغالية على السواحل الإسلامية الشرقية يتبيّنُ له أن تلك الحملات قد تطورت وفقاً لمعطياتٍ سياسية خاصة ، وأنها قد مرّت أثناء تطورها بِعِدَّةِ مراحل ، يمكن التمييز بين أربعٍ منها هي مرحلة جسّ النبض ، ومرحلة الهيمنة التجارية ، ومرحلة الانتصار الحربي ، ومرحلة تثبيت أبجديات السياسة البرتغالية على طول السواحل الإسلامية الشرقية التي تعرضت للغزو البرتغالي .

---

(١) علاقة ساحل عمان ببريطانيا . عبد العزيز عبد الغني . د . ص ٢١

(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٣

(٣) علاقة ساحل عمان ببريطانيا . ص ٢٠

المرحلـــة الاولـــى :ـ

قامت السياســةُ البرتغاليــة في هذه المرحلــة على عدة مبادئ من أهمهـــا : التعامل مع أهالـى المناطـق التي يصـل إليها الأسـطول البرتغالـي بالحُســنى، وعدم اللجوء إلى العنـف معهـم ما أمْكَنَ ذلك ، وذلك تأليفاً لقلوبهم وكسباً لمودتهم[(١)] وإخفاءً لحقيقة النوايـا البرتغاليـة التي لم يأنِ الوقـتُ بعدُ لانحسارهـــا والإعلان عنها . وقـد ضمنت هذه السياســة لفاسكو دى جاما رحلـةً موفقـةً خاليـةً ـ إلـى حد مـا ـ من مشـاعر العداء، فضلاً عن خلوهـا من الأعمـال العدائيـة من قبل السكان سـواء فى سـواحل شـرق أفريقيـا[(٢)] أم في سـواحـل الهنــد الشـرقيــة[(٣)].

وابتعد البرتغاليـون في هذه المرحلـة عن الاقتراب مـن سواحل الجزيـرة العربيـة ، ولم يتعرضـوا لمداخل البحـر الأحمـر أو الخليـج العربي ، وظلـت سفنهـم تقلـع من شـرق أفريقيـا إلى المـواحل الغربيـة للهند مباشـرة، وتحرص على مغادرة تلك السـواحل قبـل حلول موعـد وصـول القوافـل التجاريـة الإسلاميـة[(٤)] حتى لا تدخل في منافسـة معهـا ، وحتى لا تشـعر تلك الأخيـرة بحقيقـة الخطـر التجاري الذي يحملـه البرتغاليـون في طيـاتهـم . ولعل البرتغاليين وجـدوا أنّ السيطرة على المياه الشـرقيـة كفيلـة بتحقيـق جميـع الأهداف الأخـرى ، وأن إخفاء نواياهـم الحقيقيـة يساعدهـم في ترسـيخ أقدمهـم[(٥)] وفي المضـي قُدُمَـــاً لتنفيـذ خططهم دون مُنَغّصات كبـرى، ووفْقـاً للجدول الزمنـي المرسـوم .

ولم يرغب البرتغاليـون في إظهـار نواياهـم الاحتكاريـة، فلم يقدموا علـى التعرض للسـفن الإسلاميـة المُحَمّلة بالبضائـع[(٦)] ، أثناء رحلاتها التجاريـة

---

(١) في طلب التوابل . سونيا هاو . ١٠٢ ، ١٠٣
(٢) Daviesi Op.cit, P.82
(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٧ وفي طلب التوابل ص ٢٠٠
٤) في طلب التوابل ص ٢٠٢ - ٢٠٤
٥) البحر الأحمر . محمد عبد العال أحمد . د . ص ٧٦
٦) في طلب التوابل . ص ٢٠٣

المعتادة بين الهند ومصر، رغم أنه كان يبدو أنها فريسة مُسْهَلَة. ولاسيما أنها غير مُعَدّة حربياً، ولا يمكن مقارنتها بالسفن البرتغالية، ولم يكن على متنها رجال محاربون، ولعل في هذه السياسة ما يضمن تأخر إحساس المماليك في مصر بمدى خطورة العمل البرتغالي، وهو ما يترتب عليه تأخر تصديهم لهم إلى أطول فترة ممكنة، وينسجمُ هذا الاتجاهُ مع الاتجاهِ السابق وهو عدم الاقتراب من السواحل العربية المشمولة قطعاً بالرعاية المملوكية على أقل تقدير، هذا إن لم تكن تمثل جزءاً من أراضيها.

وليس من المستغرب - إذن - أن يحرص البرتغاليون على إخفاء حقيقتهم الحربية، والتزيّي بزي التجار الحريصين على المشاركة في تجارة التوابل، وقد فرضت هذه السياسة على البرتغاليين عدم التحرش بالأهلين والتجار وعدم الظهور بالزي الحربي، فضلاً عن حرصهم على إخفاء الأسلحة بناء على توصية الملك البرتغالي نفسه[1]. وقد تجلت هذه السياسة، أكثر ما يكون، في البواكير الأولى للغزو البرتغالي.

وركز البرتغاليون في هذه الفترة على: زيادة عدد قطع الأسطول البرتغالي وتحقيق انتشاره في المياه الشرقية لدعم النفوذ البرتغالي في شرق أفريقيا والهند، لقد تتابع وصول الأساطيل البرتغالية إلى الشرق، مع الحرص على إبقاء الجزء الأكبر منها هناك حتى بلغت سنة ١٥٠٢ من الكثرة بحيث أمكن استخدامها، ليس فقط في القيام بأعمال القرصنة ضد السفن التجارية العربية في عرض البحر[2]، بل وفي العمل على احتلال بعض المواقع الاستراتيجية اللازمة لسد منافذ البحر الأحمر بعد ذلك بقليل. ومما شجعهم على ذلك عدم تعرضهم حتى ذلك الحين لأية مقاومة إسلامية جادة[3].

---

(١) في طلب التوابل. سونيا هاو ص ٢٠٢ - ٢٠٣

(٢) البحر الأحمر. محمد عبد العال. د. ص ٧٦

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

كان شرق أفريقيا - في هذه الفترة - محطَّ أنظار البرتغاليين و محل اهتمامهم، و ذلك لاتخاذه مركزاً تجارياً و قاعدة انطلاق نحو الهند من الوجهة العسكرية [(١)]، و لذا حرص البرتغاليون - منذ البدء - على تثبيت أقدامهم في شرق أفريقيا ما أمكنهم ذلك، حيث اتبعوا سياسة ممزوجة بين اللين والعنف الحربي، و لم يتورعوا عن مهاجمة الإمارات الإسلامية التي ناصبتهم العداء هناك. ومما يُذكر أنهم استطاعوا، في ذلك الوقت المبكر، إقامة علاقات ودية مع حاكم مالندي، ومن ثم كان من نصيب إمارته أن تكون القاعدة البرتغالية الأولى من الوجهتين، الحربية و الاقتصادية. ولكن من الصعب القول أن البرتغاليين في ذلك الوقت فرضوا الجزية على سكان و إمارات شرق أفريقيا كما ذكر أحد الباحثين [(٢)].

و كذلك الحال بالنسبة لسواحل الهند حيث حرص البرتغاليون - منذ البدء - على اتخاذ إحدى موانئها الهامة مركزاً تجارياً يمارسون من خلاله نشاطاتهم التجارية، و قد كانت أولى محاولاتهم في كاليكوت الإسلامية ولما لم يفلحوا في إتخاذها مركزاً خاصاً، دكّوها بالمدافع و هاجموا السفن التجارية الإسلامية التي كانت راسيةً بمينائها قبل أن يتجهوا إلى كوشين و كنّا-نور و يتخذوا منهما مركزين تجاريين أساسيين لممارسة النشاط التجاري والحربي.

كانت أولى الحملات البرتغالية في عهد الملك عمانويل سنة ١٤٩٥ — ١٥٢١م) الذي أمر بتجهيز أسطول من أربع سفن لارتياد سواحل أفريقيا الشرقية و الهند. و تولى بارثلميو دياز مهمة إعداد ذلك الأسطول و تجهيزه

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي. محمد عدنان مراد. ص١٢٤

(٢) انظر : المرجع السابق ص١٢٦ حيث قال بأن دي جاما أجبر أهل شرق أفريقيا على دفع الجزية، و لم نعثر على ما يثبت ذلك.

، وكان على فاسكودى جاما أن يسلك وفقا للخطة التي رسمها لـه دياز من قبل [١] . وكان عدد البحارة الذين رافقوا دى جاما فى تلك الحملة مائة وخمسين بحاراً معظمهم من الطبقات المُعْدَمَة ، والسُّجناء والمجرمين ، ومن البحارة الذين أطلق سراحهم شريطة الالتحاق بالحملة [٢] . وقد تعرّض هؤلاء البحارةُ أثناء رحلتهم لمرضٍ خطيرٍ أودى بحياة ثلثهم . [٣]

أقلع فاسكو دى جاما بأسطوله من لشبونة سنة ٩٠٣هـ سنة ١٤٩٧م ووصل رأس الرجاء الصالح فى أوائل العام التالي [٤] ، وعند ذلك تحطمت أكبر سفنه فَـوَزّع معداتها وأجهزتها الحربية وما بها من مُـؤَنٍ على سفنه الثلاث المتبقية [٥] قبل أن يصل إلى موزمبيق على شواطىء أفريقيا الشرقية . وكان وصول دى جاما إلى هناك تمهيداً أو خطوة مُتَقَدِّمةً لتحقيق الهدف الكبير بالوصول إلى الهند . ففى موزمبيق قام دى جاما بجمع المعلومات الضافية عن حركة التجارة فى شرق أفريقيا وعن علاقتها بالهند ، وعن أساليب الملاحة ومَسَالِكها وخرائطها البحرية [٦] . لقد لقي دى جاما ترحيباً خاصاً ، حيث استقبله التجار العرب والأفارقة ، كالعادة ورحبوا به ، لأنهم لم يكتشفوا خطورة نواياه بعد ، وقد أفاد دى جاما – بذالك لجمع معلومات أخرى ، وألحّ فى سؤاله عن مملكة الحبشة ((مملكة القس يوحنا ، كما كانوا يسمونها)) [٧] .

ورغم أن دى جاما حَرِصَ على التظاهر بمظهر التجار الذين قَدِمُوا لمُقَايَضَةِ بضائِعِهِم بالتوابل والحرير والمجوهرات والأحجار الكريمة ، فإن نواياه سرعان ما انكشفت ، ولا سيما بعد ما تمت مراقبة سلوك بحارته ، وعرفت أهدافه الصليبية

(١) أطلس التاريخ الأفريقي . كولين ماكيفيدى .ص١٢١

2) Davies, Exploring the world, lordan.pp,72-F

3) Davies: op.cit, P.77

(٤) الخليج العربي ويلسون .ص٦٢

(٥) أطلس التاريخ الأفريقي . ص١٢١

(٦)

6) Davies, op.cit. P 79.

(٧)

7) Prestage.op.cit, PP.257,

، خاصة أن سفنه كانت تحمل الصليب ، وأنه كان يُظهِر اهتماماً خاصاً بالمسيحية وبالقس يوحنا [١] الذي لازال يجهل مكان دولته، وعندئذ رفض حاكم موزمبيق أن يزود سفن دي جاما بالمؤن والماء اللازم، وحاول أن يوقع به [٢]، واضطر دي جاما، في هذه الظروف، أن يقلع عن المدينة بلا مؤن ، ولقاء ذلك صبّ جاما غضبه على المدينة، ورشقها بوابل من نيران المدافع التي ألحقت بها الدمار [٣].

اتجه دي جاما ، بعد ذلك، شمالا حتى بلغ ممباسا في ٧ ابريل ١٤٩٨م، وكانت قد ذاعت أخباره وعُرفت نواياه، وخاصة بعد اعتدائه على مدينة موزمبيق، فاستقبل استقبالاً غير الذي كان يتوقع، فلم يقابل بالترحيب ، ولكن بشعور عدائي عام [٤]، دفعه إلى مواصلة الإبحار شمالا باتجاه مالندى حيث وصلها بعد أسبوع من إقلاعه عن ممباسا ، وفي مالندي وجد ترحيباً وتعاونا من حاكمها الذي كان يرغبُ في الاستعانة به على ملك كلوة [٥] الذي كان يناصبه العداء. وتمكن دي جاما من توثيق علاقاته مع سلطان مالندى حيث تزود من عنده بالمؤن والماء، وحصل على المرشدين الذين قادوا أسطوله إلى الهند [٦]، وكانت رحلة دي جاما نحو عشرة أشهر قبل أن يصل إلى هناك، إذ وصل إلى كاليكوت على سواحل الهند الغربية في مايو سنة ١٤٩٨م.

---

(١) Davies.op.cit, PP. 80-82. Sousa, op. cit, vol. I, P56

(٢) فتح العثمانيين عدن . محمد عبداللطيف البحراوى . د.ص٥٩

(٣) 3) Davies, op?cit, P82

(٤) 4) Prestage, op.cit, P 257.

(٥) 5) Prestage, op.cit, P 260.

(٦) اختلف الباحثون في تحديد هوية من ارشد دي جاما الى الهند ، ولكن الرأى الراجح انه ليس العالم والبحار المسلم احمد بن ماجد ، لمزيد من التفصيل انظر د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي ص ٤٩-٦٤، و د. شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا

حيث ابتاع التوابل وغيرها من البضائع الهندية (١)، وتعرّف على أحوال التجارة، وقابل حاكم المدينة وأجرى معه محادثات حول إمكانية إقامة وكالات تجارية للبرتغاليين هناك، ولكنه فشل في إقناعه بذلك، كما فشل في إقناعه بقصر النشاط التجاري على البرتغاليين (٢)، ولكنه حصل منه على رسالة موجّهة إلى ملك البرتغال دوم عمانويل يخبره فيها أنه على استعداد للتعامل مع التجار البرتغاليين، كغيرهم من التجار، إذ قال "إنّا نخبركم بأن مملكتنا العظيمة كثيرة الخيرات، ففيها القرفة والقرنفل والزنجبيل والفلفل، كما تكثر لدينا الأحجار الكريمة" (٣). وبعد ذلك قفل دي جاما راجعاً، وفي طريق عودته زار مدينة مقديشيو حيث استقبله أهلها بعداء، فهاجمها بالمدفعية، ودمّر العديد من بيوتها، وأغرق عدداً من السفن التي كانت راسية بالميناء، قبل أن يتوجه إلى مالندي مرة أخرى، ومنها انتقل إلى ممباسا حيث هاجمها مرة أخرى (٤) قبل أن يبحر قافلاً إلى لشبونة التي وصلها في سبتمبر سنة ١٤٩٩م (٥) ٩٠٥هـ وقد كانت تلك الحملة عملاً حاسماً في تاريخ العالم، إذ مهدت الطريق لإقامة الامبراطورية البرتغالية في الهند والشرق عموماً، مما أضفى على البرتغال كثيراً من الهيبة السياسية والعسكرية ورفع من شأنها دولياً (٦). وكذلك يمكن القول إن هذه الحملة كانت أولى دعائم الاستعمار الأوربي في بلاد المشرق الإسلامي في العصر الحديث (٧). وقد وصل الزهو بملك البرتغال بعد هذه الحملة إلى الحدّ الذي لقب نفسه فيه بـ "ملك الملاحة والغزو وملك تجارة أثيوبيا والجزيرة العربية والفرس والهند" (٨).

---

(١) في طلب التوابل . سونيا عاو . ص ٢٠٠

٢) تحفة المجاهدين . المليباري . ص٣٧

٣) فتح العثمانيين عدن . محمد عبداللطيف البحراوي . د . ص. ٦٠

٤) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص . ٢١

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة .

(٦) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٢

(٧) تاريخ الخليج السياسي . صادق نشأت . ص ٦٠

8) Dodwell, H.H and others, op.cit, P360, Philips, wendell, (٨) Oman, Ahistory, london 1967, P 30.

و ليحقق ملك البرتغال هذه الدعوى عمل على متابعة الحملات و الرحلات البحرية البرتغالية إلى الشرق، و ذلك تدعيماً لما توصل إليه، و إثباتاً للوجود البرتغالي في المياه الشرقية ، واستكمالاً للاراء و المعلومات التى من شأنها أنّ تمهد للمرحلة التالية ، والتي لابدّ أن تأتى بعد أن يعزز البرتغاليون وجودهم في المياه الشرقية عموما . وبناء على ذلك خرجت عدة حملات برتغالية متتالية، و شهدت سنة ١٥٠٠ م أول حملة عسكرية برتغالية بهدف مهاجمة الشواطىء الإسلامية [١] ، ففي ٩ مارس ١٥٠٠م – ٦٠٦ هـ خرجت حملة برتغالية تولى قيادتها بدور الفاريز كابرال ، وكانت تضم ثلاث عشرة سفينة تُقِلّ أشهر البحارة وأكثرهم خبرة و معهم المؤن و العتاد [٢]، وصلت هذه الحملة إلى موزمبيق في يوليو سنة ١٥٠٠م – ٦٠٦هـ و دخلت ميناءها دون قتال، ثم أبحرت إلى كلوة حيث وصلتها في نفس الشهر، و لكن السلطان إبراهيم رفض الاستسلام و إعلان الخضوع للنفوذ البرتغالى ... ومع ذلك لم يهاجم كابرال المدينة، واكتفى بالإقلاع عنها إلى مالندى، حيث كانت للبرتغاليين مع حاكمها علاقات وطيدة، [٣] ، و في مالندى تزود كابرال بالمؤن و تهيأ لمهاجمة مباسا تحسباً لمواقفها العدائية، و في أغسطس من نفس العام أبحر كابرال إلى الهند [٤] حيث أمضى ستة أشهر قبل أن يلقى مراسيه في كاليكوت بقصد الحصول على التوابل ، وقد أمضى كابرال نحواً من ثلاثة أشهر دون أن يفلح في الحصول على حمولة أكثر من سفينتين ، فلجأ الى السامورين حاكم كاليكوت ، وكان قد استعطفه ببعض الهدايا ، حيث أصدر الأخير أوامر بحق الأولوية للسفن البرتغالية ، و أنه لايجوز لأي سفينة أن تحمل بضائعها قبل أن يأخذ البرتغاليون حاجتهم من البضائع ، وأباح لكابرال حق السيطرة على كل السفن المخالفة ، وبناء على هذه التعليمات استولى البرتغاليون على إحدى السفن الإسلامية التي كانت هناك بقصد التجارة فثار المسلمون لذلك وقتلوا في ثورتهم عدداً من البرتغاليين، فانتقم كابرال لذلك بأن استولى على عشر سفن إسلامية محملة بالبضائع ، بعد أن قتل بحارتها،ثم هاجم

---

(١) علاقة ساحل عمان ببريطانيا ص ٢٣

(٢) 2) Prostage , op.cit, P 277.

(٣) وثائق تاريخية وجغرافية .جيان . ص٢١١ - ٢١٢

(٤) المرجع السابق ص ٢١٢ – ٢٢٣.

المدينة بالمدفعية (١). ونتيجة لذلك لم يكن لكابرال بُدٌّ من الإقلاع من المدينة رغم أن الساموريين كان سمح له بافتتاح وكالات تجارية برتغالية (٢) فيها، وهكذا توجّه كابرال إلى كوشين وكنانور حيث قوبل فيهما بالترحيب والود، وتمكن من عقد الاتفاقات التجارية معهما قبل أن يقفل راجعاً إلى لشبونة (٣) حيث وصلها في يوليو سنة ١٥٠١م – ٩٠٧هـ في ست سفن فقط من أصل ثلاث عشرة كان بدأ بها الرحلة (٤) ولا شك ان هذه السفن كانت المرتكز الأول للأسطول البرتغالي في المياه الشرقية.

وتتابعت بعد ذلك الحملات البرتغالية التعزيزية، والتي مهدت السبيل بشكل مباشر للانتقال للمرحلة التالية، ففي أواخر يناير سنة ١٥٠١ أبحر أسطول برتغالي ثالث بقيادة فينسنت سودريه متجهاً إلى الهند، وتبعه أسطول رابع في مارس من نفس العام بقيادة جين دي نوفا، الذي عمل على تعزيز العلاقات البرتغالية مع كوشين وكنانور من جهة، وعلى الانتقام من حاكم كاليكوت من جهة ثانية، حيث اشتبك مع الأسطول الكاليكوتي في معركة حربية، انتصر فيها البرتغاليون بفضل تفوقهم العسكري وتمتع قواتهم بالأسلحة النارية والمدفعية الثقيلة، وقد قام الأسطول البرتغالي بإغراق السفن التجارية العربية ومن بينها سفينة كانت تخصّ السلطان المملوكي، كانت قد استعدت للإقلاع باتجاه البحر الأحمر (٥). وكان ذلك بمثابة إعلان سافر عن النوايا البرتغالية وأهدافها الاحتكارية من جهة، وإيذاناً بدخول البرتغاليين في مرحلة جديدة من مراحل الصراع لتثبيت الوجود البرتغالي الاستعماري في الشرق.

المرحلة الثانية :–

وأبرز ما يميّز هذه المرحلة هو اتجاه السياسة البرتغالية إلى إثبات الوجود البرتغالي في المياه الشرقية كقوّة دولية لها نفوذها السياسي والعسكري والاقتصادي، وبناء على هذه السياسة كُلّف فاسكو دي جاما في حملته الثانية، بسد منافذ البحر

(١) 1) Drestage, Op.cit.P 292.
(٢) في طلب التوابل . سونيا هاو . ص.٢١ – ٢١١
(٣) بنو رسول وبنو طاهر . محمد عبد العال أحمد . د . ص ٤٨٢
(٤) 4) Prestage op.cit, P 292.
(٥) انظر . تحفة المجاهدين . المليباري . ص٣٨

الأحمر والخليج العربي لمنع وصول التجارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق مصر أو الشام، ولضمان عدم وصول القوى البحرية الإسلامية القادمة من مصر إلى الهند بحيث يُمَكِّنُ ذلك البرتغاليين من الانفراد بالهند والسيطرة على تجارتها البحرية. ومراكز القوى السياسية فيها تمهيداً لتوجيه ضربة برتغالية مباشرة ضدّ الجزيرة العربية والبحر الأحمر، ومما يؤكد ذلك أن دى جاما قد ترك في طريق عودته جزءاً من أسطوله لمحاصرة البحر الأحمر ومنع حركة التجارة عبره بإغلاق باب المندب(١)

وتنفيذاً للسياسة المُشار إليها آنفا عمل البرتغاليون — في هذه الفترة على إقامة المراكز البرتغالية الدائمة في المناطق الاستراتيجية الهامة، بإقامة القلاع والحصون فيها. وذلك لإحكام الحصار الاقتصادي البرتغالي، وللتصدى لأيّة محاولةٍ يمكن أن يَقُوم بها الحكام المحليُّونَ أو أسطول الدولة المملوكية (٢) وبناء على ذلك أقام دى جاما مراكز برتغالية في سوفالا وموزمبيق وكلوة (٣) فضلاً عن المراكز البرتغالية في الهند وبخاصة في كوشين، حيث كان دى جاما قد تحالف على ملك كنانور ومع كوشين وكولم ضد الساموري في كاليكوت (٤).

وتزامن ذلك مع ازدياد النشاط البرتغالي في مياه المحيط الهندي حيث أصبح للبرتغاليين بعد عام ١٥٠٢م —٩٠٨هـ تجارة برتغالية منتظمة تحميها قوةٌ عسكريةٌ دائبة التجوال في المياه الهندية (٥)، وقد كان من أكبر أهداف هذه القوة القيام بأعمال القرصنة ضد السفن التجارية الإسلامية العزلاء، تلك السياسة التى راح ضحيتها عشراتُ، بل ربما مئاتٌ، السفن التجارية الإسلامية، ومن تلك السفن عدد من السفن التجارية العربية التي كانت راسية في ميناء مالندى، وسفينة السلطان الغورى التى كانت محملة بالتوابل وعليها مجموعة من الحجاج الهنود (٦).

١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل ص ١٤٩
المماليك والفرنج . أحمد دراج . د . ص ١٣٢

٢) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ٢٦
٣) بنو رسول وبنو طاهر . محمد عبد العال أحمد . د . ص ٤٨٣
٤) تحفة المجاهدين . الملبارى . ص ٣٨
٥) علاقة ساحل عمان ببريطانيا . عبد العزيز عبد الغني . د . ص ٢٢
٦) بنو رسول وبنو طاهر . ص ٤٨٤

وتشير المصادر العربية إلى سبعة سفن عربية قام دى جاما بأسرها وقتل أو أسر من كان على متنها من التجار والبحارة .(١)

بدأت المرحلة الثانية من الحملات البرتغالية عندما أبحر فاسكو دى جاما في فبراير سنة ١٥٠٢م - ٩٠٨هـ ، متجهاً إلى شرق أفريقيا بهدف تدمير القوى العسكرية والمراكز السياسية المعارضة للنفوذ البرتغالي بها ، ثم قصد سواحل الهند لتدمير السفن التجارية الإسلامية بها وتعزيز الوجود البرتغالي من الوجهتين السياسية والحربية . ووصل دى جاما موزمبيق في يوليو سنة ١٥٠٢م - ٩٠٨هـ حيث ترك في سواحلها إحدى قطع أسطوله للمراقبة الدائمة قبل أن يتوجه إلى كلوه حيث أجبر السلطان إبراهيم على الاعتراف بالسيادة البرتغالية وعلى دفع جزية سنوية ضخمة تحت تهديد السلاح (٢) ، وكان خضوع كلوه يعني خضوع عدد كبير من مدن ساحل أفريقيا الشرقي ، إذ كان عدد كبير من تلك المدن يدين لها بالولاء (٣) . وبعد ذلك أقلع دى جاما إلى سواحل الهند الغربية حيث وجد في طريقه السفينة المملوكية التي سبقت الإشارة إليها ، وهي متجهة إلى مكة بقصد الحج ، فنهب حمولتها وأغرقها بمن فيها ماعدا الأطفال (٤) . وفي سواحل الهند ، وطد دى جاما علاقاته مع سلطان كوشين وقاما معاً بعمل حربي مشترك ضد القوى الإسلامية البحرية في كاليكوت ، ودارت بين الطرفين معركة حامية ، بالقرب من كشوين ، انسحب دى جاما على إثرها قبل أن تلحق به هزيمة تامة (٥) ، تاركاً حليفه في ميدان المعركة ليتجرع الهزيمة وحده (٦) وانتهت المعركة بإحراق مدينة كوشين والقضاء على الحامية البرتغالية بها (٧) .

---

١) انظر قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩ . وقرة العيون . ابن الديبع . ورقة ١٤٦ ب غاية الأماني . الصفاني . ص والسنا الباهر . الشبلي اليمني . ورقة ٦٢

(٢) انظر Marsh a,d Kings north, op.cit, P.28. Jolnston op.cit P73.

(٣) Johnston, op.cit, P 73.

٤) وثائق تارخية وجغرافية . جيان . ص١٤ - ٢١٥

٥) تحفة المجاهدين . الملبارى . ص٣٨ وآسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص٤١ - ٤٢

٦) المرجع السابق . نفس الصفحة

٧) المرجع السابق . نفس الصفحة

و قبل عودة دى جاما ، خرجتْ حملةٌ برتغاليـة أخرى مكونـة من ثلاث سفن (١) في أبريل ١٥٠٣م – ٩٠٦هـ كان على رأسها قائدين من كبار القادة البرتغاليين همـا ألفونـسو دى البوكيرك و أنطونيـو دى سالدانيها ، و قد ضلت هذه الحملة طريقهـا و رست على سـواحل جزيرة سانت توماس عند خطّ الاستواء ، و من هناك انفصـل لورنـزو دافاسـكو على رأس سفينـة حربيـة ضخمـة وصل بها إلى موزمبيـق و منها اتجه إلى زنجبـار حيث أمضى في سـواحلها نحـو شـهرين استولى خلالهما على عدد مـن السفن التجاريـة العربيـة ، و فرض على أصحابها ضرائب و غرامات باهظـة قبـل أن يعيدها إليهـم ، و تعرض كذلك للسكان بالاساءة مما دفـع سلطان زنجبار إلـى محاربتـه حيث دارت بين الجانبين رحّى معركـةٍ طاحنـةٍ انتهت لصالح لورنـزو الذي أجبـر سلطان زنجبار على القبول بالتبعيـة للسلطـة البرتغاليـة و على دفـع جزيـة سـنوية (٢) ، و تابع لورنزو فتوجّـه إلى ممباسـا حيث قام على سـواحلهـا ببعض أعمـال القرصنـة و الابتـزاز قبل أن يلحـق به البوكيـرك وسالدانيها و يبحـروا جميعـاً إلى سـواحل الهند (٣) ، و خاصـة كوتشـن ، بهدف تحصينهـا و بنـاء أول حصن برتغالـي على سـواحل آسيـا فيها ، و ليكون مركزاً للحاميـة البرتغاليـة هنـاك (٤) . و قام البوكيرك كذلك بفتـح مركـزٍ تجاريٍ في كويـلون (٥) ، كما قـام بالانتقـام من صاحب كاليكـوت ، و أجبـره على إقامـة قلعـةٍ برتغاليةٍ فيها ، و فـرض عليـه غـرامـةٌ ماليةٌ كبيرة ومنعـه من بيع السلع التجاريـة للسفن الإسلاميـة المتجهـة للخليج العربـي أوالبحر الأحمـر (٦) . و استطاع البوكيرك أثناء إقامته أن يجمـع كثيراً من المعلومات و أن يعد كثيراً من الدراسات المستقبليـة التي تخدم سياسـة الامبراطوريـة البرتغالية في الشرق و الغرب على السواء . (٧)

و في أواخـر يوليو سنة ١٥٠٤م – ٩١٠هـ عاد البوكيرك إلى لشبونة تاركـاً

---

(1)Country and tribes in theporsion glelf P, 140
(٢) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان ٢١٦ (٣) المرجع السابق ص ٢١٦
(٤) تحفة المجاهدين . المليبارى . ص ٢٩ . ٥) صراع القوى في المحيط الهندى . ص ١٢٩
(٦) تحفة المجاهدين . المليبارى . ص ٢٩
(٧)
(7) Country and tribes .. P , 140

زميلية في مياه المحيط الهندي (١)، حيث وضع أمام الملك البرتغالي دوم مانويل مشاريعه الضخمة التي تهدف إلى مزيد من الفتح والتوسع وفرض التفوق البرتغالي التجاري والبحري، والتي اعتبرها عَمَلِيَّةً للغاية، وقَابِلَةً للتنفيذ في ظل الضعف العام الذي تعاني منه الأقاليم (٢) الآسيوية

وأبحرت حملة برتغاليّةٌ أخرى في ربيع سنة ١٥٠٤ متجهةً إلى سواحل الهند بقيادة لوبو سواريز الذي استطاع أن يُعَزِّز السياسة البرتغالية وأن يوقِعَ بعددٍ من السفن العربية القادمة من جدة ويُشَتِّتَ شملها، ويواصل سياسة الانتقام من السفن القادمة من البحر الأحمر أو من كاليكوت (٣)، بهدف احتكار التجارة، وقد تمكن من جمع كثيرٍ من الأسلاب والغنائم التجارية التي قُدِّرَتْ بنحو أربعةٍ وعشرين ألف قنطارٍ من التوابل (٤)، التي طرحت في أسواق لشبونة.

المرحلة الثالثة :-

تتميز المرحلة الثالثة من مراحل الغزو البرتغالي بأنه يمكن وَصْفُهَا بأنها مرحلة الانتشار الكبير للقوات البرتغالية في مياه المحيط الهندي، حيث شهدت هذه المرحلة احتلال البرتغاليين لمعظم الموانئ التجارية في سواحل شرق أفريقية والجزيرة العربية وسواحل الهند.

وشهدت هذه المرحلة تكثيفاً كبيراً للوجود البرتغالي إذ تتابعت الحملاتُ والأساطيل الحربية الضخمة، والتي انضمت للقوات البرتغالية السابقة عليها مشكلةً قوةً برتغاليّةً كبرى جعلت من مياه المحيط الهندي مسرحا لأهدافها

---

(١) تحفة المجاهدين . المليباري. ص٣٩

(٢) Miles, op. cit., P, 140

(٣) تحفة المجاهدين . المليباري ص٣٩

(٤) بنو رسول وبنو طاهر . محمد عبد العال . د. ص٤٨٧

و أطماعها السياسية والاقتصادية في آن واحد . وليضمن ملك البرتغال فاعلية هذه القوات، وقدرتها على الحركة السريعة، واستجابتها الفورية لمتطلبات الظروف ومقتضيات المستقبل قام بتعيين نائب عام له، كانت مهمته تَولّي إدارة القوات البرتغالية في الشرق، والقيام بالاشراف المباشر على المواقع والمستعمرات التي تمت أو ستتمّ السيطرةُ عليها .

وعَرَفَتْ هذه المرحلةُ قائدين برتغاليين كبيرين واسعَيْ الطموح قام أحدهما بتعزيز الوجود البرتغالي في شرق أفريقيا، وعمل على فرض السيطرة البرتغالية على معظم مدن الساحل الأفريقي الشرقي، بينما قام الآخر بالسيطرة على الموانىء الهامة في سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي وسواحل الهند، وذلكما القائدان هما فرانسيسكو دا الميدا وألفونسو دي البوكيرك .

وشهدت هذه المرحلة ،أيضاً، أكثر ألوان القرصنة البرتغالية، تلك القرصنة التي شملت السفن التجارية والأموال والممتلكات والنفائس والآثار المُمَيَّزة للمدن الإسلامية التي تمّتْ مهاجمتها . كما شهدت أخطر أساليب العنف الحربي الذي شمل معظم المدن الإسلامية المهاجمة، والذي لم يرحم رجلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، ولا طفلاً رضيعاً . حيث تم قتل أو سبي معظم هؤلاء ومُورِسَتْ معهم طقوس شيطانية مجردة من كل معاني الإنسانية ذلك أن البرتغاليين كانوا يَحُزّون أولئك الأسرى بجدع أنوفهم وقطع آذانهم والاعتداء على أعراضهم .

بدأت هذه المرحلة سنة ١٥٠٥م-١١٩هـ عندما استقر رأى ملك البرتغال على تعيين نائب له ليقيم في المستعمرات البرتغالية في الهند بصفة دائمة . وقد اختير فرانسيسكو دا الميدا لذلك المنصب ليتولى توجيه السفن القادمة من البرتغال بما يحقق الأهداف البرتغالية

العليا (١) . و كلّفة بإخضاع كل مدن الساحل الأفريقي و إقامة القلاع والحصون فيها ، و تزويدها بالحاميات الحربية ، و ذلك لتثبيت السيطرة البرتغالية من ناحية ولحماية الطريق التجاري الجديد من ناحية أخرى (٢) . و زود الملك دى الميدا بحرّيّة تامة بهدف توطيد سلطة البرتغال (٣) .

و أبحر دالميدا من البرتغال في مارس ١٥٠٥م - ٩١١هـ ، متوجهاً إلى شرق أفريقيا ومنها إلى الهند ، على رأس أسطول حربيّ ضخم ضمّ عدداً من السفن قُدّر باثنتين أو ثلاث وعشرين سفينة (٤) كان على متنها نحواً من ألف و خمسمائة رجل (٥) . و قد اصطحب معه عدداً من الجنويّة و البنادقة و الألمان (٦) . وكانت الأوامر الموجهة إلى دالميدا تقضي بأن يقوم بالسيطرة على المواقع الاستراتيجية على طول سواحل المحيط الهندي ، و ليخطط لإقامة المستعمرات البرتغالية في الأماكن الضرورية (٧) .

و لكن دالميدا الذى فَهِم حقيقةَ الوضع البرتغالي تمام الفهم و أدرك مدى القدرة البرتغالية على التوسع و الفتح و الامتداد الأقليمي الآمن أقامَ سياسته على أساس تأمين كل التجارة المحمولة وتحويلها للبرتغاليين بعد طرد التجار المسلمين من المحيط الهندى (٨) . وكان دالميدا يؤمن بضرورة إقامة المحطات البرتغالية الكفيلة بتأمين التجارة لا ببناء المستوطنات والمستعمرات التي تحتاج إلى عددٍ كبير من الرجال ، واعتمد على النظرية القائلة بأن من يتحكم في البحار يتحكم في الحرب أيضاً (٩) . ومع إيمان دالميدا بضرورة حصول البرتغال على السيادة البحرية لتأمين طرق التجارة ، فإنه كان ميّالاً لاستخدام الأساليب السياسية ، و إلى التوقف عن السياسة الهادفة إلى

---

(١) دليل الخليج . القسم التاريخي . لوريمر . جـ ١ ص ٦

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص٢٢٢ وما بعدها Prestage, op.cit P.296

(٣) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . زاهر رياض . د . ص٢٥

(٤) Sykes Histof explo/PP 111-112, Kenneth Ingham, op.cit P 7

(٥) Kenneth Ingham OP.cit. P7

(٦) دليل الخليج . القسم التاريخي . لوريمر . جـ ١ ص ٦

(٧) Kenntth Ingham, op.cit, P 7

(٨) Sykes. Histof explo. P 112.

(٩) فتح العثمانيين عدن . محمد عبداللطيف البحراوي . د . ص ٧٦

التوسع والفتح (١) أكثر مما تتطلب الحركة التجارية. وكان يرى أن حصول البرتغال على أملاك ومستعمرات أكثر مما تحتم عليها طاقتها التجارية تذير بضعفها (٢).

وعند وصول دالميدا بقواته إلى شرق أفريقيا كان يهدف إلى تدمير القواعد العربية والإسلامية بها خوفاً من أن يلجأ إليها الأسطول المصري (٣) بهدف وقف النشاط البرتغالي في المحيط الهندي. وقد حدّد أهدافه هناك بمهاجمة سوفالا sofala وكلوه Kilwa ومباسا Mombasa (٤)

وبدأت أولى عملياته العسكرية في سوفالا، ونظراً لعدم استعدادها الحربي لمقاومة الغزو البرتغالي، فقد أبدت قليلاً من المقاومة ولكنها اضطرت للاستسلام تحت ضغوط سياسة العنف الحربي (٥). وتقدم دالميدا بعد ذلك إلى كلوه وقام بمحاصرتها، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد قتال عنيف كانت ساحته الشوارع والطرقات والمنازل وسطوح البيوت (٦)، وقد اضطر البرتغاليون السلطان إبراهيم ومواطنيه المخلصين إلى الانسحاب من المدينة (٧) مما أتاح للبرتغاليين فرصة سلب ثرواتها قبل أن يتركوها نهبا لنيران المدافع (٨) انتقاما من أهلها الذين قاوموا الغزو البرتغالي ببسالة، ثم أقام دالميدا في المدينة حصنا وأقام به حامية برتغالية (٩) قبل الرحيل بقواته الحربية إلى مباسا.

وفي مباسا واجه دالميدا مقاومة عنيفة كان ميدانها الشوارع الضيقة وأجواف الدور (١٠). ولما لم يكن العرب والأفارقة يماثلون القوات البرتغالية

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي. محمد عدنان مراد. ص١٢٦ - ١٢٧

(٢) استعمار أفريقيا. زاهر رياض ص٢٦ (٣) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٤) Kenneth Ingham op,cit, P 7 (٥) Idid op.cit, 4

(٦) استعمار أفريقيا. زاهر رياض ص٢٦ (7) Kenneth Ingham,op.cit,P 8.

(٨) استعمار أفريقيا. ص٢٦ (٩) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها. شوقي الجمل ص١٢٦

(١٠) Dufy, op.cit. P 28

المدينة، في القوة والعناد . فقد تقدم البرتغاليون في الشوارع واحداً بعد الآخر حتى اضطروا الأهالي والمقاتلين إلى الانسحاب بعيداً [١] . وقام البرتغاليون بعد ذلك بأعمال النهب المعتادة حيث حملوا ما يستطيعون حمله من الذهب والفضة والعاج والمؤن ثم عرضوا المدينة لنيران المدافع واكتفوا بوضع نُصُب من الرخام الأبيض إشارة إلى أن المدينة قد أصبحت خاضعةً لملك البرتغال [٢] . وتذكر بعض المراجع أنهم قد قتلوا من بقي من سكانها على قيد الحياة [٣] قبل أن يتجهوا إلى مالندي [٤] ويعززوا علاقاتهم الودية مع حاكمها تمهيداً للتوجه إلى سواحل الهند .

وفي سنة ١٥٠٦م - ٩١٢هـ قام البرتغاليون بتدعيم قواتهم في الشرق بثلاثة أساطيل مكوَّنة من نحو أربعين سفينة [٥] . وكان على رأسها ترستاودا كونها Tristao da cunha [٦] . وكان أسطوله الخاص مكوناً من ست عشرة سفينة [٧] . ولعله كان معيناً نائباً للملك خلفاً لدا المبدا الذي لم يمر على توليه أكثر من عام [٨] . بينما كان للبوكيرك قيادة الجناح العسكري وتَوَلِّي العمليات العسكرية [٩] . وكانت التعليمات تقضي بأن تتوجه القوات البرتغالية إلى سوقطرة عن طريق رأس الرجاء الصالح . وبناء حامية عسكرية بها . لاستخدامها كمركز لتموين الأسطول البرتغالي الذي كان يقوم بحصار البحر الأحمر . كما كان عليه أن يستعد لمواجهة القوات المملوكية إذا اقتربت من سواحل المحيط الهندي [١٠] وبناء على ذلك وجه داكونها والبوكيرك اهتمامَهُما إلى إقامة القلاع والحصون على طول الساحل الأفريقي [١١] .

---

(١) (1) Dufy, op. cit, P 28, Kenneth Ingham P 8

(٢) (2) Dufy , op, cit , P 28

(٣) Kenneth Ingham, op. cit, P 8

(٤) Kenneth Ingham, op cit, P 8

(٥) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ٢٧

(٦) Wilson, op,cit, p, 112.

(٧) Miles, op? cit , p , 141.

(٨) صراع القوى . محمد عدنان مراد ص ١٢٨

(٩) بنو رسول . محمد عبد العال ص ٤٨٨

(١٠) تاريخ الخليج . ويلسون . ص ٦٥

(١١) بنو رسول . محمد عبد العال ص ٤٨٨

وصل داكــها إلى مالندي التي تقيم مع البرتغاليين علاقات وديــــة ، ومن هناك تقدم لمهاجمة العوجــة Oja ، حيث دكّهـا بالمدفعيـة وألحق بهـا الدمار لعِلْمِـه أنها تخضع لسلطات المماليك في مصر (١). كذلك هاجم مدينـة براوة Braua ، والتي أبدت مقاومـة عنيفـة مثل العوجة، قبل أن يتوجـه إلى لامـو Lamu ، ويتمكن من إخضاعها ، وفرض الجزية السنوية علـى اهلها بعد ارتكاب كثير من اعمال السلب والنهب والتدمير (٢). وقد استغل داكـها موائمـة الرياح الموسميـة فتقـدم شمـالاً باتجاه سوقطرة التي تتحكم في مداخل البحـر الأحمـر. وفي سوقطرة ارتكب البرتغاليون كثيراً من الفظائع بعد القضاء علـى القوات الوطنيـة المدافعـة ، ولم يتورعـوا من تحويـل مسجدها الإسلامي إلـى كنيسـة للحاميـة البرتغاليـة التي تمت إقامتها هناك (٣). وقد كان ذلك تمهيـداً أكيـداً لمهاجمـة بقيـة سـواحل أفريقيا الشرقية حيث تمت مهاجمـة كل من مافيـا Mafia ، وبمبـا Pemba وزنجبـار سنة ١٥٠٩م (٤) ـ ٩١٥هـ. ومـن الجدير بالذكر أنّ داكـهـا قـد استطاع مـدغشـقر والمناطق المجاورة لها ، ولكنّـه لم يقدم على احتلالها لأنـه لم يرَ لها أيّـة قيمـة اقتصادية أو استراتيجيـة (٥) فـي إطار المخطط البرتغالي. ولعل بُعْدَهـا عن مصادر الإنتاج في قلب القارة الأفريقيـة هـو الذي دفـع داكـها إلى إهمالهـا ، والأهم من ذلك أنّ أهل مقديشيو قـد استماتوا في الدفاع عن وطنهـم مستفيدين من حصانتها الطبيعية لدرجـة أنهـم ظـلوا محتفظيـن باستقلالهـم بعيداً عن النفوذ البرتغالي (٦).

وبعد أن أخضـع داكـها ومعـه البوكيرك سواحل أفريقيا الشرقية ، توجـه إلى سواحل الهند ، تاركاً البوكيرك ليتولى الإشراف على تلك المناطق والقيام بمراقبـة مداخل البحر الأحمـر ومحاصرة التجـارة الإسلاميـة المتجهـة إليـه . ومـن

---

(١) وثائق تاريخية . جيان ص ٢٤٥ - ٢٤٧ (٢) المرجع السابق، نفس الصفحـات

(٣) Kenneth Infham, op. cit , P 8

(٤) Ibid , Loc, cit

(٥) Ibid , Loc, cit

(٦) Oliver and mathew, op. cit P 140.

هنا بـدأ دور البوكيرك يزداد بروزاً ، فهو الذي صمّم المشروع البرتغالي الضخم في مجاليه: التجاري و العسكري[١] و كان إسناد ملك البرتغال تنفيذ ذلك المشروع للبوكيرك بمثابة تحمس و تأييد كامل لسياسة البوكيرك رغم معارضة بعض النبلاء البرتغال لها [٢].

و كان البوكيرك محكوماً بروحه الصليبية التي ورثها عن جون الثاني الذي كان يكنّ حقداً لا مثيل له على العرب والمسلمين [٣] كما كان يؤمن بالتفوق البحري و بضرورة الحفاظ على الامبراطورية البرتغالية دون بعثرة جهود الشعب البرتغالي في ضم ممتلكات واسعة لا يمكنه الاحتفاظ بها بسبب عدده المحدود . ولهذا حبّذ الاكتفاء بالسيطرة على المنافذ البحرية كشرط ضروري لضمان التفوق البحري وحصر التجارة بيد البرتغاليين باعتبارها الهدف الاقتصادي الأول [٤]. و لعل البوكيرك يتفق – في هذا – مع مليكه الذي طلب منه أن يخرّب الموانئ الإسلامية الهامة مثل عدن و هرمز لعرقلة التجارة الإسلامية عبر البحر الأحمر [٥] والخليج العربي . وهكذا كانت النقاط الرئيسية التي حددها البوكيرك لتكون قواعد الامبراطورية البرتغالية الجديدة هي : هرمز للسيطرة على منافذ الخليج العربي ، و سوقطرة أو عدن لسد منافذ البحر الأحمر و ملقا للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الغادية أو الرائحة في مياه المحيط الكبير و الشرق الأقصى ، و أخيراً السيطرة على سيلان . و كان البوكيرك يرى أن هذه القواعد تكمل ما كان لدى البرتغاليين من قواعد في شرق أفريقيا [٦] و تحقق المراقبة الفعلية و الحماية الضرورية اللازمة لتنفيذ الهيمنة التجارية البرتغالية .

---

(١) الخليج العربي . قدري قلعجي . ص ٢٦١ - ٢٦٥

(٢) Miles.S.B. op. cit, P 140.

(٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان . ص ١٢٩

(٤) المرجع السابق ص ١٢٠

(٥) Miles .S.B. , OP.cit, P 142.

(٦) صراع القوى في المحيط الهندى . ص ١٢٠ - ١٣١

ويبدو أنّ ملك البرتغال كان يعلق على البوكيرك آمالاً عظيمةً إذ إنه حمّله، عند إقلاعه من لشبونة، تكليفاً بأن يتولى منصب نائب الملك في المحيط الهندي، وذلك سنة ١٥٠٩م[1]-٩١٥هـ، وهو الأمر الذي دفع البوكيرك إلى العمل بنشاط دائب، وقد بدأ جهوده الحربية والسياسية بإقامة القلاع والتحصينات العسكرية في كل مكان يوجد فيه للبرتغاليين مركز تجاري، ولم يكن هدف البوكيرك مقصوراً على حماية التجارة البرتغالية فحسب، وإنما كان يرمي إلى تدعيم النفوذ البرتغالي في تلك المناطق وإخضاع حكامها وشعوبها لسيطرتهم، وإرغامهم على الاعتراف بالسيادة البرتغالية. وهكذا يكون البوكيرك هو الممهّد الحقيقي لقيام الامبراطورية في الشرق[2].

كانت سنة ١٥٠٧ - ٩١٢هـ بمثابة نقطة البداية لغزو البرتغاليين الحقيقي للسواحل العربية، حيث كان البرتغاليون في العام السابق قد فرضوا سلطاتهم على معظم مدن الساحل الأفريقي الشرقي، وأتموا تحصيناتهم في سوقطرة كما قام قائدهم دورات دا ميللو Duratede Melio بمهاجمة وإسقاط موزمبيق Mozmbique سنة ١٥٠٧م-٩١٢هـ، وقاموا بعد ذلك بتحصينها وتزويدها بمستشفى وكنيسة وثكنات حربية لتكون إحدى القواعد العسكرية الهامة لحكمهم في شرق أفريقيا[3]. ولتكون ظهيرا للحامية البرتغالية في سوقطرة، تلك الحامية التي خلّفها كلها البوكيرك في مينائها سوكو في ست سفن كبيرة عليها من كبار القادة البرتغاليين[4] بينما أبحرَ هو إلى سواحل الهند في السابع من أغسطس، تاركاً للبوكيرك حرية التقرير والتنفيذ فيما يتعلق بخطته الحربية التي سبقت مناقشتها مع الملك،

---

(١) Miles.S.B.,OP.cit, P 142.

(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٤ .

(٣) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٧٧

(٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٥ - ٦٦

وبناء على ما ذكره البوكيرك، كان عليه أن يهاجم هرمز، وأن يبذل قصارى جهده لوقف حركة التجارة الإسلامية المتجهة للشرق عبر الطرق القديمة، والتي تمرّ بالبصرة أو الإسكندرية، أو بموانئ الشام، قبل أن يشرع في عملياته الهجومية على طول السواحل العربية، ويذهب آخرون إلى أن الأوامر المعطاه للبوكيرك كانت تكلّفه بسد منافذ البحر الأحمر والاستيلاء على ميناء عدن فحسب (١). ومهما يكن من أمر فإن البوكيرك قد توجّس خيفة من سد منافذ البحر الأحمر، وذلك لأن أسطوله كان من وجهة نظره - أصغر بكثير من القدرة على محاولة الاستيلاء على حصن منيع كحصن عدن (٢). ولعل ما دفعه إلى هذا التخوف أن السلطان الظافر عامر الثاني قد تجهز في العام السابق ١٥٠٦م - ٩١٢ بأربعة عشر مركبا ما بين صغير وكبير، على متنها نحواً من ستمائة مقاتل للقاء البرتغاليين والتصدي لهم (٣). ثم إن عدن تمثل مرتكزاً هاماً بالنسبة للماليك في مصر، وهي قريبة منهم نسبياً، وأية محاولة للاستيلاء عليها ستكون بمثابة مواجهة وتحدٍ سافرٍ للماليك من قبل البرتغاليين، ربّما لن تحمد عواقبها، خاصة وأن هذه المواجهة ستكون في مكان قريب من مركز إعداد القوات المصرية في السويس وجدة ولعلّه تنامىٰ إلى سمع البرتغاليين أخبار الاستعدادات التي كان المماليك والبنادقة يقومون بإعدادها بالتعاون مع الدولة العثمانية في اسطنبول، هذه الاستعدادات التي اكتملت مع بعد تحرك البوكيرك باتجاه البحر الأحمر وسواحل الجزيرة العربية، وقد ذكرت المصادر العربية أن القوات المملوكية قد غادرت السويس ووصلت جدة باتجاه الهند سنة ١٥٠٧م - ٩١٣هـ. (٤)

وبناء على ما سبق؛ استشار البوكيرك كبار قادته قبل أن يشرع في تنفيذ عملياته الحربية، فأشاروا عليه بالتخلي عن فكرة مهاجمة جدة ومداخل البحر

---

(١) Miles op, cit , p 142.
(٢) Ibid , Loc , cit.
(٣) قرة العيون . ابن الديبع ورقة ١٤٣ أ
(٤) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩٣

الأحمر، نظراً لاحتمال نفاد ما معهم من مؤن بسرعة، ونظراً لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية لازالت سائدة. وكان من رأيهم القيام أولاً بمهاجمة السفن التجارية الإسلامية لسلب مابها من مؤن وتوابل قبل أن تدخل البحر الأحمر ثم التوجه إلى مسقط لتقرير الخطوة التالية (١)
وهكذا تحرك الأسطول البرتغالي المكون من نحو ست عشرة سفينة (٢)
وقيل ست سفن (٣)، تحرك باتجاه جزر كوريا موريا، ولكنه لم يظفر ببغيته ولم يستولي على أية سفن تجارية إسلامية، ومن ثم قرر اقتطاع جزء من أسطوله فقط، خوفاً من نفاد المؤن والتوجه إلى الشمال الشرقي ليظهر في مياه الساحل العماني لأول مرة في التاريخ، وكان ذلك في العصيرة التي لم يطل مُقامُه بها، وتوجه إلى رأس الحد حيث بدأ عملياته الحربية بمهاجمة وإحراق كل السفن التجارية العربية التي كانت ترسو في خور هجيرة (٤) والتي تراوح عددها ما بين ثلاثين وأربعين سفينة (٥)
ثم أبحر متجها إلى خور جرمه Khour Jermah وأحرق فيه أربعة من السفن التجارية العربية (٦)، وبعدها مرّ على قرية صور، وكان حشدٌ كبيرٌ من الناس يراقب تحركاته من الشاطئ. ثم وصل مدينة قلهات مثيراً حوله كثيراً من الجلبة (٧) بقصد إثارة الفزع والرعب في قلوب سكان الخليج.

وبات البوكيرك قبالة سواحل قلهات التي كانت تابعة لسلطان هرمز في ذلك الوقت، ثم أرسل في اليوم التالي ضابطين ومترجماً إلى الشاطئ. ومع أن المدينة لم تُبدِ محاولة عسكرية تذكر وأن حاكمها أعلن تبعيته لهرمز

---

(١) Miles op, cit, PP 143.
(٢) Wilson, sir prnold, op, cit, P 185.
(٣) Miles , op; cit , P 143
(٤) Ibid , Loc - cit
(٥) علاقة ساحل ص٢٦ , Ibid , Loc - cit
(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة
(٧) Miles, op, cit, PP 143 - F

و أنه على استعداد لتزويد البرتغاليين بما يحتاجون من المؤن. فإن البوكيرك لم يقتنع بذلك وطالب باستسلام المدينة غير المشروط و أن تعلن تحويل تبعيتها لسلطان البرتغال. ونظراً لعدم استعداد المدينة للمجابهة الحربية استجاب حاكمها لمطالب البوكيرك الذي أعطاه كتاب أمان باسم ملك البرتغال و وعده بعدم اعتداء القوات البرتغالية الأخرى على المدينة. و مع ذلك لم يتورع البوكيرك من ممارسة أسلوب القرصنة المعتاد و قامت قواته بالاستيلاء على دهو[١] عدني كان محملا بنحو مائتى طن من البضائع[٢].

و في الثاني و العشرين من أغسطس من نفس العام أبحر البوكيرك باتجاه كريات، ماراً بطيوى Taiwea ، وكانت كريات أولى المناطق العربية التي شهدت مقاومة عربية عنيفة ضد البرتغاليين، فقد وجد البوكيرك أنّ السكان قد أعدوا أنفسهم للمقاومة و لم يُبْدوا أيّة بادرة خضوع أو استسلام وعندئذ أعدّ البوكيرك خطته لمهاجمة موقعي المدفعية اللذين أُعدّا للدفاع عن المدينة، وكان أحدهما مجهزاً بأربعة مدافع كبيرة، و دارَ قتالٌ عنيفٌ و طويل استبسل فيه المسلمون و استماتوا في سبيل الدفاع عن مدينتهم إلى أن تمكنت القوات البرتغالية المهاجمة من هزيمة القوات العربية المدافعة و دحرها إلى الداخل مسافة قصيرة لا تزيد عن ميل و نصف[٣]. و يذكر أن البرتغاليين قد مثّلوا في كريات بالأهلين، ثم سلبوا المدينة قبل أن يشعلوا فيها النيران[٤]، و كذلك قاموا بإحراق خمس و ثلاثين سفينة ما بين كبيرة و صغيرة كانت ترسو في الميناء، و كان من بين الغنائم الحربية التي استولوا عليها خمس و عشرون بندقية وكميات كبيرة من الرماح و الأقواس و السهام[٥].

---

(١) الدهو نوع من السفن التجارية العربية.

(٢) Miles, op , cit , P 144. Sousa, op.cit. I, p 126

(٣) Ibid , P 145 , Ibid, vol I, p 126-ff

(٤) Sousa, op. cit, vol, I, pp 127

(٥) Miles, op. cit, p, 145

وتوجه البوكيرك ، في حملته على الشواطئ العربية ، بعد ذلك إلى مسقط ، التي علمت بما حلّ بكريات ، فأخذت أهبتها للمقاومة ، وأقامت المتاريس الواقية من نيران المدفعية ، وزودت تحصيناتها بالمدافع ، لمنع وصول البرتغاليين للمدينة ، ومع ذلك فقد كان أهل مسقط ميّالين للمصالحة لظنهم أنهم لن يقووا على مواجهة البرتغاليين وحدهم ، إذ سرعان ما تخلوا عن هذا الاتجاه عندما وصلهم المدد الحربي من الداخل[(١)].

وهكذا كان لابد من الحل العسكري ، حيث رَمَقَ البرتغاليون المدينة عن بُعد قبل أن يشنوا عليها هجوماً شاملاً ، وقد أبدى المسلمون مقاومةً عنيفة مستميتة ولكن قوتهم لم تكن من العدة والعتاد بما يُمَكّنُها من دحر الهجوم البرتغالي ، ومن ثم انسحب المدافعون خارج المدينة حيث استغل البوكيرك هذه الفرصة فنهب المدينة وبطش بأهلها وغنم كثيراً من العتاد الحربي ومن ذلك حوالي ثلاثين بندقية وكمية أخرى من الرماح والسهام والقسيّ وغير ذلك من الأسلحة التي كان يستخدمها الجيش العربي ، وأخيراً ترك البوكيرك المدينة نهباً للنيران رغم محاولات الأهلين الإبقاء على البقية الباقية من مدينتهم[(٢)].

وتوجهت الحملة البرتغالية ، بعد أن مرت بجزر الديمانية إلى صحار حيث استقرت قبالة الشاطئ ، كالمعتاد - لاستطلاع المدينة ومعرفة مواقعها الدفاعية وقد حاول السكان الدفاع عن أنفسهم ، ولكن حاكم المدينة الذى كان تابعاً لمملكة هرمز رفض مساعدة قوات ابن جابر التى وصلت في نحو سبعة آلاف مقاتل ولما لم يصله المدد العسكري الذي كان قد طلبه من ملك هرمز اضطر إلى الاستسلام والمهادنة ، ووافق على إعلان التبعية للبرتغال وعلى

(١) Sousa, op, cit, vol, 1, p 127

(٢) Miles, op , cit , PP 146-147.

دفع جزية سنوية تحمل إلى ملكها من المدينة . (١)

وأقلع الأسطول البرتغالي بعد ذلك باتجاه خورفكان التي كانت قد علمت باقتراب الأسطول من أحد القوارب العربية التي جاءت من رأس الخيمة لتحذيرها من الهجوم المرتقب، ولذا تزامن وصول البوكيرك مع احتشاد قوات كبيرة من المشاة والفرسان قبالة الشاطئ، ولذا رأى البوكيرك أن يهاجم المدينة ليلاً، حيث بدأ هجومه مع الثانية صباحاً، واضطرت القوات العربية المدافعة إلى الانسحاب خلف أبواب الحصن تحت تأثير النيران الكثيفة وقد دارت حول أسوار الحصن معركة حامية الوطيس قبل أن يتمكن البرتغاليون من احتلال المدينة. ومما يذكر أن العرب قد بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد المدينة من يد البرتغاليين ولكن يبدو أنّ هذه المحاولات لم تفلح نتيجة لإصرار القوات البرتغالية على تنفيذ مخططاتها (٢).

وبعد ذلك توجه البوكيرك إلى هدفه الرئيسي من الحملة وهو الاستيلاء على مدينة هرمز، ولكن يبدو أن الظروف السياسية لم تكن في صالحه فقد انفصل عنه قائدان من أكبر قواده، وشعر باقي الضباط بالضجر من مواصلة العمليات الحربية فضلا عن أن القوات البرتغالية في سوقطرة كانت تعاني من ثورات الأهلين ومن نقص في المؤن والإمدادات (٣)، ويضاف إلى ذلك ما أبداه أهل هرمز من مقاومة مستميتة. ومن هنا اضطر البوكيرك إلى الانسحاب قبل أن يحقق نصراً حاسماً في هرمز .

---

(١) Miles op, cit, pp 149 - f .

(٢) Ibid, pp 150 - F. Sousa, op, cit, vol, I, pp127ff

(٣) انظر Ibid, p : 134

وأقام البوكيرك في سوقطرة إلى أن رتّب الأمور في شرق أفريقيا ، وأعاد تجهيز قواته بالمؤن والمياه والعتاد والمدد قبل أن يبحر في الخامس عشر من أغسطس سنة ١٥٠٨م - ٩١٤هـ باتجاه هرمز ، وقام وهو في طريقه بإخضاع قلهات والقضاء على ثورتها ، إذ شنّ عليها حملة تأديبية بسبب تعاونها السابق مع حاكم هرمز في مواجهة البرتغاليين (١).

ولا شك أن أخبار حملة البوكيرك الثانية على هرمز قد سبقته ، خاصة وأنه هاجم مدينة قلهات قبل أن يتوجه مباشرة إلى هرمز ، وهو الأمر الذي أتاح لملك هرمز أن يأخذ أهبته وينظم صفوفه تأهباً للحملة البرتغالية المنتظرة. وهكذا عندما وصل البوكيرك وجد مدينة هرمز قد تحصنت جيداً ، مما دفع بعض الكتاب الغربيين إلى المبالغة في وصف قوات هرمز ، حيث قال إنه كان بها ما لا يقل عن ثلاثين ألف جندي بينهم أربعة آلاف فارس من الخبراء في رمي السهام كما كان في الميناء نحو أربعمائة سفينة ، ستون منها من الحجم الكبير ، وكان على متنها نحو ألفين وخمسمائة رجل ، وكان إلى جوارها عددٌ من السفن المزودة بالمدافع وعدد من القوارب المزودة برماة السهام والمدافع (٢) ، ومهما يكن من أمر فإن ماحدث أن البوكيرك استطاع أن يهزم القوات الهرمزية وأن يخضع حاكمها لسلطان البرتغال ويفرض عليه جزية سنوية وامتيازات تجارية خاصة . (٣)

ويبدو أن انشغال البوكيرك بإقامة حامية عسكرية في هرمز قد ساء بعض المغامرين من جنوده الذين كانوا يرغبون في السلب ومهاجمة السفن التجارية الإسلامية لكسب مزيد من الغنائم ، فضلاً عن ذلك فإن التمرد الذي حدث في صفوف الجند (٤) ، وما وصله من أوامر دالميدا نائب الملك

---

(١) Miles , op , cit , p 152.

(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٠

(٣) قلادة النحر . بامخرمة ورقة ١١١٣ . وقرة العيون . ابن الديبع ورقة ١٤٨ ب

(٤) الخليج العربي . ويلسون ص ٧٠

في الهند تطالبه بفكّ حصار هرمز نوراً ، لأن القوات البرتغالية لا تقدر على إقامة مستعمرات بعيدة عن الهند ، ولأن إقامة الوكالات التجارية والاكتفاء بالسيطرة البحرية كفيل بالقضاء على التجارة الإسلامية [١] ، وهكذا غادر البوكيرك هرمز وتوجه إلى سواحل الهند للالتحاق بالقوات البرتغالية ، ومواصلة حملات الانتشار البرتغالي هناك.

ويخيل للباحث أن دا الميدا قد لجأ لسحب القوات البرتغالية من سواحل الجزيرة والخليج العربي وبخاصة هرمز لسببين رئيسين يتعلقان بالظروف الدولية وبحقيقة الصراع الإسلامي البرتغالي ، وأول هذين السببين أن القوات الإسلامية قد بدأت تنظم صفوفها وتنسق مع دولة المماليك لمواجهة الحملات البرتغالية مواجهة حاسمة، وفي ذلك الوقت كان المماليك قد نجحوا في تكوين أسطولهم بالتعاون مع البنادقة والعثمانيين وتوجهوا إلى باب المندب ممهدين للانتقال للهند ومحاربة القوات البرتغالية فيها ، ويعود السبب الثاني إلى خوف دا الميدا على القوات البرتغالية في هرمز وهي صغيرة العدد نسبياً ، من أن تقع فريسة سهلة في يد الأسطول المملوكي وهو في طريقه إلى الهند ، ولعل البوكيرك رأى أنّ حشد القوات البرتغالية في الهند أكثر جدوى وفاعلية في عملية حسم المعركة لصالح البرتغاليين ومما لا شك فيه أن هذين العاملين قد ساهما بنصيب كبير في اتخاذ ذلك القرار النهائي .

وفي سنة ١٥٠٩م-١٥ ٩هـ نجح البرتغاليون في هزيمة الأسطول المملوكي في ديو [٢] ، ويبدو أن هذه المعركة قد أكّدت ضرورة التغيير في صفوف القيادة البرتغالية في الهند ،حيث عُزل دا الميدا ، وعُيّن البوكيرك نائباً للملك خلفاً له . وكان على البوكيرك – عندئذ – أن يواصل جهود سابقيه من البرتغاليين

(١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٠

(٢) سيأتي تفصيل ذلك في مبحث خاص .

في مجال فرض السيطرة البرتغالية هناك ، والتي كانت تُوِّجَت بنصرٍ حاسم على قوات السامورى في مياه كاليكوت سنة ١٥٠٦م – ٩١٢هـ (١) ، وإن كان ذلك النصر لم يحقق وجوداً برتغالياً هناك .

وهكذا كان أول عمل قام به البوكيرك سنة ١٥٠٩م – ٩١٥هـ هو مهاجمة كاليكوت بهدف تحويلها إلى مركز رئيسي للقوات البرتغالية بدلاً من كوتشين ، ولكنه فشل في هزيمة قوات السامورى (٢) مما دفعه إلى تغيير مخططه والتفكير في اتخاذ جوا مركزاً برتغالياً رئيسياً بدلا من كل من كاليكوت وكوتشين ، واستطاع في العام التالي (سنة ١٥١٠م – ٩١٦هـ) أن يحقق ذلك الهدف ويحتل جوا بمساندة القرصان الهندي تيموجا بعد عدة محاولاتٍ فاشلة (٣) . ويُذكَر أن البوكيرك قد مارس طقوس العنف المعتادة مع أهل جوا قبل أن يثبِّت حكمه فيها .

ولم تكن سواحل وجزر الشرق الأقصى غريبة على البوكيرك والقوات البرتغالية ، إذ إن أسطولا برتغالياً كان قد قام سنة ١٥٠٩م – ٩١٥هـ بحملة على ملقا Malacca بقيادة ديغولوبز دى سكيرا الذى توجه إلى سيلان ceylan ومنها إلى سومطرة ، ليسجل في التاريخ أن البرتغاليين هم أول من قاد الحملات العسكرية من الأوربيين على تلك النواحي ، التي سبق أن وصفها ماركوبولو Marco polo وفارتيما Varthema من قبل . ونجح سكيرا في عقد اتفاق مع حاكم الجزء الشمالي من سومطرة قبل أن يتوجه إلى ملقا ، التي وصلها في سبتمبر سنة ١٥٠٩م – ٩١٥هـ ، حيث دهش لكبر حجم الحركة التجارية بها ، والتي تميّزت بازدحام السفن التجارية القادمة من بلاد العرب والفرس ومن كجرات والبنغال وبورما وجوا والصين وجزر الفلبين (٤) . وقد سبب وصول البرتغاليين إلى ملقا هلعاً كبيراً ولكن سكيرا نجح في أن يهدّئ من روع التجار والأهلين تدريجياً ، وأن يحمل سفنه بالتوابل ، ويفرّ بأسطوله عاشراً قبل أن تتمكن

(١) Sykes , op, cit . P 112.
(٢) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٣١
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٤) Skes, op, cit , p 112

قوات حاكم الملايو من الظفر به وإبادة قواته ، ومع ذلك فقد اضطر أن يتخلى عن بعض رجاله الذين وقعوا أسرى في يد قوات الملايو(١) .

وهكذا كان على البوكيرك بعد أن ثبت حكمه في جوا، أن يواصل مرحلة الانتشار البرتغالي ويمتد بقواته في نواحي الشرق الأقصى . ومن هنا اتجه بقواته سنة ١٥١١م-١٧ ٩هـ إلى ملقا في شبه جزيرة الملايو ، وتمكن من احتلالها ووضع حامية برتغالية فيها قبل أن يجتاح بأسطوله سواحل أرخبيل الملايو Molay Archipeleyo وخاصة ما فيه من جزر رئيسية(٢) هامة من الناحية التجارية .

وحقق البرتغاليون بذلك انتشاراً عسكرياً وتجارياً كبيراً ، وبدأت قواتهم تدخل طوراً جديداً هو طور الاستقرار والتنظيم وفرض السيادة البرتغالية الكاملة على طول السواحل الشرقية بدءاً من رأس الرجاء الصالح ومروراً بسواحل أفريقيا الشرقية والسواحل العربية والهندية حتى أرخبيل الملايو داخلين بحركة التجارة الدولية إلى أقصى المنعطفات التاريخية في ذلك الحين(٣) .

المرحلة الرابعة :-

مرحلة الاستقرار وإحكام فرض السيادة البرتغالية :-

شهدت المرحلة السابقة أولى المعارك الحاسمة في تاريخ الصراع الإسلامي البرتغالي ، تلك المعركة التي دارت رحاها في ديو وحُسمت لصالح البرتغاليين لتُبعِد المماليك عن ميدان الصراع في المحيط الهندي إلى غير رجعة ، ومع

---

(١) Sykes, hist exolo p. 112

(٢) , PP 112 - 113

(٣) سيأتي تفصيل ذلك في فصل مستقل .

لقد كان من المحتمل أن يبرز لهم دور عسكريّ وسياسيّ كبير وذلك في السواحل العربية ومنطقة البحر الأحمر على وجه الخصوص، خاصة وأن تلك المناطق تمثل الحد الأدنى الكفيل بحماية الدولة المملوكية في مصر. ولذا كان على البرتغاليين لكي يحققوا سيادتهم الفعلية أن يثبتوا وجودهم في منطقة البحر الأحمر، وأن يحموا المنجزات العسكرية والسياسية والاقتصادية من تدخل المماليك، وهذا الأمر كان أحد المعالم البارزة لتلك المرحلة. وقد بدأ البوكيرك بالتمهيد لهذا التوجه منذ سنة ١٥١٠م-٩١٨هـ عندما أخضع جوا وعمل على نقل مقر منصبه من كوتشين إليها لأنها واقعة على سواحل مليبار المطلة على بحر العرب، الأمر الذي يسهل عليه توجيه عملياته العسكرية نحو الخليج العربي والبحر الأحمر (١).

ولما كانت سياسة البوكيرك في إدارة الممتلكات البرتغالية في الهند والشرق تقوم على مرتكزات ثلاثة هي :-

١ - احتلال عدن والاحتفاظ بها للسيطرة على مداخل البحر الأحمر وتهديد الأماكن المقدسة .
٢ - الاحتفاظ بالإشراف المباشر على هرمز لضمان السيطرة البرتغالية الكاملة على مدخل الخليج العربي .
٣ - الاحتفاظ بدبو وجوا لفرض السيادة البرتغالية الكاملة على كافة أقاليم الهند (٢).

ولما كان البوكيرك قد حقق الهدفين الثالث والثاني إلى حدٍّ ما ، فإن تطور الأحداث يفرض عليه أن يتجه لتحقيق الهدف الثالث، خاصة وأنه كان يعلم أن بقايا الأسطول المملوكي الذي انهزم في ديو سنة ١٥٠٩م-٩١٥هـ لا زال مرابطاً في جدة، وأنه يقوم بتحصينها استعداداً للمواجهة المقبلة

---

(١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٠ .
(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٤

ومما يعزز هذا الاعتقاد أن العلاقات بين الساموري والسلطان الغوري لا زالت قائمة، وأن الاتصالات بينهما لم تنقطع أبداً من أجل تنسيق المواقف، فضلاً من أن المماليك كانوا يعكفون على بناء أسطول حربي جديد في ميناء السويس(١).

ومهما يكن من أمر فإن البحر الأحمر كان يشكّل هدفاً استراتيجياً بالنسبة للبرتغاليين لأن السيطرة عليه تعني ضمان السيطرة على اليمن والحجاز والسودان ومصر، من الناحية الاقتصادية على أقل تقدير. وهكذا كان من الضروري لتحقيق الأطماع البرتغالية أن يحتل البوكيرك مضيق باب المندب أو يحاصره حصاراً تاماً كهدف استراتيجي وعسكري مُتَقَدّم بشكل مع احتلال عدن في اليمن وسواكن في السودان عوامل ثبات السيطرة البرتغالية على البحر الأحمر (٢).

ومما يذكر أن هذه السياسة قد اتضحتْ من خلال المراسلات التي تمّت بين البوكيرك وملك البرتغال فيما بين سنتي ١٥١٢ و ١٥١٤م. ففي سنة ١٥١٢ بعث البوكيرك برسالة للملك البرتغالي يبين له فيها أهمية السيطرة على البحر الأحمر فقال: ((إن أكثر مايسيء إلى جوا على أية حال هو ما يردده الناس دائماً بأن الرم(٣) قادمون، وذلك هو أكبر مصادر الخطر على الهند، وأنه يسبب بين سكان الهند قلقاً وإحراجاً سواء كانوا مسيحيين أو هنود، فيما يختص بهذه الإشاعات المدمرة (وإني) ألتمس من جلالتكم أن تتوجه إلى البحر الأحمر وتطمئن هؤلاء الناس بأنه

---

(١) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوي . د . ص ٧٨

(٢) الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية . فالح حنظل . د . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخيّة . ص ١٣٢

(٣) لا شك أن المقصود بالرم، هنا، هم المماليك أو العثمانيين المسلمين المتوقع قيامهم بحملات حربية ضد الوجود البرتغالي في المحيط الهندي. ويلاحظ في هذه الرسالة ما يأتي :ـ

١ـ إدراك البوكيرك لأهمية البحر الأحمر من الناحية الاستراتيجية، وإيمانه بضرورة تأمينه

٢ـ ان الاهتمام البرتغالي في المناطق الهندية منصب على العناصر غير الإسلامية من المسيحيين والهندوس وذلك للاستعانة بهم في مواجهة القوى الإسلامية في أية صدام محتمل

لا يوجد شيء اسمه الروم (و مالم يحدث ذلك) فإنه لن يكون هناك سلام وثقة لرعايا جلالتكم في هذه المناطق)) (١) .

ويتضح هذا الاتجاه أيضا ، حتى بعد هزيمة البرتغاليين في عدن ١٥١٣ - ١٩١٩هـ حيث بعث البوكيرك أيضا رسالة إلى مليكه جاء فيها ((ينبغي علينا الاستيلاء على عدن والاحتفاظ بها بإقامة حامية فيها . (إذ) يوجد في عدن ميناء صالح للعمل في وسعه تقديم الحماية لسفننا في فصل الشتاء ، وأن بناء حامية خارج المضيق موضوع لا يفكر فيه أحد . لأنه لا توجد هناك مصادر للمياه . وبما أن عدن لا تبعد عن هذه المداخل إلا بمسيرة ثلاثة أيام فإنى أعتبرها المفتاح لهذه المضايق .... وإن أول خطوة أمامنا أن نحمى أنفسنا في مصوع حتى نضمن لأنفسنا مصدرًا للتموين)) (٢) .

وشهد عام ١٥١٢م-٩١٦هـ بدء تنفيذ هذه السياسة إذ خرجت حملة بقيادة ديغو دي بيغا Diego Fernoldes de Bega بهدف تدمير حصن سقطرة الذي ثبت عدم جدواه في عملية محاصرة البحر الأحمر . وكان عليه أن يأخذ في طريقه من هرمز ومسقط وغيرها من مدن الساحل الجزية التي تم التصالح عليها مع البوكيرك قبل ذلك بخمس سنوات (٣) . ويبدو أن هرمز كانت قد أعلنت تحللها من الاتفاقية المعقودة مع البوكيرك (٤) ومن هنا قرر أن يعيد السيطرة عليها في حملته القادمة لضمان تحقيق خطته التي سبقت الإشارة اليها .

ويبدو أن ملك البرتغال كان يتفهم أهداف البوكيرك ويتعاطف معها إلى

---

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٣

(٢) المرجع السابق ص ٧٥

(٣) Miles, op, cit , p 154 . والمرجع السابق ص ٧٣.

(٤) فتح العثمانيين عدن . البحراوى ص ٧٩ ويذكر أن حاكم هرمز رفض دفع الجزية كما رفض إقامة الحصن .

حد كبير، ولذا نجده يرسل في أغسطس ١٥١٢ـ١٨ ٩هـ مدداً مكوناً من أسطولين لدعم قوات البوكيرك استعداداً للمرحلة الجديدة من الحملات البرتغالية، وكان على رأس الأسطول الأول دى جارسيا دى نورنها بينما تولى قيادة الثاني جورج دى مللو بيريرا وجارسيا دى سوزا (١). ويبدو أن أحد هذين الأسطولين قد حمل معه استجابة ملك البرتغال لمطالب البوكيرك، وأوامره له بأن يتوجه على جناح السرعة لاحتلال عدن وسد منافذ البحر الأحمر (٢).

وهكذا أبحر البوكيرك في فبراير ١٥١٣م-١٩ ٩هـ بأسطوله الضخم الذي كان يضم عشرين سفينة حربية عملاقة، على متنها قوة عسكرية قوامها ١٧٠٠ برتغالي و ٨٠٠ مليارى من جوا باتجاه رأس الغضرفي (٣) تمهيداً لمهاجمة عدن والقيام بمغامرة كبرى بمهاجمة المدينة المنورة ودخول الحرم النبوي ونبش القبر الطاهر لإخراج الجثمان المحمدى الزكي ومقايضته بكنيسة القيامة في القدس، ثم طلب مليون متطوع أوربي لمهاجمة السودان وتحويل مجرى النيل ليصب في البحر الأحمر لتموت مصر جوعاً وعطشاً (٤).

وتوجه الأسطول البرتغالي بعد رأس الغضرفي إلى سوقطرة بحيث تزوّد بالمياه والمؤن (٥)، ثم أقلع باتجاه عدن من جهة الشرق، ماراً بالقرب من وادى أبين حيث شاهده بعض الأهالي وقاموا بإرسال زورق سريع إلى مرجان الظافرى حاكم عدن لتحذيره وإبلاغه بوجهة الأسطول البرتغالي (٦) قبل وصوله، وبناء على هذه

---

(١) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوي . د . ص ٧٨

(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٣

(٣) المرجع السابق . ص ٧٣

(٤) الأطماع البرتغالية . فالح حنظل . د . ص ١٣٢

(٥) المرجع السابق ص ١٣٣

(٦) المرجع السابق ص ١٣٣ .

المعلومات قام مرجان الظافري بوضع خطته الدفاعية التي قامت على أساسين هامين ، كان الأول منهما يقضي بعرقلة اقتراب الأسطول البرتغالى من سواحل عدن بالابقاء على السفن التجارية راسية فى الميناء (١) ، وربما هدف مرجان الظافرى بذلك إلى أن يشاغل جنود الأسطول البرتغالى بأعمال السلب والقرصنة ريثما يجد هو فرصته منهم ، ويعزز هذه الفكرة أن البرتغاليين عُرِفُوا بحبِّهم الشديد للنهب والقرصنة. وقام الأساس الثانى لخطة مرجان الظافرى الدفاعية على أساس تعزيز المواقع الدفاعية ونقاط المراقبة القريبة من الميناء ومداخل المدينة ، وبناء على ذلك قام الأهالى بإنارة قمم الجبال تحسباً لقيام البرتغاليين بهجوم مفاجئ يعتمد على الإنزل الليلي ، كما قام الظافرى بتوزيع قوات المدفعية والمنجنيقات على أسوار المدينة لتصبّ قذائفها على طرق المواصلات ومسالك الاقتراب من الميناء إلى مدخل المدينة (٢) .

وصل الأسطول البرتغالى إلى عدن فى ثماني أو ست عشرة سفينة فى أواخر مارس ١٥١٣م-٩١٩هـ ، حيث قاموا بالاستيلاء على عدد من السفن اليمنية التى كانت ترسو في الميناء (٣) ، قبل مهاجمة المدينة . وحاول الظافرى أن يختبر نوايا البوكيرك الذي طلب استلام المدينة وفتح أبوابها أمام جنود الأسطول البرتغالي وإعلان تبعية المدينة لملك البرتغال (٤) ، وعندئذ قرر الظافرى الدفاع عن المدينة وعدم الإذعان لمطالب البوكيرك المذلة .

وهكذا تهيأت كل الظروف لوقوع الصدام المسلح الذى حدث يوم ١٥١٣/٣/٢٦م- ٩١٩هـ ، عندما هاجمت القوات البرتغالية عدن من ثلاثة محاور هى محور شرشرة ومحور الشيخ ومحور قعمان حيث هاجم غارسيا دى نورنها البوابة الرئيسية محاولاً

---

(١) الأطماع البرتغالية . فالح حنظل . د . ص ١٣٣

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣

قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩٤ وغاية الأماني . الصغاني . ص ٦٤٠

(٤) الأطماع البرتغالية . فالح حنظل . د . ص ١٣٣

تسلق الأسوار، بينما هاجم البوكيرك حصن الخضراء في الجانب الأيمن من المدينة، وقامت المجموعة الثالثة بمهاجمة مواقع متوسطة بين المحورين السابقين، ولكن القوات المهاجمة لم تحقق تقدماً يذكر وفق هذه الخطة مما اضطرها إلى التجمع ومهاجمة سور المدينة من جهة المدخل الرئيسي لها .

ونجح البرتغاليون وفق الخطة الجديدة في اجتياح المدينة اجتياحاً مرحتاً، إذ سرعان ما قام مرجان الظافري بتجميع قواته في قلعة السعادة مركز قيادته وقام بهجمة مضادة كبّدت البرتغاليين كثيراً من الخسائر واضطرت البوكيرك إلى الانسحاب بقواته باتجاه سقطرة (١) ، وقد انتقم البوكيرك قبل إقلاعه بأن دكّ المدينة بالمدفعية وهدم نحواً من عشرين منزلاً وقتل خلقاً كثيراً (٢) ، كما أحرق نحواً من أربعين سفينة حربية عربية بعد أن سلب رجاله ما بها من العدة والغنائم (٣) .

وقد علّل بعض الباحثين هزيمة البوكيرك في عدن بقوله " إن منطقة عدن كانت محصنة تحصيناً طبيعياً ودفاعياً قوياً ، لم يحسب له البوكيرك حساباً عندما قرر مهاجمة المدينة وتسلق أسوارها ، كما أن الظروف لم تكن في صفّه ، فقد كانت المياه ضحلة لدرجة أن الجنود أجبروا على الخوض للشاطئ ، معرضين ما معهم من البارود للبلل ، كما كانت سلالمهم قصيرة جداً مما ضطرهم إلى الانسحاب مخلفين وراءهم خسائر كبيرة في الرجال ومتطلبات السيادة (٤) .

ومن سقطرة أبحر الأسطول البرتغالي مرة ثانية تجاه البحر الأحمر

---

(١) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩ ب . وقرة العيون . ابن الديبع . ورقة ١٥١ ب وغاية الأماني . الصفائي . ص . ٦٤٠ . الأطماع البرتغالية . فالح حنظل . د . ص١٣٢-١٣٥

(٢) المرجع السابق . ورقة ١١٩ ب

(٣) الفضل المزيد . ابن الديبع ص

(٤) Sykes , Histof Explo , p 113

بهدف مهاجمة ينبع وإقامة حصن برتغالي فيها تمهيداً لمهاجمة المدينة المنورة على النحو الذى سبقت الإشارة إليه (١) ، ولكنّ هذه الحملة لم تستطع أن تتجاوز جزيرة قمران نتيجة الظروف المناخية والطبيعية ، فضلاً عن نقص المؤن والمياه واضطرت إلى الإقلاع عائدةً إلى الهند ، حيث قامت في طريق عودتها بمهاجمة عدن في ثمانية عشر مركباً ولكنهم فشلوا أيضاً في اقتحامها وأقلعوا خائبين (٢) باتجاه مقرهم في سواحل الهند .

وما أن وصل البوكيرك إلى جوا حتى جهز حملة أخرى لمهاجمة هرمز وبعض سواحل الخليج العربي ، وعين على رأس هذه الحملة التي أبحرت في صيف ١٥١٣م-٩١٩هـ ابن أخيه بيدرو دى البوكيرك الذي استولى وهو في طريقه على عدد من السفن العربية التجارية المتجهة إلى البحر الأحمر ، قام بيدرو دى البوكيرك : سالف الذكر ، في حملته هذه ، باستطلاع أوضاع جزائر البحرين لأوّل مرة سنة ١٥١٤م-٩٢٠هـ ، قبل أن يتوجّه إلى هرمز ويجرى مع حاكمها مفاوضات عقيمة لم تسفر عن تحقيق مكاسب تذكر لصالح البرتغاليين نتيجة لإصرار حاكم هرمز على بقاء تبعيته للشاه إسماعيل الصفوي . وأمام ذلك عاد القائد البرتغالي أدراجه خائباً (٣).

وفي هذه الأثناء قام البوكيرك بترتيب صفوفه في الهند كما قام بمراسلة مليكة في لشبونة ، حيث أخبره بعزمه على مهاجمة جدة ومصوع واقتحام البحر الأحمر للقضاء على قوات المماليك بالتعاون مع ملك الحبشة (٤) . وبعد ذلك أقلع البوكيرك في فبراير سنة ١٥١٥م - ٩٢٠هـ بأسطول مكون من ست وعشرين سفينة

---

(١) الأطماع البرتغالية . فالح حنظل . د . جـ١ ص ١٣٥

(٢) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩٥ . وقرة العيون . ابن الديبع . ورقة ١٥٢ أ ، ب

(٣) Sykes, op, cit , P 113.

(٤) التهديد البرتغالي. بشير كاظم . جـ١ ص١١٨

على متنها نحو ألف وخمسمائة جندي برتغالي وسبعمائة مليباري ، وتوجه إلى هرمز بهدف قطع تبعيتها عن الشاه إسماعيل وإلحاقها ثانية بامبراطورية البرتغال ، قبل أن يقوم الحاكم بطرد الحامية البرتغالية من الجزيرة (١) . ووصل الأسطول البرتغالي إلى رأس الحد في مارس ١٥١٥م-٩٢٠هـ ومنها توجه إلى كريات بعد أربعة أيام ، ومنها توجه إلى مسقط للتزود بالمياه والمؤن ، ثم توجه إلى هرمز ، حيث أنهى موضوع التبعية وألحق هرمز بملك البرتغال وأقام بها حصناً رائعاً (٢) دون أن يواجه بأية مقاومة تذكر ، ثم عين ابن أخيه بيدرو دى البوكيرك على رأس الحامية البرتغالية في هرمز ، وأبحر عائداً للهند طاوياً آخر صفحاته ، حيث تُوُفِّيَ في جوا في ديسمبر سنة ١٥١٥م-٩٢١هـ بعد أن تسلم كتاب عزله واستدعائه إلى لشبونة . (٣)

ويمكن القول إنه بموت البوكيرك كان البرتغاليون قد اقتربوا من نهاية حملاتهم الهادفة إلى إقامة الامبراطورية البرتغالية في سواحل المياه الشرقية الإسلامية ، وإن كانوا لم يكفوا عن اجتياح تلك السواحل بين الفينة والأخرى لتنفيذ سياساتهم التي سبق إعدادها ، أو لجمع الجزية وإخضاع بعض المتمردين .

لقد خلف البوكيرك في منصب نائب الملك في الهند لوبو سواريز ، ومنذ ذلك الحين ركز البرتغاليون على تنظيم سياستهم وقواتهم العسكرية لتحقيق التفوق التجارى ، وتحول القادة العسكريين إلى تجار ، وباشر لوبو سواريز أعماله الحكومية ، فقام بتفقد الحامية وعين فيها قادة جدداً ، وقد علق ويلسون على ذلك بكل روح صليبية فقال : ومنذ ذلك الحين اعتبر قادة البرتغاليين القيادة سُبَّة والكرامة فضيحة ، وأن أوامر سواريز كان من شأنها أن تملأ السطور

---

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٦

(٢) انظر وصف الحصن في
Vide sykes , Hist of persia 2,Ed, volell p 186.

(٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ٨٠
Miles, op, cit,pp 154-155,

ولكنها لاتساهم إطلاقاً في تحقيق الجوهر التاريخي [١]، وكأنه (أي ويلسون) يريد من سواريز أن يستمر في الحملات العسكرية العنيفة ضد الأهلين العزل من المسلمين .

ومهما يكن من أمر، فلا بد من القول إن لوبو سواريز قد واصل سياسة سلفه البوكيرك فيما يتعلق بمنطقة البحر الأحمر، كما واصل سياسة التوسع في الشرق الأقصى حيث وصل البرتغاليون الصين سنة ١٥١٦م ـ ٩٢٢هـ [٢] ثم قاد سواريز أسطولاً برتغالياً سنة ١٥١٧م ـ ٩٢٣هـ لمهاجمة سواحل البحر الأحمر بهدف تأمينه ضد أسطول سليمان الذي كان يخشى أن يهدد ممتلكات البرتغاليين في الهند، ومر بعدن دون أن يهاجمها، ثم توجه إلى جدة بأسطوله المكوّن من سبع وثلاثين سفينة تُقِلّ على متنها خمسة آلاف وخمسمائة رجل، ورابط قبالتها أحد عشر يوماً، دون أن يجرؤ على مهاجمتها [٣] نتيجة لتهديد الرياح ونفاد المياه والمؤن [٤]، وبعد ذلك قفل راجعاً واستولى على زيلع في طريق عودته، وتوجه بعدها إلى عدن التي تحصنت للقائه حربياً، ومن ثم لم يجد بداً من الإقلاع إلى بربره حيث أدركته الرياح المعاكسة والعواصف فشتّتت أسطوله وأفقدته عدداً من سفنه [٥]. وبعد ذلك تتابع نواب الملك على القيام بعمليات جزئية في منطقتي الخليج العربي والبحر الأحمر وشرق أفريقيا بهدف تأمين السيادة البرتغالية وضمان استمرار الاحتكار البرتغالي للتجارة الدولية بين الشرق والغرب.

وأخيراً لابدّ من القول إن البرتغاليين قد استطاعوا في حملاتهم التي سبق الحديث عنها باختصار، استطاعوا أن يحققوا نجاحاً كبيراً، بالقياس مع حجم

---

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٨

(٢) Sykes, op , cit , p 113.

(٣) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٢٧

(٤) بنو رسول . محمد عبد العال أحمد . ص ٤٥١

(٥) الخليج العربي . ويلسون . ص ٨٠

قواتهم البحرية ، وفى زمن قياسي لا يزيد عن عشرين سنة ، مكونين امبراطورية برتغالية ساحلية مترامية الأطراف، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك عدد من العوامل منها أن البرتغاليين كانوا يتميزون بالحماس الشديد وبروح صليبية جامحة ضد العرب والمسلمين ، وأنه قد توافرت لهم القيادات المدربة والعناصر الشابة الراغبة في المغامرة البعيدة ، بالإضافة إلى تفوقهم في صناعة السفن والعتاد الحربي وخاصة صناعة السفن العملاقة والمدفعية الثقيلة القادرة على التدمير ونشر النيران ، وتضافرت مع هذه وتلك عوامل أخرى مثل سرعة الحركة وكثافة الحملات وتتابعها (١) ، وتوافر الحوافز الاقتصادية ..... الخ .

وفى المقابل لم يكن لدى العرب والمسلمين سفناً قوية عملاقة ، وكما لم يكونوا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم سواء من ناحية الرجال أم العتاد أم المؤن (٢) وذلك لظروف سبقت الإشارة إليها في مبحث آخر . وعلى أية حال فإنه لم يكن لدى العرب والمسلمين أسلحة نارية تذكر ، ولم يكن لهم في المياه الشرقية أية أساطيل حربية (٣) بالمعنى الصحيح ، ويضاف إلى كل ذلك أن المدن الساحلية الإسلامية لم تكن راغبة في التخلي – فى كثير من الأحيان – عن الغيرة والحسد فيما بينها حتى فى أحلك اللحظات ، وعندما تضطر لمواجهة عدو أكبر عدداً وأكثر خطورة . ومن ذلك أن حاكم مافيا Mafia فى شرق أفريقيا ، كان سبباً فى موت حاكم كلوه والذى لجأ ولده إلى قوات خارجية لمساعدته فى تدمير مافيا ، والقضاء عليها (٤) . وقد تكرر مثل هذا الموقف في أكثر من موقع وعلى فترات زمنية مختلفة من عصر الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٣٣ ، ١٣٤
(٢) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٢٥
(٣) صراع القوى في المحيط الهندى . ص ١٣٤
(٤) Ingham, op, cit, pp, 8 - 9

الفصل الثالث

المحاولات البرتغالية لاحتكار التجارة الدولية
بين الشرق و الغرب في النصف الأول من القرن السادس عشر

لم تكن محالات البرتغاليين لاحتكار حركة التجارة الدولية بين الشرق و الغرب ، تلك التجارة التي كان المسلمون يشرفون على قسم كبير منها ، لم تكن محاولاتهم وليدة لحظتها ، و لكنها كانت تقوم على فكر عميق ، بل على قمة ما تمخض عنه الفكر الصليبي ، بعد سنوات من الكد و الجهد و المواجهة ضد المسلمين سواء كان ذلك في بلاد الشرق الأوسط أم في بلاد الأندلس ، فسلسلة الصراع متصلة و ما كانت تخمد نارها إلّا لتثور من جديد ، وربما بصورة جديدة أيضا . لقد أدرك بعض رجال الفكر و السياسة الأوربيين ، بعد هزيمة الصليبيين ، أن الدول الإسلامية و العربية في الشرق يعتمدُ جُلّ اقتصادها على التجارة بين الهند و أوربا و لذا وضعوا خططهم و استراتيجياتهم على أساس تدميرها . لقد اقترح مارينو سانيتو Marino Sanuto إقامة حلف مع Tortary dnubia و إقامة أسطول في المحيط الهندي للسيطرة على جزره و سواحله ذات الأهمية التجارية ، في حين ناضل غيلوم آدم Guilloum Adam من أجل بناء أربع سفن ضخمة في هرمز لقفل الخليج العربي و البحر الأحمر ، معتمداً على مساعدة الغرب المسيحي له [(١)] . ومما يذكر أن الإسكندر المقدوني ٣٢٤ ق م قد أدرك أهمية هذه التجارة ، و لذا كان من أهدافه أن يجعل من البحر الأحمر و الخليج العربي شرياناً تجارياً واحداً لبسط نفوذه على كافة الخطوط التجارية البحرية و البرية معا ، و لكن هذا الحلم تبدد بوفاة ذلك القائد و انشغال خلفائه بأمورهم الداخلية [(٢)] .

لا شك في أن احتكار الأوربيين للتجارة الشرقية يضمن لهم عدة فوائد في آن واحد ، إذ يسهل عليهم الحصول على السلع و المواد التي يحتاجونها

---

(١) الفتح العثماني الأول لليمن . السيد مصطفى سالم . د . ص ٤٧

(٢) الخليج العربي في العصور الإسلامية . محمد العقيلي . د . ص ٣٢

من الهند و الأرخبيل الأندنيسي و الشرق الأقصى ، دون واسطة العرب و المسلمين و في نفس الوقت يُضْعِف المسلمين عن طريق قفل باب التجارة و مصدر الدخل الأساسي في دولهم . و هو كذلك يؤمّن أسواقا لتصريف المنتجات الأوربية الفائضة ، و خاصة بعد أن بدأت بشائر نظام الإنتاج الرأسمالي تحل محل نظام الإنتاج الإقطاعي في أوربا مع بدء القرن الخامس عشر [1] .

و هكذا اتجه الصليبيّون ، متعاونين إلى توجيه ضربات قاصمة للدولة المملوكية ، حسب خطط مدروسة منظمة ، ففي الوقت الذي قام فيه البرتغاليون بأعمال القرصنة في مياه المحيط الهندي و مداخل البحر الأحمر ، و هاجموا السفن الإسلامية في تلك الجهات ، كان فرسان الإفرنج و خاصة الإسبتارية يقومون بنفس المهمة في البحر المتوسط بهدف منع التعامل التجاري مع الموانىء الإسلامية في مصر و الشام . [2]

و إذا كان الاستعمار كظاهرة اقتصادية استيطانية - يهدف إلى تحويل الربح و فائض القيمة من الأطراف إلى المركز عبر آليات السيطرة المنظمة المدعمة بالقوة العسكرية و الأعمال الوحشية ، فإن الاستعمار البرتغالي لا يخرج عن هذا الإطار ، إذ كان الأساس الاقتصادي الذي قامت عليه سياستهم ينصب على عنصرين ، هما : جلب المواد الأولية بما فيها المعادن الثمينة ، كالذهب و الفضة و اللؤلؤ ، و فتح أسواق جديدة لتصريف الفائض من البضائع الأوربية ، و يضاف إلى ذلك رغبتهم في احتكار الموقع الجغرافي المتميز للخليج العربي و البحر الأحمر ، الأمر الذي يترتب عليه احتكار طرق التجارة مع الهند شرقاً و أفريقيا و أوربا غرباً [3] . و من المؤكد أن التفاف البرتغاليين حول المسلمين ، وسيطرتهم على المياه الشرقية يضمن لهم انتزاع زمام حركة التجارة من أيديهم [4] ، وهو ما يحقق لهم هدفهم

---

(١) الأسس الاقتصادية . محمد الكيالي . د . ص ١٠٧

(٢) الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك . عبدالعزيز محمود عبدالدايم . ص ١١٦

(٣) الأسس الاقتصادية . محمد الكيالي . د . ص ١٠٥ - ١٠٦

(٤) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٩٦

الأكبر و القائم على " تدمير الحضارة العربية الإسلامية عن طريق تجميد أشكال الإنتاج (الصناعة و الزراعة) السائدة آنذاك ، و التي كان بإمكانها التطور إلى مراحل راقية وصولاً إلى مجتمعات متقدمة بالمفهوم السائد اليوم " (١) .

تلك هي الاستراتيجية البرتغالية ، و التي تبلورت في وقت مبكر من القرن الخامس عشر ، فقد كان من أهداف هنرى الملاح الالتفاف على ديار المسلمين و حصرها من الوجهتين الحربية و التجارية ، مع انتزاع تجارة الذهب و غيره من حاصلات أفريقيا الغربية من يد المسلمين ، و ربما كان يهدف أيضا إلى الاستيلاء على تجارة الهند التي كانت إذ ذاك أكبر موارد الثراء للعالم الإسلامي (٢) . و قد بدأ هنرى الملاح أولى خطواته بأن أرسل سفنه لتطويق الدول الإسلامية في شمال أفريقيا و محاصرتها ، ليتمكن من تأسيس اتصال مباشر مع سكان غرب أفريقيا ، و قد تمكن بالفعل من الالتفاف حول المناطق الإسلامية هناك ، وهو الأمر الذي مهد لهم السبيل لأن يُقيموا أحلافاً مسيحية تربطهم بشعوب غرب أفريقيا حيث يمكن الانقضاض على المسلمين ، وتحويل تجارة غرب أفريقيا (٣) ، و كذلك تجارة المحيط الهندي التي كانت تخضع للمسلمين في الشرق و في شمال أفريقيا ، على حد سواء ، تحويل هذه التجارة إلى أوربا بطريقة مباشرة ، تعود فائدتها على البرتغال (٤) في المقام الأول .

عرف هنرى الملاح أنّ من المحتم على البرتغال أن تكسب خبرة و معرفة في مجال الكشوف قبل إرسال سفنهم في رحلات طويلة على طول شواطئ المحيط الهندي المحفوفة بالمخاطر لإقامة اتصال مباشر معها ، للاتصال الجدي مع الدولة الأثيوبية (٥) المسيحية و التعاون معها لتحقيق الأهداف الصليبية المشتركة .

---

(١) الأسس الاقتصادية . محمد الكمالي . د . ص ١٠٨

(٢) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص. ٩٧

(٣) تاريخ غرب أفريقيا . فيج . جي ١١٠

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٥) المرجع السابق ، نفس ص ١٠٩ .

و لتحقيق هذا الغرض، اختار البرتغاليون جزيرة أرجوين في غرب أفريقيا كقاعدة لتجارتهم على أمل أن يطوروا تجارتهم مع داخل القارة، و يتمكنوا من القضاء على طريق القوافل الواصل بين مالي و مراكش[١]، و لتكون تلك الجزيرة قاعدة برتغالية لتحقيق ذلك الهدف الكبير. وقد أقام البرتغاليون في هذه الجزيرة سنة ١٤٤٨م حصناً لهذا الغرض، كما أسسوا سنة ١٤٨٢م ـ ٨٨٧هـ قلعة ساوجورج دامينا لتكون مستودعاً حصيناً للبضائع البرتغالية المشتراة، وخاصة من الذهب. وقد كانت هذه القلعة مركزاً للحاكم الملكي و للحامية الخاصة به[٢] و كانت هذه المحطة ـ كغيرها ـ بمثابة محطة لتزويد السفن البرتغالية بما تحتاج إليه من المؤن وهي في طريقها للدوران حول أفريقيا و الوصول إلى الهند[٣]، و لا شك أن تلك الحصون كانت تأكيداً لإصرار البرتغاليين على أهدافهم من جهة وإيذانا بتحقيق الحلم البرتغالي الكبير من جهة أخرى، و لما لم يكن ساحل غرب أفريقيا مطمع البرتغاليين منذ أن قدموا إليه[٤]، فإن الوقت الذي حقق فيه البرتغاليون هدفهم باحتكار تجارة المحيط الهندي، كان نفس الوقت الذي قلّ فيه اهتمامهم بتجارة غرب و وسط أفريقيا إلى حدٍّ ما .[٥]

و يمكن القطع بأن بشائر تحقيق الحلم البرتغالي في احتكار التجارة الدولية بين الشرق و الغرب و حرمان المسلمين منها تعود إلى عام ١٤٩٦م ـ ٩٠١ هـ حين استطاع بارثلميو دياز أن يصل إلى الطرف الجنوبي من أفريقيا حيث كان ذلك حافزاً كافياً لملك البرتغال لأن يكثف حملاته و جهوده، و التي تكللت بالنجاح عندما وصل فاسكو دي جاما إلى سواحل الهند في أغسطس سنة ١٤٩٧م ـ ٩٠٢هـ وعاد إلى لشبونة في سبتمبر سنة ١٤٩٩م[٦] ـ ٩٠٤هـ و لتأكيد هذا النجاح بأهدافه المختلفة، لقب ملك البرتغال نفسه بملك الفتح وأمير ملاحة و تجارة الهند و أثيوبيا

---

(١) تاريخ غرب أفريقيا . فيج . ص ١١١ (٢) المرجع السابق ص ١١٧
(٣) المرجع السابق ص ١١٧ و العبارة من تعليق المترجم .
(٤) المرجع السابق ص ١١٤، و القول للمترجم .
(٥) المرجع السابق ص ١١٤.
(٦)
Grenville, Freema, select Documents, the east african coast p.p, 52-53.

وفارس وجزيرة العرب [١] ، ومهما يكن من أمر ، فإن رحلة دى جاما أدت ـ بدون شك ـ إلى تغيير نهج التجارة الأوربية تغييرًا أساسيًا ، رفع من شأن البرتغال [٢] في أوربا والعالم وفتح لها باب السيطرة السياسية والاحتكار التجاري على مصراعيه ٠

وكانت أولى خطوات الاحتكار البرتغالي بعد حملة دى جاما الكشفية التى حددت معالم الطريق ، وساعدت على رسم الخطط المناسبة لاحتكار تجارة الشرق ٠ كانت أولى الخطوات الاحتكارية على يد الحملة البرتغالية التى قادها بيدرو الفاريز كابرال سنة ١٥٠٠ م ـ ٩٠٦ هـ ووصل بها إلى كاليكوت فى العام التالى ، حيث قام بأولى المحاولات الاحتكارية ، ومن ذلك أنه أقام مركزاً تجارياً فى كاليكوت سنة ١٥٠١ م ـ ٩٠٧ هـ ، وكذلك طلب من صاحبها أن يمنع العرب والمسلمين من الإقامة في مملكته ، ويضاف إلى ذلك اتباعه أسلوب المنافسة التجارية الفاعلة حيث عرض على حاكم كاليكوت أن يشترى البضائع التى تباع عادة للعرب بأثمان أفضل من تلك التى يدفعها أولئك التجار [٣] ٠ ومما يذكر أن حاكم كاليكوت المسلم لم يستجب لمطالب كابرال الاحتكارية مما دَفَعَ القائد البرتغالي إلى اتباع أساليب العنف والوحشية لتحقيق هدفه حيث قام بإحراق نحو تسع وعشرين سفينة تجارية محملة بالبضائع ٠ كانت تستعد للإقلاع باتجاه البحر الأحمر ، وقد كان من بين تلك السفن سفينة تابعة للسلطان الغورى نفسه [٤] .

وتقدم دى جاما فى رحلة الثانية سنة ١٥٠٢ م ـ ٩٠٨ هـ خطوة أخرى على طريق الاحتكار البرتغالي ، إذ كانت الأوامر الموجهة إليه تنصُّ على أن يقوم أثناء

---

(١) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٧٣

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة ٠

(٣) تحفة المجاهدين . المليبارى . ص ٢٧ . ووثائق تركية لصفوت بك ص ٣ نقلاً عن التهديد البرتغالي . بشير كاظم . ص ١٠٣

(٤) وثائق تركية لصفوت بك . ص ٣ . نقلاً عن التهديد البرتغالي ص ١٠٣

الرحلة بتخريب الموانئ الإسلامية على سواحل البحر العربي ، وتدمير السفن التجارية الراسية فيها ، وأن يترك جزءاً من أسطوله لسد منافذ البحر الأحمر والخليج العربي في وجه حركة التجارة القديمة التى كانت تحت سيطرة عرب الخليج والمماليك خاصة (٣) من جهة ، والبندقية من الجهة الأخرى . ولم يكن هدف هذه الخطة - بالطبع - منع حركة التجارة من الهند إلى منطقة الشرق الأقصى فحسب ، ولكنها هدفت أيضا منع حركة التجارة في الاتجاه المعاكس أيضاً . وهكذا نجحت حملة دى جاما الثانية في تحقيق هدفين فى مجال الاحتكار التجارى : أولهما هو أنها نجحت في زعزعة الأمن التجاري وأقلقت جميع التجار العرب والهنود والفرس وغيرهم من المسلمين الذين يعملون فى مجال الاتجار في مياه المحيط الهندي ، خاصة وأن دى جاما كان قد هاجم بسفنه السفن التجارية الإسلامية ، فأسَرَ بعضها ، ونهب مابها من الممتلكات والبضائع والغنائم وتولت قواته إحراق أو إغراق البعض الآخر (٢) . أما الهدف الثاني فقد كان نجاح دى جاما في رسم حدود امبراطورية التجارة البرتغالية (٣) وإثبات الجدوى الاقتصادية لتلك الحملات باهظة التكاليف ، إذ عاد أسطوله محملا بالبهار والزنجبيل والقرفة (٤) وغيرها من البضائع كالفلفل والدارصيني وجوز الطيب والجواهر والأحجار الكريمة (٥) . وقد بلغت حمولة سفن دى جاما في رحلة العودة نحواً من خمس وثلاثين ألف قنطار من البضائع (٦) ، أعد منها نحو ستة وعشرين ألف كنتال على شواطئ مليبار (٧) . وقدرت قيمة الحمولة كلها بنحو مليون بندقي في حين أن تكاليف الحملة لم يزد عن مائتي ألف بندقي لاغير ، وقد جنى التجار على سبيل المثال نحو خمسة آلاف بندقي من بضاعة قيمتها ألفا بندقي فقط (٨) .

(١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل . ص١٤٩ Serjeant, op.cit, p, 169

(٢) المرجع السابق . نفس الصفحة (٣) تاريخ التجارة . جورج لوفران : ص ٦٨

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٥) البندقية جمهورية أرستقراطية . ص ١٤٦ ٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٧) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٧٠

(٨) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٤٦

وهكذا تأكد مدى الفوائد التى يمكن أن تجنيها البرتغال،وهو الأمر الذى حفزها على المضي قُدُماً فى سياستها الاحتكارية مهما كلّفها ذلك من التضحية بالقيم الإنسانية والعلاقات الدولية وأصول اللياقة ٠

وعندما تولى فرانسسكو دالميدا ركّز سياسته الاحتكارية على جانبين هامين هما : العمل على فرض السيادة البرتغالية على البحار الشرقية دون التوسع فى الاستيلاء على المواقع البرية التى يمكن أن تكلفهم مالا يطيقونه ٠ وبناء على ذلك ركز على تقوية الأسطول البرتغالى [١] وزيادة عدد قطعه المنتشرة فى مياه المحيط الهندى والتى كان عليها أن تجوبه باستمرار ذهاباً وإياباً والعمل على إقامة المراكز التجارية المحمية [٢] فى المناطق الاستراتيجية الهامة ٠

ويعتبر قدوم البوكيرك سنة ١٥٠٦م-٩١٢هـ نقطة تحول فى السياسة البرتغالية الاحتكارية ، إذ كان يؤمن - كسابقه - بضرورة التفوق البحرى دون بعثرة الجهود البرتغالية فى ممتلكات شاسعة قد لا يقوى على الاحتفاظ بها بسبب عدد قواته المحدودة ، ولذا بنى سياسته على أساس السيطرة على المنافذ البحرية الأساسية كشرط ضرورى لضمان التفوق البحرى وحصر النشاط التجارى فى أيدى البرتغاليين باعتبارها الهدف الاقتصادى الأول [٣] ٠ وكان من أهداف البوكيرك إقامة الحصون القوية فى جميع أنحاء المحيط الهندى لإحكام الحصار التجارى وتدعيم النفوذ السياسي وتأمين الخط الملاحى البرتغالي من هجمات السكان الوطنيين [٤] ، وتركزت جهود البوكيرك فى محاصرة البحر الأحمر ، حيث استولى على سقطرة وأقام حصناً برتغالياً فيها ، ثم هاجم السواحل العربية وبعدها هرمز ، وأعقب ذلك بمحاولة التوسع فى مضيق ملقا عند الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو [٥] ٠ وفى عهد البوكيرك تمت هزيمة

---

(١) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ١٠٧

(٢) الاستعمار البرتغالي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧١

(٣) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان . ص ١٣٠ . والعلاقات البرتغالية . الداود . د . ص ٢٢٤

Wilson, A. op, cit p 112

(٤) Ibid, Loc . cit

(٥) المشيخات المتصالحة .هولي . ص ٧٥ انظر كذلك

Pristage.E, the portuyyes pioneers, pp, 53-60.

الاسطول المملوكي والقوى الإسلامية المساندة له في ديو سنة ١٥٠٩م-٩١٥هـ، وكانت تلك الهزيمة بمثابة فاتحة حقبة جديدة من السيطرة البرتغالية الاستعمارية الاحتكارية على تجارة الشرق (١) . وهكذا انتقلت السياسة الاحتكارية البرتغالية من مجرد الرغبة في كشف الطريق البحرى إلى الهند لتحقيق بعض المكاسب الاقتصادية سنة ١٤٩٩م -٩٠٥هـ إلى الرغبة في احتكار التجارة الشرقية كليةً، والسيطرة عليها وعلى مصادرها الأصلية، بل إلى إقامة أول حكومة استعمارية أوربية في بلاد الشرق، ولا شك أن تفوق البرتغاليين الحربي كان عاملاً أساسياً في تطور موقفه بسرعة أثناء تلك الفترة (٢) .

وبعد البوكيرك جاء القائد البرتغالي ديوجو لوبيس دى سكويرا، فسار في مجال الاحتكار التجاري خطوات أوسع، ومن ذلك أنه اتبع مع السكان الوطنيين أساليب أشد قسوة، وعمل على توسع النفوذ البرتغالي في المحيط الهندى كما سمح - لأول مرة - للسفن البرتغالية أن تقوم بعملية التجارة الشرقية - الشرقية بين مختلف الموانىء الإسلامية، حيث أذن لسفن البرتغاليين أن تقوم بالمتاجرة بين الهند والخليج العربي وشرق أفريقية، وأمَّنَ الحماية العسكرية لهذه السفن، مما زاد في عددها، ودفعها إلى التمادى في أعمال السلب والقرصنة بالاضافة إلى العمل التجارى (٣) .

وفي سنة ١٥١٧م-٩٢٣هـ تولى لوبو سواريز قيادة دفة الاحتكار البرتغالى، فسار خطوات جديدة في هذا المجال كان من شأنها أن تشكل معلماً جديداً من معالم الاحتكار التجارى البرتغالى، وأن ترسخ ذلك الاحتكار وترسى كثيراً من أسسه، والتى كانت بعيدة الأثر على السواحل الإسلامية الشرقية، ومن ذلك أنه عمل على إنعاش التجارة البرتغالية الاحتكارية بأساليب أقل عنفاً، وعين ضباطاً برتغاليين في المراكز البرتغالية

---

(١) الاستعمار البرتغالي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٥١

(٢) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ٤٣ - ٤٤

(٣) Serjeant, R.B. op.cit, p, 170

الهامة لجمع الضرائب ومراقبة الحركة التجارية وضبطها ، وسمح للضباط بممارسة العمل التجارى ، حتى تغيرت فى عهده معالم السياسة البرتغالية فى الشرق ، وأصبح القادة البرتغاليين الكبار تجاراً (١) كباراً أيضاً ، ومما يذكر أن لوبوسواريز قد سمح للتجار المسلمين بممارسة التجارة التقليدية ولكن تحت الإشراف البرتغالى ودون المساس بمصالحهم ، وتمكن البرتغاليون بذلك من تحقيق العديد من المكاسب والاستفادة من أنماط التجارة التقليدية (٢) بما يمكن أن يُجْنَى منها من رسوم وجمارك . ويلاحظ أن البرتغاليين قد حرصوا مع ذلك — على عدم إتاحة الفرصة لإحياء التجارة التقليدية ، ومع ذلك فإن المرونة البرتغالية التى سبقت الإشارة إليها قد سمحت بتدفق كميات لا بأس بها من التجارات والبضائع إلى منطقتى الخليج العربى والبحر الأحمر (٣) ، وهو الأمر الذى أكده بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث (٤) ، ولعل ذلك ينفى ما ذهب إليه كثير من الباحثين الذين قالوا إن البرتغاليين قد تمكنوا من القضاء التام على طرق التجارة التقليدية . ومع ذلك فإن تلك السياسة المرنة التى اتبعها لوبوسواريز لم تخفف من الأضرار التى كان يعانى منها التجار العرب والمسلمون ، وتلك الأضرار تتمثل فى الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليهم ، ولذا نظر التجار العرب إلى تلك السياسة على أنها وسيلة لزيادة التحكم والسيطرة البرتغالية (٥) . خاصة وأن لوبوسواريز كان قد قاد حملة كبرى إلى البحر قوامها سبع وثلاثون سفينة على متنها نحو خمسة آلاف وخمسمائة جندي (٦)

ومع ذلك فإن هذه السياسة المرنة لم تستمر طويلا إذ إن تعيين فاسكو دى جاما سنة ١٥٢٤م — ٩٣٠هـ كان بداية لسياسة برتغالية متشددة وبالغة القسوة ، فقد عمل دى جاما على بناء أسطول برتغالى من السفن الصغيرة القادرة على

(١) الخليج العربي . ويلسون ص ٧٨
(٢) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧٢
(٣) المرجع السابق ص ٧٢ . (٤) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١٢٠٨
(٥) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧٣ ، ٧٤
(٦) الفتح العثماني للأقطار العربية نيقولاي إيفانوف ص ١٢٧

المناورة وسرعة الحركة لمطاردة التجار العرب والمسلمين في المياه الساحلية الضحلة، و وقد تمكن بذلك من تغيير طبيعة العمليات الحربية وأساليبها وقاد دى جاما حرباً لا هوادة فيها ضد كل ما يتعارض مع المصالح الاحتكارية البرتغالية، فشدّد الضغط على منتجى التوابل إلى حدّ كبير، إذ حَظَر على الحكام المحليين والتجار في الهند وسيلان وملقا بيع التوابل للتجار التقليديين من العرب، وهدد بمعاقبة المخالفين بأقسى العقوبات، وعارض بشدة عقد أيّة اتفاقيات أو مساومات مع حكام دول شبه الجزيرة العربية الساحلية لكى لا يبقى لهم أى مبرر للاحتفاظ بأى أسطول تجارى أو حربى، كما عمل على تشديد الحصار على الموانئ الإسلامية الهامة، وبالغ في سياسة الإرهاب البحرى (١).

وسار ليونار دى كابرايو (١٥٢٥-١٥٢٩م) على نفس سياسة دى جاما فأمر بتنشيط البحار الجنوبية وتعقب السفن التجارية العربية فيها (٢)، وبذلك زادت أعمال القرصنة البرتغالية وأصبح لا همّ للأساطيل البرتغالية إلا الاستيلاء على كل ما يمكن القبض عليه من السفن الإسلامية، وقد تمكنت الأساطيل البرتغالية الجوابة آنذاك من الاستيلاء على عدد كبير من السفن الإسلامية ومن ذلك أن أحدها استولى على خمسين سفينة إسلامية تجارية دفعة واحدة (٣). ومما يذكر أن السياسة البرتغالية استمرت في مجال الاحتكار بين مد وجزر طوال القرن السادس عشر حيث انتهت بعدد من النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سيتم الإشارة إليها في غير هذا البحث، أما الآن فلعل من الضرورى أن نعرض للأساليب التى اتبعها البرتغاليون لتحقيق أهدافهم الاحتكارية بشئ من التفصيل.

* * *

اتبع البرتغاليون أساليب عدة لإحكام سيطرتهم وتنفيذ سياساتهم الاحتكارية على تجارة الشرق، ومن ذلك أنهم سعوا لتثبيت أقدامهم في شرق أفريقيا

---

(١) White way.R.S.op,cit,p,207 والفتح العثماني للأقطار العربية ١٢٧-١٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

كقاعدة انطلاق ، ومركز لحماية طرق الملاحة بين الهند والبرتغال ، ومنع الدول الإسلامية من تهديد الاحتكار البرتغالي بالحصول على موطئ قدم في تجارة البلاد ، هذا من جهة وكمصدر للذهب الذى كان ضروريا لشراء توبل الهند لان التجار هناك كانوا لايقبلون التعامل إلا به(١) كما كان شرق أفريقيا مصدراً لكثير من البضائع الأخرى ، ومقراً لتخزين البضائع وتموين السفن التجارية في طريقي الإقلاع والعودة ، من الجهة الأخرى ، ومع ذلك فقد احتل شرق أفريقيا سواء شمال الرأس أم جنوبه مكانا ثانوياً في السياسة البرتغالية (٢) . وتمحور نشاط البرتغاليين الاحتكاري في شرق أفريقيا على مدن سوفالا وموزمبيق وسوقطرة ، فقد أقام البرتغاليون في سوفالا حصنا سنة ١٥٠٥م – ٩١١هـ باعتبارها مصدرًا من أهم مصادر الذهب ، كما أقيمت بعد ذلك حصون أخرى في المناطق الداخلية كانت أصغر حجماً ، وبهذا لعبت سوفالا دوراً رئيسياً في عملية الاحتكار في السنوات العشر الأولى للغزو البرتغالي (٣) ، ولكن سرعان ماتركز اهتمام البرتغاليين بمدينة موزمبيق ، كما كان يشاع عن ثروتها من الذهب ، ولما يتمتع به ميناؤها ، الذى أصبح بسرعة ملجأ للسفن القادمة أو الرائحة والتى تسير بين الهند والبرتغال ، وأصبحت محطاً لنواب الملك البرتغالي وغيره من الرسل والسفراء والزوار الأجانب (٤) ، وذلك لأن لجوء البرتغاليين الحتمي للسير في قوافل دفعهم إلى تركيز أعمالهم في الموانئ حسنة الإعداد والتجهيز (٥) . وكانت موزمبيق مركزاً للوفود التجارية البرتغالية التي كانت تتجه نحو ممالك ، مونوموتابا وزامبيا وماكالانجا الداخلية للاتجار معها ومبادلة الملابس القطنية والخرز بالعاج

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . د . ص ١٢٤
(٢) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤
(٣) المرجع السابق ص ٤٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٢ – ٤٣
(٥) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٧٠

والذهب وغيره من المنتجات الأفريقية (١) . وكان احتلال البرتغاليين لسوقطرة عاملاً هاماً في مشروع الاحتكار البرتغالى ، إذ بالإضافة إلى علاقتها المتميزة مع سواحل الشرق الأفريقى ، فإنها ذات موقع جغرافى واستراتيجى هام . لأنها تقع فى مواجهة القرن الأفريقى وتشرف على خليج عدن ومداخل البحر الأحمر (٢) ، ولا شك أن استيلاء البرتغاليين على هذه الجزيرة ساهم بشكل فعال فى احتكار تجارة الهند ومنعها من دخول البحر الأحمر عبر الطريق القديم . (٣)

وعمل البرتغاليون كذلك على إغلاق منافذ الخليج العربى والبحر الأحمر ، ورأى البوكيرك أن أبسط طريقة لإغلاق البحر الأحمر هى احتلال جنوب الجزيرة العربية وتأسيس قلعة برتغالية حصينة فى عدن ، ووضع حامية قوية فيها ، تتألف من ألف أو ألف وخمسمائة جندى (٤) ، ولكن موقع عدن الاستراتيجى وحصانتها ، واهتمام المماليك بها ، بالإضافة إلى طول خطوط المواصلات ، وقلة عدد القوات البرتغالية فى المحيط الهندى جعل مهمة السيطرة عليها أمراً بالغ الصعوبة (٥) ، وأخَّر محاولات البرتغاليين للسيطرة عليها نحواً من ثلاثةَ عشرَ عاماً . ولما فشل البوكيرك فى احتلالها سنة ١٥١٣م-٩١٩هـ ، عمل على فرض الرقابة على مداخل البحر الأحمر فيما بين نقطتى رأس الفرتك ورأس جو دفوى . (٦)

ولجأ البرتغاليون بعد ذلك إلى استغلال الخلاف بين الطاهريين ودولة المماليك سنة ١٥١٧-٩٢٣هـ وحاولوا التعاون مع حاكم عدن وإقامة علاقات ودية معه . وقد سمح لهم حاكم عدن هذه المرة بالدخول إلى الميناء والتزود بالماء والمؤن

١) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٤ . ومصر في عصر المماليك . ابراهيم طرخان د ص ٢٩١

٢) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص ٩٨

٣) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ٤٤

٤) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٤٩

٥) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاى إيفانوف . ص ١٢٧

٦) المرجع السابق . نفس الصفحة

وتمكنوا من انتزاع اعتراف موقت منه بالسيادة البرتغالية (١) . وفي سنة ١٥٢١م-٩٢٧هـ أجبر دي سلفيرا حاكم عدن على عقد معاهدة مع البرتغاليين كان من نصوصها أن يفتح الطاهريون ميناء عدن للسفن البرتغالية ، وأن يقوم حاكماً بدفع جزية سنوية للبرتغاليين . ولكن نائب الملك رفض الاقتناع بهذه المعاهدة أملاً في أن يتمكن البرتغاليون من السيطرة الكاملة على المدينة (٢) . وفي سنة ١٥٢٤م-٩٣٠هـ وقع اتفاق جديد يضمن السيادة للبرتغاليين . ولكن نائب الملك . دي جاما ، رفض هذه المعاهدة أيضا ، ومع ذلك فإن الموظفين البرتغاليين قد باشروا مهامهم وبسطوا رقابتهم على تجارة الأمير الطاهري . وبداخيله ، ورابطت سفينة برتغالية بصورة دائمة في ميناء عدن ، مما أدى إلى بث الرعب في المدينة بأكملها ، واستمر ذلك إلى أن جاء رد فاسكو دي جاما من الهند رافضاً لهذا الاتفاق (٣) ، وقد تكررت محاولات البرتغاليين سنة ١٥٣٠م-٩٣٧هـ وتم عقد معاهدة جديدة بين دي سلفيرا وحاكم عدن تم فيها الاعتراف بالسيادة البرتغالية ، والموافقة على دفع جزية سنوية كما سمحت الاتفاقية بحرّية الملاحة للتجار الطاهريين بشرط ألّا يتوجهوا إلى جدة وألّا يقوموا بنقل البضائع إلى العثمانيين عبر الطريق القديم (٤) . وليتأكد البرتغاليون من تنفيذ هذه الاتفاقية بما يحقق هدفها الاحتكاري ، تركوا في ميناء عدن إحدى سفنهم ومعها قوة برتغالية قوامها أربعون برتغالياً ، ليتولوا الإشراف على الميناء ومراقبة إيراداته المالية (٥) . ومما يذكر أن كل محاولات البرتغاليين للسيطرة على عدن وبداخل البحر الأحمر لم تؤت ثمارها المرجوة بصورة دقيقة ، إذ لم يستطيع البرتغاليون قط الاستيلاء على قواعد دائمة في البحر الأحمر ، بسبب تصدى المماليك ومن بعدهم العثمانيين (٦) . لهم بحسم في مياه البحر الأحمر ، وهو الأمر الذي كان بمثابة شرخ كبير في سياسة البرتغاليين الاحتكارية ، ما كان ليندمل أبداً ، ولابد من القول أيضاً إن مثل هذه الاتفاقية لم تدم طويلا إذ سرعان ما تدخل العثمانيون وضموا عدن إلى سلطتهم الفعلية ، وقد وضع ذلك نهاية لآمال البرتغاليين في السيطرة على عدن ، مما دفعهم إلى تعزيز جهودهم في الجانب الغربي من البحر الأحمر وضمن فعاليات التعاون مع ملوك الحبشة .

١) قرة العيون . ابن الديبع . ورقة وقلادة النحر . بامخرمة . ورقة

٢) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ١١٩

٣) الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٩ (٤) المرجع السابق ص١٢٩ .

٥) الفتح العثماني الأول لليمن . السيد مصطفى سالم . د . ص ١١١

٦) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك ص ٨١

وكانت هرمز تشكل المحور الثالث الذى بنى عليه البرتغاليون سياستهم الاحتكارية إذ اتجهوا إليها منذ وقت مبكر، لأن السيطرة عليها تمنحهم القدرة على احتكار تجارة الخليج المتجهة إلى الفرات فالشام وأواسط آسيا [١] . ولموقع هرمز المتميز فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب فقد هدف البرتغاليون إلى تحويلها - مع الموانئ العربية التى كانت تابعة لها آنذاك - إلى مجرد مخازن لتجارة البرتغاليين وبما يحقق مصالحهم دون النظر إلى مصالح السكان الوطنيين، ودون أن يكون لهؤلاء دور يذكر فى حركة التجارة الدولية [٢] ولذا لم يحل عام ١٥١٥م حتى استولى البرتغاليون على هرمز ومسقط، وبعض نواحى البحرين ذات المكانة التجارية والاستراتيجية فى الخليج العربى [٣] وبهذا حالف البرتغاليون الحظ فى إغلاق منافذ الخليج العربى بشكل أكبر بكثير مما حققوه فى مدخل البحر الأحمر .

وثمة مركزان مهمان اعتمد عليهما البرتغاليون كثيراً، وذانك هما منطقتا جوا، وملقا، وقد كانت الأولى بمثابة مستودع البرتغاليين الرئيسى ومفتاح ثروة الشرق [٤] ومنها مارسوا عدداً من أساليب الاحتكار الأخرى، أما ملقا الواقعة على الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا فقد كانت من أعظم قواعد التجارة العالمية حيث تتجمع فيها منتجات الهند والصينية بصفة خاصة [٥] ، ولذا كانت سيطرة البرتغاليين عليها من أهم ركائز السياسة الاحتكارية التى مارسوها على تجارة الشرق .

ولما كان فرض السياسة الاحتكارية على منطقة واسعة كالمحيط الهندى يعتبر مهمة عسيرة على دولة ذات إمكانات محدودة كالبرتغال [٦] ، فقد لجأ البرتغاليون إلى كل الطرق الممكنة، وأكثرها شراسة ولا إنسانية، ومن ذلك أنهم لجأوا إلى إراقة

---

(١) مصر في عصر المماليك الجراكسة . إبراهيم طرخان . د . ص ٢٩٢

(٢) Bent, theolorc, southern arabia p.50.
Miles, . op;cit pr 142-143

(٣) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص ٩٩

(٤) تاريخ أفريقيا . جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٤

(٥) تاريخ الصلات بين الهند والعرب . . . محمد الندوى . د . ص ١٦٧

(٦) القواسم . عبد القوي فهمي . ص ١٠

الدماء والبطش للقضاء على التجار المسلمين وإغلاق وكالاتهم التجارية سواء في شرق أفريقيا [١] أم في الهند ، ففي سنة ١٥٠٥م-٩١١هـ طرد البرتغاليون التجار المسلمون من الهند [٢] قسراً ، وأخذت سفنهم تتعقب كل من يغامر بالدخول إلى المحيط الهندي الذي كانوا يعتبرونه ميداناً رحباً لفرض السيادة البرتغالية [٣] . كما ألزم البرتغاليون صغار الملوك في مناطق الهند والصين بطرد جميع التجار غير البرتغاليين سواء كان ذلك بالقوة أم بالحيلة [٤] . وعمد البرتغاليون في هرمز - كذلك - إلى القضاء على التجار المسلمين من عرب وفرس وغيرهم ، حيث كانوا يعتقلون البعض بحجة خطرهم ومعاداتهم للنظام البرتغالي ، ويفتشون متاجر البعض الآخر وينهبونها ، ويستولون على مافيها من ذهب ومجوهرات وبضائع متذرعين بأوهى الأسباب [٥] ويلاحظ أن اعتداءات البرتغاليين على التجار المسلمين وسفنهم ومتاجرهم كانت تزداد مع الوقت [٦] .

ولما كانت السفن وسيلة التجارة البحرية الوحيدة فقد حرص البرتغاليون على حرمان المسلمين منها ، وذلك إما بالسلب والنهب وإما بالإغراق أو الإحراق والتدمير ومما يذكر أن البرتغاليين مارسوا هذه السياسة منذ وقت مبكر ، إذ كان أول أعمال القرصنة البرتغالية متزامنة مع مطلع القرن السادس عشر ، حيث شرعوا في مهاجمة السفن الإسلامية المحملة بالبضائع والبهار ، واستعملوا معها القوة للاستيلاء على بضائعها وتحويلها إلى أسواق لشبونة [٧] . وقد ازدادت أعمال القرصنة مع تزايد عدد القطع البرتغالية وعدد الجنود البرتغاليين في مياه المحيط الهندي ، حتى كثر ضررهم على المسلمين وهم أذاهم جميع المسافرين [٨] . ولا شك أن البرتغاليين لم يفرقوا في هذا المجال بين السفن المملوكية ، والسفن الهندية ، أو سفن أمير هرمز أو سفن بني جبر

---

(١) Hicbens, ,p,123 عن الإسلام والثقافة .حسن محمود . د . ص ٤٣٢
(٢) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٦٩
(٣) المرجع السابق ،نفس الصفحة (٤) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٥) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧١
(٦) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ٣٣١
(٧) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص ١٨٢
(٨) البرق اليماني في الفتح العثماني . النهرواني . ص ١٨ ، ١٩

أو أمراء مكة أو اليمن أو غيرهم (١) . ومع ذلك فإنه يمكن القول إن شواطئ ظفار وحضرموت و المناطق العربية القريبة من مضيق باب المندب كانت مسرح القرصنة البرتغالية الأساسي وأكثر ما تعرض للهجمات كانت قشن ومحوت و الشحر وغيرها من مدن جنوب شبه الجزيرة العربية ، وكذلك مصوع وزيلع وبربرة على الشاطئ الأفريقي ، أما شواطئ شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر وسواكن التى كانت تحت حماية القلاع المملوكية ثم العثمانية فى جدة وكمران ، فكانت فى وضع أفضل بكثير ، إذ لم يكن من السهل على قراصنة البحر البرتغاليين الوصول إليها (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن أعمال القرصنة البرتغالية قد ازدادت عقب سقوط الدولة المملوكية سنة ١٥١٧م-٩٢٣هـ ، وذلك بسبب إحساسهم باتعاد خطر تدخل أية قوة إسلامية كبرى لوقف تلك الأعمال الوحشية . لقد أخذت السفن الشراعية البرتغالية التي ترفع شارة الصليب ، بدءاً من عام ١٥١٧م-٩٢٣هـ ، تظهر كل عام تقريباً فى مياه الخليج العربى والبحر الأحمر فتسطو على السفن التجارية الإسلامية وتهاجم القرى والمدن الساحلية ، فقد قام الأسطول البرتغالى فيما بين عامى ١٥١٧ــ ١٥٣١م- ٩٢٣هـ-٩٣٧هـ بتسع حملات كبيرة على الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية و القرن الأفريقى ، كما شنت مجموعات مسلحة صغيرة من الزوارق الحربية البرتغالية وقراصنة البحر وبعض السفن المنفردة التى كانت تجوب بحار الهند بإذن ملكى خاص عدداً أكبر من الهجمات على تلك المناطق : (٣) ولا بد من الإشارة فى هذا المقام إلى بعض أعمال القرصنة البرتغالية . وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، ومن ذلك ما قام به القراصنة البرتغاليون المتمركزون فى خليج عدن سنة ١٥١٨م-٩٢٤هـ من سطو على كل السفن التجارية الإسلامية التى تصادف وجودها فى تلك المنطقة ، ونهبوا الشواطئ واستولوا على المقتنيات الثمينة و المواد الغذائية و العبيد وغير ذلك (٤) .

---

(١) Sousa. op, cit ,v,1 p 141
(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاى إيفانوف .ص ١٤٦ - ١٤٧
(٣) المرجع السابق ص ١٢٦
(٤) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

وشـهد عام ١٥٢٣م–٩٢٩هـ تطوراً خطيراً في أعمال القرصنة ، إذ بدأ القراصنة البرتغاليون يتعـاطـون مهنـة القرصنـة لحسابهـم الخاص ودون إذن من أحد ، ولـم تكن السلطة البرتغالية تلاحظهـم إلّا شكـليا ، أما في الحقيقـة فقد كان نواب الملك أنفسهم راضين عـن تلك الأعمال ويتقاسـمون ، غنائـمـها مع القراصنة (١) ، ولهذا كانوا يوفرون الحماية اللازمـة لهـم ، وقد بلغت أعمال القرصنة حداً من الفوضـى لم يكن من الميسور معه التمييـز بين الأعمال الحربيـة المنظمـة وأعمال القرصنة الفرديـة والجماعيـة ، ففي كلا الحالتيـن كانت عمليـة النهب مشروعـة وتجد القبول والتأييـد الفعـلي من السلطة العليا (٢) .

وبلغت أعمال القرصنة الاحتكارية الهادفـة حدّاً من الغطرسة دفع إلى أن يقوم البرتغاليون بمطالبـة حاكم البصرة – وكان خاضعا للسيادة الصفوية – سنة ١٥٢٩م–٩٣٥هـ بتقديم سبع سفن تـجارية عثمانيـة كانت قد لجأت إلى ميناء البصرة ، وطالبوه أيضا بمنع تجار العثمانيين من ارتياد الميناء والإبحار في الخليج (٣) . ويمكن للقارئ أن يتخيل المدى الذي وصلت إليه القرصنة البرتغالية بحلول عام ١٥٣٢م–٩٣٩هـ ، وإذا علم أن خمسة من كبـــار القادة البرتغاليين هم : مانويل دافاسـكو نسيللو Manoel de vascocelle وانطونيـو دا سالدانها Antonio da saldanha وجون رودريغـوز بارس John rodrigues pars وفاسكو سامبويو vasco sumpoyo وأنطونيو فرنانـــدز Antonio Frnandes كانوا يقومون بأعمال القرصنة بحثاً عن السفن الإسلامية في الخليج العربي وبحر العرب في وقت واحد . (٤)

ولابد من القول إن أعمال القرصنة هذه تتصل بأعمال الإغراق أو الإحراق التي كان يمارسها البرتغاليون ضد السفن الإسلامية والتي ذكـر طرف منها في الحديـــث عن الحملات البرتغالية ضد السفن الإسلامية الشرقية ، ولا أدل على مدى فداحـة هذه الأعمال من أن البوكيرك وحده قد أحرق في حملتـه على السواحل العربية سنة ١٥٠٧م–٩١٣هـ ما يزيـد عن مائـة وخمسين سفينـة من السفن التجاريـة الإسلاميـة . (٥)

١) الفتح العثماني للاقطار العربية . نيكولاي إيفانوف . ص ١٢٦
(٢) انظـر Whileway,R.S. op, cit,p, 47.
(٣) Welson, A, op, cit,p,124 (٤) Miles, op, cit, pp, 116-F
(٥) انظر لمزيد من التفصيل Sousa, , op , cit, vol,1 pp,125-FF.

وأخيرا لا بد من القول إن أعمال القرصنة هذه كانت تحقق للبرتغاليين هدفين كبيرين : أولهما أنها تمهد السبيل إلى حد كبير أمام مجريات إحداث استراتيجية الاحتكار التجارى التى كان البرتغاليون يسعون إليها ، وثانيهما أن هذه الأعمال كانت توفر الثراء لأولئك القادة الذين وجدوا فى القرصنة طريقاً سهلاً لكسب المال . ومهما يكن شأن هذه القرصنة فمما لا شك فيه أنها كانت تخدم الهدف البرتغالى العام وتتمشى مع السياسة البرتغالية العليا .

ويتصل بهذا الأمر قيام البرتغاليين بمنع السفن الأسلامية ،حتى فى الأوقات السلمية التى تميزت ببعض المرونة ،من ممارسة التجارة إلاّ بإذن مسبق وتحت الإشراف البرتغالى الكامل [١] ، ولذا ضرب البرتغاليون على تلك السفن رقابة شديدة ، وكان عدم حصول إحداها على تصريح مسبق من أحد الحصون البرتغالية [٢] يعرضها إلى إجراءات صارمة تصل إلى حد المصادرة . وبذلك كتب البرتغاليون السطر الأول من سيادتهم البحرية والتجارية [٣] على مياه المحيط الهندى .

ولضمان تحقيق الاحتكار التجارى اتبعت البرتغال سياسة قادرة على المنافسة إلى حدّ كبير،فمن جهة عملت على الحصول على التوابل والبضائع الشرقية بأرخص الأسعار، حتى لو كان ذلك بالقوة [٤] ،ومن جهة أخرى حرص البرتغاليون على أن يتم بيع السلع التى يجلبونها بأسعار رخيصة قادرة على المنافسة لكسب الأسواق الأوربية لصالحهم [٥] ، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أسعار التوابل إلى أقل من النصف، إذ أصبح سعر قنطار التوابل الذى كان يباع فى الاسكندرية بنحو ثامنين بندقياً ، أصبح سعره يتراوح فى أسواق لشبونة ما بين عشرين وأربعين بندقياً [٦] لا غير . وقد اتبعت لشبونة سياسة الإغراق فغمرت أسواق أوربا بالسلع والمنتجات الشرقية بأسعار رخيصة إلى حدّ كبير عن نظيرتها القادمة عبر البحر الأحمر [٧] . ومما لا شك فيه أن هذه

---

١) الخليج العربي . قدري قلعجي . ص ٢٦٥ . (٢) المشيخات المتصالحة . د ونالد هولي ص ٧٨

٣) استعمار أفريقيا ، جمال زكريا قاسم . د . ص ٦٨

٤) بنو رسول وبنو طاهر محمد عبد العال . د . ص ٤٨٢ .

٥) استعمار أفريقيا . جمال قاسم . د . ص ٦٨

٦) البندقية . شارل ديل . ص ١٤٦ . مصر في عصر المماليك . إبراهيم طرخان ص ٢٩٣
وتاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٦٩

٧) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص ١١٨

وما لاشك فيه أن هذه السياسة لم تنجح فى منافسة النشاط التجارى البندقى فحسب ولكنها نجحت أيضا فى القضاء على الاحتكار البندقى (١) بل على النشاط البندقى نفسه وإلى حد كبير .

ومايذكر أن البرتغال لم تكتف بنقل البضائع الشرقية إلى أسواق لشبونة فقط ، ولكنها حرصت على أن توصل تلك السلع إلى المستهلك الأوربى فى مكان إقامته مباشرة (٢) ، وهكذا راحت السفن البرتغالية تحمل التوابل إلى انجلترا والأراضى المنخفضة حيث أفادت سوق أنفرس من تجارتها تقدماً وازدهاراً كبيراً (٣) ، إذ كان يلتقى على شواطئها التجار الإيطاليون من جنوه وفلورنسا وميلان والبندقية والفرنسيون من بيكارديا ونانديا ، وكذلك تجار الصوف والجوخ الانجليز والألمان وغيرهم (٤) .

وليس من شك فى أن البرتغاليين استغلوا علاقاتهم الخاصة التى أقاموها مع بعض الجهات كالحبشة ومالندى وبعض ملوك الهند وغيرهم (٥) فى تحقيق هدفهم الكبير القائم على الاحتكار الكامل لتجارة الشرق .

ويمكن القول إن البرتغاليين قد حققوا من وراء سياستهم الاحتكارية تلك عدداً من المكاسب ، ومن ذلك أن حكومة البرتغال ظلت فترة طويلة تجنى أرباحاً طائلة من جرّاء احتكارها لمنتجات الشرق وبضائعه (٦) . ولتقدير كمية الربح الذى كانت تُدِرّه تجارة الشرق على البرتغال يكفى أن تعلم أن ما كان يرسله التجار والموظفون الرسميون فى غرب أفريقيا ، مع أنها كانت تحتل مكانة ثانوية للغاية فى حركة الخط التجارى الطويل ، فى كل سنة نحو مائة ألف جنيه استرلينى أو مايعادل أربعمائة ألف دولار بعملة ذلك الوقت (٧) ، وأن نسبة الربح فى حمولة البضائع الشرقية قد وصلت إلى نحو خمسة أضعاف

١) بنو رسول وبنو طاهر . محمد عبد العال . د . ص ٤٨٢
٢) مصر في عصر المماليك . إبراهيم طرخان . ص ٢٩٢
٣) البندقية . شارل ديل . ص ١٤٩
٤) تاريخ التجارة . جورج لوفران ص ٧٦
(٥) سيأتى تفصيل ذلك فى مبحث مستقل
٦) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٣٥
٧) تاريخ غرب أفريقيا . فيج . جي . دى . ص ١٢٥

تكلفتها [١] .

وكذلك استطاعت البرتغال أن توسع من تجارتها سواء فى أوربا بدولها المختلفة أم فى شرق أفريقيا والمحيط الهندى وجنوب شرق آسيا ، حيث بلغ البرتغاليون الصين واليابان وأقاموا فى نجازاكى سنة ١٥٤٢م - ٩٥٠ هـ وماكاو سنة ١٥٥٧م - ٩٦٥ هـ وهو ما مهد السبيل لنشوء تجارة جديدة بين الهند والصين جلب البرتغاليون فيها الأفاوية ليستبدلوها بالحرير والماس والأحجار الكريمة . وكذلك أخذت ملقا وأمبوان وملوك تضاعف من كميات التوابل المتجة لتغطية الحاجة البرتغالية التى نتجت عن زيادة الاستهلاك فى السوق الأوربية . [٢]

وإذا كانت المقولة التى تؤكد أن من يملك زمام الاقتصاد ، يملك زمام السياسة أيضا ، إذا كانت هذه المقولة صحيحة ، فإنه يمكننا أن نتصور إلى أى مدى وصلت البرتغال فى سلم السيادة لا فى الشرق فحسب بل بين شقيقاتها الأوربيات أيضا ، خاصة وأن نجاح البرتغال كان يرضى الكنيسة ويلمس شغاف قلب البابا من جهة ، ويخفف وطأة الفشل الصليبى فى الشرق العربى على الدول الأوربية التى طالما عانت منه من جهة ثانية ، ويرفع من معنويات الرجل الأوربى الذى أحس بعجز دوله أمام قوة الدولة العثمانية التى تعاظمت على حساب دوله منذ أمد ليس بقصير .

ولا شك أن نجاح البرتغاليين فى السيطرة على حركة التجارة الدولية ، ولو بشكل نسبى ، قد أدى إلى إضعاف الكفاءة الاقتصادية للدول الإسلامية فى الشرق وفى شمال أفريقيا على حد سواء ، وأدى إلى تحويلها من موقع القوة إلى موقع الضعف ، ومن الرغبة فى السيادة إلى مجرد الرغبة فى الدفاع عن الذات . وبناء على ذلك انتقل ميدان الصراع العسكرى ، ومعه صراع التوازن الدولى من قلب أوربا إلى أقاصى أطراف البلاد الإسلامية من جهتي الشرق والجنوب الشرقى .

(١) البندقية جمهورية ارستقراطية . شارل ديل . ص ١٤٦

(٢) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٦٩

* * *

ولعل من الضروري ، قبل اختتام هذا الفصل أن يتبين القارئ أثر احتكار البرتغاليين للتجارة الدولية في أوائل القرن السادس عشر ، على كل من البلاد الإسلامية والبندقية ، ولعل التعرض لهذه القضية يلقي الضوء أيضا على مدى نجاح البرتغاليين في سياستهم الاحتكارية .

كانت دولة المماليك أكثر ممالك الشرق تأثراً من سياسة البرتغاليين الاحتكارية وذلك لأنها كانت تعتمد في اقتصادها وإلى حد بعيد على أسطولها التجاري ومشاركتها في تجارة الترانزيت بين الشرق والغرب ، بينما كانت الدول الإسلامية الأخرى تعتمد على حركة التجارة الداخلية والعمليات الثانوية في حركة التجارة ، كالتخزين وتجهيز السفن وبعضها يشارك في الإنتاج كممالك الهند الإسلامية وهذه أقل تأثراً بطبيعة الحال لأنها اضطرت في نهاية المطاف إلى تسوية أوضاعها والتعاون مع البرتغاليين ببيع منتجاتها إليهم ، وبأسعار لا تؤثر على اقتصادها بشكل سلبي واضح .

بيد وأن دولة المماليك قد تأثرت بالاحتكار البرتغالي منذ البدء ، إذ بلغ نقص كميات التوابل المعروضة في أسواق ومتاجر الاسكندرية سنة ١٥٠٢م ـ ٩٠٨هـ أن سفينتين فقط ، من أصل خمس سفن بندقية ، استطاعتا الحصول على حمولتهما بمشقة بالغة بينما عادت بقية السفن خالية الوفاض[(١)] . ولا شك أن قلة واردات مصر من التوابل أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيراً[(٢)] وأضعف من قدرتها على المنافسة وقلل من الطلب عليها ، وحرم دولة المماليك من الارباح التي كانت تحصل عليها من مشاركتها في تجارة الشرق الأقصى[(٣)] : وانتهى الأمر بأن أصيبت الموانئ المملوكية ، كالسويس والاسكندرية وطرابلس في الصميم ، وأخذت دولة المماليك تعاني من أزمة في السيولة المادية وقلة في الموارد ، إلى غير ذلك من المشاكل الاقتصادية التي أضعفت قدرتها ، حتى على المواجهة القاطعة[(٤)] ، وقد أعطى ابن إياس صورة موجزة بالغة التعبير عن حالة

---

(١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٥١ - ١٥٢

(٢) المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٣) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . ص ١٨١ . وموجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص ٩٨

(٤) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . ص ٨٢

التدهور الاقتصادى التى وصلت إليها دولة المماليك سنة ١٥١٤م - ٩٢٠هـ فقال وكانت الاسكندرية " فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القابض، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال (وذلك بسبب نقص المعروض من المنتجات والبضائع) فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر (ميناء الاسكندرية) فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب حتى قيل طلب الخبز فلم يوجد بها ، ولا الأكل. ووجد بعض دكاكين مفتوحة والبقية لم تفتح "(١) . وكذلك قال فى موضع آخر عن الحالة الاقتصادية للدولة المملوكية فى نفس الفترة : " وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة ، وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فإن بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع (السفن) فى السنة الخالية ، وبندر جده خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جده نحواً من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط ...."(٢) . ويلاحظ أن الاحتكار البرتغالى أثّر على اقتصاد دولة المماليك بشكل غير مباشر ، وذلك حين توقفت قوافل السفن التجارية الأوربية عن جلب البضائع الاوربية حتى " عز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج "(٣)

أما دولة بنى طاهر فى اليمن فلم تكن أقل تأثراً ، إذ أصبح مايدخل ميناء عدن من البضائع لا يكاد يكفى بسد متطلبات الاستهلاك الداخلى ، وانخفضت - بذلك - الإيرادات المالية ، وقلت حصيلة الضرائب ورسوم الجمارك . وقد دفع هذا الأمر أمير بنى طاهر على عدن إلى أساليب ، عدت غير مشروعة ، ومنها السيطرة على خراج لحج ، والاستيلاء على نصف متحصلات الأوقاف الإسلامية (٤) ، وذلك للتغلب على مشاكله الاقتصادية الناجمة عن احتكار البرتغاليين (٥) لحركة التجارة الدولية ومحاصرتهم الفعلية لميناء عدن ومداخل البحر الأحمر، فضلا عن باقى الموانئ الإسلامية الشرقية الأخرى .

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ . ص ٤٢٤

(٢) المرجع السابق جـ٤ ص ٣٥٩ . (٣) المرجع السابق جـ٥ ص ٨٣ .

(٤) قلادة النحر . بامخرمة . جـ٣ ورقة ١٢١٠ . وغاية الأماني . الصنعاني . ص ٦٣١

(٥) بنورسول وبنوطاهر . محمد عبدالعال . د . ص ٤٩٠

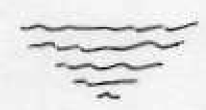
المسيحى (١) ، وكانت تحاول الاتصال بسفراء الهند فى لشبونة للتأثير عليهم (٢) ، ولكنها لم تفلح فى ادعاءاتها (٣) ومحاولاتها ولم تحقق نجاحا يذكر (٤) . ومما يؤكد مدى اهتمام البندقية بالتطورات الجديدة أنها شكلت سنة ١٥٠١م-٨٠٧هـ فى البندقية لجنة خاصة عرفت بلجنة التوابل كانت مهمتها الاشتراك مع مجلس العشرة لدراسة الموضوع التجارى واقتراح سبل العلاج المناسبة.كما انشأت خمس مناصب لخبراء لتولى مهمة إدارة السياسة الاقتصادية للمدينة (٥) . ومن الجدير بالملاحظة أن البرتغال حاولت التأثير على البندقية وحاولت ضمها تحت لوائها الاحتكارى ، ولكن البندقية التى تعودت على الربح الوفير طويلا لم تقبل بذلك الدور الثانوى .

بقى القول بأن العثمانيين بعد احتلالهم لمصر وامتداد نفوذهم فى بعض نواحى الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، لم يقبلوا باستمرار البرتغاليين لاحتكار التجارة ولذا حرص السلطان سليم على إنعاش حركة التجارة التى كان يرد إلى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية ، ومن المناطق المطلة على البحر الأحمر والخليج العربى الداخلية أى من النواحى الواقعة شرقى مصر وجنوبها وغربها ، والتى كان من دواعى استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز حيث كان الحجاج يحضرون كثيراً من المتاجر الشرقية لتغطية تكاليف الرحلة ، وممارسة النشاط التجارى . وقد أراد السلطان سليم تسويق ما يصل إلى مصر عن طريق البنادقة ، فعقد معهم معاهدة تجارية لهذا الغرض (٦) . ومما يذكر أن العرب استمروا كالعادة فى نقل البضائع عبر البحر الأحمر بعد فترة انقطاع قصيرة ، وأخذوا يواصلون نقل كميات كبيرة من التوابل فيما بين ديو وجدة ، مما أقلق البرتغاليين إلى حدٍّ كبير ، وساعد العرب على ذلك أنهم اكتشفوا نقطة الضعف فى السفن التجارية البرتغالية ، فاستعاضوا عن سفن الشحن الكبيرة بالقوارب الصغيرة الخفيفة التى تستطيع المرور فى المياه قليلة العمق وبين الشعاب الصخرية والقريبة من الشاطئ ، والتى تحاذر السفن البرتغالية الكبيرة ، غير القادرة على المناورة من الوصول إليها أو المرور عبرها (٧) . غير أن البرتغاليين أنشأوا فيما بعد ، كما سبقت

---

(١) البندقية . شارل ديل . ص١٤٧ ، Lane,pooleas, medieval India, pp,163-180.
(٢) Lane, poole, s ,op,cit. pp 163- FF.
(٣) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص٦٩ . (٤) Miles, op,cit pp,143-F
(٥) البندقية جمهورية ارستقراطية . ص ١٤٨ (٦) أثر تحول التجارة . ص٧٢ ، ٧٣
(٧) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٢٧

الإشارة ،أساطيل من السفن الصغيرة لمواجهة التحدى الجديد . ومهما يكن من أمر فإن مايمكن قوله أن الصراع على تجارة الشرق قد استمر سجالاً ، وقد عجز البرتغاليون منذ وقت مبكر من القرن السادس عشر عن الاحتفاظ بالاحتكار التام للتجارة ،فقد شهد عام ١٥١٩م-٩٢٥هـ أول بوادر كسر الاحتكار التجارى البرتغالى ،حيث وصلت السفن الإسلامية محملة ببضائع الهند إلى عدن والبحر الأحمر ، مما أدى إلى انخفاض الأسعار حيث بلغ سعر الزبدى ستة دنانير (١) ، وهكذا يمكن القول إن العالم الإسلامى فى آسيا قد ظل بقوافله البرية ومراكبه البحرية يشكل قوة تقاوم الاحتكار البرتغالى رغم ماحققه من نجاح كبير.



---

(١) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٢٦

الفصل الرابع

سياسة البرتغاليين في إدارة مستعمراتهم وبسط سيادتهم على السواحل الإسلامية الشرقية

تمكن البرتغالون في نحو سبع سنوات من الحملات المنظمة، لعوامل وظروف تم بسطها في غير هذا الموضع، تمكنوا من تثبيت أقدامهم في مياه المحيط الهندي، وكان تعيين نائب للملك البرتغالي في تلك المياه سنه ١٥٠٤م - ٩١٠ هـ تتويجاً لتلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الاستعمار البرتغالي في المياه الإسلامية الشرقية. وليس من شك في أن تعيين نائب للملك البرتغالي في المياه الشرقية، إنما يعني أنّ البرتغاليين قد رسموا استراتيجية محدّدة وثابتة ستقوم عليهما سياستهم الاستعمارية فيما بعد. ولعل من المفيد - هنا - أن نحاول الاقتراب من السياسة البرتغالية لنتفهم دوافعها، التى كَمَنَت وراء تعيين نائب للملك في المحيط الهندي.

ويبدو للباحث أن هناك عدداً محدداً من العوامل التي وقفت وراء ذلك التوجّه، فمن ناحية إن من المؤكد أنّ البرتغاليين كانوا يخططون للتوسع الساحلي والإقليمي، لبسط مزيد من النفوذ والسيادة، وهو الأمر الذى يتطلب مزيداً من العمليات الحربية، ولوناً من الإشراف المباشر، أو قل - بعبارة أخرى - يتطلب وجود غرفة للعمليات تواصل السهر والمتابعة لاتخاذ القرارات المناسبة في وقتها دون تأخير، وهكذا كان لابد من وجود سلطة ذات صلاحيات إقليمية واسعة. وقد عَضَّدَ هذا الاتجاه بُعْدُ المسافة بين البلد الأم البرتغال، وبين مستعمراتها في المياه الشرقية، حيث كانت رحلة الذهاب والعودة تستغرق أكثر من سنة ونصف، لأنها كانت تعتمد في حركتها على الرياح الموسمية التى لا يستمر هبوبها على وتيرة واحدة. ولا شك أن ذلك يعرقل اتخاذ القرار، ويشكل نقطة ضعف لابد من تداركها بتعيين

نائب للملك • وكذلك فإن فرض سياسة استعمارية و احتكارية على منطقة و اسعة كالمحيط الهندي تعتبر مهمة صعبة على دولة ذات إمكانات محدودة كالبرتغال(١)
ولذلك كان لابد لسياسة البرتغاليين أن تتحرك وفق معطياتها الذاتية الخاصة، ولما كان كل مستعمر إنما يسعى لامتصاص واستغلال مناطق نفوذه على الوجه الأكمل ، فإن البرتغاليين — وقد وضعوا نظام حكم مستعمراتهم على أساس تحقيق أهداف محددة هي استغلال المستعمرات على أحسن وجه ممكن ، ومقاومة أي حركة تمرد يمكن أن تحدث (٢) — كانوا معنيين إلى حد كبير ، بتنظيم أساليب نفوذهم وعمليات بسط سيادتهم ، وهو الأمر الذي حتم ابتداع منصب نائب الملك في المياه الشرقية •

وكان تعيين نائب للملك البرتغالي في المحيط الهندي يعني ، أول ما يعني ، بداية التنظيم الحقيقي للاستعمار البرتغالي ومستعمراته في الشرق وهو الأمر الذي يعكس مدى اهتمام حكومة البرتغال بتنفيذ سياساتها في الشرق وخاصة بعد أن تأكد لها بما لا يدع مجالاً للشك كمية الفوائد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي يمكن لها أن تجنيها •

ولكن لماذا اختار البرتغاليون سواحل الهند الغربية لتكون مقراً لقيادتهم ومكاناً دائماً لإقامة نائب الملك ؟ يخيل للباحث أن ذلك يرجع إلى عدة أسباب ، ومن ذلك أن تلك المنطقة كانت المركز الرئيسي للتوابل وسائر متاجر الشرق ، يلتقي فيها تجار الصين و الشرق الأقصى ، والهند والفرس والعرب والأفارقة وغيرهم ، ولا شك أن ذلك يتطلب وجوداً برتغاليا قوياً لكي يتمكن البرتغاليون من بسط سيادتهم وتنفيذ سياساتهم الاحتكارية • ولاشك أن تبني البرتغاليين لسياسة تبشيرية

---

(١) القواسم . عبد القوى فهمي محمد . ص ١٠

(٢) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٩٧

يخفون وراءها كثيراً من أطماعهم الأخرى دفعهم إلى الاستقرار ، وإقامة مؤسساتهم الأساسية ، في منطقة قريبة من معاقل الوثنية في الهند ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون تمام العلم أن جهودهم التبشيرية في بلاد المسلمين لن تجدي نفعاً مهما طال أمدها وتضافرت قواها . وليس آخر هذه الدوافع أن تلك المنطقة تقع في منتصف الطريق بين مناطق الشرق الأقصى وبين البلاد العربية ذات الإشراف المباشر والرئيسي على خطي التجارة الرئيسيين في ذلك الوقت ، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع البرتغاليين لأن يفكروا أول ما يفكروا في اتخاذ كاليكوت مقراً رئيسا لهم [1] ، وهي تشرف بشكل مباشر على الخط التجاري المتجه للخليج العربي ، فضلا عن كونها مركزاً لتجار المسلمين وأنهم عندما عجزوا عن ذلك استقروا في كوتشين استقراراً موقتا ، حيث انتهزوا أول فرصة وانتقلوا إلى جوا القريبة من كاليكوت ، ليتسنى لهم مراقبة المسلمين ، لكونهم التهديد الحقيقي لسيادتهم البحرية ، عن قرب . وكان لبعد هذه المنطقة عن مركز الدولة المملوكية في القاهرة ، وهي المعنيّ الأول بتغيير حركة التجارة ، دورٌ في اختيارها كمقر لقيادتهم ، حيث أنّ ذلك سيضمن لهم معرفة التحركات المملوكية قبل وصول خطرها بوقت مناسب ، وسيسهل سبل مقاومتها والقضاء عليها بسبب بعدها عن مراكز الإمداد والتموين ، فضلاً عن كون المماليك لا يملكون الأساطيل الحربية القوية القادرة على ركوب أعالي البحار . ومن ثم فإنهم سيحسبون ألف حساب قبل أن يغامروا بتوجيه قواتهم البحرية إلى منطقة كسواحل الهند الغربية ، وقد أكدت الأحداث صدق هذا الحدس ، إذ لم يقم المماليك بأكثر من محاولة جادّة واحدة ، جمدت بعدها جهودهم الفعالة مكتفين بالعمل لحماية مياه البحر الأحمر لا غير .

وقبل أن ندخل في تفاصيل السياسة البرتغالية وتنظيماتها في الشرق

لا بد من القول إن هدف هذا البحث أن يبين دور التنظيمات والسياسات البرتغالية في الشرق في إدارة حركة الصراع الإسلامي البرتغالي ومن ثم فإنه ليس من الضروري الخوض في التفاصيل الداخلية لتلك المؤسسات والتنظيمات السياسية إلا بالقدر الذي يخدم هذا الغرض، مكتفين بتناول تلك السياسات والتنظيمات في إطارها العام ، وبالقدر الذي يؤدي الهدف دون زيادة أو نقصان .(١)

لما كان الاستعمار البرتغالي يقوم في أهم جوانبه على احتكار النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، فقد انبنت مؤسساته على أساس تحقيق هذا الهدف ، وفي هذا الإطار يمكن أن نتصور سلطة الملك البرتغالي ، آنذاك، حيث كان المحور الذي تدور حوله السياسة البرتغالية في المستعمرات الشرقية باعتباره رأس السيادة وقمة الهرم الحكومي في لشبونه . لقد كانت الإدارة العامة، بشقيها السياسي والاقتصادي ، فضلا عن جوانبها الأخرى ، من احتكارات الملك الخاصة (٢)، ولذلك كان يتولى الملك مهمة اختيار نائبه في الهند ، ويقوم برسم الإطار العام لسياسته، وفي ظل هذه الظروف حضر جميع القادة البرتغاليون إلى الشرق - بما فيهم نواب الملك أنفسهم - ومعهم توجيهاتهم الخاصة الصادرة عن التاج البرتغالي (٣) .

وحرص الملك البرتغالي وكذلك - على احتكار سلطة إدارة الحركة التجارية (٤)، وتحت اشراف الملك نظمت الدولة البرتغالية حركة التجارة، حيث كانت كل صفقة تجارية أو حمولة تأتي بها الأساطيل أو القوافل التجارية إلى

---

(١) لمعرفة النظام الداخلي لحكم البرتغاليين لمستعمراتهم انظر تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها .شوقي الجمل ص١٩٦ - ٢٠٩ .
(٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٤
(٣) انظر علي سهيل الشال
(٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٤

لشبونه تعتبر من الخدمات العامة [١] ، ولما احتفظ الملك البرتغالي لنفسه بحق الاحتكار فقد اتخذ لنفسه لقب " سيد الملاحة والتجارة [٢] ، في شرق أفريقيا والبحر العربي وبلاد الفرس والهند • ومما يذكر أن الملك كان يوكل أمر الاحتكار إلى عملاء يعتمدون بدورهم على سماءه ، في مقابل رسوم أو نسبة مئوية تؤخذ على البضائع الواردة بنسبة تتراوح ما بين ٣٠ و ٦٠ ٪ [٣] ، يذهب معظمها لحساب الملك الخاص •

وتجدر الإشارة إلى أن السياسة البرتغالية التى رسمها الملك البرتغالي لنوابه ، منذ أن تأكد من نجاح البرتغال في بسط سيادتها البحرية على مياه المحيط الهندي ، تقوم على أساس السيادة البحرية والتفوق التجاري القائم على الاحتكار القهري ، ومن هنا كانت أوامر التاج البرتغالي تتمحور حول السعي لتحقيق أهداف سياسية هامة منها : الاستيلاء على عدن لتتمكن القوات البرتغالية من السيطرة على مدخل البحر الأحمر على الأقل [٤] وتعطيل حركة التجارة فيه ، وقد تعثر البرتغاليون دون تحقيق هذه المهمة ولم يحرزوا أي نجاح تام رغم جهودهم التى استمرت طوال فترة الصراع• ومنها كذلك ـ الاستيلاء على جزيرة هرمز ليتمكن البرتغاليون من بسط سيادتهم على الخليج العربي [٥]• واحتكار تجارته ، وقد نجح البرتغاليون إلى حد كبير في تحقيق ذلك منذ عام ١٥١٥م ـ ٩٢١ هـ ، وارتكزت السياسة البرتغالية من جهة ثالثة على السيطرة على جوا وديو وغيرهما مما أطلق عليها الجيوب البرتغالية ، وذلك لضمان السيطرة على ساحل الهند نفسه [٦] ، وقد حرص البرتغاليون على تزويد تلك الجيوب بمراكز تجارية

---

(١) تاريخ التجارة • جورج لوفران • ص ٦٩ ، ٧٠
(٢) المرجع السابق ٦٩
(٣) المرجع السابق ، ص ٧٠
(٤) الدولة العثمانية والشرق العربي • محمد أنيس • د • ص ١٢١
(٥) والتهديد البرتغالي • بشير كاظم • ص ١٠٨
(٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

مسلحة [١] ، وقواعد عسكرية رئيسية تشكل مرتكزا أساسيا للأساطيل البرتغالية في تحركاتها [٢] شرقاً وغرباً ، وأخيراً كانت السيطرة على المراكز التجارية الهامة في شرق أفريقيا [٣] مرتكزاً أساسياً رابعاً حافظ البرتغاليون على تعزيزه طوال فترة صراعهم مع المسلمين في الشرق. وسوف تتناول الصفحات التالية السياسة البرتغالية وتنظيماتها في تلك النواحي بشيء من التفصيل .

لما كانت أهداف البرتغاليين ثابتة طوال فترة غزوهم للسواحل الإسلامية الشرقية ، فإن من المتصور أن يكون أول نواب للملك البرتغالي في مياه المحيط الهندي ، هم المنفذين الحقيقيين للسياسة البرتغالية وتنظيماتها في الشرق بل لعل الباحث على قدر من الصواب إذا زعم أن البوكيرك وحده ، وهو ثاني نواب الملك في المحيط الهندي ، كان المسؤول عن رسم وتنفيذ كثير من السياسات البرتغالية . لقد قامت سياسة فرانسسكو دالميدا الذي تولى منصب أول نائب للملك في الهند سنة ١٥٠٤م - ٩١٠ هـ ، على أساس ممارسة العمل الدبلوماسي الإيجابي ، مع التوقف عن التوسع في الفتح وإقامة المستعمرات [٤] ، وذلك لسببين ، أولهما أن حصول البرتغال على السيادة البحرية [٥] بالقضاء على القوة المملوكية ، في البحر الأحمر ومنع التهديد العثماني من الوصول للخليج العربي ، كفيل بتحقيق الأهداف البرتغالية قاطبة ، أما السبب الثاني فهو أنه كان يرى أن التوسع في إقامة المستعمرات والأملاك البرتغالية بأكثر مما تتطلبه طاقتها التجارية يعتبر نذيراً بضعف الدولة البرتغالية نفسها [٦] . ومن هنا ركز دالميدا في سياسته على أمرين : أولهما ، العمل على استبعاد التجار المسلمين عن الساحة التجارية في المحيط الهندي ، وثانيهما - وهو الأهم هنا - أنه عمل على إنشاء وتعزيز المراكز التجارية البرتغالية في مياه

---

(١) التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر . بشير كاظم . ص ١٠٨

(٢) المرجع السابق ص١٠٨

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٤) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٦) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د.ص ٧٦
وافريقيا الشرقية . السيد رجب حراز . د.ص ١٥

المحيط الهندى (١) ، هذه المراكز التى ستلعب دوراً مهماً فى تشكيل السياسة البرتغالية وتنظيماتها فى الشرق . ومما يذكر أن دا الميدا أدار السياسة البرتغالية فى الشرق من مدينة كوتشن على الساحل الغربى للهند ، وأن البوكيرك كان الرجل السياسى الأول ، والرجل العسكرى الأول أيضاً ، طول فترة حكمه .

ولما كانت سياسة البوكيرك أكثر طموحاً ، منذ عمل على تحصين كوتشن سنة ١٥٠٣ - ٩٠٩ هـ ، كما قام ببناء أول قلعة برتغالية فيها . حيث تم تزويدها بحامية عسكرية (٢) ، وكان ذلك تمهيداً لأن تصبح مقراً لدالميدا أول نواب ملك البرتغال فى الهند ، كذلك فتح البوكيرك مركزاً تجارياً فى كويلون قبل أن يعود إلى لشبونه سنة ١٥٠٤ م (٣) ٩١٠ هـ ويعرض أمام الملك سياساته الطموحة .

كان هدف البوكيرك عندما تولى منصب نائب الملك فى المحيط الهندى سنة ١٥٠٩ م - ٩١٥ هـ ، بل قبل أن يتولى ذلك المنصب ، أن يقيم امبراطورية برتغالية فى الشرق ، ومن هنا عمل على إقامة التحصنات والقلاع العسكرية فى كل مكان وجد للبرتغاليين فيه مركز تجارى ، وذلك لضمان احتكار البرتغاليين لحركة التجارة من جهة ، ولتدعيم النفوذ البرتغالى فى المياه الشرقية ، وإخضاع سواحلها ، شعباً وحكاماً ، للسيطرة البرتغالية ، وإرغامهم على الاعتراف بالسيادة البرتغالية (٤) ، وحرصاً من البوكيرك على ضمان التفوق البحرى فى امبراطوريته المائية عمل على السيطرة على المراكز التجارية من جهة وعلى منافذ التجارة من جهة ثانية . ومن هنا كانت مرتكزاته الحربية تقوم على السيطرة على ديو وجوا فى الهند ، وعلى هرمز فى مدخل الخليج العربى ، وعلى عدن فى مدخل البحر الأحمر (٥) .

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٤

(٢) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٢٩

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٤

(٥) المرجع السابق . ص ٧٤ . وصراع القوى . محمد عدنان مراد . ص ١٣٠ ، ١٣١ ، وقد سبق تحليل ذلك فى مبحث الحمر .

ولتنفيذ هذه السياسة خطط البوكيرك إلى نقل مقر إقامته إلى كاليكوت ولكنه فشل ، فعمل على احتلال جوا بدلاً منها ، وقد تحقق له ذلك سنة ١٥١٠م — ٩١٦هـ ، حيث أصبحت منذ ذلك الحين المركز الرئيسي للنشاط البرتغالي الاستعماري في الشرق[١] ، وذلك لما تتمتع به من موقع استراتيجي هام من الوجهين العسكرية والاقتصادية ، فهي من جهة تشرف على سواحل ملبار ، وتطل على بحر العرب في ذات الوقت[٢] ، وتتحكم في حركة التجارة وفي كثير من المنتجات الشرقية من جهة ثانية .

وهكذا حكم البوكيرك من جوا بشكل مباشر المستعمرات البرتغالية في سواحل المحيط الهندي ، وأشرف على تنفيذ السياسة البرتغالية وبسط سيادتها بدءاً من المناطق الواقعة إلى الشرق من مضيق ملقا وحتى أقاصي جنوب السواحل الشرقية لأفريقيا . وهكذا — أيضا — أصبحت جوا ، بالإضافة إلى كونها مقراً لنائب الملك وحاميته ، وأركان حربه ، أصبحت مقراً دائماً لعدد من القطع البرتغالية الحربية بالإضافة إلى كونها الملجأ الذي تأوي إليه الأساطيل البرتغالية[٣] بعد كل عملية حربية . ومن هنا كانت جوا مركزاً للعمل الحربي البرتغالي يتم فيها التخطيط للعمليات الحربية ، وتجهز فيها الأساطيل وتخرج منها الإمدادات الحربية العاجلة في الملمات ، ومنها تخرج الأساطيل المكلفة بأعمال الدورية : إلى غير ذلك من المهام العسكرية . ولكي يضمن البوكيرك سيطرته على حركة التجارة ، وعدم إضاعة نصيبه منها ، وحرصا منه على حمايتها في ذات الوقت ، خطط إلى أن يجعل من جوا — بالإضافة إلى دورها العسكري — المركز التجاري الرئيسي للبرتغاليين في المحيط الهندي[٤] ، ولتحقيق هذه الأهداف

---

(١) Serjeant ,op , cit, p.P, 110 - 111

(٢) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٠

(٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٢٣

(٤) المرجع السابق ص ١٣١ .

جميعاً عمل البوكيرك على إعداد جو إعداداً خاصاً ، فأخذ يعمل على تكوين شعب خاص بالمدينة عن طريق التزاوج بين جنوده ورجال حكمه وبين نساء ضحاياه ، وعمل كذلك – على جلب كثير من البرتغاليين للاستقرار والسكنى (١) هناك .

وخلف لوبو سواريز البوكيرك في منصب نائب الملك سنة ١٥١٥م ، ٩٢١هـ فتابع سياسة البوكيرك ، وعزز التوجه إلى إقامة علاقات مع كثير من الأمراء المحليين وخاصة في الهند (٢) ، وبعد لوبو سواريز تولى منصب نائب الملك في الهند كل من دوم دورت دي فنريس سنه ودوم دي فاسكو دي جاما سنة ١٥٢٤م – ٩٣٠هـ ودوم لوبو غاز سنة ونونو داكنها سنة ١٥٢٨م – ٩٣٤هـ ... إلخ .

وقد حرص معظم هؤلاء على ترسّم خطى البوكيرك ، وتعزيز توجهاته ، ولكن بنسب متفاوتة من النشاط والتوفيق .

وكانت الحصون البرتغالية في السواحل العربية تخضع بشكل مباشر لسلطة نائب الملك في الهند ، ولكن سلطة الإشراف التنفيذي على هذه الحصون ظلت طوال فترة الاستعمار البرتغالي تقريباً ، تسند إلى الحاكم البرتغالي في هرمز والذي كان يتلقى الأوامر من نائب الملك مباشرة ، ويتولى تنفيذها على المناطق العربية الخاضعة للنفوذ البرتغالي .

أما في شرق أفريقيا ، فقد اتجه البرتغاليون أولا إلى جعله إقليما مستقلا عن الهند ، فمنذ أن استقرت أقدامهم فيه ، بعد مرحلة الغزو الأولى عملوا على

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٣٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

تعيين نائب للملك ليتولى ادارة الممتلكات البرتغالية على طول سواحل شرق أفريقيا .
وفى سنة ١٥٠٩ م – ٩١٥ هـ تم تعيين أول نائب للملك فى تلك السواحل [١] ، واستمر
الوضع كذلك فترة وجيزة ، مات بعدها ذلك النائب . بيد وأن السياسة البرتغالية
تجاه شرق أفريقيا قد تغيرت فى تلك الفترة ، فلم يتم تعيين نائب آخر ، ولعلهم
رأوا ألاّ حاجة لهذا المنصب طالما أن تلك المناطق تحتل مركزاً ثانوياً فى استراتيجية
السياسة البرتغالية فى الشرق . وهكذا لجأ البرتغاليون إلى تعيين حكام برتغاليين
لحصونهم فى موزمبيق ومالندى وممباسا ، على أن يكونوا مسؤولين مباشرة
أمام نائب الملك فى جوا [٢] .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن البرتغاليين لم يحتفظوا لأنفسهم فى شرق
أفريقيا بوظائف عديدة ، ولم يحكموا حكماً مباشراً [٣] ، فى حين أن المؤكد
أن البرتغاليين حكموا الجزء الجنوبى من سواحل شرق أفريقيا مثل سوفالا
وموزمبيق وممباسا حكماً مباشراً يقوم على وجود الحصون والحاميات البرتغالية
التى تتولى مهمة الإشراف المباشر لتسيير دفة الأمور ، أما فى الشمال فكان
البرتغاليون يعتمدون على سيادتهم غير المباشرة ، ويحكمون بواسطة حكام
محليين يدفعون جزية سنوية ويعلنون الولاء لملك البرتغال ، وذلك مثل
حاكم مالندى ، وكانت الأساطيل البرتغالية تتردد على تلك النواحى بين الفينة
والأخرى لتأكيد النفوذ وجمع الجزيات المتفق عليها مع أولئك الحكام [٤] ، وأحياناً
اكتفى البرتغاليون بتعيين وكلاء لهم ، كما فعل حاكم ممباسا حين عيّن
وكلاء له فى الموانىء المجاورة مثل كلوة وبمبا وزنجبار [٥] ويمكن تفسير ذلك
الاتجاه بأمرين ، أولهما أن المناخ فى الجنوب أكثر اعتدالاً لبُعد المناطق الجنوبية عن

---

(١) Ingham; op, cit , P,9 و تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، ص١٧٨
(٢) ,P,9
(٣) الإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ص ٥٥
(٤) Serjeant, R,B,op,cit , P, 14 وانظر الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ، ص ٧١
(٥) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . ص ١٧٨

خط الاستواء نسبياً ، وثانيهما أن القسم الجنوبي أقرب إلى مصادر الذهب ، ولعل ذلك كان سبباً في توافد بعض التجار والأسر البرتغالية إلى القسم الجنوبي ، وكان ذلك نواة مستعمرة موزمبيق ، والتي اتخذت فيما بعد شكل الاستعمار الاستيطاني بخلاف بقية السواحل الشرقية التي كان استعمار البرتغاليين لها استعماراً سطحياً يعتمد على إقامة القواعد البحرية لحماية المصالح البرتغالية على امتداد السوحل . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الاستعمار البرتغالي يستمر في المناطق التي اتخذ منها شكل الاستيطان ، فترة طويلة بعد انهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق [1] .

ومهما يكن من أمر فقد احتلت سواحل شرق أفريقيا حيّزاً ضيقاً من اهتمام المشروعات البرتغالية ، وذلك باستثناء تجارة ذهب مملكة مونوماتابا والتي كان الاتصال بها يتم عن طريق سوفالا [2] . ولعل تركز اهتمام البرتغاليين فيما بعد بموزمبيق يرجع إلى ما كان يشاع عن ثرواتها من الذهب ، وما يتميز به ميناؤها من صلاحية لرسو السفن الكبيرة [3] . ويبدو أن حاكم موزمبيق قد تمتع بسلطات أوسع وذلك برغم تبعيته لنائب الملك في الهند ولعل ذلك راجع إلى تركز كل القوات البرتغالية تقريباً في مركزه بموزمبيق في حين لم يزد عدد البرتغاليين في المناطق الشمالية عن مائة مجند برتغالي [4] ، كانوا يمارسون دوراً مسانداً غير أساسي ، هذا ومن جهة أخرى فإن بعد المسافة بين موزمبيق والهند من جهة وبينها وبين لشبونة من الجهة الثانية ، حتم على حاكمها أن يتصرف بحريّة أكبر وفقاً لما تمليه عليه الظروف ، ولذا كان حصن سان سباستيان في موزمبيق والذي بنى سنة ١٥٥٠م - ٩٥٦هـ يتسع لأكثر من ألف مجند بالاضافة إلى الكنيسة والمستشفى اللذين زود بهما وكان على حاكمه أن يرفع تقريراً سنوياً إلى الملك [5] . وعلى أي حال فإن السياسة

---

(١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧١

(٢) تاريخ أفريقيا . جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٤

(٣) Ingham, op,cit, P , 9

(٤) Ibid , P , 9

(٥) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٤

البرتغالية فى شرق أفريقيا قد تميزت بثلاث ظواهر رئيسة هى الحرص على احتلال الساحل وعزله عن الداخل الذى كان يمده بسلعه التجارية التى كان يصدرها إلى موانىء الجزيرة العربية والخليج والهند والشرق الأقصى . وإثارة الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل ليسهل خضوع الجميع للسلطة البرتغالية ومنع الاتصال بين سكان شرق أفريقيا وعرب الخليج والجزيرة العربية (١) لضمان عدم التنسيق بين الطرفين فى عمل سياسى مشترك .

قامت السياسة البرتغالية فى الشرق على أساس التفوق البحرى ، باعتبار أن من يملك زمام البحر ، يملك زمام السيادة ، ويكون قادراً على السيطرة ، ولما كان الأمر كذلك ، فقد كان للأساطيل البرتغالية دور كبير فى تنفيذ هذه السياسة ، وقد اهتم بها البرتغاليون اهتماماً عظيماً ، لكونها تملك مفاتيح النصر ، فى حال تقدمها وتطورها ، وتشكل أهم أسباب الهزيمة إذا كانت غير ذلك . ويلاحظ أن البرتغاليين قد حرصوا على تزويد أساطيلهم بالسفن العملاقة القادرة على حمل مئات الأطنان من البضائع بالاضافة إلى مئات الجنود والعمال وعشرات المدافع الثقيلة ، ولذا يمكن القول إن البرتغاليين قد اعتمدوا فى تجهيز أساطيلهم على السفن الكبيرة القوية القادرة على الأسفار الطويلة ، وخوض أعالى البحار ، وقد حرصوا أن تكون تلك السفن فى البدء ذات مظاهر تجارية ، ولكنهم زودوها فى ذات الوقت بالمدفعية والمقاتلين ، وأعدوها لتكون قادرة على القتال والمناورة الحربية إذا لزم الأمر . وقد كانت هذه السفن تخدم الأهداف البرتغالية المبكرة ، منهم يريدون إثبات الجدوى الاقتصادية لحركتهم الاستعمارية ويريدون الحصول على مواطىء قدم أو مراكز تجارية وحربية رئيسة فى النقاط والمواقع الاستراتيجية المهمة ، وكل هذا يناسبه هذا النوع من السفن ، وقد تراوح عدد قطع الاسطول البرتغالي في الحملة الواحدة ، في المراحل المبكرة وحتى سنة ١٥٠٤ - ٩١٠هـ ، ما بين ثلاثة وسبعة قطع عملاقة في الغالب ، وكان على متنها نحو خمسمائة رجل ما بين جندى وعامل .

---

(١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٦٨ .

في المتوسط ، أما بعد سنة ١٥٠٤م – ٩١٠هـ ، فقد ازداد عدد قطع الأساطيل البرتغالية المتجهة إلى الشرق ، ويرجع ذلك إلى توسع البرتغاليين في خططهم ، وتوجههم إلى إقامة المراكز التجارية ، والحاميات الحربية ، والمستوطنات بالإضافة إلى توسع خططهم التجارية ، وتوجههم إلى إغراق الأسواق الأوربية ببضائع الشرق ، ومن هنا أصبح عدد قطع الأسطول لا يقل عن خمس عشرة سفينة ، وقد يزداد ليصل نحو ثلاثين سفينة أو أكثر من السفن الكبيرة وعلى سبيل المثال كانت إحدى الحملات البرتغالية سنة ١٥٠٥م – ٩١١هـ مكونة من عشرين سفينة [١] ، وسنة ١٥٠٦م – ٩١٢هـ أقبل الأسطول البرتغالي في اربع عشرة سفينة [٢] وكانت حملة البوكيرك سنة ١٥١٣م – ٩١٩هـ مكونة من عشرين سفينة ومدمرة [٣] ، وكانت حملته سنة ١٥١٥م – ٩٢١هـ مكونة من ست وعشرين سفينة [٤] . وكانت حملة سواريز سنة ١٥١٧م – ٩٢٣هـ مكونة من سبع وثلاثين سفينة [٥] .

ومما يذكر أن البرتغاليين قد طوروا أساطيلهم بدءاً من عام ١٥١٧م – ٩٢٣هـ تقريباً ، لمواجهة المستجدات الاقتصادية والسياسية ، حيث وجدوا أن تجار المسلمين بدأوا يعتمدون في حركتهم التجارية على القوارب الصغيرة التي تعتمد الخطوط الملاحية الساحلية وتسير في المياه الضحلة التي لا تستطيع السفن البرتغالية العملاقة السير فيها لمطاردة السفن التجارية الإسلامية ، ومن هنا ظهرت السفن البرتغالية الصغيرة المخصصة للإبحار في سواحل المحيط الهندي فقط وذلك لمهاجمة القرى الصغيرة والمدن الساحلية ، بالإضافة لمطاردة السفن التجارية الصغيرة [٦] . وكثيراً ما كانت تلك السفن الصغيرة تصاحب الأساطيل العملاقة ولكنها استخدمت فيما بعد بصورة مستقلة وأصبحت تعمل لحساب عمليات القرصنة ، وحتى الفردية منها .

---

(١) التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر . بشير محمود كاظم . ص ١٠٥
(٢) المرجع السابق . نفس الصفحة .
(٣) الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية . فالح حنظل . د . ص ١٣٢
(٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٦
(٥) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٢٧
(٦) المرجع السابق ص ١٢٦ .

ويلاحظ أن كل أسطول كانت تخصص فيه سفينة للقيادة يتولى منها قائد الحملة إدارة العمليات الحربية، وتنفيذ السياسات. أما باقي السفن فكانت تسند قيادة كل واحدة منها إلى أحد الضباط (١) الأكفاء ليتولى مسؤوليتها تحت إشراف القائد العام .

وكان عدد جنود الحملة الواحدة، بعد السنوات الأولى يتراوح بين ألف وخمسمائة وأربعة آلاف رجل .ومما يذكر أن البرتغال قد اعتمدت في تشكيل جنود أساطيلها على عدّة أسس سياسية وديمغرافية ، فمن ناحية كانت البرتغال دولة صغيرة العدد لا يتجاوز عدد سكانها بضعة ملايين ، ومن ناحية أخرى كان الملك البرتغالي يرغب في التخلص من بعض المعارضين والطامعين والمغامرين الذين يتسببون في عدم استقرار دولته، ومن جهة ثالثة كان يرغب في إخفاء الطابع الديني على حملاته ، وصبغها بالصبغة الصليبية لينال التأييد الأوربي ورضا الكنيسة وهكذا تفاعلت هذه العوامل فأثرت في تشكيل عناصر القوات البحرية البرتغالية المتجهة إلى الشرق من جهة، وفي مسلكيات تلك العناصر في الشرق من جهة ثانية . ومن هنا يمكن القول إن القوات البحرية البرتغالية قد تكونت أساساً من البرتغاليين المتعصبين، والمغامرين الأشداء وذي الأطماع الاقتصادية العريضة، بالإضافة إلى عدد من الخارجين على القانون والمجرمين (٢) ،فضلاً عن عددٍ غيرِ قليلٍ من البنادقة والجنوية والألمان (٣) وغيرهم من الأوربيين، سواء كانوا من المتطوعين الراغبين في القتال تحت راية الصليب، أم من الجنود المرتزقة الذين أغرتهم المرتبات الباهظة والامتيازات الكثيرة . وإذا علمنا أن البرتغال كانت متأخرة من الناحية البحرية عن المدن التجارية الأوربية الأخرى ، فإن من المؤكد أن جل العناصر غير البرتغالية التي جلبت من أوربا كانت من العناصر الفنية الماهرة ذات الخبرة الواسعة بالملاحة وبناء السفن وتجهيز الأساطيل . ومما يذكر أن البرتغاليين استعانوا بالعناصر الهندية غير الإسلامية وخاصة في حملاتهم التي كانت تقلع

---

(١) كانت وظيفة الضباط "الربابنة " تباع وتشترى. انظر :نظرة جديدة . ص ١٨٥

(٢) Davies, op. cit, pp72-F

(٣) التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر . بشير حمود كاظم .ص ١٠٥

من سواحل الهند ، وأنهم استخدموا بعض العناصر الأفريقية والعربية التى استغلت بالإكراه سواء بعد أسرها فى حملات سابقة ، أم تمت الاستعانة بخبرتها الملاحية والجغرافية بالتعاون مع بعض القادة المحليين المتآمرين الذين أبدوا رغبة فى التعامل مع البرتغاليين ، وقد حدث ذلك - على سبيل المثال - من حاكم مالندى [١] منذ الحملات الأولى ، ومن حاكم عدن الطاهرى الذى زود البرتغاليين بأربعة من الأدلاء رغماً عنهم [٢] سنة ١٥١٧م -٩٢٣هـ . ويلاحظ أن العناصر الإسلامية التى أسرت إنما استخدمت كعبيد لا كمقاتلين ، وأن العناصر الهندية قد بدأ تجنيدها بعد تمركز البرتغاليين فى جوا بصفة نهائية ، وحيث بدأت هذه العناصر ترافق الأساطيل بدءاً من عام ١٥١٢م [٣] - ٩١٩هـ .

وعلى سبيل المثال جهز أحد الاساطيل البرتغالية سنة ١٥٠٥م - ٩١١هـ بألف وخمسمائة من البرتغاليين والأوربيين فقط [٤] ، بينما كانت حملة البوكيرك سنة ١٥١٣م - ٩١٩هـ مكونة من ألف خمسمائة من البرتغاليين والأوربيين مضافاً إليهم ثمانمائة وخمسون هندياً من سواحل ملبار [٥] غير الإسلامية بالتأكيد وفى سنة ١٥١٥م -٩٢١هـ كان اسطول البوكيرك يضم ألف وخمسمائة برتغالى وأوربى وسبعمائة ملبارى [٦] . ومع الاستعانة بالعناصر الهندية ، ومع استقرار الجنود البرتغاليين فى المستعمرات البرتغالية فى الشرق ارتفع عدد قوات الأساطيل مع زيادة عدد قطعها ، حتى تجاوز خمسة آلاف مقاتل ، وذلك بدءاً من عام ١٥١٧م - ٩٢٣هـ حين كان أسطول لوبوسواريز ، الذى كان مقرراً له مهاجمة جدة ، مكوناً من سبع وثلاثين سفينة على متنها نحو

(١) وثائق تاريخية . جيان . ص ٢١٢
(٢) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١٢٠٥
(٣) تاريخ الخليج . ويلسون . ص ٧٣
(٤) دليل الخليج - القسم التاريخي . لوريمر . ص ٦
(٥) الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية . فالح حنظل . د . ص ١٣٢
(٦) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٦

خمسة آلاف وخمسمائة رجل (١).

وفي ظل المعطيات السابقة يمكن تفسير تمرد بعض القادة والجنود البرتغاليين الذين جاؤوا طمعاً في الثروة وكسب المال ، وساهم أن يقضوا معظم وقتهم ومجهودهم في عمليات حربية (٢) ذات صبغة سياسية بحتة أو لا ترجى منها فائدة اقتصادية آنية تعود على المشاركين في القتال بشكل مباشر. وفي ظل ماسبق أيضاً يمكن تفسير سياسة الحزم التي اتبعها القادة البرتغاليون مع جنودهم من جهة ولجوء كبار الضباط والقادة ، وحتى الجنود إلى عمليات القرصنة (٣) التي ما كانت تهدأ ، إلا لتمارس من جديد ، من جهة ثانية ، ورغبة الجنود في التربّص بالسفن الإسلامية ونهبها بدلا من الاشتغال في إقامة الحاميات الحربية (٤) من جهة ثالثة. وقد برز هذا التوجه منذ وقت مبكر ، في حملة فاسكو دي جاما نفسه (٥) ، ولكن نسبيا تفتقت غريزة النهب من جديد وأصبحت بلا ضابط يضبطها إلا سياسة الفوضى ، والإباحية القانونية التي حَوّلَتْ كلَّ سلبٍ يُسْلَب إلى غنيمة سائغة.

كانت الأساطيل البرتغالية ترفع أثناء حملاتها العلم البرتغالي وشارة الصليب لاصباغ الصبغة الدينية والقومية على عملياتهم الحربية في آن واحد. ومما يذكر أن مهام تلك الأساطيل لم يكن قاصراً على الحملات الحربية الكبيرة الموجهة ضد القوى أو المدن الإسلامية ذات النفوذ السياسي والتجاري ، ولكنها كانت تقوم – أيضا – بعدة مهام أخرى ، كسد المنافذ البحرية ، وتعقب السفن التجارية الإسلامية ، وتأديب أو قل إعادة إخضاع الثوار والمتمردين في مختلف بقاع السواحل الإسلامية ، كما استخدمت في مساعدة العناصر والقوى السياسية

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٢٧

(٢) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٦٩ ، ٧٠

(٣) سبق تحليل ذلك ، وانظر Whiteway,R.S,op .cit,P 47.

(٤) Sousa , op.cit,vol ,1, P 141

(٥) في طلب التوابل . سونيا هاو . ص ٣٠٣

الموالية لهم لاعانتهـا ضـد قـوى إسلاميـة أخـرى ، وفى مهام جمـع الضرائـب من الموانـى ، والمراكز التى تم إخضاعها للنفوذ البرتغالى . وكذلك فى عمليات المراقبـة الدوريـة ، وفى نقـل البضائع ، وعمليات الإمداد ، إلى غير ذلك . من أعمـال السـطو والقرصنـة .

وفيما يخـص تسليح القوات البرتغاليـة ، يذكـر أن البرتغاليين كانـوا يملكـون نظـاماً حربيـاً قوامـه الاعتماد على البارود والأسلحـة الناريـة التى تراوحت بين المدافـع الثقيلـة والخفيفـة وبين البنادق [١] والأسلحـة الخفيفـة ، وقـد كان البرتغاليـون يعتمـدون على سيـاسـة النيران الكثيفـة للتعويـض عن نقـص الجنـود من جهـة ولإرهاب السكان الوطنييـن من جهـة أخـرى ، ولتمريـر عمليات الإنزال البحرى من ناحيـة ثالثـة ، ولنشـر الدمار وتخريب المدن والسواحل الإسلاميـة من جهـة رابعـة . وقـد كان هذا النظام خير معين للبرتغاليين فـى عملياتهـم وحملاتهـم الحربيـة حيث أن معظـم القوى الإسلامية التى واجهـت البرتغاليين فى مطالـع القرن السادس عشر ، إذا استثنينا المماليك والطاهرييـن ، لم تكن تستخدم ذلك النظام الحربـى القائم على الأسلحة الناريـة ، بل لم تكـن تعرف سـلاح البنادق والمدافـع [٢] بعـد .

اعتمـد البرتغاليـون فى تنفيـذ سياستـهم الاستعماريـة فى السواحل الإسلاميـة الشرقية على سـلسلة من الحصون التى امتدت على طول السواحل بدءا من أقصـى جنـوب شرق أفريقيـا إلى أقاصى مناطق الشرق الأقصى ، وقد هدف البرتغاليـون من وراء إقامـة تلك الحصـون فى شـرق أفريقيـا أن توفـر الحمايـة ، ومهمّة الاتصـال بالمسيحيين المفترض أنهـم يسكـنون تلك النواحى ، ولتكون مراكز للتموين والإمـداد عند مواجهـة القـوى الإسلاميـة ، وللمساهمـة فى سـد منافـذ البحـر الأحمـر [٣] ، كما قصـد منها أن تكون محطات استراحة ، ومراكز لحماية المستوطنين والتجـار

---

(١) Serjeant , op, cit , p 42

(٢) Ibid, loc.cit.

(٣) Miles, op , cit , p ,141

وتسهيل مهمتهم اذا ما اراد وا الاتصال بقلب القارة للبيع والاتجار ، وأن تكون كذلك مؤسسات للإدارة الإقليمية يتولى قائدها مهمة تسيير الحركة التجارية ومهمة الاتصال بالمدن والمؤسسات السياسية الساحلية وتنظيم علاقاتهما بالبرتغاليين وجمع الضرائب منها وفرض الرسم الجمركية على تجارها وسفنها وبضائعها ، فضلاً عن قيامها بمهمة تدعيم النفوذ البرتغالى فى تلك المناطق واخضاع شعوبها وحكامها للسيطرة البرتغالية [١] ، إلى غير ذلك من الأعمال.
أما الحصون البرتغالية فى منطقتى البحر العربى والخليج العربى فكانت تهدف بالإضافة إلى نفس المهام الموكلة إليها فى شرق أفريقيا ، كانت تهدف إلى قطع الطريق على حركة التجارية الإسلامية التى كانت تسلك أو تحاول أن تسلك نفس الطرق القديمة عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ، وإلى الحصول على المواد الغذائية التى تجلب من الداخل ، والقيام بمهمة حماية السواحل وحماية أعالي البحار وفرض الرقابة الفعلية الدائمة [٢] عليها ، فلا يسمح لغير السفن البرتغالية بالسير فيها . أما فى المناطق الهندية وجنوب شرق آسيا ، فقد قصد منها تأمين احتكار التوابل ، ومراقبة الأسواق وحماية التجار البرتغاليين والأسر البرتغالية التى استوطنت تلك النواحى ، ومراكز للتجمع البشرى والعسكرى ونقطة محورية تنتظم ما حولها من الحصون والمؤسسات فى نسق واحد . ومراكز للتبشير والتنصير ، وإعداد الدعاة المسيحيين ، وإعداد الجنود والقادة بتدريبهم وتزويدهم بمعلومات خاصة عن الشرق وطبائعه الجغرافية والحضارية والتاريخية والسياسية والنفسية ، بالإضافة إلى الأساليب والطرق التى يمكن اتباعها عند الاتصال أو الاحتكاك بالسكان الوطنيين .

وبناء على ذلك كانت الحصون البرتغالية عبارة عن مؤسسات شاملة تضم داخل أسوارها الثكنات الحربية ، والمؤسسات الإدارية والاقتصادية وكذلك الوكالات التجارية ، والمخازن ، ودور الإقامة ، وكنائس العبادة ومحلات

---

(١) الخليج العربي . ويلسون ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٣٠

التبشير والمستشفيات [١] ، ولما كانت تقع ضمن سلسلة الامبراطورية المائية ولا تربطها بالسكان الوطنيين — في الغالب — أية روابط وإن حدث بعض الاتصال والتعامل ، فلا بد أن تتصل تلك الحصون بالموانئ حسنة التجهيز لتسهيل مهمة الاتصال بالبحر من جهة ، وأن تكون محمية من جهة البر بحواجز طبيعية أو صناعية تعزلها عن السكان وتسهل مهمة حمايتها إذا ما تعرضت لهجوم داخلي قادم من جهة البر ، من ناحية أخرى . ومما يذكر أن البرتغاليين إذا ما أرادوا التوسع في استغلال جهة ما ، ربما فصلوا بين الحاميات العسكرية وغيرها من المؤسسات وجعلوها في مكان قريب منها [٢] لتسهيل مهمة حمايتها . وهكذا يمكن القول إنّ الحصون البرتغالية كانت بمثابة الجناح الثاني للقوات البرتغالية في الشرق ، وأن هذه الحصون قد لعبت دوراً كبيراً جداً في تحقيق السيادة البرتغالية في المياه الشرقية طوال فترات الاستعمار البرتغالي لتلك المناطق .

أقام البرتغاليون سلسلة طويلة من الحصون والقلاع ، بالإضافة إلى الحصون التي كانت قائمة من قبل [٣] ، ثم تم إصلاحها وتعديلها قبل إنزال الحاميات البرتغالية بها . ومن الحصون البرتغالية في شرق أفريقيا حصن سفالا [٤] ، وحصن موزمبيق [٥] ، وقلعتين في ممباسا [٦] ، أسست الأولى عند بدايات القرن السادس عشر [٧] ، بينما أسست الثانية سنة ١٥٩٣ وعرفت باسم قلعة المسيح [٨] ، وحصن سنتياجو في كلوه . وحصن توماس في سوقطرة [٩] ومما يذكر أن البرتغاليين قد تخلوا عن الحصنين الأخيرين منذ وقت مبكر لشعورهم بعدم جدواهما من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، حيث قاموا بهدم حصن سوقطرة سنة ١٥٠٨م [١٠] ، بينما دمر حصن سنتياجو وسُحبت الحامية

---

(١) تاريخ كشف أفريقيا . شوقي الجمل . د . ص ١٧٧
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣١ (٣)
(٤) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٣ . (٥) تاريخ كشف أفريقيا . ص ١٧٧
(٦) دليل الخليج . لوريمر . ج ١ ص ٦
(٧) تاريخ كشف أفريقيا . ص ١٧٨
(٨) كتب بوكسر عن هذه القلعة كتابا Boxer, fort jesus and the portugues in Momnassa Ibid.
(٩) (١٠) Miles, , op, cit, p 142

البرتغالية منه بعد سبع سنوات من تأسيسه ، أي في أواخر[١] ١٥١٢م ـ٩١٨هـ تقريباً . وكذلك كان للبرتغاليين في منطقة الخليج عدد من الحصون في جلفار وصحار ومسقط ومطرح وقريات[٢] والمنامة[٣] ، كما أقيم في هرمز مركز تجاري وحصن سمي باسم نوسا سنهورا دافكتوريا[٤] ، وعرف فيما بعد باسم حسن النصر[٥] ، وقد كان هذا بداية لسلسلة الحصون التي شهدها البرتغاليون في سواحل الخليج العربي[٦] ، ومن هذا الحصن ارتكزت سيطرة البرتغاليين على تلك المناطق طيلة فترة استعمارهم لها[٧] . ومما يذكر أنه رغم تأسيس البرتغاليين لهذه الحصون فإن قيامهم بالاستعمار الاستيطاني الواسع في منطقة الخليج لم يكن داخلا في حسابهم ، ولم يكن ضمن إستراتيجيتهم ، لأن هدف هذه الحصون تركز حول توفير الموانئ ، أو المحطات المتوسطة ، ومراكز التصدير ، ومؤسسات جمع الضرائب[٨] بالدرجة الأولى .

ولما اتخذ البرتغاليون من سواحل الهند الغربية مرتكزاً لقواتهم العسكرية فقد اهتموا بتحصين قواعدهم في تلك المناطق . لتكون على مستوى الدور الذي أنيط بها ، وهكذا أصبحت كوتشين ـ وهي جزيرة صغيرة ـ قلعة برتغالية كبيرة[٩] ، يحرم على غير البرتغاليين الوصول إليها[١٠] واتخذ البرتغاليون من جوا قاعدة بحرية عظيمة لملكهم في الشرق ، لتقوم بدور المحور المركزي لقوة البرتغال ، فقاموا باستيطانها جزئياً ، وتطوروا بها لتصبح مدينة وقصبة كبرى تضم جهازاً حكوميا كاملاً . وقد كان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه جميع خطط البوكيرك[١١] ، ومن هنا أقيم في هذين المركزين تحصينات دفاعية

---

(١) Kenneth Ingham · P , 8

(٢) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢١٢ - ٢٢٠ .

(٣) التحفة النبهانية . محمد بن خليفة النبهاني . ص ٦٠ - ٦١ وقد عرف بقلعة عجاج

(٤) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٧٦

(٥) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٦٨

(٦) نفس المرجعين السابقين ، نفس الصفحات .

(٧) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٦٨

(٨) Skeat Ian, Muscut and Oman, P·34

(٩) آسيا والسيطرة الغربية . ص ٤٥ (١٠) المرجع السابق ص ٣٩٤ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٤٦ ـ٤٩ .

متميزة كما اقيم للبرتغاليين حصون أخرى فى كل من ملقا وسيلان وديو وبومباى وسومطرة وبعض الجزر الاندنيسية . ومما يذكر أن تغاليين قد حرصوا على إقامة الحصون فى الأراضى الإسلامية فى حين اكتفوا بإقامة المراكز التجارية فى الموانئ الهندوكية [١] ، حيث كانت تلك المراكز تزاول نشاطها باتفاقيات خاصة بين البرتغاليين وبين الحكام فى تلك المناطق ، ولعل ذلك راجع إلى أن الحكام الهندوك قد أفادوا كثيراً من قدوم البرتغاليين للشرق ، وأنهم لم يشعروا بخطر البرتغاليين عليهم [٢] ، ومنافستهم لهم قط .

ولم يكن اختيار البرتغاليين لمواقع حصونهم اختياراً عشوائياً، ولكنه كان قائماً على أسس استراتيجية سياسية واقتصادية خاصة ، ذات علاقة وطيدة بالأهداف البرتغالية العليا من جهة ، وبدور موقعها وعلاقته بالاقاليم المجاورة من جهة أخرى . ومن هنا كان ذلك سبباً مباشراً فى تطور الحصون البرتغالية فى الشرق وفى التخلى عن بعضها وهدمه إذا ثبت عدم جدواه لتحقيق الأهداف التي أوجد من أجلها . وقد بدأ البرتغاليون سلسلة حصونهم بالاستيلاء على بعض الحصون الإسلامية التى كانت قائمة من قبل ، حيث كان البرتغاليون يجبرون الحكام المحليين على الخضوع لسلطة البرتغال باتفاقيات خاصة يحمل بعدها علم البرتغال إلى الحصن فى موكب رسمى ويرفع على أعلى الأبراج أثناء عزف السلام الوطنى البرتغالى ، وبعد ذلك يقرر إذا ما كانت ستقيم به حامية عسكرية تحت سلطة برتغالية كاملة وبسيطرة كاملة على الحصن أم سيكتفى بإقامة حامية عسكرية صغيرة لضبط الأمور التجارية والاقتصادية وتنظيم العلاقات البرتغالية مع الحاكم المحلى [٣] اذا رأى البرتغاليون إبقاءه فى السلطة [٤] لغرض ما . وقد لجأ البرتغاليون لهذه السياسة ، حرصا على عدم تشتيت قواتهم الحربية فى مواقع كثيرة قد يصعب الربط بينها وحمايتها فى آن واحد ، فضلاً عن رغبتهم فى تجميع

---

(١) وذلك مثل مركزهم التجارى فى بهاتال

(٢) تم تفصيل ذلك فى مبحث اخر

(٣) مما يذكر ان هذه السياسة قد ابتعها البرتغاليون حتى فى اخريات ايامهم ، انظر الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق ص ٢١٧

(٤) Miles, op , cit, P, 150 حيث ذكر ان حاكم جلفار كان عنده بعض الجنود البرتغاليين .

قواتهم الصغيرة نسبياً للقيام بأعمال مشتركة بهدف بسط النفوذ البرتغالي على أوسع نطاق ممكن .

ولجأ البرتغاليون في تلك الفترة المبكرة أيضا إلى الاكتفاء أحيانا بإبقاء سفينة عسكرية عملاقة في ميناء المدينة المراد بسط النفوذ البرتغالي عليها ، وذلك بصورة مؤقتة ، ريثما تتضح الرؤيا ويتخذ في شأنها قرار نهائي حاسم . وقد اتبع البرتغاليون هذا النظام عندما حاولوا الاستيلاء على عدن [١] ، حيث دفعهم إلى ذلك ، عدم ثقتهم بحاكم المدينة من جهة ، وتخوفهم من الهجمات المباغتة من جهة ثانية ، وعدم رغبتهم في المخاطرة باتخاذ قرارات قد تكون حاسمة ولكنها غير مضمونة من جهة ثالثة .

أما الحصون التي أقامها البرتغاليون بأنفسهم ، فقد تدرجوا في تطويرها تبعا لمراحل استقرارهم الاستعماري ، ففي البدء اكتفى البرتغاليون بإقامة حصونهم من الطين ، وذلك مثل حصونهم في سوفالا [٢] وسوقطرة . ولما استقرت سلطاتهم في المواقع الاستراتيجية المهمة ، عملوا على تطوير الحصون فجددوا بناءها بالحجر ، ورفدوها بحصون أصغر منها ، وذلك كما فعلوا في سوفالا [٣] على سبيل المثال . ومع تطور الحصون البرتغالية أصبحت أكثر مَنَعَةً وحصانة لدرجة أن بعض الكتاب قد وصفها بأنها كانت ((بروجا باذخة ومباني شامخة)) [٤] وأنها كانت مشيدة بالجبال الحديد . [٥]

كانت الحصون البرتغالية ذات أسوار ضخمة عالية ، معدة لأن يستخدمها رماة المدافع والبنادق ، لإبعاد القوات المهاجمة عن الحصن [٦] ، وكان كل حصن مزوداً بعدد من الأبراج التي تستند بجدرانها على جدر السور [٧] ، ومن

---

(١) سبق بيان ذلك ، انظر
(٢) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٣
(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٤) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢١٥
(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٨
(٦) المرجع السابق ، ص ٢١٩ . (٧) المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

ثم كانت الأبراج تتكون من أكثر من دور [١]، وترتفع عن السور بشكل كبير وذلك بهدف تحقيق مزيد من الحماية والرقابة والحيطة من الأخذ على حين غرة ولعل من المفيد هنا أن نقرأ تفصيلا، عن سياسة البرتغاليين في تحصين مواقعهم في مسقط، وذلك ليؤخذ كنموذج يمكن أن تقاس عليه بقية التحصينات البرتغالية وهو كفيل بأن يعطي صورة واضحة للهيئة التي بلغتها الحصون البرتغالية في الميناء الشرقية.لقد أقام البرتغاليون في مسقط سوراً امتدت أسواره فيما بين جبل المكلا وجبل المعالي، وأقاموا خلفه حصنين كبيرين، أحدهما في الجهة الشرقية أسماه العرب فيما بعد باسم الجيلالي، والآخر في الجهة الشرقية وأسماه العرب - أيضا - الميراني " وأحدث فيها النصارى " البرتغاليون " صيرتين على وجه البحر الذي يقع به الحصنان المذكوران، وبنوفيها بروجا على السور، وأبنية على رؤوس جبالها، وخمس عقبات : الأولى من أول مطرح إلى أول ريام، والثانية من آخر ريام إلى أول مسقط، والثالثة من آخر كليو إلى أول مسقط، والرابعة من آخر سداب إلى أول مسقط من جانب سهيل، والخامسة من آخر جبال مسقط إلى أول الوادي الذي يُفضِي إلى دارسيت" [٢]. وبالإضافة لذلك كان للبرتغاليين تحصينات على أعالي الجبال وضعوا فيها أشد رجالهم من رماة البنادق، ونصبوا سلسلة حديد في رأس الجبل المشرف على مهايين وعلى الوادي الذي يمر على بئر زنجي، إلى الجبل الذي به الآن البرج المربع المشرف على حلة الأوغاني، وجعلوا على هذه السلسلة سوراً من الحديد، وأقاموا فيها جنوداً لمراقبة المسلمين ومنعهم من الوصول للسور. ومما يذكر أنهم قد حفروا خلف السور أيضا خندقاً عميقا مملوءاً بالماء ليغرق من يحاول تسلق السور [٣].

زود البرتغاليون حصونهم - في العادة - بعدد من الجنود تراوح ما بين ثمانين أو مائة جندي [٤] وبين مائة وخمسين جندياً [٥]، ولكن هذا العدد لم يكن

---

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧١

(٢) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢٢٥

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣ (٤) Kanneth Ingham, p , 8

(٥) استعمار أفريقيا . ص ٤٣ . ووثائق تاريخية وجغرافية . ص ٢٢٤

ثابتا ، فقد يزداد حتى يصبح عدد الجنود من الكثرة بمكان [١] وخاصة في حالة الاستعداد للقتال أو تجديد الغزو ، كما أن عدد جنود الحصون قد تفاوت تبعاً للدور المنوط بها ، وتبعا لموقعها الاستراتيجي ومكانتها السياسية ، وهكذا كان من المتصور أن يزداد عدد الجنود البرتغاليين المتواجدين في الحصون الهامة كما في ملقا و جوا و هرمز وموزمبيق ، وقد لجأ البرتغاليون إلى تزويد حصونهم بعدد من الجنود المرتزقة أو المحليين ، وخاصة بعد أن ثبتوا أقدامهم الاستعمارية ، بعد أن كانوا يعتمدون على جنود هم [٢] البرتغاليين والأوربيين فقط .

وإذا أراد البرتغاليون حكم حصن ما بطريقة مباشرة أقاموا فيه حاكماً برتغالياً وزود و بحامية برتغالية ، تدعمها بعض العناصر المتعاونة التي كانت تقوم بدور ثانوي أو تابع بشكل مطلق [٣] ، وإن لم يفعلوا ذلك واكتفوا بتبعية حاكم المدينة ، أقاموا حاكما على الحصن ، وتركوا له مهمة اختيار جنوده من العناصر المحلية [٤] مع تزويده بعدد من الضباط والموظفين الإداريين لمساعدته في الحكم من جهة ، ولتأكيد التبعية للبرتغال من جهة الثانية ، ولضمان تنفيذ الاتفاقيات وجني الفوائد الاقتصادية المرجوة من جهة ثالثة .

وزود البرتغاليون حصونهم بقوة دفاعية بحرية تراوح دورها بين حماية الحصن نفسه كما في الحصون ذات الدور الثانوي ، وبين حماية السواحل الإقليمية المجاورة كما في منطقتي هرمز على الخليج العربي ، وممباسا على الساحل الأفريقي الشرقي ، وبين وجود السفن العملاقة المكلفة بحماية أعالي البحار كما في مركز القيادة البرتغالية بالهند [٥] . وهكذا تراوحت مهمة حكام الحصون

---

(١) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢٥٣

(٢) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٣٣

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٤) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢١٧

(٥) صراع القوى في المحيط الهندي . ص ١٣٣

بين المسؤولية الخاصة على حصنه فقط، كما كان في معظم الحصون البرتغالية في الخليج ، وبين مهمة الإشراف الاقليمي حيث كان لحاكم حصن ممباسا - مثلا - وكلاء في الموانيء المجاورة مثل كلوه وبمبا وزنجبار [١] . ومما لا شك فيه أن جميع حكام الحصون الساحلية كانوا خاضعين لسياسة نائب الملك البرتغالي المقيم في جوا وذلك باستثناء شرق أفريقيا الذى حظى بنائب للملك خاص به سنة ١٥٠٩م - ٩١٥هـ، ولكنه سرعان ما عاد تابعا لنائب الملك في الهند ، بعد موت النائب الأول والأخير في نفس الوقت .

ولكي يضمن البرتغاليون استمرار سيطرتهم على السواحل الإسلامية الشرقية ، وتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية في المحيط الهندى لجأوا إلى تنظيم علاقاتهم بالحكام المحليين ، فعقدوا اتفاقات مع حكام سوفالا وموزمبيق وممباسا وكلوة وزنجبار ، وغيرها في شرق أفريقيا ، وكذلك فعلوا مع حكام عدن (قبل خضوعها للحكم العثماني) ، وقريات ومسقط وصحار وجلفار وهرمز والمنامة في السواحل العربية ، وكذلك فعلوا في السواحل الهندية فوقعوا اتفاقات سياسية وتجارية مع حكام سوقطرة ، وملقا ، وكجرات وغيرهم ، وقد كانت معظم هذه الاتفاقات تدور حول الاعتراف بالسيادة البرتغالية ، ودفع الحكام جزية سنوية ، وتنظيم العمليات التجارية [٢] لتكون خاضعة للسيطرة البرتغالية ومحققة لأهدافها ، ومما يذكر أن البرتغاليين كانوا يحددون نوع العلاقة أو السياسة التى سيتبعونها مع منطقة ما ، إما قبل استيلائهم عليها ، وذلك كما فعلوا في عدن وسوقطرة وموزمبيق وهرمز وجوا وكوتشين ، وذلك لأهمية هذه المدن الساحلية ، وإما عند غزوها واستطلاع موقعها وأهميتها السياسية والاقتصادية ، وذلك كما فعلوا في معظم مناطق سواحل شرق أفريقيا وسواحل البلاد العربية ، وبناء على ذلك كانت تحدد طبيعة السلطة البرتغالية المطلوبة

---

(١) تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٧٨

(٢) انظر على سبيل المثال اتفاقية البرتغاليين مع حاكم هرمز سنة ١٥٢٣م الخليج العربي . زكريا قاسم المرجع السابق ص ٨٠ وكذلك اتفاقية البرتغاليين مع حاكم عدن سنة ١٥٣٠ ، الفتح العثماني للاقطار العربية . ص ١٢٩

والتى تراوحت بين السيطرة المباشرة أو الاكتفاء بالسيادة وإسناد السلطة الفعلية لحاكم محلى متعاون .

ومهما يكن من أمر فإن البرتغاليين لم يتدخلوا فى شؤون الحياة الداخلية للمدن والامارات الساحلية ، ونادراً ما كانوا يخرجون على اليابسة إلى مسافات تبعد عن مدى مدفعية سفنهم [١] ، وهكذا يمكن القول إن البرتغاليين لم يغيروا نمط الحياة فى المناطق التى احتلوها ، ولكنهم تمكنوا من أداء دور هام - كسلطة عليا - دون المساس بسلطة وسيادة ودساتير الحكام المحليين [٢] الذين تركوا فى السلطة . لقد تمحورت السياسة البرتغالية فى المناطق الساحلية وسبل تنظيم علاقاتها مع البرتغاليين حول مجموعة من الأسس العامة ، حيث اضطرهم قلة عددهم إلى إقامة علاقات وطيدة مع دويلات المناطق الساحلية ، وذلك عن طريق الاتفاقات الثنائية [٣] وتميز العمل السياسي البرتغالي بممارسة حبك الدسائس ، وأعمال الرشوة والقتل [٤] وتجنيد أعداد من الجنود المرتزقة كقوات مساعدة [٥] ، ولما لم يكن همّ البرتغاليين إلا جمع ما أمكنهم من الذهب والمجوهرات والنفائس والبضائع الثمينة [٦] ، فقد اجبروا الملوك الصغار فى مناطق الهند والصين وغيرهما على طرد جميع التجار المسلمين سواء كان ذلك بالقوة أم بالحيلة . [٧]

ومن أبرز ملامح السياسة البرتغالية فى السواحل الإسلامية الشرقية قيام البرتغاليين باستغلال مراكز الخلاف السياسية بين الحكام المحليين ، ومحاولتهم تحويل نتائجها لصالحهم ، وقد برز هذا الأسلوب منذ عهد مبكر ، واستمر طوال

---

١) الفتح العثماني للأقطار العربية ص ٨٧ وانظر Ingham , op, oit , P 9
٢) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٧٧
٣) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٢٤
٤) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ٨٧
٥) صراع القوى في المحيط الهندى . ص ١٣٤
٦) الفتح العثماني للاقطار العربية . ص ٨٧
٧) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٦٩

فترة الاستعمار البرتغالي ، ومن مواقف الخلاف السياسي التى استغلها البرتغاليون الخلاف الذى كان قائماً بين حاكم كلوه وحاكم مالندى قبيل الغزو البرتغالي وفي مراحلة الأولى ، وكذلك الخلاف الذى جمع بين المماليك وحكام اليمن الطاهريين والخلاف الذى كان قائماً بين حكام المسلمين والحكام الهندوس فى الهند (١) ، حيث انحاز البرتغاليون لحاكم مالندى ولحاكم عدن الطاهرى ، وللحكام الهندوس ، إشعالاً للفتن وإذكاء لنار الصراع ، وحيث اعتبروا أن ذلك أيسر السبل لبسط النفوذ البرتغالى وقد استغل البرتغاليون هذه السياسة جيداً فى صراعهم مع العثمانيين ، ومن ذلك أن البرتغاليين كانوا يراقبون الخلاف الذى كان قائماً بين العثمانيين من جهة وبين بعض حكام المناطق الخليجية مثل سعيد بن عفار فى مهرة ، وعلى بن عثمان الطوالقى زعيم بد والشيخ عثمان (٢) من جهة أخرى ، وقرروا عدم إضاعة هذه الفرصة ، فأمر نائب الملك البرتغالى فى الهند حاكم حصن هرمز البرتغالى بالتدخل ، فوجّه ثلاث سفن حربية محملة بالرجال والذخائر والعتاد ، بقيادة دون بابو تونيا لمساعدة سعيد بن عفار ، ومكنته من السيطرة على قشن عاصمة مهرة وهزيمة قوات العثمانيين ، وبعد ذلك توجهت القوات البرتغالية إلى السواحل اليمنية قرب عدن للتعاون مع على الطالقى فى صراعه مع العثمانيين وسلطان حضرموت التابع لهم (٣) .

ولتحقيق الأهداف الاقتصادية ، باشر البرتغاليون سيطرة فعلية على البيوتات التجارية (٤) فى المناطق التى استولوا عليها ، وقاموا بمراقبة التجارة والبضائع وحركة السفن كما سبق بيان ذلك من قبل ، وفى هذا الإطار راقب البرتغاليون دور الجمارك وفرضوا فيها رسوما باهظة ، وقاموا بكثير من المصادرات (٥) ، وهذا بالإضافة إلى الجزية السنوية التى كان على الحكام المحليين دفعها كل عام والتى كانت تثقل كاهلهم بأكثر مما يطيقون ، ومن ذلك أنهم فرضوا تلك الجزية على المدن الإسلامية فى شرق أفريقيا مثل ممباسا ومالندى وكلوة (٦) ، كما فرضوها على مدن السواحل العربية ، مثل قريات وصحار وجلفار ومسقط

---

(١) سبق بيان ذلك فى مواضع أخرى من البحث
(٢) كانوا يقيمون فى بعض نواحى اليمن غرب عدن
(٣) انظر الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٣٩ وهناك حالات أخرى تمت الإشارة إليها فى موضع آخر من الصراع العثمانى البرتغالى
(٤) المشيخات المتصالحة دونالد هولى . ص ٧٧ . والخليج العربي . ويلسون . ص ٨٠ .
(٥) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ٨٧

وهرمز ، ومدن السواحل الهندية مثل ، ومما يذكر أن هذه الجزية لم تكن ثابتة ، فحين نجد البرتغاليين قد فرضوا على مسقط في البدء ، جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف زرافين أو ما يعادل ثلاثمائة ألف ريال [١] وعلى هرمز خمسة عشر ألف زرافين [٢] أو أربعمائة وخمسين ألف ريال ، نجد أنهم زادوا مقدار هذه الجزية التي بلغت في هرمز سنة ١٥٢٣م - ٩٢٩هـ نحو ستين ألف زرافين [٣] أي أربعة أضعاف القيمة الأصلية ، ونظراً لارتفاع قيمة مثل هذه الجزية فقد واجه البرتغاليون صعوبات في جمعها ، حتى بلغ صافي المتأخرات على حاكم هرمز مثلا سنة ١٥٤٢ - ٩٥٠هـ نحو خمسمائة ألف دكتة ، مما اضطر البرتغاليين إلى التخلي عنها في مقابل الإشراف المباشر على إدارة الجمارك لتحصيل الرسوم ، مع إبقاء الموظفين المحليين في وظائفهم [٤] ، ومما يذكر أن هذه السياسة قد أزعجت السكان كثيراً ، وكثيراً ما دفعتهم إلى الثورة [٥] والتي رد عليها البرتغاليون بقوة السلاح وكثافة النيران وقذائف المدفعية .

ورغم أنه قد تمّ التعرض للسياسة الاقتصادية البرتغالية في مبحث مستقل فإن من النافع هنا أن نعرض لبعض التنظيمات التجارية للبرتغاليين ، ومن ذلك أساليب تنظيم حركة التجارة ، ومواعيد القوافل التجارية ، والحمولات ، وغير ذلك .

كان الأسطول البرتغالي يبحر من لشبونة في أذار أو نيسان من كل سنة فيتبع خطّ رحلة دي جاما ، ويجتاز المحيط الهندي مع الرياح الموسمية حتى يبلغ شاطئ مالابار في أيلول ، ويجري تحميل السفن في تشرين الثاني وكانون الأول قبل أن تتم العودة مع رياح الشتاء الموسمية في كانون الثاني ، حيث يصل الأسطول إلى

---

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٦٨

(٢) Miles ,op , cit , p , 149

(٣) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٨١

(٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ٨٢

(٥) انظر تاريخ أفريقيا - جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٤ والمشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٧٧

دور الشركات التجارية الكبرى وكبار القادة والموظفين والحكام الإقليميين . وكانت الحركة التجارية تتم من خلال المستودعات التجارية البرتغالية المنتشرة على طول السواحل الشرقية ، حيث كانت المخازن الواسعة في الهند والسواحل العربية وشرق أفريقيا وغيرها تستقبل البضائع بأكياس مختومة ، ويتولى سعادة المخزن وحدهم - وكان لهم نسبة من الربح - عمليات استلام البضائع من الأساطيل التجارية وهي في طريقها إلى الهند ، كما كانوا يتولون عمليات الشحن . وكانت عمليات الشحن والإنزال تتم وفق ضوابط مرسومة ، فيقوم عامل الملك البرتغالي بتحرير المعاملات وتقديم الوصولات اللازمة لضبط الحركة ، وقد كانت الشركات التجارية ملزمة بدفع نسب معينة لتغطية النفقات التجارية العسكرية التي كانت تتكلفها الحكومة البرتغالية (١) ومما يذكر أن حكومة البرتغال قد سمحت في بعض الأحيان بأن يتعهد بعض حكام الأقاليم بتسيير دفة التجارة في جهته نظير مبالغ مالية يتعهد بدفعها كل سنة ومن ذلك أن الملك البرتغالي سمح لحاكم موزمبيق أن يتولى قسطاً كبيراً من تجارة شرق أفريقيا وهو الأمر الذي أدى إلى إنعاش الحركة التجارية ، فامتلات مخازن الجزيرة بالخرز والمنسوجات وأقبل الأفارقة على شرائها مقابل الذهب والعاج والرقيق (٢) . ومع ذلك فإنه يمكن القول إن البرتغاليين لم يستطيعوا إدارة الحركة التجارية ، بل لم يرغبوا في إدارة الحركة التجارية بما يحقق انتعاشا للمناطق الإسلامية الساحلية ، فبدأ الركود الاقتصادي يعم كثيراً من المناطق ، وخاصة في منطقة الخليج العربي (٣) ، وذلك بالرغم من أن البرتغاليين قد سمحوا للسفن الهندية والعربية بخدمة التجارة الفرعية على طول السواحل الأفريقية والآسيوية (٤) .

وقبل ختام هذا الفصل لابد من الإشارة إلى السياسة التبشيرية للبرتغاليين ودورها في السياسة البرتغالية وتنظيماتها في الشرق . ولابد من القول بدءاً إن سلطان البرتغاليين في الشرق كان قائماً على مراسيم كاليكسيوس الثالث ونيقولاس الخامس والاسكندر الثالث (٥) ، التي تقسم الأراضي المكتشفة حديثاً بين أسبانيا

١) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٦٩ ، ٧٠

٢) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٤

٣) انظر الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٨٠

٤) تاريخ أفريقيا . دونالد ويدنر . ص ١٤٢ (٥) سبقت الاشارة الى هذه المراسيم .

والبرتغال ، وتغرض عليها نشر الدين المسيحى فى تلك المناطق ، وفى هذا الإطار أصدرت البابوية مرسوماً سنة ١٥١٤م-٩٢٠هـ يخول ملك البرتغال سلطة الإشراف على النواحى التبشيرية فى المناطق التى تدعى بها البرتغال لنفسها حقوقاً سياسية [١] ، وهكذا كان التنصير عند البرتغاليين شأناً من شؤون الدولة يخضع مع التجارة والإدارة - لسلطات الملك الخاصة ، وذلك فى البداية على الأقل ، ومن ثم كان الملك البرتغالى يتولى رعاية مصالح الكنيسة فى البلاد المكتشفة " المستعمرة " حديثا ، كما يتولى إدارة النظام الكنسى ودفع تأسيس الكنائس بالشرق [٢] .

ويعتبر هذا التوجه هو المسؤل الأول عن كثير من السياسات البرتغالية فى الشرق ، فقد كان التبشير بالمسيحية من أكبر الأهداف البرتغالية [٣] المعلنة كما كان الدين ملجأ لتفسير كثير من الأحداث السياسية ، حيث عُلِّل - مثلا - اضطرار البرتغاليين للانسحاب من مياه البحر الأحمر سنة ١٥١٧م-٩٢٣هـ بأنه استجابة لإشارة الرب [٤] ، وعَلَّل انتصارهم على الزامورين بأنه قد تم انتصاراً للرب [٥] ، وكذلك علل نجاة عدد من الجنود الذين كانوا يسرقون التراث المعمارى الإسلامى من أحد المساجد العربية ، بعد انهياره ، علل بأنه رعاية من السيدة العذراء [٦] .... الخ ولا شك أن هذه ترهات لا يسندها أى دليل على موضوعى ، وخاصة فى عصر انتهى فيه دور الخوارق والمعجزات .

وقد ارتكب البرتغاليون كثيراً من الجرائم باسم المسيح ، حيث خططوا للسيطرة على مكة والمدينة ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم باسم المسيح [٧] ومنعوا الصلاة فى بعض المساجد ، واعتبروا عدم التعاون معهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام [٨] باسم المسيح ، وباسم المسيح أيضا قتل النساء والأطفال والشيوخ فى كثير من السواحل الإسلامية وأحرقت السفن التجارية ، ودمر المساجد ، واحتكرت التجارة ، ومنع التجار المسلمون من العمل ، وسلبت السفن وأخذت النفائس قصراً .. إلى غير ذلك

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية ، ٣٩٤ ، ويعرف هذا المرسوم بمبدأ " البادروادو "

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة (٣) سبق بيان ذلك فى مبحث خاص

(٤) (٥)

(٦) Miles, op , cit , P (٧) الأطماع البرتغالية في المقدسات الاسلامية .

(٨) Travels op Teixeira, pp 265-266 . فالح حنظل . د . ص ١٣٢ - ١٣٦

من الأعمال [١]، والتي وصلت إلى حد أكل لحم البشر كما ذكر في بعض الروايات. [٢]

ومما يذكر أن البرتغاليين كانو يبشرون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي ومن أهم طوائفه طائفة سان أوغسطين، وطائفة الجزويت [٣]، وان طوائف المبشرين قد تعددت، فيما بعد، فشملت إلى جوار الجزويت الدومنيكان والبروتستانت وغيرهم، واتجهت السياسة البرتغالية التبشيرية إلى منطقتين غرب الهند وشرق أفريقيا بشكل رئيسي وإن كان البرتغاليون يحرصون على أن يلحقوا بكل حصن من حصونهم في المناطق الأخرى كنيسة تتبع طائفة الفرنسيسكان [٤].

تركز النشاط التبشيري في جنوب شرق آسيا في مدينة جوا حيث كانت الكنيسة تدعي لنفسها حقوقاً أوسع مما للدولة، وقد استقر الرهبان الفرنسيسكان بها منذ سنة ١٥١٧م-٩٢٣هـ ثم امتدت سلطات أسقفية جوا منذ سنة ١٥٣٤م — ٩٤٠ هـ لتشرف على منطقة الشرق الأقصى برمّتها [٥]، وقد استهدفت السياسة التبشيرية في البدء بروح القضاء على المسلمين، ولما أيقنت من فشلها في ذلك اكتفت بإقامة الكنائس وإنشاء الأسقفيات في المناطق الواقعة تحت السيطرة البرتغالية المباشرة مثل جوا وكوتشين وملقا [٦]، ومما يذكر أن السياسة التنصيرية قد مالت للعنف منذ عهد يوحنا (جواو) الثالث، ففي سنة ١٥٣٤م- ٩٤٠ هـ، اصدر جواو الثالث أوامره إلى نائبه يوحنا دي كاسترو بأن يلجأ للشدة ويتخذ أقصى الإجراءات لاستئصال الكفرة، ونتج عن هذه السياسة هدم جميع معابد الهندوس في جوا، وصودرت ممتلكاتهم ووزعت بين جميع الطوائف الدينية وقد ازدادت موجة الاضطهاد منذ سنة ١٥٤٠م -٩٤٦هـ، وبدأت محاكم الكنيسة

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر .. Miles, op;cit, pp 110-151, Sousa, vol,1, pp. 110- 132.

(٢) Wliteway, R.S..op.cit: P 269

(٣) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٢٧٣ Serjeant, R.B. op, cit , P 14

(٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٩٤

(٥) المرجع السابق ص ٢٩٤ -٢٩٥.

(٦) المرجع السابق ص ٤٨ .

تدين الأهلين باسم الزندقة حتى قبل إنشاء محاكم التفتيش سنة ١٥٦٠م[١] - ٩٦٧هـ وتم هذا الاتجاه بتعيين فرانسيس زافيير كرسول بابى و مبشر ملكى سنة ١٥٤١م - ٩٤٧هـ، حيث قام هذا المبشر بتنظيم أعمال التبشير فى جوا وأسس سنة ١٥٤٢م - ٩٤٨هـ جامعة القديس بولس لتدريب المبشرين الموجهين لآسيا، حيث كان معظم المبشرين يتلقون تدريباً أولياً فى جوا قبل تعيينهم فى مراكزهم، وانتهى الأمر بإقامة محاكم التفتيش التي قامت بمباشرة مختلف أصناف العقاب والتعذيب وأرغمت غير المسيحيين على حضور العظات المسيحية الدينية الطويلة. وهكذا يمكن القول إن سياسة البرتغاليين التنصيرية سواء على المستوى العلمانى أم الكهنوتي فضلاً عن المبشرين، تقوم على أساس القضاء على تحصينات غير المسيحيين بالهجوم الشديد، وباستخدام أساليب التنصير بالقوة، وذلك بالرغم من الامتيازات التي كانت تقدم للمتنصرين خاصة [٢].

أما في شرق أفريقيا، فقد اتخذ النشاط التبشيرى من موزمبيق مركزاً رئيسياً ومن أشهر المبشرين البرتغاليين فى تلك المناطق سان فرانسو كزافية دسان مونبيك الذى كان يمارس نشاطه فى ممباسا، ومما يذكر أن المبشرين كانوا يتبعون المذهب الكاثوليكى - كما سبق القول - ويدعون له بحماس بالغ حيث لم يتوقف نشاطهم على مناطق السواحل بل تعداه لداخل القارة وخاصة فى مملكة مونوموتابا.[٣] وشهدت أثيوبيا نشاطاً تبشيرياً مكثفاً، فقبيل منتصف القرن السادس عشر عزز البرتغاليون مواقعهم في أثيوبيا لدرجة كبيرة، وظهر فيها إضافةً إلى الجنود مستوطنون ومبشرون أوربيون، كما نشطت أعمال بناء الكنائس الكاثوليكية، ثم سمح كلاوديوس للمسيحيين اليعاقبة المحليين بارتياد الكنائس

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٥

٢) المرجع السابق . ص ٣٩٥ - ٤٠٢

٣) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٢٧٣

الكاثوليكية والالتحاق بالمذهب اللاتيني ، وفي عهده أصبح للزعماء الروحيين الكاثوليك مكانة مهمة في حياة أثيوبيا الاجتماعية والسياسية ، لدرجة أنهم حولوها إلى محور أساسي للسياسة البرتغالية في الشرق [١] .

ويبقى الإجابة على سؤال مهم هو ، إلى أي حد نجح البرتغاليون في سياستهم التبشيرية هذه ؟ ! وهو السؤال الذي سوف تجيب عنه هذه الدراسة عند الحديث عن نتائج الغزو البرتغالي لسواحل الشرق الإسلامي .

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٦٨ ، ١٦٩

الفصل الخامس

التعاون بين البرتغاليين و القوى غير الإسلامية أثناء الاستعمار البرتغالي لسواحل المحيط الهندي

ارتكزت السياسة البرتغالية ، في مياه المحيط الهندي ، في جانب كبير منها على استغلال الصراعات أو الخلافات السياسية القائمة بين القوى المحلية القائمة على السواحل . ولم يفرق البرتغاليون في توجههم هذا بين القوى الإسلامية وغير الإسلامية إلا في منهج التعامل وأسلوبه والأهداف المرجوة منه . ومن القوى غير الإسلامية التي تم التحالف معها لتحقيق الأهداف البرتغالية ، والأطماع المشتركة مع تلك القوى الامبراطورية الحبشية على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، والدولة الهندوكية او دولة فياجاناجار في جنوب شبه الجزيرة الهندية . أما القوى الإسلامية التي تعاونت مع البرتغاليين لظروف خاصة ، فأهمها الدولة الصفوية في بعض مراحل الصراع وسلطنة مالندي ، وبعض القبائل العربية في منطقة الخليج العربي .

ورغم أن ما يعنينا – في المقام الأول – هو مشروع التعاون الكبير بين البرتغاليين والأحباش ، وهو ما سيتم التركيز عليه في هذا المبحث ، فإن من النافع أن نذكر بعض النماذج السريعة للتدليل على المقولة السابقة ، قبل الوقوف على تفاصيل التعاون البرتغالي الحبشي ، والذي شغل حيزاً كبيراً من مجريات السياسة الدولية في مياه المحيط الهندي ، واتصل في كل مراحله بالقوى الإسلامية الرئيسية بدءاً بالمماليك والعثمانيين من بعدهم ، ومروراً بالقوى الإسلامية في غرب البحر الأحمر وأهمها مملكة عدل أو عادل الإسلامية والتي شكلت أحد الأقطاب الفاعلة في مجريات التعاون والصراع في المنطقة . كما اتصل في كل مراحله أيضاً بالقوى الأوربية وعلى رأسها كنيسة روما ، والتي شكلت محاولات التعاون وأثرت في أهدافها ونتائجها إلى حد كبير .

كانت سلطنة مالندى أولى السلطنات الاسلامية التى تعاونت مع البرتغاليين وذلك للاستعانة بهم فى مواجهة القوى الإسلامية المنافسة فى شرق أفريقيا وأهمها ممباسا ، وقد سبق بيان ذلك ، أما القوه الإسلامية الكبرى الثانية التى تعاونت مع البرتغاليين فى وقت مبكر ، فهى دولة الصفويين التى كانت منشغلة عند قدوم البرتغاليين بصراعها مع العثمانيين والذى توج عام ١٥١٤م – ٩٢٠ هـ بهزيمة جالديران التى كانت سبباً فى مهادنة الصفويين للبرتغاليين خاصة بعد التفوق الذى أحرزوه فى هرمز ، وذلك أملا فى الاستعانة بهم ضد العثمانيين من جهة واعترافاً ضمنيا بتفوقهم البحرى من جهة أخرى . وعلى ذلك سعى الصفويون لكسب صداقة البرتغاليين.أما البرتغاليون ، فقد وجدوا من جانبهم أن الصراع العثمانى الصفوى فرصة لا ينبغى أن تُفَوَّت ، ويجب استغلالها لغرض وتثبيت الوجود البرتغالى فى مياه المحيط الهندى عامة ومنطقة الخليج العربى على وجه الخصوص وعلى هذا الأساس قام التعاون بين الطرفين ، فعرض البرتغاليون مشروعاً للتحالف العسكرى بين الطرفين تحتل فارس بموجبه مصر ، وتحتل البرتغال فلسطين ، ولكن هذا المشروع الخيالى لم ير النور لأن كلا الطرفين يعلم أن إمكاناته وظروفه السياسية لا تسمح له بذلك . كما عرض البرتغاليون أن يقدموا للصفويين الاسطول والاسلحة والجند لاستخدامها ضد القلاع التركيه فى الهند . وأن يساعدوا الشاه إذا ما أراد احتلال أيّ جزء من الأرض العربية كالبصرة أو البحرين أو القطيف أوعدن أو حتى مكه وشجع ذلك العرض الصفويين فأرسلوا مبعوثاً سنة ١٥١٥م – ٩٢١ هـ مطالبين بمساعدة البرتغال لاحتلال القطيف والبحرين ، والمساعدة فى قمع ثورة مكران التى قامت ضد الشاه ، وطلبوا من الناحية الاقتصادية أن تكون جوا مفتوحة لتجار الفرس وتجاراتهم . ورحب البرتغاليون بهذه المطالب لأنها ستضمن لهم تقاعس الصفويين عن ممارسة النشاط العسكرى ضدهم فى الخليج [1]. وفى نفس الوقت تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم فى هرمز، وباتفاق مع الصفويين سُمح لحاكم هرمز أن يمارس سلطانة باسم

---

(١) البرتغاليون والأتراك والعثمانيون في الخليج العربي . صالح أوزبران . ص ١٩ - ٢٠ وزنجبار . صلاح العقاد . د . ص ١٧ والخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٢٣

ملك البرتغال . ورغم أن محاولات التعاون لم تر النور أيضا في ذلك الوقت المبكر فإن البرتغاليين قد أفادوا منه في إبعاد الخطر الصفوى و في تثبيت سيطرتهم على هرمز و سائر موانيء الخليج الهامة ، و قد استمر الوضع كذلك فترة طويلة قبل أن يفكر الصفويون في القيام بدور إيجابي ضد البرتغاليين [1] على ما سيتم بيانه فيما بعد .

و اذا انتقلنا إلى بعض محاولات التعاون بين البرتغاليين و بعض الدول غير الإسلامية يبدو جلياً أن الدول الهندوكية غير الإسلامية وقفت من البرتغاليين موقف الصداقة العامة و التسامح ، و لم يشذ عن هذا الإطار إلا كاليكوت [2] . رغم أن هذه الدول الهندية كانت قد فزعت في بداية الأمر من البرتغاليين فزعاً شديداً و اعتبرتهم دخلاء يزاحمونهم على التجارة [3] و الرزق .

و كانت امبراطورية فيجايانا جار الواقعة إلى الجنوب من رايشور و دوآب أكثر الدول الهندوكية تعاوناً مع البرتغاليين ، إذ كان يجمع أباطرة فيجايانا جار مع البرتغاليين نزعة القتال الصليبي ضد المسلمين ، و ذلك بسبب وجود السلطنات البهمنية على حدودها ، و هو الأمر الذى دفعها إلى الرغبة الجامحة في حماية العقيدة و الثقافة الهندوكية بجنوبي الهند ، و في مظاهرة الاستقلال السياسي القومي ضد الدول الإسلامية . [4] و ساعد البرتغاليين على توطيد علاقتهم مع هذه الامبراطورية أنه كان في استطاعتهم أن يبيعوا أو يقدموا للحكام الهنود الاسلحة النارية و العتاد الذى كانوا في أمس الحاجة إليه [5] ، و أنهم بنوا علاقاتهم على أسس واقعية يحكمها تبادل المصالح ، و تغذيها الرغبة في مواجهة العدو المشترك ، إذ كان البرتغاليون يتبادلون السفارات و البعثات السياسية و الهدايا و يحافظون على الصلات الكريمة المتبادلة بين الطرفين [6] ، و على أساس هذه السياسة

---

(١) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٥ . ودليل الخليج . لوريمر . ج ١ ص ٨

(٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥١

(٣) فتح العثمانيين عدن . محمد عبداللطيف البحراوى . د . ص ٦٩

(٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٤

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٢

(٦) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

كانت امبراطورية فيجايانا جار تقيم علاقات مودة مع البرتغاليين في جوا ، وتسمح لهم بالاتجار في مملكتها الفسيحة [1] . وقد أثر ذلك التعاون على القوى الإسلامية في سواحل الهند وعلى الدول البهمنية التي اضطرت لأن تخوض صراعاً طويلاً مع هذه الامبراطورية قبل أن تخرج منه ظافرة عند منتصف القرن السادس عشر تقريباً .

أما في شرق افريقيا ، فقدا استفاد البرتغاليون من مهادنة القوى السياسية في حوض الزمبيزي في تثبيت أقدامهم في موزمبيق و في استغلال ثروات القارة . وقد يكون من المفيد أن نضرب مثالاً بسيطاً لمدى الفوائد التي استطاع البرتغاليون جنيها من تعاون القوى غير الإسلامية في شرق أفريقيا ، ففي سنة ١٥٩٢م-١٠٠١ هـ هاجمت قبيلة السجيجو Segeju المتعاونة مع مالندى - حليفة البرتغاليين هاجمت قوات سلطان ممباسا بينما كانت متوجهة لقتال مالندى . واستطاعت قبيلة السجيجو أن تلحق بسلطان ممباسا هزيمة ساحقة ، وأن تقتله هو وثلاثة من أبنائه قبل أن تتعقب القوات المنسحبة إلى جزيرة ممباسا ، حيث أسرت قبيلة السجيجو عدداً كبيراً من نساء ممباسا و شبابها و شيوخها ممن عجزوا عن الفرار للأدغال ، وألقت القبض على أحد أبناء السلطان ومعه عدد من الوجهاء وأرسلتهم إلى سلطان مالندى ، لتقديم الولاء والطاعة . وهكذا قدمت هذه القبيلة لسلطان مالندى جزيرة ممباسا على طبق من ذهب - إذا صح التعبير . ولكن حاكم مالندى لم يجد بداً من الاتفاق مع البرتغاليين الذين فازوا في النهاية بجل الغنيمة إذ سمح لهم السلطان ببناء الحصون في الجزيرة لانزال الحاميات البرتغالية بها ، كما سمح لهم بالإشراف على حركة التجارة والإيرادات الجمركية ، وتوطين الرعايا البرتغاليين ، في مقابل أن يسمح له بالإقامة في الجزيرة وحكم سكانها من العرب والسواحليين ، وأن يأخذ ثلث الايرادات الجمركية . [2] وبذلك لم تمكن قبيلة السجيجو البرتغاليين من ممباسا فحسب ، بل ساعدت في حمايتهم من خطر قبائل الزيمبا zimba التي كانت تناجيهم العداء وتشن الغارات على مواقعهم

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥١

(٢) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٠

و مصالحهم الحيوية ، إذ المعروف أن الفضل يرجع لقبيلة السجيجو فى حسر اندفاع قبائل الزيمبا [1] عن سواحل شرق أفريقيا الخاضعة للنفوذ البرتغالى .

* * * *

و اذا انتقلنا إلى الحديث عن التعاون البرتغالى الحبشى ، و هو من أبرز محاولات التعاون بين البرتغاليين و القوى غير الإسلامية فى الشرق، و يصور السياسة البرتغالية و أطماعها بمختلف جوانبها الصليبية و الدينية و الاقتصادية و العسكرية ، فإن من الضرورى أن يتم التركيز عليه كنموذج لسياسة التعاون أو التحالف البرتغالى مع القوى غير الإسلامية لكسب النجاح للمشروع الاستعمارى البرتغالى .

و لم يكن التعاون البرتغالى الحبشى إلا امتداداً لسلسلة طويلة من المحاولات من قبل البابوية فى روما و دول أوربا الصليبية من جهة ، و مملكة الحبشة من الجهة الأخرى ، فقد كان هناك اتصال بين الطرفين منذ عصر الحروب الصليبية بهدف إغلاق منافذ البحر الأحمر و منع مصر من الاستفادة من إيرادات التجارة الشرقية [2] . و منذ ذلك الحين و بابا روما على اتصال دائم بملوك الحبشة للتنسيق معهم فى مواجهة القوى الاسلامية [3] . ففى القرن الرابع عشر أرسلت البابوية عدة سفارات الى ملوك الحبشة [4] و من ذلك ما قام به الراهب الدومينيكانى و ليم آدم سنة ١٣٠٥م من زيارة لشرق افريقيا و الحبشة استمرت اكثر من عشر سنوات توالت بعدها بعثات الدومنيكان [5] .

و اعتبر ان نجاح البابا سنة ١٤٣٩م فى مجمع فلورنسا في إصلاح الشقة ورأب الصدع بين الكنيستين الشرقية و الغربية من شأنه أن يؤلف المسيحيين الشرقيين ــ و منهم يعاقبة الحبشة ــ و الغربيين فى جبهة قوية ضد المسلمين [6] . و من الثابت أن الحبشة قد أوفدت مندوبين عنها لحضور ذلك المؤتمر [7] و أصبحت من المعنيين بنتائجه

(١) الاستعمار البرتغالي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٤
(٢) العلاقات بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . رجب محمد عبد الحليم . د . ص ١١
(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٩ و مابعدها .
(٤) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك . سعيد عاشور . د . ص ٢٨٥
(٥) الإسلام والحبشة عبر التاريخ . فتحي غيث . ص ١٠٢
(٦) المرجع السابق ، ص ١٠٤
(٧) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٨٧

وتنفيذ مقرراتـه".

ولم تكن دول أوربا الصليبية أقل حماساً من كنيستها ، فقد بحث الصليبيون عن حليف يقطع البحر الأحمر من الجنوب، ولم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية دولة اخرى فى الشرق يمكن محالفتها والاعتماد عليها [1] ، ولذا اتصل الصليبيون بنجاشى الحبشة سنة ١٢١٨م ليتعاون معهم فى حرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز - وهدم الكعبة [2] . وكان من ثمار تلك الاتصالات أن سارع ملك الحبشة لمساعدة لوزنجان ملك قبرص عندما هاجم الاسكندرية. [3] وكذلك فكر اسحق الاول ١٤١٤م - ١٤٢٩م فى القيام بحركة صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر وأرسل مندوباً إلى ملوك أوربا للتفاوض حول ذلك ، مستغلا قيام المماليك بغزو قبرص سنة ١٤٢٦م [4] ، ودارت مفاوضات بين الجانبين طلب الاحباش خلالها مساعدة ملوك الفرنجة لهم فى حروبهم ضد المسلمين فى مملكة عادل ومملكة ايفات الاسلاميتين [5] ومع أن الباحثات لم تسفر عن نتيجة تذكر [6] فإن الأحباش أصبحوا على قناعة ألّا قبل لهم بهزيمة المسلمين من غير مساعدة خارجية ، وقد قوى هذا الاتجاه بعد هزيمتهم على يد مملكة عادل فى موقعة دكر ، وكان الأوربيون فى ذلك الوقت فى شغف متزايد للاتصال بمملكة البرسترجون . prester John ومعرفة أى شيء عنها . [7]

وكان من نصيب البرتغال أن تكون رائدة الدول الأوربية فى مجال اكتشاف أفريقيا واستعمارها ، وفي مجال الصراع الصليبى ضد المسلمين فى القرن الخامس عشر ، ومن ثم كانت سياسة البرتغال منذ عهد هنرى الملاح تقوم على أساس إقامة أحلاف مسيحية

---

(١) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ١٠٣
(٢) الحروب الصليبية . سعيد عاشور . جـ ٢ ص ٩٦٥
(٣) المرجع السابق ص ١٢٠٩ .
(٤) النجوم الزاهرة . أبو المحاسن بن تقرى بردى . جـ ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠
والإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . المقريزى . ص ٤
(٥) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوى . د . ص ٦٢
(٦) النجوم الزاهرة . أبو المحاسن بن تغرى بردى . جـ ٦ نفس الصفحة .
والإلمام . المقريزي . ص٤
(٧) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوي . د . ص ٦٢

مع سكان القارة الأفريقية بهدف الانقضاض على المسلمين . وهكذا كانت بعض أسباب الكشوف الجغرافية البرتغالية تعود إلى رغبتهم في " إقامة أحلاف مسيحية بين البرتغال ودول غرب أفريقيا "[1] بهدف الوصول إلى الحبشة والتحالف معها لمحاصرة المسلمين في شمال أفريقيا والحد من نفوذهم ، وللحصول على مساعدة الحبشة في الوصول إلى الهند والاستئثار بتجارته التي كان المسلمون يفيدون من نقلها إلى موانئ البحر المتوسط[2] والاتجار بها مع دول أوربا وخاصة المدن الإيطالية . وكان هنري الملاح جاداً في ضم قواته إلى الحبشة ضد المسلمين ، ولذا كان يتطلع إلى إقامة اتصالات دائمة ومفيدة معها .[3] أما ملك البرتغال يوحنا الثاني فقد كان أشد الأوربيين رغبة في الاتصال بمملكة البرسترجون وإقامة العلاقات السياسية معها[4] .

وإذا كان التعاون مع الحبشة ضد مسلمي شمال أفريقيا ، وقطع طريق التجارة الإسلامية عبر البحر الأحمر من بين الأهداف والدوافع البرتغالية ، فإن ما لا شك فيه أن البرتغاليين قرروا إحياء تحالفهم القديم مع الحبشة ، هذا البلد الغامض الذي تُعلّق عليه البرتغال آمالاً عظيمة ، بهدف تدعيم مواقعهم في حوض المحيط الهندي[5] وتعزيز وجودهم العسكري والتجاري في حوض البحر الأحمر وضمان استمرار تجارة أوربا مع الشرق عبر طريق رأس الرجاء الصالح[6] المكتشف حديثا . وكذلك هدف البرتغاليون بتعاونهم مع الحبشة إلى عرقلة الجهود المملوكية ، ومقاومة النفوذ العثماني في البحر الأحمر والذي بدأ يقلق البرتغاليين منذ سنة ١٥١٧م - ٩٢٣هـ حين أرسل البرتغاليون أساطيلهم لمراقبة النشاطات العثمانية البحرية ، ومحاولة عرقلتها قبل أن تدخل ميدان المنافسة في مياه المحيط الهندي[7] . وهناك عدد من الأسباب الأخرى

---

(١) تاريخ غرب أفريقيا . فيج . جي . دى . ص ١١٠

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ ، والتعليق للمترجم بالهامش وانظر ، موجز تاريخ الشرق الاوسط ، ص ٩٢ .

(٣) المرجع السابق . ص ١٠٩

(٤) Prestage, op. cit, p217, F

(٥) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٠١

(٦) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم . د . ص ٩٩

(٧) عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين . طارق الحمداني . د . ص ١٧٢

التى كانت وراء الرغبة البرتغالية فى التحالف مع الحبشة ومنها رغبة البرتغاليين فى نشر المذهب الكاثوليكى فى الحبشة ، ورغبتهم فى القضاء على التهديد الاسلامى للمسيحية فيها ، وفي إيجاد مراكز أو نقاط ارتكاز على الساحل الغربى للبحر الأحمر لتدعيم النفوذ البرتغالي فى المنطقة ومهاجمة المدن و المقدسات الإسلامية في الجانب المقابل [1] . وكذلك أراد البرتغاليون الاستفادة من الحبشة في إحياء الروح الصليبية لكسب التأييد الاوربى من جهة ، ولكسب النصر فى ميادين جديدة من جهة أخرى . ولا يغيب عن بال الباحث ــ فى هذا الإطار ــ ما هدفت إليه البرتغال من التعاون مع الحبشة لتحويل النيل ليصب فى البحر الأحمر ، وتهديد حياة مصر التى تسيطر على المقدسات المسيحية في فلسطين .

وكانت الحبشة من جانبها مندفعة بعدة عوامل نحو التعاون مع البرتغاليين . فأولاً كانت مملكة الحبشة محاطة بالدول الإسلامية من جميع الجهات ، فمن الشمال أحاطت بها ممالك البجة مثل الحدارب وبني عامر وغيرهم ، وكذلك بنوكنز في بلاد النوبة ومن الغرب أحاطت بهم مملكة الفونج الإسلامية في سنار ، أما من ناحية الشرق والجنوب فكانت هنالك ممالك الزيلع مثل مملكة عادل ومملكة أنيات [2] ، ووضع ذلك الموقف الأحباش في جو نفسيّ خاص زاد من درجة تعصبهم الدينى لدرجة أن أحد ملوكهم أصر ألّا يُبْقِي بالحبشة أيّ مسلم حتى لا يكون عوناً لانتصار الإسلام على المسيحية في بلاد الحبشة نفسها [3] ولعل مما دفع ملوك الحبشة إلى ذلك التعصب أن بعض الممالك قد تحولت إلى الإسلام مثل مملكة مقرة النوبية التي أعلنت إسلامها سنة ١٣٢٣م ــ ٧٢٣هـ ومملكة علوة في أرض الجزيرة بالسودان التي أعلنت إسلامها سنة ١٥٠٥م ــ ٩١١هـ [4] ومما زاد الطين بلّاً بالنسبة للأحباش أن بعض أمرائهم كان قد تحوّل إلى راية الإسلام ودافع عنها ببسالة ، وذلك مثل الأمير حرب جوش الذي أعلن إسلامه وانضم إلى قوات سلطان أينات فى قتال قومه من النصارى [5] ، ومثل فرشحم سطوت الذي أعلن

١) العواني السودانية . صلاح الدين الشامي . د . ص ١٢١

٢) صبح الأعشى . القلقشندي . جـ ٥ ص ٢٧٤
والعلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . رجب عبد الحليم . ص ٢٥

٣) العلاقات السياسية . رجب عبد الحليم . د . نفس الصفحة .
انظر المرجع السابق ، ص ٨٩ ــ ٩١

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٥ (٥) الإلمام . المقريزى . ص ٦١

إسلامه وانضم لقوات سلطان عادل في حربها ضد الحبشة .[١]

وكانت ممالك الزيلع تسيطر على موانئ البحر الأحمر الغربية وتتحكم بذلك في طرق التجارة المؤدية إلى هضبة الحبشة ، وكان الأحباش يرون ضرورة الخلاص من هذا الحصار بالنفاذ إلى البحر الأحمر . وهي بهذا تلتقي مع الدول الأوربية في رغبتها في الخلاص من وساطة الدول الإسلامية ودورها الفعال في حركة التجارة الدولية[٢] ومما جعل الأحباش أكثر حاجة وإلحاحاً للتعاون مع الدول الأوربية أنّ الزيالعة كانوا ينافسونهم ويخوضون معهم أشرس الحروب منذ القرن الثالث عشر وظلّ العداء سائداً بين الطرفين طوال القرن الخامس عشر إلى أن تفوق الزيالعة عليهم واحتلوا كثيراً من بلدانهم في النصف الأول من القرن السادس عشر .[٣] وهكذا دخل هذا الصراع المحلي في نطاق الصراع الهائل بين البرتغال والدول الإسلامية في الشرق الأدنى[٤] ، لان الحبشة – مع تقدم الزمن – أصبحت ترى في البرتغاليين سبيلاً للتخلص من النفوذ العثماني ومن النفوذ الزيلعي في ذات الوقت ، وخلاصاً لها من عزلتها الداخلية وانفصالها عن طرق التجارة البحرية بإشراف العثمانيين على مصوع وسواكن وغيرها من موانئ البحر الأحمر الغربية .[٥]

بدأت محاولات التعاون بين البرتغاليين وملوك الحبشة تدخل في حيز التفكير العملي بدءاً من سنة ١٤٨٧م – ٨٩٣هـ ، وبعدها كثرت الوفود والبعثات البرتغالية للحبشة[٦] وتم أول اتصال بين الطرفين بعد ذلك بثلاث سنوات ، عندما أرسلت البرتغال بيدرو دي كوفلهام إلى الحبشة حيث استقبل استقبالاً حسناً ومُنِحَ قطعةً من الأرض وأُسْبِغت عليه الألقاب[٧] وقد لعب كوفلهام دوراً مهمّاً في عملية التعاون البرتغالي الحبشي أثناء مدة إقامته في الحبشة والتي استمرت نحواً من ثلاثين عاماً قضاها كوفلهام في توطيد العلاقات بين الجانبين إلى أن عاد إلى البرتغال حاملاً موافقة ملك الحبشة على الاشتراك مع دولته في حرب مشتركة ضد مصر للإطباق عليها من الشمال والجنوب[٨]

(١) فتوح الحبشة . عرب فقيه ص٢٨ . وهناك أمثلة أخرى ص ١٤١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٢) العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . رجب عبد الحليم.د. ص ٧٧

(٣) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٨٥ ، ٨٦

(٤) الدولة العثمانية والشرق العربي ص ١٢٥ . (٥) الموانئ السودانية . صلاح الدين الشامي ص١٢١ .

(٦)

(٧) الإسلام والحبشة . فتحي غيث . ص ١٤٥ .

[illegible] حسن أحمد محمود . د . ص ٤٠٦

ويبدو أن هذه السفارة قد قوّت آمال التعاون مع الحبشة لدى البرتغاليين، إذ ما وصل فاسكو دي جاما إلى ساحل أفريقيا الشرقي حتى سأل هو أو بعض رجاله عن بلاد القديس جون حيث عرف أنها بالداخل وأنه يمكن الوصول إليها على ظهور الإبل [1]. ولا بد أن يكون دي جاما قد جمع عن الحبشة وكيفية الوصول إليها وإمكانات التعاون معها معلومات ضافية بدليل أن ملك البرتغال عمانويل أرسل مع حملة بيدرو الفاريز سنة ١٥٠٠م – ٩٠٦هـ مبعوثين للاتصال بالحبشة بمساعدة مالندي. [2]

ورغم المساعي البرتغالية هذه فإن الملكة هيلانة وصية العرش فيما بين سنتي ١٥٠٨م – ١٥٤٠م، كانت ميالة لتسوية خلافاتها مع الولايات الإسلامية حقنا للدماء ورغبة في فتح طريق التجارة عبر البحر الأحمر بالطرق الدبلوماسية، وأرسلت لهذا الغرض سفارات للدول الإسلامية المعنيّة ومنها مصر ولكنها لم تنجح في محاولاتها الدبلوماسية مع تلك الدول [3] التي كانت في موقف المنتصر أو المتفوق. ومن ثم أوصت الملكة هيلانة باستعمال القوة ضد تلك الدول، وأرادت ان تعزز موقفها بالتعاون مع البرتغاليين [4] الذين أخذوا في تثبيت أقدامهم وتعزيز مواقعهم في المياه الشرقية كقوة استعمارية مهيمنة وخاصة بعد معركة ديو ١٥٠٩م – ٩١٥هـ. وأرسلت لهذا الغرض سفيراً أرمنيا يدعى مايثوس إلى البوكيرك، نائب الملك البرتغالي في الهند، فيما بين سنتي ١٥٠٩م – ١٥١٢م [5]، حيث استقبل استقبالاً عظيماً وأرسل مع الأسطول البرتغالي إلى لشبونة حاملاً رسالة الملكة هيلانة إلى الملك البرتغالي والتي تعرض فيها رغبة الحبشة في التعاون مع البرتغاليين لمواجهة القوى الإسلامية، عدوّهم المشترك، وتقترح على الملك أن يقوم بإمداده بالسفن والجند ليمكن قواتها من سد منافذ البحر الأحمر عند باب المندب أو الطور، وتبدى استعدادها لأن تقدم للقوات البرتغالية كل

---

(١) فتح العثمانيين عدن. محمد عبد اللطيف البحراوي. د. ص ٥٩

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية. جيان. ص ٢١١ – ٢١٢

(٣) الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال. الشاطر بصيلي عبد الجليل. ص ١٢٢

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٥) هناك خلاف بين المؤرخين في تحديد موعد لرحلة السفير الارمني.

ما تحتاج إليه من الرجال والمؤن . ولم يفت الملكة أن تحذر البرتغاليين من الاستعدادات المملوكية القائمة على قدم وساق منذ هزيمة ديو، (١) وأكدت ملكة الحبشة في رسالتها إخلاصها للكاثوليكية ورغبتها في إرسال البرتغال لبعثة كاثوليكية إلى الحبشة وكانت هذه حركة بارعة من جانبها حيث حاولت سلخ كنيسة الحبشة عن كنيسة مصر وربطها بروما كجزء من الاتجاه العام في ربط مصير الحبشة بالمسيحية الأوربية وهو أمر بعيد الاحتمال . وربما كان ذلك مناورة منها لتشجيع البرتغاليين على التحالف معها(٢) لعلمها أن البرتغال تضع هذا الهدف نصب أعينها وتسعى جاهدة لتحقيقه .

وبينما كان السفير الحبشي في لشبونة وقعت حادثة لها مغزاها إذْ هاجم البوكيرك بأسطوله سنة ١٥١٣م – ٩١٨ هـ إحدى الجزر الواقعة في مدخل البحر الأحمر حيث وجد أربع سفن حبشية متجهة إلى جدة وهي محملة بالبضائع وعلى متنها عدد من الركاب الأحباش والعرب . فأمر البوكيرك بفرز العرب عن الأحباش ثم أمر بجدع أنوفهم قبل إنزالهم إلى البر . (٣) ويدل ذلك على رغبة البرتغاليين في إظهار نواياهم تجاه مملكة الحبشة، في الوقت الذي كانت المفاوضات دائرة بين الطرفين، وكانت شائعات كثيرة تتردد عن مشروعات برتغالية حبشية مشتركة ، كان بعضها خيالي كمشروع تغيير مجرى النيل ونزول البرتغاليين في ينبع لمهاجمة المدينة ونبش قبر الرسول عليه السلام(٤) وأياً ما كان الأمر ، فقد زار ماثيوس بعد لشبونة روما سنة ١٥١٥م – ٩٢١هـ، فيما كانت دولة المماليك تجود بأنفاسها الأخيرة وتتهاوى تحت ضربات العثمانيين منذرةً بتغيير كبير سوف يجتاح موازين الصراع في الشرق، ولكن ماثيوس عاد من روما إلى لشبونة ومنها توجه الى الحبشة حيث وصل ميناء مصوع سنة ١٥١٧م –٩٢٣هـ ، ولكنه لم يتمكن من التوجه لمملكة الحبشة (٥) التي كانت تخوض حروباً طاحنة مع مملكة عادل الإسلامية

١) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص٦٥، ٦٦ والإسلام والثقافة العربية . حسن أحمد محمود . د . ص٤٠٧ .

٢) الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٢٥

٣) الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية . فالح حنظل . د . ص١٢٦

٤) الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٢٦

(٥) المرجع السابق ، ص١٢٥ .

وكانت طريق الوصول إلى الامبراطور الحبشي غير آمنة . ومن هنا توجه ماثيوس مع الاسطول البرتغالي إلى الهند حيث توفي هناك سنة ١٥٢٠م - ٩٢٦ هـ قبل أن يتمكن من نقل اتفاقة ومساعيه لدى الملك البرتغالي في لشبونة ، وهى المهمة التى تولى أمرها القائد البرتغالي رد ريجو دى ليما - Rdrigo de Lima [1] . على ما سيتضح بعد قليل ، إذ حدث قبل وصول دى ليما للحبشة بعض الأحداث المهمة في مجال التعاون البرتغالي الحبشي ، حيث أصبح البرتغاليون أكثر رغبة في السيطرة على البحر الأحمر بعد انتصارهم في ديو ، وبات من المؤكد أن هذه الرغبة لن تتحقق إلا بتقوية التحالف مع الحبشة ، ولذا أرسل البوكيرك سنة ١٥١٠م - ٩١٦هـ مبعوثين إلى البلاط الحبشي عن طريق رأس جوردافوى للتعرف عن كثب على ما يمكن عمله ضد المماليك في مصر ، ومملكة عادل على الحدود الغربية الجنوبية لسواحل البحر الأحمر [٢] ، وتم الاتفاق في هذا الإطار بين الطرفين المتحالفين على العمل على تحويل مجرى نهر النيل عن دولة المماليك [٣] للقضاء على أسس الحياة فيها وإجبارها على التسليم بالأطماع الصليبية التي رفضت الرضوخ لها من قبل ، وكانت تراود الحبشة مثل هذه الأحلام منذ وقت مبكر من القرن الخامس عشر [٤] ، ولذا استجابت لعرض البوكيرك الذي أرسل بدوره إلى لشبونة طالباً من الملك البرتغالي أن يمده بالقوة البشرية القادرة على تنفيذ المشروع كالمهندسين ، والعمال الفنيين القادرين على قطع الصخور وشق القنوات [٥] ، لمساعدة الحبشة على تنفيذ الخطة .

وسقطت دولة المماليك وحلت محلها الدولة العثمانية سنة ١٥١٧م - ٩٢٣ هـ قبل أن يتوصل الحليفان لأي إجراء تنفيذى ، وكان لوبوسواريز قد خلف البوكير قبل ذلك بعامين ، وبرغم إيمانه بضرورة التعاون مع الحبشة وتوقفه على المشروعات التى وضعها

١) الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال . الشاطر بصيلي عبد الجليل . ص ١٣٢

٢) العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . ص ١١١ - ١١٢

٣) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٢٥٩

٤) الإسلام والثقافة العربية . حسن أحمد محمود . د . ص ٤٠٥

٥) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٢٥٩ والحروب الصليبية ص ١٢١٤ وبعض أضواء ص ٤٢ .

سلفه ، فإنه توقف حتى سنة ١٥٢٠م-١٢٦هـ قبل أن يرسل قائده دى ليما و معـه كميـة من البنادق لتسليح الجيش الحبشى بالأسلحة الحديثة، على اعتقاد أنه سيجد جيشـا قويا تحت إمرة الحاكم الحبشي ، ولما لم يكن الأمر كذلك، أصيب البرتغاليون بخيبـة أمل أدت إلى فتـور حماسهم لفترة طويلـة بعد ذلك، [1] و رغم ذلك فقد بقيت الحملـة البرتغالية فى الحبشة حوالى خمسة أعوام بهدف دراسة الوضع وتقدير الإمكانات و وضـع الخطط لتنفيـذ المشروع السابق، و القيام بمهاجمة المقدسات الإسلامية فى الجزيـرة العربية. [2] و يبدو أن التقرير الذي أعدتـه البعثة البرتغالية لم يكن لصالح المشـروع كما يبدو أن التقرير - و الذي ترجم لجميع اللغات الأوربية [3] - لم ينصح للقيام بـأى مشـروع كبير استنادًا على أن تقوم القوات الحبشـة بدور أساسي فيه . و لذا تحول ملـك الحبشـة إلى مشروع أكثر واقعيـة، بناء على إدراكـه لحقيقة الدور الذي يمكن للبرتغال ان تلعبه بامكاناتها البشرية المحدودة و اهدافها الواضحة المحددة ، و التى ليـس من بينها الرغبـة فى التوسـع البرى بعيداً عن المملكة الأم، فاقترح على البرتغاليين ان يستولوا على سواكن و مصوع و يبنوا فيهما قلاعا لإقامة الحاميات البرتغالية بهدف وقف التقدم العثماني الذي تزايد خطره بالاستيلاء على مصر . و كذلك شجـع البرتغاليين على احتلال زيلع باعتبارها أكثر موانئ البحر الأحمـر صلاحيـة لتموين الأساطيل البرتغالية و للإشراف على البحر الأحمـر و عرقلة الحركـة الاقتصادية و العسكرية الإسلاميـة فيه [4] .

و يبدو أن البرتغال لم تكن مستعدة لتركيز قواتها فى البحر الأحمر الذي يلعـب دور الوسيط لا دور المنتج في التجارة الدولية الرائجة آنذاك، و لذا عاد الملك الحبشي فاقترح أن يتم تنفيـذ هذا المشروع الأخير بعمل أوربي مشترك على أن تحتل فرنسـا زيلع و تنشئ قلعة فرنسـية فيها . و تحتل البرتغال ميناء مصوع و تقيـم فيه حاميـة برتغالية. أما أسبانيا فيكون من نصيبها ميناء سواكن [5] ، و كان الملك الحبشي يهدف

١) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاى إيڤانوف . ص ١٥١ - ١٥٢
٢) الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال . الشاطر بصيلي عبد الجليل . ص ١٢٢
٣) الإسلام والثقافة العربية . حسن محمود . د . ص ٤٠٧
٤) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ٦٨
٥) الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال . ص ١٢١

من وراء هذا الاقتراح إلى عرقلة تقدم النفوذ العثماني في المنطقة الواقعة غرب البحر الأحمر و منع العثمانيين من مساعدة مملكة عادل الإسلامية و التي ستقع حينئذ بين فكي الـسرحى و ستحاصرها القوات الأوربية من الشرق لتقطع عنها الإمدادات الإسلامية القادمة عن طريق البحر الأحمر ، في حين تطبق عليها القوات الحبشية من الغرب و تلحق بها هزيمة ساحقة. و لعل الباحث لا يعدو الصواب إذا قال إن ملك الحبشة أراد بذلك أن يحيي الروح الصليبية الأوربية في الشرق من جديد ، بدليل انه ارسل سنة ١٥٢٤م - ٩٣٠هـ وفداً حبشياً للبابا كلمنت السابع ليبدى له استعداد الحبشة للدخول في المذهب الكاثوليكي [1].

و لتحقيق ذلك كثف ملك الحبشة لبنا دنجل اتصالاته مع أوربا ، فبعث برساله للملك البرتغالى يعرب فيها عن تقديره له و لجهوده الصليبية فى قتال المسلمين و يحثه على احتلال القدس و طرد المسلمين منها [2]، و بعث - كذلك - فى نفس الوقت إلى نائب الملك فى الهند رسالة ودية تعبر عن رغبة الحبشة في قيام البرتغال باحتلال البحر الأحمر و السيطرة عليه [3]. و كذلك قام الملك - فى الوقت الذي غادرت فيه بعثة داليما سنة ١٥٢٦م -٩٣٣هـ [4]- بإرسال موفد إلى ملك البرتغال و البابا بهدف القيام بدور أوربى أو برتغالى كبير لمواجهة القوى الإسلامية في حوض البحر الأحمر[5].

و لما لم يكن البرتغاليون ، الذين هاجموا سواكن سنة ١٥١٣م - ٩١٩هـ - و مدينة زيلع سنة ١٥١٧م -٩٢٣هـ و مدينة بربرة فى العام التالي ، و مدينة مصوع سنة ١٥٢٠م - ٩٢٦هـ [6]، لما لم يكونوا مستعدين أو قادرين على التمادي أكثر من ذلك و المخاطرة بإقامة حاميات ثابته على مقربة من مراكز العثمانيين وأسطولهم فى البحر الأحمر، فقد قاموا بعرض مقترحات ملك الحبشة على الدول الأوربية [7] التي لم تكن

---

١) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧٥
٢) العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . رجب عبد الحليم . د . ص ١١٧
٣) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ٦٩
٤) الإسلام والحبشة . فتحي غيث . ص ١٤٥
٥) فتح العثمانيين عدن . ص ٦٩
٦) لمزيد من التفصيل انظر الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٦٢ - ١٦٤
٧) انظر تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . ص ٤٤

أكثر حماساً من البرتغال للفكرة الحبشية. ومن ثم لم تنجح الحبشة في حشد الدعم الأوربي اللازم لحمايتها ، وبذلك أقبلت على مرحلة قاتمة في صراعها مع مملكة عادل الاسلامية.

إن الفشل الذي لا حَقَ المشروعات البرتغالية الحبشية لم يضع حدًا للصراع بين التيار السياسي البرتغالي الدخيل الذي يستند إلى حليفته الحبشة، وبين التيار العثماني الإسلامي صاحب السيطرة والنفوذ الأكبر على البحر الأحمر ومعظم سواحله وموانئه. وكانت مصوع بمثابة المسرح الذي تتابعت عليه أجزاء مهمة من أحداث ذلك الصراع والتنافس [1]. ولعل من النافع هنا أن نطّلع على الدور العثماني ـ العادلي في مقاومة التحالف البرتغالي الحبشي ، قبل أن نستمر في تتبع مسار ذلك التحالف، على اعتبار أن التعاون العثماني الزيلعي هو الذي أثرى مجريات الصراع البرتغالي الإسلامي من جهة والإسلامي الحبشي من جهة ثانية ، وهو المحور الذي تكالبت ضده كافة الجهود البرتغالية والحبشية في حوض البحر الأحمر حتى سنة ١٥٤٢ م ـ ٩٤٨ هـ.

* * *

وقف العثمانيون على التحركات البرتغالية وتهديدها للبحر الأحمر وموانئه بدءاً من باب المندب وانتهاء بالسويس. [2] وأدركوا خطر التحالف البرتغالي الحبشي وارتاعوا للسفارات المتبادلة بين الطرفين [3] حيث يمكن أن يؤدي ذلك إلى حرمان العثمانيين من وجودهم في مصر والجزيرة العربية، وإلى تدمير المقدسات الإسلامية التي أصبح واجب حمايتها منوطاً بالدولة العثمانية منذ استيلائها على ميراث الدولة المملوكية وتوليها للمهام التي كانت تقوم بها من قبل ، وليس من شك أن أحد أهم الأهداف العثمانية تمثل في رغبتهم في كسر طوق الاحتكار البرتغاليين للتجارة الدولية بإعادة الاهتمام بتجارة البحر الأحمر وجعل الملاحة فيه حرة آمنة بلا عوائق. وبناء على ذلك اتجه العثمانيون إلى تقوية نفوذهم السياسي، وتعزيز قوتهم السياسية في منطقة البحر الأحمر كبداية للمواجهة الشاملة للخطر البرتغالي في مياه المحيط الهندي.

---

١) الموانئ السودانية . صلاح الدين الشامي . د . ص ١٢٢

٢) تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . . ص ٥٢ هامش

٣) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا . حسن محمود . د . ص ٤٢٣

و من ثم تركزت جهودهم في اتجاهين متوازيين ، فمن جهة حرصوا على القضاء على أي محاولة للتحالف البرتغالي الحبشي [1] سواء كان ذلك إمّا بالتدخل العسكري المباشر بالتصدي للأساطيل البرتغالية في مياه البحر الأحمر ، وإما بالتعاون مع القوى الإسلامية المحيطة بالبحر الأحمر من جانبيه الشرقي و الغربي . ومما يذكر أن العثمانيين في توجههم هذا قد اتبعوا في شرق البحر الأحمر سياسة فرض التبعية المباشرة و التي لاقوا من أجلها عنَتاً كبيراً من الطاهريين وغيرهم من القوى المتواجدة في جنوب اليمن خاصة أما في غرب البحر الأحمر فقد اعتمدوا على أسلوب التعاون السياسي والحربي مع القوى الإسلامية الموجودة هناك ، وعلى رأسها مملكة عادل التي كانت منهمكة الحبشة في صراع متواصل منذ القرن الثالث عشر . ومن جهة أخرى عزز العثمانيون وجودهم العسكري في موانئ البحر الأحمر الهامة ، حيث قام سنان باشا سنة ١٥٣٠م –٩٣٧هـ باحتلال سواكن ومصوع و زيلع على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، كما احتل زبيد و الحديدة و مخا على الجانب الشرقي منه و وضع في كل مدينة حامية عثمانية مجهزة بالأسلحة النارية ثم جعل إدارة هذه الحاميات و الاشراف عليها منوطا بقائد جدة [2] لكونه أقرب إلى الأحداث و أقدر على تقدير الأمور و الاتصال بالسلطة العثمانية في مصر للتنسيق معها في الوقت المناسب .

وفي ظل هذه السياسة اهتم العثمانيون اهتماما خاصاً بسلطنة عادل الإسلامية لأنها تمثل قاعدة أساسية للعمليات الهجومية ضد أثيوبيا من جهة ، ولأنها تحتل موقعاً استراتيجيا مهماً بإشرافها على مضيق باب المندب من الناحية الغربية من جهة أخرى [3] وليس من شك أن سيطرتها على الحبشة يعني فيما يعني ضمان السيطرة العثمانية على الجزء الجنوبي الغربي من المحيط الهندي . [4] أما مملكة عادل فقد وجدت أن تعاونها مع العثمانيين سيوفر لها الحماية البحرية ضد الخطر البرتغالي المحدق و الذي تجلت

---

١) وقد كان تعاونهم مع أحمد جران لتحقيق هذا الهدف .

٢) تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . ص ٥٢

والفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١١٣

٣) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ١٦٤

٤) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧٥

مخاطره المباشرة منذ سنة ١٥٢٠م ـ٩٢٦هـ حين رسا دى ليما فى ميناء مصوع و قدم للحبشة إمدادات عسكرية، فضلاً عن قيامه بالتنسيق السياسي و العسكري مع قادتها . و سيوفر لها كذلك المساعدات العسكرية التى ستمكنها من الانتصار على مملكة الحبشة و التوسع على حسابها . و هكذا التقت المصالح العثمانية بمصالح عادل الإسلامية و التي كان يتولى قيادتها آنذاك الإمام أحمد بن إبراهيم، و شد من أزر تلك المصالح الوحدة الدينية التى قوت ارتباط الطرفين [1] للحصول على المزيد من القدرة المشتركة فى مواجهة التحدي الصليبى الذى برز فى صورة التحالف البرتغالى الحبشى و من وراءه الكنيسة الكاثوليكية و دعم الدول الأوربية .

* * *

بدأ العثمانيون تعاونهم الفعلي مع حليفهم الإمام أحمد بن إبراهيم (الغازى) سنة ١٥٢٦م ـ٩٣٢هـ وربما بعيد مغادرة بعثة دى ليما مباشرة ، حيث قامت إحدى الوحدات الانكشارية العثمانية بمساعدة الإمام فى تكوين جيش نظامي يعتمد فى حركته و تسليحه على الأسس الحديثة ، و كان قوام هذا الجيش الذى أمدوه بالأسلحة النارية ، كالمدافع الثقيلة و البنادق ، من العرب والوحدات الأفريقية و الصومالية [2] خاصة . و حرص العثمانيون في ذات الوقت على إظهار الإمام أحمد بمظهر القائد الديني الذي يحمل راية المسلمين فى مواجهة الصليبيين الأحباش [3] ، و ذلك لضمان التأييد الشعبى له ، و لضمان استمرار تدفق المتطوعين إلى صفوف جيشه .

و حقق الإمام أحمد بن إبراهيم أول انتصاراته على الأحباش بعد أن بدأ تعاونه مع العثمانيين بعامين أى سنة ١٥٢٧م ـ٩٣٣هـ . ثم ألحق بالقوات الحبشية هزيمة أخرى في موقعة شينركورى سنة ١٥٢٩م ـ ٩٣٥هـ ، و بعد ذلك تواصلت انتصاراته ، فدخل دوارو و شوا وأمحره (أمهار) و لاستا سنة ١٥٣١م ـ٩٣٧هـ ، و حرر الولايات الإسلامية القديمة مثل بالي و سيدامو و عوراج و هديا فى الجنوب سنة ١٥٣٣م ـ٩٣٩هـ [4] ، و فى العام التالي دخلت قوات الإمام أحمد إقليم تيغره الوعر فى الشمال ، ثم احتلت بيغامدير

١) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم ـ د . ص ٧٥

٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نقولاى إيفانوف . ص ١٦٤

٣) الاستعمار البرتغالي . ص ٧٥

٤) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٨٨ . والإسلام والثقافة . حسن محمود . د. ص ٤٢٢

وغوجام في الشمال الغربي دون مقاومة. [١] وبذلك تكون قواته قد اجتاحت أجزاء كبيرة من مملكة الحبشة، وامتدت سلطته من شواطئ البحر في الشرق حتى مدينة كسلا في الغرب حيث اتصلت بالمقاطعات الإسلامية في شرق السودان [٢]. وبذلك باتت قواته تهدد العرش الحبشي نفسه.

وكان البرتغاليون أثناء المعارك السابقة يساندون ملك الحبشة حيث أمدوه سنة ١٥٣٠م–٩٣٧هـ ببعض الأسلحة النارية ولكن الواضح أن هذه الإمدادات لم تكن بذات جدوى ولم تستطع الحد من سرعة المد التي انتشرت فيها انتصارات قوات أحمد جران على الحبشة [٣]. ولذا طلب داود الثالث سنة ١٥٣٥م–٩٤٢هـ من البرتغاليين أن يهبوا لمساعدته [٤]، ولكنهم لم يأبهوا لاستغاثته ولم يقتنعوا بضرورة الانتقال إلى مرحلة حاسمة في تعاونهم مع الحبشة إلا بعد احتلال العثمانيين لليمن سنة ١٥٣٧م – ٩٤٤هـ؛ وبعد أن تأكدوا أن أحمد جران مُصّر على مواصله انتصاراته حتى النهاية [٥]؛ حيث ألحقت قواته بالأحباش فيما بين سنتي ٩٤٣–٩٤٧هـ عدداً من الهزائم المتلاحقة [٦]. وعندما قرر البرتغاليون إرسال قوة برتغالية لمساعدة الحبشة كان الملك لبنا دنجل أو داود قد مات وخلفه كلوديوس أو أسناف سجد الأول [٧].

ومما يذكر أن القرار البرتغالي جاء بعد مهاجمة العثمانيين لقواتهم في سواحل الهند مباشرة، وأن قرار المساعدة هذا قد جاء في صورة حملة برتغالية شاملة على القوات العثمانية في حوض البحر الأحمر، وأن فشل تلك الحملة في تحقيق نتائج حاسمة دفع البرتغاليين إلى التدخل المباشر لصالح الحبشة ضد قوات الإمام أحمد ابن إبراهيم.

بدأ البرتغاليون استعداداتهم للرد على الحملة العثمانية سنة ١٥٣٩م –٩٤٦هـ

(١) الأحباش بين مأرب وأكسوم. ص ٨٨. (٢) الإسلام والحبشة. فتحي غيث. ص ١٥٢
(٣) العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة. ص ١١٧ – ١١٨
(٤)
(٥) الفتح العثماني للأقطار العربية. نيقولاي إيفانوف. ص ١٦٤
(٦) الإسلام والحبشة. ص ١٥٣ (٧) ويذهب البعض إلى أن المساعدات البرتغالية قد وصلت قبل وفاته المرجع السابق – ص ١٥٥

وبعد عامين من الاستعداد تحرك أسطول برتغالي من اثنين وسبعين سفينة بقيادة نائب الملك دون اسطيفان دى جاما نفسه، حيث وصلت الحملة ميناء مصوع في فبراير ١٥٤١م ٩٤٨هـ، وخاضت مع العثمانيين معركة طاحنة، في حين اندفع نحو مائة جندي برتغالي بحماسهم الصليبي – مخالفين أوامر القائد – لمساعدة الحبشة فى حروبها ضد الإمام أحمد، ولكنهم دفعوا حياتهم أمام قوة من الإنكشارية العثمانية ولم ينجُ منهم إلا اثنان. وبعد ذلك انتقل البرتغاليون إلى سواكن حيث قاموا بمهاجمتها فى مارس من نفس العام وأعملوا فيها السلب والنهب قبل أن يتركوها ومياهها للنيران. وفى الشهر التالي قام الأسطول البرتغالي بمهاجمة بعض الموانئ الهامة كالقصير والسويس، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على السفن العثمانية التي تم نقلها إلى مكان آمن. وقفل الأسطول البرتغالي عائداً فى ذات الشهر.[1]

وقرر اسطيفان دى جاما فى يوليو من نفس العام أن ينزل قوة برتغالية يبلغ عدد رجالها نحواً من أربعمائة وخمسين جندياً مزودين بالأسلحة النارية الحديثة، وتولى قيادتهم كرستوفر دى جاما[2] وسرعان ما انضم إليهم عدد من الأمراء القدامى واتباعهم[3]. وكان ملك الحبشة كلوديوس فى أثناء ذلك قد استجمع قواته وبدأ يحقق أول انتصاراته ضد الإمام أحمد وقواته. ويرجع بعض الباحثين أن العثمانيين قد سارعوا فى ذلك الوقت لمساعدة الإمام حيث كانت قواته قد بدأت تهتز، وتتأثر معنويات رجاله بارتداد بعض جنده الأحباش إلى النصرانية[4]، وخاصة بعد أن خاضوا معركتين خاسرتين ضد القوات البرتغالية والقوات الحبشية بسبب تفوق هاتين القوتين فى العتاد والأسلحة. ومهما يكن من أمر فإن الإمام قد اتصل عندئذ بالقوات العثمانية فى اليمن والحجاز طالباً نُصْرَتَها حيث أمدته القوى العثمانية على الجانب الشرقى من البحر الأحمر بتسعمائة من المحاربين الأشداء بكامل أعتدتهم الحربية والتى تضمنت عدداً من

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية. نيقولاى إيفانوف. ص ١٦٥ - ١٦٦

(٢) الإسلام والحبشة. فتحي غيث. ص ١٥٥

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٤) العلاقات السياسية. رجب عبد الحليم. د. ص ٢٠٧

المدافع[1] ، بالإضافة إلى ألفين من الفرسان العرب[2] .

و بانحياز القوتين العظمتين بين طرفي الصراع وقفت القوات العثمانية ، إلى جانب قوات الإمام أحمد ، وجهاً لوجه ضد القوات البرتغالية التي انحازت لقوات الحبشة وبدأ صراع مباشر بين القوتين عندما تحرك الإمام أحمد بقواته ، والتي كان قد وصل عددها إلى نحو عشرة آلاف ، مضافاً إليها القوات العثمانية ، واستطاع أن يفاجئ المعسكر الحبشي البرتغالي في أناحسى في أغسطس سنة ١٥٤٢م ـ٩٤٨هـ . وعلى إثر المفاجأة هرب الأثيوبيون بشكل فوضى وتبعهم البرتغاليون متخلين عن جرحاهم وقتلاهم وكانوا حوالى مائتين ما بين قتيل وجريح ، وهزم دى جاما وتشتتت قواته قبل أن يقع في أسر العثمانيين جريحًا حيث لقى حتفه .[3]

اتجهت الفلول المنهزمة إلى إقليم شوا حيث كان يقيم الملك الحبشي كلوديوس مع ثمانية آلاف من الجنود ومعهم خمسمائة فارس[4] . وقام البرتغاليون بمحاولة إنزال في مصوع وسواكن في ربيع ١٥٤٢م ولكنها باءت بالفشل تحت ضغط القوات العثمانية التي اضطرتهم إلى العودة للهند .[5]

وفي الوقت الذي كان فيه كلوديوس ينظم صفوف قواته بالتعاون مع البرتغاليين ويحيك المؤامرات ضد الإمام وقواته ، كان الإمام مزهوًا بنشوة النصر ، وظن أن معركته مع الأحباش والبرتغاليين كانت فاصلة وأن الصراع قد حسم تقريباً لصالحه ، وأنه لم تعد هناك حاجة لبقاء القوات العثمانية والعربية ، فأمر بترسيح تلك القوات ورد المدافع الثقيلة ، ولم يبق سوى نحو مائتي جندي عثماني[6] ليحقق التوازن مع القوات البرتغالية

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر فتوح الحبشة . عرب فقيه . ص ٢١٩

(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية نيقولاى إيفانوف . ص ١٦٧

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) العلاقات السياسية . رجب عبد الحليم ص ٢٠٨

(٥) المرجع السابق . ص نفسها

(٦) المرجع السابق . ص ١٦٨

المتبقية لدى الأحباش. وكان ذلك خطأ ارتكبه الإمام بسوء تقديره للأمور، وزاد من فداحته أن الإمام كان قد سرح أيضا سرايا المتطوعين وبعض كتائب الفرسان.[1]

انتهز كلوديوس وقواته هذه الفرصة، وفاجأوا قوات الإمام، التي كان من الصعب لم شعثها في الوقت المناسب، في منطقة "وجار" جنوب غرب (سمين)، بالقرب من بحيرة تانا، في شباط سنة ١٥٤٣م ـ ٩٤٩هـ حيث ألحقوا بالإمام وقواته هزيمة ساحقة انتهت بمقتل الإمام نفسه ومعه أربعون جنديا برتغالياً، وبعد ذلك تفرقت قواته[2] مؤذنة بنهاية صفحة ناصحة من تاريخ الجهاد الإسلامي في منطقة السواحل الغربية للبحر الأحمر، حيث استطاع ملك الحبشة أن يستعيد المناطق التي فقدها، ويبسط نفوذه على كافة إراضي مملكته. وانتهى الأمر بانحسار القوات العثمانية حيث اكتفى العثمانيون بالإشراف على السواحل الغربية للبحر الأحمر من خلال سلسلة الموانئ التي استولوا عليها[3]. أما القوات البرتغالية، فمنها من التحق بالقوات الأم من جديد، ومنها من ظلّ في أرض الحبشة وانصهر في المجتمع الحبشي[4] استعداداً للطور الجديد من أطوار التعاون البرتغالي مع مملكة الحبشة المسيحية.

وتطورت الأوضاع السياسية في المنطقة بعد ذلك لغير صالح القوى الإسلامية في جنوب غرب البحر الأحمر، إذ استطاع ملك الحبشة أن يواصل انتصاراته على قوات عدل الإسلامية[5]، وقام ـ كذلك ـ بإعادة بناء دولته التي أصبحت تتمتع بكفاءة قتالية عالية في الوقت الذي أخذت فيه القوات الإسلامية في التدهور التدريجي أي في الوقت الذي أصبحت فيه الحبشة حليفاً قوياً للبرتغال تعرضت القوات العثمانية إلى عدد من الهزائم المتلاحقة التي مني بها بيري ـ رئيس سنة ١٥٥٢م ـ ٩٥٨هـ ومراد باشا سنة ١٥٥٣م ـ ٩٦٠هـ، وسيدي على سنة ١٥٥٤م ـ ٩٦١هـ. وأحس البرتغاليون بثقة متزايدة بقوتهم حيث أصبحوا سادة البحار الجنوبية بلا منازع ولم يبق

---

١) الأحباش. ممتاز العارف. ص ٧٩ . ٢) موجز تاريخ أفريقيا. رونالد أوليفر. ص ١١١

٣) الاستعمار البرتغالي. جمال قاسم. د. ص ٧٧

٤) الأحباش بين مأرب وأكسوم. ممتاز العارف. ص ٩٠.

٥) استعمار أفريقيا. زاهر رياض. د. ص ٤٩

من يؤرقهم غير القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن البرتغالية المنفردة . وبتراجع النفوذ العثماني أصبحت الدول الإسلامية في السودان والقرن الأفريقي أمام خطر حقيقي يهدد باحتمال تعرضها للغزو الأثيوبي البرتغالي في الوقت الذي لا تملك فيه تلك الدول وسائل الدفاع عن نفسها .[1]

وخيل للبرتغاليين ، في ذلك الوقت ، أن فرصتهم قد سنحت لاستغلال معونتهم للأثيوبيين وتحالفهم معهم بنشر المذهب الكاثوليكي الذي تؤمن به البرتغال . وتخالفه أثيوبيا إلى المذهب الأرثوذكسي ، فأرسلوا بالتعاون مع البابا مبشرين من الآباء اليسوعيين بخطاب يطلب من الملك الحبشي فصل كنيسة أثيوبيا عن كنيسة مصر وإعلان تبعيتها لكنيسة روما . ولكن الملك الحبشي لم يستجب لذلك الطلب ،[2] وبذلك دخل التعاون البرتغالي الحبشي مرحلة جديدة[3] ، تميزت بعداء البرتغال السياسي للسلطة الأرثوذكسية ، وسيرها بخطى حثيثة في ميدان العمل على تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي ، وهو الهدف الذي فشلت البرتغال في تحقيقه ، بعد أن بذلت في سبيله جهوداً مضنيه لمدة تقارب قرنين من الزمان على ما سيتضح في مبحث مستقل فيما بعد .

المهم - هنا - أن نعلم أن التدخل البرتغالي الديني لصالح الكاثوليكية أدى إلى انقسام الشعب الحبشي وكذلك سلطته السياسية بين المذهبين المختلفين ، وحدث صراع مرير بين الملك وأنصاره من الأرثوذكس وبين بعض القادة ومن انحاز معهم إلى المذهب الكاثوليكي ، تدعمهم البرتغال بالسلاح وتشجعهم على التمرد على الملك وإعلان العصيان تحت راية الكنيسة الغربية[4] ، وأقبلت الحبشة على حرب أهلية شاملة هددت بتدهورها السياسي الكامل ، وبخاصة لأن هذه الحرب قد استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر .[5]

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاى إيفانوف . ص ١٦٩

(٢) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٩

(٣)

(٤) استعمار أفريقيا . ص ٤٩

(٥) الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٢٢

وقف العثمانيون، أمام هذه الظروف ، على خيار وحيد هو القيام بتدعيم سيطرتهم على البحر الأحمر ومنع البرتغاليين من التحكم السياسي والاقتصادي فيه ولتدعيم هذا الاتجاه حرص العثمانيون على تقوية نفوذهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر وعلى تحطيم أي تحالف جديد قد ينشأ بين البرتغاليين وحلفائهم القدماء في بلاد الحبشة. وعلى هذا الأساس رحب العثمانيون بالانقسام السياسي والديني في الحبشة، وقاموا باحتلال مصوع سنة ١٥٥٧م –٩٦٥هـ [١] ، وبذلك سيطروا على شريان التجارة الخارجية للحبشة [٢] ، وأغلقوا أحد الأبواب الرئيسية التي يتم عن طريقها التعاون البرتغالي الحبشي. وسيطر العثمانيون بعد ذلك على أركيكو وتقدموا نحو الداخل [٣] ، حتى وصلوا إلى دباروا Dabarwa وأسسوا فيها قلعة لإقامة الحامية العثمانية ،وواصلوا امتدادهم إلى ديبرادموا Debra Damo في الجنوب [٤] ولكن العثمانيين لم يحرزوا نصراً حاسماً في حربهم هذه، ولعدم تعاونهم مع القوى الإسلامية القائمة في الجنوب الغربي للبحر الأحمر، ومن ثم اضطروا إلى الاكتفاء ببسط نوع من السيادة على الساحل الغربي للبحر الأحمر دون التوغل للداخل [٥] ، وذلك مع أنهم قرروا بسط سيطرتهم على السودان لتأمين سلامة الدول الإسلامية، والقضاء على آمال البرتغاليين في التمركز في مناطق بعيدة عن الخط الساحلي. [٦]

ورغم أن العثمانيين خاضوا – أيضا – مع الأحباش سنة ١٥٧٨م – ٩٧٦هـ حرباً خاسرةً توقف بعدها نشاطهم الحربي في بلاد الحبشة [٧] ، فإنهم نجحوا في تحطيم كل المحاولات الهادفة إلى تكوين جبهة مسيحية من البرتغاليين والأحباش، ضد القوى الإسلامية في البحر الاحمر وشرق أفريقيا [٨] . وحسبنا أن نعلم أنه بعد محاولة زا دنجل للتعاون العسكري والسياسي مع أسبانيا من جديد ضد العثمانيين سنة ١٦٠٤م [٩]

١) الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٢٣ . ٢) الأحباش . ممتاز العارف . ص ٩٨
٣) الاسلام والثقافة حسن محمود .د. ص ٤٢٦ ٤) الأحباش . ممتاز العارف . ص ٩٨
٥) الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٣٢ ٦) الفتح العثماني للأقطار العربية . ص ١٦٩
٧) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧٢
٨) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ١٩
٩) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د . ص ٨٨

١٠٠٣هـ، حسبنا أن نعلم أن الحبشة بعد ذلك قد بَدَّلَتْ سياستها إلى حدِّ مُعَـاداة البرتغال وطرد مبشريها الجزويت ، بل إلى حدّ البحث عن بديل إسلامي [1] ، وعقـد معاهدة مع العثمانيين الذين رحبوا بذلك ترحيباً كبيراً ، وتبادلوا مع الملك فاسيلاداس *Fasiladas* الهدايا والسفارات ، والتي كان من شأنها أن تهدئ الأوضـاع السياسية ، وتقضي على آثار النزاعات التي كانت قائمة بين الأحباش وبين القوى الإسلامية القائمة على الساحل الغربي للبحر الأحمر والتي لم يستفدْ منها ويجنِ ثمارها سوى البرتغاليين الدخلاء .

---

(١) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٧٨

الباب الثالث

المقاومة الإسلامية للاستعمار البرتغالي في مياه المحيط الهندي

الفصل الأول

جهود المماليك السياسية والحربية في مجال التصدى للوجود البرتغالى فى المياه الاسلامية الشرقية

لم تكنْ المواجهة المملوكية لغزوِ البرتغاليين للمياه الإسلامية الشرقية إلّا حلقةً صغيرةً في سلسلةٍ طويلةٍ من الحلقات المتصلة من العدوان الصليبي على العالم الإسلامي . وتتميز هذه المواجهةُ بعددٍ من الخصائص التى أضعفت الموقف المملوكي ، وحَدَّتْ من فعاليته إلى حدٍّ كبير ، ولعل من نافلةِ القول أن نُذَكِّرَ بما سبقت الإشارة إليه من توتر العلاقات المملوكية مع كلٍّ من القوتين الإسلاميّتين الكبيرتين آنذاك وهما العثمانيون والصفويون [1] ، وقد تزامنَ غزوُ البرتغاليين للمياه الإسلامية الشرقية مع اقترابِ أُفُولِ نجم الدولة المملوكية على أيدى العثمانيين ، وهو الأمر الذى حصَرَ الدورَ المملوكيَّ فى مقاومة النفوذ البرتغالى فى نحو خمس عشرة سنة (١٥٠٢ ـ ١٥١٧ ـ ٩٠٨هـ ـ ٩٢٣هـ) ،كانت الجهود العسكرية للدولة المملوكية خلالها موزعة بين حماية مياه البحر المتوسط وتعزيز الثغور المملوكية فى سواحلها ، وبين حماية الحدود الشامية وتقويتها استعداداً لخطر المواجهة المحتملة مع الصفويين أو العثمانيين ، وبين حماية البحر الأحمر والبحر العربي وسواحل الهند ، هذا بالاضافة إلى الجهود المُضْنية التى كان على المماليك بذلها فى سبيل تحقيق الأمن الداخلي وتعزيز الاستقرار السياسي والاجتماعي على صعيد الجبهة الداخلية التي كانت تعانى من الاضطراب والقلق .

وبعبارة أخرى فإنه يمكن القول إن هناك عدداً من العوامل التى أضعفت القدرة السياسية والعسكرية المملوكية على مواجهة البرتغاليين ، وكان لها أثرٌ ملموسٌ فى تأخير هذه المواجهة أيضا . ومن ذلك أن دولة المماليك كانت دولة برية ، تعتمد في حروبها على الكر والفر والفروسية بأساليبها

---

(١) راجع الباب الاول . الفصل الاول

المختلفة التي لا قدرة لها على مجابهة البحار و خوض عبابها ، وهو الأمر الذي يؤكده عدم وجود أسطول مملوكي حربي في مياه البحر الأحمر عند قدوم البرتغاليين للشرق. وفي المقابل كانت دولة البرتغال دولة بحرية ، تملك الأساطيل العملاقة و التجهيزات المناسبة لخوض غمار الصراع البحري ، ولأغراض الامتداد في أعالي البحار ، و ذلك هو ما مكّنَ البرتغاليين من بناء امبراطوريتهم البحرية مترامية الأطراف (١) .

و لم تكن الظروف السياسة الداخلية في الدولة المملوكية توحي بقدرتها على القيام بعمل حربيٍّ ناجزٍ ، أيّاً كان نوعه أو مكانه ، ففي السنوات الخمس التي سبقت تولي السلطان قانصوة الغوري (سنة ١٥٠١م-٩٠٦هـ) ، وهي السنوات التي شهدت أولى الخطوات البرتغالية وأكثرها حسماً في توجيه دفة الصراع ، في هذه السنوات تناوب على دست السلطنة خمسةُ سلاطين لم يكد أن يكون لهم دورٌ يُذْكر ، لا في ظروف التولية و لا ظروف العزل أو طريقته (٢) . لقد كان أمراء المماليك و قادتهم هم فرسان ذلك التدهور الذي تميز بخلافات و نزاعات سياسية و عرقية و اجتماعية و طبيقية لا تكاد تنتهي إلا لتثور من من جديد (٣) . و تلاحمت هذه الظروف مع تذبذب أوضاع بلاد الشام وعدم إخلاص أمرائها و محاولاتهم المستمرة للتمرد - في أقل تقدير - على سلطة المماليك المركزية في مصر (٤) .

و لم تكن ظروف دولة المماليك الاجتماعية و الاقتصادية أحسن حالاً من الظروف السياسية ، إذْ شهدتْ تلك الفترة تكرار هجمات الأوبئة وانتشار القحط و الغلاء ، وفساد المسكوكات النقدية ، وفقدان الأمن مع ارتفاع قيمة الضرائب المفروضة على البضائع و التجار و مختلف الأنشطة التجارية ، فضلاً عن تعرض الأسواق للنهب و السلب و اعتداءات العناصر العسكرية (٥) و انقطاع حركة التجارة

(١) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٢٢

(٢) انظر العصر المملوكي .سعيد عاشور . د . د ص ٧٦

(٣) حول تفاصيل هذه النزاعات و الخلافات انظر بدائع الزهور . ابن إياس . ج ٣ ج ٤

(٤) انظر المرجع السابق (٥) المرجع السابق نفس الجزء .

عبر الأراضي المملوكية (١). تلك الحركة التي كانت تمد السلطة بكثير من متطلباتها المالية اللازمة لأمري السلم و الحرب.

و يضاف إلى ذلك أن البرتغاليين لم يكونوا العنصر الصليبي الوحيد في الميدان، إذ إنه في الوقت الذي بدأت فيه طلائع الزحف البحري البرتغالي تقترب من تحقيق أطماعها كان فرسان الإسبتارية يشنون هجماتهم على القوى المملوكية و على مصالحها في البحر المتوسط و في الثغور المملوكية المطلة عليه " في تعاون تام وحسب خطة موضوعه منظمة ". (٢) و في الوقت الذى ازدادت فيه أعمال القرصنة البرتغالية في المياه الشرقية ، ازدادت قرصنة الإسبتارية في البحر المتوسط (٣). و قد اضطلع فرسان الإسبتارية و غيرهم من قراصنة الفرنجة بدور مزدوج ، كان له أكبر الأثر في دعم الجهود البرتغالية، و في حسم الصراع بينهم وبين المماليك، فمن جانب كان الفرسان الإسبتارية يهاجمون السفن التجارية القادمة أو المقلعة من الموانئ المملوكية بهدف عرقلة حركة التجارة (٤) القائمة بين المماليك و بعض المدن الإيطالية و خاصة البندقية، وذلك لهز الكيان الاقتصادي المملوكي و إضعاف كفاءته كقوة فاعلة في مجريات السياسة المملوكية، و لتمكين البرتغاليين من إحكام السيطرة الاقتصادية و الاحتكار التجارى الدولي على توابل الشرق و بضائعه النفيسة. و من جانب آخر كان فرسان الإسبتارية يطلعون بدور حربي كبير تمثل في إشغال جزء كبير من قوات المماليك البحرية في البحر المتوسط و في عرقلة جهود التعاون السياسي و الحربي بين البندقية و المماليك من جهة و بين المماليك و العثمانيين من جهة ثانية. ومن ذلك أنهم هاجموا أسطولا كان محملاً بالأخشاب و الإمدادات العسكرية العثمانية التي قدمت للمماليك كمعونة حربية لبناء الأسطول الحربي المملوكي المزمع إنشاؤه لمواجهة

---

(١) الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك . عبد العزيز عبد الدايم . د . ضمن كتاب
(٢) مصر وعالم البحر المتوسط . ص ٢١٦
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة (٤) المرجع السابق ، ص ٢١٦.

البرتغاليين فى المحيط الهندي. وهكذا يمكن القول إن "من المؤكد وجود اتفاق بين ملك البرتغال عمانويل السعيد (١٤٩٥-١٥٢١م-٩٠١-٩٢٧هـ) وقادة الاسبتارية فى رودس، بطرس أو بوسون (١٤٧٦-١٥٠٣م)، وإيمرى أمبوان (١٥٠٣-١٥١٢م)، وجاني بلانشفورت (١٥١٢-١٥١٣م)، وفابرك جارتيو (١٥١٣-١٥٢١م) يحدد خطة العمل ضد الدولة المملوكية"(١).

وساعدت طبيعة العلاقات بين دولة المماليك وبين الأقاليم الساحلية الإسلامية فى شرق أفريقيا، والبحر العربي، والهند، فى إضعاف الدور المملوكي وبالتالى فى سير حركة الصراع الإسلامي البرتغالي بناء على ذلك. فلم يكن للمماليك فى السواحل الإسلامية الشرقية أية أساطيل حربية، بل لم يكن لهم أية أساطيل باستثناء بعض السفن التجارية السلطانية أو التابعة للشركات أو المؤسسات التجارية سواء كانت فردية أم جماعية ولم يكن نفوذ المماليك فى تلك المناطق يزيد عن مجرد سلطة اسمية في أحسن الأحوال (٢)، أو عن مجرد إقامة علاقات الود بالمراسلات وبعض الهدايا (٣) وقد كان العدوان البرتغالي على تلك المناطق كفيلا ببتّ تلك الصلة (٤) التي لم يكن لها أية سلطان يُذكر.

وهكذا يصبح - فى ظل الظروف السابقة - تعليل بعض الباحثين وقولهم إن تأخر المواجهة المملوكية للبرتغاليين يرجع إلى أن البرتغاليين كانوا يبتعدون عن الشواطئ القريبة من المماليك ويُفضّلون الانطلاق من شرق أفريقيا إلى سواحل الهند الغربية مباشرة، ثم الإقلاع عنها قبل وصول السفن الإسلامية مع الحرص على التظاهر بالمسالمة وعدم التعرض للسفن الإسلامية التجارية، وأن ذلك كان سبباً فى تأخر كشف نواياهم (٥)، وفى تأخر علم المماليك بهم - كما يصبح

---

(١) الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك . عبد العزيز عبد الدايم . د . ص٢١٧

(٢) كما هو الحال فى بعض موانئ شرق أفريقيا .

(٣) كما هو الحال فى اليمن وبلاد الزيلع.

(٤) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص٧٢

(٥) في طلب التوابل . سونيا هاو . ص٢٠٢ - ٢٠٣. وآسيا والسيطرة الغربية . ص ٢٧

تأكيد بعض الباحثين بأن السلطان المملوكي قد علم بهجوم البرتغاليين ووصولهم للهند قبل ملك البرتغال نفسه أي قبل سبتمبر ١٤٩٩م[١] ـ يصبح أمراً غير كبير الأهمية في هذا المجال . وأخيراً لابدّ من القول إن تأخر ذكر المؤرخين ، المعاصرين لذلك الحدث ، في الإشارة إليه والقول بأن أول ظهور للبرتغاليين في المياه الشرقية كان سنة ١٥٠٢ ـ ٩٠٨هـ[٢] ، ليس دليلا على عدم علم المماليك بذلك الحدث الخطير ، ومما يدعم ذلك أن سلاطين المماليك وقادتهم الكبار كانوا تجاراً كباراً أيضا ، وكانوا يستمدون نفوذهم ـ في كثير من الأحيان ـ من سلطانهم الاقتصادي والتجاري على وجه الخصوص ، ومن ثم لابد أن يكون قد تناهى إلى أسماعهم ، وفي وقتٍ مبكرٍ ، ذلك الانقلاب الخطير ، والذي ظهرت آثاره الاقتصادية منذ الوهلة الأولى ، وهكذا يصبح من المرجح القول إن المماليك قد علموا في وقت مبكر بالتطورات السياسية والاقتصادية التي جَدَّت في المياه الشرقية مع وصول أول أسطول برتغالي إلى موانئ الهند التجارية ، ولكن ظروفهم الخاصة ، والتي سبقت الإشارة إلى طرفٍ منها ـ لم تكن لتسمح أن تكون سرعةُ استجابتِهم على قدْرِ سرعةِ سماعِهم وقوةِ الصدمة التي أحدثها ذلك السماع ، الذي لم يكونوا على استعدادٍ لمواجهته ، لا سياسياً ولا عسكرياً ولا اقتصادياً ، وخاصة لأن مرحلة الاستقرار النسبي في دولة المماليك قد بدأت بعد وصول البرتغاليين للهند بثلاثة أعوام ، أي سنة ١٥٠١م ـ ٩٠٧هـ[٣] ، عندما تولى السلطان قنصوة الغوري دست السلطنة ، وهذا يؤكد أن الدولةَ لازالتْ بحاجةٍ إلى سنوات أخرى لإصلاح الأوضاع الداخلية وتهيئتها لعملٍ حربيٍّ كبيرٍ يكون على قدر الحدث قوةً وتأثيراً . ومن هنا فإن تأخر المواجهة الحربية المملوكية إلى سنة ١٥٠٧م ـ ١٥٠٨م ـ ٩١٣هـ أمر متوقع ومقبول ، وإن كان لابدّ من القول إن الجهود السياسية المملوكية قد سبقت ذلك بكلّ تأكيد .

فُرضَ على المماليك ـ مهما كانت ظروفهم وقدرتهم القتالية ـ أن يكونوا

(١) Miles, op. cit p. 143

(٢) قرة العيون . ابن الديبع . ص ١٤٦ ب . وقلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩٠

(٣) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٣ ، جـ ٤

أول القوى الإسلامية التي تواجه الخطر البرتغالي ، و ذلك لأن العثمانيين كانوا بعيدين عن الجبهة الشرقية من حيث الحدود ، ومن حيث النفوذ معاً ، كما كان الصفويون مشغولين بإقامة دولتهم و تثبيت أركانها في جهة الشمال. و يضاف إلى ذلك أن ملوك الهند [١] و أمراء اليمن [٢] و الحجاز [٣] و غيرهم قد اتصلوا بالسلطان الغوري وحثّوه على سرعة التصرف لمواجهة الخطر البرتغالي المحدق، كما أملى على المماليك سلطانهم الأدبي على الأماكن المقدسة، وإحساسهم بفقدان قوتهم الاقتصادية ، واتصال البنادقة بهم للقيام بدورٍ ما لاتّقاء ذلك الخطر، وكل ذلك كان خلف التحرك المملوكي الذي نحن بصدد الحديث عنه .

تجمع المصادر على عدم استعداد السلطان الغورى بحرياً للقيام بعمل فوريٍّ ضد البرتغاليين مع أنه كان مقتنعاً بأن الحرب هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على خطر البرتغاليين في المياه الشرقية [٤] . و من هنا بدأت التحركات المملوكية بممارسة الدبلوماسية الهادئة في غير لين ، حيث كثّفت اتصالاتها السلمية مع القوى الأوربية المؤثرة في النشاط البرتغالي من جهة ، و ذلك بهدف الضغط على البرتغاليين و إثنائهم عن مخططاتهم الاستعمارية و التجارية في المياه الإسلامية الشرقية، كما قامت - و في نفس الوقت - بتنسيق جهودها مع القوى الإسلامية الأخرى بهدف القيام بعمل مشترك يمكن به بتر الداء من جذوره ، من جهة أخرى . ومع هذه و تلك كان على الغورى أن يعزز الجبهة الداخلية و يؤمّن حدودها و مياهها الإقليمية من جهة البحر المتوسط .

و تجمع المصادر على أن المماليك بدأوا جهودهم سنة ١٥٠٢م - ٩٠٧هـ

---

(١) تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤٢

(٢) البرق اليماني . النهرواني ص ١٩

(٣) حيث كانت منزل الحجاج وأرض المقدسات التي يهتم بها المسلمون .

(٤) الصراع بين القوى المسيحية والشرق العربي . عبد العزيز عبد الدايم . د . ص ٢١٦

وهو الوقت الذى بدأت حقيقة الخطر البرتغالي تظهر للعيان، ففى ذلك الوقت كان دى جاما قد قام برحلته الثانية (١) والتي عززت النتائج التي حققتها الرحلة الأولى، وثبتت الجدوى الاقتصادية المجزية للجهود الحربية والاستكشافية المضنية (٢)، وكانت البندقية فى ذلك الوقت قد أرسلت سفارتها للبرتغال وتأكدت من عزم ملكها على مواصلة الجهود الحربية والاحتكارية التي ستقضى حتماً على النفوذ الاقتصادى والتجارى البندقي سواء فى الشرق أم فى أوربا (٣) وهو الأمر الذى دفع البندقية للمسارعة فى التنسيق مع المماليك والعثمانيين للقيام بعمل ما (٤). وفى ذلك الوقت ـ أيضا ـ بدأ الخطر البرتغالي يتهدد المماليك عن قرب إذ قام البرتغاليون بالسيطرة على سبعة مراكب تجارية وقتلوا أهلها وأسروا بعضهم (٥) وكان من بين هذه السفن إحدى سفن السلطان المملوكي (٦)، كما قاموا بتخصيص بعض قطع أسطولهم لمراقبة باب المندب وسد منافذ البحر الأحمر لقطع الطرق على التجارة المملوكية وفرض الحصار عليها (٧). وليس من شك فى أن هذه العوامل قد عززت مطلب أمراء السواحل الإسلامية الشرقية. ومن هنا بدأ التحرك المملوكي.

وكان أول عمل قام به الغورى هو محاولة الضغط على البابا وعلى ملك البرتغال، وبعض ملوك أوربا، لمنع البرتغاليين من الملاحة والاتّجار في المياه الإسلامية الشرقية، ومن التعرض للسفن التجارية الإسلامية بالسلب والنهب، ومن الاستمرار فى تهديد المقدسات الدينية الإسلامية، وهدد بأنه مالم يتم ذلك فإنه سيقوم باعتقال الرعايا الأوربيين فى بلاده كما سيقوم بإغلاق كنيسة القيامة وتدمير قبر السيد المسيح فى القدس، ومنع المسيحيين من الوصول إلى بيت المقدس (٨).

(١) ورد تفصيل ذلك فى غير هذا الموضع

(٢) انظر اثر تحول التجارة . فاروق اباظة . د . ص ٤٥

(٣) Miles, , op. cit, p 139, FF

(٤) Ibid , loc. cit

(٥) قلادة النحر . بامخرمة . لوحة ١١٩١ . والسنا الباهر . الشبلي اليمني . ص ٦٣ وغاية الأماني . الصنعاني . ص ٦٣٠

(٦) تحفة المجاهدين . المليبارى . ص ٣٩

(٧) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٤٩

(٨) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ٧٦ ، ٧٧ . والمراحل الأولى للوجود البرتغالي . عبد العزيز الشناوى . د . جـ ٢ ص ٦٥٢ - ٦٥٤

ـبد وأن هذا التهديد كان رداً على تهديد البرتغاليين للمقدسات الإسلامية ومحاولاتهم الاتصال والتعاون مع ملك الحبشة للقيام بهذا العمل [١]. ومهما يكن من أمر فإن هذه المحاولة لم تؤت ثماراً طيبة إذ لم يستجب البابا أو أيٌّ من حكام أوربا لمطالب الغوري [٢]. ومما يذكر أن الغوري قد قام أيضاً - بمحاولة دبلوماسية مع ملك فرنسا ليساعده على حماية السواحل المملوكية على البحر المتوسط من هجمات الاسبتارية فى ردس [٣].

وفى هذا الإطار، كان التعاون الأكبر بين البنادقة والمماليك، وذلك لأن البندقية كانت صاحبة المصلحة المباشرة بمواجهة الخطر البرتغالي فى الشرق، إذ كانت سفنها تساهم فى نقل التوابل وبضائع الشرق إلى السويس كما كانت تتولى نقلها من الإسكندرية إلى كل المدن الأوربية [٤]، ولم تكن البندقية مستعدةً للتخلّي عن دورها التجارى في أسواق أوربا والتحوّل من مركز المحتكر إلى مجرد القيام بدور العميل الثانوي الذى يقوم بالاتجار فى التوابل من أسواق لشبونة [٥]، وتحت إشراف الملك البرتغالي، بل ربما تحت رحمته ونزواته الخاصة أيضاً. وكذلك لم تكن البندقية مستعدةً للتخلّي عن أسواقها فى الموانىء المملوكية في مصر والشام، إذا ما نجحَ المماليك فى القضاء على البرتغاليين، وتوقفَ تدَفُّقُ التوابل من موانئهم تجاه البندقية إذا ما تخاذلت عن التعاون مع المماليك فى تلك اللحظات الحرجة [٦].

وهكذا بدأت البندقية فى التعاون مع الغورى، وقامت - فى هذا الإطار بإرسال عدة سفارات للبلاط المملوكى، وكانت أولى هذه السفارات أواخر سنة ١٥٠٢م - ٩٠٧هـ [٧] أو أوائل سنة ١٥٠٣م - ٩٠٨هـ [٨]، عندما أرسلت البندقية سفيرها

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي, ١٢٦ (٢) انظر Miles, op.cit p144,
(٣) طرق التجارة الدولية. نعيم زكي فهمي. د. ص ٩٧، ٩٨
(٤) حقائق الأخبار عن دول البحار. إسماعيل سرهنك. جـ ٢ ص ٣٥
(٥) انظر الملحق رقم (١) ص ٥٢٤ (٦) انظر: البندقية. ديل. ص ١٤٨.

(٧) البحر الاحمر. محمد عبد العال ٥٠ ص ٨١
(٨) مصر في عصر المماليك. إبراهيم طرخان. ص ٢٩٢. وتاريخ الصلات. محمد الندوى. ص ١٧٢

بنديتو سانوتو Bandetto sanuto : إلى السلطان المملوكي قانصوة الغوري ليخبره عن نتائج اتصالات البندقية مع ملك البرتغال ، ومدى النجاح والتصميم الذي يكمن في الجهود البرتغالية ، وليكشف له حقيقة الأخطار التي يمكن أن تحدث إذا استمر المماليك دون القيام بحسم الموقف لصالحهم ، ثم قدم المقترحات البندقية ذات الشقين ، والتي تَمَثَّل شقُّها الأول في المقترحات السياسية والحربية التي تنص على ضرورة أن يتصل الغوري بملوك الهند من المسلمين ويحثهم على مقاومة الوجود البرتغالي ريثما يتمكن هو من تدارك الموقف بإعداد الأسطول الحربي في مياه البحر الأحمر ، وأن يحذرهم من خطورة التعامل مع التجار الأجانب على حساب التجار العرب والمصريين المسلمين ذوي القدم الراسخة في تجارة التوابل.(١) وليس من شك في أن هذا الاقتراح دعوة بندقية صريحة للمماليك للقيام بإنشاء أسطول مملوكي حربي خاص بمياه البحر الأحمر والمياه الإسلامية في المحيط الهندي. أما الشق الثاني من المقترحات البندقية فتمثل في عدد من المقترحات الاقتصادية والتجارية الكفيلة بتحقيق التفوق في ميدان المنافسة التجارية ، ومن هذه المقترحات قيام المماليك بتخفيض أسعار التوابل في الموانئ المملوكية وخفض قيمة الضرائب والجمارك المفروضة عليها (٢). وأخيراً أشار السفير البندقي إلى حساسية موقف حكومته وأنه ما لم يقم المماليك بعمل ما فإنّ البندقية ستضطر – عاجلاً أم آجلاً – لقطع علاقاتها التي دامت مع المماليك قروناً متطاولة ، وإلى الانسياق في التيار العام ، وهَجْرِ أسواق الإسكندرية ولا سيما أن هناك ضغوطاً متزايدةً داخل جهاز الحكومة البندقي للعمل في هذا الاتجاه (٣).

ويخيل للباحث أن المقترحات الاقتصادية البندقية – والبنادقة قوم تجار ، خبروا التجارة وأصول لعبتها الدولية – يخيل للباحث أن هذه المقترحات

---

١) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٤٧ . ومصر في المماليك . إبراهيم طرخان . ص٢٩٣ وما بعدها . وتاريخ الصلات . محمد الندوي . ص ٧٢ . والمشيخات المتصالحة . هولي . ص ٢٤

(٢) نفس المرجع السابقة ، ونفس الصفحات.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٧.

كانت كفيلة بتحقيق المنافسة التجارية مع البرتغاليين، وإنْ لم تتمكنْ من وقف النشاط التجاري البرتغالي كليةً عند اقتناعهم بعدم جدواه، فإنها - وذلك على أقل تقدير - سوف تحقق توازناً في حركة التجارة الدولية سيجعل للجبهة الشرقية نصيباً مناسباً فيها . لقد كان بوسع المماليك أن يفعلوا ذلك، بل كان يمكنهم التخلي عن مكاسبهم الآنيّة وإعفاء التجارة كليةً من أيّة رسم جمركية بالإضافة إلى خفض نسبة الربح إلى أدنى حدٍّ ممكن، ولو بصورة موقتة ريثما يحدث التوازن المطلوب، ولكن ذلك - مع الأسف لم يحدث، بل ماحدث هو عكسه تماماً، إذ قام المماليك برفع أثمان البضائع ورفع نسبة الرسم الجمركية [1]، وبعض المضايقات للتجار الأوربيين للضغط على حكوماتهم [2] وما من شك في أن هذه الأعمال كانت بعيدة عن تفهم الروح السياسية المطلوبة، حتى وإنْ اعتذر البعض عن تصرفهم هذا بأنّه محاولة منهم لتغطية النفقات الاقتصادية المتزايدة [3] إذ كان يمكن مواجهة الضوائق الاقتصادية هذه بعدة سبل أخرى .

ولمّا لم تؤتِ السفارة البندقية السابقة ثمارها المرجوّة، قامت البندقية بإرسال سفارة أخرى سنة ١٥٠٤م-٩٠٩هـ، وذلك لتعزيز أهداف السفارة السابقة وتقديم بعض المقترحات الجديدة، لمواجهة الموقف الذي ازداد سوءاً عندما غمر البرتغاليون أسواق أوربا بالتوابل وسائر المنتجات الشرقية، وكان من مقترحات هذه السفارة أن يتبع الغوري سياسة الإغراق فيما يخص التوابل حتى يجلب الخسارة للبرتغاليين، وكرّرت الدعوة لأن يقوم الغوري بالاتصال بسلاطين الهند وحثهم على عدم التعامل مع البرتغاليين ومقاومتهم، وتحذيرهم من الأخطار السياسية التي قد تنجم عن التعاون معهم وتزويدهم بالبضائع الشرقية [4]. ويقال - أيضاً - إن البندقية قد اقترحت كذلك أن يقوم المماليك بشق قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط [5]. لمنافسة طريق رأس الرجاء الصالح

---

(١) بدائع الزهور . ابن اياس مج ٥ ص ٨٣

(٢) اثر تحول التجارة . فاروق اباظة . د . ص ١٢ - ٣٠

(٣) Lewis, Egyptaand syria, vol,1 p229.

(٤) مصر في عصر المماليك . إبراهيم طرخان . د . ص ٢٩٣ - ٢٩٥ . والبندقية . د يل . ص ١٤٧ - ١٤٨

(٥) مصر في عصر المماليك . ص ٢٩٥ .

والتفوق عليه لما فيه من المخاطرة وطول المسافة بين الشرق وأسواق لشبونة .

وقبل هذه السفارة كان الغوري قد بعث بسفارة مملوكية إلى أوربا - سبقت الإشارة إليها - هدد فيها باتخاذ إجراءات رادعة ضد المسيحيين وأماكنهم المقدسة في القدس . ولذا حذرت البعثة الجديدة من مغبة هذا الإجراء مخافة أن يزيد من تعاطف الدول الأوربية مع البرتغال . وهو الأمر الذي سيزيد الموقف تصعيداً وتعقيداً في ذات الوقت (١) . وخاصة أن ملك البرتغال قد أعلن أنه يستبعد ذلك . وأنه في حالة حدوثه فإن الأسطول سيقوم بالرد الفوري المباشر بمهاجمة الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة (٢) . وكذلك قامت السفارة البندقية بالاعتذار لعدم قدرتها عن مساعدة المماليك عسكرياً . أو إعلان تأييدها الصريح لها بشكل علني بل لعلها اعتذرت عن تقديم الإمدادات المطلوبة منها خشية أن تتهمها البابوية بالتواطؤ مع المسلمين ضد دولة البرتغال المسيحية (٣) . وكذلك حذرت السفارة البندقية من تزايد أنصار حزب المعارضة الداعي إلى انضمام البندقية إلى ركب لشبونة والاتجار معها بدلاً من التعاون مع المماليك (٤) .

وهكذا يمكن القول إن دور البندقية في المواجهة المملوكية البرتغالية قد اقتصر على التحريض وتقديم النصائح الاقتصادية للمماليك . هذا من جهة . ومن الجهة الأخرى اكتفت البندقية - في الجانب الأوربي . بإثارة الشائعات حول عدم قدرة البرتغاليين على الاستمرار والمحافظة على الطريق الجديد . وأن المماليك لن يسمحوا لمثل هذا النشاط أن يستمر طويلاً وأنها ستستخدم نفوذها لدى حكام

---

(١) انظر الملحق رقم (١) . ص٥٢٤

(٢) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص ٧٨، ٧٩

(٣) البحر الأحمر . محمد عبدالعال . د . ص ٨٨ ص Mas latris de paix ot de da commeree. P 327

(٤) البندقية جمهورية أرستقراطية . شارل ديل . ص ١٤٨

الهند لمنعهم من التعاون مع البرتغاليين وإمدادهم بالبضائع، كما حاولت أن تثني البرتغاليين عن مواصلة جهودهم وأن تثبط من عزيمتهم، واعتذرت عن التعاون معهم حتى لا يفقدها ذلك مركزها لدى المماليك فيما لو حدث توقعها بفشل المشروع البرتغالي [١].

وهكذا يبدو ما يدعيه البعض ويضخم به دور البندقية إلى حد القول بأن البندقية قد أعدت أسطولاً كبيراً في ميناء السويس لمناصرة الأسطول المملوكي في حربه مع البرتغاليين [٢]، أمراً غير حقيقي على الإطلاق.

ومهما يكن من أمر فإن الغوري قد حاول - فعلاً - التأثير على البندقية بأساليب مختلفة، كاحتجاز التجار والبضائع [٣]، إلى غير ذلك من الضغوط السياسية، لتقوم بإمداده بالأخشاب والمعدات الحربية اللازمة لتجهيز الأسطول المملوكي [٤]. ويبدو أن هذه الضغوط كانت نابعةً من إيمان الغوري بحتمية الحل العسكري في الصراع مع البرتغاليين. وعلى أي حال فإن البندقية قد قدمت للمماليك بعض الإمدادات السرية، وربما بعض فنيي صناعة السفن، على أثر بعثة مملوكية، توجهت للبندقية سنة ١٥٠٥م-١١٩هـ [٥]، ومن الواضح أن هذه الإمدادات قد جاءت بعد طول مراوغة وقدرٍ كبيرٍ من التهرب عن تحمل أية مسؤولية مباشرة وهو ما يؤكد عدم مصداقية البندقية في وعودها نظراً لأنها كانت تخشى ثورة العالم المسيحي ضدها [٦].

وقام الغوري - كذلك - بمراسلة السلطان بايزيد الثاني العثماني

---

(١) البندقية . ديل . ص ١٤٨ . وطرق التجارة . نعيم زكي فهمي . د . ص ٧٥

(٢) حقائق الأخبار عن دول البحار . إسماعيل سرهنك . جـ ٢ ص ٣٥

(٤) المماليك والافرنج . أحمد دراج . د . ص ١٢٢

(٥) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ١٢٦

(٦) المرجع السابق . نفس الصفحة .

حيث طلب منه المساعدة وتقديم الأخشاب والعتاد الحربي اللازم لبناء الأسطول الحربي المملوكي الموجه لمقاومة النفوذ البرتغالي (١) ويُذكَر لبايزيد الثاني سرعة استجابته حيث قام على الفور بإرسال الخامات والمعدات والتجهيزات الممكنة واللازمة لإنشاء الأسطول (٢). وكان من جملة ما قدمه كمية من الأخشاب تكفي لبناء ثلاثين سفينة حربية، وثلاثمائة مدفع وغير ذلك من المعدات الحربية. ولسوء الحظ فإن هذه الإمدادات قد وقعت فريسة في أيدي الفرسان الاستبارية في رودس (٣).
وعلى أيّة حال فإن هذه المساهمة لم تكن المساهمة الوحيدة، وعلى سبيل المثال فإن السلطان سليم الأول قد استمر في سياسة الدعم والمساندة، وأمدّ الغوري بنحو ألف مقاتل للاستعانة بهم في الدفاع عن السواحل الإسلامية الشرقية (٤).

كانت كل الظروف السياسية المحيطة بالمماليك تدعو للتصعيد الحربي، فالبعثةُ السلميةُ التي أرسلها الغوري لأوربا لم تحقق أية نتائج ملموسة بل على العكس، إذْ زادت من غطرسة الجانب الأوربي (٥). كما ازدادت الضغوط والهجمات البرتغالية على سواحل الهند بل وعلى السواحل العربية أيضاً. وكذلك اشتدت متابعة البرتغاليين للسفن التجارية الإسلامية وازداد إحكام سيطرتهم على مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر (٦) مما أدّى إلى توقفٍ شبهِ تامٍ لحركة التجارة بل إنهم وضعوا خططهم لمهاجمة البحر الأحمر بشكل مباشر. ومن هنا اقتربت ساعة المواجهة وكان المماليك قد تمكنوا من إنجاز ما بين إحدى عشرة (٧) وثلاث عشرة (٨) سفينةً حربيةً، ويبدو أنّ هذا العدد قد تضاعف أكثر من ثلاث مرات، بمعونة المسلمين

(١) بدائع الزهور . ابن إياس حـ٤ ص١٢١ (٢) المرجع السابق حـ٤ ص ٢٠١
(٣) الدولة العثمانية . محمد أنيس . د . ص ١٤٢ (٤٠) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة١١٩٩
(٥) انظر Miles op. cit, pp 44-FF
(٦) البحر الأحمر . محمد عبد العال . د . ص ٨١
(٧) الفضل المزيد . ابن الديبع . ص
(٨) تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤٠

، ليصل إلى نحو خمسين سفينة [١] عند بدء المعركة .

وتذكر المصادر أن السلطان الغوري قد بدأ نشاطه الحربي بشكل ملموس سنة ١٥٠٥م ـ ٩١١هـ عندما أصدرَ أوامره بالتجهيز للحملة البحرية المزمع إرسالها للهند [٢] ويبدو أن خطة الغوري التي أعدّها لمقاومة التوسع البرتغالي وأخطاره كانت تقوم على عدّة أسس ، منها إعداد عناصر الجيش الذي سيباشر مهمة القتال إعداداً يتناسب مع طبيعة المعركة ، حيث أن النظام الحربي المملوكي السائد والقائم على الفروسية واستخدام السيف والرمح وأساليب الكرّ والفرّ في البرّ لم يكن ليصلح لمواجهة البرتغاليين . ومن هنا كانت الاستعانة بخبرة الدولة العثمانية التي أمدّته ببعض عناصرها البحرية الماهرة التي كان على رأسها سلمان العثماني [٣] الذي لعبَ دوراً كبيراً في إعداد الأسطول المملوكي وتجهيزه كما ضم الجيش المملوكي أعداداً كبيرةً من الصناع والبنائين والعمال [٤] ، كان فيهم جماعة من المسيحيين الفنيين من الموانئ الإسلامية أو من العاملين في السفن المحايدة ، وخاصة من الإيطاليين [٥] ، ولا شك أن بعض هؤلاء كانوا من البنادقة ذوي الخبرة العريقة في إعداد الأساطيل البحرية آنذاك ، وقد ضم الجيش المملوكي عدداً كبيراً من أولاد الناس [٦] وبعض المماليك السلطانية ، وكان أكثرهم من المغاربة والسود الرماة والأتراك [٧] .

وتقوم الخطة في جانبها الثاني على تجهيز الأسطول المملوكي وإعداد السفن الحربية القادرة على ركوب أعالي البحار . ويبدو أنّ المماليك قد استعانوا

---

(١) غاية الأماني . الصفاني . ص ٦٢١ . والبرق اليماني . النهرواني . ص ١٩

(٢) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ٨٢ . ٣) المرجع السابق . نفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق جـ ٤ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) طرق التجارة الدولية . نعيم زكي فهمي . د . ص

(٦) أولاد الناس هم

(٧) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ٨٤

بالسفن الحربية الإسلامية الموجودة في بعض الموانئ الساحلية الشرقية ، ولعل هذا الرأي يفسر لنا اختلاف المؤرخين في تحديد عدد قطع الأسطول المملوكي حيث ذكر بعضهم أنّ عَدَدَه لم يكن يتجاوز إحدى عشرةَ سفينةً[١] ، بينما زاد آخرون عددَ السفن اثنتين لتصبح ثلاثَ عشرةَ سفينة[٢] ، في حين يقول البعض إن عدد قطع الأسطول وصلت إلى خمسين سفينة[٣] . ومهما يكن من أمر فإن الأسطول المملوكي قد استكمل استعداداته في أواخر عام ١٥٠٥م-١١ ٩هـ[٤] وأنه بدأ في تنفيذ المهام الموكلة إليه بدءاً من العام التالي .

ويتصل بهذه الخطة الاتصالُ بأمراء وسلاطين السواحل الإسلامية الشرقية ، والتنسيق معهم لتوحيد الجهود وتعزيز النشاط السياسي والحربي ، وإذا كانت المصادر تشير في ذلك الوقت المبكر إلى المراسلات بين الغوري والسامورى[٥] ملك الهند ومظفرشاه بن محمود شاه سلطان كجرات[٦] ، فإن السفارات بين الغوري والملك الطاهري في اليمن كانت قائمة ومنتظمة ، ويبدو للباحث أنّ الحملة العدنية سنة ١٥٠٦م-١٢ ٩هـ[٧] ، كانت ضمن هذا الاطار ، وذلك لعدة اعتبارات منها أنّ خروج الحملة العدنية كان متزامناً مع الحملة المملوكية ، وأن وجهة هذه الحملة لم تكن مُعْلَنَةً لعامة الناس وهو ما يتفق مع سرية الحملة المملوكية التي لم يعلمْ أحدٌ وجهتها حتى تجاوزت بحر العرب واتجهت للهند ، وأنّ أخبار هذه الحملة قد انقطعت ولم يَعُدْ ذكرُها إلاّ بعد موقعتي شول وديو ، وأخيراً فإن هذه الحملة قد ضمّتْ في صفوفها عدداً كبيراً من المجاهدين المتطوعين الذين كانوا تحت راية لا إله إلاّ الله ، لا تحت راية ملك أو سلطان . وقد ذكر بعض المؤرخين خبر هذه الحملة بقوله : " بعث أهل مدينة عدن الخبر - خبر الغزو البرتغالي - إلى

(١) الفضل المزيد . ابن الديبع . ص ٣٠٠ . (٢) تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤٠

(٣) البرق اليماني . النهرواني . ص ١٨ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤٠

(٦) البرق اليماني . النهرواني . ص ١٩

(٧) الفضل المزيد . ابن الديبع . ٣٠١

مولانا السلطان – يقصد الملك الظافر الظاهري – فورد أمره الشريف بالتجهيز عليهم ، فتوجه إليهم من مدينة عدن أربعة عشر مركباً ما بين صغير وكبير ، فيها من المسلمين فوق ستمائة ، وتوجه معهم الفقيه إسماعيل الجرماني والشيخ عثمان الصمودي وجماعة من طلبة العلم للجهاد في سبيل الله ، وكان خروجهم من مدينة عدن في البحر يوم الخميس ٢٧ شوال (سنة ٩١٢هـ) [(١)] .

ولا شك أن خطة الغوري المملوكية كانت تقوم في استراتيجيتها الحربية على شقين أساسيين آخرين ، يقوم الشق الأول منهما على تحصين المواقع الاستراتيجية الهامة في البحر الأحمر لحماية الدولة المملوكية من اقتراب الخطر البرتغالي وقيامه بتهديد الدولة المملوكية تهديداً مباشراً ، وفي هذا الإطار قام في مايو أيار سنة ١٥٠٦م–٩١٢هـ بتحصين ميناء سواكن وزوده بحامية مملوكية كبيرة وذلك لحماية السواحل الغربية للبحر الأحمر من تزايد الخطر البرتغالي [(٢)] . وكذلك قام القائد حسين الكردي في نفس العام (سنة ١٥٠٦م–٩١٢هـ) بتحصين ميناء جدة ، وزوده بالأبراج [(٣)] الدفاعية لرفع الكفاءة القتالية للمدينة بهدف حماية سواحل الجزيرة العربية والدفاع عن الاماكن المقدسة إذا ما تعرضت لأي تهديد .

وارتبط تحرك الأسطول المملوكي نحو الهند باستغاثة الساموري بعد ان خاضت بحريته معركة غير متكافئة مع القوات البرتغالية أدرك منها أن سفنه لم تكن مكافئة لمراكب الكارا فل ثقيلة التسليح ، وأن فرصة فوزها أثناء العمليات البعيدة المجال ضئيلة الاحتمال [(٤)] .

---

١) الفضل المزيد . ابن الديبع . ص ٣٠١

٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٥٢

٣) بدائع الزهور . ابن إياس جـ ٤ ص ٨٤ ، ٨٥ . والبحرية في عصر سلاطين المماليك إبراهيم سعيد . د . ص ١٨٣

٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٤٢

ولا عتبارات أمنية التزم الأسطول المملوكي السرية التامة في تحركاته، كما تحرك نحو الهند على دفعتين للاعتبارات نفسها. وكان تقدم الطلائع الأولى من ميناء جدة سنة ١٥٠٧م ـ المحرم ٩١٣هـ في برشتين أو ثلاثة وثلاثة أغربة كانت عماد القوة المملوكية الأولى، وكانت هذه السفن مزودة بتجهيزات حربية كبيرة تضم البارود والمرافع وغير ذلك، وقامت ـ للتمويه ـ بالتردد على كمران والمتينة والمخا وعدن[١] عند مداخل البحر الأحمر، لتوحي للبرتغاليين بأن هدفهم حماية مداخل البحر الأحمر لا غير، مع أنها كانت قد زارت جازان وتزودت بالماء والمؤن[٢] اللازم لرحلتها البحرية الطويلة.

ولحقت بقية قطع الأسطول المملوكي بسابقتها بعد ثلاثة أشهر أي في ربيع الآخر، وذلك حين انطلق الأمير حسين الكردي بقوة رئيسية عمادها ثلاث برشات وثلاثة أغربة، من جدة متجهاً إلى الموانئ اليمنية في سرية تامة، دون أن يعلم أحد بقصده حتى مر بباب المندب ومر بعدن ودخل ميناء حقات بإذن من أمير عدن مرجان الظافري وحرص على أن يؤكد على استمرار العلاقات الوديّة وتطورها بين المماليك وبني طاهر[٣]، ثم تزوّد بالمؤن من حقات ولحق بقطع الأسطول المتقدمة، لتكتمل القوات المملوكية في نحو ثلاث عشرة سفينة كبيرة وعدد من السفن الثانوية التي أكملت قطع الأسطول إلى نحو خمسين سفينة[٤] تقلّ على متنها ما لا يقلّ عن ألف وخمسمائة مقاتل[٥].

ورغم السرية التي التزمها الجانب المملوكي، فإنه يبدو أنّ البرتغاليين

---

(١) الفضل المزيد. ابن الديبع. ص ٢٠٤ وتحفة المجاهدين. المليباري. ص ٤٠
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣) قلادة النحر. بامخرمة. ورقة ١١٩٢. والمرجع السابق ٢٠٥ - ٢٠٦
(٤) المماليك والفرنج. أحمد دراج. د. ص ١٣٧ - ١٣٨
(٥) آسيا والسيطرة الغربية. بانيكار. ص ٤٢

كانوا على يقظة تامة لهذه التحركات ، إذ سرعان ما أوقف الأسطولُ البرتغاليُ حملاتِه في منطقة الخليج العربي ، وانسحب من هرمز – رغم أهميتها – قبل أن يحسم الأمور حسماً كاملا لصالحه [١] ، حيث اتجه إلى سقطرة لتنظيم أمور شرق أفريقيا ومنطقة البحر العربي ، وللتزود بالمؤن قبل التوجه للهند لمواجهة التطورات الحربية المحتملة . وهكذا كانت أولى نتائج الحملة المملوكية متمثلةً في دحر القوات البرتغالية – بشكل مؤقت – وعدم تمكينها من الاستمرار في مهاجمة منطقة الخليج العربي .

وواصل الأسطول المملوكي سيره سنة ١٥٠٧ – ٩١٣هـ إلى أنْ وصل سورات في مقاطعة كجرات [٢] ، وكانت خطة الأمير حسين الاستراتيجية بسيطة وسليمة في ذات الوقت ، فقد قرر أنْ يتخذ من جزيرة ديو قاعدة لعملياته الحربية ، ولاستقرارِ قواتِه ريثما يتمّ الاتصال بالساموري والتنسيق معه لتوحيد القوتين والقيام بعمل مشترك ضد البرتغاليين [٣] .

وصل الأمير حسين الكردي إلى ديو بعد الرياح الموسمية [٤] مباشرة ، حيث التقى بالسلطان مظفر شاه ، ونسق معه خطط العمليات الحربية ، وقام السلطان مظفر شاه من جانبه بتزويد الأسطول المملوكي بالأموال والإمدادات [٥] اللازمة . ثم تحركت القوة البحرية الإسلامية جنوباً باتجاه كوتشن في الوقت الذي انطلقت فيه القوات البرتغالية شمالاً لملاقاة الأسطول الإسلامي . وهكذا التقت القوتان عند شول حيث تم تبادل القصف بالمدفعية الثقيلة ، وقام البرتغاليون بمحاولة فاشلةٍ لاقتحام الأسطول الإسلامي تحت نيران القصف المدفعي الذى استمر يومين اضطرت بعدهما القوات البرتغالية إلى الانسحاب [٦] متكبدةً عدداً كبيراً من الخسائر

---

(١) المماليك والفرنج . أحمد دراج . د . ص ١٢٧ . والخليج العربي . ص ٦١ ، ٦٢

(٢) المرجع السابق . نفس الصفحة

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . ص ٤٢ ، ٤٣ ، (٤) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٥) البرق اليماني . النهرواني ص ٣٠

(٦) انظر تفاصيل معركة شول Barbisa, Durate, Adescription of the coast

وانظر كذلك تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤٠ . وآسيا والسيطرة الغربية . ص ٣

لدرجةٍ أنَّه قد تمَّ تدمير سفينة القيادة وقتل قائد الحملة البرتغالي لورنزو دالميدا [١]، بالإضافة إلى تدميرِ عددٍ من السفن الأخرى، وقتل عدد من جنودها [٢]. ومما يؤسف له أن المصادر العربية لا تزودنا بمعلوماتٍ وافيةٍ عن هذه المعركة بل تكاد لا تزودنا بأيّةِ معلوماتٍ على الإطلاق، في حين مالت بعض المصادر الهندية إلى المبالغة الزائدة حيث تذكرُ أنّ القوات الإسلامية قد هاجمت ميناء جيون بشدة وعنف، وأنها حطمت عشرات السفن البرتغالية وأغرقتها في البحر وهي محملة بكميات هائلة من البضائع قُدِّرتْ قيمتُها بما يقرب من عشرةِ ملايين روبية. وتذكر تلك المصادر أيضاً أنّ القوات الإسلامية قد قتلت ما يقرب من عشرة آلاف جندي وأَسَرت أكثر من سبعة آلاف جندي آخر في حين لم يمتْ من المسلمين سوى ستمائة هندي وأربعمائة من جنود المماليك [٣]. ولا شك أن هذه الأرقام مبالغ فيها ولكن نشوةَ النصرِ دفعت الكتّابَ للتهويل. وهكذا تكاد المصادر الأوربية تنفرد بذكر التفاصيل الأقرب للدقة مع اتخاذها جانب وجهة النظر المخالفة، والتي لا يمكن أن تنصف المسلمين. ومهما يكن من أمر فقد كانت هزيمة البرتغاليين في هذه المعركة قاسيةً مريرةً تحلّلَ لها الكتابُ الغربيون عذرَ المفاجأةِ وقالوا إنّ الأسطول البرتغالي أُخِذَ على غرّة ولولا ذلك لما أمكن هزيمته [٤].

وحاول فرانسسكو دالميدا أن يتجاوز صدمة الهزيمة فالتجأ إلى ديو بعد أن جمع ما أمكنه جمعه من السفن والجند حتى بلغت قواته البحرية ثماني عشرة سفينة على متنها ألف ومائتا مقاتل. [٥] وفي نفس الوقت قام بالاتصال بمالك آياز قائد القوات الكجراتية في ديو، وهو من أصولٍ أوربية، وأغراه حتى انضم إليه سراً فكان بمثابةِ الشوكة في ظهر القوات الإسلامية، إذ تخاذل عن تزويد القوات المملوكية بالمدد والمؤن [٦]. وكذلك استغل عنصر المفاجأة وقام

---

(١) تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤٠ . وغاية الأماني . الصنائي . ص ١٣٦

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ (٣) انظر كجرات تمدن تاريخ ص ٢٨٠-٢٨١ نقلا عن محمد الندوي ص ١٦٨ .

(٤) آسيا والسيطرة الغربية . ص ٤٣ . ٥) المرجع السابق . نفس الصفحة .

(٦) المرجع السابق ص ٤٤ .

بمهاجمة القوات المملوكية قبل أنْ تكملَ استعداداتها ، وقبل أن يتمَّ إصلاح أسطولها المكوّن من عشر سفن تساندها بعض سفن الساموري التي جاءتها بالمؤن والإمدادات.

وهكذا كانت المعركة التي وقعت في ٣ فبراير ١٥٠٩ - ٩١٤هـ ، والتي عُرِفَتْ بمعركة ديو[١] معركة غير متوازنة ، خاضت فيها القوات الإسلامية معارك عنيفة ، ولكن الأمير حسين اضطر للانسحاب قبل أن تحسم المعركة ، لأنه علم مسبقاً أنّ حسم المعركة لن يكون لصالحه في ظلّ الظروف الجديدة ، وأنه ليس بوسعه الاستمرار في الهند[٢].

كانت معركةُ ديو معركةً حاسمةً في تاريخ الصراع المملوكي البرتغالي شَعَرَ بعدَها البرتغاليون أنهم سادةُ الملاحةِ والتجارةِ وأصحابُ النفوذ في المحيط الهندي وذلك بالرغم من بعض حركات المقاومة وبقاء بعض القوى الإسلامية صامدة أمامَ التحدي البرتغالي ، وذلك مثل قوات الساموري في الهند[٣]. ومع ذلك كان البرتغاليون على قناعةٍ تامةٍ أن سيادتهم في خطرٍ مالم يتمكنوا من بسط نفوذهم الكامل على منطقتي الخليج والبحر الأحمر ، وذلك لمنع المماليك من المساهمة في حركةِ التجارةِ الدولية آنذاك وإحكام السيطرة عليها ، ولتأمين السيادة البرتغالية وخطوطها الملاحية والتجارية في المحيط الهندي والبحر العربي ، تلك السيادة التي كانت القوات المملوكية تُشَكّل الخطر الأكبر عليها ، ولنقل ميدان الصراع والتوازن الدولي بين القوتين المتحاربتين من سواحل الهند إلى مداخل البحر الأحمر وذلك لشغل المماليك عن التفكير فيما هو أبعد من ذلك ، وتبذير جهودهم في تحصين حدودهم الغربيةِ من مركز السلطة في القاهرة. ولعلم البرتغاليين أنه ليس هناك إمكانية للتحالف مع بعض القوى العربية في الجانب الشرقي من البحر الأحمر اتجهوا - في هذا الإطار - للجانب الغربي منه محاولين التحالف مع ملك الحبشة[٤] لتحقيق

---

(١) لتفاصيل ديو انظر Barbosa, Durate, op.cit, pp 75-76.
وانظر كذلك Serjeant, op. cit , P 15

(٢) البرق اليماني . النهراواني . ص ٣٠ . (٣) آسيا والسيطرة الغربية . ص ٤٥

(٤) تم تفصيل ذلك التعاون في مبحث مستقل .

التوازن السياسي الدولي المطلوب.

أما في الجانب المملوكي فقد كانت هزيمةُ ديو دعوةً كبيرةً لإعادة تنظيم الصفوف، بل ولإعادة تقييم الاستراتيجية المملوكية أيضاً لتتلائم مع الوضع الجديد، ومن هنا وضع المماليك استراتيجيتهم الجديدة وفقاً لمجموعة من الأسس، كان من بينها ضرورةُ تقويةِ التعاونِ العثماني المملوكي من جهة والمملوكي البندقي من جهة أخرى، وذلك لضمان وصول الإمدادات المطلوبة واللازمة لإعادة بناء الأسطول المملوكي وتقويته وزيادة قطعه من جديد. وبناء على ذلك كرر الغوري طلبه للسلاح والإمدادات من السلطان العثماني بايزيد الثاني، والذي استجاب لذلك الطلب رغبة منه في حماية الأماكن المقدسة (١) تلك الأماكن التي طالما نافسَ المماليكَ أنفسَهم على سيادتها، وليس من شك في أن هذه الاستجابة ترفع من هيبة الدولة العثمانية وتزيد من شعبيتها في العالم الإسلامي استعداداً للدور الامبراطوري الذي كان العثمانيون يتطلعون للاطلاع به منذ أمدٍ ليس بقصير. ولعل ما قدمه السلطان سليم الأول، فيما بعد، من جند وعتاد يدخل في إطار ذلك التوجه أيضاً.

واتصل الغوري – كذلك – بالبندقية طلباً للمساعدة (٢)، وأخذَ يمارسُ الضغوطَ عليها، إذ قام بحبس من كان في دولته من الرعايا والتجار البنادقة (٣) ولكن محاولته الضغط على البندقية لم تأت بأيّ طائل (٤)، لأنها جاءت في الوقت الذي استسلمت فيه البندقية للأوضاع الجديدة، وأخذتْ تفكّر في مشروع تجاري جديد يقوم على إحياء الطريق البري الذي يربط بين الشرق والغرب عن طريق شمال إيران وتركيا. ومما يذكر أن البندقية حاولت الاتصال بالشاه الصفوي ولكنّ محاولتها باءت بالفشل عندما قبضت القوات التركية على بعثتها المتجهة للصفويين قبل أن تحقق أهدافها (٥). وهكذا تخاذلتْ للمرة الثانية عن إمداد المماليك ومن ثم فإن الحديث عن التحالف البندقي

١) طرق التجارة الدولية. نعيم زكي فهمي. د. ص ٩١-١٢
٢) الدولة العثمانية والشرق العربي. محمد أنيس. د. ص ١٢٣
٣) طرق التجارة الدولية. نفس الصفحة. ٤) المرجع السابق. نفس الصفحة.
٥) الدولة العثمانية والشرق العربي. محمد أنيس مراد. د. ص ١٢٢

المملوكي الجّدي أمر ليس بذي موضوع.

لم تثن الظروفُ السابقةُ الغوريَّ عن تحقيق هدفه، إذ قام بمواصلة جهوده حتى تمكن من إنشاء أربعٍ وعشرينَ سفينةً حربيةً (١)، كانت تكلفتُها الإجمالية نحواً من أربعمائة ألف دينار (٢)، ثمّ قام بتزويدها بما لايقلُّ عن ستة آلاف مقاتل كان من بينهم خمسمائة من المماليك (٣)، وألف مقاتل عثماني بعث بهم السلطان سليم الأول (٤) وأربعة آلاف من أجناد الطبقة الخامسة (٥) فضلاً عن المغاربةِ والسود وغيرهم من الفنيين والعمال المهرة، والذين ظهرتْ مشاركتُهم منذ الحملة الأولى.

وإعادة المماليك لبناء أسطولهم يؤكد لنا البندَ الثاني في استراتيجيتهم، والقائل بضرورة إعادة الكرَّة على البرتغاليين ومحاولة إقصائهم نهائياً، وإنْ لم يتحقق ذلك فلا أقلّ من إبعادِ الصراع على توازن القوى عن منطقة البحر الأحمر. ويبدو للباحث أنّ الغوري كان قد اتصل بالسلطان سليم الأول العثماني واتفق معه على هذه الخطة وهو ما توحي به المصادر المعاصرة (٦). ولعل مما يعزز هذا التوجه أيضاً أنّ الأسطول المملوكي قد قام بقيادة حسين الكردي بتعقب البرتغاليين بعد طردهم من البحر الأحمر إلى سواحل الهند، وإنْ كانَ لم يهاجمْهم هناك، فإنَّ أسطوله قد بقي في المياه الهندية مدةً طلب فيها المزيد من الإمدادات من السلطان المملوكي، والذي أمدّه بقوةٍ بحريةٍ كبيرةٍ بقيادة سلمان العثماني (٦).

وتستندُ الاستراتيجية المملوكية في بندِها الثالث على حماية مداخل البحر الأحمر وتعزيز الوجود المملوكي فيه، وفيما حوله من الأقاليم الساحلية وضمن هذا

١) تحفة المجاهدين . المليباري . ص ٤١
٢) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص ٢٦٥
٣) المرجع السابق . جـ ٤ ص ٤٦٠
٤) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩٩
٥) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم حسن سعيد . د . ص ١٨٥
٦) تحفة المجاهدين . ص ٤٥

الإطار،قامَ الأمير حسين بعد عودته من ديو سنة ١٥٠٩ – ٩١٥هـ مباشرة، قام بتحصين خط الدفاع الثاني عند جدة [١] ، وذلك ريثما يتم استكمال بقية عناصر الاستراتيجية والاستعداد لها . وكان من بين الأعمال التي قام بها الأمير حسين الكردي لتحصين جدة قيامه بإنشاء سور للمدينة، شرع في إنشائه سنة ١٥٠٩م–٩١٥هـ ، وانتهى منه بعد عامين ثم جهّزه بالمعدات الحربية والمدافع الثقيلة استعداداً للمواجهة البرتغالية المرتقبة [٢] ، إذْ كان الاعتقادُ السائدُ بأنّ دخول البرتغاليين في البحر الأحمر وتوغلهم فيه شمالاً أمر قريب الاحتمال ، وخاصة بعد اتصال البرتغاليين بالحبشة و محاولتهم تنسيق الجهود معها [٣] .

وانطلاقاً من البند الثالث في الاستراتيجية المملوكية أقامتْ حاميةٌ عسكريةٌ مملوكية بكمران ، كان من مهامّها تعزيزُ العلاقات مع المناطق الإسلامية المجاورة . وقد نجحت هذه الحامية في كسب ولاء الزيالعة ، إذْ قام الفقيه ابو بكر بن المقبول الزيلعي صاحب اللحية [٤] سنة ١٥١٦م– ٩٢٢هـ بمساندة الأمير حسين الكردي مساندةً حاسمةً في حربه مع الطاهريين ، وأمده بالأموال والمؤن اللازمة ،وبالرِّجال أيضاً [٥] ، وذلك في الوقت الذى انقطعتْ عنه فيه وسائل الإمداد الأخرى ، وكان ذلك خير معين له على مهاجمة عدن .

كما نجحت الحامية المملوكية كذلك في تقوية النفوذ المملوكي في المناطق الزيدية في صنعاء وصعدة ، وذلك عندما قدم جماعة من الزيدية للأمير حسين بكمران ، وبايعوه وطلبوا منه أن يمدّهم بقوة مملوكية قوامُها مائتا جندي ، وتكفّلوا بدفع الضرائب السنوية [٦] المستحقة في موعدها المحدد . ويعتبر

---

(١) الدولة العثمانية . محمد أنيس . د . ص ١٢٤ – (٢) البحرية . إبراهيم سفيد . د ص ١٨٣
(٣) الدولة العثمانية . محمد أنيس . د . ص ١٢٤
(٤) اللحية ميناء زيلعى قريب من وادى مور الشرجى طبقات الخواص ص ٢٣ .
(٥) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة . ١١٩٧ - ١١٩٩
(٦) المرجع السابق . نفس الصفحة .

ذلك انتصاراً للاستراتيجية المملوكية لأنّ كلاً من الصفويين والبرتغاليين كانوا يعتبرون الزيديين من القوى الموالية أو على الأقل من القوى المسالمة لهم، وكان البرتغاليون لا يعاملون الزيديين كأعداء منذ سنة ١٥١٣م [١] ٩١٩هـ، ويبدو أنّ البرتغاليين حاولوا التودّدَ للزيديين منذ وقتٍ مبكرٍ، إذ لم يعاملوا أهل كمران التابعة للأئمة الزيديين بنفس الدرجةِ من العنف المعهود عنهم، ولم يقوموا بسلب ونهب مدينتهم كما فعلوا بغيرها من المناطق التي تمت مهاجمتها [٢].

كانت بلاد اليمن، وخاصة عدن، تُشَكِّل حجرَ الزاويةِ في استراتيجية المماليك، ولذا تطلعوا إليها منذُ وقتٍ مبكرٍ، وقبل هزيمة أسطولهم في ديو، ومما يؤكد ذلك أن قوات حسين الكردي نزلت عدن في طريقها للهند، وأمَرَ حسينُ الكرديّ مَنْ نَادَى في المدينة " أنّ الناس في أمان الله وأمان السلطان قانصوة الغوري وكان ذلك سبباً كافياً لإزعاج السلطان الظافر عامر الثاني، بل وغضبه على حاكم المدينة مرجان الظافري [٣] الذي سمح بمثل هذا النداء والذي يدل دلالةً واضحةً على موقف المماليك من الدولة الطاهرية وأطماعهم فيها.

ورغم هذه الحادثةِ واضحةِ الدلالةِ، فقد حرص حسين الكردي على تحسين العلاقات الودية مع حاكم المدينة الطاهري، وهو ما يؤكد أن المماليك قد يكتفونَ بضمانِ تأييد الدولة الطاهرية لهم، وقيامها بمساعدتهم في حربهم مع البرتغاليين وفي حماية البحر الأحمر، وان لم تكن مساعدتهم قائمةً على الإمداد العسكري، فلا أقلّ من التزويدِ بالمؤن ومنحِ القواتِ المملوكيةِ تسهيلاتٍ خاصة للنزول بالموانئ اليمنية وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية والأمنيّة. وبناء على ذلك استمر السلطان الغوري في مراسلة السلطان الظافري ومبادلته السفارات والهدايا، ومن ذلك أن سفارةً مملوكيةً قدمتْ على البلاط الظافري سنة ١٥١٠م-٩١٦هـ بهدايا عظيمة، وتمّ استقبالُها استقبالاً حافلاً، وحُمِّلَتْ بهدايا مماثلة

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية. نيقولاي إيفانوف. ص ١٢٣

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) قلادة النحر. بامخرمة. ورقة ١١٩٢ - ١١٩٣

للسلطان المملوكي (١). كما تكرر قدوم السفارات المصرية على السلطان الظافر عامر الثاني سنة ٩١٩هـ (٢) و٩٢٠هـ (٣). وهو ما يؤكد استمرار الرغبة المملوكيّة في كسب تأييد دولة بني طاهر ومساندتها لهم .

ويبدو أنّ العلاقات الوديةَ وتبادلَ السفاراتِ والهدايا بين المماليك والسلطان الظافر عامر الثاني لم تقنع الطاهريين أنْ يساندوا المماليكَ في حربهم المقبلة مع البرتغاليين . ولعل السلطان الطاهري تخوّفَ أنْ يسفر تعاونه مع المماليك عن نقمةٍ عارمةٍ من البرتغاليين تدفعُهم إلى مهاجمة سواحله وتدميرها من جديد . وهذا ما تأكد عندما أبحر الأسطول المصرى قاصداً الهند فجأةً في أكتوبر سنة ١٥١٥م، السابع عشر من ذي القعدة سنة ٩٢٦هـ، ولم يعلم السلطان الظافر عامر الثاني بإبحاره إلّا عندما وصل جازان، وبعث رسولاً للسلطان الطاهرى يخبره بذلك ويعلمه أنّ الأسطولَ متوجهٌ إلى الهند لقتال البرتغاليين، ويطلب منه أن يُمِدَّ الأسطول المصرى بالأموال والمؤن . ولكن السلطان لم يستجب لطلب الأسطول المصرى و " انزعج لذلك وأعرض عن الجواب " (٤) ومن هنا أقلع الأسطول المصرى إلى كمران بهدف تحصينها، حيث بنوا بها حصناً عظيماً ومسجداً ومقبرة واتصلوا بالفقيه أبي بكر الزيلعي - كما سبق القول - الذى أمدّهم بما يحتاجون إليه، وأعلن ولاءه لهم (٥).

لما كان الطاهريون يمثلون مركز الثقل فى جنوب شبه الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر، فقد كرّر الأمير حسين الكردى طلبه مرّةً ثانيةً، وأكّد نواياه الوديّة بأن أرسل للسلطان الظافر وولده هدايا عظيمة (٦)، وهنا هَمَّ السلطانُ الظافرُ إلى إمدادهم بالأموال والمؤن اللازمة إلّا أنّ بعض أعوانه أشارَ

١) الفضل المزيد . ابن الديبع . ص ٣٢٢ - ٣٢٣ . ٢) واللطائف السنية . ص ٢٣٢

٢) المرجع السابق ص ٢٥٢ . ٣) قلادة النحر . بامخرمة ورقة ١١٩٤

٤) المرجع السابق ص ١١٩٧

٥) الفضل المزيد . ابن الديبع . ص ٣٥٩ - ٣٦٠

٦) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٩٧

عليه بخلاف ذلك مؤكدين أنّ المماليك لن يستطيعوا تغييرَ الموقف (١) و قلبَ ميزان القوى لصالحهم، و من هنا فإنّ مساعدتهم تعني إعلان العداء السافر للبرتغاليين وهو الأمر الذي قد يُسفرُ عن مواجهةٍ مسلحةٍ بين الطرفين، يقفُ فيها الطاهريون بمفردهم أمام الهجمات البرتغالية العنيفة، و ذلك ما لَمْ يكنْ في وسع القوات الطاهرية القيام به وحدها .

و هكذا تأزمت العلاقات بين المماليك و بني طاهر، إذ من الواضح أن السلطان الظافر قد تخلّى عن طلبه النجدةَ من المماليك كما أنّه قد تخلّى عن وعوده لهم بتقديم العون و المساعدة (٢)، بل أَمَرَ قوّاته بمنع وصول الإمدادات والمؤن القادمة من الحجاز للأسطول السلوكي بكمران، كما أمر قواته بأخذ الحذر، واليقظة لتحركات المماليك و الاستعداد التام لها (٣).
و يبدو للباحث أنّ سرَّ هذا التغيير المفاجيء يعود إلى عددٍ من الأسباب المباشرة و غير المباشرة، ومنها علم الطاهريين بأطماع المماليك و رغبتهم في بسط نفوذهم على أراضيهم، و عدم رغبتهم -كما سبق القول - في الدخول في صدامٍ مباشر مع البرتغاليين، وأنّ المماليك قد أقاموا بصفةٍ دائمة في جزيرةِ كمران، و هو الأمر الذي يؤكدُ استمرارَ حاجتهم إلى الإمدادات والمؤن اليمنية، و هو الأمر الذي سيؤدي حتماً إلى تطلع المماليك إلى السيطرة المباشرة على الأراضي اليمنية المقابلة لجزيرة كمران، وأخيرًا لابدّ من القول إنّ تعاون المماليك مع الزيديين - وهم ألدّ أعداء بني طاهر لا يمكن أن يكون مقبولاً، إذ يمكن تفسيره، بوجهٍ من الوجوه، بأنّه تحالفٌ موجّهٌ ضد الدولة الطاهرية، و قد تأكّدَ ذلك عندما قام الزيدية و معهم جنود المماليك بمهاجمة معسكر السلطان الظافر في قرية الضحى، حيث ألحقوا به الهزيمة. (٤)

---

١) قلادة النحر . بامخرمة . ص ١١٩٦ - ١١٩٧
٢) السنا الباهر . الشبلي اليمني . ص ٢٠١
والبرق اليماني . النهرواني . ص ٢٠
٣) قلادة النحر . بامخرمة رقة ١١٩٧
٤) الفضل المزيد . ابن الديبع . ص ٢٦٠

ومهما يكن من أمر فإنّ الموقف المعاديَ الذي انتهجه الطاهريون أدّى إلى إرباك مخططات المماليك، وإلى تأجيل حملتهم المتجهة إلى الهند، حيث ظلّ الأسطول المملوكي في كمران لمدة ثمانية أشهر حصن خلالها الجزيرةَ واستقبل الوفود التي يؤيد التوجه المملوكيّ وتستنكر سياسة الطاهريين، وتطالب الأمير حسين الكردي بالقضاء على دولتهم (١). وهكذا تجمعت الظروف نحو التصعيد، وكان احتجاز حاكم الحديدة لثلاثة سفن قادمة من جدّة بقصد تموين الأسطول المملوكي، كان احتجاز هذه السفن، القشّةَ التي قصمتْ ظهرَ البعير في العلاقات المملوكية الطاهرية، إذْ أرسل حسين الكردي إلى حاكم المدينة يطالبه بإخلاء سبيل المدد السلطاني وإلّا فإنّه سيقوم بتخريب الميناء. وأمام المدد الذي وصل للمدينة رفض حاكمها الاستجابة لطلب حسين الكردي مما دَفَعَه إلى دكّ المدينة بالمدافع ومهاجمتها والاستيلاء على ما بها من السفن ودروف(٢) البيوت(٣).

وأمام هذا الموقف كان لابدّ من حسم الأمور بصورة قاطعة، ومن هنا قام حسين الكردي سنة ١٥١٦م-٩٢٢هـ بمهاجمة زبيد واحتلالها، كما قام بمهاجمة عدن في شهر رجب من نفس العام بقوة بحرية مكونةٍ من برشتين وتسعة عشر غراباً ولكنه لم يتمكن من احتلالها، فانسحب بقواته لينضمّ للقوات المدافعة عن زبيد ضد السلطان الظافر الذي حاول استردادها حيث ألحق به الهزيمة، وتابع حروبه معه حتى احتل تعز والمقرانة وصنعاء وتمكن من قتل الملك الظافر نفسه سنة ١٥١٧م-٩٢٣هـ(٤). ومن عجائب الأقدار أنّ ذلك العام قد شهد انهيار الدولة المملوكية ومقتل سلطانها الغوري وهو الأمر الذي آذن بنهاية العلاقات بين الطرفين على ذلك الشكل الفاجع.

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية. نيقولاي إيفانوف. ص ١٢٠ - ١٢١

(٢) دروف كلمة في العامية اليمنية تعني.

(٣) الفضل المزيد. ابن الديبع. ص ٣٥٩ - ٣٦٠. وقلادة النحر. ورقة ١١٩٧

(٤) المرجع السابق. ص ٣٦٥ - ٣٦٩. وقلادة النحر. ورقة ١٢٠١ - ١٢٠٤

ومما يذكر أن فرسان الاستبارية قد استمروا، بعد ديو، في مهاجمة المصالح المملوكية في البحر المتوسط، ومن ذلك أنهم قاموا سنة ١٥١٠م-٩١٦هـ بقيادة أمير البحر البرتغالي أندريه دامارال Andre de Amaral، بمهاجمة ثماني عشرة سفينة مملوكية بالقرب من ساحل قلعة إياس حيث دارت معركةٌ حاميةٌ انتهت بقَتْلِ الأمير المملوكي محمد بك ومَنْ معه من الجند، وأَسْرِ السفن المحملة بالأسلحة ومعدات الحرب المقدمة من البندقية. ومما لا شك فيه أنّ مثل هذه العمليات الحربية قد أثرتْ سلباً على موقف المماليك في حربهم مع البرتغاليين في المياه الشرقية[1]. بقيَ أنْ نقولَ إنّ هزيمة الجيش المملوكي في ديو وانسحابه تاركاً قوات الساموري وحدها في الميدان قد أثّر على موقف القوى الإسلامية واضطرها إلى تسوية أوضاعها مع البرتغاليين وهو الأمر الذي زاد الموقف صعوبة بالنسبة للمماليك، وقد شارك -بغير شكٍّ- مع بقية العوامل الأخرى في تحجيم الاستراتيجية المملوكية وقصْرِ نشاطهما في أقاليم البحر الأحمر. وفي ضوء ذلك يمكن للقارئ أن يتقدم لمتابعة حركة الصراع المملوكي البرتغالي بعدَ ديو.

استغل البرتغاليون انسحاب الجيشِ المملوكيّ إلى جدة، وانتهزوا فرصة تزايدِ عددِ السفنِ الحربية التي وصلت إلى نحو خمسين سفينة، فأخذوا ينشرون الفساد والتدمير في السواحل الإسلامية الشرقية، مما دفع ملوك الهند إلى تجديد طلب النجدة[2]. وكذلك أخذَ البوكيرك يعمل بنشاط للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية تمهيداً للاستيلاء على مكة ومصر واغتصاب بيت المقدس والأماكن المقدسة المسيحية من المسلمين[3]، ويبدو أنّ البرتغاليين الذين دخلوا البحر الأحمر بقيادة البوكيرك نفسه في ستَ عشرةَ سفينةً قد اضطروا للانسحاب أمام ضغوط القوات البحرية المملوكية التي تعقبتهم إلى أعماق المياه الهندية، ولكنها اضطرت للعودة دون مهاجمتهم هناك حتى لا تتكرر مأساة ديو مرة أخرى وفي وقت قصير.

---

١) الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك . عبد العزيز عبد الدايم . د . ص ٢١٨

٢) البحرية في عصر سلاطين المماليك . إبراهيم سعيد . د . ص ١٨٤

٣) الإسلام والحبشة . فتحي غيث . ص ١٤٤

وفي سنة ١٥١٣م-٩١٩هـ كرر البرتغاليون محاولة الوصول إلى جدة، بقيادة البوكيرك، وفي الوقت الذي كان فيه الأمير حسين الكردي في مصر . ويُسَجّل للشريف بركات أنه تيقظ لهذه المحاولة، فسارع إلى جدة بِمَنْ معه من القوات لمساعدة الحامية المملوكية بها، كما أرسل للسلطان الغوري ينذره بخطورة الموقف ويدعوه لاتخاذ الردّ المناسب، وقد استجاب الغوري لذلك بسرعة حيث أمر حسين الكردي بالإبحار نحو جدةَ فوراً وأرسل معه أحد الأمراء مُكلَّفاً إياه بمهمةٍ محددة هي القيام بالمراقبةِ الدائمةِ للتحركات البرتغاليةِ في البحر الأحمر [1]، وفي نفس الوقت عملَ الغوري على إتمام بناء الأسطول وأمر بإنزال القطع المكتملة منه إلى البحر [2]؛ وقد تسارع العمل في إنشاء الأسطول حتى بلغ أربعاً وثلاثين سفينة منها أربع عشرة من الحجم الكبير التي تَزَوَّدَ كلٌّ منها بثلاثين مدفع ثقيل، وعشرون من الحجم الصغير المزود بمدفعين كبيرين في المقدمة والمؤخرة وستة مدافع صغيرة على الجانبين [3]. وفي سنة ١٥١٥م - ٩٢١هـ تولى سلمان العثماني قيادة هذا الأسطول الذي بلغ عدد جنوده نحو ستة آلاف مقاتل [4]، استعداداً للمواجهة المقبلة، ومهما يكن من أمر فإنّ يقظة الشريف بركات وتَدَخُّلَ الأمير حسين أدي إلى انسحاب تلك الحملة.

وقام البرتغاليون سنة ١٥١٦م-٩٢٣هـ بمهاجمة منطقة البحر الأحمر حيث نزلوا إلى ميناء عدن وتظاهروا بأنهم جاءوا لنصرة السلطان الطاهري، وطالبوا حاكم المدينة أن يُمدَّهم بمرشدين ليدلّوهم إلى طريق جدّة، وقد قدم لهم الأمير مرجان الظافري أربعة مرشدين رغماً عنهم وذلك ليتّقي خطر هجم البرتغاليين الذين قد يتعلّلون بعدم التعاون معهم ويقصفون المدينة بالمدفعية [5]

---

(١) بدائع الزهور . ابن إياس . جـ ٤ ص٣٠٧، ٣٠٨.
(٢) المرجع السابق، حـ٤ ص٣١٠، ٣١١، ٣٦٢.
(٣) المرجع السابق، حـ٤ ص ٣٨١ - ٣٨٢.
(٤) المرجع السابق، حـ٤ ص٤٦٦، ٤٦٧.
(٥) قلادة النحر . با مخرمة . ورقة ١٢٢٥

انطلق لبهو سواريز بقواته البرتغالية صوب جدة ، وكانت أخبارُ حملته قد سبقت إليها ، فاستعد القائد سلمان العثماني للقائهم استعداداً تاماً مما اضطرّهم إلى الوقوف بعيداً عن المدينة . وعندئذ قام القائدُ المملوكيُّ في بعض قطع أسطوله بمهاجمتهم وقصفهم بالمدافع حتى أغرق سفينتين أو ثلاث ، وبَدَا أنّه سَيُكَبِّدُهم خسائر فادحة لولا خيانة أحد رماة المدفعية الذي تسبَّب في إحراق بعض أجزاء سفينة القائد المملوكي ، ويقال إنّ ذلك الضابط كان نصرانياً، وإنه فعل ذلك نصرة لأبناء دينه (١) ، وقد أتاحَ ذلك للبرتغاليين فرصة الانسحاب ، حيث قام الأمير سلمان العثماني أو بعض قواده ، بتعقُّبهم إلى قرب اللحية حيث تمكنوا من الاستيلاء على أحد قطع الأسطول البرتغالي (٢) . وكان ذلك آخر تطورات الصراع بين المماليك والبرتغاليين، لأنّ السلطان العثماني كان قد هاجم دولة المماليك وتمكن من إسقاطها بعد ذلك بقليل ، ليتولى هو دفة الصراع من جديد

---

(١) قلادة النحر . بامخرمة . ورقة ١١٢٥

(٢) المرجع السابق ورقة ١١٢٥ ـ ١١٢٦ .

الفصل الثاني

جهود الدولة العثمانية في مقاومة الغزو البرتغالي لمياه المحيط الهندي

كان إحساس الدولة العثمانية بتعاظم دورها الإسلامي والعالمي كدولة إمبراطورية يزداد يوماً بعد يوم منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وعند مطلع القرن السادس عشر كانت تركيا على قدر كبير من القوة، أهّلها لأن تُحوّل تطلعاتها الامبراطورية - وفي وقت قصير لا يتجاوز العشرين عاماً - إلى واقع ملموس، وإلى أن تصبح دولة الخلافة الإسلامية بلا منازع. وقد لعب هذا التطلع دوراً بارزاً في صراع العثمانيين مع البرتغاليين سواء على جبهة البحر المتوسط وبلاد المغرب أم في ميدان الصراع الشرقي على سواحل المحيط الهندي، وهو ما يعنينا هنا، حيث نجد السلطان سليم يساند المماليك في صراعهم مع البرتغاليين، ويُقدّم لهم كميات من المدافع والبارود والمؤن البحرية، وعدداً من بناة السفن والبحارة للمساعدة في إعادة بناء الأسطول المملوكي بعد هزيمته في ديو سنة ١٥٠٩م [١]. ومما لا شك فيه أنّ هذا الموقف يؤكد أن العثمانيين كانوا على وعي بحقيقة الصراع الإسلامي البرتغالي منذ وقت مبكر، كما كانوا على وعي بحقيقة الأطماع البرتغالية، وتهديدها المباشر للعالم الإسلامي بأسره.

ولعلّ هذا الوعي كان أحد الأسباب المباشرة التي زجّت بالعلاقات العثمانية المملوكية إلى حافة التوتر الحاد، ونظراً لعجز المماليك عن القيام بدور فاعل، وازدياد ضعف دولتهم وتفكّكها، حيث انتهى الأمر بسقوط الدولة المملوكية في مصر والشام بكاملها سنة ١٥١٧م تحت أقدام الزحف العثماني. [٢]

---

(١) في أصول التاريخ العثماني. أحمد عبد الرحيم. دار الشرق القاهرة ١٩٨٦ ط ٢ ص ٨٢، ٨٣.

(٢) تمت معالجة هذه القضية في الباب الأول.

وباحتلال مصر وسوريا ، وتبعيّة الجزيرة العربية أصبحت الدولة العثمانية دولة خلافة من الناحية العملية ، وكان عليها أن تنهض بمسؤولياتها ، لا في حماية الأراضي الإسلامية وحدودها فحسب ، بل في زعامة العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الخارجية (١) ، حيث كان السلطانُ العثمانيُّ بصفته الحامي الجديد للإسلام مُلزَماً بالدفاع عن المسلمين من اعتداءات الكفار وقطع دابر هجمات الفرنجة في البحار الجنوبية . ومنذ مطلع عام ١٥١٧م أخذت تلك القضية تسبب قلقاً جدّياً لكبار مسؤولي الباب العالي حيث تم الاتفاق على تعزيز الوجود العسكري العثماني في مياه المحيط الهندي عن طريق تجديد الأسطول المملوكي في البحر الأحمر وتعزيز قدراته ، ليقوى على مجابهة البرتغاليين في صراعهم البحري ضد المسلمين (٢) . ومما أكد على ضرورة هذا التوجّه وقوّاه أنّ العثمانيين قد أصبحوا دولة مواجهة مباشرة بمجرد احتلالهم لمصر ، وأنّ الدولة المغربية المعاديةَ لها قد مدَّت للبرتغاليين يد الود والمسالمة ، يضاف إلى ذلك وصول العثمانيين إلى قيادة العالم الإسلامي من جهة ، وتعاظم الخطر البرتغالي من جهة ثانية ، وضعف الحكام المحليين ، وعجزهم عن حماية أنفسهم ، وأزمة مؤسساتهم التقليدية من جهة ثالثة حيث خلقَ كلّ ذلك ظروفاً مناسبةً لتصاعد موجة التوجه للعثمانيين ، والتي لم يستطع ردّها شيء ، إذ تطلّع عامةُ المسلمين للدولة العثمانية كدولة مُخلّصة ، وتوجهَ إليها حكام السواحل الاسلامية الشرقية في شرق أفريقيا ، والجزيرة العربية ، والهند ، طلباً للحماية والمساعدة في صدّ الخطر البرتغالي (٣) .

---

(١) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . د . ص ١٦٧

(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٢٩

(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .

وهكذا كانت مجابهة العثمانيين للبرتغاليين محتملة الوقوع منذ فتحهم لمصر ، ولكن موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي ، وخاصة في الفترة المبكرة ، كان متسماً بالضعف وعدم التناسب مع خطورة التهديد البرتغالي [1] . ولعل ذلك راجع إلى أن السلطان سليم كان قد خرج من حربين كبيرتين ، كانت أولاهما ضد الصفويين وتوجت بمعركة جالديران سنة ٩١٩ هـ - ١٥١٤ م ، وكانت الثانية ضد المماليك وانتهت باحتلال مصر سنة ٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م ، وأعقب ذلك وفاة السلطان نفسه سنة ٩٢٧ هـ - ١٥٢٠ م ، حيث خلفه السلطان سليمان القانوني الذي بدأ عهده بسلسلة من الجهود السياسية الكبرى في أوربا ، قبل أن يلتفت للجبهه الشرقيه [2] ، وبعبارة أخرى فإن تأخر ظهور العثمانيين في مياه المحيط الهندي يرجع إلى كون دولتهم مترامية الأطراف ، وكانت منشغلة في جبهات حربية متعددة شرقاً وغرباً . [3]

ومما يجدر ذكره - قبل متابعة الدور العثماني في مواجهة البرتغاليين - أنّ العثمانيين قد ساروا ، بصفة عامة ، على نفس الاستراتيجية التي كانت تسير عليها الدولة المملوكية في مواجهتها للخطر البرتغالي ، وذلك ببسط نفوذها على الحجاز واليمن باعتبارهما قواعد ارتكازية لمحاربة النفوذ البرتغالية ، ليس فقط في البحر الأحمر بل في مياة المحيط الهندي وفي الخليج العربي حيث اتخذوا من عدن قاعدة محورية وخطاً دفاعياً ثانيا لدعم النفوذ العثماني في الخليج في حربه مع كل من البرتغاليين والصفويين على السواء [4] .

---

١) عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين . طارق الحمداني . ص ١٧٥

٢) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . د . ص ١٧٠

٣) عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين . ص ١٧٤

٤) الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٢٦ - ١٣١

جهود العثمانيين في مواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر :

كانت سياسة العثمانيين في البحر الأحمر تقوم أساساً على مبدأ إنقاذه من الخطر البرتغالي الزاحف من المحيط الهندي ، وليس على أساس إحياء تجارة الشرق عبر مصر والبحر الأحمر ، ومما يؤكد ذلك أن الدولة العثمانية لم تحاول مطلقاً أن تكون من القوى الإسلامية المبعثرة في المحيط الهندي جبهةٍ موحدةٍ لمواجهة الخطر الواحد ، وأن الدولة العثمانية قد فرضت تقليداً جديداً يمنع دخول المراكب المسيحية إلى البحر الأحمر المُطِل، بشكلٍ مباشر ، على الأماكن الإسلامية المقدسة ، وقد ظل هذا سائداً حتى أواخر سنة ١٨٧٠م [١] . ومع ذلك نجد أن العثمانيين قد أولوا اهتماماً خاصاً لإحياء التجارة الدولية عبر البحر الأحمر والخليج العربي على ما سيتّضح في غير هذا الموضع .

قامت السياسة البرتغالية في البحر الأحمر عند قدوم العثمانيين وخاصة بعد حملة لوبوسواريز سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م على أساس إرسال الحملات الاستطلاعية أو الخفيفة لمراقبة النشاطات البحرية العثمانية ومحاولة عرقلتها قبل أن تدخل ميدان المنافسة العملية في مياه المحيط الهندي [٢] وكان البرتغاليون ، منذ أحسّوا باقتراب الفتح العثماني لمصر ، قد اتصلوا بملك أسبانيا وطالبوا منه أن يرسل جيشاً وأسطولاً لاحتلال ميناء زيلع في الساحل الصومالي ، كما عرضوا على ملك فرنسا الاستيلاء على سواكن باعتبارها باب السودان ، والقيام بتحصينها استعداداً لمواجهة الخطر العثماني ، في حين يقوم البرتغاليون باحتلال مصوع باعتبارها باب أثيوبيا [٣] ، وذلك لإحكام السيطرة الأوربية على البحر الأحمر . ويتضح من هذه الخطة أنّ البرتغاليين قد هدفوا إلى الحصول على الدعم الأوربي من جهة ، وعلى تأكيد الطبيعة الصليبيّة لحروبهم في الشرق من جهة أخرى ، وإلى قتل أيّ أملٍ في إحياء التجارة الشرقية

---

١) الدولة العثمانية . محمد أنيس . د . ص ١٣٠

٢) عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين . طارق الحمداني . د . ص ١٧٢

٣) تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . ص ٤٤ هامش

عبر البحر الأحمر من جهة ثالثة كما يتضح أيضا أنّ البرتغاليين كانوا يُولون أثيوبيا حَيِّزاً مُهِمّاً من سياستهم في البحر الأحمر . ومما يذكر أن تهديد النفوذ البرتغالي في البحر الأحمر كان قد وصل حتى أبواب السويس (١) وهو الأمر الذي يؤكد حقيقة الخطر المحدق ومدى جدّيته . ولعلّ العثمانيين كانوا على وعي بكل ذلك وهو ما يفسر مُسَارَعَتهم إلـــى احتلال موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ سواكن ومصوع وزيلع ،حيث وضعوا فيهـــا حاميات عسكرية وَزَوَّدُوها بالأسلحة النارية ،وجعلوها تحت إمرة والي جدة الذي عُيِّن فـــي تلك المدن نوباً له ،وكان ذلك حوالي سنة ٩٢٧ هـ ـ ١٥٢٠ م ،عند احتلال البرتغاليين لمقديشيو أو بعيد ذلك بقليل (٢).

وهكذا نجد أنفسنا أمام السياسة العثمانية في بلاد الحجاز واليمن تلك السياســة التي بدأت بتعيين السلطان سليم للشريف بركات أميراً على الحرمين الشريفين وسائـــر الأقطار الحجازية (٣) ،وإقراره لإسكندر القرماني على إمارة اليمن حيث أظهر الطاعـــة ورفع الشعار العثماني وخطب باسم السلطان سليم العثماني . (٤)

كانت أقاليم الحجاز تتميز بهدوء أكبر ،وكانت واضحة الولاء للدولة العثمانية ولذلـــك لم يتدخّل العثمانيون في صلاحيات أشراف مكة ، من حيث البناء الداخلي والإدارة واكتفـــوا بِتَوَلّي حراسة الشواطئ البحرية وحماية الحجاج وقوافل المؤن والمواد الغذائية المتجهــة للمدن المقدسة . وكُلِّفَ الوالي العثماني في مصر بالإشراف على الحجاز ،وأُنيطت بــــه مسؤولية الدفاع عنه ،ومن ثم كانت الحاميات العثمانية في الحجاز تَأْتَمِرُ بأمره ، وفي طليعـــة هذه الحاميات حاميةُ جدة التي تَحَوَّلَتْ إلى قلعةٍ حصينةٍ ومرتكزٍ أُساسيٍّ لسيطرة العثمانيـــن

---

١) تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . ص ٥٢

٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١١٣

٣) البرق اليماني . النهرواني . ص ٧

٤) الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية . ابن داعر جـ ١ ص ١٦٩

على البحر الأحمر [١] والتصدي للتهديد البرتغالي فيه . وهكذا اتخذ العثمانيون من الوجهة العملية ، من جدة عاصمة عسكرية وسياسية وتجارية أصيلة للحجاز [٢] كلّه وللوجود العثماني في منطقة البحر الأحمر .

بدأ النشاط العثماني ضد البرتغاليين على أساس قاعدة الحجاز وجدة على وجه الخصوص منذ وقت مبكر ، إذ عندما خلف حسين الرومي قاسم الشرواني في سنجق جدة استأذن الوالي العثماني في مصر للخروج ببقايا حملة حسين الكردي ، والتي كانت لا زالت في جدة إلى اليمن ، فأذن له الوالي سنة ٩٢٦ هـ ـ ١٥٢٠ م ، ولكن وفاة السلطان سليم وعدم استعداد الحملة بالقدر الكافي ، أدى إلى فشل الحملة وعودتها [٣] . ولكن الأساس الذي قامت عليه ، وهو مواجهة التهديد البرتغالي ، وتدعيم الوجود العثماني على مداخل البحر الأحمر ، لا زال قائماً . ومن ثمّ حثّ سليمانُ الريس حسين الرومي على معاودة الكرّة على اليمن ، ودخلت الحملة الجديدة في صراع مع حاكم اليمن من قبل الوالي العثماني اسكندر القرماني ، الذي رفض التعاون معهما ، وانتهى الأمر بفشل الحملة وعودة سليمان الريس إلى مصر وحسين الرومي إلى جدة ، وقد دبّ بينهما الخلاف وهو الأمر الذي دفع سليمان الريس إلى إغراء إبراهيم باشا والي مصر الجديد ، بحسين الرومي ، حيث نجحَ في إقناعه بتوجيه حملةٍ جديدةٍ لمحاربته . وخرجت الحملةُ الجديدةُ في نحو أربعة آلاف رجل ما بين جنود وصُنّاعٍ وكان فيهم الأساكفةُ والجهّال ، وقُطّاعُ الطرق وغيرهم ، وصلت جدةَ سنة ٩٣٢ هـ ـ م حيث عاثت فيها فساداً ونهبت كثيراً من خيراتها [٤] .

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ٧٤

(٢) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣) البرق اليماني . النهرواني . ص ٧

(٤) المرجع السابق ص ١٠ ـ ١١ .

ومما يُذْكَر أنّ سليمان المسلم يحقق إنجازاً سياسياً يذكر في مواجهة الخطر البرتغالي وإن كان قد انتهى بخبرته إلى الدعوة إلى مضاعفة الجهد العثماني بشكل جدّي للوقوف في وجه ذلك الخطر (١) .

كان العثمانيون يَرَوْنَ أنّ التصدي للخطر البرتغالي يقتضي منهم أن يسيطروا على اليمن سيطرة مباشرة ويعود ذلك إلى أن اليمن تتحكم بموقعها الاستراتيجي في مدخل البحر الأحمر عند باب المندب من جهة، وتعتبر قاعدة ارتكاز أساسية لمن يريد المنافسة السياسية أو التجارية في مياه المحيط الهندي وذلك لإشرافها المباشر وتحكمها الفعلي في حركة الخط التجاري بين الشرق والغرب أو بين الهند والسواحل العربية من جهة وبين سواحل شرق أفريقيا من ناحية أخرى ، ولحصانة موانئها، وخاصة عدن وسهولة الانطلاق منها والعودة إليها من جهتي الشرق والغرب على حد سواء . ويُضافُ إلى ذلك أن بلاد اليمن تَمَيَّزت بعدّة ظروف جعلت السيطرةَ العثمانيةَ عليها أمراً حتمياً، ومن ذلك الصراع الذى كانَ دائراً على أرضها (٢) بين بقايا القادة المماليك فيما بينهم من جهة ومع القوى اليمنيّة الأخرى من جهة ثانية ، وعدم إخلاص هؤلاء وأولئك في التعاون مع العثمانيين وتعدّد القوى السياسية وتنافرها ، فضلاً عن إدراك البرتغاليين لقيمة ميناء عدن السياسية والتجارية والحربية واتصالهم بحاكمها الطاهرى ومحاولتهم التعاون معه إلى غير ذلك .

---

١) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبدالوهاب القيسي . د . ص ١٦٩ .
٢) لمزيد من التفصيل انظر : قرة العيون . ابن الديبع . ص ١٥٩ ب . والسنا الباهر . الشبلي اليمني ص ٢٠٤ . واللطائف السنية . الكبيسي . ص ٢٢٥ - ٢٢٩ . وأئمة اليمن . زبارة . جـ ٣ ص ٢٨ - ٢٨٩ . وغاية الأماني . الصنعاني . ص ٦٥١ .

وأكثر ما يعنينا في هذا المقام مدينة عدن ونواحيها ، التي كانت خاضعة لسلطان الحاكم الطاهري مرجان الظافري الذي هادنَ البرتغاليين وأبدى استعداداً تحت ظروفٍ ما – للتعاون معهم [١] . فعلى الرغم من أن مرجان الظافري اتصل بالسلطان سليم وشكا له من تصرفات حسين الكردي ومِنْ بعدِهِ سليمان الريس وحسين الرومي واعتذر عن موقفِهِ السابق من البرتغاليين [٢] ، وبالرغم من موافقة حاكم عدن على الدخول في طاعة العثمانيين والخطبة لهم ، وصك النقود باسمهم وقبوله بأن يدفع لهم نصف عوائد تجارة الهند [٣] ، وذلك سنة ٩٢٤ هـ ١٥٢٧ م فإن الملاحظ أن هذه السياسة لم تخلُص إلى أرض الواقع بل ما حدث كان عكس ذلك حيث تمكن البرتغاليون بعد ذلك بثلاث سنوات أي سنة ٩٣٧ هـ – ١٥٣٠ م من عقدِ اتفاقية تعاون مع حاكم عدن [٤] .

ويبدو أنّ هذا الموقف زاد العثمانيين استياءً فخرج سنان باشا سنة ٩٣٧ هـ ، ١٥٣٠ م ، على رأس حملةٍ لمنازلة البرتغاليين في البحر الأحمر حيث تمكن من هزيمتهم وتعقبهم إلى خارج باب المندب وقام بتثبيت الوجود العثماني في سواكن ومصوع وجدة وزبيد والحُدَيْدة والمخا وزيلع ووضع في كل مدينة نائباً تركيّاً وحامية عسكرية ، وجعل الجميع تحت سلطة والي الحجاز ، في حين ترك أمور الإدارة المحليه للمواطنين [٥] .

---

(١) تمت معالجة هذه القضية في غير هذا الموضع .

(٢) قلادة النحر . با مخرمة . ورقة ١٢٠٠ .

(٣) Serjeant, op.cit . p . 33

(٤) سبقت الإشارة إلى هذه الاتفاقية .

(٥) تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . ص ٥٢

ولعل هذا كان سبباً في نفور حاكم عدن لاتفاقه مع البرتغاليين حيث قام بالقبض على البرتغاليين الموجودين في عدن وسجنهم واستغلهم في صناعة الأسلحة الحربية ، وفي نفس الوقت اتصل بالعثمانيين وجدد رغبته في طاعة السلطان العثماني والتبعية له [1].

ومهما يكن من أمر فإن ذلك يؤكد عدة أمور منها : أن حاكم عدن لم يقدر طبيعة الصراع الذي كان دائراً بين العثمانيين والبرتغاليين والذي بدأ يطرق أبواب عدن والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية [2] ، وأنه كان يلجأ إلى هذا الجانب أو ذاك لتكريس سلطته والاحتفاظ باستقلاله الخاص ، وأن إظهار طاعته للعثمانيين ليس إلاّ للتقوّي بهم على صد البرتغاليين إذا ما عاودوا مهاجمة عدن من جديد [3].

ولكن الملاحظ – مع هذا – أن السلطان الظافري ظل مُهادِناً للبرتغاليين [4] وهو ما يؤكد أن حكام عدن ظلوا يتعثرون في سياستهم الخارجية ، وأنّهم لم يتخذوا نهجاً واضحاً في علاقاتهم مع طرفي الصراع موضع البحث ، وقد كان لهذه السياسة عواقبها الوخيمة إذ أضعفت موقف الحاكم العدني ودفعته إلى القبول بالشروط البرتغالية المُذِلّة ، وانتهى الأمر بمهاجمة العثمانيين لعدن واحتلالهم لها [5] ، حيث اتخذوا من

---

(١) انظر serjeant, op. cit P 33 ، وعدن والسياسة البريطانية . فاروق أباظة د . ص ٤٨ . ويقول بعض الباحثين إن حاكم عدن فعل ذلك نكاية في البرتغاليين (المجابهة البرتغالية . الحمداني . د . ص١٧٦)

(٢) المجابهة البرتغالية العثمانية . طارق الحمداني . د . ص١٧٦

(٣) المرجع السابق ١٧٢ – ١٧٣ ، والفتح العثماني الأول لليمن ص١٠٤

(٤) الفتح العثماني الأول لليمن . مصطفى سالم . د . ص ١٠٤

(٥) المجابهة البرتغالية العثمانية . طارق الحمداني . د . ص ١٧٣

موقف الحاكم العدني ذريعة لمدّ نفوذهم إلى عدن خاصة وأنه اعترف من قبل بالتبعية للسلطان العثماني سليم الأول ومن بعده سليمان القانوني حين دخل العراق سنة ١٥٣٤ م ومدّ نفوذه للبصره والقطيف والإحساء [١] على ما سيتم بيانه فيما بعد . ويخيل للباحث أن العثانيين كانوا سيمدون سلطتهم إلى عدن تحت أي ظرف من الظروف وذلك نظراً لحساسية موقعها ، وعدم اكتفاء أو رغبة العثمانيين فى بقائها تحت سلطة دويلة ضعيفة متذبذبة الولاء ، وغير راغبة في التعاون الصادق والتبعية الفعلية لامبراطوريتهم العظمى .

وتضافرت عدّة عوامل عجلت فتح العثمانيين لعدن ، أولها ما سبقت الإشارة إليه من أنّ العثمانيين تخوّفوا " أن يستولي عليها الفرنج اللعين " البرتغاليون " فإنّ ثغرها في غاية الامتناع والتحصين ، وإنها إذا وقعت في أيدي الفرنج الملاعين يصعب استردادها منهم لمعرفتهم برمي المدافع والمكاحل ، وحفظ الثغور والقلاع ، بخلاف العرب ـ والقول للنهرواني ـ حيث لا معرفة لهم بها ، كما ينبغي لها ، وإنّ الفرنج الملاعين إذا تمكّنوا من هذا الثغر الحصين أضرّوا بالمسلمين ومنعوا سفائن الهند من الوصول إلى بنادر الحرمين الشريفين " [٢] وغيرهما من موانئ البحر الأحمر .

وكانت الفترة التي أعقبت سقوط دولة المماليك قد شهدت نشاطاً ملحوظاً للاعتداءات وأعمال القرصنة البرتغالية على شواطئ ظفار وحضرموت والمناطق القريبة من باب المندب وتركزت أكثر الهجمات على قشن وسيحوت والشحر وغيرها في جنوب شبه الجزيرة العربية . وكذلك صوع وزيلع وبربرا على الشاطئ الأفريقي [٣] ، وكانت أعمال القرصنة البرتغالية

---

١) المجابهة البرتغالية العثمانية . طارق الحمداني . ص ١٧٦

٢) اللطائف السنية . الكبيسي . ص ٢٣٢

٣) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاى إيفانوف . ص ١١٩ - ١٢٦ - ١٢٧

قد بلغت ذروتها قبيل فتح العثمانيين لعدن بقليل ،حيث شملت مهاجمة الشواطـــى، والاستيلاء على السفن التجارية ومهاجمة التجار العزّل والمسافرين من عامة النـــاس على حدٍّ سواء .

وكان على السلطان سليمان القانوني أن يستجيب لاستغاثة المسلمين التي جاءته من كلّ حدب وصوب في المحيط الهندي وخاصه بعد أن قتلَ البرتغاليون بهادر شاه حاكم كجرات ،واهتزت ثقة معظم حكام الهند في مقدرة العثمانيين على التدخل لحسم الصراع (١). ولا شك أن هذه الاستجابة تقتضي أن يكون للعثمانيين قاعدة متقدمه تطل على مياة المحيط الهندي وليس هناك مدينة أقدر من عدن على القيام بهذا الدور .

وكانت الاستراتيجية العثمانية منذ عهد السلطان سليم ترمي إلى إنهاء سيطـــرة البرتغاليين وتدمير قواعدهم في سواحل مليبار بضربة واحدة.ولما خَلَفَه السلطان سليمـــان القانوني كانت تحذوه رغبه في تثبيت مواقع الإسلام في حوض المحيط الهندي ولا شـــك أن عدن كانت المرتكز الأساسي لهذه الاستراتيجية (٢). وعلاً بهذا التوجّه كان السلطـــان سليمان القانوني قد كلف ابراهيم باشا والى مصر بتجديد المرسى المملوكى القديم فـــي السويس وإنشا قيادة بحرية منفصلة للبحر الأحمر ،حيث تمكن الأسطول من استعـــــادة نشاطه منذ سنة ٩٣٤هـ ـ ١٥٣٠م (٣) . وبعد ذلك بسنتين أى سنة ٩٣٦هـ ـ ١٥٣٢م أمرَ سليمان القانوني بإصلاح أحواض السفن المملوكية والمباشرة في بناء سفـــن

---

١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٣١

٢) فتح العثمانيين عدن . البحراوى . ص ٨٩

٣) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . ص ٩٧ - ٩٨

حربية ضخمة ، استعدادًا للقيام بحملة عثمانية على الهند ، وكان ذلك إيذانًا بانتشار حمّى البناء حيث توافدَ العمال والبحارة من كلّ حدب وصوب لدرجة أنّه ألقى القبض على بعض بحارة البندقية وأرسلوا للعمل في السويس ، وتولى أمهرُ الصناع مهمة صبّ المدفعية . وقد سبّب ذلك للبرتغاليين قلقاً كبيراً ، وخاصة ما تردّد عن صنع العثمانيين لتسعة مدافع عملاقة بإمكانها إطلاق قذائف بزنة مائة كيلو جرام وأنها قد نُقلت فعلاً إلى الأسطول العثماني في السويس [1] . وكان إتمام بناء العثمانيين لأسطولهم في السويس مؤشراً واضحاً على اقتراب ساعة الانطلاق الكبير .

وثمة حدثان كبيران كان لهما أثر كبير في تنشيط التوجه السياسي العثماني في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأول هذين الحدثين هو عقد سليمان القانوني لاتفاقية هدنة مع آل هبسبورغ حكام النمسا وهنغاريا وبوهيميا سنة ٩٣٥ هـ ـ ١٥٣٣ م [2]

وثانيهما ما قام به العثمانيون من محاربة الصفويين ودخولهم لعاصمتهم تبريز سنة ٩٣٦ هـ ـ ١٥٣٤ م بعد هزيمتهم هزيمة ساحقة [3] ، أتاحت الفرصة للعثمانيين لأن يتقدموا لاحتلال العراق و يشرفوا على الجزء الشمالي من الخليج العربي دون منافس يذكر ـ وقد أتاح هذان الحدثان للعثمانيين فرصة التحرك النشط في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وكان عوناً مباشراً لهم عندما تقدموا لاحتلال عدن .

ومع استكمال استعداداتهم ، أرسل العثمانيون حملتهم الرئيسة عبر البحر الأحمر سنة ٩٤٥ هـ ـ ١٥٣٨ م والتي كان من أهدافها القيام بتثبيت الوجود العثماني في عدن والمناطق الجنوبية من اليمن كالشحر والمخا وغيرها [4] ، ثم التوجّه إلي الهند

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٣١

(٢) المرجع السابق . ص ٨٨

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) البرق اليماني . النهرواني . ص ٩١

وتوجيه ضربة قاضية للوجود البرتغالي فيها [(١)]، تحقيقاً لمطلب الحكام المسلمين هناك وإحياءً لطرق التجارة عبر الأراضي الإسلامية، وحمايةً لأراضي المسلمين من التهديد الصليبي المباشر الذي كانت البرتغال تحمل رايته في ذلك الوقت. وتعتبر هذه الحملة التي تولى قيادتها سليمان باشا الخادم أول حملة حقيقية، أو قل بداية المجهود العثماني الحقيقي الموجّه ضد الوجود البرتغالي . [(٢)]

كانت الحملة في مايو أيار سنه ١٥٣٨ م على أهبة الاستعداد، في أسطول تذكر بعض المصادر أنه كان نحواً من أربع وسبعين سفينة [(٣)] حربية وقيل ثمانين [(٤)]، وقرابة مائة سفينة نقل كانت تقل على متنها عشرين ألفاً [(٥)] من البحارة والجنود، من بينهم سبعة آلاف انكشاري [(٦)] وعدد من البنادقة والبقية من عرب مصر والشام [(٧)]. وتذكر الوثائق العثمانية أن سفن العثمانيين الحربية في ذلك الوقت كانت أربعاً وأربعين سفينةً من نوع جالي Galley أبحرت من السويس وأربع عشرة سفينة أخرى كانت قد تقدمت إلى المخا لمحاربة الإمام الزيدي هناك [(٨)] وقد تكون البقية مقيمةً في بندر جدة منذ سقوط الدولة المملوكية حيث بدأ النشاط العثماني في مواجهة البرتغاليين من هناك. ومما يذكر أنه قد تم تجهيز السفن بالمدفعية والصواري في جدة [(٩)] استعداداً لبدء العمل الحربي وأنها تزوّدت بالماء والمؤن في قمران قبل أن تتجه إلى عدن [(١٠)]

---

(1) Serjeant , op. cit p. 33

(٢) الدولة العثمانية . محمد أنيس . د . ص ١٢٢ . وفتح العثمانيين عدن . ص ١٥١ .

(٣) الفتح العثماني ١٢٢ G.W.F, stripling, p 90

(٤) الدولة العثمانية . محمد أنيس ١٢٢ (٥) G.W.F. stripling, P. 90

(٦) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ١٢٢ . (٧) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ٥٢

(٨) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٦٥ .

(٩) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ١٢٢

(١٠) انباء أبناء الزمن . الصغاني . ص ١٢٢

واُستُقبِل الأُسطول العثماني في عدن استقبالاً ودّياً وقُوبِلَ بحفاوةٍ وأُقيمتْ له الزينات حيث كان عامرُ بنُ داود الطاهري قد استنصر بالعثمانيين ضد الإمام شرف الدين في تعز ، وتعهّد لهم بالوقوف إلى جانبهم في مواجهة البرتغاليين (١) . وقام سليمان باشا الخادم بإرسال وفدٍ إلى كلٍّ من حاكمي الشحر وعدن ،ومعه خِلَعٌ وهدايا (٢) وذلك لتثبيت العلاقات الودية والتأكد من التبعية السياسيّة ،والحصول على الدعم الاقتصادي والسياسي والحربي اللازم .

ومع أن عامر بن داود كان قد استقبل الأسطول استقبالاً ودّياً وسمح له بدخول ميناء عدن والتزود بالماء والمؤن والطعام (٣) فإنه لم يُبدِ سياسةً واضحةً أو قلّ لم يُبْدِ حماساً للاستجابة للمطالب السياسية العثمانيّة ، وقام بمراوغة الوفد ولم يعطِ جواباً على رسالة قائد الحملة سليمان باشا الخادم (٤) وبناءً على ذلك واعتقاداً من العثمانيين أن الأمير الطاهري كان قد تحالف مع البرتغاليين سرّاً (٥) ، قامَ سليمان باشا الخادم بالاستيلاء على عدن عن طريق الغدر وعرّضها للسلب والنهب (٦) وضمّها للحكم العثماني المباشر بعد أن قضى على حكم الأسرة الطاهريّة بها .

ورغم أن غدر سليمان باشا الخادم في عدن كان نقطةً سوداء في التاريخ العثماني وسبباً مباشراً لتدهور الوحدة الإسلامية في المحيط الهندي (٧) ودليلاً واضحاً على ما اشتهر به سليمان باشا الخادم من الغدر والفتك وسفك الدماء والبطش (٨) فإن احتلال العثمانيين لعدن

---

(١) انباء أبناء الزمن . الصفاني . ص ١٢٢ . واللطائف السنية . الكبيسي . ص ٢٧٥

2) Serjeant , op.cit, p. 33

روح الروح . ابن المطهر . ص ٧٠ .

(٣) البرق اليماني . النهرواني ٨٠ . (٤) Serjeant , op, cit , p 33

(٥) انباء أبناء الزمن . الصفاني . ص ١٢٢ . (٦) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ١٥٣ ـ ١٥٤

(٧) المرجع السابق بنفس الصفحة (٨) البرق اليماني . النهرواني . ص ١٨

يعتبر هزيمة كبرى للبرتغاليين من زاوية الاستراتيجية الشاملة للقوى العالمية آنذاك ، فبعد أن ثبّتوا مواقعهم في جنوب شبه الجزيرة العربية أصبح لهم رأسُ جسرٍ مناسب من الناحية العسكرية، يُشكّل تهديداً جدّياً لخطوط المواصلات الأوربية البحرية وأثبتت الأحداث أن احتلال العثمانيين لليمن شكّل خطراً حقيقياً على القواعد البرتغالية في الهند وسواحل أفريقيا الشرقية [١] ، وبداية النهاية لسياستهم الاحتكارية الخاصة بتجارة التوابل والمعادن الثمينه وغيرها .

وتبعاً لهذا الأمر قرّر البرتغاليون إحياء تحالفهم القديم مع أثيوبيا ذلك التحالف الذي كانوا يُعلّقون عليه آمالاً واسعة منذ أواخر القرن الخامس عشر [٢] وكذلك قاموا بحملةٍ عسكرية مضادة وذلك انتقاماً لفتح عدن ورداً على الحملة العثمانية التي قصدت إلى الهند بعد فتح عدن وحاولت التصدي للوجود البرتغالي هناك - قام البرتغاليون بقيادة استانو دى جاما Estavo de Gama سنة ٩٤٨ هـ ١٥٤١ م بحملة لمهاجمة السويس ولكن هذه الحملة لم تحقق نتائج تذكر ، وظلّ العثمانيون سادةَ البحر الأحمر [٣] .

وهي سيادة ظلت في هذه الحدود ولم تتجاوزها إلا في عددٍ نادرٍ من المرّات - سيأتي الحديث عنها فيما بعد - وذلك نظراً لأن الأسطول العثماني كان قد أصبح ضعيفاً وقديماً نسبيّاً - إذْ لم يتمّ تجديده جزئيّاً إلّا عند بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر - وكان يكتفي باتخاذ مواقع دفاعية محصنة [٤] في أغلب الأحيان .

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٥١

(٢) المرجع السابق ص ١٥١ وسيأتى تفصيل هذا التحالف في بابه

(٣) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون ٤٣ تم تفصيل هذه الحملة فى غير هذا الموضع .

(٤) الفتح العثماني . إيفانوف ., ص ١٢٩ .

وهكذا نجد أنفسنا أمام تساؤل مُلِحّ هو إلى أيّ حدّ نجح العثمانيون في توظيف عدن في صراعهم مع البرتغاليين ؟ وقبل أن نتتبّع سيرة العثمانيين التاريخيّة في عدن واليمن عموماً ، لنجد جواباً تاريخيّاً على هذا التساؤل ، لابدّ من القول إن العثمانيين الذين فتحوا عدن لتكون أساساً لمشروعاتهم في المحيط الهندي لم يُولُوا هذه المشروعات أو ذلك الميدان بعض ما كان يستحقه من إعدادٍ وعناية ، في الوقت الذي ظلت فيه جهود الدولة موزعةً على ميادين أخرى كالجبهة الصفوية والجبهة الأوربية وغيرها مما استنزف طاقات العثمانيين دون الوصول لتحقيق نتائج حاسمة في أيٍّ منها (١)؛ وذلك على وجه العموم . ومما يُذْكَر أنّ إغلاق البرتغاليين للخليج العربي وعجز العثمانيين عن مواجهة نفوذهم البحري فيه كان بمثابة التدهور العملي لأهمية عدن فيما هو أبعد من البحر الأحمر وتَحَوّلها إلى مجرّدِ نقطه لحراسة مدخله الجنوبي وهو الأمر الذي تزامن مع اهتزاز الثقة في القدرة العثمانية على المواجهة وازدياد سوء سُمْعَتِها ، بينما ازداد البرتغاليون ثقة بأنفسهم وطمعاً في هزيمتهم هزيمة تمحو هيبتهم وتقضي على نفوذهم وآمالهم في المحيط الهندي (٢) ولابد من القول أيضا إن العثمانيين قد فشلوا ـ أحياناً ـ حتى في مجرد الاحتفاظ بعدن تحت سلطتهم وهو ما يؤكده التتبع المباشر لتاريخ العثمانيين في تلك المنطقة طوال فترة الصراع .

ففي سنة ٩٥٣ هـ ـ ١٥٤٦ م استولى علي بن سليمان البدوي الطوالقي صاحب حنفر على عدن وأبعد العثمانيين عنها (٣) ، واستعان بالبرتغاليين لمساعدته في التصدي للعثمانيين نظير السماح لهم بمراقبة الموانئ اليمنيّة والإفادة منها . وبناءً على ذلك

---

(١) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ٨٩

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ ـ ١٦٧

(٣) انظر البرق اليماني . النهرواني . ص ١٠٠

قدّمَ له البرتغاليون بعض القطع الحربية ولكنّه لم يستفد منها لأن العثمانيين كانوا أسبق إليه حيث ألحقوا به الهزيمة وقتلوه سنة ٩٥٥ هـ - ١٥٤٨ م قبل أن تصله السفن [١].

ومما يُذْكر أن هذه الثورة قد استهدفت إنهاء الوجود العثماني الذي حَرَم قبائل الطوالق من الموارد المالية التي كانت تجنيها من حماية القوافل التجارية المارة في أراضيها [٢].

واستفد فرهار باشا بقية حكمه لليمن والذي كان قد بدأ سنه ٩٥٤ هـ - ١٥٤٧ م، وكذلك خليفته أزدمر باشا في التصدي للمشكلات الداخلية في اليمن وبذا انحصرت جهودها في حماية البحر الأحمر والتصدى للتحالف الحبشي البرتغالي [٣]. ومع تولى مصطفى باشا النشار حُكْمَ اليمن كانت الدولة العثمانيّة قد أدركت ضعف موقفها فأوصت بمصالحه الزيديّة والتفرغ لمواجهة التحالف سالف الذكر [٤].

وقد أدّتْ هذه السياسة إلى تفرغ العثمانيين لميْدانَي الحبشة والخليج العربي حيث فتحوا سواكن وتوغلوا في بلاد الحبشة على الجبهة الأولى ،في حين تمكنوا من احتلال القطيف وجُدّوا في منافسة البرتغاليين على بلاد البحرين على ما سيأتي تفصيله.

ولكن الأمور لم تستمر على ما يرام بالنسبة للعثمانيين في بلاد اليمن وبندر عدن إذ عَمّت الفوضى السياسية والحروب الداخليه والرشوة والغلاء بلاد اليمن في عهد محمود باشا (٩٦٨ - ٩٧٢ هـ - ١٥٦٠ - ١٥٦٤ م) فقويت شوكة السلطان مطهر بن شرف الدين حتى استولى على اليمن كلها ماعدا زبيد [٥] وأصبحت عدن في أيدي الزيدية

---

(١) البرق اليماني . النهرواني . ص ١٠٠ - ١٠٣ . وغاية الأماني . الصنعاني . جـ ٢ ص ٦٩٦
Serjeant, op? cit, pp. 107-108,

(٢) المجابهة البرتغالية العثمانية . طارق الحمداني . د . ص ١٧٨

(٣) فتح العثمانيين . البحراوي . ص ١٥٨ - ١٥٩

(٤) البرق اليماني . النهرواني . ص ٢٦١

(٥) السابق . ص ٤١ - ٤٥ . وانباء أبناء الزمن . الصنعاني . ١٢٩ . وبلوغ المرام . العرشي . ص ٦٤

وكان ذلك من بواعث الخوف لدى العثمانيين بأن يستولى عليها البرتغاليون مرةً ثانية فيتخذوا منها قاعدةً للإضرار بالمسلمين ومنع السفن القادمة من الهند من الوصول إلى موانئ البحر الأحمر (١) . ولذا نجد حاكم مصر يحث سنان باشا على الإسراع لاسترجاع عدن من الزيدية .

وحدث ما كان في الحسبان عندما اتصل قاسم بن شويع الزيدى بالبرتغاليين طلبا لمناصرتهم ضد العثمانيين (٢) وكان ذلك سنة ٩٧٦ هـ - ١٥٦٨ م حيث عرض عليهم التحالف للقيام بعمل حربي مشترك يتصدّى فيه البرتغاليون للعثمانيين من ناحية البحر في الوقت الذى يحاربهم هو فيه من ناحيه البر . ورغم أن البرتغاليين استجابوا لهذه الدعوة التي تقع في دائرة سياستهم وقاموا بإرسال أسطول إلى عدن فإن ذلك لم يُجْدِ نفعاً حيث كان وصول الأسطول متأخراً وبعد أن كانت الحملة الكبيرة التي بعث بها العثمانيون بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلى والذي اشتهر بقوة البأس وسداد الرأى والقدرة على خوض الحروب البرية والبحرية على السواء . وعند وصول الأسطول البرتغالي كان العثمانيون قد قضوا على قاسم بن شويع واستردوا عدن وحولوها ثانيةً إلى ولاية عثمانية خالصة . ومن هنا سهل على العثمانيين تعقب الأسطول البرتغالى وطرده بعيداً عن سواحل عدن دون عناء (٣) .

ورغم أن هذا التنافس العثماني البرتغالي حول عدن والذى سبقت الإشارة إليه آنفاً كان فصل الختام فى صراع الجانبين حول هذه المدينة فإن الوجود العثماني في عدن واليمن عموماً ظل مهدّداً بثورات الزيدية (٤) وتمرد الأعراب (٥) وهو ما كبّد العثمانيين

---

(١) البرق اليماني . النهرواني . ص ٤٦ - ٥٤

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٣) لمزيد من التفصيل انظر المرجع السابق ص ٢٤٩ - ٢٥٥
وانظر كذلك . انباء أبناء الزمن . الصفاني . ص ١٢٢

(٤) انباء ابناء الزمن . الصفاني . ص ١٢٥

(٥) بلوغ المرام . العرشي . ص ٦١

كثيراً من الخسائر وأفقدهم الطمأنينة والاستقرار إلى أن تمّ الصلح بين الطرفين: العثمانيين والزيدية سنة ٩٨٠ هـ ـ ١٥٧٢ م وعاد سنان باشا إلى اسطنبول (١) . ورغم هذا الصلح فقد ظلت أطماع الزيدية في عدن قائمة ، وظلوا يشكّلون شوكة في حلق الوجود العثماني في اليمن، وكثيراً ما سببوا لهم المتاعب وألحقوا بهم الهزائم (٢) . وفي مطالع القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي كانت القوات العثمانية في اليمن قد آلت إلى العجز شبه الكامل (٣) . وانتهى الأمر بسقوط عدن في أيدي الزيدية من جديد سنة ١٠٣٩ هـ ١٦٣٠ م (٤) . وهو الوقت الذي كان فيه نجم الوجود البرتغالي في الخليج العربي يأفل بسرعة تحت وطأة أقدام قوات الدولة اليعربية .

جهود العثمانيين في مواجهة الصراع البرتغالي في الهند :

تتصل جهود العثمانيين الحربية في مواجهة البرتغاليين في بلاد الهند الإسلامية بجهودهم ذاتها في منطقتي عدن والبحر الأحمر نظرا لأن تلك الجهود كانت امتداداً طبيعياً لمواقفهم السياسية والحربيّة في البحر الأحمر . ولكن الملاحظ منذ البدء أن تلك الجهود لم تكن بحجم امبراطورية كبرى كالدولة العثمانية ، ولم تكن متوازنة مع جهودهم في اليمن والبحر الأحمر الذي ظلّ العثمانيون يدافعون عنه حتى النهاية ، بل لعل الباحث لا يخطىء القول ، إذا أكّدَ أن سوء السياسة العثمانية في بلاد اليمن قد بدد الجهد الحربي العثماني وجعله عديم الجدوى في مواجهة البرتغاليين في مياة المحيط الهندي .

---

١) انباء أبناء الزمن . الصنعاني . ص ١٣٥

٢) بلوغ المرام . العرشي . ص ٦٢

٣) فتح العثمانيين . البحراوى . د . ص ١٧٨

٤) البدر الطالع . الشوكاني . جـ ٢ ص ٢٢٩

كان محمود شاه الأول (   ) قد اضطر بعد هزيمة المماليك في ديو سنة ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م إلى مصالحة البرتغاليين [(١)] وهو الأمر الذي مكنهم من تحقيق أطماعهم السياسية والاقتصادية في سواحل الهند الغربية وأرخبيل الملايو - كما سبق بيان ذلك - ولكن مظفر الثاني سلك سياسة مغايرة فناصب البرتغاليين العداء وحاول أن ينتزع منهم ديو مرة أخرى ، كما تعاون سياسياً مع سلطنة ملوا الإسلامية [(٢)] .

ولكن وفاته سنة ٩٣٣ هـ - ١٥٢٦ م زادت الأمور سوءاً وأعطت الفرصة كاملة للبرتغاليين ليحققوا مآربهم ، إذ تنازع أولاده من بعده نحو خمس سنوات قبل أن يتمكن بهادر شاه أحد الأشقاء من الإمساك بزمام الأمور سنة ٩٣٨ هـ - ١٥٣١ م . [(٣)]

وفي عهد بهادر شاه كان البرتغاليون يواصلون مكاسبهم السياسية ويمارسون شتى ألوان الضغط على الأقاليم الإسلامية الساحلية في بلاد الهند وشواطئ الجزيرة العربية وفي سنة ٩٤١هـ -١٥٣٤م استولوا على بسونا ، وفي العام التالي عززوا وجودهم في ديو وغيرها من موانئ سواحل الهند الغربية . وقد دفعت السياسة البرتغالية هذه حكام المسلمين في بلاد الهند إلى محاولة الاتصال بالسلطنة العثمانية في إسطنبول ، فأخذت السفارات تتوافد على البلاط العثماني طلباً للمساعدة في مواجهة البرتغاليين ومن ذلك سفارة حاكم كلكتا سنة ٩٣٤ هـ - ١٥٢٧ م وسفارة حاكم ديو سنة ٩٣٩ هـ - ١٥٣٢ م [(٤)] وكذلك اتصل بهادر شاه حاكم كجرات سنة ٩٤٣ هـ - ١٥٣٦ بالعثمانيين محاولاً التعاون معهم لمواجهة الخطر البرتغالي وأرسل لذلك الهدايا والجواهر النفيسة وحذر من خطورة

---

(١) Dunbar, AHist, of Ind, V.I p, 140

(٢) Ibid, Loc, Cit

(٣) ظفر الوالد بمظفور آله . الأصفر الغخاني . جـ ١ ص ٢١٥

(٤) الفتح العثماني . للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٢٠

الموقف وأظهر تخوفه من وقوع بلاده فريسة للأطماع البرتغالية إما بطريق الحرب وإما بطريق السلم [١] . وكذلك أظهر صفر خان سخاءً بالغاً في توزيع الهدايا على الجنود العثمانيين الذين سبق حضورهم لبلاد الهند ، ووعدهم بتغطية جميع نفقات إرسال عشرة آلاف جندي عثماني فيما لو توجهوا لمحاربة الوجود البرتغالي في المحيط الهندي [٢] . وفي نفس الوقت كان صاحب دلهي قد اتصل بالعثمانيين طلبا لعونهم في مواجهة الخطر المغولي [٣] ، وهكذا كان الجهد المطلوب من العثمانيين كبيراً ولكن ما هو رد الفعل العثماني ؟

بدأ العثمانيون جهودهم الحربية في بلاد الهند بداية ضعيفة لم تكن تتعدى قيامهم بحملات ثانويه تعتمد على الحماس الشخصي [٤] أكثر من اعتمادها على السياسة السلطانية العامة . ومن ذلك ما قام به مصطفى بيرم سنة ٩٣٦ هـ ١٥٢٩ م بعد أن هدأت الأوضاع في اليمن نسبياً حيث اتجه إلى قمران في مدخل البحر الأحمر وعمل على تحصينها وتعزيز المواقع العثمانية بها وجهز سفنه بالآلات والمدافع ثم قصد السلطان بهادر شاه صاحب كجرات مع هبوب الرياح الموسمية واستقبله بهادر شاه استقبالاً عظيماً ونسق جهوده معه لمواجهة البرتغاليين فأوكل إليه حماية بعض سواحل كجرات [٥] . إنَّ مثلَ هذه الحملة لم يكن ليحسم الصراع الإسلامي البرتغالي في الهند فمن الواضح أنها اتخذ مواقع دفاعية فقط ولم تكن مؤهلة للهجوم ودحر الخطر البرتغالي الكبير . وليس لدينا من الوثائق ما يؤكد أن هذه الحملة قد خرجت بأمر سلطاني من الباب العالي وهو يؤكد أن العثمانيين لم يكونوا حتى سنة ٩٣٦ هـ ــ ١٥٢٩ م لم يكونوا قد وضعوا استراتيجية عامة واضحة للقضاء على النفوذ

---

(١) فتح العثمانيين عدن . البحراوى . د . ص ١٠٢
(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٢٠
(٣) فتح العثمانيين عدن . البحراوى . د . ص ١٠١
(٤) المرجع السابق ص ١٠٥
(٥) البرق اليماني . النهرواني . ص ١٢

البرتغالي في مياه المحيط الهندي [١] . وقد استمر الوضع كذلك نحو تسع سنوات إلى أن فتح العثمانيون عدن وقاموا بحملتهم الكبرى سنة ٩٤٥ هـ ــ ١٥٣٨ م .

كان سلطان كجرات قد استنجد سنة ٩٤٥ هـ ــ ١٥٣٨ م بالعثمانيين مرةً أخرى وذلك للتصدي للخطرين البرتغالي والمغولي في ذات الوقت [٢] .

وهنا تظهر أولُ محاولةٍ عثمانيةٍ جادّةٍ للتصدّي للخطر البرتغالي حيث استجاب السلطان العثماني لهذه المطالب وأمر أن يتوجه أسطول عثماني ضخم سبق الحديث عن كيفية تجهيزه ـ كان عليه أن يتوجه إلى عدن ويُؤمّن تبعيتها للحكم العثماني ثم يتوجه لمحاربة البرتغاليين في الهند . وفعلا قام الأسطول العثماني سالف الذكر بضم عدن والقضاء على الحكم الطاهري فيها والاستيلاء على بعض السواحل اليمنيّة الأخرى [٣] وكان هذا بهدف توفير قواعدَ عثمانيةٍ متقدمةٍ للدفاع عن البحر الأحمر [٤] ولإمدادِ القواتِ العثمانيةِ المُحارِبةِ في الهند عند اللزوم .

وفي سنة ٩٤٥ هـ أواخر سنة ١٥٣٨ م توجه الأسطول العثماني من عدن إلى الهند بقيادة سليمان باشا الخادم حيث مرَّ بالمكلا والشحر ورأس فرتاط (الفرطق) وتمكّن من أسر ست سفن برتغالية عند الشحر كان على متنها مائة وستون برتغالياً ثم ضمهم للحملة وعندما شاع قرب وصول الأسطول العثماني للهند ارتفعت الروح المعنوية لدى المسلمين هناك وخاصة في كجرات [٥] وفي سبتمبر ١٥٣٨ م ــ ٩٤٥ هـ وصلت الحملة إلى الهند [٦] حيث استقبله

---

(١) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ١٥٠

(٢) البرق اليماني . النهرواني . ص ٧٠ . وفي أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٩٨ . وتاريخ الدولة العثمانية . علي حسون . د . ص ٥٦

(٣) تاريخ الدولة العثمانية . علي حسون . د . ص ٥٦ ، ٤٠) في أصول التاريخ العثماني . ص ٩٨

(٥) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ١٥٤

(٦) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٣٢

في مظفر أباد قرب ديو أحد قادة الأسطول العثماني السابق بالترحاب وأبدى استعداده للتنسيق معه في مواجهة البرتغاليين وفعل محمود شاه خليفة بهادر شاه مثل ذلك حيث أمدّ القوات العثمانية بالمؤن والذخيرة (١) وغير ذلك من المواد اللازمة .

وأمام الموقف الإسلامي الجديد أبحر الأسطول البرتغالي باتجاه الجنوب ليصبح بعيداً عن متناول العثمانيين (٢) ولم تكن القوات البرتغالية في ذلك الحين قد احتلت ديو نفسها بل كانت تتخذ من قلعتها مركزاً حيوياً وقاعدةً استعمارية حصينة (٣) . ولمّا لم يكن الأسطول العثماني قادراً على مطاردة البرتغاليين في المياه الجنوبية اكتفى سليمان باشا الخادم بالاستيلاء على خليج كامبايا وفرض الحصار على ديو أقوى القلاع البرتغالية في المحيط الهندي (٤) حيث كانت تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب ويحيط بها من جهة البرّ سورٌ عظيمٌ وأشجار عالية أقيمت فيها تحصينات واستحكامات قوية (٥) .

استمر حصار العثمانيين لديو نحو عشرين يوماً كانوا خلالها يرمونها بالمدفعية الثقيلة حتى تهدمت القلعة الخارجية وأصبح موقف البرتغاليين حرجاً وأوشكوا على الانهيار (٦) . ولكن حدث مالم يكن في الحسبان إذ توترت العلاقات بين سليمان باشا الخادم وبين الأمير العثماني السابق ومعه السلطان محمود شاه حاكم كجرات لأنهما بدآ يرتابان في نواياه ويتخوفان

---

١) فتح العثمانيين عدن . البحراوى . د . ص ١٥٤ .
٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٣٢
٣) فتح العثمانيين عدن . ص ١٥٤
٤) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ١٣٢
٥) فتح العثمانيين عدن . ص ١٥٤
٦) المرجع السابق ص ١٥٥ .

من استيلائه على السلطة فى كجرات (١) ، خاصة أنه قد تراى إلى مسامعهما ما حدث منه فى عدن من غدر بحاكمها الطاهري بعد أن أعطاه الأمان . وفي ذات الوقت كان الأسطول البرتغالي قد أقبل في قوة كبيرة لفك الحصار عن القلعة البرتغالية المحاصرة (٢) والتي أبدى المدافعون عنها شجاعة مستميتة لخوفهم من السقوط في أيدي العثمانيين وساعدهم على ذلك ما كانت عليه ديو من التحصينات القوية التي استعصت على المدفعية العثمانية التي أوشكت ذخائرها على النفاذ (٣) .

ويذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا حيث يؤكدون أن محمود شاه حاكم كجرات قد تحالف مع البرتغاليين سراً ضد العثمانيين وقائدهم سليمان باشا الخادم (٤) . ومهما يكن من نصيب هذا القول من الصحة أو عدمها فإن ما لا شك فيه أن هذه الإشاعة قد فعلت فعلها إذ تحولت علاقات محمود شاه مع الأسطول العثماني وقائده لتقوم على الشك وسوء الطوية والبغضاء والتشاحن (٥) السافر . وانتهى الأمر بأن أوحى محمود شاه بطريقة ما – لسليمان باشا الخادم بأن البرتغاليين قد أقبلوا فى أسطول ضخم لا قِبَلَ له فى مقاتلته وهكذا اضطر القائد العثماني إلى فك الحصار والعودة للبحر الأحمر والسويس (٦) في نوفمبر سنة ١٥٣٨ م – ٩٤٥ هـ .

---

١) الفتح العثماني للاقطار العربية . إيفانوف . ص ١٢٢

٢) فتح العثمانيين عدن . البحراوى . د . ص ١٥٥

٣) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ١٢٢

٤) فتح العثمانيين عدن . . البحراوي . د . ص ١٥٥ – ١٥٦

٥) البرق اليماني . النهرواني . ص ١٨ ، ١٩

٦) المرجع السابق . ص ٨١ – ٨٥

وغاية الأماني . الصفائي . جـ ٢ ص ٦٨٤

ورغم ما قيل عن سبب فشل الحملة فيما سبق فإن من الباحثين من يُرْجِع ذلك إلى سوء قيادة سليمان باشا الخادم وأنه لولا ذلك لحقق نصراً حاسماً (١)، وأنه صرف جزءاً من وقته في جمع الغنائم والأسلاب والجواهر الثمينة (٢) من غير وجوهها المباحة وأنه لم يكن صادق العزم في حربه للبرتغاليين وأنه لو كان على غير ذلك لما منعه مانع ولا دفعه دافع عن تحقيق ما يريد من النصر (٣).

ويذكر أن سليمان باشا الخادم قد نزل في طريق عودته على الشحر وتلقّى تأكيدات الولاء من حكام حضرموت ثم غدر بحاكم المخا وحاول الإيقاع بشرف الدين حاكم تعز ولكنّه فشل في ذلك فأوكل أمره إلى نائبه في عدن وتقدم جزءٌ من أسطوله إلى جيزان وبعض المواقع الساحلية الأخرى فاحتلها قبل أن يقفل عائداً للسويس (٤).

وبما كان من نتائج هذه الحملة - رغم فشلها - أنها تركت قناعة لدى العثمانيين بعدم العودة إلى مياه السواحل الهندية مرة أخرى مالم تجد ظروف أخرى أكثر ملاءمة لذلك في حين تركت لدى البرتغاليين انطباعاً عن مدى الخطورة البحرية المحتملة التي يُشَكِّلها الوجود العثماني في عدن والبحر الأحمر (٥).

وما من شك في أن العثمانيين قد اضطروا - نتيجة لفشل حملتهم على الهند - إلى تعزيز مواقعهم على السواحل الجنوبية لليمن وخاصة في الشحر وعدن وهو الأمر الذي ضاعف دورهم

---

(١) G.W.F , Stripling, P, 93

٢) أنباء أبناء الزمن . الصفاني . ص ١٢٢

٣) روح الروح . عيسى بن المطهر . ص ٧٠

٤) البرق اليماني . النهرواني ص ٢٠

د) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٤٢

وقدرتهم في البحر الأحمر والجبهة الأثيوبية وهو الهدف الذي تطلع إليه العثمانيون منذ وقت مبكر في صراعهم مع البرتغاليين (١) .

وأخيراً لابدّ من القول إن الجهود العثمانية في مواجهة البرتغاليين في مياه السواحل الهندية قد توقفت تماماً عند هذا الحد ،حيث لم يقوموا بعد ذلك بأيّة حملة تذكر لمواجهة البرتغاليين هناك ..

مقاومة العثمانيين للنفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي :-

يرتبط الصراع العثماني البرتغالي في منطقة الخليج العربي بشكل مباشر بالصراع العثماني الصفوي وما يتصل به من أطماع مشتركة للامتداد والتوسع في منطقتي العراق والخليج العربي أدّت إلى زيادة التنافس وحدته ، والذي ميز النصف الأول من القرن السادس عشر بصراع عثماني صفوي شبه متصل (٢) أدى إلى إضعاف موقف الطرفين في مواجهة الخطر الخارجي القادم في ركاب الغزو البرتغالي .

كانت الخلافات الدينية والحدودُ المشتركةُ غيرُ المستقرة وذاتُ العناصرِ المختلفة من أكراد وتركمان وعرب وأتراك ،وهم متأرجحو الولاء بين هؤلاء وأولئك ،وكذلك كانت ظروف العراق السياسية المضطربة ،وأرضه الزراعية الخصبة ومركزه التجاري الهام وارتباطه بالمذهب الشيعي عوامل جذّب دفعت الصفويين إلى الإسراع في فتح العراق ودخول بغداد حيث تم ذلك سنة ٩١٤ هـ – ١٥٠٨ م ، ولا شك أن هذا وذاك يتعارض مع السياسة العثمانية ومن ثم كانت الحرب تقع بينهما لا محالة (٣) . وهكذا وقعت معركة جالديران سنة ٩٢٠ هـ ١٥١٤ م التي أسفرت عن هزيمة الصفويين ودخول العثمانيين لعاصمتهم تبريز (٤) أما العراق فقد خضع شماله في ديار بكر والموصل للعثمانيين بينما ظل العراق الجنوبي والأوسط

---

١) البرق اليماني . النهرواني . ص ٩١ . والإعلام بأعلام بيت الله الحرام . النهرواني . ص ١٥٠

٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ستيفن هيمسلي . ص ١٤٥

٣) الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٠٥ - ١٠٦

في يد الصفويين (١) .

ومع أن هذه المعركة لم تدفع العثمانيين مباشرة إلى الخليج العربي ولم تؤد إلى احتكاكهم المباشر بالبرتغاليين ، إلا أنهم كانوا يراقبون تلك التطورات وينظرون إليها بعين القلق فعندما علم البوكيرك بهزيمة الصفويين في جالديران كتب إلى ملك البرتغال عمانويل الأول يطلب منه السماح له بتجهيز الشاه إسماعيل بالمدفعية اللازمة ليتمكن من مقاومة العثمانيين وإضعافهم وعرقلة تقدمهم صوب المحيط الهندي عبر الخليج العربي (٢) .

وهكذا استطاع البرتغاليون استغلال الخلاف بين القوى الإسلاميه لتقوية جبهتم حيث توصلوا مع الصفويين في العام التالي ٩٢١ هـ – ١٥١٥ إلى اتفاق تعاون انتزعوا بموجبه اعتراف الدولة الصفوية بحق البرتغاليين في السيطرة على هرمز ، وفي تقاضي الرسوم الجمركية من موانئ شرق الجزيرة العربية وأباحوا لهم حرية التحرك في مياه الخليج العربي (٣) لمقاومة الخطر العثماني فيه .

وتطورت الأمور بعد ذلك نحو التصعيد إذ تطلع سكان العراق الجنوبي والأوسط وسكان شرق الجزيرة العربية تطلعوا للعثمانيين كمنقذين من الخطر البرتغالي الذي أخذت سفنه تجوب الخليج منذ احتلال هرمز سنة ٩٢١ هـ – ١٥١٥ م وبدأ الحكام المحليون واحداً بعد الآخر يطلبون من الباب العالي الدعم والمساعدة لمواجهة الخطر الأوربي ، ففي سنة ٩٣٢ هـ – ١٥٢٦ م أرسل هؤلاء الحكام مبعوثين إلى سليمان القانوني لهذا الغرض ، وتكررت بعثة من العراق الأوسط بعد ذلك بثلاث سنوات طالبةً المساعدة وبسط الحماية العثمانية على بلاد العراق . (٤)

وكان البرتغاليون في ذلك الحين (٩٣٦هـ – ١٥٢٩م) قد كثفوا جهودهم العدوانية في مياه الخليج العربي حيث وجهوا حملة عسكرية للبحرين لحرب حاكمها شرف الدين ، ابن عم حاكم هرمز ، الذي رفض دفع الجزية ، وعندما تخوّف نائب الملك في الهند نونو داكنها ألا تؤدي الحملة المذكورة هدفها ، ارسل اخاه سيماو داكنها على رأس مدد مكون من خمس سفن ، تُقلّ نحو خمسمائة مقاتل لمساندة بلشوار الذي كان معه ست سفنٍ مزودةٍ بالمدافع

---

١) تاريخ الدولة العثمانية . علي حسون . د . ص ٤٢

٢) المجابهة البرتغالية العثمانية – عبد الوهاب القيسي . د . ص ١٦٨

٣) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيڤانوف . ص ٨٧

٤) المرجع السابق ص ٨٦ – ٨٨ .

ويقوم بدورية في المياه القريبة من الجزيرة لمنع قائدها من جمع المقاتلين من المناطق الساحلية لفارس . وقامت القوة البرتغالية بدك البحرية بنيران المدفعية ومع ذلك باءت حملتهم بالفشل وعادوا إلى هرمز دون أن يهزموا حاكم البحرين ودون أن يجبروه على دفع الجزية فقد كان معززاً بنحو ثمانمائة رجل دافعوا عن حصن البحرين باستماتة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان البرتغاليون قد تفشى فيهم المرض وأوشكت مؤنهم وذخائرهم على النفاد (١) .

ولم يكتف البرتغاليون بهذا الحد بل تقدموا نحو البصرة وكان ذلك لأول مرة سنة ٩٣٦ هـ - ١٥٢٩ م عندما استعان بهم راشد بن مغامس وكان تابعاً للعثمانيين لمواجهة منافسه رئيس الجزاير ، الزعيم القبلي الذي طلب منه الجزية/تقدم البرتغاليون نحو البصرة على متن سفينتين في قوة صغيرة قوامها أربعون جندياً مكنت راشد بن مغامس من الانتصار على خصمه واستعادة حصنين كان الخصم قد استولى عليهما (٢) . ويبدو أن هدف هذه الحملة لم يكن مساعدة راشد بن مغامس بقدر ماهو القضاء على النفوذ العثماني الذي كان قد امتد إلى هناك بشكل غير مباشر ويتأكد ذلك من مطالبة البرتغاليين لراشد بن مغامس بتسليم سبع سفن تجارية كانت تابعة للعثمانيين (٣) وهي مسلحة تسليحاً جيداً بالمدافع وعلى متنها خمسون جندياً لحراستها (٤) . كما طالبوه بمنع التجار العثمانيين من ممارسة الأعمال التجارية عبر البصرة والخليج العربي (٥) . وكان رفض راشد بن مغامس لهذا الطلب وبالاً عليه وعلى المناطق المجاورة إذ قصف البرتغاليون البصرة وتوغلوا في شط العرب وأحرقوا عدداً من القرى العربية هناك (٦) .

---

(١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٢٥ - ٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) Welson, A. op. cit , p, 124

(٤) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٢٤ - ٢٥

(٥) Welson, A, op. cit, p 124

(٦) Ibid , loc. cit.

وكانت سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ سنةً فاصلةً في المواجهة العثمانية البرتغالية في الخليج العربي إذ انتصر فيها العثمانيون على الصفويين وامتدّ نفوذهم إلى معظم الأراضي العراقية وحتى سواحل الخليج العربي ، وبذلك يكونُ مركزُ البرتغاليين قد تعرّض لهزّةٍ عنيفةٍ وبخاصة عندما دخل أمراء البصرة والبحرين والقطيف في طاعة العثمانيين (١) حيث أجبرهم الخطر البرتغالي إلى الإسراع في تقوية ارتباطهم بالباب العالي الذي رأوا فيه الضمانة الوحيدة لحمايتهم من الاعتداءات البرتغالية المتكررة (٢) . وهكذا لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أصبحت البصرة ولورستان خوزستان والبحرين والقطيف وحضرموت وإمارات نجد والفرات الأسفل وغيرها تابعة للباب العالي، ويحملُ حكّامُها ألقاباً عثمانيةً (٣) ويقوم بينهم وبين العثمانيين تعاون منظم في مواجهة الخطر البرتغالي، ومن ذلك على سبيل المثال أن العثمانيين كانوا يزوّدون حاكم حضرموت بدر الثالث بن طويرك بالرجال والسلاح والمدرّبين والعون وكان بدر الثالث يرسل لهم الهدايا ، ورؤوسَ القتلى من الأعداء، ومن ذلك أنه أسر على شواطئ حضرموت سنة ٩٤٣ هـ ـ ١٥٣٦ م خمسة وثلاثين جندياً برتغالياً وبعث بهم هديةً للسلطان العثماني سليمان القانوني (٤) .

شهدت الفترة التالية في الصراع البرتغالي العثماني حول الخليج العربي هدوءاً نسبيّاً انشغل فيه العثمانيون في تثبيت أقدامهم في اليمن ، وفي تعزيز مواقعهم في أوروبا وقاموا بحملتهم الخاسرة على مواقع البرتغاليين في سواحل الهند، ولكن الموقف تبدّل تماماً مع حلول عام ٩٥٣ هـ ـ ١٥٤٦ م حين خضعت البصرة لسلطانهم المباشر (٥) وتحولت إلى رأس جسر عثماني على الخليج العربي وتزامن ذلك مع تثبيت العثمانيين لأقدامهم في

---

(١) المراحل الأولى للوجود البرتغالي . عبد العزيز الشناوي . جـ ٢ ص ٦٨٢ .

(٢) الفتح العثماني للاقطار العربية . إيفانوف . ص ٩٠

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٥) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ستيفن هيمسلي . ص ١٤٧

اليمن واستردادهم لعدن من أيدي الزيدية بعد ذلك بقليل أي سنة ٩٥٤ هـ ـ ١٥٤٧م
وتجدر الإشارة أيضا إلى أن العثمانيين ـ في ذلك الوقت ـ كانوا قد عدّلوا استراتيجيتهم
نظراً لقناعتهم بأنه لن يكون بوسعهم القيام بعمل حربي حاسم ضد البرتغاليين في الهند
قبل خلخلة مواقعهم في سواحل الخليج والجزيرة العربية ، ومن هنا كان لابد من تكثيف
نشاطهم الحربي في هذين الميدانين ويرتبط بهذا الأمر أيضا أن الدولة العثمانية عند
أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر كانت في تمام مجدها وقوتها وكان باستطاعتها
أن تلتفت بشكل كافٍ لتحويل الميدان الجنوبي في المحيط الهندي إلى بؤرة اهتماماتها
مستفيدةً من الهدوء النسبي الذي طرأ على الميدان الأوربي [(١)] . وعملاً بهذا التوجه
ركّزت الدولة العثمانية على أمرين : أولهما رفع الكفاءة القتالية لقواتها البحرية في البحر
الأحمر والخليج العربي ولذا كانت السويس تشهد استعدادات محمومة استعداداً للحروب
البحرية المقبلة حيث بنيت فيها الترسانات الحربية وأحواض بناء السفن [(٢)] ، وزوّدت بنحو
ألفين ومائتي مقاتل وضع منهم نحو ألف مقاتل في حصن البصرة الرئيسي [(٣)] . ويتمثل
الأمر الثاني في توحيد العثمانيين لقواتهم وأنشطتهم في مياه المحيط الهندي ووضعها
تحت قيادة أميرال أو باشا قبوذات البحر الأحمر [(٤)] ، وهو ما يعني تنسيق الجهود العثمانية
في كل من الخليج العربي والبحر الأحمر . وإعطاء البصرة دوراً مشابهاً للدور الذي كانت
تلعبه السويس وعدن . وبدأت الخطوة الحاسمة في هذه الاستراتيجية عندما تم تعيين القائد
البحري العثماني الشهير محي الدين بيري رئيس في منصب باشا قبوذان البحر الأحمر سنة

---

١) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . ص ٩٤
٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ٩٢
٣) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٣٥ - ٦٣ ، ٦٤
(٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

٩٥٤هـ ـ ١٥٤٧م [١] وأسند إليه في ذات الوقت منصب القائد العام للأسطول العثماني في المحيط الهندي [٢].

افتتح العثمانيون نشاطهم ـ وفق السياسة الجديدة ـ سنة ٩٥٣هـ ـ ١٥٤٦م حين قامت أربع سفن عثمانية بمهاجمة قلهات ورغم أن هذه الحملة قد اضطرت البرتغاليين المقيمين بها إلى اللجوء إلى مسقط فإنها لم تستطع أن تكسب ودّ حاكمها الذي كان تابعاً لهرمز. وتكررت المحاولة العثمانية لمهاجمة قلهات ومسقط في أوائل العام التالي حين وجهت إليهما حوالي عشر أو اثنتي عشرة سفينة [٣]. وتؤكد هاتان المحاولتان عزم الدولة العثمانية على مقاومة النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي عامة وفي منطقة الخليج العربي على وجه الخصوص.

أدرك البرتغاليون خطورة هذا التوجه على مواقعهم في الخليج العربي وهرمز ولذا قاموا سنة ٩٥٤هـ ـ ١٥٤٧م بتعزيز مواقعهم في مسقط حيث زودوا ميناءها بعشر سفن حربية وبحامية عسكرية تضم بين أربعين وخمسين جندياً [٤] ويمكن تسميتها "وحدة كوماندوز" بالمفهوم الحديث حيث كانت مهمتهم التنقل في شواطئ الخليج العربي والجزيرة حسب الحاجة العسكرية وما تقتضيه مقاومة الحملات العسكرية العثمانية كما طلبوا من أمير قلهات وشيخ صيرة وكانا تابعين لهرمز ـ أن يعدّا ما لديهما من سفن قادرة على حمل عدد من الجنود يتراوح ما بين عشرة أو اثني عشر جندياً برتغالياً وتزويدها بالقشابين العرب [٥]. وأرسل البرتغاليون ـ كذلك ـ سفينتين حربيتين إلى رأس الحد لمراقبة التحركات الحربية

---

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٢٥

٢) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . ص ٩٨

٣) انظر نص الرسالة في الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران ص ٧٢

٤) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

في المخا وأخطار القوات البرتغالية في مسقط في الوقت المناسب وللقيام بأعمال القرصنة هناك لإثارة الفزع في تلك النواحي (١)

ويبدو من هذه الاستعدادات مدى الرعب الذي أحدثه الوجود العثماني في منطقة الخليج العربي لدى البرتغاليين كما يبدوا أن البرتغاليين كانوا يتخذون من مسقط قاعدة متقدمة للدفاع عن وجودهم في هرمز ويولونها ـ لذلك ـ أهميه خاصة وأن هذه الاستعدادات ليس لمجرد خوفهم من قيام العثمانيين بهدب مسقط وطمعهم في العودة إليها لذات الغرض كما يزعم البعض (٢)

وبرغم هذه الاستعدادات والتي أثرت على موقف العثمانيين وأخرت هجومهم على مسقط لإجراء مزيد من الاستعدادات فإن الصراع السافر بين العثمانيين والبرتغاليين في منطقة الخليج قد بدأ حوالى سنة ٩٥٧ هـ ـ ١٥٥٠ م عندما أعلن أهل القطيف استقلالهم عن حاكم هرمز المتحالف مع البرتغاليين (٣) وتنازلوا عن الحصن للعثمانيين (٤) وهو ما يؤكد تبعيتهم الفعلية للعثمانيين شأنهم في ذلك شأن باقي الأقاليم المجاورة ، وكان العثمانيون قد بسطوا نفوذهم على مناطق الحسا الداخلية وعمدوا إلى محاصرة القوى البرتغالية على الشواطئ فاستسلم عدد منها (٥) .

---

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٧٤

٢) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤

٣) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبدالوهاب القيسي . د . ص ١٧٠

٣) الأتراك العثمانيون . أوزبران . ص ٤٠

٥) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ٩٢

كان أهل القطيف قبل تسليم القلعة للعثمانيين قد دمّروا الحامية البرتغالية فيها واتصلوا بالعثمانيين وعرضوا عليهم التعاون والمساعدة لدرء الخطر البرتغالي [١] فأثّر ذلك في البرتغاليين كثيراً وقرّروا الردّ على تلك الصفعة بطريقتين: أولاهما الاتصال ببعض زعماء البصرة والتقرب منهم [٢] لكسب موطئ قدم على رأس الخليج وتهديد الوجود العثماني في مرتكزه الأساسي وقاعدته الخليجية الأولى. ولا شك أن امتداد النفوذ البرتغالي إلى البصرة يعني تهديداً خطيراً للعثمانيين ويهدد أثر على مستقبلهم السياسي في الخليج كلّه وثانيهما تجهيز أسطول برتغالي قوي للقضاء على الوجود العثماني في القطيف وردّه إلى تبعيّة هرمز بقوة السلاح وتحقيقاً لهذا الهدف أمر ألفونسو دي نورنها بأن يتوجه أسطول برتغالي مكوّن من سبع سفن على متنها ألف ومائتا جندي برتغالي بقيادة أنطونيو دي نورنها إلى الخليج وطلب من حاكم هرمز توران شاه أن يُقدِّم للحملة ثلاثة آلاف مقاتل وتوجهت الحملة للقطيف التي لم يكن بها من العثمانيين سوى أربعمائة رجل [٣] وعندما وقف الأسطول البرتغالي قبالة القطيف قصفها بالمدفعيّة إلى أن اضطر أهلها والعثمانيين معاً أن يُغادروا المدينة [٤] واستسلم الحصن بعد مقاومة خفيفة استمرت ثمانية أيام [٥].

ورغم أن البرتغاليين قد انتصروا في معركة القطيف إلا أنهم أدركوا ألا قدرة لهم على الاحتفاظ بها، فهم لا يملكون قوةً بشريةً قادرةً على الاستمرار في مقاومة السكان الذين أعلنوا التمرد والعصيان، ولا يأمنون وصول القوات العثمانية لمهاجمة الحامية في أية لحظة، ولا شك أن بقاء القوات البرتغالية في القطيف يعني تجدد القتال مع العثمانيين

---

(١) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ٩٢

(٢) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤١

(٤) الفتح العثماني . نفس الصفحة .

(٥) الأتراك العثمانيون . أوزبران . ص ٤١

واستمرار الاحتكاك الصالح معهم ولم تكن قواتهم مؤهلة إلّا للمعارك البحرية السريعة الحاسمة ، وهكذا لم يجد البرتغاليون بُدّاً من تفجير القلعة وإزالة التحصينات البحرية التي كانت بالمدينة قبل الانسحاب إلى عرض البحر [١]. أما هدفهم الثاني وهو التعاون مع بعض قادة البصرة ضد العثمانيين فلم يتحقق أيضاً ، لأن الأسطول البرتغالي لم يستطع التقدم نحو البصرة خوفاً من أن يَبُوءَ بالفشل نتيجة ما تَرامى إليه من أنّ حاكمها العثماني قد عقد تحالفاً مع أمراء القبائل هناك [٢] لمواجهة الخطر البرتغالي المحتمل . ومع أنّ ذلك كان خدعةً عثمانيةً إلّا أنها نجحت في إفشال المخطط البرتغالي . وهكذا انتهى الأمر بتهيئة القطيف للعثمانيين وتراجع النفوذ البرتغالي في الخليج عِدّة خطوات إلى الوراء .

كانت المواجهة العثمانيّة للبرتغاليين تتجهُ للتصعيد ، ولذلك حاول العثمانيون سنة ٩٥٨ هـ ـ ١٥٥١ م أن يطوروا علاقاتهم مع أهل اليمن ويزيلوا ما لحقَ بالحكم العثماني هناك من سمعةٍ سيئةٍ فعيّنوا [٣] مصطفى باشا النشار والياً على اليمن و كُلّفَ بالتفاهم مع الإمامة الزيدية لتعزيز النشاط الحربي العثماني في مياه المحيط الهندي . وفي أواخر نفس العام أو بداية العام الجديد خرجت حملةٌ عثمانيةٌ مكونةٌ من ثلاثين سفينة على متنها ستة عشر ألف رجل [٤] بهدف تدمير المراكز البرتغالية على شواطئ الجزيرة العربية وخاصة مسقط ثم مهاجمة هرمز وإقامة حاجزٍ بحريٍّ في الخليج ، لمنع البرتغاليين من الدخول فيه ، وإعادة مأساة القطيف [٥] في مكان آخر .

اتجه الأسطول العثماني إلى عدن [٦] حيث تزود منها بكل ما يحتاج إليه من المياه والمؤن

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ٩٢

(٢) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٤١

(٣) الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٣٢

(٤) Miles.B, op.cit, p 168 ، وانظر تفاصيل الحملة في: فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ١٦٤ـ١٦٨ .

(٥) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ٩٢

(٦) فتح العثمانيون عدن . البحراوي . د . ص ١٦٢

ثم هاجم ودمّر عدّة محطات برتغالية وهو في طريقه إلى مسقط التي حاصرها وقصفها لمدة ثمانية عشر يوماً بالمدفعية قبل أن يتمكن من احتلالها (١) ومعاقبة العناصر المتعاونة مع البرتغاليين فيها (٢). ويبدو أنّ العثمانيين قد توجهوا إلى مسقط قبل مهاجمة هرمز لأنهم كانوا على يقين أنّ الحامية البرتغالية القوية في مسقط ستكون شوكةً في حلق من يهاجم هرمز وربّما وجّهت إليه ضربةً قاصمةً من الخلف ولا شك أن البرتغاليين كانوا قد عززوها بحامية قوية لذلك الغرض، فهي تشرف على هرمز بشكل مباشر.

توجّه بيري رئيس بعد احتلال مسقط إلى هرمز ويُذكر أنّه لم يكن مُكلّفاً من الباب العالي بمهاجمتها (٣)، وأنه ربما توجه إليها بتحريض من والي البصرة (٤) أو بمبادرة شخصيّة بعد أن لاقى نجاحاً كبيراً في مسقط وكافة الشواطئ العربية التي زارها.

ولكنّ الاحداث أكدت أنّ حملة بيري رئيس لم تكن مستعدة لعملية عسكرية كبرى كمهمة اقتحام التحصينات البرتغالية في هرمز والتي تم إعدادها لتكون المركز القيادي الإقليمي في منطقة الخليج العربي منذ أمدٍ طويل.

وعند توجه العثمانيين إلى هرمز كان البرتغاليون على علم بذلك، وأعدّوا لذلك التدابير العسكرية اللازمة للتصدي لهم رغم أنّه لم يكن من البرتغاليين في هرمز أكثر من سبعمائة برتغالي يتقدّمهم (٥) عددٌ من رجال حاكمها المحلّي المتعاون معهم وصاحب المصلحة في ابتعاد النفوذ العثماني عنه نظراً للعلاقات الوطيدة لهرمز مع الصفويين والتي

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ٩٢

(٢) فتح العثمانيون عدن . البحراوي . د. ص ١٦٤

(٣) الفتح العثماني . إيفانوف ص ٩٢ , G.W.F, stripling, p. 94

ويذهب البعض إلى أنّ ذلك قد تم بتكليف من سليمان القانوني الذي كان يعتزم إلحاق هرمز بالبصرة وجعلها تابعةً لإدارتها. انظر: المراحل الأولى للوجود البرتغالي . عبد العزيز الشناوي . د . جـ ٢ ص ٦٨٧

(٤) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . أوزبران ص ٤٤

(٥) المرجع السابق ص ٤٥ .

تمّ ترتيبها وفقاً لاتفاق سياسي سابق، ولذا قام بيري رئيس بمحاصرة هرمز ومهاجمتها بالمدفعية لمدة شهر دون أن يحرز أيّ تقدم أو تبدو على البرتغاليين علامات الضعف والانهيار حيث كانوا قد احتموا داخل الحصن [1] الذي لم تكن نيران المدفعية العثمانية مؤثرة فيه بشكل كاف ، وربّما كان ذلك لبُعْدِ السفن عن الساحل . والأمر الذي يثير الدهشة هو أن بيري رئيس لم يَقُمْ بعملية إنزال ساحلية لاقتحام الحصن اقتحاماً شاملاً وبخاصة أنه كان قد حمل من الجنود في أسطوله عدداً قُدّر بستة عشر ألف رجل ، وعلى أي حال يبدو أن بيري رئيس قد اقتنع بَعْدَ حصار الشهر باستحالة التغلب على التحصينات البرتغالية ، ومن هنا اضطر إلى فك الحصار [2] والانسحاب باتجاه البصرة مروراً بقشم التي كانت تابعة لهرمز حيث هاجمها وأخذ منها كثيراً من الأسلاب والغنائم [3] والتي قُدّرت بأكثر من مليون ريال ذهبي [4] .

كان الفونسو دي نورنها نائب الملك البرتغالي في الهند يُعِدُّ العدة لإرسال أسطول لفك الحصار عن هرمز وعندما علم بانسحاب العثمانيين إلى البصرة أوقف استعداداته واكتفى بإرسال أسطول مُكَوّن من اثنتي عشرة سفينة كبيرة وثمان وعشرين سفينة خفيفة بقيادة أنطونيو دى نورنها [5] ذو الخبرة السابقة بالخليج لتَعَقُّب أسطول بيري رئيس ومحاصرته في البصرة ولعل علم بيري رئيس بتوجه البرتغاليين وخوفه من محاصرتهم له في البصرة هو الذي دفعه إلى الإسراع للخروج من مضيق هرمز قبل أن يُغْلَقَ في وجه أسطوله . وهكذا أقلع من البصرة على رأس سفن ثلاث فَقَدَ إحداها قرب البحرين وعاد باثنتين فقط إلى السويس [6] .

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . اوزبران . ص١٤٤

٢) الفتح العثماني للاقطار العربية . إيفانوف . ص ٩٢

٣) الأتراك العثمانيون . أوزبران . ص ٤٥ - ٤٦

(٤) المرجع السابق ص ٤٦ .

(٥) دليل الخليج القسم التاريخي لوريمر . جـ ٣ ص ١١١

(٦) G.W.F , stripling, op.cit , P 95

وربما كان سبب عودته ببعض قطع الأسطول تاركاً البقية في البصرة هو ما وقع بينه وبين قباد باشا أحد رجاله بسبب تقرير كتبه عنه وعن سياساته وما حصل عليه من غنائم وأسلاب بما في ذلك الأسرى البرتغاليين (١) ولابد أن يكون هذا التقرير قد حمل إدانة كبيرة لسياسة بيري رئيس أثناء حصار هرمز ومهاجمتها إذ كان هذا التقرير سبباً في استدعائه إلى اسطنبول حيث حوكم وأعدم بسبب تفرده باتخاذ قرار الهجوم على هرمز وما نتج عنه من انحلال الأسطول وانخفاض الهيبة العسكرية للدولة العثمانية (٢).

وخلف والي القطيف مراد باشا بيري رئيس في قيادة الأسطول العثماني المتبقي في الخليج حيث قام بجهود يائسة لاستدراج الأسطول البرتغالي بعيداً عن مواقعه الاستراتيجية كما حاول أن يعود بأسطوله سنة ٩٥٩ هـ - ١٥٥٣ إلى السويس لكن مفاجأة الأسطول البرتغالي له في مضيق هرمز ، حيث نشبت معركة بحرية كبيرة قرب راس مسندم تكبد فيها مراد باشا خسائر فادحة قبل أن يضطر للعودة للبصرة بما بقي من سفن أسطوله (٣) ويبدو أن هذه الهزيمة مع سابقتها قد ولدتا لدى العثمانيين شعوراً عاماً بأنه لا قبل لهم بمواجهة البرتغاليين بحرياً نظراً لتفوق أساطيلهم وأسلحتهم وخبراتهم الحربية في الميادين البحرية عن العثمانيين، ومن هنا تحولت الاستراتيجية السياسية العثمانية ، حيث تركز اهتمامها على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ومنطقة البحرين للمحافظة على بقاء مضيق هرمز مفتوحاً (٤) في وجه الملاحة الإسلامية ، مع التخلي عن سياسة محاربة البرتغاليين في

---

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٤٦ - ٤٧

٢) الفتح العثماني . إيفانوف ص ٩٢٠

٣) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٨٩ . والأتراك العثمانيون . أوزبران ص ٤٩

٤) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . أوزبران . ص ٤٧

المحيط الهندي والبرتغاليين والصفويين في الخليج العربي وبناء على ذلك تحددت أهمية عدن من ذلك الحين فصاعداً بالدفاع عن البحر الأحمر فقط (١) . وازداد اعتماد العثمانيين على ترساناتهم البحرية في البصرة لممارسة الحماية الإقليمية فقط على أن تتولى قواتهم البرية في الحسا مهمة الإسناد والحماية البرية (٢) .

وجرياً على سنن السياسة الجديدة جدد العثمانيون قدراتهم القتالية البحرية في السويس وتمَّ تعيين سيدي علي سنة ٩٦٠ هـ - ١٥٥٤ م قائداً على الأسطول ، نظراً لخبراته السابقة حيث كان قد عمل من قبل تحت قيادة خير الدين بربروسا الشهير (٣) ، وكان عليه أن يعزز الوجود العثماني في الخليج العربي وأن يعود ببقايا الأسطول من البصرة . وتمكن سيدي علي أن يحتل البحرين ويزودها بحامية عثمانية قبل أن يخوض معركة بحرية حامية الوطيس قرب خورفكان ضد أسطول برتغالي مكون من خمس وعشرين سفينة انسحبت منهزمةً بعدَ المعركةَ إلى خليج ليما *Lima* وأعاد البرتغاليون ترتيب أسطولهم مستفيدين من المدد الذي جاءهم، وأصبح لديهم أربع وثلاثون سفينةً كاملةُ الاستعداد ، وهكذا كانت المعركة التالية قرب مسقط حيث تكبّد سيدي علي خسائر فادحةً أفقدته معظم سفن أسطوله وأراد أن يعود بباقي سفنه إلى اليمن ولكن الرياح الموسمية قادته بسفنه التسع إلى سواحل الهند حيث توجّه إلى كجرات وأقام فيها ثلاث سنوات قبل أن يعود لاسطنبول سنة ٩٦٣ هـ - ١٥٥٧ م (٤) .

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس . د . ص ١٣٤

(٢) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . أوزبران . ص ٤٧

(٣) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ٩٣

(٤) الأتراك العثمانيون . أوزبران ، ص ٤٩ - ٥١

وكانت نهايةُ مواجهتهِ للبرتغاليين مُؤلمة حيث اضطر رجالُه بعد معركته قرب مسقط إلى العودة للبصرة برّاً في حين عادت بعض قطع الأسطول إلى السويس وكان عددها خمس عشرة سفينة (١) . أما هو فقد اضطر أن يبيع ما تبقى معه من سفن ويرسل أثمانها إلى الباب العالي في اسطنبول قبل العودة (٢) . وكان العثمانيون قد أرسلوا ثلاث سفن للبحث عن بقايا أسطولهم اكتفت بأسرِ بعض السفن البرتغالية التي كانت مُبحِرةً بين ديو وهرمز (٣) .

ومهما يكن من أمر فقد أسفر صراعُ كلٍّ من بيري رئيس وسيدي علي ضد البرتغاليين عن عدّةِ نتائج سياسيّة واقتصاديّة هامة فلم يتمكن العثمانيون من هزّ قوة البرتغاليين البحرية ، مما دفعهم إلى التخلي عن استراتيجيتهم الكبرى في مواجهة الخطر البرتغالي كلية وتركّز نشاطهم الحربي في منطقة البحر الأحمر في حين تحول الخليج العربي إلى مسرحٍ لحروبٍ بحرية صغيرة تقوم على مهاجمة السفن التجارية وقوافل العدو البحرية (٤) . وهو الأمر الذي أبقى الخليج مفتوحاً رغم الحصار البرتغالي له عند هرمز (٥) ، ورغم نجاحهم في سدّ الخليج في وجهِ الملاحة العثمانية (٦) جزئيّاً . ورغم ذلك بقي نفوذ العثمانيين في العراق وشرق الجزيرة العربية قوياً ، ولم يستطع الصفويون والبرتغاليون زعزعةَ مواقعهم فيهما ، حيث كانت سلطة الباب العالي قد تعززت فيهما إلى درجة كبيرة جعلت الصفويين يتخلّون نهائيّاً عن

---

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٤٩ - ٥١

٢) المجابهة البرتغالية العثمانية . القيسي ١٧١ ولمزيد من التفصيل عن جهود سيدي علي وصراعه مع البرتغاليين انظر Vambery.A, Travels of the Turkish Admiral Ali reis, and G.W.F stripling, pp 95 - 96 .

٣) الأتراك العثمانيون . أوزبران . ص ٥١

٤) الفتح العثماني . إيفانوف . ص ٩٣

٥) الأتراك العثمانيون . أوزبران . ص ٥١

٦) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم . د . ص ٩٩

مواصلة القتال في تلك المناطق (١) ، وهو الأمر الذي أعطى العثمانيين فرصة أكبر وقدرة أشدّ على المناورة والصراع ضد البرتغاليين .

واستمرت السياسة العثمانيّة منذ ذلك الحين منحصرة في مهاجمة الخطر البرتغالي في المناطق العربية سواء في البحر الأحمر أم سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي ، مع إعطاء المراكز الهامة كعَدَنَ ومسقط والبحرين والبصرة أهميةً خاصةً ، وبعبارةٍ أخرى يمكن القول إنّ العثمانيين تَخَلَّوانهائيّاً عن سياسة طرد البرتغاليين من الشرق واكتفوا بالتعامل معهم سياسيّاً على أساس أنهم قوة قائمة ذات نفوذٍ واسع ، ومن هنا برز في المرحلة التالية ما يمكن تسميته بحوار أو صراع المصالح والذي تمّ فيه التركيز على تحقيق القدر الأكبر من المكاسب الاقتصادية عامةً والتجاريّة على وجه الخصوص (٢) . ولكن ذلك لا ينفي عدم وجود احتكاكات حربية بسيطة بين الفينة والأخرى .

كانت البصرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر محطّ أنظار النفوذ البرتغالي ولذلك كان لهم حرصٌ دائم على أن يتعاونوا مع العناصر المتمردة على سلطة العثمانيين فيها حيث كان وجود العثمانيين في البصرة مُقاوَماً من أكثر من جهةٍ محليّة ولم تكن سلطتهم فيها حتى سنة ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م تتعدّى حُدُود المدينة في الغالب (٣) وكذلك كان البرتغاليين وكذلك كان للبرتغاليين حرص دائم أن يكون لهم ممثلون من التجّار أو الجواسيس يقيمون في تلك النواحي لموافاتهم بأخبار العثمانيين ومخططاتهم أولاً بأول . (٤)

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ٩٤

(٢) هناك تفصيل لهذه النقطة في الباب الأخير من هذه الرسالة .

(٣) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ستيفن هيمسلي . ص ٤٩ - ٥٠

(٤) سيأتي تفصيل لهذه النقطة فيما بعد .

وكذلك كان البرتغاليون يهاجمون السفن العثمانية المُقْلِعَةَ من البصرة أو العائدةَ إليها بين حين وآخر وذلك لزعزعة الدور التجاري لذلك الثغر البحري ذي الأهمية الاستراتيجية الكبرى والواقع على رأس الخليج . ووفقا لهذه السياسة أرسل البرتغاليون سنة ٩٦٢ هـ ـ ١٥٥٦ م حملة على البصرة لمساعدة القبائل المتمردة ضد العثمانيين ولكنها عادت لهرمز دون أن تحقق أهدافها بسبب سوء الأحوال الجوية (١) .

ومن ذلك أيضا ما قام به البرتغاليون فيما بين سنتي ٩٧١ ـ ٩٧٩ هـ ـ ١٥٦٥ ١٥٧٣ م من مهاجمة عدد من القوافل البحرية العثمانية المتجهة إلى البصرة أو إلى البحر الأحمر (٢) .

وفي المقابل أَوْلَى العثمانيون الجزء الجنوبي من الخليج أهمية خاصة وذلك لدوره الحيوي في إحياء الطريق التجاري الخليجي وفي تخفيف حدّة الخطر البرتغالي في هرمز . وحظيت البحرين في هذا الإطار أهمية خاصة وذلك نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للطريق البحري في الخليج وما تتمتع به من مصايد لؤلؤ (٣) .

وكان حاكم البحرين رغم إعلانه الولاء للدولة العثمانية سنة ٩٤٢ هـ ـ ١٥٣٥ م كان متذبذباً من الناحية العملية في سياسته فيما بين العثمانيين والبرتغاليين ، وذلك تبعاً لمصالحه الخاصة، ولمّا كان ذلك لا يرضي أطماع العثمانيين فقد تطلعوا لإخضاع البحرين أثناء حملة بيري رئيس سنة ٩٥٩ هـ ـ ١٥٥٢ م ولكنهم لم يوفّقوا في ذلك فقام مصطفى باشا بيلربي الحسا بحملة على البحرين بعد ذلك بسبع سنوات ورغم أن هذه الحملة لم تكن بإذن الباب العالي إلاّ أنها استطاعت أن تحشد نحواً من ثلاث وسبعين سفينة معظمها من النوع الخفيف ، وعلى متنها حوالى ألف ومائتا جندي منهم عددٌ من انكشارية بغداد

---

(١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٥١

(٢) المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٢ .

ومعهم كثير من التجهيزات والمؤن والذخائر (١) . ومع أن هذه الحملة قامت بمحاصرة البحرين فعلاً فإنها فشلت ولم تحقق أهدافها وذلك لعدة أسباب منها أن البرتغاليين كانوا قد أرسلوا أسطولاً من اثنتين وعشرين سفينة متفوقة حربياً وملاحياً على السفن العثمانية وتمكنوا من إحراق سفن التجهيزات العثمانية وأسروا سفينتين أخريين بسبب نقص المؤن والتجهيزات ، وكان مصطفى باشا قد مات وهو الأمر الذي ثبط العثمانيين ودفعهم عملياً إلى وقف الحملة .

ويضاف إلى ذلك عدم ملائمة الأحوال الجوية والتي ألحقت بطرفي الصراع عدداً من الخسائر البحرية وهكذا اضطر العثمانيون إلى الاستسلام وتسليم الأسلحة ودفع اثني عشر ألف كروزادوس *Cruzados* نظير أن ينقل البرتغاليون جنودهم إلى البرّ سالمين (٢) .

ورغم الفشل الذريع الذي مُنيت به هذه الحملة ، فإن المفاوضات السياسية التي اعقبت ذلك حول فتح التجارة عبر الخليج العربي ، أكدت لدى العثمانيين ضرورة احتلال البحرين مرةً أخرى وذلك للتفاوض من مركز قوة . ومن هنا سأل الباب العالي حاكمي البصرة والحسا سنة ٩٧٩ هـ - ١٥٧٣ م عن إمكانية الاستيلاء على البحرين وعن ماهيّة المستلزمات التي يتطلبها هذا العمل وحثتها على مواصلة مقاومة الخطر البرتغالي في الخليج وبناء على ما توافر لدى البلاط العثماني من معلومات طلب من حكام بغداد والبصرة والحسا سنة ٩٨١ هـ - ١٥٧٥ م الاستعداد لحملة ثانية على البحرين ولكن هذا المطلب لم يظهر للوجود العملي (٣) . نظراً لتراجع الحكومة العثمانية عن خطتها . ومما يؤكد ذلك أن

---

(١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٥٢ - ٥٤

(٢) المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٨

العثمانيين قاموا بعد ذلك بعامين بتكليف حاكم الحسا بمهمّة جديدة هي متابعة ما يُسمّونه بالقراصنة أو النواخذة ، وأنهم قاموا بمهاجمة مسقط سنة ٩٨٧ هـ ـ ١٥٨١ م . انطلاقاً من البحر الأحمر وقاموا بنهبها قبل أن يتعقبهم الأسطول البرتغالي في العودة (١) ولم يكن لهذه الحملة أية فائدة سياسية بل حدثت نتيجة عكسية إذْ قام البرتغاليون بزيادة تحصينات المدينة وبنوا فيها قلعتين كبيرتين عُرِفَتا باسم قلعة كابيتان وقلعة سان جوا وتعرفان الآن باسم الميراني والجيلاني (٢) .

ويمكن القول إن الصراع البرتغالي العثماني في الخليج العربي قد اتخذ صبغةً جديدةً منذ سنة ٩٨٢ هـ ـ ١٥٧٧ م وذلك نظراً لتزايد العداء المتبادل بين السكان المحليين وبين الطرفين، والذين ثبت لهم بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ كلاً منهما يسعى لتحقيق أطماعه الخاصة على حساب السكان الوطنيين والذين بدأوا أعمال المقاومة بمهاجمة سفن الطرفين العثماني والبرتغالي على حدّ سواء ، ومما يذكر أن كَلاًّ من البرتغاليين والعثمانيين ومن جاء بعدهم من الأوربيين قد وصموا هذه العمليات بالقرصنة ليبيحوا لأنفسهم حق التعقب والقضاء على رجالاتها ، والذين كانوا قد تسببوا في كثير من المتاعب للبرتغاليين والعثمانيين على السواء (٣) .

وهكذا يمكن القول إن العثمانيين قد بدأوا يُسقِطون الخليج العربي من حسابهم في عملية الصراع مع البرتغاليين وخاصة بعد اشتداد نفوذ الأوربيين في المنطقة ، والذين كانوا على علاقات ودّية ـ غالباً ـ مع الصفويين (٤) .

---

(١) لمزيد من التفصيل Faria sousa, op.cit, vol, II, pp 370-372

(٢) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي .ص٢١-٢٢ . والخليج العربي . جمال قاسم . د.ص ٩١

(٣) انظر المرجع السابق ص ٥٧ ـ ٥٩ .

(٤) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ١٦٨ .

ومما يؤيد هذا الرأي أن حاكم البصرة العثماني قد استعان بالبرتغاليين سنة ١٠٢٩ هـ ١٦٢٣ م خوفاً من امتداد النفوذ الصفوي الذي كان قد امتد إلى بغداد ويذكر أنّ البرتغاليين استجابوا لهذا الطلب وقدمت خمس سفن برتغالية إلى شط العرب للمساهمة في الدفاع عن البصرة ضد الصفويين . وهكذا خرجت الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية التي جعلت منها حامية للعالم الإسلامي من الغزو الإيبيري سواء في الغرب أو الشرق [1] إلى دولةٍ مساهمة في السياسة الدولية في الخليج وفقاً لمصالحها الخاصة بغض النظر عن شرعية السيطرة أو استعماريتها ومرة أخرى استمر الصراع بين الدولتين الإسلاميتين المتنافستين حجر عثرة في سبيل مقاومة الاستعمار الأوربي والذي كانت البرتغال رائدته في المنطقة .

دور العثمانيين في مقاومة النفوذ البرتغالي في شرق أفريقيا .

لعب العثمانيون دوراً كبيراً ضد محاولات التعاون البرتغالي الأثيوبي تمّ بيانه عند الحديث عن تلك المحاولات ومن ثمّ فلا ضرورة لإعادته ثانية في هذا البحث وسيقتصر الحديث هنا عن بقيّة الدور العثماني في شرق أفريقيا .

وإذا كان النشاط العثماني الموجه ضد البرتغاليين في البحر الأحمر قد بدأ منذ وقتٍ مبكر من القرن السادس عشر ، الأمر الذي دفع العثمانيين إلى تثبيت وجودهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر وخاصة في السواحل السودانية ، وإذا كان العثمانيون قد ساعدوا أمراء المسلمين في دهلك وزيلع وسواكن ومصوع ضد الخطر البرتغالي قبل نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر وأنهم ألحقوا بالبرتغاليين عند مصوع هزيمة ساحقة سنة ٩٥٨ هـ —

---

(١) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٩٢

١٥٥٤ م - حيث كان ذلك تمهيداً لتصفية الوجود البرتغالي على طول سواحل البحر الأحمر والتي أقام العثمانيون في مراكزها الرئيسة قلاعاً عثمانيّة حصينة • وكان احتلالهم لمصوع وتعاونهم مع تجار القطلان العاقسين للبرتغاليين سنة ٩٦٣ هـ - ١٥٥٧ م ، ذا أثر كبير في عملية طرد البرتغاليين نهائيا من المنطقه ، وفي استقرار السيطرة العثمانية على طول شواطئ البحر الأحمر الأفريقية [١] وإذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بالجانب الأفريقي من البحر الأحمر فإن العمليات العسكرية التي قام بها العثمانيون في مواجهة البرتغاليين في شرق أفريقيا جاءت متأخرة نسبياً [٢] ، حيث كانت بدايتها الفعلية سنة ٩٩٠ هـ - ١٥٨٢ م

مهد العثمانيون لنشاطهم العسكري في شرق أفريقيا باحتلال مصوع وأركيكو وبالتوغل في سهل أريتريا ، حيث ثبّتوا سيادتهم بإنشاء حصن عثماني في دباروا [٣] كما حاولوا انتزاع زنجبار من أيدي حكامها المتعاونين مع البرتغاليين ومن ذلك محاولتهم التي تمت سنة ١٥٧١ م [٤] - ٩٧٧ هـ - وكذلك أكدوا أنهم قد استعادوا عافيتهم في منطقة البحر الأحمر بشن حملة بحرية على مسقط سنة ١٥٨٠ م - ٩٨٧ هـ وكان أول ظهور للعسكرية العثمانية في شرق أفريقيا جنوب البحر الأحمر سنة ١٥٨٥ م - ٩٩١هـ عندما خرجت حملة بحرية عثمانية مكّونة من سفينتين بقيادة مير علي باك من البحر الأحمر باتجاه الساحل الشرقي، ولما تعطلت إحدى السفينتين فقد أُعيدت أو أُغرقت [٥] وواصل القائد رحلته بسفينة واحدة على متنها نحواً من ثمانين رجلاً مبتدئا جولته من مقديشو الى

---

(١) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . د . ص ١٠٠

(٢) C.F. Vambery, the lite and Adventwres of sidi Ali reis, pp 3 -4

(٣) الإسلام والثقافة العربية . حسن أحمد محمود . د . ص ٤٢٦

(٤) تقسيم الامبراطورية العمانية . سلطان القاسمي . د . ص ١٦

(٥) قارن المرجع السابق ص ١٧ ووثائق تاريخية ، جيا ن ٢٧٨ - ٢٧٩ •

اعترفت بسيادة العثمانيين وتابعتها في ذلك معظم سواحل أفريقيا الشرقية ماعدا مالندي واستطاع مير علي بك أن يستولي على العديد من السفن البرتغالية لدرجة أنه عاد إلى البحر الأحمر بنحو عشرين سفينة برتغالية وعربية [١]. ومهما يكن فإن مير علي حقق وجود السيادة العثمانية في سواحل شرق أفريقيا، ولو مؤقتاً، وخاصة بعد أن أشاع بأن أسطولاً عثمانياً ضخماً سوف يأتي بعده ليؤكد السيطرة العثمانية، مما شجع السكان الوطنيين على التمرد وإعلان الثورة على البرتغاليين حيث سارع أمراء السواحل إلى إعلان التحلل من الولاء البرتغالي والدخول في الطاعة العثمانية وقد دفع ذلك العثمانيين إلى القيام بحملة أخرى سنة ١٥٨٩ م - ٩٩٦ هـ بقيادة علي بك بهدف فرض السيادة العثمانية على السواحل الشرقية لأفريقيا حتى ممباسا وذلك استجابة لطلب صاحبها الذي طلب من العثمانيين إرسال حامية عسكرية للإقامة فيها [٢] وكانت هذه الحملة وهي في طريقها إلى ممباسا قد زارت أمراء السواحل في شرق أفريقيا بهدف التعاون معهم ورفع روحهم المعنوية في مواجهة البرتغاليين. وقد لاقت الحملة في هذا المجال نجاحاً كبيراً فيما عدا مدينة مالندي [٣] الضليعة في التآمر مع البرتغاليين منذ البدء، ومع ذلك فإن الجهد العثماني لم يكن بقدر الحاجة السياسية، فلم يثبت العثمانيون أقدامهم في المناطق التي وصلوا إليها بينما كانت البرتغال منشغلة في قضاياها الداخلية مع الأسبان. وعندما قدم الأسطول البرتغالي سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٩ م بقيادة كوتينهو استطاع أن يعيد السيطرة البرتغالية على ممباسا وأن يهزم الأسطول العثماني ويأسر علي بك ويقضي على كل منجزاته في شرق أفريقيا [٤].

ومما يذكر أن هذا الطور كان آخر أطوار الصراع العثماني البرتغالي في مياه المحيط الهندي. وربما كان من النافع الوقوف على تقييم شامل للجهود العثمانية في الصراع الاسلامي البرتغالي موضوع البحث.

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات.

(٢) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا. حسن محمود. د. ص ٤٣٢ - ٤٣٤

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٤.

(٤) تقسيم الامبراطورية العمانية. سلطان القاسمي. د. ص ١٧ - ١٩ وفتح العثمانيين عدن، البحراوي. د. ص ١٧٦ - ١٧٧

لم تكن المواجهة العثمانية للبرتغاليين ـ كما تبيّن من العرض السابق ـ لم تكن فاعلة ولا حاسمة بالقدر الكافي بل يمكن القول إن العثمانيين فشلوا إلى حدّ كبير في مواجهة البرتغاليين وزحزحتهم عن مواقع نفوذهم في مياه المحيط الهندي فلم يلحقوا بهم أيّة خسائر سياسية تذكر سواء في سواحل الهند أم في جنوب الخليج أم في سواحل شرق أفريقيا وهي المناطق ذات الأهمية الأساسية القصوى في المشروع الاستعماري البرتغالي القائم على ركيزتي السيطرة المائية والاحتكار التجاري ومع ذلك لا يمكن أن ننكر الدور العثماني الكبير في مواجهة البرتغاليين على ثلاثة محاور مقابلة للمحاور التي تم فشل العثمانيين فيها وتلك هي محور شمال الخليج ومنطقة عدن والبحر الأحمر ومحاولات التعاون البرتغالي الحبشي. وقد نجح العثمانيون إلى حدّ كبير في زعزعة الوجود البرتغالي في هذه المحاور وإفشال مخططاته فيها بل هو أكثر من ذلك أن العثمانيين نجحوا إلى حدّ ما في إحياء طرق التجارة التقليدية وفي كسر الطوق الاحتكاري الذي فرضه البرتغاليون بقبضة من حديد وهو الأمر الذي ساهم في إفشال مشروعهم الاستعماري ككل، ومهّد لانهياره بعد ذلك بقليل وبخاصة عندما تدخلت دول أوربية أخرى كهولندا وانجلترا وغيرهما وتحول المحيط الهندي إلى صرح كبير لأخطر تنافس دولي شهده مطلع العصر الحديث ٠

ولعلّ سائلا يسأل عن سبب إخفاق العثمانيين في القضاء على الوجود البرتغالي في المياه الاسلامية الشرقيه ولا شك أن الإجابة على هذا التساؤل تثير عدداً من القضايا الحيوية ، ومن ذلك أن البعض يرجع ذلك الإخفاق إلى أن الاستراتيجيّة العثمانية كانت قصيرة النظر بتوجهها إلى أوربا واستنفاد الطاقات القتالية للعثمانيين في بلاد تفوقهم حضارة ومدنيّة ولها تاريخ قتالي عريق في حين كان التوجه إلى الشرق واستعادة وحدة الامبراطورية الإسلاميه في آسيا وأفريقيا (١) والقضاء على الخطرين البرتغالي والأسباني والذي كان يتهدد العالم الإسلامي من شرقه وغربه على السواء ٠

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٤٤

ورغم أن المواجهة العثمانية للخطر البرتغالي استمرت أكثر من ستين عاماً (٩٢٤ هـ ـ ١٥١٨ م ـ ٩٩٩ هـ ـ ١٥٨٩ م) فإن جهود العثمانيين كانت متقطعة وغير حاسمة بسبب افتقار العثمانيين للقوات والأساطيل والاستعدادات البحرية اللازمة لمواجهة الأساطيل البرتغالية ذات الكفاءة العالية والتجهيزات الحربية المتطورة خاصة أن العثمانيين لم يكن لهم من القواعد العسكرية البحرية ما يمكنهم من الاستمرار في الصراع [1] وأن قواتهم البحرية تركزت في منطقة البحر الأحمر بالذات ، ومنه كان عليها الانتقال إلى ميادين الصراع الأخرى كالخليج العربي [2] والسواحل الهندية . وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أن محاولات العثمانيين للدفاع عن المنطقة جدية ومستمرة فتعطى نتائج إيجابية [3] ولكنها كانت في ميدان احتل المرتبة الثانية أو الثالثة في سُلَّم الأولويات العثمانية بعد وسط وشمال أوربا ووسط آسيا وفي المقابل كان البرتغاليون يخوضون القتال في ميدان كان جُلّ آمالهم السياسية والاقتصادية مُنْصَبّاً عليه ، لذلك كان دفاعهم يختلف تماماً من ناحية الحماس والتصميم عن دفاع العثمانيين الذين كانوا يعتبرون المياه الشرقيه طرفاً بعيداً من أطراف دولتهم ، وكانوا يعتمدون في قتالهم على قواد غرباء عن المنطقة وجنود مطوعين يهدفون إلى الكسب وجمع الغنائم [4] في الغالب .

ويمكن القول إن العثمانيين لم يكونوا راغبين ، بل لم يفكروا في إيجاد مواجهة إسلامية موحدة وكبيرة بسبب خلافاتهم التي كانت مستمرة مع الدولة الصفوية وفشلهم في تجميع القوى الإسلامية المحلية المنتشرة على طول السواحل الإسلامية الشرقيه بسبب بعض التصرفات الشاذة وغير المسؤولة أو غير الواعية سياسياً والتي كانت تصدر عن بعض قادتهم فتزرع الشك

---

(١) انظر الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٨٤ - ٨٥

(٢) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٤٢

(٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٢٤

(٤) المرجع السابق ص ١٤٢ .

وعدم الثقه بين العثمانيين والقوى المحلية مع ارتباط المصلحة [١] ووحدة الهدف ، ومما يذكر أن العثمانيين لم يحاولوا الاعتماد على السكان المحليين ،ولم يمدوهم بالمال والسلاح اللازم ولو حدث هذا لكان باستطاعة السكان المحليين وحدهم طرد البرتغاليين ولكنّ ما حدث أن العثمانيين كانوا يتخوفون من خطر تسليح السكان أكثر من تخوفهم من الخطر البرتغالي [٢] نفسه .

وثمه أمور تكتيكية وقتالية تحسب على العثمانيين لا لهُم ومن ذلك اتساع ساحة المواجهة العثمانية البرتغالية والتي شملت شرق أفريقيا والبحر الأحمر وسواحل الجزيرة العربية والخليج العربي والسواحل الغربية للهند [٣] مع عدم تركيز العثمانيين لجهودهم في بؤرة واحدة والعمل على قطع خط المواصلات البرتغالي بالقرب من عدن ومقديشو أو عند هرمز وهو الأمر الكفيل بإفشال جميع الخطط البرتغالية بمجرد نجاح العثمانيين في ذلك وربما كانت معركة بحرية واحدة - عندئذ - أو قاعدة عسكرية بحرية كبيرة ،وربما كانت إحداهما كفيلة بانهاء كل شيء لصالح المسلمين .

وكذلك نجح البرتغاليون في استدراج قسم كبير من القوات العثمانيّة المحاربة في أوربا وبذلك حالوا بينهم وبين مشروعاتهم التوسعيّة في أوربا وبخاصة بعد أن نجحوا في الوصول إلى أواسط أوربا [٤] ،أما في الشرق فقد أعطى العثمانيون بتصرفاتهم -غير المسؤولة أحياناً - الفرصة للبرتغاليين لكي يضموا لهم كل تحالف مع القوى المحليّة ، وبذلك زعزعوا الأرضيه التي تقف عليها القوات العثمانيه المواجهة لهم .

---

١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٨٤ - ٨٥

٢) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٤٢

٣) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٨٥

٤) المرجع السابق ص ٧٣ .

وليس من شك أنه كان من الصعوبة بمكان أن يجهز العثمانيون أسطولين كبيرين يتمكنان من مجابهة الأوربيين في البحر المتوسط والمحيط الهندي في ذات الوقت وخاصة أنهم كانوا مشغلين حينئذ بحروبهم البرّية على الجبهتين الصفوية والرومانية ، ومن هنا كان الأسطول العثماني في الشرق يتألف في الأغلب من سفن صغيرة من طراز Galleys (١) وهي غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة القادرة على الحرب طويلة الأمد في أعالي البحار . وبذلك يمكن وصف السفن العثمانية بالضعف النسبي عند المقارنة بالقوات البحرية الخاصه بالبرتغاليين (٢)

وأخيراً لابد من القول إن وفاة سليمان القانوني سنة ٩٧٢ هـ ـ ١٥٦٦ م اعقبت بفترة من الركود العثماني الحربي ،وكان ذلك سبباً في إضاعة العثمانيين لفرصتين كبيرتين كان يمكن استغلالهما أحسن استغلال ، كانت أولاهما عند هزيمة الإنجليز بين للبرتغالين والأسبان معاً سنة ٩٧٥ هـ ـ ١٥٦٨ م والثانية عند اجتياح الأسبان للعرش البرتغالي بعد ذلك باثنتي عشرة سنة ، ولا شك أنه كان بإمكان العثمانيين ـ فيما لو أحسنوا التخطيط واستغلال المعطيات الدولية ـ أن يوجهوا ضربتهم القاصمة في أيٍّ من هذين الوقتين فأضاعوا على أنفسهم فرصتين كان استغلالهما سيغير مجرى تاريخ الصراع الإسلامي البرتغالي في الشرق .

---

(١) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . د . ص ٨١ - ٨٤

(٢) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٨٥

الفصل الثالث

تذبذب السياسة الصفوية تجاه الغزو البرتغالى للمحيط الهندى بين القبول و المقاومة

تزامن الغزو البرتغالى لسواحل المحيط الهندى مع قيام الدولة الصفوية ، وكان لهذا العامل أثره البالغ – مع عددٍ من العوامل الأخرى – فى تشكيل السياسة الصفوية تجاه منطقةِ المحيطِ الهندى . إذ كان على الصفويين أن يَسْعَوا لتثبيتِ أركان دولتهم وبسطِ حدودهم ، وكان عليهم – أيضا – أن يتصدوا لمنافسهم ومنازعهم القوي فى الشمال ، والذى لا يخالفهم فى السياسة فقط ، بل فى المذهب الدينى كذلك . وكان عليهم أن يعنوا بتكوين جيشٍ قويٍ يضمن لهم تحرير أراضيهم المُدّعاة ، والتى كانت فى أيدى دول أخرى غير الدولة العثمانية عدوهم الشمالى . ثم كان هناك مشكلة نقص الأسلحة الحديثة ونقص الخبرة القتالية ، ونقص الأسطول الذى يحتاج إعداده لوقتٍ طويلٍ لا يتوفر لدولةٍ ناشئة ، لا زالت فى مهدها . وقد اجتمعت هذه العوامل مع اشتداد المحاربة العثمانية للدولة الصفوية ، فى الوقت الذى كان فيه العثمانيون على عداءٍ تامٍّ لأوربا المسيحية ، والبرتغالَ واحدةٌ من دولها . ولا شك أن هذا العامل الأخير قد داعبَ خيالَ الشاه إسماعيل الصفوى ، وبَنَى عليه آمالاً كباراً ، كان من الصعب تحقيقها ، ومع ذلك فقد دفعت تلك الآمالُ الشاه إسماعيلَ إلى محاولة التحالف مع الدول الأوربية المتحاربة[1] مع العثمانيين فى الشمال ، كما دفعته إلى التحالف مع البرتغاليين عندما وصلوا مياه المحيط الهندى ، وألقوا أشرعة استعمارهم على سواحل الخليج والمحيط القريبة من نفوذ دولته فى الجنوب – على ما سيتضح فى الصفحات التالية – . وقد كان لذلك أثره على حركة المقاومة الإسلامية فى الخليج من جهة ، وعلى عملية بسط السيطرة البرتغالية من الجهة الثانية . ولو قُدِّر للشاه إسماعيل أن يقف غير هذا الموقف ، لتغيَّر تاريخ الاستعمار البرتغالى فى الشرق ، ولربما تغير – أيضا – تاريخ الاستعمار الأوربى كلّه فى منطقة المحيط الهندى .

بدأ الشاه إسماعيل علاقاته بالبرتغاليين فى الشرق عن طريق احتكاكه بتوران شاه

(١) لتفصيل ذلك انظر روابط خارجي إيران . عبد الرضا هوشنك مهدوي . ص ٢٤ – ٢٥

أمير هرمز - والذى قبل الخضوع للبرتغاليين على أن يدفع جزية سنوية ، ويسمح بإقامة حصن برتغالى ، ويَحْكِر ممارسةَ التجارة على البرتغاليين ، وتُعْفَىٰ تجارة الطرفين من دفع الرسم الجمركية [1] حيث طَلَب منه سنة ١٥٠٨م - ٩١٤هـ أن يدفع الجزية للدولة الصفوية ،وأمام هذا الموقف اتصل توران شاه بالبوكيرك وعرض عليه الأمر ، فردَّ بأن الجزيرة قد خضعت لرجاله بالقوة ، وليس لأحد أيُّ حقٍّ لأن يتقاضى منها جزيةً أو ضريبةً غير ملك البرتغال [2] . وأرسل للشاه كميةً من الأسلحة والذخائر [3] كجزية أو هدية ، مُعلِناً أنه لا يوجد لدى البرتغاليين غير ذلك . وأن البرتغالَ عازمةٌ على السيطرة على باقي الموانئ الهامة على الساحل . وهدَّدَ - فى نفس الوقت - توران شاه بأنّه سيعزله من منصبه إذا خالف تعليماته ، وقدم الجزية للشاه إسماعيل الصفوى [4] . وكان هذا الرد كفيلاً بإحداث أزمةٍ سياسيّةٍ بين فارس والبرتغال [5] ، فهو يُعْلِن عن النوايا العدوانية لدى البرتغاليين ، و يفاخر على الصفويين بالتفوق البرتغالى فى مجال الأسلحة النارية الحديثة ، ويؤكد سيطرة البرتغاليين على هرمز ، وذلك على حساب الدولة الصفوية صاحبة الادّعاء الشرعى على الساحل الفارسى . ويُخَيَّلُ للباحث أن الشاه إسماعيل لم يكن جاداً فى مطالبته بالجزية السنوية من حاكم هرمز مع علمه بسيطرة البرتغاليين عليها ولكنه أرادَ بذلك أن يمهِّد لحوارٍ مع البرتغاليين ، يتيح له أن يحصلَ على عددٍ من المكاسب السياسية والحربية مقابل سكوته أو سماحه للبرتغاليين باستغلال هرمز . ولذا يمكن القول إن المطالبة بضريبة هرمز لم تكن سوى ورقة سياسية حاول الشاه إسماعيل اللعب بها أمام قادة الغزو البرتغالى على الشرق وخاصة البوكيرك نائب الملك البرتغالى فى المحيط الهندى آنذاك . ولا شك أن الشاه إسماعيل كان يضع نُصْبَ عينيه الأسلحة النارية المتطورة التى لدى البرتغاليين ، وما يمكن أن تقوم به البرتغال لدى البابا ، ولدى ملوك الدول الأوربية من تأثير سياسى قد يدفعهم للمشاركة السياسية والحربية لصالح الصفويين ضد الدولة العثمانية ، وأخيرا كانت فكرة المساهمة الفارسية فى التجارة الدولية آنذاك من خلال التعاملِ والتعاونِ الحرِّ مع البرتغال ، بما يحقق المصالح المشتركة للطرفين . ومما

---

١) تشكيل شاهنشاهي . نظام الدين شيباني . ص ٢٢٩ - ٢٣٠

٢) روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوى . ص ٢٣

٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ٧١

٤) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٦٩ ، ٧٠

٥) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٦٩

يؤكد هذه الفكرة أن البوكيرك قد رجع فى أواخر ١٥٠٨م – ٩١٤هـ إلى جوا حيث خاض البرتغاليون فى ديو معركة حامية مع المماليك، تساندهم القوى الإسلامية فى الهند، فى العام التالى، والتى كان لها أثرها على توجه البوكيرك، والبرتغاليين، السياسى حيث شغل البرتغاليون فى الأعوام الخمسة التالية فى منطقة الأرخبيل الواقعة فى جنوب شبه الجزيرة الهندية [1]، وكانت هذه السنوات الخمس كافية لأن يتخذ الشاه الإجراءات الكفيلة بتحرير هرمز وغيرها من السواحل الخليجية وحمايتها إذا ما فكَّر البرتغاليون معاودة الهجوم عليها من جديد. ولكننا نجد الشاه إسماعيل – بدلاً من أن يقوم بذلك يلجأ إلى سياسة بديلة ويرسل مبعوثاً خاصاً للبوكيرك، بعد أن قام هذا الأخير بمهاجمة عدن والبحر الأحمر وعدد من الموانئ العربية، وذلك بهدف توطيد العلاقات الودية بين الدولة الصفوية والبرتغال، وبالتالى مع برتغاليي الشرق [2]. ويبدو أن البوكيرك كان على وعى بقدرة الشاه إسماعيل ومدى نفوذه فى المناطق الجنوبية ولذا نجده يقابل مبعوث الشاه اسماعيل بجفاء ولا يُلقي له بالاً [3] وهو ما يعنى أن البوكيرك ليس بحاجة للتعاون مع الشاه لأنه لا يملك ما يقدمه للبرتغاليين نظير هذا التعاون، ولا سيما أنهم يسيطرون على الموانئ الهامة ويسيرون سياستهم الاحتكارية بالقوة ولا يجدون من يمنعهم من ذلك، وخاصة بعد أن وجهوا للمماليك ضربة قاضية بتدمير أسطولهم فى ديو سنة ١٥٠٩م – ٩١٥هـ.

واتصل الشاه إسماعيل بعد هذه السفارة الفاشلة بتوران شاه [4] حاكم هرمز واستطاع أن يقيم معه علاقات ودية، وأن يشجعه على التمرد ضد سلطة البرتغاليين وأن يَنْسَلِخَ تبعية هرمز عن سيادتهم [5]. وعندئذ أعلن حاكم هرمز عصيانه ورفض دفع الضرائب للبرتغاليين، ومال للتحالف مع الشاه إسماعيل الذى كلَّفه بحماية الجزيرة من الخطر البرتغالى [6]. ولا شك أن الشاه إسماعيل – مثل البوكيرك – أدرك القيمة السياسية والاقتصادية لجزيرة هرمز وأنه استغل هذه الورقة الرابحة للضغط على البرتغاليين بهدف

---

(١) تاريخ روابط خارجي إيران. ص٢٢. (٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة. ويذهب البعض الى ان الموفد الصفوى قد ارسل فى اكتوبر سنة ١٥٠٩م – ٩١٥هـ، وليس بعد ذلك، وذلك بهدف خطب ود البرتغاليين والتعاون معهم، ان لم يكن لاغرائهم بالعودة للخليج. ولاشك ان العبارة الأخيرة تحمل كثيرا من التحامل. انظر على الغنام، احداث فاصلة.

(٤) وهناك قول ان اسمه خواجه عطار (نصر الله فلسفى، تاريخ روابط ايران حـ ١ ص ٦

(٥) تاريخ روابط خارجي إيران ص٢٢. (٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

جَرّهم للتعاون معه وإمداده بالأسلحة الحربية وبالتأييد السياسى فى أوربا ـ كما سبق القول ـ وقد استجاب البرتغاليون لهذه الضغوط، إذ أرسل البوكيرك مبعوثه روى جوميز ليُناغِي الشاه إسماعيل بأطماعٍ، حيث وَعَدَه بتأييده ومساعدته فى حروبه مع العثمانيين، وفتح أمامه آمال التوسع شرقاً وغرباً، حين عرض عليه المساعدة بالأساطيل والجنود من جهة البحر إذا ما أراد مهاجمة المغول فى الهند أو الشاطئ الغربى للخليج العربى أو حتى مكة والمدينة أو غيرهما من مدن الجزيرة العربية والحجاز. كما عرض للشاه مشروعاً لاقتسام دولة المماليك حيث تأخذ الدولة الصفوية مصر وتأخذ البرتغال فلسطين[1] ومهما يكن من أمر هذا العرض، ومن مدى جدِّيته أو عدمها، فإن مما لا شك فيه أن البرتغاليين قد أفادوا منه إلى أبعد حد، فمن جهة نجحوا فى إثارة قلق ومخاوف الدولة العثمانية من هذا المشروع، وهو الأمر الذى دفعها ـ مع عدد من العوامل الأخرى إلى الانصراف عن الحرب فى أوربا والتوجه إلى الشرق لاحتلال ممتلكات الدولة المملوكية الضعيفة وحمايتها من الخطر البرتغالى القادم من الشرق بالتعاون مع الصفويين، أو من الغرب بالتعاون مع الحبشة، وهو الخطر الأكثر تهديداً، نظراً لقربِ الحبشةِ من مصر والبحر الأحمر والأماكن المقدسة فى الحجاز.

واستطاع البرتغاليون من جهة أخرى، أن يُؤَلِّبوا الشاه إسماعيل ضد الدولة العثمانية وأن يدفعوه إلى الدخول معها فى صراع طويل، كان الشاه إسماعيل مستعداً لخوضه، لعدد من العوامل التى سبق طرحها، وإنْ كانت النتيجة فى غير صالح الدولة الصفوية. وكان البرتغاليون يعلمون أن الوقت والظروف السياسية لا تسمح للشاه إسماعيل بالامتداد والصراع شرقاً وغرباً، وبالتالى فإنّ عرضهم بمساعدته ضد مغول الهند أو ضد عرب البحرين والقطيف أو عرب الحجاز لن يكلفهم شيئاً لأن الشاه لن يخطو باتجاه ذلك. وأمام الوعود البرتغالية، وظروف التقهقر السياسى للدولة الصفوية[2] استطاع البرتغاليون أن ينفردوا بهرمز[3]، فيعيدوا احتلالها، ويجردوها من السلاح، ويُقيموا فيها حِصْناً

---

(١) انظر زنجبار . صلاح العقاد . د . جمال قاسم . د . ص ١٧ . وأحداث فاصلة . علي الغنام ورغم ما قيل من قتل أهل هرمز لسفير البوكيرك خوفاً من تضحية الشاه بالجزيرة وأهلها، فان المرجع ان الشاه قد علم بتلك العروض، وانها وجدت محلها من قبله استجابت لمطلب سابق كان البوكيرك قد رفضه .

(٢) حيث هزموا فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤ هزيمة ساحقة ادت الى اجتياح مساحات واسعة من اراضى الدولة الصفوية .

(٣) هاجم البوكيرك بحمله من ست وعرين سفينة حربية هرمز ودمرها، ورفع عليها العلم البرتغالى

وحامية برتغالية، أوائل سنة ١٥١٥م-٩٢١هـ، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا باحتلال جورون على الساحل الفارسي، وحولوها إلى التبعية البرتغالية وأقاموا فيها مركزا تجارياً [1] للاستفادة من البضائع والأسواق الإيرانية في تنشيط التجارة البرتغالية مع الشرق.

ولما لم يكن الشاه إسماعيل قادراً على المواجهة العسكرية ولا راغباً فيها، وأمام أحلام التعاون مع البرتغاليين والحصول على دعمهم لأطماعه، ومساعدتهم له في حروبه مع العثمانيين، أرسل الشاه مبعوثاً قابلَ البوكيرك في هرمز، وفتح معه ملف العلاقات البرتغالية الصفوية، وسبل تطويرها بما يحقق مصلحة الطرفين، وانتهى الأمر بتوقيع اتفاقية سياسية تعهد البرتغاليون فيها بمساعدة الشاه بحرياً عند مهاجمة البحرين والقطيف، وبمساعدته في قمع ثورة المتمردين في مكران وبلوشستان وأن يقدموا للشاه الدعم السياسي والعسكري الممكن لمساعدته في حروبه ضد العثمانيين وفاز البرتغاليون في المقابل بأن وافق الشاه على أن يكون حاكم هرمز تابعاً للبرتغال التي يحق لها أن تجمع الضرائب، وتشرف على شؤون التجارة، ووافق - أيضاً - على ألا يدخل الجيشُ الصفويُّ الجزيرة وألا يقوم بمهاجمتها [2]. وبعد هذه الاتفاقية اطمأن البوكيرك على وضع البرتغاليين في هرمز والخليج عموماً، وترك ابن أخيه قائداً على رأس القوة البرتغالية في هرمز، وأقلع عائداً إلى جوا.

أطلق الصفويون بهذه الاتفاقية يد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي خاصة والمحيط الهندي على وجه العموم، وأصبح لهم حق تقاضي الرسم الجمركية في مرافئ شرق شبه الجزيرة العربية [3]، بل كان الشاه إسماعيل على استعداد لتموين السفن البرتغالية في مقابل مساعدة البرتغاليين له في حروبه مع العثمانيين [4]. ولا شك ان افتقار الصفويين للقوة البحرية الفعالة، وإحساسهم بالعجز أمام امبراطورية البرتغاليين البحرية التي تميزت بتفوقها الكبير - آنذاك - في ميزان القوة العسكرية

(١) الدولة الصفوية. أحمد الخولي. د. ص ٩١

(٢) تشكيل شاهنشاهي. نظام الدين شيباني. ص ٢٢١. وتاريخ روابط خارجي إيرا مهدوي ص ٢٢ والشاه عباس. بديع جمعة. د. ص ٢١٨. وأحداث فاصلة. علي الغنام. والد الإيرانية. علاء الدين نورس. ص ٨ (٣) الفتح العثماني للأقطار العربية. إيفانوف. ص

(٤) في أصول التاريخ العثماني. أحمد عبد الرحيم مصطفى. ص ٨٣

البحرية [(١)] وأمام الامبراطورية العثمانية التى ألحقت بهم هزيمة ساحقة ، هو الذى دفعهم إلى سلوك ذلك المسلك الشائن ، الذى لم يضرَّ بالدولة الصفوية وحدها ، ولكنّه أضـرَّ بمصالح كل القوى الإسلامية ، وخاصة القوى الوطنية القائمة على السواحل الشرقية .

ورغم أن البرتغاليين لم يَفُوا بوعودِهِم ، بل علوا بنقيضها أو بنقيض بعضها على أقل تقدير ، عندما قاموا سنة ١٥٢١م ــ٩٢٨هـ بمهاجمة البحرين والاستيلاء عليها لأنفسهم دون مراعاه لآمال الشاه وأطماعه ومطالبه السابقة ، فقد اضطر الشاه ــ بسبب استمرار حالة الحرب مع العثمانيين ــ إلى الاعتراف باحتلال البرتغاليين للخليج كأمر واقع [(٢)] . ورغم أن البوكيرك كان قد مات فى نفس العام الذى وقع فيه الاتفاق مع الصفويين ، ورغم أن سكان الخليج قد قاموا بثورةٍ شاملةٍ فيما بين سنتى ١٥٢١ــ١٥٢٢م ــ٩٢٨ــ٩٢٩هـ ، وأن حاكم هرمز قد ساهم فى هذه الثورة ، فحاصر الحصن البرتغالى فى الجزيرة ، وأشعل فيها النيران قبل أن يفرّ إلى قشم ويلقى حتفه هناك ، بالرغم كل ذلك لم يحرك الشاه ساكناً [(٣)] ، وظل الإطار الودي مهيمناً على علاقاته مع البرتغاليين ، ويكون الشاه إسماعيل بذلك قد أسهم فى تيسير الاحتلال البرتغالى لموانىء الخليج وجزره الهامه وعلى رأسها البحرين وهرمز ، لأن فارس كانت الكيان السياسى الكبير الوحيد فى المنطقة والذى كان بإمكانه القيام بدور إيجابى وفعّال فى التصدى للغزو البرتغالي ، إلى جوار المماليك والعثمانيين . [(٤)]

وهكذا لم يجد محمد شاه ــ حاكم هرمز الجديد ــ بُدّاً من الاتفاق مع البرتغاليين من جديد حيث سَلّم فى ميناب بخضوع هرمز كُلّيّةً وكذلك باقي الموانىء التى وقعت فى حوزتهم لسلطة ملك البرتغال فى لشبونة منذ سنة ١٥٢٣م ــ٩٢٩هـ [(٥)] . واستمر تحالف الصفويين مع البرتغاليين طوال القرن السادس عشر [(٦)] ، ولمدة تقارب قرناً

١) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٥١ . (٢) أحداث فاصلة . علي الغنام

٣) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٢٣ . وأحداث فاصلة . علي الغنا والدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ٩٢

٤) أحداث فاصلة . علي الغنام .

٥) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ٩٢ . وتاريخ روابط خارجي إيران . ص ٢٣

٦) السياسة الايرانية . علاء الدين نورس . ص ٨

من الزمـان .[1]

لم تكن ظروف الدولة الصفوية في عهد الشاه طماسب تسمح لها بتغيير سياستها مع البرتغاليين ، والعمل في صف الجماعة الإسلامية لتحرير السواحل الشرقية ، إذ تميز عهد الشاه طماسب بخوض الدولة الصفوية لحربين طويلتين إحداهما كانت ضد الأوزبك والثانية كانت ضد العثمانيين واستمرت نحو عشرين عاماً . ولم يكن باستطاعة الدولة الصفوية أن تحارب الاستعمار البرتغالي وتقوم بتحرير هرمز وقشم وجمبرون وغيرها لأن ذلك يتطلب أحد أمرين ، فإمّا أن يكون للدولة الصفوية أسطول حربي مجهز بالبوارج القوية والأسلحة الحربية الحديثة ، وإمّا أن تستند إلى إحدى القوى العظمى في المنطقة وتعقد معها تحالفاً ضد البرتغاليين ونفوذهم السياسي والاقتصادي . ولمّا لم يكن في المنطقة من الدول الكبرى آنذاك سوى الدولة العثمانية المتحاربة مع الصفويين ، فإن أياً من الأمرين لم يكن متيسراً ، ولم يكن في إمكان الدولة الصفوية ، بالتالي، أن تفيدَ من صراع العثمانيين مع البرتغاليين في سواحل المحيط الهندي عامة والسواحل العربية على وجه الخصوص . وهكذا وَجَدَ البرتغاليون فرصتهم فحكموا في المنطقة وسيطروا على التجارة دون منافس - تقريباً - لمدة قرن من الزمن[2] . واستطاعوا أن يحتفظوا لأنفسهم مع الشاه طماسب بعلاقات وِدِّية في الظاهر[3] رغم أنها تميزت بالبرود من جانب الصفويين . لقد أرسل ملك البرتغال دم سباستيان (١٥٥١م - ١٥٧٤م) سِفَارَتَين للدولة الصفوية ، وزَوَّدَ كلاً منهما بالتحف والهدايا المتنوعة . كانت السفارةُ الأُولى سنة ١٥٥١م - ٩٥٨هـ وحملت معها إلى قزوين كميّةً من البنادق والأسلحة الحربية كهدية للشاه الصفوي ، ولكنه قابل البعثة ببرود وعدم اهتمام مُتَعَلِّلاً بأن البرتغاليين كانوا يُسيئون معاملة المسلمين في هرمز ، ويمنعونهم من إقامة مسجد يمارسون فيه عباداتهم . أما السفارة الثانية فكانت سنة ١٥٧٤-٩٨٢ هـ وقد قابلها الشاه طماسب بفتور أكبر[4] ، ولم يسمح للمبعوث البرتغالي بمغادرة أراضي الدولة الصفوية في حياته .[5] ويرجع ذلك إلى أمرين : أولهما أن البرتغاليين لا زالوا

(١) تاريخ روابط خارجي ايران . عبد الرضا مهدوي . ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ٣٧ (٣) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٣٢

(٤) نفس المرجعين السابقين .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

يسيؤون معاملة أهل هرمز ، وثانيهما لأن الدولة الصفوية كانت قد وجدت منافذ جديدة للمساهمة في حركة التجارة الدولية عبر الأراضي الروسية ، مع كلٍّ من روسيا وإنجلترا ومع ذلك فإنه يمكن القول إن الشاه طماسب ظل حريصاً على استمرار العلاقات الودية مع البرتغاليين لأنه كان على قناعة أن البرتغال قد تكون منفذ الدولة الصفوية على الحضارة الأوربية ، والتي رغب في الاقتباس منها .[1]

ودخلت - بعد ذلك - العلاقات البرتغالية الصفوية في طور جديد ، وذلك بسقوط البرتغال سنة ١٥٨٠م - ٩٨٧هـ ، وتبعيتها منذ ذلك الحين ولمدة ستين عاماً ، لعرش الملك الأسباني ، إذ لابد أن يكون لهذا التغيير الكبير آثاره الملموسة على السياسة البرتغالية في الشرق . ورغم أن المستعمرات البرتغالية الشرقية ظلت تابعة لمجلس رعاية المصالح البرتغالية ، إلّا أن سياسة ذلك المجلس قد تأثرت بالسياسة العليا للدولة الأسبانية إلى حدٍّ بعيد .

وهناك أمر آخر لابدّ أن يؤخذَ في الحسبان وهو وفاة الشاه طهماسب وتولي الشاه محمد خدا بنده الذي كان شديد الشغف بالأخذ من الحضارة الأوربية وعلومها الحديثة . وهكذا تفاعل الأمران لتنتجَ علاقاتٌ برتغالية صفوية ذات مذاق خاص استمر نحواً من عشرين عاماً .

كان فليب الثاني متأثّراً بمذهبه الكاثوليكي والدعوة له إلى حَدٍّ كبير ، وكانت أسبانيا في عهده تخوض حرباً مع الدولة العثمانية المعادية للصفويين ، ولذا أرسل لنائبه في الهند سنة ١٥٨١م-٩٨٨هـ يطلب منه أن يرسل سفيراً للدولة الصفوية ليطلب من الشاه محمد خدابنده أن يعطي حرية أكثر لأنصار المذهب الكاثوليكي ، ويسمح لهم بإقامة كنيسة كاثوليكية . وأمره أن يحثَّ الشاه الصفويَّ على عدم وقف الحرب مع العثمانيين . واستجاب نائب الملك الأسباني في الهند لمطالب سيده وأرسل سفيراً يحمل المطالب الأسبانية لبلاط الشاه محمد خدابنده بينما كانت الدولة الصفوية تخوض حرباً ضروساً مع العثمانيين ، وكان ذلك سبباً في أن يقابل المبعوث البرتغالي

(١) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٢٢

بحرارةٍ وأنْ يستبقيه في بلاطه فترة من الزمن . وقد دفعه شغفه بالعلم الأوربي إلى أن يكلف القسيس السفير أن يلقن ولي العهد حمزة ميرزا أصول علمي النجوم والرياضيات(١) ويكفي لمعرفة مدى النجاح الذي حققته هذه البعثة، أن نعلم أن الشاه محمد خدابنده أرسل مع السفير البرتغالي سفيراً صفوياً إلى الملك فليب الثاني، وذلك بهدف تقوية عُرَى الصداقة بين الدولتين : الصفوية والأسبانية . وإذا كانت الباخرة التي أقلّت السفيرين قد غرقت على الساحل الشرقي لأفريقيا(٢) فإن عُرَى المودة ظلّت قائمة حتى نهاية القرن السادس عشر تقريباً . ففي سنة ١٥٩٨م-١٠٠٧هـ وصلت بعثة برتغالية بتوجيه من ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس الكبير، بهدف تقوية روابط الصداقة وتطوير عمليات التبشير في أراضي الدولة الصفوية، حيث طالب السفير البرتغالي الشاه عباس أن يمنح الرعايا الكاثوليك حق بناء الكنائس لممارسة الشعائر الدينية فيها . وقد استجاب الشاه عباس لهذا المطلب، وَعَدَ بأن يلقى الرعايا المسيحيون معاملةً طيبةً في دولته .(٣) وأتبع الشاه هذه البعثة ببعثة صفوية على رأسها روبرت شيرلي وحسينعلي سنة ١٥٩٩م-١٠٠٧هـ، ولكنها تأخرت في وصولها، إذ وصلتْ بعد أكثر من سنتين لأسبانيا وكان شيرلي قد انفصل عنها، واعتنق عددٌ من المرافقين الصفويين المسيحية ولم يستطع حسنعلي أن يحقق شيئاً يُذكر من الأهداف الصفوية التي كانت وراء الرحلة .(٤)

وشهدت بداية القرن السابع عشر عدداً من المتغيرات الدولية التي كان لها تأثيرها على علاقة الدولة الصفوية بالبرتغاليين، ومن ذلك أن أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر قد شهد انفتاحاً صفوياً على العالم الأوربي، وكثرت السفارات بين الدول الأوربية والشاه عباس عندما بدأ يستعد لمحاربة العثمانيين، وكان محور هذه السفارات يدور حول ثلاثة أمور هي : التعاون السياسي والحربي ضد الدولة العثمانية، والتسامح مع المبشرين الكاثوليك بدعوى مطالبة الشاه بحسن معاملة الرعايا

١) تاريخ روابط خارجي إيران . ص٣٨ - ٣٩ . (٢) المرجع السابق ص٣٩

٣) تاريخ روابط إيران . نصر الله فلسفي . ج١ ص١٩

٤) إيران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . ص١٠٦

المسيحيين فى إيران ، و سبل التعاون التجارى وعقد الصفقات بين الدولة الصفوية و تلك الدول [١] . و تزامن ذلك مع ظهور الإنجليز و الهولنديين على مسرح الأحداث السياسية و الاقتصادية فى المحيط الهندى عامة و منطقة الخليج العربى على وجه الخصوص ، و قد أوجد ذلك الأمر متغيرات فى السياسة الصفوية ، إذ حاول الشاه تقوية علاقته بالإنجليز على حساب البرتغاليين من جهة ، وحاول استثمار الوضع الجديد للضغط على البرتغاليين لينسحبوا من البحرين ، و يفسحوا له مجال احتلالها . وكان ذلك بداية النهاية للتحالف البرتغالي الصفوي بقدر ما كان إعلاناً لبداية تحالف جديد هو التحالف الإنجليزى الصفوي [٢] الذى ستظهر آثاره بعد ذلك الوقت بقليل ، و الذى كان فى تقدم مستمر فى الوقت الذى كان الصفويون فيه يتطلعون بشغف لتحرير هرمز و ضم مجموعة الجزر الخليجية المجاورة . [٣]

وكان إعلان الشاه عباس الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٦٠٣م – ١٠١٢هـ حيث كانت تعاني من التدهور السياسي فى صراعها مع أوربا ، و من آثار الحرب الأهلية و تمرد الجلاليين فى آسيا الصغرى ، بالإضافة إلى ضعف قدرتها الاقتصادية و قد ساعدت هذه العوامل الشاه عباس فى حربه تلك فاستولى على تبريز و لرستان و بعض أجزاء من كردستان و أذربيجان و أرمينيا الشرقية و بعض مناطق جرجستان الشرقية [٤] .

و كان نقل الصفويين لعاصمتهم من قزوين إلى أصفهان القريبة من سواحل المحيط الهندي إيذاناً بعهدٍ جديدٍ تزامن مع بداية التحلل و التفسخ و الضعف الذى أصاب الامبراطورية البرتغالية و مستعمراتها فى الشرق . و رغم استغلال الشاه عباس لضعف النفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى ، إلاّ أنه لم يعلن ذلك صراحةً ، و استمرت علاقاته السياسية معهم [٥] . و قد يكون ذلك راجعاً إلى شعور شاه فارس بعدم قدرته على مواجهة للبرتغاليين صراحةً ، فالبرغم الضعف الذى اعترى نفوذهم فى المنطقة ، مازالوا أقوى من أن يتحدّاهم بمفرده ، و هو الأمر الذى دفعه إلى التعاون مع الدول الأوربية الأخرى التى وصلت إلى المنطقة [٦] ، والتى لم تكن علاقاتُهُ بها قد نضجتْ بالقدر الذى

١) الشاه عباس . بديع جمعة . د . ص ٢١٩ . (٣) السياسة الإيرانية . علاء نورس ص ٨
٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٠٧ . (٤) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . ص ١٨٨
٥) القواسم . عبد القوى فهمي محمد . ص ١١
٦) [illegible]

يسمح بالتعاون الحربي ضد منافس أوربي و مسيحي في ذات الوقت .

و هكذا تجمعت الظروف نحو التصعيد الحربي ، و افتتح الشاه عباس القرن السابع عشر بالاحتجاج لدى أسبانيا و لدى القائد البرتغالي في هرمز مبيّناً سوء معاملة الحامية البرتغالية لأهالي هرمز ، و سوء معاملة البرتغاليين للتجار الفرس . الأمر الذي دفعهم إلى الرحيل إلى شيراز أو البصرة . و طالب في خطابه حاكم هرمز البرتغالي بتحسين معاملة الرعايا الصفويين ، و حذره من مغبّة الاستمرار في ممارسة السياسة القديمة المسيئة للسكان الوطنيين .(١)

و وجدَ الصفويون الفرصة المواتية لبداية الصراع ضد الاستعمار البرتغالي في الخليج ، و هو الدور الذي كان على الدولة الصفوية أن تلعبه منذ قرن من الزمان ، عندما أراد حاكم البحرين سنة ١٦٠١م-١٠٠٩م أن يستقلّ عن السُلطة البرتغالية في هرمز و اتصل لهذا الغرض بحاكم فارس الصفوي ، و طلب مساعدته ، و لكن حاكم فارس الذي استجاب لطلب البحرين ، أرسل قوةً صفويةً في العام التالي بقيادة معين الدين فالي الذي استولى على البحرين و طرد البرتغاليين منها ، و ضمّها للسيطرة الصفوية كليّةً ، بدل أن يمنح حاكمها الاستقلال الذي كان يسعى إليه . وردّ البرتغاليون بإرسال عدد من السفن الحربية لحصار جزائر البحرين ، من جهتي : البرّ و البحر بمعاونة حاكم هرمز (٢) . و قام حاكم فارس ردّاً على الحصار البرتغالي بمحاصرة الحامية البرتغالية في جمبرون على الساحل الفارسي بهدف إجبار البرتغاليين على تمزيق قواتهم فيما بين البحرين و جمبرون و بالتالي إجبارهم على فك الحصار عن البحرين . و قد نجح حاكم فارس الصفوي في خطته ، إذ انسحب البرتغاليون عن البحرين و انصرفوا لِنُصْرَةِ الحامية البرتغالية في جمبرون . (٣)

و أرسل ملك أسبانيا سنة ١٦٠٢م-١٠١١هـ سفارة جديدة ، كان فيها عددٌ من القساوسة ، و ذلك بهدف العمل على استعادة البحرين ، وفك الحصار عن بندر جمبرون

(١) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٥٢
(٢) زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي جـ ٤ ص ٣٢٢ . وروابط خارجي إيران . مهدوي . ص ٨٢
(٣) قسمتي أز ماجراي خليج فارس . عباس إقبال . ص ٢٨

بالطرق الدبلوماسية . كما كان من أهداف السفارة مواصلة تمهيد السبل أمام البعثات التبشيرية بإتاحة فرص إقامة الكنائس أمامها[1] . ورفض الشاه عباس إعادة البحرين للسيادة البرتغالية[2] ، ولكنه كان حريصاً - في ذات الوقت - على عدم قطع العلاقات مع البرتغاليين بتوسيع شقة الخلاف وتصعيد الحرب . فعلّلَ استيلاء الصفويين على البحرين بأنه شأن داخلي لأنها كانت تتبع حاكم هرمز التابع للدولة الصفوية ، ولم تكن مِلْكاً للسُّلطة البرتغالية على وجه اليقين[3] . ورغم أن رَدَّ الشاه عباس يوحي بتطلعه لاسترداد هرمز " التابعة له " فإنه أراد تخفيف حِدَّةِ التوتر عندما وعد بفك الحصار عن جمبرون[4] ، ورغم أنه فكّ الحصار فعلاً ، فإن القوات الصفوية عاودت حصارها لجمبرون في العام التالي ولمدة ست سنوات أخرى[5] . أما قضية السماح بإقامة الكنائس، فقد علّقَهَا بشرط قيام أسبانيا عملياً بمساعدته ضد الدولة العثمانية[6] . ويبدو أن الوضع قد استقر على ذلك حتى سنة ١٦٠٨ - ١٠١٧هـ ، وفاز الصفويون بالسيطرة على البحرين ، وبما أخذوه من غنائم أثناء الحرب .[7] ومما يذكر أن هذه المواجهة هي المواجهة المباشرة الأولى بين الصفويين في الخليج ، وقد بدأ النفوذ البرتغالي بعد هذه المواجهة في الضعف التدريجي[8] ، لأنها جاءت متزامنةً مع اضمحلال نفوذهم في الهند أمام القوتين الأوربيتين الصاعدتين - آنذاك في تلك المناطق ، وهما القوة الهولندية والقوة الإنجليزية .

وأرسل الشاه عباس بعثةً دبلوماسية إلى أسبانيا سنة ١٦٠٧م - ١٠١٧هـ وذلك بهدف الاستعانة بها ضد الدولة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت في صراع مرير مع الدولة الصفوية ، وعَرَضَ في مقابل ذلك أن يُقَوِّي الروابط التجارية بين البلدين . ولكن

---

(١) قسمتي أز ماجراي خليج فارس . عباس إقبال . ص ٢٩

(٢) إيران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . ص ١٠٩

(٣) القواسم . عبد القوى فهمي . ص ١١

(٤) إيران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . ص ١٠٩

(٥) انظر قسمتي أز ماجراى خليج فارس . عباس إقبال . ص ٢٢

(٦) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٧) زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ٤ ص ١٦٧

(٨) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود الداود . د . ص ٢٤٢

السفارة الصفوية لم تحقق نتائج ملموسة، إذ اكتفى ملك أسبانيا بأن وَعَدَ بمناقشة الأمر مع الدول الأوربية والعمل على دفعها إلى محاربة العثمانيين [1]. وفي العام التالي أرسل فليب الثالث ملك أسبانيا مبعوثاً للبلاط الصفوي، ليبارك بالانتصارات الصفوية على العثمانيين، وليخبر الشاه بأن أسبانيا وفت بوعدها ووجهت ضربةً بحريةً للقوات العثمانية وألحقت بها خسائر فادحة، في البحر المتوسط، وذَكَرَ السفير الأسباني، بناءً على رسالة فليب الثالث، مطالبَ مَلِكِهِ بالمحافظة على الصداقة بين الدولتين: الأسبانية والصفوية، ورغبته في عدم تطوير الصراع وعدم السماح لقواد الطرفين في منطقة الخليج بالعمل على خلاف ذلك، وكان يَقْصِدُ ما قام به إمام قلي خان من تحريرٍ للبحرين ومحاصرةٍ لميناء جمبرون. وأخيراً كرَّرَ فليب الثالث في رسالته مطالبة أسبانيا بالتسامح مع المبشرين وضرورة التعامل معهم بالمحبة والودّ، كما طلب بقصر تجارة إيران على التجار الأسبان والبرتغاليين، ووعد في مقابل ذلك أن يساعد الصفويين في حروبهم مع العثمانيين. [2]

ويبدو أن السفير الأسباني قد وصل للبلاط الصفوي، في الوقت الذي كان فيه الشاه عباس يراجع حساباته السياسية ويستعد لمرحلة جديدة، ولذا أراد الشاه أن يتأكد من مدى جديّة أسبانيا في مساعدته، ومدى قدرتها على التأثير في شقيقاتها الأوربيات [3]، حيث احتج بأسلوب شديد اللهجة على تعاون النمسا وعقدها لاتفاق صلح مع الدولة العثمانية، وأعرب عن استيائه لعدم وفاء الدول الأوربية بوعدها له، وعدم استغلالها لانتصاراته على الدولة العثمانية وتحريره لخمس وعشرين ومائة قلعة كانت تحت سيطرتها، وتساءَلَ: كيف تريد أسبانيا من الصفويين أن يتسامحوا مع المسيحيين في ظل هذه الظروف، وكتب هذه المعاني في رسالتين منفصلتين أعطى إحداهما للسفير الأسباني، وأعطى الثانية لمبعوث صفوي. وحاول السفير الأسباني تأجيل البعثة لحين عودة بعثة روبرت شيرلي، ولكن الشاه عباس رفض ذلك، معللا بأنه أحرز انتصارات باهرة على الدولة العثمانية وأنه يخشى-إذا ظل في الميدان العسكري وحيداً- أن يُمْنَى بالخسارة وتضيع انتصاراته السابقة. [4] وهكذا انطلقت البعثة حاملة رسالتي الملك اللتين يطلب

---

(١) زندكاني شاه عباس أول. نصر الله فلسفي. ج٤ ص١٨٠ وما بعدها

(٢) تاريخ روابط خارجي إيران. عبد الرضا مهدوي. ص٨٢-٨٣. وإيران در زمان صفوي. أحمد بخش ص١٠٩. وقسمتي ازماجراي: عباس إقبال ص٢٤.

(٣) نفس المراجع السابقة. (٤) تاريخ روابط خارجي إيران. ص٨٣، ٨٤.

فيها من فليب الثالث أن يغني بوعودة ، و يبين له تسامحه مع المسيحين بطلبه من فليب الثالث أن يرسل قسيساً كبيراً ليتولى إدارة شؤون المسيحين في إيران ، و أرسل مع البعثة خمسين عدلاً من الحرير الفارسي كهدية للملك الأسباني و وسيلة لفتح باب تجارة الحرير مع أسبانيا . (١)

و حاول الشاه عباس بعد مغادرة البعثة سنة ١٦٠٨م-١٠١٨هـ أن يحرر هرمز و يطرد البرتغاليين منها (٢) ، و منذ ذلك الحين أصبح تحرير السواحل الفارسية من الاستعمار البرتغالي طموحاً سياسيًا تعززه الممارسة العملية على الصعيد الحربي و قد أدرك البرتغاليون حقيقة الموقف الصفوي ، و لذا رَدُّوا على مهاجمة الصفويين لهرمز بعنف ، ثم قاموا ببسط السيادة البرتغالية بشكل كامل على بندر جمبرون سنة ١٦١٢م - ١٠٢١هـ و ذلك بهدف حماية هرمز من الصفويين إذا ما فكروا في محاولة السيطرة عليها مرة أخرى . (٣)

و تطور الموقف الدولي بعد ذلك سياسياً واقتصادياً ، وكان ذلك طالع سوء على الاستعمار البرتغالي في الشرق ، فمن جهة تم صلح اسطنبول سنة ١٦١٢م - ١٠٢١هـ بين الصفويين و العثمانيين على أن تحتفظ الدولة الصفوية بالأراضي التي احتلتها و تقدم - في المقابل - تسعة و خمسين ألف كيلو جرام من الحرير (٤) . و من جهة ثانية ازداد إحساس الشاه عباس بالأهمية الاستراتيجية لهرمز من الناحيتين : السياسية و الاقتصادية ، وإذا كانت أهمية هرمز السياسية بالنسبة للصفويين تتمثل في أنها أراضي فارسية و أنها تقع على مدخل الخليج و تُمَثِّلُ خطَّ دفاعٍ متقدم عن السواحل الفارسية و تُعتَبَرُ السيطرة عليها عاملاً مُهِمّاً للمحافظة على التوازن الدولي في المحيط الهندي ، فإن الشاه عباس قد رأى أن هرمز مهمّةٌ اقتصادياً لتصدير خام الحرير و منسوجاته ، و هما عصب الاقتصاد الصفوي و أساس مشاركته في حركة التجارة الدولية آنذاك ، و أنها قد

١) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٨٤

٢) المشيخات المتصالحة . هولي . ص ٧٩ . والعلاقات البرتغالية . محمود الداود . ص ٢٤٢

٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٧٩

٤) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٨٨

تخفض نفقات التصدير التى كانت تتم عن طريق القوافل عبر تركيا ثم عن طريق الفولجا و بحر الخزر إلى مختلف أنحاء أوربا [١] . و تزامن ذلك ـ من جهة ثالثة ـ مع عودة السفارة الصفوية سنة ١٦١٣م-١٠٢٢ هـ ، و التى كانت قد غادرت لمقابلة فليب الثالث ملك أسبانيا و بابا روما قبل ذلك بخمس سنوات ، و التى لم تحقق أية نتائج ملموسة بالنسبة للمطالب الصفوية و بذلك تكون قد كرست فكرة فشل السفارات الدبلوماسية بين الطرفين ، حيث كان ملك أسبانيا يُصِرّ على استعادة البحرين و احتكار تجارة الحرير الفارسى لرعاياه دونَ سواهم بالإضافة إلى الإصرار على تسهيل مهمة البعثات التبشيرية الكاثوليكية فى الأراضى الصفوية فى الوقت الذى كان فيه الشاه يرى ذلك مُعارضًا لحقوق السيادة الصفوية [٢] . و مما زاد الأمر سوءًا أن الباحثات الصفوية مع أسبانيا بخصوص تصدير الحرير الخام ومنسوجاته عن طريق هرمز لم تُسْفِرْ عن نتيجة مقبولة لدى الصفويين [٣] . وقد انعكس ذلك الانطباع على أفرادِ البعثة عند عودتهم سنة ١٦١٣م ـ ١٠٢٢ هـ ، إذ استقبل رسائل ملك أسبانيا و البابا بمرارة [٤] و عبَّرَ عن أسفة لنتائج الحوار الصفوى الأوربى (الأسبانى ـ البابوى) ، ثم أمرَ بتعذيب المبعوث الصفوى و إعدامه لمخالفته أصول السفارة وحسن الوفادة ، مع ملك أسبانيا ، و فتحه لرسالةِ الشاه لنائبِ الملك في جوا ، و بيعه لرسالة الشاه للبابا ، و تصرفه فى أحمال الحرير على غير ما كُلِّفَ به ، و أخيرًا لإساءته لرفاقه الإيرانيين أثناء الرحلة . أما السفير الأسبانى فقد قوبلَ بخشونة لأن ملك أسبانيا لم يَفِ بوعودِهِ للشاه ، و لأن الحامية البرتغالية فى هرمز لازالتْ تُسيء معاملة السكان الوطنيين الفرس [٥] . و مهما يكن من أمر فإن المؤكد أن الشاه عباس قد اتجه لتصعيد الموقف باتجاه الحل العسكرى ، و أنه كان يريد أن يجدَ مُبَرِّرًا ليبدأ فى إنهاء السيطرة البرتغالية على الخليج العربى و السواحل الفارسية [٦] ، و لعل المبعوث الأسبانى قد أدركَ ذلك فتخَوَّفَ على نفسه و هرب إلى هرمز و منها إلى الهند حيث أقلع عائدًا إلى أسبانيا من هناك [٧] .

و تزامن ذلك مع تطور العلاقات الصفوية البريطانية ، حيث نجح المبعوث الإنجليزى

---

(١) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٨٩ . (٢) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب ص ٦٠ .
(٣) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٨٩ .
(٤) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٨٤
(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة . (٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٧) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أستيل في تحقيق مكاسبَ تجاريةٍ مُهِمّةٍ لشركةِ الهند الشرقية الإنجليزية فقد حصل سنة ١٦١٤م-١٠٢٣هـ على عددٍ من الامتيازات التجارية الخاصة بشركته ، و قام بمعاينة الأماكن التي ستقام عليها وكالات الشركة و مؤسساتها التجارية [1] . و قويت بذلك منافسة شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي كان من أهدافها القضاء على المنافسة البرتغالية في المحيط الهندي . و مما زاد من قوة هذه الشركة أن الشاه قد بدأ يفكر في التعاون معها لضرب المصالح البرتغالية في الخليج العربي خاصة ، و المحيط الهندي على وجه العموم ، وأنه قد قرر أنْ يبدأ أولى الخطوات بقصر بيع حرير الجنوب الإيراني على شركة الهند الشرقية ، و بمنحها تسهيلات مهمة تساعد على دعم العلاقات معها و تطويرها [2] ، ليتم توظيفها في الوقت المناسب لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الصفوية. أما كهدف آني فقد اعتبر الشاهُ ذلك كَرَدٍّ على الاحتكار البرتغالي للتجارة في هرمز ، و علامةٍ على إظهار الاستياء الصفوي من السياسة البرتغالية و عدائه لها ، و رغبته في الحد من مكاسبها الاقتصادية. [3]

اتجهت العلاقات البرتغالية الصفوية -إذن - نحو التوتر ، و أصبح احتمال الحرب بين الطرفين واردًا في أيّةِ لحظةٍ ، و قد أصبح هذا الاحتمال حقيقةً واقعةً منذ استجاب الشاه عباس لمطالب أهالي بندر جمبرون و غيرها من الموانئ الفارسية ، و الذين كانوا يشتكون له من سوء تصرف البرتغاليين ، و يُبَيِّنُون له رغبتهم في مبادرة القوات الصفوية لتحرير مناطقهم كما فعلت مع البحرين . [4] استجاب الشاه لتلك المطالب و أصدرَ أوامر إلى حاكم فارس الله وردي خان سنة ١٦١٣م-١٠٢٢هـ بالتحرك لتحرير بندر جمبرون و طرد البرتغاليين منها ، فقام الابن بمحاصرة المدينة ، و عزلها عن هرمز و منع بذلك البرتغاليين من الإفادة منها في التزود بالمياه و المؤن ، و لكنه لم يستطع مواصلة الحصار نظراً لحصانة المواقع البرتغالية من جهة ، و لموت والده في فارس من جهة أخرى ، الأمر

١) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٦٠

٢) الدولة الصفوية . الخولي . د . ص ١٨٩ .

٣) الشاه عباس . بديع جمعة . د . ص ٢٢٤

٤) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٨٥

الذى اضطره للعودة إلى فارس حيث جاءه مرسوم شاهنشاهي من الشاه عباس بتولى حكم فارس بدل والده المتوفي ، وعند ئذ عاود إمام قلى خان محاصرة جمبرون لعدة شهور قبل أن يتمكن من تحريرها سنة ١٦١٥م-١٠٢٤هـ ،حيث هدم التحصينات البرتغالية وأقام تحصينات صفوية جديدة ، وأسمى المدينة بندر عباس ، وادخل على ميناءها بعض التحصينات[1] ، ومنذ ذلك الحين فَقَدَ البرتغاليون مركزاً مهماً على الساحل الفارسي وأصبح للإنجليز والهولنديين فى بندر عباس مؤسسات تجارية[2] شديدة المنافسة للنشاط البرتغالي ،الذى انتقل إلى الجانب الغربي من الخليج العربي ، وحرص البرتغاليون على تعزيز دور مسقط بالسيطرة على صحار - بالتعاون مع بعض القبائل - والقضاء على منافستها التجارية لمدينة مسقط.[3]

واشتعلت الحرب الصفوية العثمانية من جديد ،بعد تحرير جمبرون ،سنة ١٦١٦م - ١٠٢٥هـ ، ورغم أن الطرفين عاودا الاتفاق سنة ١٦١٨م-١٠٢٧هـ على أن تبقى الأراضى التى سيطر عليها الصفويون تحت حوزتهم ، تمشياً مع الاتفاقية السابقة ، فى حين تم الاتفاق على إنقاص كمية الحرير المُصَدَّر للعثمانيين إلى تسعة وعشرين ألف كيلو جرام فقط[4] ، فإن مجرد معاودة الحرب كان كفيلاً بعرقلة الصفويين عن الاستمرار فى مخططاتهم الرامية إلى طرد البرتغاليين من السواحل الفارسية . وأضاع ذلك عليهم فرصة مهمة ،إذ كان البرتغاليون يعانون من الاضمحلال السياسى والاقتصادى فى سواحل الهند الغربية أمام الإنجليز الذين ألحقوا بهم عِدَّةَ هزائم فيما بين سنتي ١٦١٢م - ١٦١٥م-١٠٢١هـ-١٠٢٤هـ ، وحصروا وجودهم السياسي والاقتصادي فى منطقة جوا[5] دون سواها تقريباً .

وكانت معاودة الاتفاق بين العثمانيين والصفويين - التى سبقت الإشارة إليها إيذاناً بعودة الاهتمام الصفوى بالسواحل الجنوبية ، إذ بادر الشاه عباس إلى الاتصال

(١) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٨٥ . وقستي أزماجرا ي خليج فارس ص ٣٢ والعلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود على الداود . د . ص ٢٤٢
(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٣) العلاقات البرتغالية . محمود الداود . د . ص ٢٤٢
٤) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٨٠
٥) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٦٣

الحوار السياسي بين الشاه عباس من جهة و بين الإنجليز و البرتغاليين ، كلٌ حسب مصالحه و سياساته من جهة أخرى ، و يُهمّنا من ذلك أن نعلم أن أسبانيا قد أصرّت على مواقفها السابقة ، و أنها عارضت بشدة تَطَوُّرَ النفوذَ الإنجليزي في منطقة الخليج العربي ، و لدى الشاه عباس على وجه الخصوص و أنها عرضت على الشاه فكرة التحالف العسكري ضد العثمانيين في منطقة البحر الأحمر [1] . و لكن الشك و عدم الثقة تغلب على تلك المساعي ، و بالتالي باءت المحاولات الأسبانية ـ البرتغالية بالفشل ، في الوقت الذي تصاعدت فيه موجة التعاون الصفوي الإنجليزي إلى الحد الذي لم تبلغه من قبل . و هكذا وقفت منطقة الخليج العربي و السواحل الفارسية أمام تطورات سياسية و عسكرية مُهِمّة .

و شهد عام ١٦٢٠م ـ ١٠٢٩هـ مجموعة من التطورات المهمة ، إذْ ازدادت حِدَّة التوتر بين الإنجليز و البرتغاليين في منطقة الخليج خاصة ، لأن ملك أسبانيا ظل مُصِرّاً على موقفه الداعي لمنع الإنجليز من تطوير علاقاتهم الاقتصادية مع الدولة الصفوية ، و أصبح الصراع سافراً عندما اعترضت السفن الحربية البرتغالية سفينتين إنجليزيتين كانتا تتبعان لشركة الهند الشرقية ، و منعتهما من الوصول إلى ميناء جاسك لممارسة التجارة من خلال وكالة الشركة المقامة في الميناء منذ أربع سنوات ، فاضطرت السفينتان إلى العودة لمقر الشركة في سورات [2] . و قررت شركة الهند الشرقية أمام هذا التحدي العسكري أن تفتح ميناء جاسك أمام التجارة الإنجليزية بالقوّة ، و سَيَّرَتْ سفنها التجارية باتجاه الخليج مصحوبةً بأسطول حربي لحمايتها ، و عند اقتراب الاسطول الإنجليزي من بندر جاسك اعترضته السفن البرتغالية و حالت بينه و بين الميناء ، فدارتْ بين الطرفين معركةٌ بحريةٌ حاميةَ الوطيس أسفرتْ عن هزيمة البرتغاليين و مقتل و إصابة نحو مائة و ستين من رجالهم قبل أن تفتح القوة الإنجليزية الطريق إلى بندر جاسك و تقضي بذلك ـ على رغبة البرتغاليين في استمرار احتكارهم لتجارة فارس . [3]

تزامنَ هذا التصعيد الخطير في العلاقات البرتغالية الإنجليزية ، مع تصاعد التوتر

(١) لتفصيل ذلك انظر : زندگاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي ج ٤ ص ١٩٢ - ٢٠٠ وتاريخ إيران . رضا بازوكي . ص ٢٣٤ .

(٢)

(٣) انظر دليل الخليج . لوريمر . ج ١ ص ٤١

الصفوي البرتغالي أمام فشل المحادثات السلمية التي كانت دائرةً بين الطرفين ، والتي سبقت الإشارة إليها ، إذ أمر الملك الأسباني حاكم هرمز بإعداد رجاله و سفنه الحربية لقتال الصفويين و استعادة جزر البحرين و بندر جمبرون (١) " عباس " و أرسل لهذا الغرض، وبهدف تأديب أهالي نخيلوه ، و تحذير الشاه عباس من مغبة التفكير في العدوان على المعاقل البرتغالية الأخرى و خاصة هرمز . و للمساعدة في القضاء على السفن الإنجليزية التابعة لشركة الهند الشرقية ، أرسل ملك أسبانيا أسطولاً حربياً وصل إلى هرمز في نفس العام (٢) . و يُرَجَّح أن يكون قد شارك في معركة جاسك التي سبقت الإشارة إليها .

و صعَّدَت الدولةُ الصفويةُ أمام هذه التطورات مواقفها و توجهاتها الحربية فأصدر الشاه عباس أوامره لحاكم فارس إمام قلي خان بمطالبة حاكم هرمز بدفع متأخرات الجزية و الضرائب الواجب سدادها للدولة الصفوية (٣) ، و كان الهدف من ذلك التحرش بالقوات البرتغالية في هرمز و إيجاد عذر مقبول لإعادة فتح الصراع الحربي من جديد ، و في نفس الوقت أمر حاكم فارس بالاستعداد للمعركة المنتظرة مع البرتغاليين (٤) . و بذلك اتجه الطرفان : البرتغالي و الصفوي نحو المواجهة الحربية الحتمية مباشرة .

كان الشاه عباس يتابع بحذر و حرص شديدين التحركات البرتغالية في هرمز و مخططاتها المعادية للسياسة و السيادة الصفوية في منطقة الخليج العربي (٥) ، و يبدو أن تطور موقفه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتصعيد الحربي بين الإنجليز و البرتغاليين ، لأنه لم يكن يملك الأسطول القوي الذي يمكن قواته من هزيمة البرتغاليين في معركة بحرية ، و لعله وجد في ذلك التصعيد الفرصة المواتية لدفع الإنجليز إلى مساعدته أو الاشتراك الحربي معه لمواجهة العدوّ المشترك . و إذا كان الشاه عباس يرى في تعاون الإنجليز معه تعويضاً كبيراً لنقص الإمكانات الحربية البحرية التي تعاني منها القوات الصفوية ، و وسيلة لاستغلال

(١) إيران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . ص ١٢٢
(٢)
(٣) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٧٩
(٤) إيران در زمان صفوية . ص ١٢٢
(٥) المشيخات المتصالحة . نفس الصفحة .

الصراع الدولي في تحقيق الأهداف الاستراتيجية الصفوية، وأداة لترجيح كفة التوازن الدولي وميزان القوى في المحيط الهندي، بما يُقَلِّلُ من إمكانات استمرار التفوق البرتغالي في المنطقة، وأخيراً فإن التعاون مع الإنجليز يساهم بشكل فعّال في تدمير السياسة الاحتكارية التي يمارسها البرتغاليون، ويفتح آفاق التعامل الحرّ أمامَ التجارة الصفوية عبر المحيط الهندي، ومع كل القوى والأساطيل التجارية الموجودة، بما يحقق المصلحة العليا للدولة. إذا كان الشاه عباس يرى أن تعاونه مع الإنجليز يحقق له كل ذلك فإنه لم يكن يفوتُ الإنجليز أن صراع الشاه مع البرتغاليين يحقق لهم أموراً منها: الخلاص من منافسة البرتغاليين القوية في المحيط الهندي، وأن لجوءه إليهم سيمكنهم من فرض شروطهم وجني الكثير من الثمار السياسية والاقتصادية في البلاط الصفوي [1]. وكان من العوامل التي عززت التعاون الفارسي الإنجليزي ظهور الهولنديين ودخولهم في حلبة الصراع السياسي الدائر، وتطور حركات التصدي للبرتغاليين في الجانب الغربي من الخليج العربي [2]، وهما الأمران اللذان قوّيا احتمال نجاح التحالف الفارسي الإنجليزي إلى حدّ كبير. وهكذا تداخلت الأهداف الصفوية بالاهداف الإنجليزية [3] وتعززت فكرة التحالف الحربي بين الطرفين.

مَرَّ بنا أن الطرفين: الصفوي والبرتغالي قد اتخذا قرار الحرب، وأن كُلاًّ منهما قد بدأ استعداداته الحربية للمواجهة المحتملة. وكان الإنجليز في سورات ــ في ذات الوقت ــ قد استاؤوا من تزايد أعمال السلب والنهب والتهديد التي كان البرتغاليون يمارسونها، ولذا لم يفكر الإنجليز في مهاجمة السفن البرتغالية المبحرة فحسب بل في مهاجمة السفن البرتغالية الراسية في موانئها أيضا، وظل القرار مرتبطاً بموافقة المجلس الحربي [4]. ودخل الشاه ــ عندئذ ــ في مفاوضات مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية بهدف التحالف الحربي ضد البرتغاليين، على أن تتولى السفن الحربية الإنجليزية مهمة

---

١) أحداث فاصلة. علي الغنام

٢) السياسة الإيرانية. علاء الدين نورس. ص ٩

٣) المشيخات المتصالحة. دونالد هولي. ص ٧٩

٤) الخليج العربي. ويلسون. ص ١٠٨

مهاجمة السفن البرتغالية ، في حين تقوم القوات الصفوية بمهمة المهاجمة البرية بقيادة حاكم فارس إمام قلي خان .(١)

وبدا أن الفكرة صعبة الحقيق لأنها ستوجه ضربةً لقوةٍ أوربيةٍ ترتبط مع إنجلترا ـ البلد الأم ـ بعلاقات طيبة ، ولأن مشروع التحالف وجد معارضة من قِبَل المركز الرئيسي للشركة في لندن ، والذى لن يوافق على ذلك إلا إذا تعرضت مصالح الشركة لتهديد مباشر من قِبَل القواتِ البرتغالية في المحيط الهندى(٢) . ويضاف إلى ذلك عدم حصول شركة الهند الشرقية على إذن بذلك من الملك البريطاني ، وخوفها من النتائج غير المضمونة والتي قد تهدد مصيرها في المحيط الهندي برمته .(٣) ومارس الشاه عباس، أمامَ هذا التردّد ،الضغط على شركة الهند الشرقية لدفعها إلى الدخول في تحالفٍ عسكريٍ معه ، فأصدر أوامره بالحدّ من التحركات التجارية للشركة وقد تمّ بناءً على ذلك منع سفنها من إنزال حمولتها في ميناب ، كما تمّ تعطيل إحدى القوافلِ البريةِ المارّةِ بأصفهان وفي نفس الوقت تمّ التلويحُ بإلغاء الامتيازات التى كانت الشركة قد حصلت عليها من قبل وبإغلاق أسواق فارس أمام المنتجات الإنجليزية(٤) .

حاول البرتغاليون الحيلولة دون قيام هذا التحالف، ومنع شركة الهند الشرقية من الدخول فيه(٥) ، وأخذوا يلوحون باستخدام القوة ضده ، وأنّ حملةً برتغاليةً كبرى ستقدم من جوا لتدمير هذا التحالف في مهده بالقضاء على الأسطول الإنجليزى قبل أن يصل منطقة الخليج العربي ، ثم معاودة السيطرة البرتغالية على المواقع الساحلية التى فقدتها بحيث تبعد الخطر الصفوى عن الساحل .(٦) وكان البرتغاليون يعززون مواقعهم في قشم وهرمز وغيرهما ، وهو الأمر الذى يؤكد جدية التحدي، وينذر بوقوع

١) الشاه عباس . بديع جمعة . د . ص ٢٣٧ . ٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٠٩ - ١٠

٢) الشاه عباس . بديع جمعة . د . ص ٢٣٨ . ولمزيد من التفصيل انظر التنافس الدولي مصطفى الخطيب . ص ٧٤ ، ٧٥

٤) دليل الخليج . جـ ١ ص ٢ ؛ والتنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٧٣

٥) ايران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . ص ١٣٧

٦) زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ٤ ص ١٠٨

كارثةٍ ماحقةٍ على المنهزمين .

ولا شك أن أخبار التحصينات البرتغالية كانت تُنقَلُ للشاه أولاً بأول وأنه كان يستطلع حقيقةَ النوايا البرتغالية، ويَعْتَبِرُ إجراءاتها الحربية أعمالاً عدائية موجهة ضد الدولة الصفوية، وذلك بالرغم من إعلان البرتغاليين أن تلك الاستعدادات لمجابهة الأساطيل الإنجليزية، وأنها ليست ضد الدولة الصفوية. [1] ومهما يكن من أمر فإن شكّ البرتغاليين في حقيقة النوايا الصفوية قد دفعهم إلى أخذِ تدابير وقائية خوفاً من أن يؤخذوا على حين غِرّة. ومما يُذْكَر أن شكوك البرتغاليين ازدادت قوة بدءاً من عام ١٦٢١م-١٠٣٠هـ، وذلك لبروز مجموعة من المتغيرات الدولية بشكل سافر، ومن ذلك قيام القوات العربية - بالتعاون مع الصفويين - في العام السابق بتحرير رأس الخيمة [2] وهو ما يؤكد رغبة الصفويين في دخول الحرب ضد المستعمرات البرتغالية في الخليج. وطالبَ الشاه أيضاً سنة ١٦٢١م-١٠٣٠هـ بضم هرمز التي كانت تابعةً لإقليم لار، وهو الأمر الذي رفضه البرتغاليون بشدة، وكان ذلك مؤشراً واضحاً على أنّ الصفويين والبرتغاليين مُقدِمون على حربٍ سافرةٍ، ولكن الفرس لم يكونوا على استعداد تام لها بعدُ [3].

وتزامن مع ذلك، وربما كان سابقاً عليه، توصُّل الإنجليز والصفويين إلى صيغة اتفاق للتحالف العسكري بين الطرفين [4] وهو أمر شديد الأهمية، لأنه يعني أنّ دخول البرتغال في صراع مع أحد الطرفين إنّما يعني دخولها في صراع مع الطرف الآخر، ولاسيما أن الشاه عباس كان قد وَطَّنَ سياسته على أساس استغلال الصراعِ الناشب بين القوتين الأوربيّتين المتنافستين على تجارة الخليج العربي.

ذُكِرَ فيما سبق أنّ شركة الهند الشرقية ترددتْ في اتخاذ قرارها بدخول حلف

(١) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٧١ - ٧٢

(٢) قسمتي أزماجراى خليج فارس . عباس إقبال . ص ٤١

(٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٠٧ - ١٠٨

(٤) كانت المفاوضات بين الطرفين جارية من قبل .

عسكري مع الصفويين ضد الوجود البرتغالي في منطقة الخليج . ولكن مع استمرار المفاوضات بين ممثلي الشركة وإمام قلي خان في ميناب، تمَّ التوصل إلى اتفاق بعد تعديل الشروط ومناقشتها من قِبَلِ الطرفين . واستقرّ رأي الإنجليز بناءً على هذه الشروط على الاشتراك مع الصفويين لوضع حدٍّ نهائيٍّ للتهديدات البرتغالية في الخليج [1]. وتنصُّ الاتفاقية على عدة بنود منها : الاتفاق على مناصفة التكاليف الحربية والغنائم مناصفةً، وأن تكون الغنائم الحربية من مدافع وذخيرة مِلْك للإنجليز وحدهم، وأنّ من حق الصفويين أن يَبْنُوا لأنفسهم حاميةً عسكريةً في الجزيرة على أن يكون ذلك على نفقتهم الخاصة، وأن يكون للإنجليز نصف إيرادات دار الجمارك في هرمز، على أن تُعْفَى البضائع الإنجليزية من الرسوم والجمارك، وأن يتولى الفرس أمر الأسرى المسلمين . في حين يتولى الإنجليز أمر الأسرى من النصارى والبرتغاليين . [2] وبناء على ذلك أصبح الطرفان مُسْتَعِدَّين للقتال . رغم معارضة بعض البحارة الإنجليز . نظراً للطابع الحربي للعملية، وبُعْدِهِ عن الطابع التجاري [3] . اقتربت ساعة المواجهة . ولم يبقَ سوى اتخاذ الإجراءات التنفيذية، وبهذا الاتفاق تكاد نتيجة الصراع أن تكون معروفة سلفاً . وأنها ستكون حتماً في غير صالح البرتغاليين، ولذا اختلف قادةُ البرتغاليين في هرمز حول ما ينبغي اتخاذه، وفيما إذا كانوا يُفَضِّلون طريق الحرب أم طريق السلام . ومهما يكن من أمر . فقد اتجه البرتغاليون إلى الانتصار ومراقبة المواقف قبل اتخاذ قرارهم النهائي بالحرب [4]، وفي نفس الوقت سعى البرتغاليون إلى إفشال ذلك التحالف . وإلى التخفيف من حدّة التوتر في منطقة الخليج العربي . فمن جهة حاولوا دفع شركة الهند الشرقية إلى إلغاء الاتفاق بشتى السبل [5] . ومن جهة أخرى اتصلوا بإمام قلي خان . محاولين تجديد روابط الصداقة . وأبدوا استعدادهم لتعويض الصفويين عن تكاليف استعدادتهم الحربية، بشرط الانسحاب للخلف [6] ولكن جميع محاولات البرتغاليين قد باءت بالفشل، إذ كانت أوامر الشاه عباس قد صدرت إلى إمام قلي خان بجمع صفوف قواته المُكَوّنة من

---

١) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٠٩

٢) لمزيد من التفصيل . انظر أحداث فاصلة . علي الغنام . والخليج العربي . ويلسون ص ١٠٩ والعلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . ص ٢٤٥ - ٢٤٦

٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٠٩

٤)

٥) إيران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . ص ١٣٧

٦) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٧٢ - ٧٨

خمسة عشرَ ألف مقاتل ، والتوجه للساحل استعداداً لقتال البرتغاليين [1] وفي نفس الوقت كان الإنجليز في سورات قد أصدروا أوامرهم بتوجه خمس سفن حربية كبيرة وأربع سفن شراعية، بقيادة ريتشارد بليت وجون دول إلى الخليج للتعاون مع الصفويين في المعركة المقبلة [2] ورد البرتغاليون على ذلك بتصرف أحمق حين ارتكبوا أبشع الجرائم في حق السكان المدنيين القاطنين في المناطق أو الموانئ الواقعة تحت سيطرتهم بهدف إلقاء الرعب في نفوس الجنود الفرس. [3]

واستهل الحليفان سنة ١٦٢٢م-١٠٣١هـ بالانطلاق الحربي ضد القوات البرتغالية، ففي التاسع عشر من يناير أبحر الأسطول الإنجليزي تجاه هرمز حيث وصلها دون أن تعترض سبيله الأساطيل البرتغالية [4] ، وكان قد وصل لنجدة هرمز من قبل أسطولٌ برتغاليٌّ مكون من خمس سفنٍ كبيرةٍ واثنتان صغيرتان وعددٍ من الفرقاطات [5] . وفي نفس الوقت كانت القوات الصفوية قد تجمعت في جمبرون على الساحل المقابل لهرمز ، وكان الصفويون قد اتفقوا مع العرب في الساحل الغربي على عدم تزويد البرتغاليين بالمياه والمؤن. [6] ويدل هذا الاتفاق على رغبة الطرفين المشتركة في الخلاص من النفوذ البرتغالي ، وعلى أن الحسَّ الإسلاميَّ العام كان غالباً على النزعات والخلافات المذهبية القائمة بينهما .

ويبدو أن البرتغاليين قد تحصنوا بميناء هرمز وقلاعها ولم يرغبوا في الاحتكاك بالأسطول الإنجليزي، حتى لا يشعلوا حرباً لا يضمنون نتائجها ، ولعلهم تمهّلوا حتى تصلهم الإمدادات من جوا . ومهما يكن من أمر، فقد أدّى ذلك إلى انسحاب الأسطول الإنجليزي وتوجهه إلى جزيرة قشم ، حيث قام بحصارها من جهة البحر ، في الوقت الذي كانت فيه القوات الصفوية تحاصرها من جهة البرّ ، وتمت المهاجمة البرية بقوة قُوامُها ثلاثةُ آلاف مقاتل ، في حين قام الإنجليز بإنزال عددٍ من القواعد المدفعية ودَكّوا بها التحصينات البرتغالية التي كان بها عددٌ من المقاتلين لا يزيد عن مائتين وخمسين

١) زند كاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ٤ ص ٢٠٩

٢) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٩٠ - ٩١

٣) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٧٢

٤) تاريخ روابط إيران . نصر الله فلسفي . ص ١٢٣

٥) الخليج العربي . ويلسون . ص ١١٠

٦) قسمتي أزماجراي خليج فارس . عباس إقبال . ص ٢٤

جندياً . ولم يجد البرتغاليون أمام قوة الهجوم سبيلاً غير الاستسلام، ومن ثَمَّ فاوضوا المهاجمين على ذلك وقبلوا بالتسليم على شرط أن يحافظ المنتصرون على أرواح أفراد الحامية، وعلى أن يسمحوا لهم بالرحيل إلى هرمز بكامل سلاحهم وأمتعتهم، وألاّ يسيء المنتصرين لأعوانهم الذين سَيَبْقَون في قشم. وقَبِلَ المنتصرونَ الشروط، ولكنهم لم يَفُوا بها بعد التسليم، إذْ جردوا البرتغاليين من أسلحتهم وأسر الإنجليز قائدَ الحامية البرتغالي وكبار مساعديه وأرسلوا بهم إلى سورات، بينما فتك الصفويون بالمتعاونين مع البرتغاليين من الفرس. (١)

قطع الصفويون والإنجليز بانتصار قشم أهمَّ وأقربَ مناطق الإمداد والتموين القريبة من هرمز ، وبالتالى ضَمِنُوا أنّ حِصَارَهم لهرمزَ سيكون أكثر جَدْوَى وفاعلية . وبالتالي أقام الصفويون فى جزيرة قشم حامية صفوية للدفاع عنها إذا ما فكَّرَ البرتغاليون في العودة إليها . وبقِيَ معهم أربعةٌ من الإنجليز (٢) بهدف المراقبة والإشراف على تنفيذ بقية بنود الاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، وبعد ذلك توجه الصفويون إلى جمبرون بينما قامتْ سفن الأسطول الإنجليزى باتخاذ مواقعها الحربية حول هرمز استعداداً للحصار والقيام بالمعركة الفاصلة . وبدأت المعركةُ فى فبراير عندما قامت السفن الإنجليزية تَدْعَمُهَا السفن الصفوية بإنزال نحو ثلاثةِ آلاف مقاتلٍ صفويّ بقيادة إمام قلي خان على سواحل الجزيرة حيث تَمّ اقتحام المدينة دون مقاومة تذكر فى حين احتمىَ البرتغاليون بالقلاع والحصون، والتي تَوَلَّى الصفويون بعد ذلك مهمة دَكِّها بالمدافع، فى حين قام الأسطول الإنجليزى بمهاجمة السفن البرتغالية التي كانت متواجدةً آنذاك فى هرمز ، وتمكن من تدمير عددٍ منها . (٣)

كان موقف البرتغاليين صعباً ولكنهم حاولوا الصمود أطول وقتٍ ممكن ، فكانوا يتصلون بطرفي التحالف المهاجم سراً ، ويقدمون عروض المصالحة، لكسب الوقت، وفضّ الحلف، والإيقاع بين المتحالفين ريثما يتمكن الأسطول البرتغالى المتوقع قدومه من جوا

١) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٩١

وا لشاه عباس . بديع جمعة . د . ص ٢٤١ - ٢٤٢ . ودليل الخليج . لوريمر . ص ٤٦

٢) زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ٤ ص ٢٢٢

٣) تاريخ روابط خارجي إيران . عبد الرضا مهدوي . ص ٩١ . ودليل الخليج . جـ ١ ص ٤٦

من الوصول والرد على المهاجمين [١] . ولو تحقق توقع البرتغاليين لوقع المهاجمون في حَرَجٍ شديدٍ ، إذ تعرَّضَ الفرس لنقصِ الماء والغذاء ، ولو قَدِمَ الأسطول البرتغالي وأجبر الإنجليز على الانسحاب لأصبح وضع الصفويين حَرِجًا للغاية ، فقد كان تسليح جيشهم سيئًا ، ولم يكن لديهم سوى قطع صغيرة من السلاح وبعض السهام والسيوف والدروع . وكان موقف الإنجليز حرجًا ـ كذلك ـ لأن القائد الصفوي إمام قلي خان كان ينقضُ الاتفاقَ معهم بين فينةٍ وأخرى ، كما كان يتفاوض مع البرتغاليين سرًا دون إبلاغ الإنجليز . [٢] وعلى أيِّ حال فقد تمكن الصفويون من اقتحام المواقع الأمامية وتدمير الأسوار ، في منتصف مارس تقريبًا ولكنَّهم لم يُحْرِزوا نصرًا حاسمًا ، فأصدر إمام قلي خان أوامره بإحراق المدينة [٣] ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أخذ البرتغاليون مع بدايةِ شهر أبريل من مكابدةِ الأمراضِ ونقص المؤن ، ولكنهم أصرُّوا على المقاومة في انتظار وصول النجدات الحربية من الهند ، ومع تأخر وصول الأسطول البرتغالي وقوة الهجمات الصفوية تراجع البرتغاليون إلى القلاع الداخلية في التاسع عشر من أبريل ، حيث اضطروا إلى الدخول في مفاوضات الاستسلام بعد يومين ، وكانوا قد اختاروا مفاوضة الإنجليز [٤] ظنًا منهم أن ذلك سَيُيَسِّر عليهم شروط الاستسلام ، ويخفف من حِدَّةِ الهزيمة ، وسَلَّمَ البرتغاليون أنفسَهم للإنجليز بعد يومين من الهدنة تم خلالَهُا الاتفاق على شروط التسليم ، ومنها أن يقوم الإنجليز بنقل الحامية البرتغالية إلى مسقط أو جوا ، وقد تمَّ نقل نحو ثلاثة آلاف نفس من الرجال والنساء والأطفال إلى مسقط حسب الاتفاق بينما تولَّى الجنود الصفويون مهمة معاقبة الفرس المتعاونين مع البرتغاليين ، حيث قاموا بقتل عددٍ كبيرٍ منهم [٥] . واستولى المنتصرون على نحو مائتي مدفع ما بين ثقيل ومتوسط ، وعلى مائةٍ وخمسين عربةِ مدفع [٦] ، تم تقسيمها حسب الاتفاق ثم باع الإنجليز نصيبهم للصفويين الذين أبدوا رغبةً في الاحتفاظ بالسلاح للدفاع عن المدينة . [٧] وكان استئثار الصفويين بمعظم الغنائم ونقضهم لبعض بنود الاتفاق ، كرفض تسليم المدينة ومناصفةِ أرباح الجمارك مع الإنجليز ، إلى غير ذلك ، وتَعَرُّض أفراد الأسطول الإنجليزي للأمراض

(١) تاريخ روابط إيران . نصر الله فلسفي . ص ٨٢ - ٨٣ . (٢) الخليج العربي . ويلسون ص ١
(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة . (٤) المرجع السابق ، ص ١١٢ .
(٥) ... طالعاني ... ، ص ٩٠ . ويذكر البعض أنه تم نقل البرتغاليين الى جوا بينما نقل الرعايا الى مسقط .
(٦) قسمتي أز ماجراي خليج فارس . عباس إقبال . ص ٢٥
(٧) المرجع السابق نفس الصفحة . ويقال إن الفرس رفضوا تقسيم السلاح ، نصر الله فلسفي ، ص ٢٢٥ .

أفريقيا ، ومع ذلك فإن ما جنته شركة الهند الشرقية الإنجليزية يعتبر يسيراً ،فقد اضطرت لدفع رشوة للملك الإنجليزي [١] ، كما دفعت غرامةً لمخالفتها الأوامر الملكية [٢] في الوقت الذي ظهر لها فيه منافسٌ قويٌ هو شركة الهند الشرقية الهولندية ، التي تمتعت بنفس الامتيازات ، وبالتالي لم تحقق لهم مشاركتهم الحربية أية ميزة باستثناء قناعة الشاه بأهمية التحالف الإنجليزي الصفوي ، وإطلاقه أيديهم في الأمور التجارية ، وتأكيده على الالتزام بالامتيازات الممنوحة لهم سابقاً ،[٣] وهي الميزات التي شاركهم الهولنديون في كثيرٍ منها .

وفاز الصفويون بالنصيب الأوفى ، فقد حرّروا أجزاءً مهمةً من أراضيهم واحتفظوا في هرمز بحامية صفوية مكونة من ثلاثمائة جندي ، تعززها قوةٌ بحرية بريطانية من سفينتين حربيتين ، واستولوا على كثيرٍ من الأسلحة والذخائر التي كانوا في أمسّ الحاجة إليها ، وحوّلوا المراكز التجارية من هرمز إلى بندر عباس [٤] لتقوى سيطرتهم وتزيد قدرتهم على المشاركة والإفادة من حركة التجارة الدولية . وقد مكّنت هزيمةُ البرتغاليين في هرمز الشاه عباس من التطلع إلى العراق حيث استغل تمرد والي بغداد العثماني بكير صوباشي ، وقام بمحاصرة المدينة وبسط سيطرته على العراق ، فيما بين سنتي ١٦٢٣م-١٦٢٤م-١٠٣٣هـ-١٠٣٤هـ ،وضم بذلك الموصل والبصرة والنجف وكربلاء للسيادة الصفوية . [٥]

ولم يكن من السهل أن يتخلى البرتغاليون عن جزيرة هرمز دفعة واحدةً دون أن يفكروا في معاودة السيطرة عليها . وقد جاءت أولى الحملات البرتغالية لنجدة القوات البرتغالية سنة ١٦٢٢م ١٠٣١هـ ولكنها جاءت متأخرةً وعندما وصلت إلى مسقط كانت الحامية البرتغالية في هرمز قد استسلمت، ولذا لم تستطع

(١) قدرت بـ ١٠ آلاف جنيه استرليني ، العلاقات البرتغالية . محمود الداود . د . ص ٢٤٦
(٢) قدرت بـ ٢٠ الاف جنيه استرليني ، التنافس الدولي . ص ٨٧
(٣) العلاقات البرتغالية . محمود علي الداود . د . ص ٢٤٦
(٤) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٨٦ - ٨٧
(٥) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٩٨

الحملةُ على شيء ، ورجعتْ إلى جوا خائبة [1] ، وعلى أي حال فإنه في الوقت الذي كان يفكر فيه الصفويون في كيفية احتلال مسقط ، وخاصة بعد رفض الإنجليز التعاون معهم ، كان البرتغاليون يفكرون في كيفية استعادة سيطرتهم على هرمز ، ولذا ما كاد الصفويون يُعَوِّضُوا عن فشلهم في احتلال مسقط باحتلال صحار وخور فكان سنة ١٦٢٢م-١٠٣١هـ حتى كان روى مزاير دتي اندريد Ruy Friere de Andrade قد تمكَّنَ من الهرب من إحدى السفن الإنجليزية ، وهو في طريقه إلى سورات ، والعودة إلى الخليج ، وكلّه حقدٌ ورغبةٌ في الانتقام ، حيث قاد حملةً من ست سفنٍ واسترد مدينتي صحار وخور فكّان في العام التالي [2] . ولم يكتف بذلك بل حاول أن يعقد اتفاقاً مع العثمانيين ، إذ اتصل بحاكم البصرة ، وقدم له بعض المساعدات البحرية والعسكرية [3] ولكن انتصار الصفويين في العراق حال بينه وبين تحقيق ما يريد . وبعد ذلك شَجَّعَ جنودَه ، ورفع من روحهم المعنوية وجهَّزَ حملةً لحصار هرمز ، وقطع المؤن والاتصالات الصفوية والإنجليزية بها ، واستمر حصاره لها نحو ستة أشهر أو شكَّتْ خلالها على الاستسلام ولكنّ قواتَه كانت أضعف من إعادةِ السيطرة على الجزيرة أو الاستمرار في حصارها [4] ومن ثَمَّ اضطر إلى فكِّ الحصار والرحيل إلى مسقط .

وقرر نائب الملك في جوا سنة ١٦٢٤م-١٠٣٣هـ أن يقود حملةً برتغاليةً لاسترداد هرمز ، والقضاء على المنافسة الإنجليزية والهولندية في منطقة الخليج ، ولكنه أَسْنَدَ قيادة الحملةِ -بعد ذلك- إلى بوتلهو [5] الذي وصل إلى مسقط في سبتمبر على رأس أسطول من عشر سفن ، وبينما كان يقوم بإصلاح سفنه انضمت إليه ثلاث سفن من موزمبيق بالإضافة إلى خمسٍ وعشرين سفينة صغيرة كانت في مسقط ، وفي فبراير سنة ١٦٢٥م-١٠٣٤هـ اتجه بأسطوله الكبير إلى بندر عباس لمساندة فراير

(١) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص٩١

(٢) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٨٠

(٣) التنافس الدولي . ص١٠٠-١٠١

(٤) تاريخ الخليج . ويلسون . ص١١٦

(٥) التنافس الدولي . ص٩٢

وكان الإنجليز والهولنديون قد سبقوه إليها [١] حيث دارتْ رَحَىٰ معركةٍ حاميةٍ الوطيس قباله شواطئ بندر عباس تكبّدَ فيها البرتغاليون خسائرَ فادحةً ودُمّرَ عددٌ كبيرٌ من قطع أسطولهم قبل أن يتمكنوا من الانسحاب للجانب الغربي من الخليج . ولم يتمكن الإنجليز والهولنديون من اللحاق بهم لأنهما كانا قد تَكَبّدَا خسائرَ لا تقلُّ فَدَاحَةً، ولحق بهما كثيرٌ من الإعياء والإرهاق من جَرَّاء المعارك [٢] . ومهما يكن من أمر، فقد كانت هذه المعركة كافية لمنع البرتغاليين من حصار هرمز مرة أخرى .

اتجه البرتغاليون بعد ذلك الى ابتلاع الهزيمة والقبول بالأمر الواقع — ولو مؤقتاً — حيث قام القائد البرتغالي فرايرِ بالتفاوض مع إمام قلي خان، وقَبِلَ بعودةِ قشم وهرمز للسيادة الصفوية نظير أن يسمح له الصفويون بإقامة وكالةٍ تجاريةٍ في كنج القريبة من لنجة على أن تكون إيرادات العوائد الجمركية مناصفةً، ووافق ألّا تهاجم السفنُ البرتغالية السفن أو الموانئ الفارسية لمدة ستة أشهر في العام [٣] . وبذا اكتفى البرتغاليون بالمشاركة في حركة التجارة الدولية عبر الخليج العربي بدلاً من الإصرار على دور المسيطر المحتكر . ولكن أحلام العودة إلى هرمز ظلّتْ تراودُهم بين فينةٍ وأخرى، ولذا ما أن فشلوا في الحصول على امتيازات خاصة بهم في كنج حتى بدأوا يفكرون في العودة إلى هرمز، وفي سنة ١٦٣٠م — ١٠٣٩هـ قام نائب الملك البرتغالي في جوا بمحاولةٍ لاستردادها ، بعد أن تلقى تعزيزات مكونة من تسع سفن وعلى متنها ألف جندي . ولكن محاولة البرتغاليين مُنِيَتْ بالفشل، [٤] فأقاموا سنة ١٦٣١م — ١٠٤٠هـ حِصْناً برتغالياً في رأس الخيمة ، ليكون عوناً لهم إذا ما قاموا بمحاولةٍ حربيةٍ جديدة .

ومن الجدير بالذكر قبل ختام هذا المبحث أن يتبين القارئ أن جهود الصفويين الحربية ضد البرتغاليين قد توقفت عند هذا الحدّ ، وأنهم لم يسهموا في تحرير أية

---

(١) التنافس الدولي . الخطيب ص ١٠٠

(٢) المشيخات المتصالحة . هولي . ص ٨٠ والخليج العربي . ويلسون . ص ١١٦

وهناك خلاف في تقدير خسائر الطرفين . دليل الخليج جـ ١ ص ٥١

(٣) دليل الخليج . لوريمر . جـ ١ ص ٤٧

(٤) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٨٠

مواقع أخرى ، بل ربما كان صلحهم مع البرتغاليين منذ سنة ١٦٢٥م-١٠٣٤هـ سبباً في عرقلة جهودٍ قوةٍ أخرى كانت قد برزتْ إلى الوجود قبل ذلك بعامٍ واحد ، وهي قوة اليعاربة التي لعبت دوراً بارزاً في دحر الوجود الاستعماري البرتغالي من مياه المحيط الهندي ٠ ومن الجدير بالذكر أيضاً أن البرتغاليين قد ظلّوا منذ سنة ١٦٢٥م-١٠٣٤هـ وحتى نهاية القرن السابع عشر تقريباً ، ظلوا يحاولون تشكيل جبهةٍ برتغاليةٍ صفويةٍ مشتركة ، ولكنّ هذه المحاولات باءتْ بالفشل ، ومن ذلك أن البرتغاليين حاولوا سنة ١٦٩٦م-١١٠٨هـ أن يتعاونوا مع الصفويين لمهاجمةِ مسقط ٠ ولكنّ يقظة الإمام سيف بن سلطان كانت لهذه المحاولة بالمرصاد ، حيث أرسل حملةً بحريّةً لمهاجمة القوات البرتغالية في مانجالور وبذلك تمكّنَ من قتل المحاولة قبلَ أنْ ترَى النور [1] ٠

---

(١) دولة اليعاربة ٠ عائشة السيار ٠ د٠ ص٧٦

الفصل الرابع

جهود اليعاربة فى مقاومة الاستعمار البرتغالى فى الخليج العربى و شرق أفريقية و الهند

لعبت دولة اليعاربة (١٦٢٤م-١٧٤١م-١٠٣٤-١١٥٢هـ) الدور الأكبر فـي مقاومة الاستعمار البرتغالي فى السواحل الإسلامية الشرقية، وكان لجهودها الفضل الأوفى فى إقصاء البرتغاليين عن سواحل الخليج العربي و سواحل أفريقيا الشرقية فضلاً عن دورها البارز فى زعزعة الوجود البرتغالى فى سواحل الهند الإسلامية. و يرجع نجاح اليعاربة فى ميدان الصراع الدولى، سياسياً و تجارياً، إلى عدة عوامل منها قوة عرب عمان و تفوقهم فى الملاحة، بالإضافة إلى حالة الضعف التي طرأت على الامبراطورية البرتغالية فى الشرق، فضلاً عن الظروف المختلفة التي جابهت البرتغاليين و سياساتهم الشرقية التي اعتمدت أسلوب الاحتكار و إنشاء القواعد البحرية لضمان سلامة الطريق الموصل إلى الهند [1]، و تَشَبَّثَتْ بهذا الأسلوب دون تعديل يذكر حتى النهاية.

و عند قيام دولة اليعاربة كان الساحل العُمَاني بأسره فى أيدي البرتغاليين، و كانت أبواب عمان الرئيسية مثل مسقط و صحار و صور و قريات تحت [2] سيطرتهم بلا منافس حيث كان لهم بها حاميات عسكرية كبيرة [3]. وخاصة بعد أن فقدوا سيطرتهم على هرمز ذات الموقع الاستراتيجى الهام، و بعد أن استعادوا وجودهم السياسي باستقلالهم عن أسبانيا، حيث كان ذلك إيذاناً بترميم مستعمراتهم الشرقية، و إحياء الروح الحربية و الاستعمارية فى رجالها بإدخالِ الكثير من الدماء و المعدات الجديدة، و لا بد من القول - فى هذا المقام - أن الجهود البرتغالية فى هذا الإطار كانت قليلة الجدوى نظراً للمستجدَّات الدولية التي طرأت على مياه المحيط الهندى و تجارته العالمية.

و كان من أبرز المستجدات الدولية آنذاك، تطور النفوذ الصفوي و امتداده امتداداً فعلياً على طول السواحل الفارسية فضلاً عن تحرير الصفويين لهرمز و حرمان البرتغاليين من محطة وسيطة رئيسة، ليس بين الهند و السواحل العربية و الأفريقية فحسب، بل

(١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٨١ - ٨٤
(٢) عمان عبر التاريخ . سالم السيابي . ص ١٧٧ . وتاريخ أهل عمان . مجهول . ص ١٢٧
(٣) المرجع السابق ص ١٨٦.

بين الهند و أوربا أيضاً . و من ناحية أخرى كان النفوذ الهولندي و الإنجليزي في تزايدٍ مستمرٍ في سواحل الهند محل الوجود الاستعماري البرتغالي ،وكان الدوران التجاريان للهولنديين و الإنجليز قد بَزَّا النشاط التجاريَّ البرتغاليَّ و تَفَوَّقا عليه لظروف سوف يتمّ بسطها في غير هذا المكان. و يضاف إلى ذلك بروز الدور الإنجليزي الصفوي المشترك و تعاون الطرفين ضد البرتغاليين ، و استعداد الإنجليز للتعاون مع أي قوةٍ محلية أخرى يمكن أن تساهم في إقصاء الوجود البرتغالي عن ميدان التنافس، و لعلّ هذه العوامل مجتمعةً ، قد عجّلت من التوجه اليعربي نحو المواجهة مع البرتغاليين و يضاف إليها السياسة الدينية و الاقتصادية للبرتغاليين الذين أخذوا يضيقون الخناق على التجارة العربية في عمان ، و يفرضون عليها رقابةً شديدةً ، و يضعون على المسموح منها الضرائبَ الباهظة ، و مما يُذكَرُ أنّه لم يكن يُسْمَحُ للعرب القيام بأيّ دور في التجارة الدولية السائدة آنذاك . وكانت البعثات التبشيرية البرتغالية قد زادت من نشاطها في منطقة الخليج ، و جَدَّتْ في بناء الأديرة و الكنائس[1] ، و هو الأمر الذي أثار الحفيظة الدينية لدى اليعاربة المتحمسين للمذهب الأباضي ذي الأثر السياسي الواضح [2] في حياة العامة و الخاصة منذ ظهوره في العصر الأموي ، و هكذا كان العاملان الاقتصادي و الديني حافزاً كافياً لدفع الوجهاء و التجار [3] و غيرهم للعمل السياسي الناضج ضد الوجود البرتغالي الذي يقف عقبةً كبرى ضد التبلور السياسي و الاقتصادي للكيان اليعربي المستقل.

و قد صاحب هذا التوجه الديني إحساسٌ عارمٌ بالحاجة إلى الاتحاد تحت راية قوية ،و ليس في مَقْدُورِ أي قوة غير الإسلام ، و خاصة على المذهب الأباضي السائد ، أن يحمل هذه الراية. [4] و ليس من شك في أن العداء الصفوي و اعتداءه على السواحل العربية و ظهور أطماعه فيها من جهة ، و فشل العثمانيين الأتراك في الإمساك بزمام الراية الإسلامية ، و تبلور الدور القومي في سياساتهم وبروزهم كقوة سياسية تسعى لتحقيق أهداف

---

(١) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ١٠٦

(٢) مختصر تاريخ الإباضية . سليمان الباروني . ص ٥٥

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ١٠٩

سياسية قومية فى المقام الأول من جهة ثانية، ليس من شك فى أن ذلك قد دعم روح الوحدة الوطنية الجديدة فى عمان بانبعاث الشعور القومى و خاصة ضد البرتغاليين [١] المخالفين فى الدين و فى التوجه الاقتصادى أيضاً.

* * *

كانت الأراضي العمانية، عند قيام الدولة اليعربية، تعاني من التفكك السياسي الشديد، و تتوزّعُها سياساتٌ قبليةٌ و حزبيّةٌ يسود بينها الاضطراب و التنافس [٢] فكانت بعض المدن المحصّنة فى الداخل بأيدي زعماء يلقبون أنفسهم ملوكاً و كانت مدن أخرى تحت حكم مجلس شيوخ من أهلها [٣]. و من حكام الداخل سيف الهنائي فى بهلا و آل عمير فى سمائل، و مالك اليعربي فى الرستاق، و الجبور فى الظاهرة [٤]. ولم يكن بقي من الثغور البحرية في يَدِ الوطنيين سوى لوى، أما الباقى فقد كان داخلاً فى حكم أمير هرمز، وبرزَ النفوذُ البرتغاليُّ واضحاً فيه. [٥]

و كان على الإمام ناصر بن مرشد ـ [٦] و الأمر كذلك ـ أن يخوضَ حروباً مريرةً ضد القوى الداخلية المنافسة، و التى رفضت الاستجابة لجهوده السياسية الهادفة إلى توحيد البلاد [٧] استعداداً للقضاء على الوجود البرتغالى فى المنطقة العربية فى المقام الأول، و من القبائل التى حاربها الإمام ناصر بن مرشد، قبائل بني هلال و بني سعيد و النزارية و بعض القبائل الأخرى التى آثرت التعاون مع البرتغاليين تحقيقاً لأطماع أو رغبات دنيئة. [٨]

* * *

توجه اليعاربة بقيادة ناصر بن مرشد، بعد أن وَطّدُوا الأركان الداخلية في دولتهم، إلى محاربة النفوذ البرتغالي، فكانت جهودهم امتداداً طبيعياً لحركة

---

(١) معركة تحرير مسقط. غانم محمد رميض. أبحاث ندوة رأس الخيمة. ص ٢٦٤

(٢) لمزيد من التفصيل. انظر عمان عبر التاريخ. سالم السيابي. ص ١٧٨ - ١٩٢

(٣) المرجع السابق. ١٨٥. (٤) تاريخ أهل عمان. مجهول. ص ١٢٢

(٥) عمان عبر التاريخ. سالم السيابي. ص ١٨٥

(٦) اول ائمة اليعاربة، تولى سنة ١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٤م.

(٧) لمزيد من التفصيل. انظر الشعاع الشائع باللمعان. حميد بن زريق. ص ٩٤ - ١٠

وتاريخ أهل عمان. مجهول. ص ١٢٧ - ١٣٢

(٨) التنافس الدولي. مصطفى الخطيب. ص ١١١

المقاومة العربية الإسلامية في منطقة الخليج العربي ، والتي بدأت طريق النصر منذ أواخر القرن السادس عشر ، عندما حاول البرتغاليون سنة ١٥٨٥م-٩٩٤هـ ، إنزالَ قوةٍ بحرية في نخيلوه على الشاطئ الشرقي لمهاجمة بعض القبائل العربية ، تلك القبائل التي تصدت لهم وألحقت بهم هزيمةً ساحقةً بعد أن قتلت من رجالهم نحواً من مائتين وخمسينَ جندياً ، وقد كان هذا الدرس كفيلاً بردع البرتغاليين عن محاولة النزول للبرّ مرة أخرى[1] ، كما كان حافزاً لأن يفكر العرب جدّياً في الاعتماد على أنفسهم - بعد فشل الجهود العثمانية في منطقة الخليج - والقيام بدور إيجابي مستقل في إطار المقاومة الإسلامية للاستعمار البرتغالي . وفي هذا الإطار قام عرب عمان سنة ١٦١٩م-١٠٢٩هـ بمحاصرة قريات وعزلها فترةً من الوقت تمهيداً لتحريرها ، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك نظراً لغياب القوة الحربية والتنظيم السياسي الفاعل[2] . وكذلك أيدوا الصفويين في جهودهم لتحرير هرمز وغيرها من السواحل الفارسية ، وكان من بين قوات قلي خان المحاربة للبرتغاليين عدد من العرب ، وقد استغل عرب عمان الصراع البرتغالي الصفوي وقاموا بطردِ الحامية البرتغالية من جلفار فيما بين سنتي ١٦٢٠م - ١٦٢١م-١٠٣٠-١٠٣١هـ مسببين للبرتغاليين كثيراً من الإرتباك والفزع ، وخاصة عندما قاموا بقطع المياه والمؤن عن هرمز[3] مساهمةً في تشديد الحصار على القوات البرتغالية فيها .

وبدأ اليعاربةُ جهادهم ضد البرتغاليين معتمدين على قدراتهم الذاتية[4] غير مستعينين بقوة خارجية كالدولة الصفوية أو الدولة العثمانية ، وذلك لتخوفهم من قيام هاتين القوتين بتحويل أية مكاسب سياسية لصالحهما الخاص مع حرمان اليعاربة حتى من استقلالهم . أما بالنسبة للقوى الأجنبية فلم يكن من الميسور التعامل معها نظراً لأن القوتين الرئيستين - وهما الهولنديون والإنجليز - كانتا قوتين تجاريتين أساساً وكانت أولاها تُرَكِّزُ نشاطها في المنطقة الهندية أصلاً ، بينما كانت الثانية تتعاون حربياً واقتصادياً مع الصفويين ذوي الأطماع الواضحة في الخليج بِرُمَّتهِ . ثم إن فشل الإنجليز في الحصول على مكاسب تُذْكَر من نصر هرمز كان كفيلاً بأن يجعلهم يترددون كثيراً قبل

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٤٢
(٢)
المقاومة العربية . سليم طه التكريتي . . ص ٢٦
(٣)
(٤) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ١٠٩

التعاون مع أية قوة محلية أخرى. وأخيراً كان على اليعاربة أن يثبتوا جدارةً سياسيةً ويثبتوا أقدامهم في أراضيهم بالقضاء على القوى المعارضة قبل أن يكسبوا ثقة أية جهةٍ أخرى قد تمدُّ لهم يدَ العون بصورةٍ ما.

ولم يكن تحريرُ السواحل العمانية بالنسبة لليعاربة، مسألةً ذات أبعادٍ سياسية أو دينيةٍ أو قوميةٍ فحسب، ولكنها كانت مسألةَ حياةٍ أو موت بالنسبةِ لكثيرٍ من فئات الشعب، لأن البحرَ يعتبرُ شريان الحياة للشعب العماني، وعليه تعتمد معظم أنشطتهم الحياتية، ومن ثم لن يكتملَ استقلالُ الدولةِ اليعربية إلا باستقلالها الاقتصادي وحُرّيةِ تجارتها البحرية من كافة القيود الاستعمارية. ولعل هذا الأمر يفسرُ استجابةَ عددٍ كبيرٍ من الناس، وخاصةً التجار[1]، لدعوة الجهاد المقدس ضد الوجود البرتغالي في الساحل.

كان البرتغاليون يراقبون التطورات الداخلية في الدولة اليعربية عن كثبٍ، ولا بُدّ أنّ جهود الإمام ناصر بن مرشد في ميدان الجبهة الداخلية وقيامه بجمع الصفوف وتوحيد الكلمة والقضاء على القبائل المعارضة قد سبَّبَ لهم كثيراً من التخوّف والقلق، ولذا نجدهم يعملون في اتجاهين متكاملين ضد النمو السياسي اليعربي المتسارع، فمن جهة حاولوا جاهدين أن يستردوا نفوذهم في هرمز، ولمّا عجزوا عن ذلك بالقوةِ أمَرَ ملكُ أسبانيا – وكانت البرتغال لا زالت تابعةً لها – سنة ١٦٣١م – ١٠٤١هـ نائبه في جوا أن يبذل قُصارىٰ جهده، للتفاهم مع حاكم هرمز الصفوي ولو عن طريق الرّشوة، ليسمح بعودة القوات البرتغالية إلى الجزيرة. ولَمّا لم يفلح نائب الملك في جوا في هذا المسعى لجأ البرتغاليون إلى زيادة تحصيناتهم الساحلية بإقامة قلعة برتغالية في رأس الخيمة[2] سنة ١٦٣١م – ١٠٤١هـ وذلك تعويضاً عن مركزهم في هرمز من جهة، واستعداداً لاسترداده[3] من جهة أخرى. وهكذا نجدُ أنفسَنا أمام الاتجاه الثاني، حيث قام البرتغاليون بتعزيز وجودهم على سواحل الخليج العربي إما بزيادةِ التحصينات القائمة

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية . سليمان الباروني . ص ٥٥
(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢١
(٣) المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . ص ٨٠

وتقويتها كما حدث في مسقط ومطرح ، وإما بإقامة تحصينات جديدة كما حدث في رأس الخيمة ، وإما بالتعاون مع القوى المحلية المعارضة للدولة اليعربية والمتنافسة معها ، ومن ذلك أنهم تعاونوا مع مانع بن سنان في سمائل ، ومع محمد بن سيف الجبري في ليو[1]، والذى قدّم له البرتغاليون المال و السلاح ،[2] وذلك بهدف صرف اليعاربة عن الجبهة الساحلية ، وتوريطهم في الفتن الداخلية .

وكان اتصالُ البرتغاليين بهذين المنافسين ، وتوفيرُهم الحمايةَ لهما القشّةَ التي قصمتْ ظهرَ البعير وأدتْ إلى تطور العلاقات العدائية بين اليعاربة والبرتغاليين بشكل سافرٍ والتي اتخذت من الصراع المسلح طريقاً لها ، وكان الإمام ناصر بن مرشد قد وَجَّهَ بعض قواته إلى ليو وسمائل ، فالتجأ محمد بن سيف الجبرى وبعض قبائل الجبور المساندة له إلى صحار ليحظى بحماية القوات البرتغالية فيها ، بينما التجأ مانع بن سنان إلى البرتغاليين في مسقط[3] وأخذ الرجلان يتعاونان في شن الغارات على المناطق الخاضعة لنفوذ الإمام ناصر بن مرشد محاولين استرداد ما كان تحت حوزتهما من أراضٍ ومناطق نفوذ[4] ولعل الإمام ناصر بن مرشد قد رأى أنّ مَصْدَرَ قوة الرجلين إنما يأتى من العون والحماية البرتغالية ، وأنه لن يتمّ القضاء عليهما إلّا بعد القضاء على التعاون القائم بينهما وبين البرتغاليين ، ومن ثم جَهَّزَ جيشاً جعل قيادته للشيخ مسعود بن رمضان الذى توجه إلى مطرح في أواخر سنة ١٦٣٢م-١٠٤٢هـ ، حيث خاض مع البرتغاليين معركةً ظافرةً دمّر خلالها عدداً من نقاط المراقبة البرتغالية ، وقتل عدداً كبيراً من البرتغاليين قبل أن يتمكنوا من الاحتماء بالقلاع الحصينة في مسقط[5] ورغم أن اليعاربة لم يحققوا نصراً حاسماً فإنهم نجحوا في تحقيق مكاسب سياسية كبيرة من هذه المعركة التى حدثتْ في منطقة طوى الرولة المشرفة على مسقط[6] ، إذ انتهت المعركة بحوارٍ سياسيٍّ أسفر عن اتفاقية صلح بين الطرفين نصَّتْ على أن يحسن البرتغاليون معاملة المسلمين في مسقط ومطرح ، وأن يُرْجِعوا الأموالَ والممتلكاتِ التي استولوا عليها من قبائل العمور في منطقة صحار ، وأن يدفعوا للدولة اليعربية جزية سنوية[7] ، وقام

(١) عمان عبر التاريخ . سالم السيابي . ص١٨٦ . وتاريخ أهل عمان . مجهول . ص١٢٤-١٢٥ . ويفخر بوكسر بكل ... ببطولات ... والتي منها انه استطاع الاستفادة من طبيعة الشقاق في المجتمع القبلي ، وخاصة في المجتمع العماني الذي كانت فيه الولايات والمشايخ تشكل وحدات هشة غير مستقرة (٣)

(٢) المرجع السابق . ص١٨٦

(٤) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص١١٢ . (٥) الصراع العماني البرتغالي . صالح العابد . جـ١ ص١٢٧

(٦) (٧) تحفة الأعيان . السالمي . عبدالله بن حميد . جـ٢ ص

الشيخ مسعود بن رمضان بأخذ الدفعة الأولى منها قبل الرحيل عن مسقط.[1]

ويلاحظ الباحث أن هذه المعركة قد شكلت نقلة نوعية، وانقلاباً حقيقياً في علاقة البرتغاليين بسائر مستعمراتهم في منطقة الخليج العربي، وذلك لأنه قد ترتب على هذه المعركة عدة أمور بالغة الأهمية من الوجهتين السياسية والاقتصادية، فللمرة الأولى في تاريخ الوجود الاستعماري البرتغالي في المياه الشرقية يدفع البرتغاليون جزية سنوية لدولة إسلامية لكي تسمح لها الاحتفاظ ببعض مستعمراتها، وهو الموقف الذي يؤكد بدء انهيار الامبراطورية البرتغالية المائية، ويغت في عضد رجالها الذين اعتادوا ولأكثر من ثلاثة عشر عقداً (١٥٠٠-١٦٣٢م-٩٠٨-١٠٤٢هـ) أن يأخذوا الجزية من سكان المدن والموانئ التي امتد نفوذهم إليها. وليس من شك أن قبولهم بدفع الجزية بعد هذا العمر الاستعماري قد أصابهم بخيبة أمل، وبإحساس عميق بطعن الكبرياء البرتغالي في مقتل. ومن جهة أخرى يبدو أن اليعاربة قد استغلوا اتفاقية الصلح هذه لتجريد البرتغاليين من مستعمراتهم الأخرى على سواحل الخليج العربي من ناحية، وللقضاء على أنصارهم والمتعاونين معهم من رجال القبائل المنافسة لدولة اليعاربة من ناحية أخرى، وقد أكدت مسيرة الأحداث التالية ذلك. ثم إن هذه الاتفاقية قد فتحت للمسلمين باب الملاحة والتجارة عبر مسقط، المركز البرتغالي الرئيسي بعد هرمز، وبالتالي عبر المراكز البرتغالية الأخرى في منطقة الخليج العربي.

وبدأت قوات اليعاربة تعد للمرحلة التالية وهي تحرير سائر السواحل العمانية الأخرى، حيث أرسل الإمام ناصر بن مرشد حملة جديدة بقيادة علي بن أحمد لتحرير رأس الخيمة، والقضاء على ناصر الدين الفارسي[2] الخائن والمتعاون مع البرتغاليين ضد المصلحين: الإسلامية والوطنية[3] وكانت التحصينات في رأس الخيمة تتمركز في حصن الصير الذي يقيم به ناصر الدين الفارسي وقواته، والحصن البرتغالي الذي

---

(١)
(٢) كان ناصر الدين الفارسي تابعا لحاكم هرمز، واحتفظ بولائه للبرتغاليين بعد تحريرها ليحافظ على وجوده السياسي ولخاصة وان الصفويين لم يمدوا نفوذهم للساحل الشرقي للخليج العربي.
(٣) سيرة الإمام ناصر بن مرشد. بن قيصر. ص ٤٦. وانظر تاريخ أهل عمان ص ١٣٥.

كانت تسانده من البحر سفينتان حربيتا ن برتغاليتا ن كانتا تقيمان قباله الشاطئ باستمرار .
واضطرَّ هذا عليَّ بنَ أحمد أن يخوض حربًا ضروسًا ضد ناصر الدين الفارسي ، ومَنْ معه
من القوات البرتغالية المعاونة ، إلى أن تمكن من السيطرة على حصن الصير وسائر
المدينة [١] ولم يعد في حوزة البرتغاليين سوى الحصن الذي كانوا يحتمون به ، وبذلك
أصبح اليعاربة على خط تماس مباشر ثانٍ مع البرتغاليين ، ويمكن أن ينفجر في أية
لحظة ، وخاصة بعد أن حُرِمَ البرتغاليون من مصدر تموينهم من داخل المدينة
حيثُ أصبحت مدينة رأس الخيمة تابعة لليعاربة منذ ذلك الحين وبشكل مباشر
إذ جعل عليها القائد علي بن أحمد أَحَدَ أقاربه [٢] ، ليتولى إدارتها ويتفرغ هو لحرب
الجيب البرتغالي المُتَبَقِّي على الساحل . ورابط علي بن أحمد بقواته في حصن الصير
وأخذ يتقوى على حرب البرتغاليين بالتعاون مع القبائل المحلية . ومنها قبائل الدهامش
الذين تعاونوا معه فأمدهم بالمال والسلاح ، وبدأ الطرفان حربهم ضد الحصن البرتغالي
الذي اضطر للاستسلام وطلب الأمان [٣] وما يذكر أن فضل تحرير حصن دبا من أيدي
البرتغاليين يرجع لقبائل الدهامش [٤] سالفة الذكر .

وجه الإمامُ ناصرُ بنُ مرشد حملةً ثالثة لتحرير صحار ، التي كانت قد سقطت
في أيدي البرتغاليين سنة ١٦١٦م-١٠٢٦هـ [٥] ، بقيادة قائد منطقة ليو حافظ بن سيف
سنة ١٦٣٣م-١٠٤٣هـ ، حيث قام هذا القائد بالاتصال بالقبائل العربية في المناطق المجاورة
مثل بني لام والعمور وبني خالد وغيرهم من أهالي صحار ، ونسق جهوده معهم للقيام
بعمل عسكري مشترك [٦] ، وبعد ذلك زحف بقواته نحو منطقة البدعة واشتبك مع
البرتغاليين إلى أن اضطرهم للانسحاب والاحتماء داخل حصنهم في صحار ، بعد أن حرر

---

(١) سيرة الإمام ناصر بن مرشد . ص ٤٦
(٢) الفتح المبين . حميد بن زريق . ص . ٢٧٣ . والشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق ص ٢١٧ - ٢١٨ . وتاريخ عمان الأزكوري . ص ١٠٤ - ١٠٥
(٣)
(٤) الفتح المبين . حميد بن زريق . ص ٢٧٥
(٥) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢٢٠ - وتاريخ عمان الأزكوري . ص ٥٠
(٦) سيرة الإمام ناصر بن مرشد . . عبد الله بن خلفان بن قيصر . ص ٥٠

منهم حصن بن الأحمر [١] . و ليؤكد إصراره على تحرير صحار أمر بإقامة حصن يعربي في مواجهة الحصن البرتغالي ، و تمكن رجاله من بناء الحصن رغم كثافة المقاومة البرتغالية و التي كثفت من قصفها للمواقع اليعربية بشكل جد خطير ، هدد القوات اليعربية بشكل مباشر و أفقدها عدداً من خيرة مقاتليها ، و بذلك أصبحت مدينة صحار تابعة لليعاربة و لم يبق في يد البرتغاليين سوى الحصن الذي تحصنوا داخله ، و الذي أصبح تحت رحمة القوات اليعربية المتحفزة للانقضاض عليه من الحصن المقابل [٢] ، و التي استمرت في حصارها إلى أن تم تحرير صحار تماماً [٣] .

و أمام هذه التطورات نقض البرتغاليون الاتفاقية المبرمة بينهم و بين اليعاربة ، فامتنعوا عن دفع الجزية ، وعادوا لسياستهم السابقة في الاساءة للمسلمين و في منعهم من الملاحة و التجارة [٤] ، و لعلهم فعلوا ذلك لأنهم رأوا أن اليعاربة مصرّين على تحرير السواحل العمانية و إنهاء الوجود البرتغالي فيها ، و ربما كان نقضهم للمعاهدة لوناً من التحدي و المقاومة التي تنقل لليعاربة رسالةً واضحةً فحواها أن القضاء على الوجود البرتغالي ليس بالسهولة التي يتصورونها ، و أنهم لازالوا من القوة بحيث يستطيعون الاحتفاظ بمكانتهم ، و أخيراً فإن نقض الاتفاقية كان أمراً متوقعاً إذ ليس من المعقول الاحتفاظ بها و قواتهم لازالت عرضة لهجوم القوات اليعربية .

و لم ينتظر اليعاربة حتى يُحْسَمَ الصراع في صحار ، فسارعوا بإرسال حملةٍ أخرى بقيادة خميس بن سعيد الشقصي سنة ١٦٣٣م - ١٠٤٣هـ ، الذي حارب البرتغاليين حتى اضطرهم إلى النزول على شروط الاتفاقية السابقة بعقد اتفاقية جديدة أكّدت التزام البرتغاليين بدفع جزيةٍ سنوية ، و بحُرّيةِ الملاحة و عدم التعرض لتجار المسلمين و خاصة اليعاربة ، فضلاً عن تخلي البرتغاليين عن مواقعهم و تحصيناتهم خارج مسقط و مطرح في مقابل انسحاب القوات اليعربية و توقفها عن مهاجمة هاتين المنطقتين [٥] و يبدو

(١) سيرة الإمام . عبدالله بن خلفان . ص ٥٠ . وتاريخ أهل عمان . مجهول . ص ١٣٥

(٢) نفس المرجعين السابقين. (٣) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢١٩

(٤) سيرة الإمام ناصر بن مرشد . عبدالله بن خلفان . ص ٥٠ .

(٥) نفس المرجعين السابقين .

إن هذا الاتفاق قد تَمَّ بتوجيهاتِ نائب الملك في الهند الذي اتفق مع مستشارية أنــــه ليس بمقدورهــم عملُ شيءٍ يذكر بسبب مهاجمــة الهولنديين لسيلان و غيرها من المواقــــع البرتغالية في جنوب شرق آسيا ، و طلب من حاكم مسقط أنْ يحاول التفاهم مع اليعاربــة .

أكدت هذه الاتفاقيــة صلابــةَ الموقف اليعربي أمام القواتِ البرتغاليةِ الآخذةِ في التراجــع، و يلاحــظ أن الاتفاقية المذكورة ألزمتْ البرتغاليين بعدّةِ شروطٍ تقــف ضد مصالحهم كمستعمرين، في حين لم تُلْزِم اليعاربة بشيءٍ يُذْكر و هو الأمر الذي أتاح لهــم مواصــلة الجهاد لتحرير باقي الســواحل من جهــة ،و لمحاربــة المنافسين الداخليــن من جهــة ثانية، إذْ قام اليعاربـــة بعد ذلك بعدّةِ حملاتٍ ناجحــةٍ بقيادة سيف بــن سلطان الذي أفادَ من ضعف الموقف البرتغالي ، و تمكن من تحرير صحار و صور و قريــــات قبل نهايــة سنة ١٦٣٤م ــ١٠٤٤هـ" [١] و يكون اليعاربــة بذلك قد حرَّروا كل السواحل العمانية تقريباً، باستثناء مسقط و مطرح، خلال عشرِ سنواتٍ من قيام دولتهم .

و استمر الصراع بين البرتغاليين و اليعاربــة بين مدٍّ و جزر لعدة سنواتٍ ، استطاع البرتغاليون خلالها أن يلتقطــوا أنفاســهم و يستعيدوا بعض قوتهم ،حيــــثُ استعادوا السيطرة على صور و قريات ، و وطَّدوا علاقاتهم مع بعض منافسي اليعاربــــة مثل ناصر بن قطن و حاكم ليوا . و لكــن ذلك لم يُثْنِ اليعاربــةَ عن عَزْمِهِم، إذ انتهــز الإمام ناصر بن مرشــد فرصة خلو الحصون البرتغالية من قسمٍ كبيرٍ من جنودها الذيــــن خرجوا في مُهِمَّةٍ بحرية ــ كما علم بذلك من بعض عيونهِ من موظفي الجمارك ــ و قام بشــن حملــة حربيــة قادَها بنفسه سنة ١٦٤٠م ــ١٠٥٠هـ، حتى وصل (روى) في بعــــض نواحي مطرح ، و خاض مع البرتغاليين معاركَ طاحنــةً حاصر خلالها الحصون و الأبــراج البرتغالية، و لكنه اضطرَّ إلى الانسحابِ و فكِّ الحصار، أمام مَنَعَــةِ الأسوار من جهــــة ، و اشتدادِ هجماتِ القبائلِ المعارضــةِ المتعاونةِ مع البرتغاليين [٢] من جهةٍ أخرى .

---

(١) عمان عبر التاريخ ص ١٨٦ - ٢٢٢ - ٢٢٧ . وتاريخ عمان . الأزكوي . ص ١٠٦

(٢) سيرة الإمام ناصر بن مرشد . عبدالله بن خلفان . ص ٦٧ - ٦٨

ودليل الخليج ـ القسم التاريخي . جـ ٢ ص ٦٢٥ . والخليج العربي . ويلسون . ص ١٢١

وكان على اليعاربة أن يقضوا عدةَ أعوام أُخرى فى استعادةِ المواقع التى فقدوها والقضاء على القبائل المُعَارضة، ومن ذلك أنهم حاربوا ناصر بن قطن حتى تمكنوا من القضاء عليه [1]. وكذلك حاربوا حاكم ليواءالذي تمرد بدعم البرتغاليين سنة ١٦٤٣م-، وتمكنوا من القضاءِ عليه وأسْرِ جميع أفرادِ القوةِ البرتغاليةِ المُساندةِ له. [2]

أما قبائل الجبور فقد استغلوا فرصة توجه الإمام لحرب البرتغاليين فى مسقط وزادوا من عملياتهم الحربية، وتمكنوا من احتلال بلدة عمق بدعم برتغاليٍ واضح، واضطر الإمام لفكِّ حصار مسقط لمحاربتهم ولكنه لم يظفر بهم ولم يتمكن من تحرير البلدة، وبذلك استفحل أمرهم وزادوا من هجماتهم على منطقة صحار ومعهم عددٌ من البرتغاليين والفرس، حتى تمكنوا من السيطرة على قلعتها لمدة عام، قبل أن تتمكن قوات الإمام ناصر بن مرشد من وضع حَدٍّ لذلك بحملةٍ تمكّنتْ من تحرير القلعة وطرد البرتغاليين منها، حيث احتموا بالحصن، فى حين اضطرت ناصر الدين الفارسي إلى الاستسلام فى مقابل السماح له ولقواته بالانسحاب إلى مسقط فى أواخر سنة ١٦٤٣م-١٠٥٤هـ. [3]

ومَرَّ أكثرُ من ثلاثِ سنواتٍ قبل أن يدخل الإمام ناصر بن مرشد مع البرتغاليين في صراعٍ مباشرٍ مرّةً أخرى سنة ١٦٤٧م-١٠٥٨هـ، ولكنّ الفترة الحاسمة فى ذلك الصراع تبدأ فى أغسطس أو سبتمبر من العام التالي حين وَجَّهَ الإمامُ جيشاً قوياً خضع لإشرافه المباشر وقيادة سعيد بن خليفة، بهدف تحرير مسقط نهائياً وطرد البرتغاليين من كل تحصيناتهم بها، واستطاعت القوات اليعربية أن تُكَبِّدَ البرتغاليين خسائرَ فادحةً وأن تستوليَ على عددٍ من المواقع البرتغالية الهامة فى المكلا ومطرح ومسقط، قبل أن تضرب حصاراً على آخر التحصينات البرتغالية وأقواها فى مسقط، ذلك الحصار الذي استمر حوالي شهرين، تخللتهما مفاوضات يعربية - برتغالية صلبة [4] انتهت بالاتفاق

(١) Badger, op. cit, pp 63 - F
(٢) سيرة الإمام ناصر . ص ٦٨ . ودليل الخليج . جـ ٢ ص ٦٣٥ . والخليج العربي . ويلسون ص ١٢٢ ، ويذكر أن مدة سيطرة البرتغاليين على صحار كانت عشرين عاما .
(٣) دليل الخليج . لوريمر . جـ٢ ص ٦٣٦ . والصراع على الخليج العربي . سليم التكريتي ص ٣٨ - ٣٩ . والمقاومة العربية . سليم التكريتي ص ٥٦ - ٥٧ .
(٤) المرجع السابق . نفس الصفحة .

على أن يتخلى البرتغاليون عن حصنيهما في دبا وقريات، وأن يهدم الطرفان تحصيناتهما في مطرح لتصبحَ منطقةً عازلةً محايدةً وذلك بهدف إبعاد القوات اليعربية ليتمكن البرتغاليون من أخذِ حذرهم والاستعداد إذا ما عاود اليعاربة هجومهم من جديد . وكذلك نصَّت الاتفاقية على حرية السفن اليعربية في الملاحة والتجارة على أن تَحْصُلَ على تصاريح دخول لميناء مسقط من البرتغاليين، ويعني ذلك أن يظل ميناء مسقط في أيدي البرتغاليين وألّا يدفع التجارُ والملاحون المسلمون أيّةَ رسومٍ جمركيةٍ أو ضرائبَ على البضائع اليعربيّة، وأن تكون التجارةُ في ميناء مسقط حرّةً بشكلٍ كامل ، وألّا يُجَدِّدَ البرتغاليون تحصيناتهم التي تهدمتْ أثناء الحرب، وألّا يتعرضَ أيٌّ من الطرفين للآخَرِ بأذى. [1]

ولما كانت هذه الاتفاقية تؤكد أن سيطرة البرتغاليين على سواحل عمان، وخاصة مسقط (آخر معاقلهم)، أوشكت على نهايتها [2]، وأن الصراع اليعربي البرتغالي قد دخل مرحلةً دقيقةً خطيرة وقفَ فيها اليعاربةُ على أبواب مرحلةٍ جديدةٍ من الصراع.

ولما كانت بنودُ الاتفاقيةِ تَحْرِمُ البرتغاليين من كثيرٍ من مكاسبهم السياسية والاقتصادية، وتؤكدُ نهايةَ عصرِ الاحتكار والهيمنةِ البرتغالية، فقد اعتُبِرَتْ قاسيةً ومشينةً من وجهةِ نظر التاج البرتغالي الذي أمر بعزل القائد البرتغالي في مسقط لقبوله بذلك الاتفاق [3] وكَلَّفَ القائد الجديد أن يبذل قصارىٰ جهده للاحتفاظ بالمدينة وأن يضاعف تقوية التحصينات البرتغالية فيها، وأن يزيدَ عدد قطع الأسطول البرتغالي المرابط قبالتَها [4]، على فَرَضِ أنَّ الحربَ المقبلةَ ربما كانتْ بحريةً، وليس من شك في أنّ التفوق البرتغالي في الحروب البحرية، سيحقق لهم نصراً أكيداً . فضلاً عن أن الأسطول يعتبر أكبر ظهيرٍ ومساند، ورُبَّما كان في يده حسم الحرب البرية بضرب مواقع العدو. كما أمَرَ القائدَ الجديدَ أن يشدِّدَ قبضَتَهُ على المدينة وأن يعامل العربَ بحزم بالغ ويطردهم

(١) دليل الخليج جـ ٢ ص ١٣٦ . والصراع على الخليج . سليم التكريتي . ص ٣٨ .

(٢) معركة تحرير مسقط . غانم محمد رميض . ص ٢٠٨

(٣) دليل الخليج . لوريمر . جـ ص ٦٣٧

(٤) Miles, op, Cit, p 195

منها [1] . و وجد البرتغاليون فرصتهم لتنفيذ هذه السياسة عند موت الإمام ناصر بن مرشد في أبريل سنة ١٦٤٩م-١٠٥٩هـ [2] ،بعد أن أمضى حوالي ربع قرن من الجهود السياسية و الحربية على الجبهتين الداخلية و الخارجية ، حيث نقضوا الاتفاقية المُبْرَمَةَ بينهم و بين اليعاربة ، فنكثوا " العهدَ و قطعوا الجزيةَ ، و مَنَعُوا المسلمين من الوصول إلى مسقط ، وعَتَوا عتوًّا كبيرًا [3] " وزادوا من حصانةِ مواقعِهم في المدينة [4] .

و خلف سلطان بن سيف الإمام ناصر ، و كان البرتغاليون قد غيَّروا سياستهم و نقضوا اتفاقيتهم ، فسارَعَ إلى تنظيم قواته و التي تحركت لتحرير مسقط في أواخر سنة ١٦٤٩م-١٠٥٩هـ ، حين بدأتْ بشنّ الغارات و التحصن بقممِ الجبال ، و ضرب الأسوار بالمدفعية [5] و واصلت تقدمها حتى بلغت سيح الحرمل ، و لكنها لم تستطعْ اجتياح التحصينات البرتغالية في أول الأمر ، و ذلك لمَنَعَةِ الأسوار و كثرةِ الجند و كثافةِ النيران التي تنطلق من أسلحةٍ [6] مدفعيّةٍ و بندقيّةٍ تتفوق كثيراً على الأسلحة المتوفرة في أيدي اليعاربة . ونظراً لإصرارِ اليعاربة على تحرير مسقط ، قاموا بمحاصرة البرتغاليين غير مبالين بالثمن الذي سيدفعونه و استمر القتالُ و الحصارُ حوالي شهر [7] قبل أن تحدث معركة التحرير الحاسمة التي كان اليعاربة يَتَحَيَّنُونَ فُرصتَها المناسبة ، تلك الفرصة التي واتتهم عندما اتصل بهم أحد الهنود العاملين مع البرتغاليين ، و تعاون معهم في تدبيرِ مؤامرة الهجوم التي انتهت بالنصر الحاسم ،وذلك بِسَبَبِ ماتَرَدَّدَ من أقوال حول طمع القائد البرتغالي في الزواج من ابنته رغماً عنه [8] " و سواءٌ صحّت هذه القصة أم كانت مجردَ وَهْمٍ من خيال الرواة فإنّ المؤكَّدَ أنّ اليعاربة كانوا عازمين على تحرير

---

(١) دليل الخليج . لوريمر . جـ ٢ ص ٦٣٧ . ومعركة تحرير مسقط . غانم محمد رميض . ص ٨ .
(٢) سيرة الإمام ناصر بن مرشد . عبد الله بن خلفان . ص ٨٧ . وتحفة الأعيان . السالمي . جـ ٢ ص ٦٢ وصراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان . ص ١٥٩
(٣) تحفة الأعيان . السالمي . جـ ٢ ص ٦٣ . والشعاع الشائع باللمعان . ابن زريق . ص ٢٠١
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٣؛ (٥) المرجع السابق ،ص ٢٥٢ .
(٦) المرجع السابق ،ص ٢٥٢-٢٥٣ . (٧) المقاومة العربية . سليم التكريتي . ص ٥٧
(٨) لتفاصيل هذه القصة انظر: السالمي ،تحفة الأعيان ،جـ٢ص ٦٦-٦٧ الشعاع ص ٢٥٣-٢٥٤ ، و الفتح المبين ص ٢٩ .

مدينتهم تماماً وخاصة بعد أن وَلِيَ سلطانُ بنُ سيف ذو الخبرة الواسعة بحرب البرتغاليين من قبل . ولم يكن رجالُه أقلَّ منه حماسةً، تلك الحماسةُ التي أوشكتْ أن تَبْلُغَ حدَّ الاندفاع والتمرد ،والتي اضطرت الإمام إلى إصدار أوامره بالهجوم على البرتغاليين بالرغم من اقتراب الليل [1] . وتَسَلَّلَ اليعاربةُ ليلاً إلى داخل التحصينات البرتغالية حيث استولوا على أحد الحصون، واضطروا القائد البرتغالي على الاحتماء بالقلعة، حيث انعزل عن باقي قواته وعن مخازن الذخيرة، ومن ثم لم يجد بُدّاً من التسليم في اليوم التالي، ٢٣ يناير سنة ١٦٥٠م-١٠٦٠هـ [2]، وذلك بشرطِ أن ينقلَ اليعاربةُ بقايا قواته إلى الهند [3]، حيث عاد حوالى سبعمائة رجل من قوام القوة البرتغالية إلى ديو [4] وظل في مسقط ما بين ستين وسبعين رجلاً آثروا البقاء واعتناق الإسلام [5] واستولى اليعاربة على بارجتين برتغاليين [6] أُدخلتا - بلا شك - في الأسطول العماني فيما بعد، كما قاموا بتحرير حصن خصب [7] ثُمَّ تتبعوا بقايا التحصينات البرتغالية فى السواحل العمانية مثل تحصيناتهم في الديول ودمره [8] . وهكذا جَلا البرتغاليون عن عُمان وفقدوا سيطرتهم على السواحل العربية فُقْدَاناً تاماً، وكان ذلك بدايةً لحركة الجهادِ الشاملةِ التي قادها اليعاربةُ فى سواحل كلٍّ من الهند وشرق أفريقيا . [9]

أضعفَ تحريرُ مسقط الروحَ المعنويَّةَ لدى البرتغاليين، ووجَّه صَفْعَةً قويةً للكبرياء والسيادة البرتغالية في الشرق [10]، وكان عليهم أن يحاولوا استرداد هيبتهم وسمعتهم [11]، ولكنهم لم يردوا بمحاولة إعادة الاستيلاء عليها مباشرة سواء من لشبونة أم من جوا ،بل حاول الدوم فيليب أنْ يُعَوِّض الخسارة البرتغالية بطريقةٍ أُخرى، عندما

(١) الصراع العماني البرتغالي . صالح العابد . د٠ جا ص ١٣٠-١٣١
(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢٢ - ١٢٣
(٣) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢٥٥ . والفتح المبين . ابن زريق . ص ٢٩٠
(٤) دليل الخليج . لوريمر . جـ ٢ ص ٦٢٦
(٥) Hamilton, op. cit, vol, I, p 44 (٦) Ibid, Loc, cit.
(٧)
(٨) الشعاع . ابن زريق . ص ٢٥٦ . والفتح المبين . ص ٢٠٩ . وتحفة الأعيان جـ ٢ ص ٥
(٩) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢٢ (١٠)
(١١) المرجع السابق،

أرسل أسطولاً صغيراً مكوّناً من سبع سفن لمحاولة استعادة النفوذ البرتغالي في هرمز والتعاون مع الصفويين ضد اليعاربة ، و وصل الأسطول بندركنج ثم أبحر للقطيف حيث التحم مع أسطول يعربي في معركة خاسرة فقد فيها إحدى السفن السبعة بالإضافة إلى ستة سفن تجارية أخرى . وعندئذ أرسل نائب الملك أسطولاً أقوى وصل الخليج في مارس سنة ١٦٥٠م والتقى في مياه مسقط مع أسطول يعربي ولكنه لم يقم بأي محاولة لاسترداد مسقط [١] . وتكررت المحاولة عدة مرات أخرى ، سواء لاسترداد مسقط أو اتخاذ موانى خليجية بديلة ، ولكن هذه المحاولات التي تمت في السنوات ١٦٥٢م-١٦٥٣م و١٦٦٦-١٦٧٠م و ١٧١٦ و١٧١٨م لم تؤدّ إلى نتيجة تُذكر . [٢] وهكذا لم يبق لهم أيّ مركز في الخليج سوى كنج والتي ضاعت منهم في النهاية أيضا ، وبدأ نفوذهم في الهند والشرق عموما يَضْعُفُ أمام المنافسة الشديدة من الإنجليز والهولنديين من جهة ، وأمام المقاومة الإسلامية المتزايدة من جهة أخرى . [٣]

جهود اليعاربة في مقاومة الاستعمار البرتغالي في السواحل الإسلامية بالهند :-

كان على اليعاربة بعد تحرير مسقط أن يعملوا بجدٍّ على جبهتين إذا ما أرادوا القيام بدورٍ فاعلٍ في حركةِ الصراع الدولي الدائر في مياه المحيط الهندي ، والذي كان له أكبر الأثر على الدول والأقاليم الإسلامية المحيطة به . وهكذا حصَّنَ اليعاربة جبهتهم الداخلية بقدر المستطاع وحصنوا موانئهم الساحلية وهو الأمر الذي حفظها وعزّزَ قدرتها على مقاومة المحاولات البرتغالية المتكررة الهادفة لاستعادة النفوذ البرتغالي على منطقة الخليج العربي . وكذلك كان على اليعاربة إعدادُ قوةٍ بحرية قوية موازنة لقوة العدو - إنْ لم تكن متفوقةً عليها ، وذلك لتأمينِ سواحلِهِم من الهجماتِ التدميريةِ وصيانةِ تجارةِ البلادِ [٤]

---

(١) التنافس الدولي . الخايب ص ١٢٤

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

لوريمر جـ٢ ص ٦٣٧ .

(٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢٣

(٤) معركة تحرير مسقط . غانم محمد رميض ص ٢١٢

الخارجية من جهة ، و لمدّ يد العون لإخوانهم المسلمين في الهند و شرق أفريقيا لمساعدتهم على مواجهة التحديات الاستعمارية البرتغالية من جهة أخرى .

و لعل ما يعني الباحث هنا هو الأسطول اليعربي الذي تَطَوَّرَ بسرعة فائقة ، ليقف بعد نصف قرن على قدم المساواة مع أكبر و أقوى الأساطيل العالمية في المحيط الهندي آنذاك . و ليس من شك في أن الأسطولَ اليعربيَّ تكون أساساً من مصدرين رئيسين ، أولهما محليٌّ قوامه ما كان يتوفر لدى العمانيين من سفن محلية تعتمد الطريقةَ العربيَّةَ أو الشرقيَّةَ عموماً في عملية البناء و التجهيز ، و ثانيهما أجنبي غربي قوامُه ما استولى عليه اليعاربةُ من سفن برتغالية [1] في كلٍّ من مسقط و القطيف و غيرهما ، و لابدَّ أنهم قد استفادوا من هذا المصدر في تطوير بناء سفنهم و في كيفية إعدادها و تجهيزها لتصبح قادرةً على خوض المعارك الشرسة في أعالي البحار ، و مما هو جدير بالذكر هنا أنّ الانجليز قد وجدوا في القوة اليعربية خيرَ معين على مقاومة النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي ، و ذلك بعد أنْ جرّبوا الدولةَ الصفويَّةَ ومُنُوا معها بفشل ذريع ، وبعد أن أصبح الصفويونَ يَمُدُّونَ حبالَ الودِّ مع الاستعمار البرتغالي في المحيط الهندي عموماً و مياه الخليج العربي على وجه الخصوص للتعاون و القضاء على النفوذ اليعربي المتزايد . و في هذا الإطار قَدَّمَ الانجليزُ في بومباى للأسطول اليعربي الذخيرةَ و المؤنَ و الأخشاب اللازمةَ لبناء السفن الحربية [2] ، و لا شك أن اليعاربة قد أفادوا من هذه التسهيلات لتحقيق مكاسبَ سياسية و حربية على الصعيدين اليعربي و الإسلامي في المقام الأول، في حين أفاد الإنجليز و الهولنديونَ من ضعف النفوذ البرتغالي في ذات الوقت ، وقد ترتب على هذا نتائجُ خطيرةٌ سنتناولُ طرفاً منها فيما بعد .

و لسنا بحاجة إلى تتبع تطور الأسطول اليعربي ، بل يكفي أنْ نُذَكِّرَ أنّ اليعاربةَ

(١) التهديد العماني . لورنس لوكهارت ، مجلة الخليج العربي عدد ١٠ ، ص ٩٠

(٢) لمزيد من التفصيل عن تكوين الأسطول العماني انظر : دولة اليعاربة ، عائشة السيار ، ص ٦٥ وما بعدها

قد أصبحوا عند مطلع القرن الثامن عشر قوةً حربيّةً مرهوبةَ الجانب سواء من البرتغاليين أم مِنْ غيرهم من الأوربيين [(١)] ، وأصبح من القوة والنفوذ في الجزء الغربي من المحيط الهندي إلى الحد الذي دفع بعضَ القوى البحرية الكبيرة إلى الاعتماد عليه لمقاومة النفوذ البرتغالي[(٢)].
وقد سجل بعض شهود العيان وصفاً لبعض قطع الأسطول اليعربي في الربع الأول من القرن الثامن عشر ، ومن ذلك ما ذكره شالزلوكير الذي زار مسقط سنة ١٧٠٦م وذكر أنه رأى في الميناء أربعَ عشرةَ سفينةً حربيةً ما بين كبيرةٍ ومتوسطة ، وكانتْ إحداهـا تحمل نحواً من سبعين مدفعاً ، وليس بينها من تحمل أقل من عشرين مدفعاً [(٣)] ، ومن ذلك أيضاً ، ما ذكره ألكسندر هاملتون الذى زار المنطقة بعد لوكير بقليل ، حيث قال إن الأسطول اليعربيّ كان يضم اثنتين وعشرين سفينة ما بين كبيرة ومتوسطة ، وكانت إحدها تحمل أربعاً وسبعين مدفعاً ، في حين كانت اثنتان تحملان ستينَ مدفعاً ، وكانت واحدةٌ تحملُ خمسينَ مدفعاً ، بينما حملت ثماني عشرةَ سفينةً أخرى ما بين اثني عشر واثنين وثلاثين مدفعاً ، فضلاً عن عددٍ من السفن الصغيرة التي كانت تحمل ما بين ثلاث وأربع مدافع . [(٤)] أما عن مدينة مسقط فقد ذكر هاملتون نفسه أنه قد رُكِّبَ على أسوارِها نحوَ ستينَ مدفعاً ، وأنّها قد أحيطتْ بعددٍ من الحصون – قُدِّر بنحو عشرة حصون – أقيمت على التلال المجاورة المشرفة على حركة الميناء ومداخله ، والتي ضمنتْ للمدينةِ قَدَراً كافياً من الحصانة [(٥)] كمركز للنشاط اليعربي الحربي .

يذهب بعضُ الباحثين إلى أنّ الإمام سلطان بن سيف قد بدأ جهاده ضد البرتغاليين في غرب الهند وشرق أفريقيا قبل تحرير مسقط [(٦)] ، وهذا مالا تؤيده وقائع التاريخ ولا منطق

---

(١) زنجبار . صلاح العقاد . د .وجمال قاسم . ص ٢١
(٢) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د . ص ٨٠ . والتهديد العماني . لوكهارت . ص
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٤) Hamilton, op. cit, vol, I, p57
(٥) تحفة الأعيان . السالمي . جـ ٢ ص ١٠٠
(٦) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ٧٢

العقل ، إذ ليس من المعقول أن يجاهد اليعاربة خارج أراضيهم قبل أنْ يكملوا تحرير سواحلهم وموانئهم الهامة من بقايا البرتغاليين الذين يشكّلون تهديداً مباشراً لقوتهم البحرية الوليدة حديثاً والتي كانت بحاجةٍ لبعض الوقتِ حتى يشتدّ ساعدُها وتَقْوَى على خوض الحرب في أعالي البحار .

بدأ اليعاربة حملاتهم على البرتغاليين في السواحل الهندية سنة ١٦٥٥م-١٠٦٥هـ بحملةٍ وجهها الإمام سلطان بن سيف إلى بومباى تمكنت أنْ تلحقَ بالبرتغاليين كثيراً من الخسائر وأنْ تغنم كثيراً من الغنائم .[١] ويبدو أنّ هذه الحملة قد أُعْقِبَتْ بفترةِ انقطاعٍ نظراً لانشغال اليعاربة بإعدادِ أسطولهم وتقويةِ جبهتهم الداخليةِ بالقضاء على الثورات والفتن التي تحدثها القبائل المعارضة ، فضلاً عن تخوّفهم من الصفويين الذين أخذوا في التعاون مع البرتغاليين لتهديد الدولة اليعربية على أرضها وفي سواحلها بطريقةٍ متكررة منذ تحرير مسقط سنة ١٦٥٠م-١٠٦٠هـ[٢] . وجدّدَ اليعاربةُ نشاطَهم سنة ١٦٦٩م-١٠٨٠هـ بمهاجمة جزيرتي قشم وهرمز اللتين تتبعان للدولة الصفوية .[٣] وربّما كان ذلك رسالةً تحذيرٍ مباشرةٍ للصفويين ، كان لابدّ من إرسالها قبل تجديد النشاط الحربي ضد البرتغاليين في السواحل الغربية للهند ، والذي بدأ سنة ١٦٧٠م-١٠٨١هـ عندما تمكّن الأسطول اليعربيّ من الوصول إلى سواحل الهند ومفاجأة القواتِ البرتغاليةِ في الجانب الغربي من جزيرة ديوليلاً حيث هاجموا المدينةَ وألجأوا البرتغاليين إلى الاحتماءِ بالقلاع بعد أنْ تكبدوا خسائرَ فادحةً مخلّفين وراءهم كثيراً من الغنائم . ولكنّ اليعاربة اضطروا إلى الانسحاب حين فاجأتهم سريةٌ برتغاليةٌ مكونةٌ من نحو أربعمائة جندي وهم يجمعون الغنائم[٤] ، والتي استفادوا منها في القيام ببعض المشاريع العمرانية مثل بناء قلعة نزوى[٥] . ولابدّ من القول إنّه لم يكن هدفُ اليعاربةِ جمع الغنائم- كما يصور

(١) Miles , op , cit , p 212

(٢) سبق بيان ذلك .

(٣) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ٧٢

(٤) انظر Miles , op . cit , p, 212

(٥) تحفة الأعيان . السالمي،جـ٢ ص٤٥ .

ذلك الباحثون الغربيون الذين انحازوا للبرتغاليين النصارى باسم الموضوعية [1] ـ بقدر ما كان هدفهم زعزعة الوجود البرتغالي في المحيط الهندي، والذي كان يَحْرِمُ دولتهم من مصدرٍ مهمٍّ من مصادرِ الدخل الناتجةِ عن المساهمةِ في حركة التجارةِ الدوليةِ بحُرِّيةٍ تامة .

ويلاحظ من هذه الحملة أنّ قوةَ الأسطول اليعربي قد تزايدت إلى الحدِّ الذي مكّنهم من مهاجمة البرتغاليين في أهم مراكزهم على سواحل الهند الغربية ، سواء من الناحية التجارية أم الحربية ، وأن الأسطول اليعربي أصبح يضمُّ في قواته عدداً كبيراً من الجنود إلى الحدّ الذي دفع أحد المؤرخين الغربيين إلى المبالغةِ وزعم أنّ خسائر اليعاربة البشرية في معركة ديوقد بلغت نحو ألفِ شهيد ، وأنّ اليعاربةَ لم يهدفوا من حملتهم تلك إلى السيطرةِ على ديو بقدرِ ما هدفوا إلى الإغارة عليها وزعزعة الوجود البرتغالي الحربي والتجاري فيها ، وهو الهدفُ الذي نجحوا في تحقيقه [2] إلى حدٍّ كبير .

واستمر اليعاربةُ في الجهاد ضد الجبهتين : الصفويةِ والبرتغاليةِ عدةَ سنواتٍ ، حيث قاموا بمحاصرة هرمز التابعة للصفويين حوالى ثلاثة شهور ، كما قاموا بالردّ على الأسطول البرتغالي الذي هاجم مسقط سنة ١٦٧٣م ـ ١٠٨٤هـ بمهاجمة أسطولٍ برتغالي آخر في نفس العام ، حيث ألحقوا به خسائرَ فادحةً ودمّروا بعض قِطَعِهِ [3] . ثم أعقبوا ذلك بمهاجمةِ مقرِّ البرتغاليين في باسين قرب بومباى سنة ١٦٧٤م ـ ١٠٨٥ هـ بقوة مكونة من ستمائة مقاتل . واستطاعت الحملة اليعربية أنْ تحقق أهدافها وتلحقَ بالبرتغاليين كثيراً من الخسائر . [4]

وبعد ذلك توقف النشاط الحربي اليعربي ضد البرتغاليين في سواحل الهند نحو

(١) انظر Dennes, op. cit, p 155 و Miles, op. cit, p 215
(٢) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ٧٣
(٣) Miles, op. cit, p 215
(٤) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ٧٤ - ٧٥

عقدين من الزمان ، انشغلوا خلالهما بالقضاء على الفتن الداخلية ، قبل أن يُعَاوِدوا نشاطهم الحربي ضد البرتغاليين في الساحل الغربي للهند بمهاجمة القوات البرتغالية في سورات حيث تكبدوا خسارة فادحةً ومُنُوا بهزيمةٍ ساحقة سنة ١٦٩٣م-١١٠٤هـ .(١) ويبدو أنّ هذه الهزيمة لا تتناسب مع القوة البحرية اليعربية التي كانت قد نَمَتْ بشكلٍ كبير ، ولم تُؤثِّر في أدائها القوي سواء على الجبهة الشرقية في الهند أم على الجبهة الغربية في سواحل أفريقيا الشرقية ، ودليل ذلك أنّ اليعاربةَ ضاعفوا بعد هذه الحملة من نشاطهم ، فهاجموا سنة ١٦٩٤م-١١٠٥هـ القوات البرتغالية في خليج كامباى على ساحل كجرات ، كما قاموا بمهاجمة البرتغاليين في جزيرة سالست شمال بومباى وأَسَروا عدداً كبيراً من الأسرى . كذلك هاجموا في العام التالي منطقتي بارسلور ومانجالور على ساحل بومباى نفسها حيث استولوا عليها كما استولوا على سالست من قبل ، وبذلك أصبحت معظم سواحل بومباى تابعةً لنفوذهم ، ويبدو أنّ الأسطول اليعربيّ لم يتأثر من هذه الحملةِ بدليلِ أنّه هاجم في طريق عودته القوات البرتغالية في بندر كنج على الساحل الصفوي وألحقَ بالبرتغاليين – أيضاً – خسائر جسيمة .(٢)

وأخذ نشاط اليعاربةِ في سواحل الهند الغربية منذ ذلك الحين ، في الضعف ، وذلك بسبب تركيز نشاطهم في سواحل أفريقيا الشرقية ، وتزايد ضغوط القوى الدولية التي أخذَ نفوذُها يتزايد ، وأخذتْ في تحويل المكاسب اليعربيّة لصالحها الخاص . ففي سنة ١٦٩٨م-١١٠٩هـ هاجم أسطول يعربيٌّ مكونٌ من ثماني سفن حربيةٍ أسطولاً برتغالياً بالقرب من رأس الحد ، كان يقلُّ عنه في العدد كثيراً ولكنّه انهزم أمامه متكبداً كثيراً من الخسائر البشرية ، التي شملت القائد نفسه ، في حين لم يقتل من البرتغاليين إلا خمسة رجال . ولكن اليعاربة هاجموا ، في العام التالي ، بكفاءةٍ القوات البرتغالية في بيرسونا قرب بومباى حيث تمكنوا من هزيمتها وتعقبتها إلى أن احتمت بالقوات الإنجليزية التي وفرتْ لها الحماية رغمَ ما بين الإنجليز وبين اليعاربة من علاقاتٍ وديّةٍ كانت لا زالت قائمةً حتى ذلك الوقت . ومهما يكن من أمر فقد تمكّن اليعاربةُ في هذه الحملة من الاحتفاظ بسالست حيث

(١) انظر *Miles, op.cit, 218*
(٢) عمان عبر التاريخ . سالم السيابي . ص ٢٧٠

أبقوا فيها قوةً يعربيةً تقدّر بنحو ثلاثمائة مقاتل ، بهدف مراقبةِ التحركات البرتغاليـــة وزعزعـة الوجود البرتغالي في منطقة بومباى وغيرها من سواحل الهند الغربية . وقـد نجحت هذه الحامية في الاحتفاظ بسالست عندما حاول البرتغاليون معاودة الاستيلاء عليها(١).

وهاجم أسطول يعربي ، بعد ذلك أسطولاً برتغالياً قُبالة سورات سنة ١٧١٤م ـ ١١٢٥هـ ولكنه تراجعَ أمامه بعد أن فَقَدَ نحواً من ثمانٍ وعشرين شهيداً ، واتجـــه إلى كنج حيث فشل في إقناع حاكمها الصفوي بإنهاءِ وجود الوكالة التجارية البرتغالية فيهـا . وأمام ذلك استعاد البرتغاليون بعض قوتهم وثقتهم بأنفسهم ، وهاجموا السواحل الخليجية حيث التحم الأسطولُ البرتغاليُّ بأسطولٍ يعربيٍّ قرب كنج سنة ١٧١٩م ـ ١١٣٠هـ ، وألحقَ به هزيمـةً ساحقةً قَبْلَ أنْ يحاصر السواحل الخليجية العربية ويشتبك مع القوات اليعربيـــة عدَّةَ مراتٍ ويكبّدَها خسائرَ كبيرةً قبلَ أنْ يعودَ إلى كنج في أغسطس من نفس العام(٢) . وبعد ذلك تطوّر الصراعُ اليعربيُّ البرتغاليُّ لصالح اليعاربةِ ولكنّ هذا التطوُّر كان على الجبهـة الغربيَّةِ في سواحل شرق أفريقيا ، وذلك على النحو الذى ستوضحه الصفحاتُ التالية .

دور اليعاربة في مقاومة النفوذ البرتغالي في شرق أفريقيا :

لعب اليعاربةُ دوراً كبيراً في تحريرِ سواحلِ شرق أفريقيا من الاستعمار البرتغالي وقد برزّ هذا الدورُ منذُ وقتٍ مبكرٍ من قيام دولتهم . وإذا كانت ثوراتُ المواطنيين في سواحل شرق أفريقيا لم تكن تهدأ إلّا لتثورَ من جديد ، فإنّ اتصالهم بالمماليك ، ومِنْ بعدِهـم العثمانيين في مصـر ، وطلبهم التعاونَ معهم للقضاء على الوجود البرتغالي في تلـك السواحل ، يؤكدُ ـ بما لا يدعُ مجالاً للشكّ ـ وحدةَ الجهودِ الإسلامية وتآزرها لمواجهـة الأطماع البرتغالية ، كما يؤكدُ ـ أيضاً ـ ارتباط المواطنيين في سواحل شرق أفريقيـا بعجلة السياسـة الدولية ، وتطلعهم المستمر للتعاون مع أيّ قوة إسلامية من شأنهـا

---

(١) انظر Miles, op. cit, p. 221

(٢) Ibid, p, 223

أنْ تقفَ معهم ضدَّ الخطرِ البرتغالي الذي يهدِّدُ مستقبلَهم السياسي و الاقتصادي تهديداً مباشراً .

وما يعنينا ـ هنا ـ هو التأكيدُ على أنّ قيامَ دولةِ اليعاربةِ في الخليج العربي قد تركَ بصماتِه على تطلعات السكان وممارساتهم السياسية في شرق أفريقيا ، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ أنْ تزامنتْ مع قيامِ دولةِ اليعاربة ـ تقريباً ـ عودةُ يوسف بن أحمد بن أخ حاكم مالندي ، والذي تُوِّجَ ملكاً لممباسا بعدَ أنْ قام دعاةُ البرتغاليين في جوا بتلقينه أصول النصرانية [1] . ويبدو أنّ يوسف هذا لم يقتنع بالنصرانيَّة وأنّه ظلَّ على اعتناقه للإسلام ، فقدْ قامَ بعد تولّيه حكمَ ممباسا بعامٍ واحدٍ بثورةٍ عنيفةٍ على البرتغاليين قتلَ فيها جميع أفراد الجالية البرتغالية وخصّ القُسُسَ بانتقامه ، بالرغم منْ أنّه كان يدركُ عَدَمَ قدرتِهِ على مقاومةِ الأساطيل البرتغالية في ممباسا [2] . وليس من شكٍّ في أنّ قيام دولة اليعاربة وبدءهم في مقاومة البرتغاليين قد زرع في نفسه الأمل على القدرةِ بالقيام بدورٍ مماثل .

ويبدو أنّه أيقنَ ألّا قِبَل له بمقاومةِ الأسطول البرتغالي الذي ظهرَ في العام التالي سنة ١٦٣٢م ـ ١٠٤٢هـ ـ قُبالة شواطىء ممباسا ، فلجأ إلى دولة اليعاربة ، التي كانت في ذلك الحين تخوض حرباً ضروساً ضدّ المستعمرات البرتغالية في سواحل عمان . ولا بدَّ أنّ لهذا الاختيار مغزاه ، لأنّه كان يعبّرُ عن فكرةِ توحيد الجهود بين عرب عمان ومسلمي شرق أفريقيا لمكافحة الغزو البرتغالي . واستمر يوسف بن أحمد يهاجمُ القوات البرتغالية في شرق أفريقيا ، متخذاً من عمان قاعدةً لانطلاقه حتى توفي بعد ست سنوات من الغارات المتواصلة على البرتغاليين، أي سنة ١٦٣٨م ـ ١٠٤٨هـ . [3]

---

(١) زنجبار . صلاح العقاد . د . وجمال قاسم . ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

لم يكن يوسف بن أحمد لِيَقْدِرَ على الاستمرار في مقاومة البرتغاليين لولا استقبالُ اليعاربة له وترحيبُهم به ومَدُّهم له بما يحتاجه من المؤن والذخائر والسلاح ، وحسب اليعاربة أنهم جعلوا من شواطئهم قاعدةً آمنةً له ولقواته للانطلاق والمقاومة . ولعل الباحثَ لا يجاوزُ الحقيقةَ إذا زعَمَ أنَّ اليعاربةَ قد حرصوا على أنْ يخروا له سبلَ الحمايةِ، ويجعلوا من دولتهم غطاءً لتحركاته الحربية ، لأنَّهم تطلعوا لأنْ يلعبوا دوراً مباشراً في مقاومة الوجود البرتغالي خارج مياههم الإقليمية منذ وقت مبكر.

وإذا كان اليعاربةُ قد قاوموا البرتغاليين في شرق أفريقيا ، في ثورة يوسف بن أحمد بشكلٍ غيرِ مباشر فإنّ تحريرَهم لمسقطَ وكافةِ الشواطئ العمانية قد جعلهم يقفون وجهاً لوجهٍ أمام البرتغاليين في مياه المحيط الهندي . ومما يذكرُ أنّ مقاومة اليعاربة المباشرة للبرتغاليين في شرق أفريقيا قد سبقتْ دورَهم في غرب المحيط الهندي ببضع سنوات. لقد أظهر اليعاربةُ مقدرةً فائقة في قتال البرتغاليين في مسقط ، مما حمل سكان شرق أفريقيا على الاعتراف بالولاء الفعلي لهم بصورة أكبر مما كان عليه قبل سنة ١٦٤٨م-١٠٥٨هـ [١] . ومما ساعد على اتخاذهم لهذا الموقف أنّ قبائل الجالا كانت قد حولت مالندى ، التي طالما وقفت مع البرتغاليين وناصرتهم ضدّ أبناء جلدتها ، إلى كومةٍ من الأطلال ، وليس من شك في أنّ ذلك الأمر قد مَهَّدَ لليعاربة سبلَ النصرِ على البرتغاليين في سواحل شرق أفريقيا [٢] ، كيف لا وقد فَقَدَ البرتغاليون أهمَّ قاعدةٍ لهم هناك بعد موزمبيق .

وما أنْ علمَ سكان شرق أفريقيا بانتصار إخوانهم في عمان ، حتى تفتّقت آمالهم بنيل الحرية [٣] والعودة إلى الحياة الحرة الكريمة ، وبعث حكامُ بمبا وزنجبار وباتا وغيرهم إلى الإمام سلطان بن سيف طالبين منه العونَ والنجدةَ لمقاومة البرتغاليين [٤] . ووجدت

(١) تاريخ أفريقيا - جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٨

(٢) الإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ص ٥٤ - ٥٥

(٣) انظر Miles, op. cit, p. 222

(٤) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٩٢ . والاستعمار البرتغالي جمال زكريا قاسم . ص ٨٠ . وقد ذكرا أنّ تحرير مسقط تم سنة ١٦٥٨م ، وهو خطأ لابد أن يكون أحدهما ورثه عن الآخر والصحيح أن تحرير مسقط قد تم قبل ذلك بنحو تسع سنوات .

هذه النداءات صدىً طيباً لدى الإمام سلطان بن سيف فَبَذَلَ قُصارىٰ جهدَه في مساعدتهم[1] رغم أنّ قواته كانت قد خرجتْ تواً من معركة مسقط ، ولكن يبدو أنّ انتصار اليعاربة في مسقط قد رَفَعَ من روحهم المعنوية بشكل كبير إلى الحد الذي جعلهم يندفعون مجاهدين ضد البرتغاليين شرقاً وغرباً في حربٍ مريرةٍ استمرت ثمانية عقود من السنين تقريباً . وقد شكّل اتصالُ سكان شرق أفريقيا باليعاربة واستجابتهم لهم تطوراً جديداً في تاريخ العلاقات بين الطرفين ، إذ أعقبَ تحريرَ مسقط مباشرةً ظهورُ الأسطول اليعربي قُبالةَ سواحل أفريقيا الشرقية[2] ، في الوقت الذي ثار فيه الساحل الأفريقي الشرقي كله ، وبذلك شكّل الأسطول اليعربي حمايةً بحريةً ضد الأساطيل البرتغالية ، وساهمَ في رفعِ الروحِ المعنويةِ والقتاليةِ لدى السكان .

أما أُولىٰ الحملات اليعربية على البرتغاليين في شرق أفريقيا فكانت سنة ١٦٥٢م – ١٠٦٢هـ[3] ، عندما أرسل اليعاربةُ أسطولاً صغيراً هاجمَ القوات البرتغالية في زنجبار وقتل عدداً من أفراد الحامية البرتغالية بما فيهم القائد نفسه ، كما هاجموا البرتغاليين في باتا ، وأخذوا في حملتهم عدداً من الأسرى بعد تدمير التحصينات البرتغالية . وقد شجّع ذلك الوطنيين على مواصلة الثورة .[4] وبذلك يمكن القول إنّ سنة ١٦٥٢م – ١٠٦٢هـ قد شكّلت نقطةً فاصلةً في تاريخ السيطرة البرتغالية على شرق أفريقيا[5] ، حيث دخلَ في حلبةِ الصراع عنصرٌ جديدٌ هو القوةُ اليعربيةُ التي حرصتْ على مهاجمة المراكز التجارية البرتغالية بصورة شبه دورية ، وأخذت تمارس التجارة ، وتُحَمِّلُ سفنَها رغماً عن البرتغاليين[6] الذين طالما احتكروا تلك التجارة لأنفسهم . ورد البرتغاليون على هذه الحملة بأسطول هاجم زنجبار وباتا وبمبا وحرّرَ أسرى البرتغاليين ، وأذاق السكان

(١) دولة اليعاربة . السيابي . ص ٩٥
(٢) زنجبار . صلاح العقاد . د . وجمال زكريا قاسم . ص ٣٠
(٣) الصراع البحرى العماني البرتغالي . غانم رميض . مج٢ ص ٢٠٦
(٤) البرتغاليون في شرق أفريقيا . عبد الرزاق علي عثمان ج ٢ ص ١٠٥
(٥) الإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ص ٥٥
(٦) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . ص ٤٢

ألواناً من العذاب والتنكيل ،بسبب تعاونهم مع اليعاربة ، ولذلك عاود الأهالي طلب النجدة من اليعاربة (١) ، فساند الإمامُ سلطان سنة ١٦٥٢-١٠٦٣هـ حكام بمبا وزنجبار وأوتوندو في الثورة ضد البرتغاليين (٢) . ولذلك استطاع البرتغاليون استعادة زنجبار في حين ظلت باتا وبمبا تشكلان مركزين للمقاومة ضد البرتغاليين في شرق أفريقيا (٣)

ويكتنفُ المرحلة التالية من تاريخ الصراع اليعربي البرتغالي في سواحل شرق أفريقيا ،كثيراً من الاضطراب والغموض نظراً لاختلاف الكتاب والمؤرخين حول تاريخ الحملة اليعربية وحول الأعمال التي قامت بها (٤) . ولكن الباحث - مع ذلك - يستطيع أنْ يوفِّقَ بينها على النحو التالي : كان بعض سكان ممباسا قد طلب من الإمام سلطان ابن سيف أن يعينهم على تحرير مدينتهم ، فأرسل الإمام سنة ١٦٦٠م-١٠٧١هـ حملةً يعربية قوامها ثمانمائة رجل على متن أربع بوارج ، وقد هاجمت القوة اليعربية القوات البرتغالية في فازا وباتا واستولت على المدينتين ، ثم توجهت الحملةُ بمساندة الباجون بقيادة سلطان باتا إلى ممباسا حيث وصلتها في فبراير سنة ١٦٦١م- ١٠٧٢هـ ، حيث سيطرت على المدينة دون صعوبة ، ولكنّها لم تحاول مهاجمة حصن عيسى (٥) ، رغم أنّها فرضت عليه الحصار (٦) . واضطر الأسطول اليعربي أنْ يبحر عائداً لمواجهة الفتن الداخلية في عمان (٧) ، بعد حوالي ثلاثة أشهر وقد بلغ عددُ سفنه إحدى وعشرين سفينة من بينها ثلاث سفن برتغالية كانت قد أُخِذَت كغنيمة . وكان الأسطول اليعربي قد هاجم القوات البرتغالية في بمبا وزنجبار ، حيث قامت السفن اليعربية بتحريرها وإعلان تبعيَّتِها لعمان (٨) . وقام الإمام سلطان بتعيين محمد بن مبارك حاكماً عاماً للممتلكات اليعربية في تلك الجهات (٩) .وبعد رحيل الأسطول اليعربي عاود البرتغاليون السيطرة

---

(١) البرتغاليون في شرق أفريقيا . عبد الرزاق علي عثمان . حـ ٢ ص ١٠٥
(٢) الإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ص ٥٥
(٣)
(٤) انظر على سبيل المثال : الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم . د. ص ٨٣ والبرتغاليون في شرق أفريقيا . عبد الرزاق علي عثمان . ص ١٠٥
(٦) الاسلام في شرق أفريقيا . ص ٥٥ .
(٧) دولة اليعاربة . السيار . د . ص ٩٦
(٨) الاستعمار البرتغالي . جمال زكريا قاسم . ص ٨٣
(٩) البرتغاليون في شرق أفريقيا . عبد الرزاق علي عثمان . ص ٥٥

على ممباسا حيث ولّوا عليها حاكماً مسلماً هو مهنّا أنبو، وذلك لتهدئة نفوس الأهلين، ولكنّهم قاموا بالتنكيل بكل العناصر التي أبدَت تعاوناً مع اليعاربة. وقد كان ذلك سبباً في زيادة العداء وكثرة الثورات على طول سواحل أفريقيا الشرقية. (١)

واستهل بلعرب بن سلطان (١٦٦٨-١٦٩٢م-١٠٧٩-١١٠٣هـ) حياته السياسية في شرق أفريقيا سنة ١٦٦٩م-١٠٨٠هـ. بإرسال أسطول عماني مكون من ثمان وعشرين سفينة حربية، اجتاح سواحل شرق أفريقيا وهاجم التحصينات البرتغالية في ممباسا وموزمبيق مستغلاً الفتن والقلاقل التي كانت تدور حول نهر الزمبيزي، ولكنّه عاد إلى مسقط دون أن يحقّقَ أهدافاً ملموسة (٢). ولكنّ تسلسلَ الأحداث يؤكّدُ أنه نجح في تشجيع السكان على الثورة والخروج عن التبعيّة البرتغالية، إذ نجدُ نائب الملك في الهند بيدرو دالميدا يضطر بعد ذلك بتسع سنوات إلى قيادة حملة برتغالية كبرى لتعزيز الوجود البرتغالي في سواحل شرق أفريقيا، حيث توجّه إلى موزمبيق وتزوّدَ بالمؤن والذخيرة، ثم قام بمهاجمة باتا واستولى عليها بمساندة بعض العناصر من فازا، وبعد ذلك استولى على سيو ولامو وماندا حيث ارتكبت قواته أبشع الجرائم ضد المسلمين، وقتلت حكامَ المدن المذكورة ووجهاءها قبل أن تُعمِلَ فيها مختلف ألوان السلب والنهب (٣). وقبل أن يتمكن نائب الملك من الرحيل بأسلابه فاجأه أسطولٌ يعربيٌّ مكوّنٌ من أربع سفن واضطره إلى الرحيل مخلّفاً وراءه معظمَ ما جمعه من أسلابٍ وغنائم. (٤)

وأرسل البرتغاليون سنة ١٦٨٦م-١٠٩٧هـ قوة برتغالية للسيطرة على باتا، ولكنّها فشلت في ذلك، فأرسل البرتغاليون قوة أخرى في العام التالي بقيادة حاكم ممباسا البرتغالي، ومعاونة حاكم فازا المتعاون مع البرتغاليين منذ أمدٍ ليس بقصير، وتمكنت الحملة هذه المرة من احتلالِ المدينة وأسرِ حاكمها حيث أُرسل مع كبار قادته ورجاله إلى جوا وأُجْبِرَ على

(١) Copland, op. cit, p, 66
(٢) دولة اليعاربة. عائشة السيار. د. ص ٩٧
(٣) البرتغاليون في شرق أفريقيا. عبد الرزاق علي عثمان. ص ١٥٦
(٤) انظر: دولة اليعاربة. السيار. د. ص٩٨

التعهّدِ بطرد اليعاربة وعدم التعاون معهم ، وأن يبنيَ قلعتين لإقامة القوات البرتغالية في باتا بصفة دائمة ، ومع ذلك لم يرَ الاتفاقُ النورَ نظراً لقدوم قوةٍ بحريّة من سبعمائة رجل استطاعت أن تحرر باتا وتطرد البرتغاليين منها [١] . أما حاكمها ورجاله فقد بقوا في أسر البرتغاليين في جوا إلى أنْ قُتِلوا في ثورة على الحراس في العام التالي، أي سنة ١٦٨٨م ـ ١٠٩٩هـ [٢] .

وحرر اليعاربة سنة ١٦٩٤م ـ ١١٠٥هـ زنجبار من أيدي البرتغاليين [٣]، ولكن يبدو أنّ البرتغاليين قد عادوا إليها بعد ذلك . وكانت قناعة اليعاربة تزداد يوماً بعد يوم بأنه طالما بقي البرتغاليون في ممباسا فإنّ أيّ محاولة لتحرير ساحل أفريقيا الشرقي أو بعض أجزاء منه ستبوء حتماً بالفشل . ومن هنا بدأ اليعاربة يخططون للقضاء على الوجود البرتغالي في شرق أفريقيا بمهاجمة موزمبيق ، وبدأت الخطوات التنفيذية سنة ١٦٩٦م ـ ١١٠٧هـ [٤] عندما أرسل الإمام سيف بن سلطان أسطولاً يعربياً من سبع سفن كبيرة وعددٍ من السفن الصغيرة وعلى متنه نحواً من ثلاثة آلاف رجل ، وذلك بهدف محاصرة ممباسا والقضاء على الحامية البرتغالية فيها ، وكان في حصن يسوع [٥] بممباسا في ذلك الحين نحو خمسين برتغالياً ، يضاف إليهم عددٌ يزيد على ذلك من أعوانهم المحليين والهنود . ورغم أنّ البرتغاليين كانوا قد احتاطوا للأمر ، وزوّدوا حصنهم بالمؤن والعتاد اللازم ، إلاّ أنّ احتلال اليعاربة للمدينة وحصارهم للحصن وعزله عن مراكز الإمداد قد أضعف قدرتهم على الصمود طويلاً فَقَدِمَ أسطول برتغالي مكوَّن من أربع سفن كبيرة وعلى متنه نحوا من سبعين وسبعمائة رجل ، واستطاع أن يوصل للحصن بعض الإمدادات والمؤن والرجال ، قبل أن يغادر شواطئ ممباسا ، وكان الحصار اليعربي لازال مستمراً ، فقلّت المؤن وأُصيبَ أفرادُ الحامية البرتغالية بالوباء ، مع بداية عام ١٦٩٧م ـ ١١٠٨هـ [٦] ، ولم ينتصف العام حتى كان عددّ

---

(١) الصراع البحري العماني البرتغالي . غانم رميان . ص ج٢ ، ز٢٠٩
(٢) Copland, op. cit, p 67
(٣) جهينة الأخبار . سعيد بن علي المغيري . ص ١٠٩
(٤) المرجع السابق . ص ١٠٦
(٥) كان البرتغاليون قد بنوه قبل ذلك بما يزيد عن مائة عام (١٥٩٣م) بهدف السيطرة المحكمة على الجزء الشمالي من شرق أفريقيا . انظر الإسلام في شرق أفريقيا . ص ٥٥ ، وموجز تاريخ أفريقيا . رونالد أوليفر . ص ١٢١
(٦) Copland, op. cit, p 68

كبيرٌ من أفراد الحامية قد مات ، أو تعرَّضَ للوباء ، ولم يبق في الحصن سوى القائد البرتغالي ومعه نحو عشرة أو اثني عشر رجلاً برتغالياً ومعهم الشيخ داود كبير أعوانهم في فازا، ومعه عددٌ من رجاله . الذين أُغرقوا عندما حاول الشيخ إجلاءهم . [(١)]

وهكذا اشتد الحصار — اليعربي لحصن عيسى في ممباسا ، وذاع أمره لدى البرتغاليين شرقاً وغرباً ، وأخذوا يشعرون بالقلق تجاه الحامية التي استبدَّ بها الحصارُ والمرض ، فَتَقدَمَ أسطولٌ برتغاليٌّ من ثلاث بوارج وبعض السفن الصغيرة في سبتمبر سنة ١٦٩٧م—١١٠٨هـ ولكنّه لم يحاول فكّ الحصار والوصول للحصن نظراً لقضاء قائدة بالطاعون [(٢)] ، وأمام الخوف من انتقال الوباء لم يجد بدّاً من الرحيل حيث اتجه إلى زنجبار التي وصلها في يناير من العام التالي ، وأبحر بعد ذلك بثلاثة أشهر إلى جوا تاركاً حصن عيسى في ممباسا لمصيرة [(٣)] . وهكذا اقتربت النهاية واقتحم اليعاربة الحصن في ديسمبر من نفس العام بعد حصارٍ استمرّ نحو ثلاثةٍ وثلاثين شهراً ، حيث استولوا عليه [(٤)] ووضعوا — بذلك نهايةً للتفوق البرتغالي في شرق افريقيا [(٥)] بعدَ أن استمروا أصحاب اليدِ الطولى لمدة تقاربُ قرنين من الزمان . وكان سقوط هذا الحصن أعظم انتصار [(٦)] حقّقَهُ اليعاربةُ على البرتغاليين في شرق أفريقيا حيث كان ذلك إرهاصاً أكيداً بنهاية الوجود البرتغالي في شرق أفريقيا [(٧)] من أقصى الشمال وحتى موزمبيق . وقد تحقّقَ ذلك عندما جمع الإمامُ سيفُ بنُ سلطان قواتـه ونظّم صفوفها في سواحل شرق أفريقيا ، وقاد حرباً شعْواءَ على القوات البرتغالية على طول الساحل سنة ١٦٩٩م—١١١٠هـ حتى تمكّنَ من تحرير مقديشيو وقسمايو ولامو ومالندي وباتا وبمبا وممباسا وزنجبار وكلوه [(٨)] ثم عيَّنَ ناصرَ بنَ عبد الله

---

(١) Coupland, op.cit, p 68 و Bathurst, op.cit, p 146

(٢) Ibid, Loc. cit

(٣) Bathurst, op.cit, p 147

(٤) Coupland, op.cit, p 68

(٥) Ibid, Loc. cit

(٦) الاستعمار البرتغالي . جمال زكريا قاسم . د. ص ٨٤

(٧) البرتغاليون في شرق أفريقيا . عبد الرزاق علي عثمان . ص ١٥٦

(٨) جهينة الأخبار . سعيد المغيري . ص ١٠٨ . والبرتغاليون . عبد الرزاق عثمان . ص ١٥٦ ، وأفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . ص ٢٦

حاكما يعربياً لمدينة ممباسا وجعل بقيّة مدن الأقليم تابعةً له (١) . ومما يُذكر أنّه كان قد هاجم موزمبيق ولكنّه لم يوفق في القضاء على الموجود البرتغالي فيها (٢) .

لم يكن سقوط ممباسا أمراً يمكن قبوله لدى البرتغاليين بسهولة فقاموا بعدّة محاولاتٍ فيما بين سنتي ١٦٩٩م-١١١٠هـ و ١٧١٤م-١١٢٦هـ لاستعادة نفوذهم على ممباسا وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية ، ولكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل (٣) ولم تحقق نجاحاً يذكر رغم أن البرتغاليين استطاعوا أن يقيموا علاقات سرية مع زنجبار (٤) وأن يستولوا موقّتاً على بعض المناطق الأخرى كَبَاتا و كلوه . (٥)

وكانت أبرز المحاولات البرتغالية لاستعادة السيطرة على ممباسا سنة ١٧٢٧م-١١٣٨هـ ، وكان تأخّرُ هذه المحاولة بسبب الصعاب التي كانت تواجههم في سواحل الهند سواء كان ذلك من الهندوس أو المغول أو الإنجليز أو غيرهم (٦)

وكان مما شجع البرتغاليين على هذه المحاولةِ الاضطراباتُ التي وقعتْ بين ممباسا وزنجبار من جهة ، وتورط عمان في الفتن الداخلية ، وفي حرب الصفويين من جهة أخرى . واستطاع البرتغاليون في هذه الحملة بقيادة لويس دي سامبو ، أن يستعيدوا السيطرة على ممباسا وبعض المدن الأخرى كَبَاتا وكلوه وغيرهما (٧) لمدّة قصيرةٍ لا تزيد عن ثمانية عشر شهراً ، ارتكبوا خلالها كثيراً من الجرائم ، فاستخدموا وجهاء ممباسا كعبيد ، وألقوا الحجارة على مُصَلّي المسلمين ، وطردوا الأهلين من بيوتهم واستباحوا النساء (٨) إلى غير ذلك .

ولم يحتمل الوطنيون في ممباسا كلّ هذه الجرائم فقاموا بثورة عارمة- مستغلّين انشغال البرتغاليين في بعض أعيادهم ، وخروج رجالهم إلى الكنائس- حيث هاجموا مع بعض أفراد وانيكا مَنْ يَلْقَوْنَه من البرتغاليين خارج الحصن ، وأعقبوا ذلك بحصارٍ للحصن استمرّ نحوَ

(١) Ross, op. cit., p 165
(٢) جهينة الأخبار . المغيرى . ص ١٠٨
(٣) لتفصيل ذلك انظر: الصراع البحرى العماني البرتغالي . غانم رميض . ص ٢١٠-٢١١
(٤) جهينة الأخبار . ص ٩٩ . (٥) الاستعمار البرتغالي . جمال قاسم د . ص ٨٤-٨٥
(٦) تم تفصيل ذلك في غير هذا الموضع .
(٧) الاستعمار البرتغالي . ص ٨٤ ويذكر أن ذلك سنة ١٦٣٧م وهو تاريخ متأخر
(٨) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٣٦

سبعة أشهر انتهت بالتسليم و رحيل البرتغاليين إلى موزمبيق (١) . و يُرجّح أنْ يكون أهالي ممباسا قد بعثوا أثناء حصارهم للحصن، أو قبيل ذلك بقليل، برُسُلٍ إلى اليعاربة لطلب النجدة و الحماية (٢) ، حيث استجاب لهم الإمام سيف بن سلطان و أرسل أسطولاً من ثلاث سفن بقيادة محمد بن سعيد المعمري الذي استولى على الحصن البرتغالي بصورةٍ نهائيةٍ، ثم أخضعَ زنجبار و وضعَ فيها حامية بحرية ، بينما اتصلت به بقيةُ مدن الساحل معلنةً التبعية لليعاربة طواعيةً (٣) . وأصبح محمد بن سعيد المعمري أول حاكم عام لليعاربة في ممباسا وسائر سواحل شرق أفريقيا (٤) حتى سوفالا جنوباً . ولكن الصراعات الحزبية المتصلة كانت من العلامات البارزة في السياسة العمانية ، كما كانت سبباً في الإقلال من النفوذ العماني في شرق أفريقيا ، حيث اكتفى حكامُ اليعاربة بتعيين وكلاء أو نوابٍ عنهم يتولّون رعاية مصالحهم و المحافظة عليها دون السعي وراء الحكم أو السيطرة المباشرة (٥) .

و هكذا انتهت محاولاتُ البرتغاليين لاسترداد المدن الواقعة إلى الشمال من سوفالا بتحقيق توازن القوى بين اليعاربة و بينهم في رأس دلجادو الواقع بين موزمبيق وكلوه ، حيث أمكن البرتغاليين حماية مصالحهم في الجنوب بفضل وجود البرازيرو وتجارة الرقيق التي كانت قد ازدهرت منذ عام ١٦٤٥م – ١٠٥٥هـ (٦) . أما اليعاربةُ فقد انحصر نفوذُهم في الشمال ، وبذا ظل إقليم موزمبيق تابعاً للبرتغاليين ومركزاً لنشاطهم التجاري و الاستعماري لفترةٍ طويلةٍ بعد مرحلة البحث .

---

(١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٣٧

(٢) يختلف الباحثون في تحديد وقت الاتصال و هل كان قبل تحرير ممباسا أم بعده، ولذلك ارتضينا (الصحيح) التوفيقية المدونة أعلاه .

(٣) المرجع السابق . نفس الصفحة . والبرتغاليون . عبد الرزاق عثمان ص ١٥٦

(٤) الإسلام في شرق أفريقيا . ترمنجهام ص ١٥٦ . والبرتغاليون في شرق أفريقيا . عبد الرزاق عثمان نفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦) تاريخ أفريقيا . جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٨

الباب الرابع

نتائج الاستعمار البرتغالي للسواحل الإسلامية في مياه المحيط الهندي

الفصل الأول

" أسباب انهيار الامبراطوريه البرتغاليه في المياة الاسلاميـــه الشرقيـــه "

—————

ترجع بدايه ضعف الامبراطورية البرتغالية عموماً إلى سنة ١٥٥٧ م — ٩٦٦ هـ ، حين توفي ملكُ البرتغال يوحنا الثالث وخَلَفه حفيده الطفل سباستيان الذي وَصِيَ عليه خالُـــه هنري الكاردينال ، وكان سباستيان شغوفاً بالحرب والمغامرة ، ولاسيما ضدّ المسلمـــين ، مدفوعاً بروحه الصليبيّة ، وظل كذلك إلى أن قُتِل في معركة القصر عام ١٥٧٨ م — ٩٨٧هـ وظل هنري الكاردينال — وهو في سن الشيخوخة — ملكاً متوجاً ، وكانت بلاد البرتغـــال قد أصابها الضعف بسبب نزوح كثيرٍ من البرتغاليين للخارج ، وما ترتَّبَ عليه من قِلَّـــةِ الطبقات المُنتجة في المجتمع ، وطمع القوى الأُوربيّة في ممتلكات الدولة وفي نفوذها السياسي والاقتصادي أيضاً [١] . وهكذا اجتاح فيليب الثاني ، ملكُ أُسبانيا ، البرتغالَ بعد مـــوت الكاردينال سنه ١٥٨٠ م — ٩٨٦ هـ ، وضمَّها إلى مملكته ، دونَ أنْ تَخْلُصَ له تماماً إلّا بعدَ سنه ١٥٩٥ م — ١٠٠٤ هـ عندما دخل عاصمتها لشبونة ، وأُصبحـــت المستعمـــرات البرتغالية في أفريقيا وحوض المحيط الهندي وأمريكا الجنوبية تابعة لدولته . [٢] ومهمـــا يكن من أمرٍ فإنَّ هناك اتفاقاً بين المؤرخين على اعتبار سنه ١٥٨٠ م — ٩٨٩ هـ نقطـــة التحول الحاسمة في تاريخ الامبراطورية البرتغالية آنذاك . وما يعنينا في هذا الأمر هو أنّـــه قد طَرَأ ضعفٌ تدريجيٌّ على القوة الاستعمارية البرتغالية منذ ذلك الحين [٣] ، إذ كانـــت أُسبانيا ، التي أصبحت الراعيةُ لمصالح البرتغال ، حكومةٌ مركزيةً غير رشيدةٍ ومنغمسةٍ فـــي صراعاتٍ داخل القارة الأوربية ، وهو الأمر الذي دفع الدول الأُوربيّة المعادية لها إلـــى الانقضاض على الامبراطورية البرتغالية باعتبارها جزءاً من الممتلكات الأسبانية [٤] .

---

(١) 1) Lodgee, Ahist of. M. Evrope, PP. 1o4-105

(٢) Ibid, PP, 1o4 - 1o5

(٣) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . ص ٢٣٩

(٤) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٩٦ - ٩٧

وهكذا يمكن القول إنّ المستعمرات البرتغالية في الشرق قد تعرّضت لضغطين سياسيين متقابلين: فمن جهةٍ تحكمت السياسة الخارجيّة الأسبانيّة في سياسة المستعمرات البرتغالية وفي مصيرها أيضاً ، ومن جهةٍ أخرى تعرضتْ تلك المستعمرات لضغط ومهاجمة القُوَى الأوربية المعادية لأسبانيا والمنافسة للبرتغال في تجارتها في ذات الوقت . وقد أثّر ذلك بشكل ملموس على الوجود البرتغالي في المحيط الهندي، والذي كان قد فَقَد دعم بلاده كُلّيّةً [١] . وترتَّبَ على ذلك ضعف التجارة البرتغالية ، ذلك الضعف الذي لم ينشأ عن إهمالٍ متعمّدٍ من أسبانيا لصالح البرتغال ، ولكنّ من جرّاء تَحَمُّل هذه الأخيرة لتَبِعَاتِ السياسةِ الأسبانيةِ الطموحةِ [٢] ، فَمِنَ المعروفِ أنّ أسبانيا كانت قد مَدَّتْ نفوذَها إلى أمريكا الوسطى والجنوبية ، وأنها لم تستطع – لذلك – أن تستمرّ في رعاية المستعمرات البرتغالية بنفس الكفاءة والقدرة التي كانت تَتِمُّ بها من قبل ، وذلك نظراً لقلّةِ القوى البشريّة ولِتَوَزّعِ الجهود السياسيّة والحربية ، واتساع نشاطها ، ولعدم رغبة أسبانيا أو تفرّغها لمنافسة قوى أوربيةَ أخرى بدأت تظهر في مياة المحيط الهندي وتستأثرُ بتجارتهِ ، ومع ذلك فإنّه يمكن القول إنّ الحاميات البرتغاليةَ في منطقة المحيط الهندي لم تتأثّر كثيراً – وخاصةً في مراحل الاحتلال الأسباني الأولى – لأنها ظلت تتلقى الإمدادات من البرتغال، الوطن الأم ، ومن قاعدتها الرئيسية في جَوَا [٢] ، ولعلّ في ذلك بعضَ ما يُفَسِّر التدرُّجَ البطيء في الانهيار الاستعماري البرتغالي في الشرق .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٢٥

(٢) علاقة ساحل عمان ببريطانيا ص ٤٠ – ٤١ قد جاءت تبعات البرتغال من جراء خضوعها للسياسة الخارجية الاسبانية ، ولولع أسبانيا بالحرب وفرضها الضرائب الباهظة على المستعمرات البرتغالية تبعا لذلك . دليل الخليج . لوريمر . ج ١ ص ٢٢ . والنفوذ البرتغالي . نوال الصيرفي . ص ١٨٧

(٣) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان . ص ١٤١

لقد استغل العثمانيون احتلال أسبانيا للبرتغال وانشغال هذه بالدفاع عن نفسها سنة ١٥٨٠ م ـ ٩٨٩ هـ ، حيث قاموا بعدة محاولات للانقضاض على الوجود البرتغالي في مياة المحيط الهندي ، حيث حاصر علي بك التحصينات البرتغالية في مسقط ، وكاد أنْ يتغلبَ عليها ولكنّ أسطولاً برتغالياً قدمَ من مسقطَ وأجبرَ العثمانيينَ على التراجع وفكّ الحصار قبل أن تظهر نتائجُ ملموسةٌ له (١) . وكذلك تَرَدَّدَ الأسطول العثمانيّ بعد ذلك بقليل على سواحل أفريقيا الشرقية محاولاً إثارتها ضد البرتغاليين ، ومدّ النفوذ العثمانيّ إليها ، ورغم أنه لاقى نجاحاً مُوَقّتاً فإنّ مجردَ قدوم أسطولٍ برتغالي قوي من جُوا كان كفيلاً بإعادة الوضع إلى ما كان عليه من قبل ، وبإلحاق الأذى بالأسطول العثماني وبالقُوَى الأفريقيةَ التي تعاونَتْ معه . وهكذا يمكن القول إنّ آثارَ الانهيار البرتغالي في أوربا لم تنعكس على الوجود البرتغالي في الشرق إلاّ بعد نهاية القرن السادس عشر ، وأن الحاميات البرتغاليةَ الشرقية ظلت تدافع عن النفوذ البرتغالي بثباتٍ أمام محاولاتِ الأتراك لإخراجهم من الخليج العربي ومن شرق أفريقيا ، حيث كان البرتغاليون لازالوا يَتَمَتَّعُون بقوةٍ حربيةٍ ، وبأسلحةٍ متفوقةٍ ، وبقدرةٍ على إرسال الأساطيل والنجدات البحرية ، فضلاً عن تَمَتّعِهم بمعاونةٍ أو مهادنة بعض القوى الشرقيّة المهمةَ سواءً في غرب المحيط الهندي كمالندي أم في شماله وشرقه كفارس . (٢)

---

(١) انظر ، صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٤١

(2) Sousa, op.cit- vol; 2, part 2 ,pp370-372

وشهد النصف الأول من القرن السابع عشر أخطر مراحل الانهيار الاستعماري البرتغالي في الشرق ، فبدءاً من عام ١٦٠٢ م ـ ١٠١١ هـ أخذ النفوذ البرتغالي في الضعف التدريجي ، حيث خسر البرتغاليون بعض مواقعهم في الخليج العربي باضطرارهم إلى التخلي عن البحرين في نفس العام، وتلا ذلك فقد انهم لمقرهم في سورات بالهند نهائياً سنه ١٦١٥ م ـ ١٠٢٢ هـ ، وفي نفس الوقت تقريباً فقدوا مركزهم التجاري في بندر عباس (٢) . وكانت اللطمه الأشد ، في ذلك الحين هي تحرير الصفويين لهرمز سنه ١٦٢٢ م ، وكانت معقل البرتغاليين الرئيسي في منطقة الخليج العربي وأهم قواعدهم الوسيطة التي كانت تسهم بفعالية في مختلف أنشطتهم وتحركاتهم بين الشرق والغرب . ولذا عدّ سقوطها بداية لدخول البرتغاليين في مرحلة انهيار نفوذهم الفعلي في منطقة الخليج العربي (٢) ، بل في مختلف مناطق المحيط الهندي تقريباً ، فبسقوط هرمز تضعضع مركز البرتغاليين كثيراً ، رغم أنهم ظلوا يحتفظون بالساحل المقابل لأكثر من ربع قرن ، فضلاً عن احتفاظهم بقشم على الساحل الشرقي نفسه (٣) .

والأمر المهمّ هو أنه قد ترتّب على سقوط هرمز عددٌ من المتغيّرات السياسية الدولية ، فمن جهة كان سقوطُ هرمزَ ضربةً قاضيةً لسمعة البرتغاليين وهيبتهم لم تُصبْ مستعمراتهم

---

(١) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٤٢

(٢) السياسة الإيرانية . علاء الدين نورس . ص ٨ - ٩

(٣) أحداث فاصلة . علي الغنام .

الشرقيةُ بمثلها مِن قبل ، وقد دَفَعَ ذلك بعضَ قادةِ المستعمرات البرتغالية إلى التمـــرّدِ ومحاولةِ الانفصال عن بلادهم ، وظهر تنافرٌ بين سياسة أسبانيا التي قبلتْ بالواقـــع الجديد ، وحاولت تنظيم علاقاتها مع بريطانيا وتمرير سياساتها الشرقية ، كما حاولت دفـع البرتغاليين إلى مصالحة القوى الأوربية في الشرق وخاصة بريطانيا وهولندا ، وهـــددت البرتغاليين بأنّه مالم ينصاعوا لمطالبها السياسية فإنّها ستشرف على المستعمرات البرتغالية وتُسيِّر دَفَّتها بنفسها ـ وكانت أسبانيا تأملُ أنْ تحصلَ على بعض المساعدات المالية وبعـــض السفن الحربية من انجلترا لقاءَ اتّباعها لتلك السياسة المعتدلة ـ ظهر تنافر بين هـــذه السياسة وسياسة مجلس رعاية المصالح البرتغالية القائم في لشبونة ، والذي أرادَ اتّبـــاع سياسةٍ مغايرةٍ تماماً ، رغم أنّ المناخَ السياسيّ لم يكن في صالحه على الإطلاق [١] ، وبناءً على ذلك أقام البرتغاليون عدداً من التحصينات الجديدة في مسقط ، و جَهَّزوها ببنـــاءٍ تجاريّ ملائم ، كما حاولوا استردادَ هرمزَ عدّةَ مراتٍ وخاصة في سنتي ١٦٢٣ م ـ ١٠٣٢ هـ و ١٦٢٥ م ـ ١٠٣٤ هـ ، ولكنهم فشلوا في ذلك [٢] .

وهكذا وجد البرتغاليونَ أنفسَهم مضطرين لاتّباع سياسةٍ شرقيةٍ أكثر اعتدالاً ودبلوماسيّـــةً تَخَفَّفوا من عدائهم للإنجليز والهولنديين ، وسَوّوا أوضاعهم مع الصفويين ، بالحصول علـــى حق إقامةِ وكالةٍ تجاريةٍ برتغاليةٍ في كنج [١] ، وأن يُسمحَ لهم بصيد اللؤلؤ في مصايـــد البحرين ، وأصبحَ من الواضح ـ بذلك ـ أنّ هدف البرتغاليين قد تَمَحْوَرَ إلـــى حدٍّ كبيـــرٍ حول تنشيط دورهم التجاري [٢] والاقتصادي بعدَ النَّكَسات السياسيـــة

---

(١) انظر Neiles , op. cit, p347

(٢) الشاه عباس الكبير . بديع جمعة . د . ص ٢٤٧

(2) Boxer. c. R. , The Portuguese Empire, B XII

(٤) تاريخ روابط إيران . نصر الله فلسفي . ص ٨٨

المتلاحقة التي مُنوا بها في الشرق . ومهما يكنْ من أمر فإنّه يمكنُ إجمالُ العوامل التي أدّت إلى تحوّل السياسة البرتغالية في عدّة نقاط، منها أنهم وجدوا أنّ مسقط لا تصلح لأنْ تكونَ بديلاً تجارياً وعسكرياً لهرمز (١)، وذلك لاتصالها باليابسة من جهة ولشدة عداء العرب لهم من جهة ثانية . وأنّ الصفويين قد وجهوا أنظارهم السياسية - بعد الاتفاق مع العثمانيين - إلى تقوية وجودهم ونفوذهم في الجنوب، وأنّهم لن يتراجعوا عن انتهاج سياستهم المتوازنة الهادفة إلى عدم الوقوع الاقتصادي في فلك إحدى القوى الأوربية منفردةً (٢) . وأن البرتغاليين كانوا قد فقدوا أهم مراكزهم في الهند أمام ضغط القوتين: الإنجليزية والهولندية، وأن أسبانيا لم تعد تُؤيّد الاحتكار التجاري البرتغالي بعدَ إعادة فتح أسواق أوربا وإعادة الحياة للطرق التقليدية ولبعض الطرق البرية المهمّة .

وكان البرتغاليون لا زالوا يتشبّثون ببقايا نفوذهم السياسي ويحاولون إحياءه وخاصة في منطقةَ الخليج العربي وبلاد فارس والهند، وكان فشلهم في كسب مزيدٍ من النفوذ لدى الصفويين سبباً في محاولتهم الاستيلاء على هرمز من جديد سنة ١٦٣١ م - ١٠٤٠ هـ، ولكنّهم فشلوا في ذلك بسبب تغيُّر الرياح السياسية في الخليج، إذ لم يُسمَح لأسطولهم بالتمركز في رأس الخيمة، ولم يكنْ في إمكانهم كسبُ ودّ شيوخ القبائل العربية ودفعهم إلى التحالف السياسي معهم (٣) .

---

١) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى العطيب . ص ٩٤

٢) الشاه عباس الكبير . بديع جمعة . د . ص ٢٤٨

٣) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٥١

وهكذا أخذت أقدامهم تتزلزل من مدن الخليج واحدةً بعد الأخرى ، ولم يمض عشر سنوات تقريباً حتى انحصر الوجود البرتغالي في الخليج العربي في مدينة مسقط وحدها .
ومما يُذكر في هذا المقام أيضاً أنّه منذ سنه ١٦٣١ م – ١٠٤٠ هـ المذكورة بدأت مكانة البرتغال في شرق أفريقيا تتناقص فسلطان ممباسا ومالندى وبمبا الصغير ، والذي لُقِّن المسيحيّة على يد رهبان أوغسطين ، قد عاد إلى الإسلام وقتل قائد المسحيين في قلعة المسيح مع غالبية أفراد حاميته . (١) وتبع ذلك ثورة أفريقية شرقية عارمة .

وبدأت المرحلة التالية من الانهيار البرتغالي بتحرير اليعاربة لمسقط وضواحيها سنة ١٦٥٠ م – ١٠٥٩ هـ ، حيث فَقَدَ البرتغاليون مركزهم العسكري في الخليج تماماً ، ولم يعد لهم أيةُ وجود عسكري يذكر خارج أساطيلهم ، ولم يكن ذلك سهلاً عليهم، ولذا حاولوا الحصول على مراكز جديدة في الخليج العربي ، فتطلّعوا إلى ساحل اللار الفارسي وساحل الإحساء العربي ، ولكنّهم لم يُحَقِّقوا نجاحاً يذكر . ورغم أن مركزهم التجاري في كنج كان قد ظلّ نَشِطاً فإنّه أخذ يَضْمَحِلُّ تدريجياً ، بعد أن توقفت السفن التجارية عن الرسوّ فيه بسبب كثرة اعتداءات البرتغاليين المسلحة على السفن التي لا تتاجر معهم في كنج ، وهو الأمر الذي دَفَعَ الوكالات التجارية الأوربيّة إلى إعلان مقاطعتها الاقتصادية لذلك المركز التجاري البرتغالي الوحيد (٢).

---

(١) البرتغال في أفريقيا . دني . ترجمة . جاد طه . ص ٦٦
(٢) العلاقات البرتغالية . مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٥٤

ودفع انتصار اليعاربة على البرتغاليين في مسقط ، أهل ممباسا على الاستنجاد بالحاكم اليعاربي ، الذي دخل بقواته الصاعد تومیدان الجهاد في شرق أفريقيا سنه ١٦٥٢ م — ١٠٦١ هـ ، واستطاع أن يهزم البرتغاليين في زنجبار ،كما استطاعت قواته أن تدخل ممباسا سنه ١٦٦٠ م — ١٠٦٩ هـ . ولم يكتف بذلك بل دخلت قواته سنه ١٦٦٩م — ١٠٧٨هـ موزمبيق . ورغم أنّ انتصاراته كانت موقتةً وغير حاسمةٍ فإنّها زعزعتْ النشاط العسكري والتجاري للبرتغاليين في المنطقة [(١)] ، ومهّدت السبيل أمام الضربة القاضية التي لطمت البرتغاليين في ممباسا وطردتهم من معظم أراضي الشرق الأفريقي ، بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، وكانت البرتغال في ذلك الوقت لا تملك السفن ولا القادة المحنّكين الشجعان القادرين على مواجهة الضغط الوطني المستمر في التصاعد والشدة [(٢)] .

وانحصر الوجود البرتغالي بشكلٍ رئيسيّ منذ بداية القرن الثامن عشر في جوا بسواحل الهند ، وفي منطقة موزمبيق التي كانوا قد حققوا اتصالاً قويّاً مع سكانها السود وخاصة في المناطق الداخلية التابعة لها [(٣)] ، حتى أصبحت سنه ١٧٠٠ م — ١١١١ هـ على درجةٍ عاليةٍ من النفوذ والأهمية [(٤)] ، ودخلت تحت سيطرتها المراكز السواحلية على طول الساحل حتى سوفالا ، التي هجرها البرتغاليون . وقلّ فيضُ التجارةِ عبر الجزيرة بدرجةٍ كبيرةٍ ، وبقيت مدينتا سينا وتيتي البرتغاليتين في عزلةٍ [(٥)] . وهكذا أصبح الوجود البرتغالي قليل الفاعليةَ والتأثير . ولعل من الضروريِ — هنا — أن نقف على العوامل التي ساهمت في انهيار الوجود البرتغالي في مياه المحيط الهندي بشيء من التفصيل الذي تتطلبه الدقةُ وأمانةُ العرض .

---

(١) (1) Coupland, op. cit, pp 58 - 66

(٢) البرتغال في أفريقيا . د.ت . ص ٦٦

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

* * *

كان عددُ سكان البرتغال في القرن السادس عشر لا يتجاوز مليون نسمةٍ [١] . ولم يزدْ عدد البرتغاليين في الشرق طوال فترة القرن السادس عشر المذكور عن عشرة آلاف رجل ، وإذا أُخِذَ بعين الاعتبار اتساعُ الامبراطورية البرتغالية وامتداد مستعمراتها على طول سواحل أفريقيا وآسيا تقريباً ، وكثرةُ القلاع والمواقع والحصون والسفن التي تطلَّبها ذلك ، بالإضافة إلى مايحتاجه المجال الحربي ومجالات الملاحة والتجارة والإدارة أمكن تصور مدى قصور القوى البشرية البرتغالية عن الوفاء بذلك وتلبيةِ الاحتياجات المطلوبة فعلياً . وقد كان لذلك القصور عدةُ نتائجَ خطيرةٍ [٢] ، فمن جهة اضطرَّت الإدارة البرتغالية مع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن الذي يليه إلى اتخاذ جنود برتغاليين لا يصلحون للقيام بأي عملٍ من الأعمال التي كانت تُنَاط بهم ، فهم في أغلب الأحيان غير مدربين ولا مؤهَّلين ، وكان من بينهم الخياطون والإسكافون والخدمُ وعمالُ الموانئ ، الذين التحقوا بالعمل دون إعداد ولا تدريب ، بل كثيراً ما جُمِعَ الرجالُ البرتغاليونَ من الشوارع والسجون والحقول لإرسالهم للمستعمرات البرتغالية في الشرق وكان من بينهم المرضى وضِعَافُ البِنْيَة [٣] ، وقد كان لكلِّ ذلك آثارُه السيِّئةُ على كفاءة ومقدرة القوة البحرية البرتغالية في ذلك الحين .

ونتج عن الخطيئة السابقة خطيئةٌ أخرى إذ التجأ البرتغاليون إلى الجنود المرتزقة والرقيق ، والعناصر المحليّة [٤] ، وخاصة من الأفارقة والهنود ،

---

١) زنجبار . صلاح العقاد . د . وجمال قاسم . د . ص ٣٥ . وصراع القوى . محمد عدنان مراد ص ١٢٥ والتنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٤٥

٢) نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية . عبد الأمير محمد أمين . ص ٦٩

٣) المرجع السابق . ص ١٨٧

٤) زنجبار . صلاح العقاد . د و جمال قاسم . د . ص ٣٥

ولم يكن لهؤلاء وأولئك نفس حماس البرتغاليين في القتال الذي كان يقاتل بهدف حماية امبراطوريته ، وزيادة مكاسبه الخاصة ، في الوقت الذي لم يكن للجنود الملفقين أيُّ هدف يستحقّ التضحيةَ من أجله (١) . لقد استخدمَ البرتغاليون الهنودَ ، ولمّا رفضَ المسلمون الهنودُ — وكانوا من أمهرِ الملاحين وأكثرهم كفاءة — التعاون مع البرتغاليين ، استعان هؤلاء بهنودٍ تنقصُهم الخبرةُ والكفاءةُ الملاحيّة ، مما أدّى إلى تدهورِ الخدماتِ على متنِ السفن البرتغالية ، وعجزها بالتالي عن مواجهة المخاطر الهائلة التي كانت تحيط بها . وتزايد استخدام البرتغاليين كذلك — وخاصة منذ أواخر القرن السادس عشر — للأوربيين من هولنديين وانجليز وإيطاليين وفرنسيين في مجالاتٍ إدارية مهمّة مما وفّر لهم فرصة الوقوف عن كثب على وضع البرتغاليين في الشرق ، والتعرف على نواحي الضعف والانحلال التي كانت الامبراطورية البرتغالية في الشرق تعاني منها . ومن هنا كان لتقاريرهم وأخبارهم دورٌ مهم في دفع دولهم إلى القدوم ومنافسة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندى ، بل إلى الإجهاز على امبراطوريتهم التجاريّة المنهكة (٢) في نهاية المطاف .

وقد قدِمَ البرتغاليون إلى الشرق — في الغالب — رجالاً دون نساء ، فكانت السفينة التي تُقلّ ما بين ستمائة وثمانمائة رجل لا تحمل إلا نحو عشر فتيات مؤهلات للزواج ، تُمنح كلُّ واحدةٍ منهنّ من قِبَلِ الملك مهراً تشجيعاً لها على الذهاب للشرق ، والزواج من أحد البرتغاليين هناك . كما ضُمِنَ منصبٌ معينٌ لكل زوج . ومع ذلك بقيَ كثيرٌ من الرجال في حاجةٍ إلى زوجات ، ومن ثَمّ عمَدُوا إلى الزواج من نساء شرقيات من الطبقات الدُّنيا في المجتمع الهندي وأصبح من العسير بعد فترة تمييز الجنس البرتغالي الأبيض ، ومع ظهور الجيل الجديد أصبح البرتغاليون أقلّ شجاعةً من البرتغاليين الأوائل وإن احتفظوا بغطرستهم وتعاليهم وكان هذا الجيل أكثر تهيؤاً للتفسخ والفساد وأقلّ استعداداً للتضحيةِ والفداء (٣) .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٣٥

(٢) نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية . البرتغالية . عبد الأمير محمد أمين ص ١٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

وهكذا كان نقصُ العناصرِ البشريةِ وقلّةُ إخلاصِ وكفاءةِ المتوفرِ منها أحدَ أهمِّ نواحي القصورِ في الجهاز الاستعماري البرتغالي في الشرق .

وأتاح افتقارُ البحرية البرتغالية إلى القواعد والنظم الدقيقةِ الفرصةَ لوقوعِ كثيرٍ من حوادث التمرّد والخلافات حتى بين قادةِ البرتغاليين أنفسهم [١] ، تلك الحوادث والخلافات التي كثيراً ما كانت تنشب تبعاً لمصالحَ شخصيةٍ بحتةٍ ، وهو الأمر الذي ترتّبَ عليه فقدان الانضباط والتنسيق العسكري داخل قطع الأسطول الواحد ، وبين الأساطيل المختلفة ، كما ترتّبَ عليه غيابُ ميثاق الشرف الحربي ، وخاصة في ظل شيوع القرصنةِ البحريةِ بشكلٍ سافر [٢] . ومع انتشار الاضطراب والفوضى [٣] في صفوف القوات البرتغالية مع بداية القرن السابع عشر ، انتشر الفساد والغش والرشوة في صفوف الموظفين الحكوميين الذين افتقروا إلى النظام في إداراتهم [٤] .

لقد كان الضباط والقادةُ البرتغاليون المُعَيَّنون لقيادةِ الحاميات أو رعاية المصالح البرتغالية في المستعمرات الشرقية يسعون للربح العاجل والحصول على المزيد من المكاسب الشخصية في أقصرِ وقتٍ ممكن لأنّ فترة توليهم لمناصبهم كانت تحدد عادة بثلاث سنوات ومن ثم كانوا يجمعون ما يمكن جمعه في هذه السنوات الثلاث لحسابهم الخاص بغضِّ النظرِ عن مصالح دولتهم . وقد أصبح لمثلِ هؤلاء مع مرور الوقت وضعفِ الامبراطورية سفن تجاريّة خاصة ضخمة ، تجوبُ البحار فيما بين أوربا والشرق ، وكثيراً ما عمل الجنود والموظفون لصالح تلك العناصر الطفيلية على حساب المصلحة العليا للدولة [٥] .

---

(١) دليل الخليج . لوريمر . جـ ١ ص ٦٣

(٢) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . ص ٢٥٤

(٣) لمزيد من التفصيل انظر (3)Soussa, op. cit , vol, 3,pp383-384

(٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢٤

(٥) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٤٧ ، ٤٨
الشاطر بصيلي عبد الجليل . ص ٢٩

وترتّبَ على ذلك أنْ أصبحت المناصب الإدارية والوظائف العالية محلاً للتنافس بين كبار الضباط، وأصبح الوصول إليها يتمّ - غالباً - عن طريق الرشوة والمحسوبيّة (١) ، ثم أصبحت تُباع بدءاً من عام ١٦١٥ م - ١٠٢٤ هـ في المزاد العلني وبصفةٍ قانونيّة صدر فيها مرسوم مَلَكيّ خاص ، وقد قُصِدَ من وراء ذلك جمع المزيد من الأموال لمواجهة أوجه الخلل والقصور في النشاط التجاري البرتغالي من جهة ولمواجهة الأخطار الأوربية المتزايدة في مياة المحيط الهندي وخاصة التهديدين الإنجليزي والهولندي من جهة أخرى (٢) . ومما يُذكر أنّه قد تَرَتّبَ على ذلك أنّ مَنْ كانَ يَحْصُلُ على تلك الوظائف كان يتصرف بصورةٍ مُنْفَصلةٍ عن سلطة الملك البرتغالي في لشبونة وعن سلطة نائبه في الهند ، ولا يعود إليها إلّا في الأمور السياسية أو العسكرية الهامه (٣) . وهكذا تلاعبَ أولئك القادةُ في الممتلكات الامبراطورية وأعملوا فيها السلب والنهب ووظّفوها لكسب المزيد من الأموال بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة منها ، وأصبحت السفن الحربية سفن تجارية تعمل لصالح القادة المذكورين ، وتحوّلَ الجنودُ في ظلّ ذلك إلى مجرد عُمّال تجاريين في الغالب فقلّ الشعور بالمسئولية ، ونقصت الإيرادات الجمركية ، والعوائد التجارية وتَسابقَ أرباب المناصب في تحقيق أعلى قَدْرٍ من الأرباح الخاصة .

---

(١) (1) Boxer, c.R, op .cit , p 324

(٢) (2) Neiles , op . cit , p 2oo

(٣) (3) Boxer , C.R , op . cit , P 324

(٤) لمزيد من التفصيل انظر Boxer,C.R, . neiles, op, cit,p199 op.cit,p 324 ، والتنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ٤٨ - ٥١

وكان البرتغاليون يعانون من قصور في المجال الدبلوماسي وفقدان الحس السياسي السليم ، الذي يتطلب إدراكاً أفضل للأوضاع السياسيّة في الساحة الآسيوية ، واستيعاباً أدق لمواقف القوى الشرقية المختلفة [١] . لم يكن البرتغاليون الذين قدموا إلى الشرق تجاراً ولا إداريين ، بل فرساناً صليبيين وروّاداً إقطاعيين يملكون كثيراً من الجرأة والغطرسة والتعصب الديني وقليلاً من الكفاءة والحصافة والنزاهة [٢] والخبرة الدبلوماسيّة ، فمع أنّ البرتغاليين قد نجحوا – أحياناً – من خلال القنوات الدبلوماسية في استغلال الصراعات والمنافسات بين مختلف القوى الوطنيّة الساحلية [٣] كما سبق بيان ذلك ، فإنّ الملاحظ أنهم لم يكونوا سياسيين ولا دبلوماسيين في تعاملهم مع السكان الوطنيين في سواحل الهند خاصة ، فقد كان هناك صراع مستمرّ طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الإمارات الإسلامية والإمارات الهندوكية ولم يقم البرتغاليون باستغلاله على الوجه الأمثل لتحقيق مكاسب سياسية خاصة بهم ، بل على العكس من ذلك ، إذ اشتبكوا بعد سنواتٍ قليلةٍ من وصولهم مع حاكم كاليكوت الهندوكي ، ثم تورّطوا في نزاع مع راجاكوجين المنافس للحاكم السابق ، وماهو أسوأ من ذلك أنّ البرتغاليين عجزوا عن التحالف مع القوى الهندوكيّة الكبيرة في شبه القارة الهندية ، ولم يبذلوا جهوداً جادةً لتوطيد علاقاتهم مع دولة فيجايانا جار الهندوكيّة وخاصة في الوقت الذي كانت تخوض فيه صراعاً مريراً مع الإمارات الإسلامية المجاورة التي أنهت الصراع بالانتصار في معركة كاليكوت سنة ١٥٦٥ م – ٩٧٤ هـ ، وتفرّغت بعد ذلك – مجتمعة – لمحاربة البرتغاليين والعمل على طردهم عن سواحل الهند .

---

(١) نظرة جديدة للإنجازات السياسية . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٧٣

(٢) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٣) يذهب المرجع السابق إلى القول بخلاف ذلك على وجه التعميم ، ص ١٧٣ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

وقد تكررت المأساة في عدة مناطق ومواقف أخرى ، فمن جهة فشل البرتغاليون في كسب ود العثمانيين الذين سعوا للتعاون معهم في عملية إحياء طريق الخليج العربي . وخاصة في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وآثروا بدلاً من ذلك أن يحاولوا فرض شروط مذلة على البلاط العثماني الذي كان عليه أن يرفض بكل كبرياء لأن قواته لم تهزم هزيمة ساحقة في معركة ما ، ولم يزل نفوذه في المنطقة العربية خاصة في تعاظم مستمر ، وكان حرياً بالبرتغاليين أن يأخذوا ذلك في حسبانهم . ومن جهة ثانية فشلوا في كسب ود الصفويين وخاصة منذ بداية القرن السابع عشر ، في الوقت الذي بدوا فيه أكثر ميلاً للتفاهم مع القوى الأوربية المنافسة . وكذلك فشلوا في مواجهة التحالف الإنجليزي الفارسي ، وفي مواجهة التحالف الإنجليزي الهولندي، وفي مواجهة محاولات التعاون اليعاربي الإنجليزي .

وهكذا يمكن القول إن أساليب القوة والبطش والقهر التي بنى عليها البرتغاليون سياستهم الاستعمارية كانت تحمل في طياتها أسباب ضعفها لأن هذه الوسائل لم تقوَ على منافسة الدول البحرية الأخرى التي ظهرت أساطيلها في مياه المحيط الهندي في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن الذي يليه ، وأخذت تعمل على تقويض الوجود الاستعماري البرتغالي من الناحيتين السياسية والاقتصادية (١) . لقد كانت تلك القوى أكثر تسليحاً وأعظم قوة (٢) ، وأعلم بالسياسة والتجارة ، وأقدر على ممارسة الوسائل الدبلوماسية وهي الأمور التي مكنتها من التفوق بدون أدنى ريب .

---

(١) انظر ، زنجبار . صلاح العقاد . د . ص ٢٠ وصراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد ص ١٢٥

(٢) النفوذ البرتغالي في الخليج العربي . نوال حمزة الصيرفي . ص ١٩٠

واتصف البرتغاليون بالعنف والقسوة في معاملة الشعوب الشرقية (١)، ومارسوا ضدهم أبشع ألوان الوحشية (٢)، كما باعد جهل البرتغاليين بعادات وتقاليد المجتمعات الشرقية بينهم وبين تلك الشعوب، فلم يتفهموا طبيعة المجتمعات العربية والفارسية والهندية والأندونيسية والسواحلية، والتي كان يتحتم عليهم التعامل معها (٣) وهكذا كانت الشعوب الشرقية تُضْمِر لهم العداء الشديدَ، والكراهيةَ المتناهيةَ، وتحيّنُ الفرص للتعاون فيما بينها أو مع أي قوة يمكن أن تقف في وجه السياسة والأطماع البرتغالية في المحيط الهندي (٤).

وكانت السفن البرتغالية عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن التالي تتعرض لهجمات القوى المعادية والمنافسة ــ كما حدث ذلك من قبل لسنواتٍ طويلة ــ لدرجة أنّ نصفَ السفن البرتغالية كان لا يعود إلى لشبونة، وأن ما يقارب ثلثها يُفْقَدُ أو يُتَحَطّم على أيدي المنافسين (٥)، ومع ذلك لم يَسْعَ البرتغاليون إلى تطوير سفنهم التي بقيت على ما هي عليه، منذ زمن طويل، حتى أصبحت ضعيفةَ التسليح والتنظيم (٦)، فالرَّبَابِنَةُ لم يعد يُشْتَرَطُ فيهم الكفاءةَ الملاحيةَ، لأنّ وظيفةَ الرّبّان كانت هبةً ملكيّةً يمنحها الملك لأشخاص من أبناء الطبقة الارستقراطية، وأصبحت هذه الوظيفة ــ مع مرور الوقت ــ تُباعُ وتُشْتَرَى وتُؤَجّر وتُوَرّثْ وتَطَوّرَ الأمرُ إلى أن فاقَ عددُ الربابنةُ عددَ السفن بشكلٍ لافتٍ للنظر .

---

(١) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة ص١٣٢ والعلاقات البرتغالية . الداود.ص ٢٥٢

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : تحفة المجاهدين . المليباري.ص ٣٢ ونظرة جديدة . عبد الأمير أمين ص١٧٢ ــ ١٧٣ .

(٣) المرجع السابق ص١٧٣ .

(٤) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب. ص ٤٠

٥) نظرة جديدة . عبد الأمير أمين . د . ص ١٨٦

٦) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٩٠

وكذلك كان جنود السفن وعمالها وملاحوها في أوضاع سيئة ، إذ كانوا يعيشون بين البضائع وتتفشى فيهم الأمراض وكثيراً ما انتشرت بينهم الأوبئة التي رفعت نسبة الوفيات [١] في صفوفهم بشكل كبير . ولكنّ الأمر الأكثر خطورةً هو أنّ عددَ السفن البرتغالية كان في تناقص مستمر مع مرور الوقت ، ومعنى ذلك أن ما كانت تفقده السفن البرتغالية في الشرق لم يكن يتمّ تعويضه بسفن جديدة . وقد أورد فوربر تقريراً عن عدد السفن البرتغالية التي غادرت لشبونة إلى الهند ، وغيرها من المستعمرات البرتغالية في مياة المحيط الهندي فيما بين سنتي ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠ م ، فذكَرَ أنّ عددَ السفن التي غادرت للشرق في النصف الأوّل من القرن السادس عشر كان إحدى وخمسين وأربعمائة سفينة ، بينما تقلّص في النصف الثاني من القرن المذكور إلى أربع وخمسين ومائتي سفينة . وذَكَرَ أيضاً أن النصفَ الأولَ من القرن السابع عشر شهد قدوم خمس وستين ومائتي سفينة برتغالية إلى المحيط الهندي بينما لم يشهد النصف الثاني منه أكثر من مائة وست سفن . ويُبَيّن أخيراً أن عدد السفن البرتغالية المتجهه إلى الشرق في النصف الأول من القرن الثامن عشر كان اثني عشر ومائة سفينه بينما لم يشهد النصف الثاني مغادرة أكثر من سبعين سفينة اتجهت إلى مياة المحيط الهندي [٢] . وهكذا يَتَبيّنُ بكل وضوح مدى التضاؤل الذي كان يطرأ على القوة البرتغالية في الشرق كما يَتَبيّن مدى القلة المتزايدة من الاهتمام التي كانت توليها سياسة لشبونه للشرق . وهو ما يَضَعُ اليدَ ـ بطريقةٍ ما ـ على أحد العوامل التي أدت إلى تدهور الوجود البرتغالي في مياه المحيط الهندي .

---

(١) نظرة جديدة . عبد الأمير أمين . د . ص ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٦ ، وقد نقل هذا التقرير عن :
Furber,H ,Rivak Empire of Trade, oxforcl Univergity press PP 26 - 27 .

واتسمت السياسة البرتغاليةُ بالاحتكار والاستغلال [١] إذ اعتمد الملك البرتغاليُّ أسلوبَ الاحتكار التجاري وجعل السلع المربحة وعلى رأسها التوابل الشرقية تجارةً خاصةً بالملك، ومن ثَمّ لم يُعْطِ مَجالاً للطبقة البرجوازية من التجار، والذين كانوا على ارتباطٍ وثيقٍ بالقاعدة الشعبية وبحركة الاستعمار [٢].

وقد ترتَّبَ على ذلك أن ظلّ النشاط التجاري محصوراً، ولم يمتلك قوة دفع شعبيّة كما حدث في بريطانيا وهولندا اللتين أفسحَتَا المجال لتلك الطبقة لِتعملَ لحسابها الخاص وبالتالي حَصَلَتَا على دعمِها وتأييدها من الناحيتين السياسية والاقتصادية [٣] مما أعطى نشاطهما التجاريَّ زخماً خاصاً وأمدَّه بالقوة الحامية القادرة على الدفاع عنه وتيسير سُبلِه.

ومما يتّصل بهذا الأمر أن البرتغاليين لم يُؤسِّسوا شركاتٍ تجاريةً كما فعل منافسوهم من الإنجليز والهولنديين [٤]، ومن ثَمّ ظلت تجارتهم تُمارَسُ بطريقةٍ بدائيةٍ ولصالح قوةٍ مركزيةٍ هي قوة الملك وحاشيته وكثيراً ما كانت تلك التجارة تُستَغَلّ لصالح الفئات الأقل التي كانت تعمل في الخدمة المَلَكِيّة، وتنمو على حساب تجارتها. ولذلك يمكن القول: إن البرتغاليين كانوا يسعون إلى جمع الثروة دون أن يُؤَمّنوا الوسائل الكفيلة بحمايتها، وأن استهتارَهم بالأمور الهامة، كأمور الدفاع وتنظيم الإدارة والتفاتهم إلى الأمور التافهة كالكسبِ السريع والسلب والنهب كان من أكبر العوامل التي أهدَرَتْ كرامتهم وأدت إلى

---

(1) Serjeant , op. cit, p 2o (١)

٢) زنجبار . صلاح العقاد . د وجمال قاسم . د ص ٢١ . ودولة اليعاربة . عائشة السيار ص ٢٦

٣) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٤٦

٤) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٩٦ . والعلاقات البرتغالية مع الخليج العربي محمود علي الداود . د . ص ٢٥٢

٥) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٥٢

انهيار امبراطوريتهم في الشرق .

لقد انصرف القادة البرتغاليون عن واجباتهم السياسية والحربية إلى ممارسة التجارات وجمع الأموال بشتى الطرق المشروعة منها وغير المشروعة ، ولذا تهربوا من دفع الجمارك والضرائب (١) واستغلوا الجند والسفن ، وقسوا على التجار الوطنيين وخاصة المسلمين منهم ، فلم يسمحوا لهم بالمساهمة في نشاطات حركة التجارة الدولية آنذاك ، كما لم يسمحوا لهم ببيع أو شحن أو تفريغ أية بضاعة إلا بعد أن ينتهوا هم من تصريف بضائعهم .

وكان يُباحُ للتجار البرتغاليين الأدنى درجةً أن يقوموا بأداء حاجاتهم تبعاً لدرجة صلتهم بالقادة ولما يدفعونه من رشاوى (٢) . وهكذا يمكن القول إن البرتغاليين لم يسمحوا للوطنيين إلا بالمساهمة في حركة التجارة الإقليمية وتبعاً لتصاريح خاصة تُحدد نوع السلعة ووجهتها وتُبينُ ما عليها من ضرائب وجمارك تُسهم في تقليل الفائدة التجارية المرجوة منها ، وأن البرتغاليين قد لجأوا إلى مصادرة أو تحريم المنتجات والبضائع التي يمكن أن تخدم التجارة البرتغالية في ظل السياسة الاحتكارية التي كانت قائمة عليها .

ولم يكن للمستعمرات البرتغالية عمق داخلي ، حيث كانت تتركز في الموانىء البحرية والجزر القريبة من الشاطىء ، ولذا كان الدفاع عنها يتطلبُ عنايةً فائقةً وسهراً دائماً سواء من الحاميات المقيمة في القلاع والحصون أم من الدوريات المستمرة ونقاط المراقبة الساحلية (٣) .

---

(1) Neiles, op. cit , p 2ol (١)

(٢) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ٤٩

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

ولما كان البرتغاليون منشغلين فيما بين سنتي ١٥٨٠م – ١٦٤٠ م بتحقيق استقلالهم فإنهم عجزوا، إلى حدٍّ كبيرٍ، عن تعزيز قواعدهم وإمدادها بالقوة اللازمة لتوفير الحماية والسلامة والأمن الكافي، مما ساعد الدول الأخرى على أنْ تَمْضِيَ قُدُماً في تقطيع أوصال الامبراطورية البرتغالية في الشرق [1].

وكانت الاتصالات بين لشبونة والشرق على درجةٍ من الصعوبة، وتتطلب وقتاً طويلاً [1]، وذلك لبطء السفن واعتمادها على حركة الرياح الموسمية، وعدم توافر السلامة في الطرق البرية البديلة، وقد كان هذا الأمرُ سبباً في غياب التنسيق بين لشبونة وجوا من جهة، وبين جوا ومختلف المستعمرات البرتغالية التابعة لها من جهة أخرى إذ كثيراً ما كانت الأوامر الملكية تَصْدُر من لشبونة موجهةً إلى نائب الملك في جوا، ولكنّ هذه الأوامرَ كانت تصل بعد فوات الأوان [2] وبعد ظهور مستجداتٍ سياسية أخرى تتطلب قراراً مَلَكِيّاً جديداً، وربما كان مغايراً أو مخالفاً للأول تماماً، وقد أثّر ذلك بدون شك على درجة كفاءة السياسة البرتغالية في الشرق وعلى قدرتها على المرونة والمناورة في ذات الوقت.

ولما كان الهدف الأول للاستعمار البرتغالي في مياه المحيط الهندي إنّما يكمنُ في الرغبة البرتغالية في الهيمنة على تجارته، فإن مُجَرّد خروج هذه التجارة من تحت نير تلك السيطرة كان كفيلاً بإضعاف العزم الاستعماري البرتغالي.

وقد حدث شيءٌ من هذا مع بداية القرن السابع عشر، إذ اتجهت التجارة – بالإضافة إلى الطرق التقليدية – إلى طريقٍ يَبْعُد كلّ البعدِ عن سلطة البرتغاليين وعن المدَى الذي يمكن أن تصل إليه قذائف مدافعهم البحرية، ففي سنة ١٦١٤ م ١٠٢٤ هـ أَخَذَ التُّجّارُ ينقلون بضائعهم بواسطة القوافل من الهند إلى قندهار عَبْرَ أراضي أفغانستان إلى فارس ومنها

---

(١) الاستعمار البرتغالي. جمال قاسم. د. ص ٨٢

(٢) التنافس الدولي. مصطفى الخطيب. ص ٤٦

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

إلى أوربا.وقَدْ نَبَّهَ إلى هذا الطريق التاجر البريطاني استيل الذي قَدَّرَ عدد الإبـــل التي كانت تسير في قوافل عبره، في ذلك الوقت ، ما بين اثني عشر وأربعة عشر ألف جمــل ويضاف إلى لك أن طريق رأس الرجاء الصالح قد أصبح مَفْتوحاً لجميع الأجناس (١) ، ولــم يَعُدْ هناك مجال للبرتغاليين لكي يمارسوا عليه احتكاراً ما،ومن هنا فإن أسباب وجودهــم الاستعماري قد أخذت في التضاؤل والانهيار،وتبعهما في ذلك وجودهم الاستعماري نفسه.

ولقد عجز البرتغاليون عن الفصل بين ما هو ديني وماهو دنيوي،فلم يفصلوا بين مصالحهم التجارية والسياسية من جهةٍ وبين حماسهم الديني وتعصبهم وفقدانهم المرونة من الجهـــة الأخرى.لقد قَدِمُوا جنوداً صليبيين أكثر من كونهم تجاراً وسياسيين ، ولذا أثارَ تعصُّبُهـــم الديني حفيظةَ المقاومة لدى الشعوب الشرقية (٢) ، والتي قد تقبل بالتعاون التجاري مع البرتغاليين ، ولكنّها لن تقبلَ مطلقاً أن تقايضَ على دينها ، وأن تتخلى عن عقيدتها لقـــاء عقيدة جديدة لم يكن أصحابها قادرين على تمثيلها والالتزام بمبادئها والتي كثيراً ما تُرِكَتْ جانباً لصالح أساليب وأعمال وحشية سواء في المجال الإنساني البحت أم في المجالـــين الاقتصادي والسياسي .

ويبقى أن نُذَكِّرَ في هذا المقام أهم العوامل في سقوط الاستعمار البرتغالي واندحاره عـــن مياه المحيط الهندي وخاصة الإسلامية منها ، وأولُ هذه العوامل هو تصدى القوى الإسلامية الكبرى له منذُ وقتٍ مبكر ، وخاصةً قُوَّتَيِ المماليك والعثمانيين اللتيــن لعبتا دوراً بارزاً فـــي مقاومة الوجود الاستعماري البرتغالي في مياه المحيط الهندي في القرن السادس عشر ، وقــد بَـــرَزَتْ بعدهما قوتان جديدتان هما الدولة الصفوية والدولة اليعاربية ، وكان لهما الفضــل

---

(١) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص٥٤ - ٥٦

(٢) نظرة جديدة . عبد الأمير . محمد أمين . د . ص. ١٧

في دحر الاستعمار البرتغالي عن منطقتي الخليج العربي وشرق أفريقيا على وجه الخصوص وكان ذلك خلال القرن السابع عشر ، وذلك بالإضافة إلى حركاتِ المقاومةِ الوطنية التي كانت تندلعُ هنا وهناك بين فينةٍ وأخرى، وكلما واتت الظروف السياسية والتي أسهمت بغير شك في زعزعةِ الوجود البرتغالي في الشرق وفي فقدانه الأمن والسلام اللازمين لجَني ثمار الاستعمار والإفادة من جهوده العسكرية .

وأخيراً لا بدّ من القول إنّه قد كان للقوى الأوربية، وخاصةً القوتين: الإنجليزية والهولندية ، دورٌ بارزٌ في زحزحةِ النفوذ السياسي البرتغالي وخاصة من منطقتي السواحل الهندية والسواحل الخليجية ، كما كان لها دورٌ بارزٌ في وضعِ حدٍّ للتفوق التجاري البرتغالي ولسياسته الاحتكارية القائمة على امتصاص خيرات شعوب الشرق والغرب على حدٍّ سواء . ومما يؤسفُ له أن هذه القوى قد استغلت المناخَ السياسيَّ السائدَ لإحلالِ نفوذها محل النفوذ البرتغالي الذي كان آخذاً في الانهيار التدريجي ، وقد أُفردَ لهذا الأمر مبحثٌ خاصٌّ به ، وسيتم تناولُهُ تفصيلاً إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

تغلغل النفوذ الاستعماري الغربي في مياه المحيط الهندي

كان من أخطر نتائج الوجود الاستعماري البرتغالي في مياه المحيط الهندي خلال القرن السادس عشر الميلادي=العاشر الهجري ، أنه لفت أنظار الدول الأوربية إلى أهمية التجارة الشرقية (١) بسبب ما تُدرّه من ربح ، وما تشتملُ عليه من منتجات وبضائع ، كان الغرب في أمسّ الحاجة إليها ، كما لفت أنظار الغرب أيضاً - إلى أهمية الموقع الجغرافي للمحيط الهندي ،وما يتصل به من بحار وطرق ومواقع استراتيجية ، وما تتمتع به بلاده من خيرات ، وإلى ضرورة الهيمنة السياسية الاستعمارية لتحقيق المكاسب الاقتصادية المرغوب فيها وبخاصة لأن الشرق يعانى من التفكك السياسي ، وتخلف وسائل الدفاع والحرب ووسائل النقل البحرى وأنه كان يجهل مجريات الأحداث الدوليّة وما يجدُّ فيها من متغيرات سياسية ، ولا يكاد يدرك مدى تأثيرها عليه ، ولا كيف يمكن مواجهتها والتفاعل الإيجابي معها .

وكان ميزان القوى في أوربا قد أخذ يتغير رويداً رويداً،بدءاً من النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وتطور الأمر إلى أن تحدّت انجلترا فى عهد الملكة إليزابيث الاحتكار التجاري الأسباني الذي فرضه الملك فليب الثاني في البحار العالية الأسبانية . ولما هُزِمَت الأرمادا الأسبانية سنة ١٥٨٨ م - ٩٩٧هـ صار في إمكان دول أوربا البحرية أن تقتحم مياه المحيط الهندي وتساهم في جني الثمار العائدة من المشاركة في تجارته (١) ، إذ ليس من المعقول أن تقف تلك القوى مكتوفة الأيدي أمام انفراد البرتغاليين بتجارة الشرق وثرواته ، وهكذا أخذت تلك القوى في منافسة البرتغاليين والعمل على انتزاع مناطق نفوذهم من أيديهم (٢).

---

١)النفوذ البرتغالي في الخليج العربي . نوال الصيرفي . ص ١٨١

٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٥

٢) النفوذ البرتغالي . نوال حمزة الصيرفي . نفس الصفحة .

وانتقل بذلك مركز تجارة الأفاويه من لشبونة إلى الموانئ العظيمة بالأراضي المنخفضة حيث كان الإقبال على التوابل قد ازداد في مناطق أوربا الشمالية بشكل واضح (١).

وتأجج الصراع الأسباني البرتغالي من جهة، الانجليزي الهولندي من الجهة الأخرى لعدة أسباب، منها التنافس على تجارة الشرق، وتعارض المصالح الاقتصادية لدى الطرفين، وتأجج الصراع المذهبي بين الكاثوليك والبروتستانت والذي انعكست آثاره بشدة على المستعمرات البرتغالية في الشرق والتي كان سكانها على المذهب الكاثوليكي الذي أصبح مُعارَضاً من كنيسة روما (٢)، وكان من أخطر الآثار إقدام البابا على سحب حقوق الاحتكار التي كان قد منحها لملك البرتغال من قبل وهو ما كان يعني – في المقام الأول – فتح ميدان المنافسة التجارية بين مختلف القوى الأوربية على مصراعيه، بل ربما كان يعني ترجيح كفة القوى الأوربية البروتستانتية الجديدة على الكفة البرتغالية التي تُخالِفُها في المذهب الديني. ومن العوامل أيضاً أنّ الكفاءة البحرية لدى الأسطولين الإنجليزي والهولندي قد ارتفعت من الوجهتين العسكرية والتجارية، وأنهما أصبحا قادرين على خوض أعالي البحار ودخول ميدان المحيطات لخوض غمار الأسفار البعيدة في (٣) أمان، وقد تزامن ذلك مع إصرار البرتغال ومعها أسبانيا على استمرار الهيمنة البرتغالية الأسبانية على البحار الشرقية وحرصهما على احتكار تجارتها المربحة، ومما زاد الطين بلّاً أنه قد تمّ رفع أسعار التوابل الشرقية عدة أضعاف وفي مدة قصيرة جداً.

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية، نفس الصفحة.

(٢) التنافس الدولي. الخطيب، ص ٩٥.

(٣) Ingham, op.cit, p225

وهكذا اندفع الهولنديون إلى ميدان المنافسة على تجارة الشرق حتى أسّسوا شركة الهند الشرقية الهولندية سنة ١٥٩٤ م – ١٠٠٣ هـ ، وتبعهم الإنجليز حتى أسّسوا سنة ١٦٠٠ م – ١٠٠٩ هـ شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، بينما تأخرت المنافسة **الفرنسيّة في المياه** الشرقية إلى أكثر من نصف قرن ، ولم يتمّ تأسيس شركة فرنسيّة إلّا سنه ١٦٦٤ م – ١٠٧٤ هـ ورغم أنّ أنشطة الإنجليز والهولنديين كانت في أول الأمر مجرد رحلات تجارية إلى الهند والشرق الأقصى بهدف بيع المنتجات الأوربية أو مبادلتها لشراء منتجات شرقية (١)، فإن ذلك لم يدمْ طويلاً ، إذ عندما جاء الإنجليز والهولنديون لم يكنْ البرتغاليون قوةً تجاريّة فحسب ، ولكنهم كانوا يشكلون قوةً امبراطورية ذات نفوذٍ استعماريٍّ واسع ، وإمكانات عسكرية ضخمة ، وتعتمد في تثبيت سيادتها وتسيير أمور تجارتها وتحقيق مكاسبها الاقتصادية على مبدأ الهيمنة بالقوة في المقام الأول . وقد ساهم ذلك في دفع القوتين الجديدتين إلى اعتماد نفس الأساليب حيث تحولت الرحلات التجارية الإنجليزية إلى إقامة تمثيل تجاري محلي ، وامتيازات لإقامة المصانع وتحولت المصانع إلى قلاع ، وتحولت هذه بالتدريج إلى ممتلكات خاصة (٢)، تتمتّعُ بحق الحماية العسكرية وانتهى الأمر إلى استعمارٍ أوربيٍّ سافر .

بدأت الملاحة الإنجليزية في النمو المتسارع منذ سنة ١٥٨٠ م – ٩٨٩ هـ حتى بلغت في غضون ستين عاماً أربعة أضعاف حجمها ، وبدأ تصدير النسيج واستيراد الحديد والخشب والصوف نفسه في الفترة نفسها . وكان البرجوازيون قد خصصوا قسماً من أموالهم للتسلح الحربي (٣). ومما يذكر أن السفن البريطانية قد ساهمت في تجارة المتوسط منذ عام ١٥٨٠ م – ٩٨٩ هـ وكان النزاع الذي شهده المحيط في عشرين السنة الأخيرة من القرن السادس عشر قد عمل على إحياء تجارة (٤).

---

(١) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوي . د . ص ١٠٧

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحه .

(٣) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ١٢

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

ذلك البحر • وأعقب الإنجليز ذلك بتأسيس شركة الليفانت سنة ١٥٨١ م – ٩٩٠هـ وذلك بهدف تكثيف النشاط التجاري في البحر المتوسط إلاّ أن توسع السوق جعل ما يحصلون عليه من بضائع غير كافٍ (١) ومن ثمّ فكروا في الوصول إلى منتجات المحيط الهندي والمشاركة في طريق رأس الرجاء الصالح •

وجاءت الخطوة الأولى عندما أرسلت الملكة البريطانية إليزابيث سنة ١٥٨٣م – ٩٩٢هـ أربعة تجار إنجليز إلى الشام فالعراق ومنها إلى كمبوديا والصين ، حيث حمل التجار رسائل إلى ملكيهما (٢) وكان هدف الرحلة واضحاً وهو الوصول إلى الصين والتعرف على تجارته ، ومعرفة المنتجات الشرقيه وموانئ التجارة في مياه المحيط الهندي، وجمع المعلومات عن أساليب التجارة ووسائط النقل بين الشرق والغرب ، ونُظم الإبحار في المياه الشرقية إلى غير ذلك من المعلومات الهامة • ورغم أن البرتغاليين قد قبضوا على التجار الأربعة وهم في طريقهم إلى هرمز ، ثمَّ أودَعوهم في السجن بجوا فإنهم قد تمكنوا أثناء ذلك من جمع الكثير من المعلومات عن تجارة المحيط الهندي • ولما ترجمت تلك المعلومات إلى تقارير علمية – بعد أن تمّ إطلاق سراح التجار – كان لها أكبر الأثر في لفت نظر البريطانيين إلى تجارة المحيط الهندي ، حيث تطوّر الأمر إلى أن تمّ تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية • وقد كان للتقارير التي كتبها المبشرون الإنجليز في نفس الفترة نفس الأثر تقريبا حيث أثارت الحماسة بين الناس وخاصة التجار بشكل كبير (٣).

وكان انتصار الإنجليز على الأرمادا الأسبانية (٤) سنة ١٥٨٨ م – ٩٩٧ هـ نقطة التحول البارزة في سياسة بريطانيا الخارجية سواء من الناحية السياسية أم من الناحية العسكرية ، فقد كان هذا النصر إعلاناً عن تقهقر أسبانيا – ومعها البرتغال – اقتصادياً وسياسياً (٥).

---

(١) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٩٣

(٢) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٤٤

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٥

(٤) للتفاصيل انظر Defet of the Spanish Armada, in The World is Great Events, pp 167 - 181

(٥) تاريخ التجارة . جورج لوفران ص ٨٢

وقد وضع تحطم الأسطول الأسباني حداً لأسطورة التفوق الأسباني البحري ، حيث أصبح البحر مفتوحاً (١) لمن يريد الارتياد والمغامرة . ومما يذكر أن انتصار الإنجليز قد أكسبهم الثقة في أسطولهم وفي قدرتهم البحرية واقتدارهم على منافسة الأسبان والبرتغاليين (٢) في مجال التجارة الدولية ، بل في مجال الاستعمار أيضا ، وهكذا صمم الإنجليز على التوجه إلى المحيط الهندي وقويت آمالهم في الإسهام الفعال في تجارته ، وتوج كل ذلك بأن أصبح البلاط الانجليزي نفسه معنياً بشأن تجارة الشرق ، حيث سمح للتجار الإنجليز بالتوجه إلى الهند (٣) وهو ما يعني أن البلاط الملكي على استعداد لرعاية التجارة البريطانية والتجار الإنجليز في تلك النواحي .

ويجمل بنا قبل أن نستمر في تتبع التغلغل الاستعماري الانجليزي في مياه المحيط الهندي أن نقف على بعض دوافعه وعوامل نجاحه . وأول مايبرز للعيان في هذا المقام هو استعداد البريطانين النفسي والبحري والحربي لأن يخلفوا الأسبانيين وأتباعهم البرتغاليين في مستعمراتهم ومناطق نفوذهم ومركزهم التجاري ، وخاصة أنهم كانوا على علم بما كان يجنيه هؤلاء وأولئك من أرباح من جراء ذلك ، ويأتي بعد ذلك ما سبقت الإشارة إليه ، وهو دعم التاج البريطاني للتجار الإنجليز ولشركة الهند الشرقية . حيث أعطاها صفة الشخصية المعنوية ، وأعطى التجار الحق بتصدير ما قيمته ثلاثون ألف ليرة بالنقد الأجنبي وأعفى ست رحلات من الرسوم الجمركية كمساعدة لدفع ثمن الصادرات ، وحق احتكار التجارة بين بريطانيا والهند لمدة خمسة عشر عاماً . ومما يذكر أن هذا الدعم وتلك الحماية قد استمرا - بعد ذلك - لمدة قرنين من الزمان وقد كان ذلك تمهيداً لظهور الرأسمالية الحديثة (٤) .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٦٤

(٢) علاقة ساحل عمان ببريطانيا . عبد العزيز عبد الغني . د . ص ٤١ - ٤٢

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٩٣ - ٩٤

وقد ردّ البعض نجاحَ حركةِ الاستعمار البريطاني في الشرق الأوسط والمحيط الهندي إلى وضوح أهداف الحركة الاستعماريّةِ من جهة وإلى التعاون الذي ساد بين الرأسماليين الإنجليز من جهة ثانية ، والعمل على تحقيق أهداف الشركات الاحتكارية بمختلف الطرق الدبلوماسيّة ، والرشوة ، والابتعاد قدْر الإمكان عن المغامرات الشخصية [١] بالإضافة إلى توفير القوة الحربية الكافية لحماية المنجزات الاستعمارية البريطانية ، وللعمل على نموها وتطوّرها . ولما كانت هولندا تموّل دولَ شمال أوربا بالتوابل طوال القرن السادس عشر وأنها قد رفعت أسعار الفلفل سنة ١٥٩٩ م ـ ١٠٠٨ هـ من ثلاثة شلنات إلى ثماني شلنات فإن ذلك قد دفع التجار الإنجليز إلى اتخاذ قرار خوض غمار تجارة الشرق بأنفسهم [٢] .

وهكذا تعتبر نهاية القرن السادس عشر البداية الفعليّة للنشاط التجاري والاستعماري البريطاني في مياه المحيط الهندي ففي سنة ١٥٩٩ هـ ـ ١٠٠٨ م طلب التجار الإنجليز من الملكة إليزابيث (إليزابيث) حق ممارسة التجارة مع الشرق ، فأصدرت الملكة مرسوماً سنة ١٦٠٠ م ـ ١٠٠٩ هـ يقضي بتأليف شركة تجارية بريطانيّة تحت اسم شركة تجار وحكام لندن للتجارة في الهند والأقطار المجاورة لها [٣] ، وحصلت الشركة على الامتيازات التي سبقت الإشارة إليها وعرفت فيما بعد باسم شركة الهند الشرقيّة ، التي بدأت مسيرتها بأن أرسلت فيما بين سنتي ١٦٠٠ ـ ١٦١٢ م اثنتي عشرةَ قافلة تجارية للهند ، وحصلت خلال ذلك على امتيازاتٍ واسعةٍ للتجار الإنجليز لدى الامبراطور الهندي [٤] . فبالرغم من أن ـ الشركة قد ظلّت معنيّة ـ في المقام الأول ـ بالهند لمدة خمسة عشر عاماً ، مما أدّى إلى تكدّس البضائع عندها في سورات ، فإنها قد حققت أرباحاً خيالية منذ البدء ، إذْ بلغت نسبةُ

---

١) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٤١

٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٦٠

٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٦٩

٤) العلاقات البرتغالية . مع الخليج العربي ، محمود علي الداود . د . ص ٢٤١

الأرباح في الرحلتين الأولى والثانية ٩٥٪ وازدادت هذه النسبة في الرحلتين الثامنة والتاسعة إلى ٢١١٪ و ٢٢٠٪ ومع مرور الوقت واشتداد المنافسة تعدلت نسبة الربح فبلغت سنة ١٦٤٠ م ـ ١٠٤٩ هـ ما بين ١٠٠٪ و ٢٠٠٪ (١). ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين قد أحسّوا بخطورة قدوم شركة الهند الشرقية البريطانية إلى الهند منذ البدء وأنهم عملوا على مقاومتها وتأليب السكان ضدها. ومن ذلك أنهم حرّضوا أهالي زنجبار سنة ١٦٠٦ م ـ ١٠١٥ هـ على اغتيال بعض بحارة الأسطول الإنجليزي قبالة سواحلهم كما فعلوا نفس الشيء مع عرب بمبا بعد ذلك بسنتين حيث أغروهم بمهاجمة إحدى السفن البريطانية التي تمّ استدراج بحّارتها إلى البر بإبراز مظاهر المودّة لهم ومهما يكن من أمر فإن ذلك كان كفيلا مع عوامل أخرى لا مجال لبسطها هنا بألّا تعود السفن البريطانية إلى ساحل أفريقيا الشرقي إلّا في أواخر القرن الثامن عشر (٢).

وأولى الإنجليز اهتمامهم أول الأمر بالجزائر الأندونيسية حيث أسسوا في العقد الأول من القرن السادس عشر عدة فروع لشركتهم في سومطرة وجاوة والمولوك (٣) ولكن الهولنديين عملوا على طردهم من هناك فتركّز اهتمامهم التجاري على الأراضي الرئيسة لشبه الجزيرة الهندية (٤)، ولذا لم يكن لدى الشركة الانجليزية شيء تبيعه أو تقايض عليه بما تريد شراءه من بضائع الشرق فقد برزت مشكلة دفع أثمان البضائع الهنديّة وتحرّج مركزُ الشركة لتعذّر جلب الأموال والمسكوكات الفضيّة والذهبيّة من انجلترا وبخاصة لأن التجار كانوا يكرهون تصدير العملات الورقيّة والفضيّة والذهبيّة أشد الكراهية ولكنّ الشركة وجدت الحلّ في أنها

---

(١) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٩٢

(٢) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٨ - ٢٩

(٣) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٩٣

(٤) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٦١، ٦٢

اعتمدت سياسة نقل البضائع في المجال الإقليمي الشرقي ، والإفادة من فروق الأسعار واستغلالها في شراء التوابل ومن هنا قامت الشركة بجلب المنسوجات الهندية لبيعها في بانتام وملقا وشراء التوابل بالأرباح الناتجة عنها ، وهكذا وجد الإنجليز أن من الضروري أن يؤسسوا لهم مراكز دائمة في سواحل الهند .(١)

ولم يكن أمر تأسيس مراكز إنجليزية في سواحل الهند أمراً سهلَ المنال لأن البرتغاليين كانوا قد ثبّتوا أقدامهم هناك منذ ما يزيد على قرن من الزمان ، ولذا كان على الإنجليز أن يخوضوا معهم صراعاً مُرّاً قبل أن يُوجدوا لأنفسهم موطئ قدم على الساحل ، وهذا ما فعلوه حيث وطّدوا علاقاتهم مع الامبراطور المغولي جهانكير الذي كان يتطلع إلى الخلاص من البرتغاليين ، ولكنّه لم يكن يملك القوة البحرية التي تستطيع أن تُمكّنهُ من هدفه ولِـذا رَحّبَ بالوجود الإنجليزي ليستعين به على ذلك الهدف .(٢) واستولى الإنجليز بعد ذلك على سوالي سنة ١٦١٢ م – ١٠٢١ هـ ، ثم خاضوا عدّةَ معاركَ فيما بين سنتي ١٦١٢ – ١٦١٥ م – ١٠٢١ – ١٠٢٤ هـ قبل أن يستولوا على سورات ويُؤَمِّنوا حدودها من الهجمات البرتغاليّة المضادّة (٣) ، وذلك بتقليص النفوذ البرتغالي الذي انحصر في جوا ، وانحصرت معه الهيبة البرتغاليّة لدى أباطرة المغول (٤) ، وخاصة بعد أن قام الإنجليز بالقضاء على قراصنه البرتغاليين وغيرهم والذين كانوا يعترضون طريق حجيج مكة وينهبون بضائعهم وممتلكاتهم ويمنعونهم – بذلك – من أداء الفريضة الواجبة عليهم .(٣) ولا شكّ أن ذلك قد لَقِيَ استحسان الامبراطور المغولي وجعله يَتَلَطّفُ في معاملة الإنجليز . وهكذا كان لسفارة السير توماس رويي إلى بلاد المغول فيما بين سنتي ١٦١٥ – ١٦١٨ م – ١٠٢٤ – ١٠٢٧ هـ أثر كبير في تطوير النفوذ الإنجليزي ودعمه على الصعيد الإقليمي ، حيث أصدر الامبراطور المغولي فرماناً يمنح الإنجليز امتيازاتٍ كثيرةً منها حق التجارة وحق تأسيس المصانع، وقد دفعهم ذلك إلى تثبيت وتقوية مركزهم في سورات ، والـ

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٦٠ – ٦١ .(٢) أحداث فاصلة . علي الغنام
٣) إيران در زمان صفوية . أحمد بخش . ص ١٣١ .(٤) صراع القوى . محمد عدنان . ص ١٨٠ .
٥) المرجع السابق ص ١٢٠ .

اتخاذ الهند – بشكل نهائي – مركزاً لانطلاقهم التجاري [١] في مياة المحيط الهندي وقد كان لذلك أثره على بداية أفول نجم السيطرة البرتغالية في المحيط المذكور ، والذي بدأ في الأفول مع بداية صعود النجم البريطاني وظهور تفوقه للعيان [٢]

وكان تثبيت الانجليز لأركان مستعمرتهم في سورات ،بعد إضعافهم للنفوذ البرتغالي ودحره دحراً شبه تام من سواحل الهند الغربية سنة ١٦١٥ م – ١٠٢٤ هـ ، وكان يعني بداية انطلاقهم إلى سواحل أخرى مهمّة على امتداد المحيط ، وكانت النقطة التالية سواحل الدولة الصفوية والمراكز التجارية المهمّة في بلادها ، وخاصة أنه قد كان بين الطرفين مفاوضات تجارية وميل مشترك للتعاون ضد النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى بدا النفوذ الإنجليزي واضحاً في البلاط الصفوي إذْ أصدرَ الشاه عباس مرسوماً شاهنشاهياً سنة ١٦١٥ م – ١٠٢٤ هـ يمنح شركة الهند الشرقية الإنجليزية حقّ المتاجرة في فارس وبعد ذلك سمح للشركة بتأسيس مراكز تجارية لها في سائر المدن المهمّة كأصفهان وشيراز وجاسك [٣] وغيرها، وأخذت السفن الإنجليزية تظهر في منطقة الخليج العربي بدءاً من العام التالي متجاهلة سياسة الاحتكار البرتغالية [٤]، وتطورت العلاقات إلى أن تمّ تشكيل دبلوماسي سنة ١٦١٧ بين الإنجليز والدولة الصفويّة حيث حصلَ الإنجليز على مزيدٍ من الامتيازات الخاصة [٤].

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٧٠

(٢) الشاه عباس الكبير . بديع جمعة . د . ص ٢٣٥

(٣) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان . ص ١٧١

(٤) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . ص ٥٢

(٥ صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان . ص ١٧١

وشجع تطور العلاقات الانجليزية الصفوية الشاه عباس أن يطلب مساعدة الإنجليز لطرد القوات البرتغالية من الخليج العربي ، وخاصة بعد أن عقد اتفاقية سلام مع العثمانيين سنة ١٦١٨ م ـ ١٠٢٧هـ [١] . ولكن الإنجليز تردّدوا في التعاون معه لسببين هما : أن شركة الهند الشرقية شركة تجارية تُعنَى بحساب الربح والخسارة أكثر من اهتمامها بشؤون الخوض في حرب غير مضمونة ، وأن العلاقات الأسبانية الإنجليزية كان يسودها السلام وهو ما يعني معارضة الحكومة الإنجليزية لأي نشاط حربي ضد البرتغاليين من قبل الشركة . ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار سنة ١٦٢٠ م ـ ١٠٢٩هـ بداية التعاون الحربي بين الإنجليز والصفويين بهدف إقصاء النفوذ البرتغالي عن الخليج العربي . ففي العام المذكور تعاون العرب والفرس على تحرير بعض المواقع القريبة من رأس الخيمة على الساحل الغربي من الخليج ثم حاصروا جزيرة قشم لمنع وصول المؤن والمياه إلى هرمز [٢] وفي ذات الوقت أو بعده بقليل ، هزم الإنجليز أسطولاً برتغالياً مكوّناً من أربع سفن قرب جاسك ، واستولوا على إحدى سفنه وحوّلوها إلى سفينة حربية بريطانية [٣] .

وتصاعد التوتر في منطقة الخليج ، وبدا أنّ الإنجليز والصفويين مزمعون على طرد البرتغاليين من الخليج العربي نهائياً وأن البرتغاليين مزمعون أيضاً على المقاومة حتى النهاية ، ففي سنة ١٦٢١ م ـ ١٠٣٠ هـ نقل الإنجليز مركزهم التجاريّ من جاسك إلى جمبرون (بندر عباس) القريبة من هرمز ، وعززوه بحامية حربيّة قوية [٤] ، وردّ البرتغاليون على التحركات الحربيّة الإنجليزية والصفويّة بأن أخذوا يتعرّضون للسفن الإنجليزية وغيرها في المناطق القريبة من الموانىء الخاضعة لنفوذهم كصحار وخورفكان ومسقط [٥] .

---

(١) تاريخ روابط إيران . ص ٦٦٠

(٢) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ٣٨

(٣) Low, Hist of the Indian Navy, Vo 12 ,p 38/ and Danvers, The port vguss in Indja, p 21o

(٤) Danvers. op. cit, p 211

(٥) دليل الخليج . القسم التاريخي . لوريمر . ج ١ ص ٤٠

وتصاعدت بذلك حدة التوتر إلى أن قام الصفويون بمعاونة الإنجليز بتحرير هرمز سنة ١٦٢٢م ١٠٣١هـ وتحولت الحرب بعد ذلك إلى المياه البحرية حيث بلغت ذروة القسوة ، دون أن يسترد البرتغاليون ما فقدوه من نفوذ ، وآل الأمر بأن اكتفوا بتقوية منافستهم التجارية للانجليز في ميناء البصرة (١) حيث واظبوا على ذلك حتى سنة ١٦٤٠م ـ ١٠٤٩هـ ، أما (٢) على الساحل الفارسي ، فقد قنعوا بإقامة وكالة تجارية في كنج وذلك لمنافسة الوكالات الإنجليزية وخاصة تلك التي أقيمت في بندر عباس .

وحقق انتصار هرمز للإنجليز مزيدا من الامتيازات التجارية والاقتصادية في فارس وفتح آفاقاً جديدة أمام تغلغلهم الاستعماري وهيمنتهم السياسية في منطقة المحيط الهندي عامة وفي سواحل الخليج العربي على وجه الخصوص (٣). ولا غرو في ذلك فقد ازدادت قدرتهم على مواجهة البرتغاليين وعلى حماية مصالحهم الاقتصادية من تهديدهم المباشر ، وحصلوا على إذن عملي يسمح لهم بإنزال قوة عسكرية يدعمها أسطول حربي بشكل دائم (٤) ، وأصبحت ـ بذلك ـ السفن الإنجليزية تمخر عباب الخليج العربي دون إذن مسبق من البرتغاليين الذين لم يعودوا يشكلون منافسة حقيقية لهم كما كانوا (٥) من قبل، وفضلا عن ذلك فإن الإنجليز قد حصلوا على مزيد من الامتيازات في الجانب الفارسي والتي لم تمنحهم أفضلية تجارية فحسب ، بل وفرت الحماية والرعاية لجميع الرعايا الإنجليز في الدولة الصفوية .

---

(١) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٢ .

(٣) Sykes ,op. cit , p 194 .

(٤) الشاه عباس الكبير . بديع جمعة . د . ص ٢٦١

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

ورغم الهزيمة السياسية التي لحقت بالبرتغاليين بعد معركة هرمز ومحاولاتهم لاستردادها فإن منافسة البرتغاليين للانجليز لم تتوقف وظلوا يقاومون توسعهم السياسي والاقتصادي على حساب المصالح البرتغالية ، فمن جهة ظل البرتغاليون يُصرّون على التظاهر بالهيمنة على الخليج العربي ويطلبون من السفن أن تحصل على إذن مسبق منهم قبل أن تدخل فيه ومن جهة أخرى تحدّاهم الإنجليز ورفضوا الالتزام بالمطالب البرتغالية ، بل ماهو أكثر من ذلك أن شركة الهند الشرقية الإنجليزية قد أصدرت تعليماتها إلى الكابتن سوانلي SWANLY الذي كان يقود أسطولا إنجليزيا مكوّناً من خمس سفن • في منطقة الخليج العربي فيما بين سنتي ١٦٢٨ ـ ١٦٢٩ م ـ ١٠٢٧ ـ ١٠٢٨ هـ بأن يتعقب السفن البرتغالية ويقوم بضربها وتدميرها أينما ظفر بها وقد ردّ البرتغاليون على ذلك بأن حاول نائب الملك البرتغالي في جوا سنة ١٦٣٠م ـ ١٠٣٩ أن يحاصر مركز الإنجليز الرئيسي في سورات ويمنع الأساطيل الإنجليزية من الوصول إليه ، ولكنّه فشل في ذلك رغم مساندة قواته البرية له من جهة سواحل كرمان الجنوبية (١) .

وأدى تحسن العلاقات الإنجليزية الأسبانية سنة ١٦٣٤ ـ ١٠٤٣ هـ إلى تحسين العلاقات وتهذيب روح التنافس بين الإنجليز والبرتغاليين في مياه المحيط الهندي وتطورت العلاقات السلمية بأن وقّع نائب الملك البرتغالي في جوا مع المعتمد البريطاني في ميناء سورات على هدنة عسكرية في مايو من نفس العام ، وبذا توقفت المصادمات بين الطرفين في تلك البقاع ، وتبعاً لذلك أصدرت شركة الهند الشرقية تعليماتها إلى وكلائها في الخليج العربي وخاصة في بندر عباس وجنوب فارس بوجوب اتخاذ موقف الحياد في أي نزاع قد يحدث بين البرتغاليين والصفويين ويبدوا أن العلاقات الودية قد استمرت في التحسن في ذلك الحين إذ تحولت معاهدة الهدنة إلى معاهدة صداقة وقّعها الطرفان في جوا سنة ١٦٣٦ م . (٢)

---

(١) العلاقات البرتغالية . محمود الداود . د . د ص ٢٥١ . وصراع القوى في المحيط الهندي • محمد عدنان مراد . ص ١٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص٢٥٢ .

واتبعت انجلترا بدءاً من عام ١٦٣٥ م ـ ١٠٤٤ هـ سياسة (المركانتلزم) في المجال التجاري ، والتي تعني حرية التجارة فتأسست تبعاً لذلك شركة انجليزية جديدة لتعمل على نفس أهداف الشركة القديمة وأهمها التجارة مع المستعمرات البرتغالية في الشرق وقامت بين الشركتين الإنجليزيتين منافسة شديدة إذ أسست الشركة الجديدة عدة مراكز لها في الهند [١] ، في حين أخذت الشركة القديمة في التوسع بحذر حيث أقامت لها سنة ١٦٤٠ م ـ ١٠٥٠ هـ وكالة في ماسوليباتام ، وأسست قلعةً في مدراس بإمبراطورية فيجايانا جار ولم يأت عام ١٦٤٧ م ـ ١٠٥٦ هـ حتى كان لها في المحيط الهندي أكثر من ثلاث وعشرين مركز تجاري [٢] واشتدت المنافسة بين الشركتين ـ أيضا ـ على التجارة مع الدولة الصفوية ولكن هذا التنافس قد انتهى وتمّ تنسيق الجهود الإنجليزية من جديد باتحاد الشركتين سنة ١٦٤٩ م ـ ١٠٥٨ هـ في شركة جديدة على أن تقتسم أموالها وأرباحها مناصفة وعرفت هذه الشركة باسم (اتحاد آساد) أو اتحاد وليام كورتين [٣] .

واستمر الإنجليز بعد ذلك في تغلغلهم السياسي والاقتصادي في منطقة المحيط الهندي ، حيث استطاعوا سنة ١٦٤٠ م ـ ١٠٤٩ هـ ، أن يحصلوا على عدد من التسهيلات والامتيازات في ميناء البصرة بالتفاهم مع حاكمها العثماني ، وكذلك احتفوا بعلاقات ودّية في الغالب ـ مع دولة اليعاربة وذلك بالرغم من أنهم لم يستغلوا الامتيازات والتسهيلات [٥] التي منحت لهم في مسقط سنة ١٦٥٩ م ـ ١٠٦٩ هـ [٦] .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٢١

(٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٦١

(٣) المرجعين السابقين ، نفس الصفحات .

(٤) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ١٦٨

(٥) (59 Boxer, C.R. cit, p 29

(٦) لمزيد من التفصيل انظر الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ١٠٩ - ١١٠

وبعد ذلك واصل الإنجليز تغلغلهم السياسي في مياه المحيط الهندي ، دون أن ينازعهم البرتغاليون ، حيث كان نجمهم قد أفَلَ على نحو شبه تام ، ولم يعد لهم نشاط يُعْتَدُّ به في تلك المنطقة .

* * *

وكانت هولندا من أهم القوى الأوربية التي قدمت إلى مياه المحيط الهندي على إثر الاستعمار البرتغالي ، ومن جرّاء سياسته التجارية القائمة على الاحتكار ، والاعتداد بالمصالح والفوائد البرتغالية دون سواها . ومما يذكر أن هولندا كانت تابعةً لأسبانيا في النصف الأول من القرن السادس عشر . وأنها ثارت على السياسة الاقتصادية والدينية لملك أسبانيا فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ م ـ ٩٦٥ هـ . وظلت تناضل من أجل استقلالها حتى حصلت عليه سنة (١) ١٥٨١ م ـ ٩٩٠ هـ أي بعد سقوط البرتغال في يد أسبانيا بعام واحد . وهكذا شاءت الأقدار أن تضم أسبانيا لسيادتها دولة أوربية لتفقد في ذات الوقت تقريباً السيادة على دولة أوربية أخرى .

وكان من الطبيعي أن يشب العداء بين الدولة الأم والدولة المنفصلة عنها بالقوة منذ البدء ، وتَجَلَّى ذلك ـ أكثر ما تَجَلَّى ـ في السياسة الاقتصادية لكلا البلدين ، حيث مَنَعَتْ أسبانيا البرتغاليين من المتاجرة مع هولندا (٢) وظل الملك الأسباني فيليب الثاني يحاول القضاء على التجارة الهولندية ، ويعرقل سبل اتصالها بالهند (٣) بشتى الوسائل ، وقد ولدت هذه السياسة بالإضافة إلى لجوء البرتغاليين إلى رفع أسعار البضائع الشرقية وخاصة التوابل (٤) ردَّ فعلٍ قوي لدى الهولنديين الذين أصبحوا أكثر قوة وتشوقاً للاتصال

---

(١) أفريقيا الشرقية . السيد رجب . د ، ص٢٤ وللمزيد من التفصيل انظر:
Rise pf the Dutch Republic, in the world's Great Events, by Richard lodge, pp151-165

(٢) النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ص١٨١

(٣) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص٢٦٢

(٤) (4) Boxer , C.R, The Dutch.. pp 23- 24

المباشر بمصادر التجارة الشرقية في المحيط الهندي [١] ، ولذا نجدهم يفكرون في حرمان الأسبان من مصدر ثروتهم ، وخاصة بعد أن ضموا البرتغال إلى دولتهم وسيطروا على تجارتها الشرقية ، وكان لابد من ركوب البحر واللجوء إلى المنافسة [١] التجارية بالإضافة إلى مهاجمة الممتلكات البرتغالية في الشرق باعتبارها أجزاء من الامبراطورية الأسبانية [٣] .

وبدأت هولندا نشاطها الفعلي باتجاه المحيط الهندي سنة ١٥٨٣ م ـ ٩٩٢ هـ ببعثة لينشوتن الذي قام بجمع الكثير من المعلومات وبإجراء العديد من الدراسات الاقتصاديّة المهمة وقد جاء بَعْدَه أحدُ التجار الهولنديين المعنيين بحركة التجارة الدولية ، وهو هوتمان ، الذي تابع أبحاث لنشوتن وأجرى العديد من الدراسات الاقتصاديه المُعَمّقة الأخرى [٤] . ثم جاء تدمير الأسطول الأسباني على أيدي القوات البحرية الإنجليزيّة سنة ١٥٨٨ م ـ ٩٩٧ هـ دافعاً جديداً للهولنديين ، الذين استفادوا من ذلك مع كافة بلدان الأراضي المنخفضة في شمال أوربا ، أكثر من الإنجليز أنفسهم [٥] . ومما يذكر أن الهولنديين قد بدأوا نشاطهم التجاري في مياه البحر المتوسط بعد ذلك بعامين [٦] وأنهم دخلوا مجال تجارة المحيط الهندي برحلة هوتمان الثانية ، التي تمت فيما بين سنتي ١٥٩٥ ـ ١٥٩٧ م ـ ١٠٠٥ ـ ١٠٠٦ هـ ، وفي الوقت الذي تمكنوا فيه من هزيمة الأسبان براً وبحراً [٧] .

---

(١) العلاقات البرتغالية . محمود الداود . د . ص ٢٦٢

(٢) التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي . هيفاء عبد العزيز ص ١٩٩ والنفوذ البرتغالي . نوال الصيرفي . ص ١٨١ - ١٨٢

(٣) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٤ - ٢٥

(٤) Boxer, c.R, op. cit, pp 23-24 والعلاقات البرتغالية . محمود الداود . د . ص ٢٦٢ . وغزاة الخليج . هيفاء الربيعي ص ٢١-٢٢

(٥) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٨٢ . وصراع القوى . محمد عدنان . ص ١٦٤

(٦) المرجع السابق ص ١٧٩ . (٧) أفريقيا الشرقية . السيد رجب حراز . د . ص ٤٤

ورغم أن هوتمان قد فقد في رحلته تلك قسماً كبيراً من بحارته وسفنه وأنّه حقق ربحاً محدوداً[1] فإنه نجح في فتح أبواب أرخبيل الملايو أمام حركة التجارة الهولندية ، وذلك بعقده أول اتفاقية للتجارة الهولندية في مياه المحيط الهندي مع حاكم بنتام [2] ، ويعتبر ذلك أول نصر تحققه التجارة الهولندية هناك . وواصل الهولنديون تفوقهم بعد ذلك ، متعمدين على قوتهم البحرية من جهة وعلى المركز التجارى الهام الذي كانت تتمتع به أمستردام من جهة ثانية ، وعلى الأمل في الحصول على الأرباح الطائلة التي كان يجنيها البرتغاليون من جهة ثالثة [3] وأخيرة .

وإذا كان الهولنديون قد قرّروا تأسيس شركة للتجارة مع المحيط الهندي سنة ١٥٩٢ م – ١٠٠١ هـ ، وإذا كانوا قد بدأوا نشاطهم التجارى الفعلي برحلة هوتمان سنة ١٥٩٥م – ١٠٠٤ هـ ، والتي كانت من أربع سفن وبرأسمال قدره مائتان وتسعون ألف فلورن [3] ، وقد قُدِّر ربحها بثمانين ألف فلورن [4] ، فإن ذلك قد دعا التجار الهولنديين لأن يمارسوا التجارة مع بنتام وجاوه وسومطرة على نطاق واسع منذ ذلك الحين [6] . ومما يذكر أن نسبة أرباحهم قد زادت بسرعة وذلك بازدياد خبرتهم ومعرفتهم العملية بتجارة المحيط الهندي ومن ذلك أن أحد التجار قد حقق ربحاً من رحلة تجارية قام بها للهند سنة ١٥٩٨ م – ١٠٠٩ هـ ، قُدِّر بـ ٤٠٠ ٪ [7] .

---

(١) العلاقات البرتغالية . محمود الداود ، ص ٢٦ وقُدر الربح بثمانين ألف فلورين (بانيكار ص ٥٦)

(1) Boxer , C.R, op. cit, p 24

(٢)

(٣) فتح العثمانيين عدن . محمد عبد اللطيف البحراوي . د . ص ١٠٨

(٤) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٨٣

(٥) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٦

(٦) فتح العثمانيين عدن . نفس الصفحة .

(٧) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٦٤

وهكذا اندفع الهولنديون نحو تطوير تجارتهم مع الشرق بحماسٍ بالغ ودخلوا بها في طور جديد كان أوسع مجالاً وأكثر تنظيماً وقدرةً . إذ اتفق بعض التجار ، في نفس العام على تأسيس شركة تجارية عرفت باسم شركة الأراضي البعيدة في أمستردام وذلك بهدف التجارة مع جزر الهند الشرقية (١) ، وأعقب ذلك تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية سنة ١٦٠٢ ـ ١٠١١ هـ ، وذلك من خلال تكوين اتحاد ضخم بين عددٍ من الشركات الخاضعة لحكومة اتحاد المقاطعات الهولندية (٢) . وقد أُسست هذه الشركة برأس مالٍ ضخم ، ومُنِحَتْ حقوقاً واسعةً كحقّ احتكار التجارة الشرقية ، وحق عقد المعاهدات مع الدول الآسيويّة ، وحق وضع اليد على الأراضي ، وممارسة حقوق السيادة الكاملة عليها ، وحق بناء الحصون والقلاع ، وتجهيز الجيوش وشن الحرب (٣) ، وبذلك تكون هولندا قد تخطّت مجرد الدور التجاري وبدأت مرحلة المنافسة الاستعمارية الكاملة مع البرتغاليين الذين سبقوهم إلى مياه المحيط الهندي بنحو قرن من الزمان . وعزز الهولنديون هذا الطور بأن نقلوا مركزهم التجاري من بنتام إلى بتافيا في جاوة وزوّدوه بحاميةٍ عسكريّةٍ قوية ثمّ سيطروا على باقي الجزيرة تدريجياً ، ومنها انطلقوا إلى باقي الجزر الهندية الغنيّة بالبهار (٤) .

ويعزو بعضُ الباحثين سبب تقرب شركة الهند الشرقية الهولندية من حكام جزر الهند الشرقية ، إلى أن الشركة كانت تهدف في البداية إلى توسيع نطاق التجارة دون محاولة الاستعمار في مناطق المحيط الهندي ، وأن محاولات التقرب المذكورة كانت من أجل الحصول على الامتيازات مع البعد عن الخلافات والصدامات (٥) ، وربما كان مثل هذا القول فيه كثير من التسامح (٦) لأن الهولنديين هدفوا منذ البدء إلى احتكار تجارة التوابل

---

(١) (1) Boxer, op cit, p 23

(٢) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د . ص ١٠٨ . وصراع القوى . محمد عدنان ص ١٦٥

(٣) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٥

(٤) المرجع السابق ص ٢٦ .

(٥) غزاة الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٢٤

(٦) (1) Saldanhe, the East Indi,Vol;p lol

التي كان يسيطر عليها البرتغاليون ،وكانت تمدهم بمصدر قوتهم وتفوقهم في أوربا ، ولأنهم هدفوا إلى الانتقام من الأسبان والبرتغاليين [١]، بالاستيلاء على مستعمراتهم في الشرق وأنهم قد عقدوا من أجل ذلك عدة معاهدات وأحلاف [٢] مع الحكام الوطنيين في تلك المناطق . ومن ذلك أنهم عقدوا اتفاقية تعاون مشترك مع الزامورين حاكم مليبار سنة ١٦٠٤ م - ١٠١٣ هـ - وتحالفوا معه على طرد البرتغاليين من أرض مليبار وسائر أرجاء الهند . وبناء على هذه المعاهدة بدأ الهولنديون جهودهم بمحاولة الحلول محل البرتغاليين في جزائر أندونيسيا التي كانت قبضة البرتغاليين عليها لازالت ضعيفة [٣] ، وفي سنة ١٦٠٥ م - ١٠١٤ م - احتلوا أمبونيا [٤] . وكانوا قد بدأوا هجماتهم على مختلف مراكز البرتغاليين في مياه المحيط الهندي لدرجة أنهم قد هاجموا ، فيما بين سنتي ١٦٠٤ م - ١٦٠٨م - ١٠١٣ - ١٠١٧ هـ موزمبيق ثلاث مرات ،ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها [٥].

وهكذا أخذ الهولنديون يكثفون جهودهم لاحتكار التوابل [٦] ، فمن جهة سيطروا على عدد من المراكز البرتغالية في سواحل الهند كأمبونيا وتيدور [٧]، وهاجموا عدداً آخر من المراكز القنصلية أو الأساسية في طريق التجارة الشرقية ،وعملوا على منع الحكام المحليين في بنتام وأمبونيا وترنات وغيرها من التعامل التجاري مع الإنجليز [٨] ،وأخذوا منذ عام

---

(١) التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي . هيفاء الربيعي . ص.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : الخليج العربي . قدري قلعجي . ص ٢٨٤

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٦ .

(٤) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٦٤

(٥) أفريقيا الشرقية . السيد رجب حراز . ص ٢٦ . والبرتغال في أفريقيا . دفي . ص ٢١

(٦) (7) Boxer. op. cit, p 189

(٧) (8) Ibid , p 191

(٨) (9) Saldanha, op. cit, Vol, 3, p 49

١٦٠٦ م – ١٠١٥ هـ يحاصرون مضايق المحيط الهندي (١)، وكانوا يهاجمون السفن البرتغالية، وخاصة بعد أن ضعف موقف أسبانيا البحري بعد تدمير أسطولها سنة ١٦٠٧ م – ١٠١٦ هـ. ومما يذكر أن أسبانيا قد اضطرت إلى مهادنة هولندا سنة ١٦٠٩ م – ١٠١٨ هـ (٢)، وقد أتاحت هذه الاتفاقية، رغم أن نائب الملك في الهند قد رفض تنفيذها والتقيد بها، الفُرصَةَ للهولنديين لأن يتوسعوا على حساب المستعمرات البرتغالية، دون أن تلقى معارضة أسبانية في أوربا (٣).

وهكذا لم يأت عام ١٦١٢ م – ١٠٢١ هـ حتى كان الهولنديون أكبر قوة أوربية في المياه الشرقية (٤) ولا غرو في ذلك، فقد أرسلوا، قبل نهاية القرن السادس عشر إلى مياه المحيط الهندي نحو خمس وستين سفينة (٥)، وبلغ عدد أساطيلهم التي اتجهت إلى الشرق فيما بين سنتي ١٥٩٨ – ١٦٠١ نحو ثلاثة أو خمسة عشر أسطولاً (٦) ولم يأت عام ١٦١٢ م – ١٠٢١ هـ حتى كان للهولنديين في مياه المحيط الهندي نحو ست وعشرين سفينة كبيرة، تساند عدداً كبيراً من السفن الأصغر حجماً (٧) وقد كانت هذه السفن مسلحةً تسليحاً يفوق تسليح السفن البرتغالية كما كانت تتميز ببحارتها الأشدّاء وتجهيزاتها الخاصة بمواني آسيا (٨) فضلاً عن روح الحماسة الزائدة، التي تحلوا بها في الوقت الذي أصيب فيه البرتغاليون بالفتور (٩)، وفضلاً عن الدعم المادي والمعنوي الذي كانت الشركة تلقاه من حكومتها (١٠).

---

(١) Ibid   (٢) أفريقيا الشرقية. السيد رجب. د. ص ٢٤

(٣) علاقة ساحل عمان ببريطانيا. عبد العزيز عبد الغني. د. ص ٤٤.

(٤) أفريقيا الشرقية ص ٢٦

(٥) غزاة في الخليج. هيفاء الربيعي. ص ٢٣   ٦) العلاقات البرتغالية. محمود علي

(٦) الداود. د. ص ٢٦٣. وعلاقة ساحل عمان. عبد الغني ص ٤٢

(٧) صراع القوى في المحيط الهندي. محمد عدنان مراد. ص ١٦٥ – ١٦٦

(٨) Boxer, op. cit, p 199

(٩) صراع القوى. محمد عدنان مراد. نفس الصفحة.

(١٠) saldanha, op. cit, Vol,1 p 85

وخاصة أنها كانت تتمتع بموارد مالية ضخمة وتدر أرباحاً طائلة قُدِّرَتْ بنحو اثني عشر مليـون فلورن [١] ، وذُكِرَ أنّ متوسط نسبة الربح سنة ١٦١٠ م – ١٠١٩ هـ – مثلا – كانـت نحـو ١٣٢,٥ ٪ [٣] . ومهما يكن من أمر فإنه لم يمْضِ وقتٌ طويل من القرن السابع عشـر حتى أصبح للشركة الهولندية جيش قوامه نحو عشرة أو اثني عشر ألف رجل ، بالإضافـة إلى قوة بحرية تضم ما بين أربعين وستين سفينة حربية . [٤]

وبدأ الهولنديون يوسعون من دائرة اهتمامهم ومنافستهم للبرتغاليين منذ سنـة ١٦١٧ م – ١٠٢٦ هـ حيث بدأوا مفاوضاتهم التجارية مع الصفويين [٥] ، وأعقبوا ذلك بأن أخذوا [٦] في العام التالي في فرض سيطرتهم التجارية بالقوة سواء السياسية أو العسكريـة و في سنة ١٦١٩ م – ١٠٢٨ هـ نقلوا مقرهم الرئيسي إلى بتافيا (جاكرتا الحاليـة) الواقعة في جزيرة جاوة [٧] وذلك ليُقَوُّوا قبضتهم الاستعمارية على تلك المنطقة من جـزر الهند الشرقية ، ولأنها كانت تنعم بقسط كبير من ثروات بحار الهند [٨] . وعلى أيِّ حال فقد كان احتلالها تمهيداً لإقامةِ سلسلةٍ من المراكز في جزر سيليبس (الملوك) [٩] .

ويرتبط مجيء الهولنديين إلى الخليج العربي بالمساعدة الحربية التي قدموهـا للإنجليز في مواجهة البرتغاليين في سلسلة معارك خارج بندر عباس [١٠] ، بهدف التصدي للنفوذ البرتغالي في المحيط الهندي عامة وفي مياه الخليج العربي بوصفه أحد المناطـق

---

(١) صراع القوى . محمد عدنان مراد . ص ١٦٥
(٢) Daldanha, op. cit, Vol, 1 p 85
(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٧
(٤) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٢٤
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٠ (٦) المرجع السابق ، ص ٢٧ .
(٧) صراع القوى . محمد عدنان مراد . ص ١٦٠ .
(٨) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٧
(٩) صراع القوى . محمد عدنان مراد . ص ١٦٦
(١٠) التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الانجليزي الهولندي . هيفاء الربيعي ص ٢٠٢

الفاعلة بقوة في حركة التجارة الدولية على وجه الخصوص [١]. ومهما يكن من أمر فـــإن الهولنديين قد تمكنوا من تأسيس وكالة تجارية هولندية في بندر عباس سنة ١٦٢٢ م – ١٠٣١ هـ ، وبذلك بدأوا عملية التبادل التجاري مع الصفويين [٢]، وحصلوا على مجموعة كبيرة من الامتيازات شأنهم في ذلك شأن الإنجليز – كالسماح لهم بالبيع والشراء داخـــل أراضي الدولة الصفوية والإعفاء من الرسوم الجمركية والضرائب وتوفير الدور المحصنة والطعـــام والشراب ووسائط النقل وتوفير الحماية وحرية العبادة وحق التعويض عن تلف البضائع [٣]. وما يذكر أنه قد تم تعزيز التسهيلات التجارية الممنوحة للهولنديين في العام التالي [٤]. ومُنحوا حق إقامة الكنائس ودور العبادة [٥] وقد هدف الشاه عباس من وراء ذلك إلـــى الحصول على مساعدة الهولنديين له في حربه مع العثمانيين من جهة وفي عملية تحرير مسقط من البرتغاليين من الجهة الأخرى . ولكن الهولنديين لم يُبدوا أيّ استجابة فعلية لهذيـــن المطلبين ، وإن كان الملك البرتغالي قد أبدى استعداداً شفهياً بالمساعدة في مهاجمــــة البرتغاليين في منطقة الخليج العربي [٦]. وهكذا يبدو مجافياً للصواب ما ذهب إليــــه البعض من القول بأن الهولنديين كانوا توّاقين لمساعدة الفرس إذا ما هاجموا مسقط [٧]، ولو كانوا كذلك لما منعهم مانع ، حيث كانت الظروف كلها مُهيّأة لمتابعة العمل الحربـــي ضد البرتغاليين بعد هزيمتهم في هرمز .

---

(١) زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ٥ ص ١٧٠

(٢) دليل الخليج . لوريمر . جـ ١ ص ٣ د . وأحداث فاصلة . علي الغنام

(٣) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٤٠ - ٤١

(٤) Soldanha, op. cit, Vol,1, p 93

(٥) زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . جـ ٥ ص ١٧١

(٦) المرجع السابق جـ ٥ ، ص ١٧٥ _ ١٧٦ . Soldanha, op.cit, Vol,1 p 12,

(٧) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ١٦١

كان الهولنديون يعلمون مدى حاجة القوات الصفوية البرية إلى مساندة عسكرية بحرية ولذا كانوا يلجأون إلى إسالة اللعاب الفارسي كلما احتاجوا إلى امتيازات تجارية جديدة ومن ذلك أنهم أبدوا استعدادا لمساعدة الصفويين على مهاجمة مسقط وحصلوا في مقابل ذلك على كثير من الامتيازات والتسهيلات الجديدة في بندر عباس [١] ، ومع ذلك لم يقدموا أية مساعدة تذكر ، بل على العكس من ذلك نجدهم بعد عدة سنوات يهاجمون جزيرة قشم ويستولون عليها ويعلنون أنها تابعة للسيادة الهولندية ، وكان ذلك سنة ١٦٤٥ م - ١٠٥٤ هـ [٢] ، ومن الواضح تماماً أن هذا التصرف يعني العمل ضد الإرادة الصفوية تماماً ، وأنه لم يكن إلا لتقوية القبضة الهولندية على الخليج العربي وجعلها أكثر قدرة على منافسة القوى البحرية الموجودة في المنطقة .

ويرجع الفضل في التمكين للنفوذ الهولندي وتقويته على حساب البرتغاليين وغيرهم من القوى البحرية في المحيط الهندي إلى أنطون فان ديمين الذي عين نائباً عاماً على المستعمرات الهولندية في تلك المنطقة سنة ١٦٣٣ م - ١٠٤٢ هـ ، فهو الذي مهد لقيام الامبراطورية الهولندية في الشرق وقضى على الوجود البرتغالي هناك بشكل شبه نهائي ففي سنة ١٦٤١ م - ١٠٥٠ هـ انتزع ملقا من البرتغاليين وكانت صولجان عظمتهم في الشرق وأساس النظام الدفاعي البرتغالي الذي وضعه البوكير قبل أكثر من قرن من الزمن . [٣]

وهذا يعني أن البناء السياسي والعسكري البرتغالي قد أخذ يتهاوى ، حيث تمكن الهولنديون بالسيطرة على ملقا من السيطرة على مضايق سوندا وملقا والبحار الواقعة بين جزيرتي بورنيو وسومطرة والتي كانت تمر عبرها السفن القادمة من المحيط الهندي إلى البحار الشرقية أو العكس . [٤]

---

(١) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٥٤

(٢) دليل الخليج . لوريمر . ج ١ ص ٦٥

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٧

(٤) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٦

وقد مكنهم ذلك من الالتفات إلى تجارة الهند نفسه والتي كانت لا تزال في يـــد البرتغاليين إلى حد ما (١).

وكان النفوذ البرتغالي في مياه المحيط الهندي قد أخذ في الاضمحلال السريــع مع حلول منتصف القرن السابع عشر تقريباً ، إذ فقدوا سنة ١٦٤٩ م ـ ١٠٥٨ هـ مركزهم في الخليج بتحرير اليعاربة لمسقط ، وجاءت الضربة التالية بعد ذلك بقليل حين أقـام الهولنديون سنة ١٦٥٢ م ـ ١٠٦١ هـ مركزاً هولندياً في منطقة الكاب بجنوب أفريقيا عند رأس الرجاء الصالح ، لمنافسة البرتغاليين في موزمبيق ، ولاتخاذه محطة لإصلاح السفـن الهولندية وتموينها (٢). واحتل الهولنديون بعد ذلك بعامين كولمبو عاصمة سيـلان ، وبذلك يكونوا قد استولوا على الجزيرة وطردوا البرتغاليين منها نهائياً . وفي سنة ١٦٦٠م ١٠٦٩ هـ استولوا على كوتشين التي كانت أولى القواعد البرتغالية في الشرق ، وتبع ذلـك سقوط المحطات التجارية البرتغاليه الصغيرة الواحدة بعد الأخرى في يد الهولنديـين الذين أخذوا يخوضون حرباً منظمةً للقضاء على كلّ أثرٍ للبرتغاليين في تجارة المحيط الهندي البحرية . (٣)

وهكذا تغلغـل الهولنديون في مياه المحيط الهندي على حساب البرتغاليـــن الذين لم يبق في أيديهم في شرق المحيط الهندي سوى جوا وجزيرتي دامان وديو الصغيرتين . أما في غرب المحيط الهندي فكان نفوذهم على سواحل أفريقيا الشرقية مهتزّاً تماماً ، ولم يعد تحت سيطرتهم القوية سوى منطقه موزمبيق ، مع ملاحظة أنّ تجارة شرق أفـريقيا كانـت تعتمد إلى حدٍّ كبيرٍ على المنتجات الهندية التي كانت تخدم التجارة الدولية ، والتي خرجت من يد السيطرة البرتغاليه بكلّ تأكيد .

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٧

(٢) أفريقيا الشرقية . السيد رجب حراز . د . ص ٢٦ . وصراع القوى . محمد عدنان ١٦٥

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . نفس الصفحة .

ومما يذكر أنه قد تمّ تثبيت هذا الوضع نهائيا عندما عُقِدَ اتفاق سلام بين هولندا والبرتغال سنة ١٦٦١ م ـ ١٠٧٠ هـ ، وتمّ تثبيت أقدام الهولنديين في مياه المحيط الهندي (١) حيث أصبحوا القوة الرئيسية المسيطرة ، في حين كانت البرتغال قد أصبحت دولة من الدرجة الثالثة (٢) وفقدت كلّ قدرتها على المنافسة الدولية .

* * *

وإذا كانت الرغبة في منافسة البرتغال ومُزَاحَمَتِها على خيرات المحيط الهندي وفي السيطرة على تجارة المسلمين قد دفعت القوى الأوربية ، وعلى رأسها الإنجليز والـ الهولنديون ، إلى الزج بجيوشها وأساطيلها وتجارها إلى الشرق ، فإن مالا شكّ فيه أن روح المنافسة هذه قد سيطرت على القوى الأوربية الجديدة وشكّلت عاملاً مُهِمّاً من عوامل نموها وتطورها في الشرق خاصة . كما شكلت وجهاً من وجوه مقاومة الاحتكار التجاري والهيمنة السياسية التي تميّزتْ بها السياسية البرتغالية في مياه المحيط الهندي لأكثر من قرن من الزمن .

ولما كانت روح المنافسة هي السائدة بين الهولنديين والإنجليز فقد اتبع الطرفان عدداً من الأساليب التنافسية ليحقق كلّ منهما التفوق على الآخر . وإذا كان الإنجليز قد ركّزوا على القنوات الدبلوماسية وعلى الحصول على امتيازات تجارية خاصة بشركتهم فإن الهولنديين كانوا ميالين لاتباع أساليب أقرب إلى الروح التجارية ، وليس معنى ذلك أن كل طرف منهما قد أغفل الجوانب التنافسية الأخرى التي ركّزَ عليها خصمه ، لأن كلّا منهما كان يستخدم الأسلوب الذي يناسبُ ظروفه وفرصته .

---

(١) علاقة ساحل عمان ببريطانيا . عبدالعزيز عبدالغني . د . ص ٤٥

(٢) التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي . هيفاء الربيعي . ص ٢٠٢

لقد عملت الشركة الإنجليزية منذ تأسيسها على مزاحمة الشركة الهولندية في البحار الشرقية ، ولما كان الهولنديون قد خصّوا أنفسهم بالتمركز في جزر الهند الشرقية ، فقد اختار الإنجليز السواحل الغربية للهند (١) كموقع تجاري استراتيجي يمكن من خلاله منافسة الهولنديين والبرتغاليين على حدٍّ سواء ، وذلك بالرغم من أن الهولنديين قد رحّبوا أول الأمر بمجيء الإنجليز الذين قد يساعدونهم (٢) على إقصاء النفوذ والمنافسة البرتغاليين على اعتبار أن البرتغال ومعها أسبانيا عدوٌّ مشترك للطرفين سواء في الغرب أم في الشرق . ومن قبيل الأساليب الدبلوماسية التي اتبعها الانجليز أن شركة الهند الشرقية الإنجليزية لم تعارض منذ البدء التغلغلَ الفارسيَّ في مياه الخليج العربي حيث كان الانجليز حريصين على تأكيد السيادة الفارسية على السواحل الشرقية للخليج لتحقيق مزيد من المكاسب الاقتصادية والامتيازات التجارية ، ولم ينجح الإنجليز - بذلك في منافسة الهولنديين فقط (٣) ، ولكنهم نجحوا - أيضاً - في منافسة البرتغاليين في إضعاف قبضتهم الاستعمارية وسياستهم الاحتكارية في الخليج العربي .

ولما كان هدف الهولنديين - منذ البدء - العمل على احتكار تجارة التوابل التي كانت تجارتها تحقق أرباحاً خيالية في أوربا (٤) ، فقد كانوا على استعداد لبذل أقصى ما يمكن بذله في سبيل ذلك لدرجة أنهم استباحوا لأنفسهم أساليب المنافسة المشروعة وغير المشروعة على حدٍّ سواء ، ومن ذلك أنهم عَمَدُوا إلى الاساءة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية لتشويه سمعتها لدى الصفويين بشتى السبل (٥) ، وعَمَدوا - كذلك - إلى

---

(١) أفريقيا الشرقية والاستعمار الاوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٨

(٢) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د . ص ١٠٨

(٣) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ١١٦

(٤) (4) Soldanha, op. cit, Vol, 1, p lol

(٥) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٤٥

أسلوب التلاعب بالأسعار ، وبدأوا ذلك برفع أسعار التوابل في أواخر القرن السادس عشر وبعد ذلك لجأوا إلى رفع أسعار الحرير الفارسي ، وتلاعبوا في الكمية المنقولة منه لإلحاق الأذى بالتجار الانجليز والتسبب في خسارتهم [١] . واستغل الهولنديون الخلافات السياسية والتجارية لصالحهم ، فعندما كانت تقع خلافات بين التجار الصفويين وبين تجار شركة الهند الشرقية الإنجليزية حول الأسعار كانوا يسارعون إلى شراء السلع التي رفضها الإنجليز لارتفاع أسعارها وذلك بهدف كسب تعاطف التجار الفرس ودفعهم إلى تفضيل الهولنديين في معاملاتهم التجارية [٢] . وكذلك استغلوا الخلاف الصفوي العثماني والخلاف الصفوي البرتغالي ، والخلاف الإنجليزي البرتغالي لتحقيق أهدافهم التجارية والاستعمارية الخاصة ، وقد سبق بسطُ طرفٍ من ذلك .

ولم يكتفِ الهولنديون بذلك بل امتنعوا عن دفع الجمارك في بندر عباس بدعوى أنّ الانجليز يأخذون نصفها [٣] ، ودخلوا ميدان الإنتاج وخاصة في جزر الطيب [٤] ، وتعاطوا التهريب مع المستعمرات الأسبانية في أمريكا وقاموا بنقل البضائع إلى أماكن استهلاكها مباشرة وأوجدوا نوعاً من السفن القادرة على حمل ما بين مائة وتسعمائة برميل من المواد الثقيلة وضاعفوا عدد قطع أسطولهم حتى أنه بلغ في منتصف القرن السابع عشر أربع أضعاف القطع البحرية الإنجليزية ، إذ كانت السفن الهولندية في ذلك الحين نحو ستة عشر ألف قطعة بحرية تُقِلُّ نحو ثلاثة وستين ومائة ألف بحار ، بينما كان عدد السفن الإنجليزية لا يتجاوز أربعة آلاف قطعة وكذلك اتبعت هولندا سياسة متساهلة مع شركتها

---

(١) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٤٦ - ٥٤

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) Saldanha, op. cit, Vol,1, p 101

الشرقية واكتفت بأقلّ قدر من العائدين الجمركي والضريبي ،وذلك لتجعلها أقدر علـى المنافسة (١) . وكذلك قامت الشركة بالسيطرة على المضايق كمضيق ملقا وعلى المناطـق الاستراتيجيه كالكاب ،وعلى تجارة بعض الجزر كجاوة ، واتبعت نظام دفع الأموال المقدم على المحصولات الزراعية بهدف انتزاع الأملاك من أيدي أصحابها في جزائر باندا وأمبوينـا وملقا ولم تكتف بذلك بل أخذت في انتزاع أشجار القرنفل في الأراضي التي لم تكن قـد وقعت في حوزتها بعد (٢) ، ومن الأساليب التي مارسها الهولنديون ـ أيضاً ـ استخدام القرصنة وخاصة ضد البرتغاليين وكذلك استخدموا أسراهم في العمل لديهم كأُجَـــراء بمرتبات زهيدة بهدف إذلال البرتغاليين (٣) ،وتحقيق قدر أعلى من الربح .

بدأ التنافس بين الهولنديين والإنجليز حول تجارة الشرق منذ أواخر القرن السادس عشر ففي سنة ١٥٩٩ رفع الهولنديون أسعار الفلفل بصورة فُجَائية نكاية في الإنجليز من ثلاث شلنات للباوند الواحد إلـــى ستة شلنات ثم إلى ثمانية في نهاية المطاف (٤) . ولما لم يكن للهولنديين ـ كالانجليز ـ ما يبادلون به من المنتجات والبضائع ، فقد اعتمـد الطرفان نظاماً مترابطاً للتجارة يقوم على نقل البضائع من مكان إلى آخر والاستفادة من فروق الأسعار في شراء التوابل . وقد كان ذلك وحده كفيلاً بخلق روحٍ قويةٍ للمنافسة التجاريـــة الحادة . وهكذا عندما اعتمد الإنجليز سنة ١٦٠١ م ـ ١٠١٠ هـ على مبادلة بعـــض المنتجات الهندية مثل الشيت مع أندونسيا وذلك بهدف الاستفادة من فروق الأسعار ثارت ثائرة الهولنديين ،وقضوا على الوكالة الإنجليزية في أمبونيا مما اضطر الانجليز إلـــى

---

(١) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٨٣ - ٨٤

(٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٨

(٣) التنافس والصراع . هيفاء الربيعي . ص ٢٠٠

(٤) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمد علي الداود . د . ص ٢٦٢

الانسحاب إلى الهند ، حيث اتخذوا من سورات على ساحلها الغربي مقراً رئيسياً لتجارتهم وبعد ذلك لبسط سيادتهم الاستعمارية [(١)]، أيضاً .

واستمرت المنافسة بين الطرفين بعد ذلك ففي سنة ١٦١٧ م ـ ١٠٢٦ هـ حدث أول نزاع مسلح في منطقة الخليج العربي بين الإنجليز من جهة، والهولنديين يعاونهم البرتغاليون من جهة أخرى ،وانتهى بانتصار الإنجليز وفرار القوات الهولندية وحلفائها البرتغاليين [(٢)]، وردّ الهولنديون على ذلك في العام التالي بأن رفعوا أسعار التوابل والحرير في جزر الهند الشرقية [(٣)] ،ثم صَعّدوا الموقف وأخذوا يفرضون احتكارهم التجاري بالقوة ، كما أخذوا يتتبّعون السفن الإنجليزية ويستولون على من تقع في قبضتهم منها حيث استولوا خلال سنتي ١٦١٨ـ ١٦١٩ م ـ ١٠٢٧ ـ ١٠٢٨ م على أكثر من عشرين سفينة إنجليزية في الوقت الذي لم يستطع فيه الإنجليز الاستيلاء على أكثر من سفينة هولندية واحدة [(٣)].

وتطورت العلاقات الهولندية الإنجليزية في مياه المحيط الهندي فجأة نحو التقارب الودّي والرغبة المشتركة في التعاون وربما كان ذلك بتأثير من العقيدة المشتركة حيث كان الطرفان على المذهب البروتستانتي وبتأثير الإحساس المشترك بخطورة المنافسة البرتغالية وشدتها [(٤)]، وضرورة التصدي الحازم لها ،وخاصة بعد أن برزت للعيان نوايا الدولة الصفوية التي التفتت للجنوب وبدأت ـ فعلاً ـ العمل على تقويض الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي . وهكذا اتفق الإنجليز والهولنديون سنة ١٦١٩ م ـ ١٠٢٨ هـ على

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٦٦ - ١٧٠

(٢) Danvers, op.cit, p 211.

(٣) Saldanha, op. cit, p 13o

(٤) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٢٧ - ٢٩

(٥) Dennis, op. cit, p 161

أن يقوم الهولنديون ببناء عشر سفن حربية للانجليز بهدف توفير الحماية لتجارة البلديـن إذا ما تعرضت لأي هجوم برتغالي في مياه المحيط الهندي (١) . ومما يذكر أن هـذه العلاقات الودية استمرت إلى ما بعد تحرير هرمز ، حيث اشتركت القوات الإنجليزيـة والهولندية في التصدي لمحاولات البرتغاليين الهادفة إلى استرداد هرمز ، واشتبكت معهم في معركة بحرية حامية الوطيس قبالة بندر عباس في فبراير سنة ١٦٢٥ م - ١٠٣٢ هـ . وانتهى الأمر بقبول البرتغاليين بالوضع الجديد وحصول الإنجليز على العديد من الامتيازات التجارية وغير التجارية في البلاط الصفوي ، في حين لم يَفُزْ الهولنديون بأكثـر من السماح لهم بإقامة وكالة تجارية في بندر عباس (١) .

ولم يكن الهولنديون ليرضوا بالقليل من الغنيمة ، ولذا سرعان ما دخلوا في صـراع دائم مع أسطول شركة الهند الشرقية الإنجليزية حول الامتيازات والاحتكارات التجارية فـي مياه المحيط الهندي ، وخاصة في بلاد فارس ، وبناء على ذلك رفضوا دفع أي ضريبة فـي بندر عباس ، وحاولوا الاستيلاء على هرمز (٢) ، كما قاموا بعدة مناورات بالاستيلاء على قشم وضمها لسيادتهم نكاية في الإنجليز والبرتغاليين والفرس جميعاً . وذلك بالرغم من أن الشاه عباس كان قد منحهم سنة ١٦٢٧ م - ١٠٣٦ هـ أفضلية علـى الإنجليز في تجارة الحرير وأعطاهم العديد من الامتيازات والمزايا الأخرى .

ومهما يكن من أمر فقد اعتبر الإنجليز حصول الهولنديين على العديد من الامتيازات في البلاط الصفوي في السنة المذكورة عدواناً على مكاسبهم السياسية والتجارية ، ولذا قامـوا بتدعيم مركزهم في فارس في عهد الشاه صفي وذلك بتجديد الامتيازات القديمة ، وتوفيـر الحماية للوكالات التجارية وخاصة في بندر عباس : ضد الهجوم البرتغالي وأخيراً بالتصدي

---

(1) Saldanha , op. cit, Vol,1, p 191 (١)

(٢) الدولة الصفوية . أحمد الخولي . د . ص ١٩١ . والخليج العربي . ويلسون . ص . وأحداث فاصلة . علي الغنام

(٣) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . د . ص ٢٤٧

للمشاريع الهولندية . وصعّد الهولنديون بدورهم - من منافستهم للإنجليز وذلك بالرغم من قضيتهما المشتركة ضد البرتغاليين، وبالرغم من الوحدة في المذهب البروتستانتي، اللذين تغلب عليهما صراع المصالح الاقتصادية والتجارية الذي (١) احتلّ المقام الأول في سياسة القوتين .

وهكذا لم يأت عام ١٦٢٠ م - ١٠٢٩ هـ حتى اشتد التنافس بين الطرفين وخاصة في منطقة الخليج العربي ، وضاعف الهولنديون من ضغوطهم السياسية والاقتصادية حيث حاولوا عرقلة العلاقات التجارية الإنجليزية مع الصفويين مستخدمين في سبيل ذلك شتى السبل كدفع الرشاوى الباهظة لبعض المسؤولين الصفويين ومداهنة الساسة وحكّام المقاطعات وتقديم عروض مرتفعة الأسعار ، وبيع السلع والمنتجات المستوردة بأسعار أقل من التكلفة وتمادوا في ذلك إلى الحد الذي تجسسوا فيه على شركة الهند الشرقية الإنجليزية لمعرفة أسرارها (٢) . ويبدو من كل هذه الضغوط والممارسات أن الهولنديين قد أحرزوا قصب السبق في تجارة المحيط الهندي وخاصة لأن شركة الهند الشرقية الانجليزية كانت تتميز في فارس خاصة - بالفساد وعدم اهتمام المسؤولين بمصالحها بقدر اهتمامهم بمصالحهم الخاصة لدرجة أن وكيل الشركة الإنجليزية في أصفهان قام بتقديم أموال شركته للهولنديين كقروض متجاهلاً الأضرار التي يمكن أن تنجم عن ذلك (٣) . ونتيجة لكل ذلك ازداد ضعف الشركة الانجليزية إلى حد أنها تخوّفت سنة ١٦٣٣ م - ١٠٤٢ هـ من تقديم عطاء لشراء الحرير تحسباً لقيام الهولنديين بدفع أسعار أعلى (٤) وأقدر على المنافسة .

---

١) أحداث فاصلة . علي الغنام

٢) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٥٠ - ٥١

٣) العلاقات البرتغالية . محمود الداود . د . ص ٢٦٤

٤) أحداث فاصلة . علي الغنام .

اتجه الإنجليز ،بعد ذلك ،لتحسين وضعهم بالطرق الدبلوماسية ،فاتصلوا بالبرتغاليين وحاولوا تسوية أوضاعهم معهم ،وذلك لقطع الطريق على الهولنديين إذا ما حاولوا التحالف مع البرتغاليين من جهة ،ولتحسين أوضاعهم التجارية من جهة ثانية ، وللتفرغ للمنافسة الهولندية من جهة ثالثة . ويبدو أن البرتغاليين كانوا في حاجة ماسة للتفاهم مع الإنجليز وخاصة بعد اشتداد المقاومة العربية على الساحل الغربي للخليج العربي ، وفي الوقت الذي ازداد فيه النفوذ الهولندي بشكل لافت للنظر . ولذا اتفق الطرفان على وضع حدٍّ لحالة العداء التي كانت قائمة بين الطرفين ، وتمَّ عقد هدنة بين الإنجليز في سورات والبرتغاليين في جوا ،وبناء على ذلك صدرت الأوامر سنة ١٦٣٥ م ١٠٤٤ هـ لموظفي الشركة الإنجليزية بالبقاء على الحياد في حالة نشوب أي صراع فارسي برتغالي .

ولكن التوقيع الفعلي على المعاهدة لم يتم إلّا في العام التالي وبه توطَّدت الصداقة بين الطرفين .

ويبدو أن هذا الاتفاق لم يكن ذا أثر يذكر على الهولنديين الذين أخذوا يزيدون من هيمنتهم التجارية والاستعمارية في مياه المحيط الهندي ،متجاهلين ردود الفعل التي يمكن أن تصدر عن كل من الإنجليز والبرتغاليين ،ولم يأت عام ١٦٤٠ م ـ ١٠٤٩ هـ حتى أمسك الهولنديون بزمام تجارة التوابل والحرير في مختلف مناطق الهند وفارس [١] ، وذلك بمهاجمة التجار الإنجليز والإساءة إلى سمعتهم من جهة وبتقوية الارتباطات السياسية والاقتصادية مع حكام الأقاليم الهندية من جهة ثانية ،وبالحصول على المزيد من الامتيازات الخاصة بالتجارة مع فارس عموماً ،وبتجارة الحرير الفارسي الخام على وجه الخصوص وهو الأمر الذي ألحق ضرراً كبيراً بالتجارة الإنجليزية في مياه المحيط الهندي [٢] .

---

(١) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٨١

(٢) غزاة في الخليج . هيفاء الربيعي . ص ٤٥ وما بعدها ..

ولم يكتف الهولنديون بذلك بل اعتمدوا - أيضا - على منطق فرض النفوذ بالقوة فاستولوا على ملقا - كما سبق القول - سنة ١٦٤١ م - ١٠٥٠ هـ ، وتعاونوا في نفس العام مع الإنجليز على تدمير الأسطول البرتغالي في بنتام [١] ، واتصلوا بالعثمانيين في البصرة وأسسوا مركزاً تجارياً هولندياً سنة ١٦٤٣ م - ١٠٥٢ هـ [٢] ، واستولوا بعد ذلك بعامين على قشم مما أفزع الشاه الصفوي وجعله يقبل بالشروط والمطالب الهولندية الخاصة بعروض شراء الحرير وتصديره دون ضريبة ، وكان ذلك ضربة قاسية للإنجليز [٣] ، ولما وجدوا أن إنشاء وكالة تجارية في البصرة لم يقض على النفوذ الإنجليزي فيها أرسلوا أسطولهم الحربي سنة ١٦٤٩ - ١٠٥٨ هـ إليها وقاموا بتدمير الوكالة الإنجليزية فيها وبذلك يكون نفوذهم التجاري في منطقة الخليج قد وصل إلى قمته [٤] . وخاصة بعد أن تمكن اليعاربة من تحرير مسقط من أيدي البرتغاليين .

ودخل الصراع والتنافس الإنجليزي الهولندي في مياه المحيط الهندي طوراً جديداً مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر ، فبتصفية الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي ، تضاءل الدور البرتغالي إلى حد كبير ، وبدت الحلبة خالية للمتنافسين الجديدين ، وهكذا أخذ الصراع شكلا جديداً كان أكثر ضراوة وعنفاً ، لقد ضاعف الهولنديون جهودهم الاحتكارية ، وقاموا في هذا الإطار ، سنة ١٦٥٠ م - ١٠٥٩ هـ بإرسال عشرة سفن هولندية محملة بنحو مليون ونصف رطل من التوابل إلى بندر عباس حيث تمت مهادلتها

---

(١) التنافس والصراع ... هيفاء الربيعي . ص ٢٠١

(٢) صراع القوى . محمد عدنان مراد . ص ١٨١

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٤) العلاقات البرتغالية . محمود الداود . ص ٢٦٦

بالحرير الفارسي ، وتكررت العملية في العام التالي على نطاق أوسع مما زاد في إضعاف تجارة الإنجليز ،[١] الذين لم يقبلوا بالوضع الجديد ، وحمّلوا بحدّة أسباب من بينها الأضرار البالغة التي لحقت بتجارتهم في الشرق من جرّاء الاحتكار والسياسة الهولندية وكذلك اعتداء الهولنديين على بعض الممتلكات الإنجليزية في الخليج ، لتصعيد الموقف مع هولندا . وتصاعدت حِدّة التوتر بشدة حتى اشتعلت الحرب بين انجلترا وهولندا في أوربا لأكثر من سنتين من الزمن (من سنة ١٦٥٢ م ـ ١٠٦١ هـ إلى سنة ١٦٥٤ م ـ ١٠٦٢ هـ) دون أن تُسفِرَ عن أيّة نتائج حاسمة .[٢]

وظل الأسطول الهولندي ـ في أثناء ذلك ـ مرابطاً قُبَالَة مركز الإنجليز في سورات بالهند ، ثم أبحر للخليج . وحاول الهولنديون التحالف مع البرتغاليين للتصدي للتجارة الهولندية كافية[٣] ، ولكن البرتغاليين اتخذوا جانب الحياد ، وربما كان ذلك انتظاراً للفرصة المناسبة التي تُمكّنهم من الاستفادة من الصراع الدائر بين الخصمين لتحقيق بعض المكاسب السياسية[٤] والاقتصادية الخاصة بهم . وبالرغم من ذلك هاجم الهولنديون بعض السفن الانجليزية فاستولوا على ثلاثة سفن بريطانيه قرب جاسك ، ثم دمروا سفينتين أخريين بالقرب من بندر عباس ، وأسروا سفينةً ثالثةً بينما كان بحارتها سكارى[٥] وكانوا نحو ثلاثين بحاراً ، وبدا بذلك أن الخليج العربي أصبح في يد الهولنديين على نحو مطلق[٦] ،

---

(١) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود الداود . د . ص ٢٦٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٧

٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٣٥

٤) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٨٢

٥) العلاقات البرتغالية محمود الداود . د . ص ٢٦٩

٦) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٣٥

وخاصة بعد أن أغلق الإنجليز وكالتهم في البصرة وأخذوا يفكرون في إرسال الحرير الفارسي إلى أوربا عن طريق أصفهان وتبريز [١] براً .

واستمرت المنافسة الهولندية الإنجليزية ـ بعد ذلك ـ في مياه المحيط الهندي حتى حدث صدام جديد بين القوتين المتنافستين في أوربا فيما بين سنتي ١٦٦٥ ـ ١٦٦٧م ١٠٧٤ ـ ١٠٧٦ هـ ، دون أن تكون له نتائج حاسمة فيما يتعلق بمياه المحيط الهندي [٢] إلا أنه كان تمهيداً ـ مع عدد من العوامل الأخرى ـ لقدوم قوة أوربية منافسة جديدة هي القوة الفرنسية ، حيث أخذ التنافس الأوربي في مياه المحيط الهندي منذ ذلك الحين أبعاداً سياسية واقتصادية جديدة لا تدخل في نطاق البحث . ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول عند ختام هذا المبحث إن اضمحلال النفوذ البرتغالي في مياه المحيط الهندي قد فتح الباب على مصراعيه لدخول القوى الأوربية المتنافسة ، والتي استمرت تؤثر في مصير المنطقة بعد ذلك ، لعدة قرون تالية ، وحتى يومنا هذا .

---

(١) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي . محمود الداود . د . ص ٢٦٩

(٢) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٣٦

الفصل الثالث

نتائج الاحتكار التجارى البرتغالى للتجارة الشرقية فى القرن السادس عشر

تناولت هذه الدراسة – فى بحث سابق – محاولات البرتغاليين وجهودهم فى سبيل احتكار التجارة الدولية والسيطرة على حركتها ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، إلى أن تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم فى المياه الشرقية كقوة استعمارية ذات نفوذ تجارى واسع . ومر بنا أن البرتغاليين ، رغم سيطرتهم على حركة التجارة بين الشرق والغرب إلى حد كبير وخاصة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، لم يستطيعوا أن يفرضوا الاحتكار التام على التجارة الشرقية ، التى استمرت تسلك طُرُقَهَا البرّية التقليدية دون توقف ، والتى لم تنقطع من البحر الأحمر إلّا لفترة وجيزة لاتكاد تبلغ عقدين من الزمان . وسوف تتناول الدراسة فى هذا البحث النتائج التى ترتبت على محاولات البرتغاليين لاحتكار التجارة الشرقية ، وموقف القوى الأسلامية والأوربية الوافدة إلى الشرق من تلك المحاولات ..

لقد عجز البرتغاليون منذ العقد الثالث من القرن السادس عشر عن الاحتفاظ بحصارهم لمدخل البحر الأحمر وظلّت السلع التجارية التى تسلك الطرق التقليدية إلى أوربا تفوق بشكل هائل – خلال بقية القرن – تلك التى كانت تحملها السفن البرتغالية عبر طريق رأس الرجاء الصالح [1]. ولذلك لم تكن هرمز عند نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر ، لم تكن تتمتع بالازدهار التجارى الذى كانت تحظى به من قبل . فقد بعث قائد هرمز البرتغالى سنة ١٥٤٧م – ٩٥٤ هـ رسالة إلى نائب الملك فى الهند يُبيِّنُ له فيها أن جزيرة هرمز أصبحت غير مربحة ، " وليس هناك أي تاجر يبيع الكتان الجميل ، أو أي نوع من التوابل ، كما أنه ليس هناك أى تجارة أو صناعة *beatitha* " [2] ، ولعلّ مما يؤكد ذلك أن حاكم هرمز كان عاجزاً طوال الفترة السابقة عن تسديد الضرائب البرتغالية السنوية التى كان عليه أن يدفعها للبرتغاليين [3] .

---

(١) نظرة جديدة . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٦٦

(٢) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٦١

(٣) سبق بيان ذلك فى مبحث آخر ..

وتزايد ضعف الاحتكار التجارى البرتغالى منذ بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وذلك نتيجة لما قام به العثمانيون من مجهودات أسهمت فى إضعاف السياسة التجارية البرتغالية فى المنطقة العربية وسائر مياه المحيط الهندى . وقد ثبت بذلك أن البرتغاليين لا يملكون القوة الكافية لفرض سيطرتهم المطلقة فى المحيط الهندى فقد استمرت الولايات العثمانية تتسلم التوابل بصورة مباشرة فى الهند وجزر الهند الشرقية أثناء القرن السادس عشر رغم نقص كمية التوابل في بعض الأحيان ، وخاصة فى النصف الأول من ذلك القرن ، ولكن عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوربيين لم تنقطع سواء فى أسواق حلب أم القاهرة أم القسطنطينية أم بورصة [١] أو غيرها من المراكز التجارية . فلم تحظ البرتغال بنصيب يذكر من تجارة الحرير الذى ظل ينقل عبر الطرق التقليدية ، ومن ثمّ اقتصرت التجارة البرتغالية على التوابل وخاصة الفلفل [٢] ، والذى أخذت الكميّات المستوردة منه إلى لشبونه فى التناقص منذ منتصف القرن السادس عشر ، وعلى سبيل المثال ، استورد البرتغاليون سنة ١٥٤٧ م ــ ٩٥٥ هـ ستة وثلاثين ألف كونتال من الفلفل ، ولكنهم لم يستوردوا بعد ذلك بتسع سنوات أكثر من أربعة وعشرين ألفاً ، وارتفعت الكمية إلى ثلاثين ألفاً سنة ١٥٥٨م ــ ٩٦٦هـ [٣] . وظلت الكمية التى تصل إلى لشبونه من الفلفل فى تناقص مستمر حتى كان مُعَدَّل لها السنوى فيما بين سنتى (١٥٨٧م ــ ١٥٩٠ م ٩٩٦ ــ ٩٩٩هـ) لا يكاد يصل إلى عشرين ألف كونتال ، وأنه قد انخفض إلى نحو النصف فيما بعد ، وذلك فى الوقت الذى ازدادت فيه الحاجة الأوربية إلى التوابل إلى حد كبير ، ومن ثم تقلصت المساهمة البرتغالية فى تجارة التوابل عند نهاية القرن إلى حدّ الوفاء بخمس الحاجة الأوربية فقط ، أما باقى مطالب الأوربيين من التوابل فقد كانت تستوفى عبر الطرق التقليدية القديمة [٤] ، والتى بدأت فى التفوق على طريق رأس الرجاء الصالح ، وتنقلُ كميةً أكبر من التوابل ، بدءاً من سنة ١٥٦٠م ــ ٩٦٨ هـ [٥] . لقد اشترى البنادقة وحدهم سنة ١٥٥٤م ــ ٩٦٢ هـ ، من ميناء الاسكندرية ، ستة آلاف قنطار من

---

(١) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . د . ص ١٧٤

(٢) نظرة جديدة . . . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٨٣

(٣) المرجع السابق . ص ١٨٤

(٤) المرجع السابق . نفس الصفحة

(٥) المرجع السابق . ص ١٨٣ .

من التوابل ، وقد ارتفعت الكمية التى كانوا يشترونها بعد ذلك حتى بلغت فيما بين سنتى ١٥٦٠ م - ١٥٦٤م - ٩٦٨ - ٩٧٢ هـ نفس الكمية التى كانوا يشترونها قبل تحول البرتغاليين حركة التوابل إلى طريق رأس الرجاء الصالح [(١)] وكان يصل ميناء جدة فى ذلك الحين ، حوالى عشرين سفينة محملة بالبضائع الشرقية كلَّ عام ، وكان الحُجَّاج يَتَولَّون نقلها عند عودتهم إلى مصر والشام وبلاد المغرب والقسطنطينية ، وليس أدلَّ على ذلك من أن قيمة الضرائب التى فرضت على التوابل التى جلبها الحُجَّاج سنة ١٥٦٢ م - ٩٧٠ هـ ، قد بلغت مائة وعشرة آلاف دوكات ذهبى [(٢)] . ولم تكن عودة التجارة إلى الطرق التقليدية خاصة بالبحر الأحمر . ولكنها امتدت إلى الخليج العربى أيضاء ، ففى الربع الأخير من القرن السادس عشر كانت السفن تصل شهريا إلى ميناء البصرة قادمةً من هرمز ، محملةً بجميع أنواع البضائع الهندية كالتوابل والأدوية والاصباغ والمنسوجات [(٣)] ، وهكذا ظل العثمانيون ، رغم أن البرتغاليين تمكنوا من تحسين وضعهم إلى حدٍّ ما فى سبعينات القرن السادس عشر ، ظلوا يحتفظون بدورهم الأول فى التجارة بين أوربا والشرق الأقصى مزودين الغرب بكميات كبيرة من التوابل وغيرها من البضائع [(٤)] .

وطرأ ضعف تدريجى على قدرة البرتغال الاستعمارية عموماً ، والاحتكارية على وجه الخصوص منذ سنة ١٥٨٠م - ٩٨٨ هـ [(٥)] حين ورثت أسبانيا عرش البرتغال وضمتها لسلطانها وسيادتها [(٦)] . ومع ذلك يلاحظ أن البرتغاليين قد قاموا فى السنوات العشر الأخيرة من القرن المذكور بتنظيم أساليبهم التجارية فى سواحل شرق أفريقيا

---

(١) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . د . ص ١٧٤

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، والدوكات يساوى دولارين وربع ..

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة ..

(٤) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٢٤

(٥) العلاقات البرتغالية . محمود علي الداود . د . ص ٢٢٩

(٦) تاريخ أفريقيا - جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٦

حيث بدأ البناء فى حصن يسوع فى ممباسا سنة ١٥٩٣ م ـ ١٠٠١ هـ ، وفى العام التالى أقيمت دار للجمارك لتمرّ بها كل تجارة شرق أفريقيا ، وكانت تُجْبَى منها رسوم تصل إلى ٦٪ من القيمة الإجمالية للبضائع ، وفى نفس الوقت كانت الوكالات التجارية البرتغالية قد استقرت فى كلوه وبمبا وزنجبار وغيرها من موانىء شرق أفريقيا (١) . ومن الجدير بالذكر أن هذا التنظيم قد جاء مُصَاحَبًا بعدد من التغييرات النوعية التى برزت فى حركة التجارة الدولية ومحاولات البرتغاليين لاحتكارها فى ذلك الوقت ، فمن جهة أصبحت كفاءة السفن البرتغالية أقل من كفاءتها فى بداية القرن عندما بدأ البرتغاليون استعمارهم واحتكارهم للتجارة الدولية القادمة من مياه المحيط الهندى (٢) . وكذلك دخلت هولندا وبريطانيا ميدان المنافسة التجارية بشكل خطير ، وضاعت من يد البرتغال جزر الهند الشرقية واحدةً تلو الأخرى ، ثم سقطت المراكز والوكالات البرتغالية فى سواحل الهند ، ومَنْ لم تسقط فقدت جزءًا كبيرًا من أهميتها (٣) . وتَحَوَّل بناءً على ذلك الامراءُ والتجارُ الوطنيون إلى التعامل مع الأوربيين الجدد ، ولم تعد السفن البرتغالية تجد سوى القليل من العلاقات التجارية القديمة (٤) ، وليس ذلك فحسب بل بدأت الموانىء الإسلامية وخاصة العربية منها فى التخلص من الهيمنة البرتغالية (٥) ، وقد كان ذلك مؤشراً واضحاً على اقتراب النهاية الحاسمة ، ليس فقط للاحتكار البرتغالى للتجارة الشرقية ، بل لكل المشروع الاستعمارى البرتغالى ، وفى بداية القرن السابع عشر تحولت تجارة التوابل بشكل شبه كامل من يد البرتغاليين إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية (٦) ، وصاحب ذلك ارتفاع فى الأسعار حتى أصبحت سنة ١٦٠١ م ـ ١٠٠٩ هـ ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف ماكانت عليه قبل مائة عام (٧) ..

---

(١) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٢ ، ٤٣

(٢) نظرة جديدة ... عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٦٦

(٣) تاريخ أفريقيا ـ جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٦

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦) تم تفصيل ذلك في غير هذا الموضع .

(٧) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٧٥

ورغم أنه قد حدث تَحَوُّلٌ نوعيٌّ فى الطلب على المنتجات الشرقية خلال القرن السابع عشر حيث ظهرت الحاجة إلى بعض المنتجات الأخرى مثل البفته والموسلين والحرير والمنسوجات المطبوعة المستوردة من الهند ، والشاى والحرير الصينى والبن ، إلاّ أن الطلب على التوابل لم ينقص (١) ، ومع ذلك فإنه لم يمضِ الربعُ الأول من ذلك القرن حتى كانت مشاركة البرتغال فى تجارة الفلفل الآسيوى لاتتعدى ٤٪ من جملة الحاجة الأوربية (٢) . وكانت البرتغال فى ذلك الحين قد فقدت أهم مراكزها التجارية فى جزر الهند الشرقية وسواحل الهند الغربية أمام ضغط القوى الأوربية الأخرى ، وكانت الضربة القاصمة عندما استطاع الصفويون تحرير هرمز سنة ١٦٢٢م – ١٠٣١هـ . وقد اضطر البرتغاليون إلى دعم مراكزهم التجارية على الساحلين العربى والفارسى وخاصة فى مسقط للتعويض عن تلك الخسارة الكبرى ، ولكن الأحداث أثبتتْ أنه لم يكن بوسع البرتغاليين تعويض ذلك المركز على الإطلاق . ومن الجدير بالذّكر – فى هذا المقام – أن نذكر أن البرتغاليين لم يقطعوا صلاتهم التجارية بالبصرة حيث كانت أسرة أفراسياب تفتح أبواب البصرة لوكلاء جميع الشركات الأجنبية وأساطيلهم التجارية على اختلاف جنسياتها (٣) ، واستمر تعاون البرتغاليين مع حاكم البصرة حتى تمَّ الاتفاق بينهم وبين الصفويين سنة ١٦٢٥م – ١٠٣٤هـ حيث توقفوا بناء عليه عن إرسال سفنهم للبصرة ، وعن تقديم المساعدات العسكرية للوالي التركى على باشا (٤) وقد تمَّ تعزيز العلاقات التجارية الصفوية البرتغالية باتفاق سنة ١٦٣٠ م – ١٠٣٨ هـ والذى عزز الاتفاقية السابقة ، ومنح البرتغاليين تسهيلات أكثر فى ميناء كنج (٥) على الساحل الفارسى . ومع ذلك فقد استمر حرصُ البرتغاليين على الإفادة التجارية من ميناء البصرة حتى نهاية وجودهم فى منطقة المحيط الهندى .

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٦٤
(٢) نظرة جديدة . عبد الامير امين . ص ١٨٤
(٣) التنافس الدولي في الخليج العربي . مصطفى الخطيب . ص ١٠٥
(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٤
(٥) المرجع السابق ، ص ١٠٥

وكان منتصف القرن السابع عشر علامةً بارزةً في تاريخ الاحتكار التجاري البرتغالي، وذلك بسقوط آخر المعاقل البرتغالية في منطقة الخليج العربي، حين حرّر اليعاربة ميناء مسقط، فقط أثر ذلك على نشاطهم التجاري في مختلف مناطق المحيط الهندي، وعلى سبيل المثال انصرف النشاط البرتغالي في موزمبيق، والمناطق الداخلية التابعة لها إلى ممارسة الزراعة حيث قُسّمت الأراضي إلى إقطاعيات ضخمة، تولّاها إقطاعيون كبارٌ عاشوا عيشة الثراء في موزمبيق أو جوا أو لشبونة، وكانوا لا يكترثون سوى بجمع الضرائب والغرامات، وساء الأمر إلى حدّ أنْ لم تستطع الحكومة البرتغالية تغيير شيء من الواقع (١). ومع حلول سنة ١٦٨٠م – ١٠٨٩هـ حلّ التأخر الاقتصادي في منطقة الزمبيزي، مما أدى إلى حرية التجارة لكل الرعايا البرتغاليين في الإقليم، ولكن النتائج لم تكن كما توقعوها، إذ اجتذبت موزمبيق عدداً من التجار الهنود، وخلال ثماني سنوات واجه التجار البرتغاليون حالةَ كسادٍ شامل (٢). وقد حاولت الحكومة البرتغالية تصحيح وذلك الوضع، فاتجهت الجهود سنة ١٦٩٠م – ١٠٩٩هـ إلى تأسيس شركة شرق أفريقيا التجارية، على أن تقدم الحكومة البرتغالية معونة مالية لها، ولكن الشركة سرعان ما انهارت لهبوط الاكتتاب في أسهمها، مما دفع حكومة البرتغال سنة ١٧٠٠م – ١١٠٩هـ إلى أن تتولى بنفسها شؤون التجارة والسياسة البرتغالية في موزمبيق والمناطق التابعة لها (٣).

وهكذا انهار الاحتكار التجاري البرتغالي في المحيط الهندي رويداً رويداً حتى انتهى مع بداية القرن الثامن عشر إلى المشاركة بنصيب ضئيل للغاية في تجارة التوابل والمنتجات الهندية، وبدا واضحاً أن البرتغال أخذت تلملمُ بقايا أشلائها الاحتكارية في منطقة الزمبيزي، وتتخذ من موزمبيق مرتكزاً لكافةِ أنشطتها السياسية، والاقتصادية والتبشيرية، المتأخرة. وبقي الآن أن نقفَ مع القوى الرئيسية التي لعبت دوراً أو أدواراً سياسيةً واقتصاديّةً، كان لها أثرها البارز في عرقلة المشروع الاحتكاري البرتغالي في في مياه المحيط الهندي.

---

(١) البرتغال في أفريقيا . د في . ص ٨٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٥
(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة ..

* * *

قامت الدولة العثمانية بدور الدولة الإسلامية الأولى ، في مجال التصدى لمحاولات الاحتكار التجارى البرتغالى ، فقد أدّى انتقال موانئ البحر الأحمر إلى سلطة العثمانيين ، وتطبيق نظامهم في مصر والشام والجزيرة العربية ، ولو بصورة شكلية ، إلى إحياء جزئي لطرق التجارة الدولية القديمة التى كانت تمر عبر أراضى السودان ومصر ، وأصبحت سواكن من جديد أهم مراكز الترانزيت التجارى ، تأتيها القوافل الأفريقية بالذهب والعاج من أثيوبيا وخوزجستان ، وترتادها السفن العربية والإسلامية ، بعد المجازفة والالتفاف حول المخافر البرتغالية ، وهى تحمل المستحضرات الطبية والأدوية والعطور والتوابل ، وقد كانت هذه البضائع تباع بصورة غير رسمية ، ولا تحصل على موافقة البرتغاليين ، في كامبيا وبيغو وملقا ، وكان العرب يدفعون أثمانا باهظة للحصول على أفضل البضائع القادرة على المنافسة والتميز ، قبل أن تصل إلى أيدى البرتغاليين (١) . ومما لا شك فيه أن العثمانيين كانوا وراء تلك الجهود ، لأنهم كانوا على يقين أن ازدهار التجارة في البلاد العربية وخاصة في مصر والشام سينعكس أثره على كافة أرجاء الدولة العثمانية ، وأن ذلك الازدهار لا يتم إلّا بتنشيط الطرق التقليدية القديمة (٢) .

وقد بذلت الدولة العثمانية عدة جهود لإحياء الطرق التقليدية القديمة ، وكان للبحر الأحمر النصيب الأكبر من تلك الجهود ، فمنذ امتداد نفوذهم إلى مصر أدركوا أهمية مدن البحر الأحمر بالنسبة للتجارة الشرقية . وليس ذلك فحسب بل أدركوا أيضا أهمية البحر الأحمر بالنسبة للمقدسات الإسلامية ، ومن ثم أدركوا أهمية التحرك لحماية تلك المناطق ، ومع ذلك فإنه يؤخذ عليهم أن نشاطهم كان متسماً ، في الفترة المبكرة ، ورغم ضخامة الأخطار في البحار العربية الجنوبية . بالضعف وعدم التناسب مع حقيقة التهديد البرتغالى القائم (٣) . ولكن الملاحظ أنه رغم ضعف التحركات السياسية والعسكرية للعثمانيين في ذلك الوقت المبكر ، فإنهم بذلوا جهوداً اقتصادية لا بأس

---

١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٧٣

٢) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . د . ص ١٦٩

٣) عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين . طارق الحمداني . د . ص ١٧٤-١٠

بها . ومن ذلك أن السلطان سليم عَقَدَ مع البنادقة سنة ١٥١٧م – ٩٢٣هـ اتفاقية تجارية بهدف تشجيعهم على ممارسة التجارة فى الاسكندرية ، كما كانوا يفعلون من قبل (١) . وتعتبر هذه الاتفاقية دليلاً تاريخياً على حرص العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر ، التى غدت ولاية عثمانية ، حتى تعود الحركة التجارية بقدر الإمكان إلى نشاطها المعهود ، قبيل تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح . (٢) ومما يذكر أنه لم يمض على تلك الاتفاقية أكثر من أربع سنوات ، حتى حصل البنادقة على ميزة تجارية أُعفيَ بها تُجَّارُهم من الرسوم الجمركية وغيرها من العوائد إلاّ فى أضيق نطاق ، مع عدم سريان نظام البلاد القضائى عليهم ، ونُظِرَتْ قضاياهم أمام هيئات خاصة بهم يرأسها قناصلهم (٣) المعتمدون .

ولم تكن البندقية الدولة الأوربية الوحيدة التى حصلت على امتيازات وتشجيع الدولة العثمانية لإحياء الطرق القديمة ، ولكنّ دولاً أوربية أخرى قد عُوملَتْ معاملةً مشابهةً فقد عَقَد السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٢٨م – ٩٣٤هـ مع ملك فرنسا معاهدة جدد فيها الامتيازات التي كان المماليك قد منحوها لهم من قبل ، وضمن فيها الأمن والطمأنينة وحماية الأرواح والأموال والمتاجر وحرية التجارة والتنقل براً وبحراً ، وحرية العبادة وعدم التدخل فى شؤون الرعايا الدينية أو فى كنائسهم ، وكذلك تعهدوا بعدم عرقلة نشاط حركة السفن الفرنسية (٤) . وبحلول سنة ١٥٣٥م – ٩٤٢هـ حصلت الدولة الفرنسية ، فى إطار معاهدة جديدة ، على العديد من المزايا والامتيازات كحرية التنقل التجارى بين المدن والثغور والجزر وسائر الأقاليم ، وحرية ممارسة التجارة دون التدخل لتحديد نوعها ، أو أساليب نقلها ، على أن يتم تسديد الرسوم المقررة عليها ، وضمان العدالة القضائية عند فضّ المنازعات التجارية ، وتقديم كافة المستلزمات التى تحتاجها

---

(١) التعرف على نصوص المعاهدة . انظر الملحق . وكذلك الدولة العثمانية .
عبد العزيز الشناوي . جـ ١ ص ٧٠٠ – ٧٠٦

(٢) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٧٩

(٣) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص ٩٩

(٤) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ٨٠ – ٨١

السفن الفرنسيّة بالثمن المناسب ، وألا تُجبَرَ السفن الفرنسية على إنزال حمولتها التجارية في أي ميناء ، هذا فضلا عن العديد من الحقوق والمزايا المتبادلة التي منحت لرعايا وتجار الدولتين [١] . ومن الجدير بالذكر أن هذه المعاهدة قد تم تجديدها عدة مرات وأنها قد نصّت على ضرورة دعوة الدول الأوربية وخاصة إنجلترا إلى الانضمام إليها بهدف تحويلها من معاهدة ثنائية إلى معاهدة جماعية تحقق القدر الأكبر من الفائدة بتنشيط الحركة التجارية عبر البحر المتوسط [٢] .

لقد كانت السياسة العثمانية تقوم على أساس الاسترسال في التجارة البحرية مع البنادقة والجنويين والفرنسيين ، والإنجليز والهولنديين ، وعلى المحافظة على استخدام الطرق البرية التي تصل إلى شمال أوربا ، وعلى العلاقات الودية مع دول وبلدان المحيط الهندي وخاصة الإسلامية منها ، سواء كانت هذه الدول في شرق المحيط الهندي أم في غربه أم في شماله [٣] . وبذلك تكون تركيا قد تزعمت تيار إطلاق حرية التجارة للتخلص من السياسة الاحتكارية البرتغالية . [٤]

وقد أدرك العثمانيون الأهمية السياسية والاقتصادية لميناء عدن ، وأنه إذا سيطر البرتغاليون عليه فإنهم سوف يتحكمون في البحر الأحمر ، وسيفرضوا احتكارهم التجاري ، ويضرُّوا المسلمين بمنع سفنهم من الاتجار بالبضائع الهندية ومن الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة [٥] ولذا حرص العثمانيون على أن يبسطوا سلطانهم عليها ، وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً جبّارةً حتى تمكنوا من ضمها لسيادتهم سنة ١٥٣٨ م - ٩٤٥ هـ ، وبعد ذلك أعلنوا - استمراراً لسياستهم التي سبقت الإشارة إليها - حرية التجارة في عدن ومصوع وسواكن وجدة وبقية موانيء البحر الأحمر [٦] ، وهو

---

١) انظر نص المعاهدة في الدولة العثمانية . عبد العزيز الشناوى . د . ص ٧٠٨

٢) انظر أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ٨٧ - ٨٨

٣) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . د . ص ٩٤

٤) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٩٧

٥) البرق اليماني . النهرواني . ص ٢٣٢

٦) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د . ص ١٥٧

ما يعنى أن سيادة العثمانيين على البحر الأحمر قد اكتملت باحتلال عدن، وأن سُبُل التجارة فيه فى طريقها إلى الازدهار الفعلى وهو الأمر الذى لم يقبله البرتغاليون، إذ نجدهم يحاولون الرد على هذه الخطوة بتقوية نفوذهم فى الحبشة وفى بعض الموانى الواقعة على السواحل الغربية للبحر الأحمر .(١)

وحسب البرتغاليون أن هزيمة القوات الاسلامية المتحالفة مع العثمانيين فى منطقة البحر الأحمر، والتى كانت تحت قيادة الإمام أحمد جران، قد أضعفت من هيبة العثمانيين وهيمنتهم على المنطقة، ولذا حاولوا أن يستغلوا انتصار الأحباش المتعاونيين معهم سنة ١٥٤١م-٩٤٨هـ، لتحقيق انتصار دولى كبير بتحييد العثمانيين وإبعادهم عن ميدان المنافسة فى التجارة الشرقية من جهة، وإشغالهم بأنشطة تجارية أخرى من جهة ثانية، ومحاولة دفع العثمانيين إلى الاعتراف بالهيمنة البرتغالية على منطقتي الخليج العربى والبحر الأحمر من جهة ثالثة. ولذا أرسل البرتغاليون بعثةً إلى اسطنبول سنة ١٥٤٢م - ٩٥١هـ، كانت تحمل مشروع اتفاقية بين دولة البرتغال والدولة العثمانية، وكان من نصوصها أن تمد البرتغالُ العثمانيين عن طريق البصرة بمائة وسبعة وعشرين كيلو جرام من البهارات(٢) وفى مقابل ذلك نصت الاتفاقية على قائمة طويلة من الشروط المطالب التى لا تستطيع أن تفرضها إلّا دولة عظمى وفى حالة انتصارها على خصمها انتصاراً تاماً، ومن تلك المطالب والشروط، أن يقدم العثمانيون للبرتغاليين مائتين وخمسين ألف كيلو جرام من القمح وألّا يبيعوا البهارات المقدمة إليهم إلى دولة أخرى، وألا يقوموا بشراء بهارات من دولة أخرى، وأن تمنع الدولة العثمانية تجارة البهارات فى أراضيها منعاً باتّاً، وأن يكون للبرتغاليين حق الإشراف على مضيق باب المندب وتفتيش السفن التجارية فيه، وأن ينزع العثمانيون سلاح أسطولهم فى البحر الأحمر، وأن يُحَدَّ من عدد القوات العثمانية فى عدن وأن يكون للبرتغاليين الحرية التامة فى الملاحة والتجارة على سواحل شبه الجزيرة العربية ولا سيما فى عدن وزبيد وجدة، وأن تحصل السفن العثمانية على تصريح خاص من البرتغاليين عن

(١) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د . ص ١٥٨

(٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٦٨

ملاحتها في أو باتجاه المحيط الهندى ، وأن تدفع رسوماً مقابل ذلك،وإلّا كان من حق البرتغاليين احتجازها ومصادرة حمولتها ،وأن يتعهد العثمانيون بعدم بناء سفن جديدة وعدم انتاج أسلحة قد تشكل خطراً على ملاحة البرتغاليين فى المحيط الهندى ، وأخيراً تشترط المعاهدة موافقة العثمانيين على تزويد البرتغال ،عند اللزوم بعشرة آلاف ربعيّة قمح بالأسعار المتداولة فى الأسواق . (١)

ولم تكن هذه الشروط الوقحة سوى محاولة غبيّة لعزل الدولة العثمانية وإذلالها وقهر هيمنتها فى الشرق الأوسط ، والإساءة إلى ريادتها للعالم الإسلامى ، والقضاء على نشاطها الاقتصادى ومنعها من التعامل التجارى مع الدول الأوربية المعنيّة مثل البندقية وانجلترا وفرنسا . ومن الواضح أن البرتغاليين كانوا لازالوا مدفوعين بغرورهم وكبريائهم الزائفة ، وظنهم أنهم أصبحوا أسياد المحيط الهندى والمناطق المطلة عليه وأنه لن يكون هناك من ينازعهم تلك السيادة بشكل جدّ خطير ، وقد أثبتت الأحداث أن البرتغاليين كانوا على خطأ فادح فى تقديرهم للأمور ،إذ رفض سليمان القانونى هذه المعاهدة (٢) واستمر العثمانيون فى التصدى للأخطار البرتغالية فى البحر الأحمر بكافاءة عالية ،كما استمروا فى عرقلة ومقاومة النفوذ والاحتكار التجارى البرتغالى فى الخليج العربى وكافة سواحل الجزيرة العربية ،كما سبق بيان ذلك .

ولم يكتف العثمانيون بذلك ، فاستمروا فى سياسة الانفتاح الاقتصادى والاحتفاظ بحرية التجارة . وفى هذا الإطار عقدوا اتفاقية تجارية مع الإنجليز سنة ١٥٥٣م-٩٦٠هـ ، منحهم السلطان العثمانى من خلالها مجموعة من الامتيازات المماثلة للامتيازات التى تمّ منحها للبنادقة والفرنسيين من قبل (٣) . وكذلك فكر العثمانيون فى إيجاد بديل مائى منافس

---

(١) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٦٨

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) أثر تحول التجارة فاروق أباظة . د . ص ٨٨

لطريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك من خلال الربط بين البحرين الأحمر والمتوسط حتى تتمكن أساطيلهم من الانتقال فيما بينهما عند الضرورة أو حسب الحاجة ، وكان القادة العثمانيون يفكرون فى هذه الخطة بين الفينة والأخرى أو كلما أحسوا بصعوبة المجابهة مع البرتغاليين فى المحيط الهندى . وفى سنة ١٥٥٦ م - ٩٦٣ هـ ، وبعد هزيمة بيرى رئيس وسيدى على بادرَ ولد على أحدُ خلفاء الأخوة بربروس بطرح موضوع القناة من جديد ، وكان من أكثر المتحمسين للخطة محمد باشا صوقولو ، إذ عندما تولى منصب الوزير الأكبر فيما بين سنتى ١٥٦٥ - ١٥٧٢م - ٩٨٦هـ حاول وضعها موضوع التنفيذ ، إلا أن فشل العثمانيين فى بناء قناة الفولجا - الرون أرغمهم على التخلى عن ذلك المشروع نهائيا (٢) .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع العثمانيون بجهودهم فى منطقة البحر الأحمر خاصة أن يحدُّوا من احتكار البرتغاليين للتجارة الشرقية إلى حد كبير ، وثمة من يرجح أن البرتغاليين قد تكبدوا خسائر كبيرة فى المنافسة التجارية حول التوابل فى أواسط القرن السادس عشر ، فبرغم الهزائم التى مُنِىَ بها الأسطول العثمانى فى المحيط الهندى والخليج العربى ، فإن فتح العثمانيين لليمن واحتلالهم لسواحل البحر الأحمر الأفريقية ، أنزلا ضربةً قاسيةً بالمحاولات البرتغالية فى مجال احتكار التجارة الدولية آنذاك . وفى هذا الاطار شكلت حملة أوزدمير باشا انتصاراً للمسلمين فى الحرب من أجل تجارة الشرق الأقصى المدهشة ، وقد أبرز فرنان بروديل آلاف الوثائق التى تثبت على نحو قاطع أن طريق التوابل القديمة عادت إلى كامل نشاطها فيما بين سنتى ١٥٥٠-١٥٧٠م - ٩٥٧ - ٩٧٧ هـ ، وبدأت أوربا بأسرها باستثناء أسبانيا والبرتغال ومقاطعات فرنسا الأطلسية من جديد تتموَّن بالبهارات من بلدان الشرق العربى .

---

١) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ٨٨

٢) الفتح العثماني للأقطار العربية . إيفانوف . ص ١٣٠

ومع انخفاض ضئيل فى كميات التوابل المشتراه من حلب وطرابزون بدأت كميات كافيه تَرِدُ عبر موانئ البحر الأحمر مما أدى إلى زيادة البهارات المستوردة عبر الطرق القديمة عن كافة معدلاتها السابقة ، وهو الأمر الذى أقلق البرتغال وجعلها تتخوف من عدم تمكنها من الحصول على البهارات التى تتطلبها تجارتها إذ كان الوضع الجديد أشبه بانقلاب أو بثورة اقتصادية عالمية (١)

لقد ازدادت مساهمةُ البحر الأحمر فى حركة التجارة الدولية منذ منتصف القرن السادس عشر ، وساعد على ذلك أن العثمانيين تمكنوا من تثبيت سيطرتهم على البحر الأحمر منذ سنة ١٥٦٠م – ٩٦٧هـ، وعرقلوا بذلك حصار البرتغاليين للطرق القديمة ،ففيما بين سنتى ١٥٥٤ – ١٥٦٤م – ٩٦١ – ٩٧١هـ كانت كميات التوابل التى تشحن إلى أوربا عبر موانئ البحر الأحمر تتروح مابين عشرين وأربعين ألف سنتيار من التوابل كل عام . وقد ابتاع البنادقه وحدهم من الاسكندريه سنة ١٥٥٤م – ٩٦١هـ نحو ستة آلاف سنتيار ، وارتفعت الكميّة إلى الضعف بعد حملة أوزد مير "مُباشَرَةً"،أى فيما بين سنتى ١٥٦٠ – ١٥٦٤ – ٩٦٧ – ٩٧١هـ. وبذلك يكون مُعَدَّل تجارة البندقية عبر البحر المتوسط قد عاد إلى مستواه قبل استخدام البرتغاليين رأس الرجاء الصالح لاحتكار التجارة الشرقية (٢).

وهكذا يبدو ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن البرتغاليين قد سيطروا على تجارة البحر الأحمر وإن لم يستطيعوا احتكارها تماماً خلال

---

١) الفتح العثماني للأقطار العربية . نيقولاي إيفانوف . ص ١٧٣ – ١٧٤

٢) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . د . ص ١٠٠

القرن السادس عشر (١) وأن جهود العثمانيين لإعادة الحياة إلى الطرق التجارية القديمة لم يُقدَّر لها النجاح، (٢) يبدو ذلك مخالفاً للواقع التاريخي، ولعل ماذهب إليه فريق آخر من الباحثين كان أقرب للدّقة، وذلك حين قالوا إن سيطرة العثمانيين على البحر الأحمر قد مكّنت من استعادة قسط كبير من التجارة الدولية القديمة عبر مصر، وخاصة في الوقت الذى كانت تعوز البرتغاليين فيه القوة البحرية اللازمة لإحكام الحصار التجارى على الطرق القديمة (٣)، ولأنّ العثمانيين قد نجحوا، ولو نسبيّاً، في تخفيف الضغط البرتغالي على التجار العرب والمسلمين على امتداد سواحل الإمارات العربية (٤) ولعلّ هذا الأمر يزداد وضوحاً بعد تناول جهود العثمانيين في مقاومة الاحتكار البرتغالي في منطقة الخليج العربي.

كان البرتغاليون، عند امتداد النفوذ العثماني إلى العراق ووصول العثمانيين إلى الخليج العربي، قد ثبّتوا أقدامهم في هرمز والمناطق المجاورة لها، وكانت أساطيلهم الحربية تتفوق إلى حدٍّ كبير على الأساطيل العثمانية، ومع ذلك سيطر العثمانيون على النقل التجارى البرّي عبر حلب، وشجعوا تدفق التجارة عبر الخليج، والتي أُخذت في الانتعاش منذ منتصف القرن السادس عشر، ومن الجدير بالذكر أن حركة التجارة عبر الخليج لم تتأثر كثيراً لا بالتّدخُّل البرتغالي، ولا بالقرصنة المحلية أو الاستعمارية خلال القرن المذكور، وعند اقتراب ذلك القرن من نهايته أصبحت حركة التجارة أكثر انتعاشاً. (٥)

ويمكن القول إن العثمانيين كانوا ميّالين لمقاومة الحصار التجارى البرتغالي لمنطقة الخليج بالطرق السلمية، فقد كان الأتراك يرغبون بشكلٍ جَدّي في إنعاش تجارة البصرة، وقد أرادوا أن يُقيموا علاقاتٍ وديّة

(١) steensgard, op. sit ، P ٩١ (٢) الخليج العربي . جمال قاسم. د. ص٥١

٣) في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى . ص٩٩

٤) أفريقيا الشرقية . السيد رجب حراز . ص١٩ (٥) الأتراك العثمانيون . أوزبران. ص٥٩

مع حاكم هرمز البرتغالي ، لتحقيق ذلك الغرض، إذ بعث محمد باشا بيلر بي البصرة رسولاً إلى حاكم هرمز سنة ١٠٤٧ م – ٩٥٤ هـ ليطلب منه أن يبعثَ مندوباً برتغالياً من قِبَلِه ، لأن (ال Cafillas) والتجار لا يريدون الذهاب للبصرة حتى يوجد ممثل عن حاكم هرمز هناك ، ولما رأى حاكم هرمز ومستشاروه أنّ من الأفضل أن يكون لهم في البصرة من يثقونَ به ليبعثَ إليهم بالأخبار، و جميع مايحْتَاج إليه ، ولما رأوا كذلك أن السماح للطرادات والسفن التجارية بالذهاب للبصرة يساعد في كشف أسرار العثمانيين و مخططاتهم، وأنه يمكن الحصول بهاتين الطريقتين على أخبار مايحدث في السويس والمناطق الأخرى لأن البصرة مقصد التجار من شتى الأنحاء ، وفي الأغلب من القاهرة و دمشق و بيرة جيك و حلب، حيث يمكن أن يقدم العرب الأخبار الصحيحة عن العثمانيين ، وبناءً على هذه الأفكار والآمال بعثَ حاكم هرمز د ومينحوس باربودو إلى البصرة ، نظراً لسمعتِهِ الجيدة و معرفتِهِ من قِبَل العربِ والتجار في البصرة ، و كان البرتغاليون قد سمحوا في نفسِ العام لبعض الطرّادات والسفن التجارية بالذهاب بتجارتها إلى البصرة . (١)

ورغم أن محاولة العثمانيين للتقارب من البرتغاليين في هرمز لم تأت بنتائج ملموسة ، لأن البرتغاليين كانوا يرون في الوجود العثماني في الخليج تهديداً لمصالحهم، وقد كان ذلك مبعث قلقهم، و دافعاً لهم على متابعة التحركات العثمانية ببالغ الحذر (٢) ، فإن التجارة عبر الخليج قد بدأت تنبعثُ من جديد منذ منتصف القرن السادس عشر ، حيث أصبحت حلبُ سنة ١٥٥٠م - ٩٥٧ هـ ، القريبة من البحر المتوسط مركزاً تجارياً مهمّاً تُصدّر إليه كمياتٌ هائلةٌ من التوابل والحرير وغيرهما من بضائع الهند عن طريق العراق وإيران (٣) ، كذلك كانت مدينة بيرة جيك تتمتع بنشاط تجاري كبير مع بلاد فارس والمناطق الأخرى ،

---

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون . صالح أوزبران . ص ٦٦ - ٦٩

٢) المرجع السابق . ص ٣٩

٣) النفوذ البرتغالي . نوال الصيرفي . ص ١٦٩

وهي تبعد عن حلب مسيرة يومين ، وتستغرق الرحلة بينها وبين البصرة نحو عشرين يوما [١] ولعل مما ساعد على زيادة ازدهار مثل هذه المراكز أن العلاقات بين والي البصرة العثماني وحاكم هرمز البرتغالي كانت ودّية نوعاً ما ، بعد منتصف القرن السادس عشر بقليل [٢] وأن التجار الأوربيين قد عادوا يتعاملون مع المراكز التجارية في مصر والشام ، وأن بعضهم قد أصبح يشتري منذ سنة ١٥٦٠-٩٦٧هـ نفس الكمية التي كان يشتريها قبل احتكار البرتغاليين للتجارة الشرقية عبر طريق رأس الرجاء الصالح [٣] كما سبق القول .

ويبدو للباحث أن محاولات التفاهم الاقتصادي بين العثمانيين الأتراك ، في العراق خاصة ، وبين البرتغاليين قد آلت بعد ذلك إلى طريق مسدود ، إذ لم تسفر بعثة بيلر بي البصرة سنة ١٥٦٢ -٩٧٣هـ إلى حاكم هرمز عن نتائج تذكر في مجال إعادة الحياة التجارية عبر الخليج العربي ، وفي ذات الوقت تقريباً رفض السلطان العثماني التعامل مع سفير نائب الملك البرتغالي في الهند ، أنطونيو تكسيرا ، والذي أُرسِلَ بهدف التفاهم الاقتصادي والتجاري مع العثمانيين ، وذلك بحجة أنه ليس سفير الامبراطور البرتغالي نفسه . ومع هذا فقد حَمّل السلطان العثماني تكسيرا رسالةً لملك البرتغال طالب فيها تأمين الطرق البرّيّة والبحرية وفتحها أمام الرعايا العثمانيين الذين يتاجرون مع البلدان والمناطق الخاضعة للنفوذ البرتغالي ، وبينت الرسالة أن ذلك سيفتح المجال أمام إقامة علاقات الود والصداقة بين الطرفين [٤] . ويبدو ، أيضاً ، أن هذه الرسالة لم تؤت ثماراً اقتصادية أو تجارية تذكر ، إذ اتجهت العلاقات العثمانية البرتغالية نحو التصعيد العسكري ، وحدثت فيما بين سنتي ١٥٦٥-١٥٨١م-٩٧٦-٩٩٢هـ عدّة صدامات عسكرية بحريّة ،

---

١) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون ، صالح أوزبران ص٦٦

٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ستيفن هيمسلي . ص٤٨

٣) النفوذ البرتغالي ، نوال الصيرفي ص١٦٩

٤) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون ص٥٥-٥٦ . وانظر نص الرسالة في الملحق

سبقت الإشارة إليها في غير هذا الموضع (١) ومما لا شك فيه أن هذه التطورات قد أثّرت على المشروع البرتغالي الهادف إلى الإفادة من الطرق التقليدية القديمة عبر الخليج العربي والذى برز إلى الوجود بعد سقوط هرمز في أيدى الصفويين ، بهدف ضرب المصالح الصفوية في الخليج العربي وعدم احتكاك البرتغاليين مع الصفويين ، وتنشيط الحركة التجارية عبر مسقط لزيادة العوائد الجمركية (٢) والإفادة من تحسين العلاقات العثمانية البرتغالية بمحاولة إعطاء دور تجارى - ولو صغير - للعثمانيين لضمان سكوتهم على الهيمنة التجارية البرتغالية في المياه الإسلامية الشرقية ، ومهما يكن من أمر هذا المشروع فإنه يُثبت أنّ البرتغاليين قد بدأوا يُدْرِكون عدم كفاية سيطرتهم على طريق رأس الرجاء الصالح وأنّ طُرُقاً جديدةً لا بدّ أن تستخدم لسد العجز الناجم عن تَسَرُّب وسائل الاحتكار التجارى من بين أصابعهم ، وأنّ العرب والعثمانيين لم يكونوا يحرصون على احتكار التجارة بين الشرق والغرب ، ولوكانوا كذلك لما فكر البرتغاليون في الإفادة من الطرق التقليدية القديمة ، وأنّ البرتغاليين قد بدأوا يَتَّبِعون سياسة اقتصادية جديدة أكثر اعتدالاً وتوازناً وتفهُّماً للوضع الاقتصادي الجديد والذى لم يعد يسمح للبرتغال بأن تمارس هيمنتها التجارية كما كانت تمارسها من قبل .

وهكذا يمكن القول إنّ العثمانيين قد نجحوا في التصدى للمشروع الاحتكاري البرتغالي إلى حدّ كبير وإن كانت عملياتهم العسكرية خارج البحر الأحمر كانت دون ذلك النجاح بكل تأكيد .

* * *

لعب الصفويون دوراً متأخراً نسبياً في مقاومة الاحتكار التجارى البرتغالي ، إذ لم يقوموا بأية نشاط يذكر ، في هذا المجال ، حتى نهاية القرن السادس عشر تقريباً ، وبدأ نشاطهم السياسي والاقتصادي المناوئ للاحتكار البرتغالي في النمو المُتَسارِع مع بداية القرن التالي إذ عمل الشاه عباس على تحرير الحرير الفارسي من الاحتكار -

---

(١) الأتراك العثمانيون ص/٥٦-٥٩ (٢) Nailes, op. cit, p 359 و التنافس الدولي . مصطفى الخطيب ص/٩٩-١٠٠

البرتغالي وأخذ يبيعه لأي مشترٍ يدفعُ أفضلَ الأسعار (١). ومما يذكر أن بروز الدور الصفوي قد تزامن مع بداية تدهور الاحتكار البرتغالي وظهور النشاط التجاري والسياسي الأوربي في مياه المحيط الهندى ، فَعَلى الرغم من أن قبضةَ البرتغاليين على الخليج قد اشتدت مع مُضيِّ القرن السادس عشر فإن حجم تجارتهم وأهميتها أخذ يتدهور بصورة مستمرة ولكنها بطيئة ، وربما كان قد بدأ ذلك منذ استيلاء البوكيرك على هرمز ، حيث اعتمد البوكيرك وقادته العسكريون على السلب والنهب والقهر في معاملة التجار المسلمين (٢). وتطور الدور الصفوي المُقاوِم للاحتكار البرتغالي بسرعة ، بعد تحرير هرمز ، إذ قام الصفويون بعدّة أنشطةٍ متجانسةٍ متزامنةٍ كان لها أبلغُ الأثرِ على الاحتكار التجارى البرتغالي ، ومن ذلك أنهم عَمَدُوا إلى تقوية روابطهم التجارية بالإنجليز والهولنديين ومَنَحُوهم أفضلَ الامتيازات والمزايا الاقتصادية ، واتبعوا سياسة الانفتاح الاقتصادي والتجاري ، وأوقعوا بذلك التعامل التجاري مع البرتغاليين لصالح الخصمين الأقدر على المنافسة كما قام الشاه عباس بنقل النشاط التجاري الذى كانت تمارسه هرمز إلى بندر عباس ، مما أفقد هرمز ، التي كان يُعَوِّل عليها البرتغاليون كثيراً في نشاطهم التجارى ، أفقدها أهميتها التجارية (٣). وأدّى ذلك إلى إضعاف الهيمنة التجارية للبرتغاليين ، ومنح الفُرْسَ فرصةَ المشاركة في التجارة الدولية بين الشرق والغرب والإفادة منها بصورة أكثر فاعلية ، وكان هذا العمل بمثابة البداية الفعلية لتحرير تجارة المحيط الهندى والخليج العربي من الاحتكار ، حيث بدأت تتمتع بقدرٍ أكبر من الحرية في ظلِّ السياسة الصفوية المنفتحة والتي رفضت الرضوخ لأيِّ تهديدٍ أو إغراءٍ سوى لما تقتضية المصلحة السياسية والاقتصادية العليا للدولة.

---

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم . بديع جمعة . د . وأحمد الخولي . د . ص ٨٥

٢ الخليج العربي . ويلسون . ص ٧٩

٣) تاريخ إيران . رضا بازوكي . ص ٢٤٢

وعمل الصفويون في ذات الوقت على إبعاد البرتغاليين عن البصرة ومنعهم من التعامل التجاري معها، فهاجموا بغداد سنة ١٦٢٣م-١٠٣٤هـ واستولوا عليها ثم اتصلوا بحاكم البصرة العثماني علي باشا وحذروه من التعاون مع البرتغاليين والسماح لسفنهم بارتياد الميناء، ولكن الحاكم العثماني لم يستجب لمطالبهم واستمر في التعاون مع البرتغاليين لإدراكه خطورة التهديد الصفوي (١) من جهة، ومدى أهمية البصرة بالنسبة للبرتغاليين من جهة ثانية، ولذا سُمِحَ للبرتغاليين ببناء قلعةٍ وعددٍ من الأديرة والكنائس (٢) واستنجد بهم لصدّ الأطماع الصفوية عن البصرة، حيث كان لنجدتهم أكبر الأثر في صد الهجوم الصفوي عنها (٣)، ومهما يكن من أمر فإن الصفويين قد لجأوا إلى إبعاد البرتغاليين عن البصرة بالطرق الدبلوماسية حيث نصّ اتفاق سنة ١٦٢٥م-١٠٣٦هـ على أن يمتنع البرتغاليون عن إرسال سفنهم للبصرة وعن تقديم المساعدات العسكرية لعلي باشا، وتمّ تعزيز هذا الاتفاق بعد ذلك بنحو خمس سنوات (٤)، ومع ذلك فإن البرتغاليين لم يقطعوا علاقاتهم التجارية مع البصرة حيث كانت أسرة أفراسياب تفتح أبواب البصرة لوكلاء جميع الشركات والأساطيل الأجنبية على اختلاف أجناسهم وألوانهم. (٥)

وقام الصفويون كذلك بمحاصرة النشاط التجارى البرتغالي في مسقط وحاولوا التعاون مع الإنجليز لطرد البرتغاليين منها على أن يحصلوا فيها على نفس الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في فارس، ولكن الإنجليز لم يستجيبوا لتلك المحاولات (٦) وانتهى الأمر بجنوح البرتغاليين إلى اتّباع سياسة تجارية أكثر اعتدالاً حيث قنعوا بالتسهيلات التجارية التي مَنَحَها لهم الصفويون في بندر كنج خاصة (٧) سنة ١٦٣٠م-١٠٤١هـ، وبذلك

---

(١) زنجبار. صلاح العقاد. د. ص ٢٥. والتنافس الدولي. الخطيب. ص/١٠٢

(٢) Boxer, Commentaries, pp 204-205 (٣) Nials, op. cit, p 356.

(٤) التنافس الدولي. مصطفى الخطيب. ص ١٠٤-١٠٥. (٥) المرجع السابق ص/١٠٥

(٦) دولة اليعاربة. عائشة السيار. ص ٧٩. (٧) التنافس الدولي. مصطفى الخطيب ص/١٠٥

يكونوا قد تخلّوا عن فكرة الاحتكار التجارى مكرهين (١) واكتفوا بدور المشارك أو العميل التجارى فقط، على أنه لم يسمح لهم بعد ذلك بممارسة هذا الدور من قِبَل قوى سياسية أخرى سيتم الحديث عنها لاحقاً. أمّا ماينبغي ذكره الآن فهو أن كلاًّ من العثمانيين والصفويين قد قبلوا التعامل مع البرتغاليين في إطار الحرية التجارية لأمرين هما: الرغبة المشتركة في الحصول على منتجات جزر الهند الشرقية وخاصة التوابل، والرغبة في تنشيط التجارة في الموانئ التابعة لهما لما يترتب على ذلك من زيادة إيرادات الرسوم الجمركية التي يمكن أن تتدفق على خزائن الدولتين، فضلاً عن أن المشاركة في النشاط التجارى ترفع - حتماً - كفاءة الأداء الاقتصادي العام لكلا الدولتين.

* * *

ويعتبر نشاط اليعاربة في مقاومة الاحتكار التجارى البرتغالي امتداداً لحركة المقاومة العربية في منطقة الخليج وسواحل البحر العربي، والتي نَشَطَتْ منذ وقت مبكر من القرن السادس عشر محاولةً كسر الطوق أو الحصار التجارى الذى فرضه البرتغاليون - كما سبق بيان ذلك - ولم يكد النصف الأول من القرن السادس عشر يشرف على نهايته حتى بدأ العرب في مهاجمة السفن البرتغالية، كنوع من المقاومة المشروعة الموجهة للاستعمار الأجنبي وهو الحق الذي مارسته جميع شعوب الأرض في حين وصفه الكُتّاب الغربيون المتحازون بأنّه لونٌ من القرصنة البحرية ووصفوا رجال المقاومة البحرية بأنهم قراصنة وبرابرة و وحشيون و همج ، وهم يريدون بذلك تشوية الوجه العربي والإسلامي وإضفاء طابع الهمجية على المجتمع المسلم المقاوم للظلم ،

---

(١) تاريخ روابط إيران . نصر الله فلسفي . ص ٨٨

ودليل الخليج - القسم التاريخي . لوريمر ج ١ ص ٤٧

المطالب بحقه المشروع في مياهه وتجارته وحرية اقتصاده وهي أمورٌ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحق السيادة والحرية والاستقلال الذي تحرص عليه جميع شعوب الأرض.

لقد مارسَ العربُ حقهم هذا في أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر كما سبق القول فهاجموا بعض السفن البرتغالية وكانوا يستولون على كثير من بضائعها، عندما تسمح لهم الظروفُ بذلك، واستولوا في ظل هذه السياسة على كثيرٍ من البضائع الثمينة سنة ١٥٤٧م-٩٥٨هـ كانت إحدى السفن البرتغالية تحملها عندما تحطمت وهي قادمة من الصيرة، ولم يكتفِ العرب بذلك بل قتلوا جميع بحارتها البرتغاليين ولم ينج إلّا ثلاثة منهم تمكنوا من الفرار (١) بصعوبة. ومما يذكر أن البرتغاليين قد ردّوا على حركات المقاومة تلك بقسوة بالغة وتعقبوا السفن العربية بدعوى القضاء على القراصنة ولم يكتفوا بذلك بل هاجموا السواحل العربية بدعوى أنهم يحتمون بها (٢).

وحرص اليعاربة منذ قيام دولتهم على تحقيق سيادتهم على مياههم الإقليمية وعلى القضاء على الاحتكار التجارى البرتغالي، وعلى تحقيق مبدأ حرية التجارة ليفيد كلٌّ منها حسب ظروفه الطبيعية والتجارية والبشرية لا بحسب هيمنته السياسية وشدة سطوته وتميُّزِ لونه وأنفةِ غروره، ولذا عمل اليعاربة منذ أول اتفاق لهم مع البرتغاليين على إنهاء الهيمنة البرتغالية على حركة التجارة الدولية (٣)، كما تضمّن اتفاق تسليم مسقط لليعاربة عدة بنود تجارية مهمّة تكفل في مجملها حق حرية التجارة للجميع وخاصة المجتمع الإسلامي، ومن هذه البنود أن تتمتع السفن العربية والإسلامية بحرية الملاحة من مسقط وخاصة في مجال التجارة الدولية، وألّا يدفع رعايا اليعاربة أية رسوم جمركية، وأن تكون التجارةُ حرةً حريةً تامةً بغير قيود (٤).

---

(١) الأتراك العثمانيون. أوزبران. ص/٧٤، ٧٥ (٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

٣) تحفة الأعيان. السالمي. جـ ٢ ص ١٠.

٤) الخليج العربي. ويلسون. ص ١٢٢

واستمر اليعاربة بعد ذلك في مهاجمة المواقع والأساطيل البرتغالية في مياه المحيط الهندى شرقا وغرباً حتى تمكنوا من القضاء شبه التام على نشاطهم التجاري الاحتكاري (١) ومما يذكر أن السكان الوطنيين قد قبلوا بمبدأ التعامل التجارى البحت مع البرتغاليين (٢) إلى أن تضاءل دور هؤلاء إلى حدّ كبير أمام ضربات اليعاربة من جهة ومحاربة الفرس والإنجليز والهولنديين من جهة ثانية ، حيث اضطر التجار البرتغاليون إلى هجر المناطق والموانئ التجارية التي كانت عرضة للهجوم سواء في منطقة الخليج العربي أم في سواحل الهند أم في شرق أفريقيا (٣).

* * *

ولعبت سلطنتا آجه (Acheh) (٤) وكجرات دوراً مهمّاً في القضاء على الاحتكار التجاري البرتغالي ، حيث أخذت هاتان القوتان في الاتصال بالبحر الأحمر ونقل البضائع الهندية ، وأهمها التوابل ، إليه منذ ثلاثينات القرن السادس عشر وهو مايعني بدء انهيار الهيمنة التجارية البرتغالية على الصعيد العملي (٥). ومع أن البرتغاليين قد استجمعوا قُوَاهم و تحصّنوا بسواحل كجرات مرة أخرى حوالي سنة ١٥٥٣م-٩٦١هـ ، واستولوا على جزيرتي ديو ودمن ، مازاد في نفوذهم في سواحل كجرات (٦) فإنّ نشاط الإمارتين سالفتي الذكر قد ازداد منذ ذلك الحين مما حدا بالبرتغاليين إلى تعقّب قوافلهما التجارية ومحاربتها ، ومما يذكر أن محاولات الاعتراض البحري البرتغالية لم تكن حاسمة ، ولم تؤت ثمارها المرجوة ، إذ وصل البحر الأحمر ، على سبيل المثال ، سنة ١٥٦٥م - ٩٧٤ هـ ثمانٍ وعشرون سفينة تجارية مُوزّعةً بين آجه وسومطرة وباقي الموانئ الهندية ، واستمر توافد السفن التجارية من الهند وخاصة من آجة التي ظلت تشكل تهديداً مباشراً لهيمنة البرتغاليين البحرية ، ولوجودهم في مضيق ملقا ،

١) تحفة الأعيان . السالمي . جـ ٢ ص ٦٢ . ٢) التنافس الدولي . مصطفى الخطيب . ص ١٠٦

٣) تحفة الأعيان . السالمي . جـ ٢ ص ٦٢ . والتنافس الدولي . الخطيب . نفس الصفحة

٤) في شمال سومطرة

5) Boxer, C.R., Portugues Conquest, pp. 415-422

٦) تاريخ الصلات بين الهند والعرب . محمد الندوي . د . ص ١٦٨ . وقد نقل عن كجرات كي تمدّن تاريخ ص ٢٨٦ .

وقد دفع هذا الأمر البرتغاليين إلى محاولة غزوها في أواخر القرن السادس عشر، ولما عجزوا عن ذلك لجأوا إلى الطرق الدبلوماسية للتوصّل إلى تفاهم تجاري واقتصادي معها (١)، ولكن الرياح السياسية جاءت بما لا تشتهي السفن البرتغالية وحلّتْ في سواحل الهند الشرقية والغربية على حدّ سواء قوىً أخرى أخذت تمارس دورها بتفوقٍ و نشاطٍ بالغين .

* * *

وقامتْ عدةُ قوى أوربية بدورٍ مهمٍّ في زعزعة الاحتكار التجارى البرتغالي لتجارة الشرق، ومن هذه القوى القوة الهولندية والأساطيل الإنجليزية وقدْ برزَ دورُهاتين القوتين بعد عام ١٥٨٠م- ٩٨٩هـ على وجه التحديد، فبحلول ذلك العام ورثت أسبانيا عرش البرتغال، ودخلت بريطانيا وهولندا بعد ذلك بقليل ميدان المنافسة التجارية بشكل خطير، حيث فقدت البرتغال عدّةَ جزرٍ شرقية لها قيمتها، كما فقدت عدةَ مراكز في الهند خاصة، وتحوّل الأمراء والتجار الذين درجوا على الاتّجار مع البرتغال إلى القادمين الجدد، ولم تَعُدْ السفن البرتغالية تجد سوى القليل من البضائع التي كانت قد اعتادت الحصول عليها، ثم تخلصت المدن العربية بنجاح من القيود التجارية ومن التزامها بدفع الجزية (٢) السنوية وأداء الجمارك الباهظة على البضائع، وتوالت الأحداث تِبَاعاً، مما ساعد على وضع نهاية حاسمة، ليس فقط للاحتكار التجاريِ البرتغالي، بل لكل المشروعات الاستعمارية البرتغالية في الشرق .

بدأت هولندا نشاطها التجاري والسياسي، أيضاً في مياه المحيط الهندى برحلة لنشوتن التي زارفيها جَوَا سنة ١٥٨٣م - ٩٩٢هـ وأقام فيها نحو إحدى عشرة سنة جمع خلالها معلوماتٍ واسعةً عن المحاصيل التجارية ذات الأهمية الكبرى ثم نشر نتائج أبحاثه، ووضع لوحةً ملاحيةً للبحارةِ، وضّحَ عليها خطوط الملاحة

---

(١) Boxer, C.R. op. cit, pp. 415-422

(٢) تاريخ أفريقيا - جنوب الصحراء . دونالد ويدنر . ص ١٤٦

بين لشبونة والشرق ، وحدّد فيها التيارات البحرية واتجاهات الرياح وأهم الموانئ والجزر والشعوب المحيطة للمحيط الهندى (١) وبذلك يكون قد تغلب على السرية والحظر اللذين فرضهما البرتغاليون على خرائط الشرق الملاحية وعلى الدوائر المشرفة على رسمها وطباعتها (٢) وفتح الباب واسعاً أمام الطموح الهولندى ، ليرتاد تجار هولندا بحار الشرق عن علم ودراية كافيتين ، وقد أسرع خطى الهولنديين نحو الشرق أمران هامان ، تمثل أولهما في أن تجارة البحر المتوسط قد عادت إلى نشاطها في الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وبرز دورُ التجارةِ والوساطةِ التجارية التركية بشكل واسع (٣) وهو الأمر الذى أفقد البرتغال جزءاً مهمّاً من تجارتها وقدرتها الاحتكارية في الشرق وفتح عيونَ عددٍ من القوى الأوربية على أهمية الدّور البديل الذى يمكن أن يلعبه البحر المتوسط وعلى الإمكانات التي يمكن أن تستغلها تلك القوى من خلال ذلك الدور الذى تَمَّ إحياؤه . أما الأمر الثاني فتمثل في طبيعة العلاقة بين هولندا وأسبانيا التي كانت وريثةً للبرتغال في ذلك الوقت لقد كان الهولنديون في أواخر القرن السادس عشر وحتى سنة ١٥٩٥م-١٠٠٥هـ خاضعين لنفوذ ملك أسبانيا ،وقد حاول فليب الثاني القضاء على التجارة الهولندية ووقف التبادل التجارى معها بالاستيلاء على السفن الهولندية الموجودة في المياه الأسبانية .وكان من الواضح أن السياسة الأسبانية تحظر على الهولنديين الاتصال بالمستعمرات البرتغالية في الشرق والتجارة معها . ولما كان الهولنديون على علم بما تُدِرُّه هذه التجارة فقد دفعهم الحرمان والإحساس بالقهر إلى القيام بالاتصال المباشر مع الشرق (٤) .

وهكذا أجرى الهولنديون مزيداً من التحريات وأخذت أساطيلهم تتجهُ إلى الشرق في سرعة خاطفة ، حتى بلغ عدد تلك الأساطيل فيمابين سنتي ١٥٩٨-١٦٠١م مالا يقلُّ عن خمسة عشر أسطولاً ، عبرتْ طريق رأس الرجاء الصالح قاصدةً مياه المحيط الهندي

١) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢٦ . ٢) صراع القوى . محمد مراد . ص ١٦٣

٣) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٧٩ .

٤) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٢٦

البحر الأحمر عن طريق عدن وغيرها من الموانئ اليمنية دون أن يلاقوا نجاحاً يذكر، فإنه لم يكد يمض الربع الأول من القرن المذكور حتى كانت مشاركة البرتغال في تجارة الفلفل الآسيوى لا تتعدى ٤٪ من جملة الحاجة الأوربية (١) آنذاك، بينما كان الهولنديون يواصلون نجاحهم التجارى بشكل لافت للنظر، حيث كانوا قد ثبتوا أقدامهم سياسياً وتجارياً في السواحل الهندية وتمكنوا مع حلول العقد الرابع من القرن السابع عشر وقبل وفاة الشاه عباس من تأسيس ثلاثة مراكز تجارية هولندية في فارس كانت موزعة بين بندر عباس وأصفهان ولار،(٢) وأصبحت تجارة التوابل كلها في أيديهم،وكانت السفن والبضائع الهولندية هي السائدة وخاصة في بندرعباس، في حين كان الإنجليز يبيعون أو يقايضون سلعهم من الأقمشة والحرائر والقطن والحديد، التي كانوا يجلبونها من الهند الشرقية فحسب (٣) ومع حلول منتصف القرن السابع عشر قدرت كمية التجارة الدولية بألف وستمائة مليون فلورين في السنة،كان الهولنديون يسيطرون على معظمها فقد كانوا يمتصون كالنحل عصارة كل البلدان،فالنرويج كانت غابةً لهم وشواطئ الرين والغارون كانت الكرم، كما أن ألمانيا وأسبانيا وإيرلندا كانت مرعى أغنامهم وبلاد فارس وبولونيا حواصلهم والهند وشبه جزيرة العرب بساتينهم (٤) وهكذا لم يبق للاحتكار التجارى البرتغالي مكان يذكر.

* * *

وكان الإنجليز من أهم القوى الاوربية التي وقفت في وجه الاحتكار التجارى البرتغالي منذ وقت مبكر من القرن السابع عشر، وأثبتت في ذلك كفاءة عالية، وذلك بالرغم من أن قوى أوربية أخرى كفرنسا مثلاً،كانت قد دخلت ميدان المنافسة في تجارة البحر المتوسط، وحصلت على امتيازات تجارية خاصة لدى الدولة العثمانية منذ سنة ١٥٣٦م-٩٤٠هـ وبالرغم من أنّ بريطانيا كانت قد دخلت ميدان تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط في وقتٍ متأخرٍ نسبيّاً

---

(١) Steansgard, op. cit, p 361

٢) الشاه عباس الكبير . بديع جمعة . د . ص ٢٦٥ . والخليج العربي . ويلسون . ص ١٣٢

٣) الخليج العربي . ويلسون . ص ١٣٢

٤) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٨٥

البحر الأحمر عن طريق عدن وغيرها من الموانئ اليمنية دون أن يلاقوا نجاحاً يذكر، فإنه لم يكد يمض الربع الأول من القرن المذكور حتى كانت مشاركة البرتغال في تجارة الفلفل الآسيوى لا تتعدّى ٤٪ من جملة الحاجة الأوربية (١) آنذاك، بينما كان الهولنديون يواصلون نجاحهم التجارى بشكل لافت للنظر، حيث كانوا قد ثبّتوا أقدامهم سياسياً وتجارياً في السواحل الهندية وتمكنوا مع حلول العقد الرابع من القرن السابع عشر وقبل وفاة الشاه عباس من تأسيس ثلاثة مراكز تجارية هولندية في فارس كانت موزعة بين بندر عباس وأصفهان ولار، (٢) وأصبحت تجارة التوابل كلها في أيديهم، وكانت السفن والبضائع الهولندية هي السائدة وخاصة في بندرعباس، في حين كان الإنجليز يبيعون أو يقايضون سلعهم من الأقمشة والحرائر والقطن والحديد، التي كانوا يجلبونها من الهند الشرقية فحسب (٣) ومع حلول منتصف القرن السابع عشر قدرت كمية التجارة الدولية بألف وستمائة مليون فلورين في السنة، كان الهولنديون يسيطرون على معظمها فقد كانوا يمتصون كالنحل عصارة كل البلدان، فالنرويج كانت غابة لهم وشواطئ الرين والغارون كانت الكرم، كما أن ألمانيا وأسبانيا وإيرلندا كانت مرعى أغنامهم وبلاد فارس وبولونيا حواصلهم والهند وشبه جزيرة العرب بساتينهم (٤) وهكذا لم يبق للاحتكار التجارى البرتغالي مكان يذكر.

* * *

وكان الإنجليز من أهم القوى الاوربية التي وقفت في وجه الاحتكار التجارى البرتغالي منذ وقت مبكر من القرن السابع عشر، وأثبتت في ذلك كفاءة عالية، وذلك بالرغم من أن قوى أوربية أخرى كفرنسا مثلاً، كانت قد دخلت ميدان المنافسة في تجارة البحر المتوسط، وحصلت على امتيازات تجارية خاصة لدى الدولة العثمانية منذ سنة ١٥٣٦م-٩٤٥هـ وبالرغم من أنّ بريطانيا كانت قد دخلت ميدان تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط في وقت متأخر نسبياً

---

(١) Steansgaard, op. cit, p 361

(٢) الشاه عباس الكبير. بديع جمعة. د. ص ٢٦٥. والخليج العربي. ويلسون. ص ١٣٢

(٣) الخليج العربي. ويلسون. ص ١٣٢

(٤) تاريخ التجارة. جورج لوفران. ص ٨٥

حيث أسست سنة ١٥٨١م-٩٩٠هـ شركة تجارة شرقي البحر الأبيض المتوسط للاتّجار في الأصواف الإنجليزية والتصدير (١) . ومن الجدير بالذكر أن الإنجليز قد بدأوا اهتمامهم بتجارة المحيط الهندى منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فقد كانوا من قبل تولي الملكة أليصابات عرش بلادهم يحنقون على البرتغاليين لاستئثارهم بتجارة الشرق الأقصى ، ولكنهم رأوا أن قوتهم لا تكفي لمنازلة الأساطيل البرتغالية ومنافستها على التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، فاتجهوا للبحث عن طريق شمالي شرقي يصل الشرق الأقصى عبر شمال أوربا فالصين إلى ملقا، وأسسوا لهذا الغرض الشركة المسكوفية سنة ١٥٥٣م-٩٦٢هـ ولكن المصاعب الجوية أوقفت المشروع فاتجه قائد أساطيل الشركة إلى محاولة أخرى هي إقامة تجارة عبر قزوين و بلاد فارس، ولكن الشركة عدلت عن هذا المشروع ، أيضاً، بعد عشرين عاماً (٢) .

وأخذ الإنجليز في تكثيف جهودهم منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، فبدءاً من عام ١٥٧٩-١٥٨٠م-٩٨٨-٩٨٩هـ ازداد النشاط الإنجليزى في الأراضي العثمانية التي فُتِحَتْ لهم، ومُنِحُوا كثيراً من التسهيلات من قِبَل السلطان العثماني (٣)، وفي ذات الوقت كانت البرتغالُ تفقدُ استقلالها أمام أسبانيا ، وأخذت مستعمراتُها في الشرق تلقى اهتماماً أقلّ ، ونشاطاً تجاريّاً أضعف، وقد أتاحَ ذلك فرصةً أفضلَ للإنجليز لكي يقفوا على حجم التجارة البرتغالية ويَرِثُوا جزءاً منها، ومما شجعهم على ذلك أن البرتغاليين و معهم الأسبان حاولوا منع الأوربيين من الوصول للمحيط الهندى وأنهم قاموا سنة ١٥٨٣م-٩٩٢هـ باعتقال أربعةٍ من المغامرين الإنجليز الذين وصلوا إلى هرمز عن طريق البصرة ، حيث تمّ إيداعهم في السجن بِجُوَا (٤)، هذا بالإضافة إلى أن الهولنديين قاموا قبلَ

---

١) موجز تاريخ الشرق الأوسط . ص . ١٠٠ .   (٢) المرجع السابق، ص/ ١٠٠ - ١٠١

٣) أثر تحول التجارة . فاروق عثمان أباظة . د . ص ٨٨ - ٨٩

٤) صراع القوى في المحيط الهندى . محمد عدنان مراد . ص ١٦٧ - ١٦٨

نهاية القرن السادس عشر بزيادة أسعار التوابل زيادةً باهظة جعلت تصميم الإنجليز على دخول ميدان المنافسة يزداد رسوخاً وقوةً (١) . وهكذا خرج فيما بين سنتي ١٦٠٠-١٦١٢م - ١٠٠٩-١٠٢١هـ أكثر من اثني عشر أسطولاً تجارياً إنجليزياً باتجاه المحيط الهندى وتمّ تفويض شركة الهند الشرقية الإنجليزية للقيام بالعمليات التجارية وأعمال النقل البحرى وهو الأمر الذي دفع الشركة إلى تطوير علاقاتها مع الموانئ الواقعة على السواحل الغربية للهند بالإضافة إلى منطقتي الخليج العربي والبحر الأحمر ، وذلك بهدف تطوير طرق تجارية جديدة (٢) .

وكان للإنجليز في مقاومتهم للاحتكار التجارى البرتغالي في الشرق عدة علامات بارزة ، فمن جهة قامت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بتثبيت أركانها السياسية والتجارية في سواحل الهند الغربية وخاصة في سورات ومدراس ، وأصبح لديها في الهند أكثر من ثلاثة وعشرين مركزاً تجارياً حتى سنة ١٦٤٧م - ١٠٥٨هـ وذلك بالرغم من المنافسة الهولندية والفرنسية ، ومنافسة التجار الهنود في فارس خاصة (٣) ، ومن جهة ثانية قامت الشركة المذكورة بتثبيت وتقوية الوجود السياسي والتجارى الإنجليزى في فارس ففيما بين سنتي ١٦١٥-١٦٢٥م-١٠٢٥هـ-١٠٣٦هـ تمكن الإنجليز من إقامة عدة مراكز تجارية رئيسية في فارس، ومن ذلك مراكزهم في شيراز وأصفهان وبندرعباس وجاسك ، وكذلك استطاعوا أن يحصلوا على كثير من المزايا التجارية في البلاط الصفوى ، تلك المزايا التي جعلت من الإنجليز القوةَ التجاريةَ غيرَ المُنافَسَةِ في فارس، والتي قوّت مركزهم التجارى في كافة سواحل المحيط الهندي ، وخاصة بعد أن اشتركوا مع الصفويين في توجيه الضربة القاضية للمركز التجاري البرتغالي في هرمز حيث تمّ تحويل نشاطه إلى بندرعباس، وقَوِيَتْ قدرةُ الإنجليز على المنافسة وعلى مقاومة النشاط الاحتكاري البرتغالي في الشرق (٤) .

---

(١) صراع القوى . ص١٦٧ - ١٦٨ (٢) المرجع السابق ، ص/ ١٧٠ -

(٣) المرجع السابق ، ص/ ١٧١ - ١٧٢

(٤) المرجع السابق . ص ١١٧ . وزندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . ج ٤ ص ٢٥٧ وتاريخ إيران . أحمد تاج بخش ٢٠٣-٢٠٤ ؛

Niles, op. cit p 207 , op. cit

وكانت العلامة البارزة الثالثة في مقاومة الاحتكار التجاري البرتغالي من قِبل الإنجليز تتمثل في تأسيسهم لشركة أخرى سنة ١٦٣٥م بهدف التجارة مع المستعمرات البرتغالية في الشرق، ومنع البرتغاليين من ممارسة الاحتكار التجاري، وقد حدث تنافس بين الشركتين الإنجليزيتين انتهى باتحادهما تحتَ اسم ويليام كورتين (اتحاد آسا د) وهو الأمر الذي أتاحَ للشركة الجديدة لكي توسع من أعمالها فتشمل معظم سواحل المحيط الهندي (١).

وبذلك تكون قد لعبت دوراً إنجليزياً بارزاً في مقاومة الوجود السياسي والتجارى البرتغالي في مياه المحيط الهندي.

* * *

تناول هذا البحث - فيما سبق - بعض العوامل الخارجية التي كانت ذات تأثيرٍ بَيِّنٍ في وضع نهاية للاحتكار التجارى البرتغالي الذي سادَ معظم فترات القرن السادس عشر تقريباً، وإن كان ذلك بصورة نسبيّة إلى حَدٍّ ما، ولكن الباحث المدقق يَجِدُ عَدَداً من العوامل الاقتصادية الداخلية التي كانت تنخر في جسد السياسة التجارية البرتغالية وتقوّض أركانها وقد ساهمت هذه وتلك في زجّ النشاط التجاري، والنشاط السياسي البرتغالي، إلى نهايته المحتومة، ولذا وجب التوقف عند هذه العوامل أو عند بعضها بمزيدٍ من البيان والتوضيح.

لقد كان التحكم في تجارة المحيط الهندى أو احتكارها، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لا يحتاج إلّا للأساطيل القوية والموانئ الحصينة لأن سوء حالة النقل البري، ورداءة الطرق وقلّة القناطر على الأنهارِ حَوّل التجارة الهندية ونَقَلَ مراكزَها التجارية إلى البحر. ولم يكن العمل التجاري في المحيط الهندي عملاً عادياً ولكنه كان يستلزم عقد المعاهدات مع الملوك والحكام، تلك المعاهدات التي كثيراً ماحقّقت امتيازاتٍ خاصة، وقد حصل البرتغاليون على بعضها، لا بِصِفَتِهم تُجّاراً فحسب (٢)

---

(١) صراع القوى. محمد عدنان مراد. ص ١٧٠ - ١٧١

(٢) فتح العثمانيين عدن. محمد البحراوى. د. ص ١٠٧

ولكن اعتماداً على قوتهم البحرية،وحماية ملك البرتغال لكافة الأنشطة التي قاموابها (١).
وقد برهنت الأحداث أنّ هناك متغيراتٍ سياسيةً واقتصاديةً كان على البرتغال أنْ تأخُذَبها إضافةً إلى ذلك، ولكنّها لم تفعلْ فكان ذلك بداية الوبال الذي لحق بها سياسياً واقتصادياً، وخاصة في مجال تجارتها مع الشرق، لقد فشل البرتغاليون في إحداث تغييراتٍ جذريةٍ في المجالات التجارية، فلم يُطَوِّروا التجارةالأوربية الآسيوية بأي شكل من الأشكال، إذ لم يزيدوا في حجمها، ولم يقدموا للأوربيين سِلَعاً لم يكونوا يعرفونها من قبل، ولم يوجدوا أسواقاً جديدة للسلع الأوربية في الشرق، وعجزوا عن زحزحة التجار الآسيويين الذين احتفظوا بسيطرتهم على تجارة آسيا الداخلية (٢)، كما يمكن الزعم أيضاً أنهم لم يُطَوِّروا أساليب تعاملهم مَعَ السكانِ والتجارِ الوطنيين، ولا مِنْ وسائط النقل التي كانوا يعتمدون عليها ولم تكن حركتهم التجارية عن دراية بالأبعادِ الاقتصاديـةِ الدوليةِ المترتبـةِ عليها. وهكذا يمكن أن يُفَسَّرَ النجاحُ الذي حققته بعض الدول الأوربية الأخرى مثل هولندا وإنجلترا، بأنه قدكان لديها صناعةٌ جيدةٌ حاولتْ مُبادَلَتَها مع المستعمرات بمنتجاتها المحلية في الوقت الذي كان فيه هَمُّ البرتغال ينصبُّ على حصرِ تجارة التوابل في يدها، وفرضِ الأسعار التي تَرُوقُها سواءً في حالة الشراء من آسيا أم في حالة البيع في الأسواق العالمية (٣).

كان ملك البرتغال يحتكر تجارة السلع المربحة وأهمها التوابل في ذلك الوقت في يده، ومن ثَمّ لم يترك مجالاً للطبقة البرجوازية لكي تساهم في حركة التجارة بين الشرق والغرب بحيث تُمِدُّ النشاط التجاري البرتغالي بأموالِها وطاقاتِها وإمكاناتها ومن ثم ظلت هذه الطبقة غير فاعلة، في الوقت الذي كانت فيه أكثر نشاطاً في

---

١) فتح العثمانيين. محمد البحراوى. ص ١٠٧
٢) نظرة جديدة . . . عبدالأمير محمد أمين. د. ص ١٦٥
٣) صراع القوى في المحيط الهندى. محمد عدنان مراد. ص ١٢٥

النظامين الهولندي والإنجليزي ، حيث كان لها دور بارز في تأسيس الشركات الاحتكارية التي ربطت مصالحَ كثيرٍ من الأمراء بحركة الاستعمار أيضا (١) .

وكان للسفن الملكية من الناحية النظرية ، الأفضلية في شراء السلع الشرقية ولكن المسئولين البرتغاليين كانوا يستحوذون على السلع بشكل سرى بدعوى عدم توفر السفن الملكية كما قاموا بمنح رخص الشراء إلى أقربائهم وأصدقائهم وربما باعوها للتجار الآسيويين ، وقد أدّى ذلك إلى إجهاض الاحتكار التجاري (٢) الملكي، وخاصة حين استغلّ الموظفون وربابنةُ السفنِ ، السفنَ الملكيةَ العاملة في التجارة في شحن سلعهم الخاصة مما دَفَعَهم إلى شحن السفن بأكثرَ من طاقتها في بعض الأحيان حيث تعرضتْ بذلك لخطرِ الغرق وقد كانوا يشحنون السفن في بعض الأحيان بحمولاتٍ خاصةٍ بالمواظفين تزيدُ كثيراً عن الحمولة الخاصة بالملك ممّا أدّى إلى قلة الدخل الملكيّ رغم الضغوط المالية الهائلة التي كانت تعاني الامبراطوريةُ البرتغاليةُ في آسيا منها ، وذلك بسبب تفسخ و فساد الأجهزة الإدارية فيها من ناحية، وبسبب الحاجة إلى الحفاظ على الممتلكات والقلاع والمواقع والسفن في الشرق من ناحية (٣) أُخرى . لقد كانت البحرية البرتغالية تعاني من عدم وجود نظام دقيق تسير عليه (٤)، وكان مَبْدَأُ السماح للربابنة والملاحين بحمل سلعهم الخاصة على ظهر السفن الملكية من أهم مظاهر الفساد في التجارة البرتغالية وفي نظمها المُتَّبَعَة (٥) ،

ولم يكن للتجارةِ البرتغاليةِ الاحتكاريةِ أنْ تسيرَ بغيرِ قوةٍ ولا سلاح ، لأنها قامت على موازين جائرة في أساسها ولذا كان على النشاط التجارى البرتغالي أن يتحمَّلَ أعباء النفقات المالية العسكرية التي كَلَّفَتْها الحملاتُ الكثيرة وعمليات التصدى للمقاومة الإسلامية سواء في شرق أفريقيا أم في البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي

---

١) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ١٣٢

٢) نظرة جديدة . . . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٨٠

٣) المرجع السابق . ١٨٠ - ١٨١ (٤) أثر تحول التجارة . فاروق أباظة . د . ص ١٣٢

٥) نظرة جديدة . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٧٨ - ١٧٩

أم في سواحل الهند وأرخبيل الملايو (١)، ويضاف إلى ذلك الأعباء المالية التي كانت تنجم عن تكرار حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط (٢).

ولما كانت الأراضي الزراعية في البرتغال محدودة ومملوكة من قِبَلِ طبقةٍ ارستقراطية صغيرة تعتمدُ على استخدام الرقيق الأفريقي فقد ظلّ عددٌ كبيرٌ من أفراد تلك الطبقةِ يتطلعُ إلى المناصب الحكومية الكبيرة. ولما لم يكن في قدرة الحكومة الامبراطورية حلُّ مثلِ هذه المشكلة جذرياً اتجهَ بعض أبناء تلك الطبقة إلى المغامرة حيث شَدُّوا الرحالَ إلى الشرق في رحلات خاصة طلباً للحظّ والكسبِ السريع. وقد استشرى أمرُ هولاء حتى وصلَ عددُهم في سنةٍ واحدةٍ نحواً من مائتين وأربعين مغامراً اقترفوا أبشع الجرائم من أجل الربح حيث مارسوا القرصنة والسلب والنهب، فضلاً عن التجارة لحسابهم الخاص، ولم يعمل إلاّ قسمٌ صغيرٌ منهم في جمعِ الضرائب من قِبَل السلطات الملكية، وأصبح همُّ الجميعِ مَعَ مُرورِ الوقت الحصول على المال بأيّةِ طريقة كانت. ومما يُذْكر أنّ هذه الطبقةَ المغامرة قد نَقَلَتْ معها غطرسةَ الارستقراطية الأوربيّة وتعاليها وتقاليدها التي اعتُبِرَ الخروجُ عليها إهانةً كبيرةً (٣)، وربّما كان من آثار ذلك هبوط تجارة القمح الأسباني الذي تضاءل إنتاجه إلى حدٍّ كبير.

ولما كانت الموادُّ والمنتجاتُ الشرقيةُ الممتازةُ ذاتُ تكاليفَ عاليةٍ قياساً بالمصنوعات التي كانت البرتغال تبادل بها، فقد كان الميزانُ التجاريُّ دائماً في صالح البضائع الشرقيّة، ولذلك فقد كان يدفع ثمنها نقداً بالذهب أو الفضة، مما أدّى إلى تسربِ كميّاتٍ ضخمةٍ من هذين المعدنين النفيسين إلى الشرق، حيث قُدِّرَت الكميّاتُ المتسرّبةُ بطيارٍ من العملةِ المُتَعارفِ عليها في ذلك الوقت ولم يُؤدِّ ذلك إلى التضخم في الشرق لأن تلك الأموال دخلت الصناديق الحديدية الخاصة بكبار التجار والحكام. ولمّا لم تكنْ الأسعار

---

١) نظرة جديدة .. عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٨١. (٢) أثر تحول التجارة. أباظة، ص ١٣٠

٣) نظرة جديدة ... عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٧٦ - ١٧٧

لتزداد بشكل يخلق طلباً على المنتجات الغربية بحيث يمكن استعادة الأموال التي دُفعت،أو بعضها على الأقل ، فقد كان هناك تسرب وعدم توازن بين ما يأخذه البرتغاليون ومايدفعونه لقاء البضائع ،وهكذا أصبحت تجارتهم مع مر الزمن خاسرة ووجدت حكومة البرتغال نفسها عندما ولي جون الثالث الحكم، مضطرة لإخلاء كثير من القواعد فيما وراء البحار، لأن الحكومة كانت مسئولة عن تمويلها. ولم ينقذ البرتغال من محنتها آنذاك سوى تدفق الذهب والجواهر من البرازيل (١). ولمّا لم يُوفّق البرتغاليون في إيقاف نزيف الأموال الذي كانت تُعاني منه أوربا من جرّاء تجارتها الآسيويّة (٢) فقد قرّروا التدخل في داخل القارة الأفريقية حيث صمّموا على ضم حوض الزمبيزي بأكمله إلى امبراطوريتهم، وفرضوا الإدارة البرتغالية على القبائل الموسومة بحيازة الذهب، ولكنّهم فشلوا في الوصول إلى مصادره (٢) ، مما زادَ في تكلفتهم دون كبير جدوى،وممّا زاد الطين بلّة أن قوافل الذهب السوداني كانت قد انقطعت عن الورود للمغرب (٤) حيث كانت تُنقَل منها لأسبانيا .

وفشل البرتغاليون في خلق مؤسسات اقتصاديّة ذات طابع رأسمالي استثماري يستند إلى أسس اقتصادية راسخة وفوائد دائمة مضمونة، فظلت تجارتهم تمثل تجارة الباعة المتجوّلين، وبالتالي ظلت أنماط التجارة التقليدية هي الأنماط السائدة دون أن يطرأ عليها أيّ تغيير جذريّ فهي صغيرة نسبيّاً ، وهي مشروع ملكي خاص سُخّرت فيه كلُّ العناصر، السفنُ والملاحةُ والموانئُ والضرائبُ للاستغلال الغاشم ، ولتوفير الفائدة المباشرة السريعة (٥) للملك البرتغالي في المقام الأول،ولحكومته وعناصر دولته فيما بعد .

---

١) صراع القوى . محمد عدنان . ص ١٣٥ - ١٣٦ . (٢) نظرة جديدة . عبد الأمير أمين . ص ١٧٤

٣) صراع القوى في المحيط الهندي محمد عدنان مراد . ص ١٣٦

٤) لمزيد من التفصيل عن تجارة الذهب في افريقيا انظر الممالك الاسلامية . زاهر رياض .

٥) نظرة جديدة . . . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٧٤

التزم البرتغاليون، للمحافظة على احتكار تجارة الشرق ، طابع السريّة فيما يخص الطريق إلى الهند ، حيث أصدر الملك البرتغالي مانويل سنة ١٥٠٤م -٩١٢هـ مرسوماً يحظرُ وضع الإشارات أو المُسَمَّيات على الخرائط، كما تمت إحاطةُ الدائرة المختصة بذلك بسريّةٍ تامةٍ (١) ، ولا شك أنّ هذا التصرف كان عملاً أحمق غير مسئول، إذ إنّ رحلةَ أحدِ العلماءِ خِفْيَةً على متن إحدى السفن البرتغالية ، كما تمَّ فعلاً، كفيلٌ بكشفِ ما حَرِصُوا على إخفائه عشرات السنين، وكان الأجدر بالبرتغاليين، وقد خبروا إخوانهم الأوربيين أن يسلكوا معهم أسلوب المنافسة الشريفة بدلاً من ذلك، ولو فعلوه لكان أجدى لهم .

وخطط البرتغاليون للاستئثار بطريق رأس الرجاء الصالح مُدّةً ما، ولم يستطيعوا بذلك مطلقاً ، أن يُحَوّلوا التجارةَ بِرُمّتِها عن الطرق البريّة (٢) وبَقِيَ طيلةَ القرن السادس عشر طريقٌ بَرّي للأفاويّة يَمُرُّ بأزمور ومنها إلى حلب (٣) ثم إلى أوربا حسب الطرق التقليديةِ المُتَعارفِ عليها دوليّاً في ذلك الوقت، وكانَ إلى جوار هذا الطريق عددٌ من الطرق الأخرى التي سبقَتْ البرهنةُ على بقائِها حيّةً نشطةً في غير هذا المَبْحَث .

لقد اعتمد البرتغاليون في احتكارهم للتجارة البحرية على رقابة أساطيلهم التي كانت تقوم بأعمال الدورية في أعالي البحار، وعلى رقابة مراكزهم الساحليّة ، وقد أصبحت هذه وتلك مع مرور الوقت مكشوفة المَدَى والحركة ولذا نجحَ كثيرٌ من التُّجار الآسيويين في تحاشي الرقابة البرتغالية باتخاذِ مسالكَ بحريةٍ غيرِ مألوفةٍ للبرتغاليين ، هذا فضلاً عن أنّه لم يكن باستطاعة البرتغاليين حراسة آلاف الأميال من السواحل

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية ،ص/٥٦ ،

٢) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص ٩٩

٣) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٧٨

والبحار والممرّات المائية الممتدّة من شرق أفريقيا والبحر الأحمر غرباً إلى أرخبيل الملايو شرقاً (١). ومما زاد الأمر صعوبة أنّ كلّ مرفأ إسلاميّ كان يبعد، فقط، مسافة سفر يوم في البحر عن المرفأ المجاور (٢) وأنّ السلطات البرتغالية التي عُرفت بالفساد والتفسخ لم تكن تتردد في منح تصاريح تجارية لمن يرغب من التجار لقاء مبلغ زهيد من المال (٣). وهكذا نجح **المسلمون**، من عرب وهنود وفرس في كسر طوق الاحتكار البرتغالي منذ وقت مبكر، مما أدى إلى إحياء الطرق البحرية التقليدية عبر الخليج العربي والبحر الأحمر، ولو بشكل جزئي، وقد تضافر هذا الاتجاه مع إنعاش الطرق البريّة والقوافل التقليدية عبر الشرق الأدنى على حساب طريق رأس الرجاء الصالح الذي ظل حكراً على التجارة البرتغالية طيلة القرن السادس عشر (٤). ومما يُذكر أن فشل عمليات الاعتراض البرتغالية، وارتفاع التكاليف التي كانت تكلفها الأساطيل المرسلة لإيقاف التجارة الآسيوية، قد دفع البرتغاليين منذ سنة ١٥٦٩م-٩٧٨هـ إلى عدم القيام بعمليات الاعتراض وإلى القبول بالأمر الواقع (٥). وهكذا بقي تجار العرب طوال القرن السادس عشر يقومون بجلب الحرائر والأفاويّة والأصباغ والعقاقير من الشرق والبن من اليمن، وينقلونها جميعاً في البحر الأحمر ثم عبر الصحراء إلى القاهرة فالإسكندريّة. كما بقي جانب آخر من هذه التجارة يسلك الطريق الممتدّ من الخليج العربي عبر صحراء سوريا إلى ثغور شرقي البحر المتوسط. وكانت هذه التجارة البريّة تنقل في قوافل كبيرة تنمّ عن كِبَر حجمها، إذ كثيراً ما كانت القافلة الواحدة تضمّ ما بين أربعمائة وستمائة بعير (٦).

---

١) نظرة جديدة ... عبد الأمير محمد أمين . ن . ص ١٧٨

٢) تاريخ التجارة . جورج لوفران . ص ٧٨ . (٣) نظرة جديدة . عبد الأمير أمين . ص ١٧٨

٤) المرجع السابق، ص/١٨١ (٥) المرجع السابق، ص/١٨٢

٦) موجز تاريخ الشرق الأوسط . جورج كيرك . ص ٩١

ولما كانت البرتغالُ كاثوليكيةَ المذهب ، متعصبةً له أشدّ التعصّب فقد كان لانتشار المذهب البروتستانتي في أوربا أثرٌ كبيرٌ على الوجود التجاري البرتغالي في آسيا ، حيث بَطُلَتْ على أثَرِه مِنْحَةُ البابا لملكِ البرتغالِ والتي خَصَّتْهُ باحتكار التجارة مع الشرق (١) لأمد طويل ، وقد كان ذلك أيضاً عاملاً ساعداً على ظهورِ قُوًى تجاريةٍ أوربيةٍ أخرى كانت تدين بالمذهب الجديد .

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٥٥

الفصل الرابع

فشل جهود البرتغاليين التبشيريه

فى مياه المحيط الهندى

كان التبشيرُ ، و العملُ على نشر المسيحية، بشتى السبل، الشغلَ الشاغلَ للقوى الأوربية الكبرى طوال العصور الوسطى ،وقد ورثت هذه المهمّة دولة البرتغال ، وجعلتها من بين أهدافها في أواخر العصور الوسطى ، و مطالع العصر الحديث وقد كان التبشير من أكبر أهداف الكشوف الجغرافية ، ولولا ذلك لَمَا باركتْ الكنيسةُ الجهود البرتغاليةَ فى هذا الميدان ولَمَا أعطتْ لملك البرتغال ما أعطته من المِنَح والمَزَايا التى سبق الحديث عنها فى غير هذا الموضع . ومهما يكن من أمر فإن البرتغاليين عند قدومهم لمياه المحيط الهندى ، كتجار أو كمستعمرين قد بذلوا جهوداً مُضْنِيَةً فى سبيل نشر الكاثوليكيه ، واستمروا على ذلك إلى أن آلتْ امبراطوريتهم الشرقية إلى الزوال وما يعنينا - هنا - هو الوقوف على النتائج التى توصلوا إليها ، ومعرفة حصيلة جهدهم وثمرة نشاطهم ، بعد ما أمضوا فى ميدان التبشير أكثر من قرن ونصف من الزمن ، وبعد أن أنشأوا كثيراً من الكنائس والمعابد ودور التعاليم الدينية الهادفةَ إلى نشر مبادىء الدين المسيحى، وإلى تخريج المبشرين المتعصبين للكاثوليكية . والناقمين على الإسلام والمسلمين . ولقد كانت جهودهم كثيرةً وكبيرةً ، ولكن هل كانت النتائج كذلك ؟ .. هذا ما ستثبت عكسه هذه الدراسة ، بعد تتبع خطوات البرتغاليين التبشيرية ومعرفة جهودهم وما تحصلوا عليه من نتائج في ميادين رئيسية ثلاثة هي:

السواحل الغربيه للهند - والسواحل الغربية للبحر الأحمر - وسواحل أفريقيا الشرقية . على اعتبار أن هذه المناطق الثلاثة ، هى التى شهدت الجهود البرتغالية المكثفة فى هذا المجال وما ذلك إلّا لأنهم أيقنوا ألّا قِبَلَ لدعوتهم ومبشريهم في بلاد ثبت فيها الإسلام واستقر بين أهلِهِ ولكنهم كانوا يُؤَمِّلون أن تثمرَ جهودُهم فى الأراضى التى كانت ما تزال تحت الكفرِ ، أو تلك التى تشهد صراعاً بين أديانٍ شتّى قد يكون الإسلام أحد فرسانها ، ولكنه لم يكن قد استقر وأصبح دين الجماعه بعد . ومن الجدير بالذكر أن سواحل الهند الغربيّة كانت ما تزال عامرةً بالهندوسية

وغيرها من الأديان الوثنية ،ولم يكن الإسلام قد استقر إلا فى مناطق محددة كجسرات وجوا وغيرهما من الإمارات الإسلامية بالهند ، والتى كانت محاطه بأديان شتى تقف على رأسها الهندوسية كما سبق القول . أما الحبشة ، فقد كان هدف المبشرين البرتغاليين فيها يختلف عن أهدافهم فى غيرها ، فالحبشة دولة نصرانية ولم يكن كسباً كبيراً للبرتغاليين أن يبشروا فيها بالمسيحيه ، ومن هنا هدف البرتغاليون إلى نزع الحبشة عن الكنيسة المصريّة وإلحاقها بالمذهب الكاثوليكى وبالتبعيّة لكنيسة روما . وهكذا كان هدف البرتغاليين فى بلاد الحبشة مذهبياً فى المقام الأول . أما سواحل شرق أفريقيا فقد كان شمالها مسلماً وجنوبها عامراً بالوثنيةَ ، ولذا ركّزَ البرتغاليون جهودهم التبشيريه فى المناطق الجنوبيه ومنها توغلوا إلى مناطق المونوموتابا ، وبذلوا كثيراً من الجهود . ولعله قد أزف الوقت بعد هذه المقدمة القصيرة ، للوقوف على النتائج التى نالها البرتغاليون من جرّاء جهودهم التبشيرية . ولعل من النافع هنا أن نقف على النتائج فى إطارها التاريخى ، ومن خلال تتبع الأحداث ، ومعرفة مجريات الأمور .

نتائج النشاط التبشيرى البرتغالى فى سواحل الهند

أخذ ملك البرتغال على عاتقه مسؤولية رعاية صالح الكنيسه فى البلاد المكتشفة حديثاً وذلك بناء على موسوم بابوى صدر سنة ١٥١٤ م ٩٢١ هـ ، وأعطى التاج البرتغالى حق تولّي سلطات الرعاية الفعلية للعمل التبشيرى فى البلاد التى تدّعى فيها البرتغال لنفسها حقوقاً سياسيّة ومن هنا كان الملك البرتغالي يدفع نفقات تأسيس الكنائس والنظام الكنسي بالشرق طوال القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر تقريباً ، إذ لم تتولّ البابويّةُ بنفسها تنظيم المجتمع الكنسي لنشر العقيدة ، والهيمنة على الأعمال التبشيريه وتنسيقها إلا بعد مرور ثلاث وعشرين ومائة سنه على رحلة دى جاما للهند(١) .. وكان الهدف المُعْلَن للبعثات التبشيرية البرتغالية هو تعميم الثقافة العامة . وتحسين الصحه ورفع المستوى الاجتماعى والأخلاقى وفق مبادىء الدين

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٤

المسيحي ، غير أنّ الحقيقة كانت تكمن في رغبتهم الشديدة لنشر المذهب الكاثوليكي (١) ، وربما في حرصهم على نيل رضا واستحسان الكنيسة على كل ما يقدمه عليه البرتغاليون من أعمال استعمارية ذات طابعين سياسي ويعني بسط النفوذ البرتغالي ، وانتزاع حق السيادة البرتغالية واقتصادي يعني بالهيمنة الاقتصادية والاحتكار التجاري في المقام الأول •

اتخذ البرتغاليون من جوا مركزاً رئيساً لنشاطهم التبشيري في مياه المحيط الهندي ، إذ كانت الكنيسة في جوا تدّعي لنفسها حقوقاً أوسع مما للدولة • فقد استقر فيها الرهبان الفرنسيسكيون منذ سنة ١٥١٧ م ـ ٩٢٣هـ ، ثم جعلت سنة ١٥٣٤ م • ٩٤٣ هـ اسقفيه عامة وامتدت سلطاتها إلى الشرق الأقصى كله وبدا الدوم يوحنا "جواو" الثالث منذ ذلك الحين يميل للعنف في معاملة الهندوس • حيث أصدر أوامره لنائبه دي كاسترو بأن يتبع أقصى أنواع الاجراءات لاستئصال شأفه الكفرة (الهندوس) ومنح المتنصرين امتيازات خاصة وبناءً على ذلك هدم البرتغاليون معابد الهندوك في جوا ، وصادروا ممتلكاتهم ووزعوها بين مختلف الطوائف الدينية المسيحية المقيمة هناك سنه ١٥٤٠م ـ ٩٤٨هـ واتبعت بعد ذلك أعنف إجراءات الاضطهاد الديني ، وبدأت المحاكم الدينية البرتغالية تدين الهندوس بتهمة الزندقة (٢) ومن ألوان الاضطهاد التي تمت بأوامر من الملك البرتغالي ، ونالت رضاء التام القيام بطرد الموظفين غير المسيحيين ، وعدم السماح لغير المسيحيين بأن ينال وظيفة رسمية ، وتعقب المسيحيين النساطرة ، واضطهاد المسلمين واليهود وغيرهم بدعوى أنهم مرتدون ملحدون (٣)، ومما يذكر أن عمليات الاضطهاد قد تضاعفت مع قيام الجزويت بممارسة نشاطهم التبشيري في المستعمرات البرتغاليه في مياه المحيط الهندي •

---

١) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٩٣

٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٢٩٥ . ونظرة جديدة . عبد الأمير أمين . ص ١٧٢

٣) p ary , J .H E urop and pg4.
(3) Ibid, Loc, cit

توجه فرانسيس زافيير سنة ١٥٤١م - ٩٥٠هـ إلى جوا كقاصد رسولي للبابا ، ومفتش ملكي (برتغالي) للبعثات التبشيرية في آسيا • وزافيير هذا هو الذي بذل أكبر جهود التبشير البرتغاليه في سواحل الهند ، وإليه ترجع مجموعة من الأعمال الهامة في هذا الميدان ، إذ قام منذ وصوله بتنظيم اعمال التبشير في جوا ، وأسس في العام التالي جامعة القديس بولس ،للتدريب مشرى آسيا ، وقد لعب هذا المعهد في القرن التالي دوراً من أخطر الأدوار في النشاط المسيحي بآسيا ، حيث كان أبناء اليابان والصين وأنام وغيرها من البلاد الواقعه شرقاً يجلبون إلى ذلك المعهد لتلقي التعاليم المسيحية والتدريب على التبشير[١]. وخالط زافيير جماعات الصيادين على طول سواحل ملبار ،فتمكن من نشر دعوته بين عدد قليل منهم ، ولكنه لم يقنع بهذا القدر الضئيل من النجاح فاتجه إلى الشرق الأقصى •

ومما يذكر أن البعثات التبشيرية التى أسسها في الهند كانت تؤدي عملها بحماسة ولكنها لم تكن أسعد حظاً منه ، وجاءت نتائج جهودها المتواصلة أقل بكثير مما كان متوقعاً لها[٢] من قِبل الإدارة التبشيرية ، ومن قِبل السلطة البرتغالية المشرفة عليها أيضا •

وكان البرتغاليون عند وصول زافيير إلى ملقا سنه ١٥٤٥م - ٩٥٤ هـ منغمسين في الرذائل هم في ذلك شأن أخوانهم في جوا تماماً ، حيث كانوا يعيشون عيشة الشهوة من الفجور ، ولا يرتبطون بالأخلاق المسيحية[٣] الحقة وفي ظل ظروف كهذه ، ليس من المتوقع أن يحرز

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦

٢) المرجع السابق ، ٢٩٦

٣) المرجع السابق ص ٤٠١ •

زافيير مهما بذل من جهد ، أي نجاح يذكر ، بل لعل من الطريف أنه كان قد تنصر بعض الوطنيين في أمبونيا سنة ١٥٣٧م - ٩٤٦هـ إلا أنه عند قدوم زافيير بعد ذلك بثماني سنوات إلى الجزائر الأندونيسية لم يبق لأولئك المتنصرين أي أثر[١] . وهكذا باءت جهود زافيير التبشيرية بالفشل الذريع، مع أنه يُعَدُّ من أكثر المتحمسين للعمل من أجل المسيحية في الشرق[٢] .

أنشأ البرتغاليون حاكم التفتيش في جوا سنة ١٥٦١م - ٩٧٠هـ وفي ذلك الوقت كان المبشرون يرغبون في إجبار الأهالي على اعتناق المسيحية وقد تم - بناءً على هذه السياسة - إلقاء المخالفين في العقيدة في النار سنة ١٥٦٣م - ٩٧٢هـ مما زاد الطين بلةً ، حيث قضى على كلِّ فرصةٍ لحصول المبشرين في ظل الاستعمار البرتغالي في الهند على أي عطف من بلاطات الأمراء الهندوك الذين كانوا يحكمون في جنوب الهند في ذلك الوقت[٣] . ومع ذلك فقد حظي البلاط المغولي في دلهي فيما بين سنتي ١٥٥٦م - ١٦٠٥م - ٩٦٥ = ١٠١٤هـ بملك واسع الطموح السياسي ، لا حدود لخياله ولا لأفكاره الفلسفية[٤] . فمن جهة قام بضم ملوا سنة ١٥٦١م - ٩٧٠هـ ثم ضم كجرات سنة ١٥٧٢م - ٩٨١هـ وغزا البنغال بعد ذلك بأربع سنوات واستولى على كشمير وكابول سنة ١٥٨٦م - ٩٩٥هـ كما استولى على السند سنة ١٥٩١م - ١٠٠٠ هـ وعلى بلوخستان سنة ١٥٩٥ - ١٠٠٤هـ ثم دخل عاصمة أحمد ناجارا في الجنوب مع نهاية القرن السادس عشر[٥] .

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٥ - ٣٩٦

٢) المرجع السابق ص ٤٠٣

٣) المرجع السابق ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠

٤) هو الابن الاكبر لهمايون وخليفته في حكم الدولة المغولية واسمه اكبر

٥)
(5) Mor , op. cit , pp 215- 21 7

ومن جهة أخرى حدث نفسه بأن يوحد بين رعاياه في الدين والعقيدة ، ففتح دولته لجميع الأفكار والمذاهب والديانات لكى تدخل فى مناقشات وخلافات فلسفية عميقة على أمل أن يتوصل فى النهاية إلى العناصر الموحدة التى يمكن أن ترضى جميع رعاياه ومع أن تلك الفكرة كانت خيالية إلى حدٍّ بعيد ، فإنه أرسل فى سبيلها إلى جوا طالباً إرسال بعض القسس ومعلّم إنجيل مع بعض الكتب الفقهية ، وبناء على طلبه جاءت بعثة من المبشرين البرتغاليين ، تضم ثلاثة من المبشرين الجزويت ، سنة ٩٨٩هـ - ١٥٨٠م[١] حيث مارسوا التبشير من خلال الخوض فى المناقشات الدينية المفتوحة التى سبقت الإشارة إليها . ومن الجدير بالذكر أن قدوم تلك البعثة إلى البلاط المغولي قد تزامن مع سقوط البرتغال تحت حكم أسبانيا التى كان ملوكها أكثر تطرفاً وتعصباً لدرجة أنه لم ينجُ اليهود من اضطهادهم الديني[٢] مع أنهم كانوا يشكلون أقليةً قليلةً جداً .

وكان ملك أسبانيا فى ذلك الوقت فيليب الثانى الذى كان متحمساً للمذهب الكاثوليكى الذى يدعو إليه البرتغاليون ، كما كان على ارتباط شديد بالكنيسة والبابا فى روما[٣]، وهكذا جاء المبشرون البرتغاليون أكثر حماساً ، حيث وجدوا بيئة مفتوحة إلى أقصى حد ، فالخلافات والمناقشات بين الشيعة والسنة من المسلمين لا تكاد تتوقف ، والهندوس والسيخ مسموح لهم باتخاذ المعابد ، والعلماء يتوافدون من كل دين ومذهب . وفى ظل هذه الظروف لم يجد مبشرو الجزويت أية معارضة رسمية من قِبَل الدولة حيث سُمح لهم بممارسة دعوتهم شريطة أن يُسهّل البرتغاليون طريق حج المسلمين إلى مكة[٤]

---

١) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوى . ص ١٠٦ و Mor, opçcitpp215

٢) نظرة جديدة . . . عبد الأمير محمد أمين . د . ص ١٧٢ 217

٣) lodg, op.cit, p2ol

٤) انظر

ومما يذكر أن الدولة المغولية ، فى ذلك الحين قد عانت من الفتن والاضطرابات السياسية ، ومن احتجاج شعبى كبير من قبل المسلمين ، وهى الأمور التى أعطت للمبشرين الجزويت فرصة أفضل[١] وخاصة لأن جاهانجير الذى خلف أباه أكبر ، حكم المغول فيما بين سنتى ١٦٠٥ـ ١٦٢٧ ـ ١٠١٤ ـ ١٠٣٦ هـ ،فقد اتبع نفس سياسة والده فيما يتعلق بالحرية الدينية وإباحة الحوارات الفلسفية العميقة ، بل زاد على ذلك بأن منح البرتغاليين كثيراً من الامتيازات الخاصة ، لدرجة أن المبشرين أملوا أن ينجحوا فى استمالته إلى مذهبهم[٢] .

ويذكر أن روبرتو دى نوبيلى أراد أنْ يستغل الظروف السابقه أحسن استغلال ، فحاول أن يخلع عن المسيحيه ثوبها الغربى ، وأن يتفهم عقلية أهل البلاد وتفكيرهم وحصل سنه ١٦٠٦ م ـ ١٠١١ هـ على موافقه جمعيتة على القيام بدراسة الهندوكية دراسة جديّة ، لمعرفة طرق الجدل مع زعماء البراهمة وكشف نقاط الضعف فى عقيدتهم . وقد قام فعلاً بدراسةٍ مُعَمَّقةٍ للهندوكية ثم دخل فى مناقشاتٍ جدليةٍ مَكَّنَتْهُ من تنصير بعض عِلْيَةِ القوم ، ولكنّ تساهله فى النصرانية ، ومحاولته التقريب بينها وبين الهندوكيّة أَحَلَّت عليه غضب الكنيسة فى روما[٣] وهو الأمر الذى قضى على جهوده بالفشل التام . ولكن هل كان غيره من المبشرين أسعد حظاً وأكثر توفيقاً ؟ ...

---

(١) Ibid, vol, 1, p 109

(٢) انظر Ibid, vol, 1, p 109 , Mor, op.cit; p 200,

(٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٧ - ٣٩٨

إن مشروع التنصير بأمور دولة البرتغال فى الهند والذى حاول البرتغاليون تنفيذه فى جوا وكوتشين وسائر مراكزهم الحصينه بالقوه لم يحالفه النجاح إلّا على نطاق محدود للغايه ، حيث ظل غالبيةُ الأهالي غير مسيحيين حتى فى جوا نفسها ، وبعد مرور أربعمائة وثلاثين عاماً من الاستعمار البرتغالي فى سواحل الهند[1]. وإذا عُدنا إلى نتائج الجهود التبشيرية فى الامبراطورية المغولية — مثلاً — نجدُ أن جلسات الحوار التى كان يعقدها الملك جاهانجير وابنه أكبر قد ساءت المبشرين بشدة. ولم يرحب الامبراطور أيضا بما كانوا يُظهِرُونَه من تعصب إزاء الديانات الأخرى ومن تأكيدهم القاطع باحتكارهم للصدق الإلهى وموقف التعالى الذى كانوا يتخذونه تجاه أنصار العقائد الأخرى .

وقد كانت المناقشات الدينيه فى ظل هذه الظروف ، غير مجدية بطبيعة الحال ، وانتهى الأمر بيأس المبشرين الجزويت وانصرافهم عن محاولة تنصير الامبراطور المغولى الأعظم[2] . ولما ولى جاهن الحكم فى الامبراطورية المغولية فيما بين سنتي ١٦٢٧ — ١٦٥٨م ١٠٣٦ ١٠٦٧ هـ ، مَنَعَ المبشرين الجزويت من ممارسة الدعوة لدينهم[3] بعد نحو أربع سنوات من بداية حكمه ، ويرجع ذلك إلى قسوة المبشرين فى ممارسة التبشير حيث قبضوا سنة ١٦٣٢م ١٠٤٢م على جاريتين للامبراطور ممتاز محل وأجبروهما على اعتناق المسيحية بالإكراه ، مما أغضب البلاط المغولى ، وجعله يُقَرِّر توقيع الطرد على الأجانب ، وكان البرتغاليون أول المعنيين بذلك حيث قتل أو أسر منهم أكثر من أربعة آلاف برتغالى ، ولم يبذل البرتغاليون بعد ذلك أية محاولات جدّية لنشر المسيحيه داخل الامبراطورية المغولية[4].

---

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٤٠٤ — ٤٠٥

٢) المرجع السابق ص ٣٩٨ — ٣٩٩

(٣) Mor, op, cit, pp237- 239

(٤) المرجع السابق ص ٣٩٩

ومما يذكر أن اهتمام البرتغاليين بالتبشير قد تضاءل بعد انحلال قوتهم بحلول سنة ١٦٦٠ م ـ ١٠٦٩ هـ ، حتى في جنوب الهند نفسها ، وواصلت كاتدرائيات جوا وجامعاتها تبديد إيرادات المؤسسات البرتغالية ، مع أنها لم تقم بأي عمل تبشيري جديد سوى رعايتها لصالح المسيحيين اللاتين على الساحل (١).

ومما يتصل بالنشاط التبشيري في الهند ما قام به المبشرون الأوربيون في فارس ، وهنا لابد من تسجيل أنه رغم أن الشاه عباس وخلفاءه قد تسامحوا مع الأوربيين ، فإن الأمرَ قد انتهى بأن أصبح عدد المُبَشِّرين المسيحيين في

فارس في عهد الشاه عباس الثاني أكبر بكثير من عدد المستعمرين لوعظهم في كل من أصفهان وجلفا وتبريز وبندر عباس وغيرها من المدن والمراكز التي تواجد فيها المبشرون. وإذا استثنينا الأوربيين الموجودين في فارس فإن عدد من اعتنقوا المذهب الكاثوليكي لم يبلغ ستمائة شخص (٢)

وهكذا يمكن القول إن المسيحية لم تحصل على أي تقدم يعتد به أثناء السنوات الأربعمائة (١٥٠٠ ـ ١٩٠٠م) التي قضاها البرتغاليون كمستعمرين في مياه المحيط الهندي والشرق الأقصى . إن بعثاتهم التبشيرية ونشاط الجزويت لم يفشلا في القضاء على المسلمين والهندوس والنساطرة واليهود فحسب ولم يعجزا عن تحويلهم إلى الكاثوليكية فقط ، ولكنهما زادا من كره الشعوب في تلك المناطق ومن بغضهم للبرتغاليين أيضا (٣) ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها أن نشاط المبشرين في كل أنحاء الهند قد اتصف بالوحشية والقسوة

١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٤٠٤ - ٤٠٥

٢) أحداث فاصلة . علي الغنام .

٣) نظرة جديدة ... عبد الأمير أمين . د . ص ١٧٢

والاعتماد على القهر والقوة والجبروت ، فقد شاع عنهم تدميرهم القاس للمعابد والنظم الدينية الهندوكية ، وإبعادهم غير المسيحيين عن المشاركة فى الحكم وفى الوظائف العامة ، وعدم تسامحهم بصفة عامة ، وإقامتهم لمحاكم التفتيش والتعذيب وإرغامهم غير المسيحيين على حضور العظات المسيحية الدينية الطويلة. ويُضافُ إلى ذلك أن رقعة الممتلكات البرتغالية فى سواحل الهند كانت صغيرة الحجم قليلة الأهمية فى مجال التبشير، وأن مواردهم المالية لعبت دوراً بارزاً فى تحديد حمّيتهم وحماسهم لتنصير الهنود (١) وأخيراً فقد كان لمشاركة البرتغاليين فى الوقيعة وإثارة الفتن والاضطراب السياسى بين الإمارات الإسلامية من جهة وبينها وبين الدول الهندوكية (٢) من جهة ثانية أثرٌ كبيرٌ فى تشكيل مشاعر الناس تجاههم حتى من قبل أن يستمعوا إلى تبشيرهم ورجال دينهم.

نتائج النشاط التبشيرى البرتغالى فى بلاد الحبشة :

إن إلقاء نظرة سريعة على الجانب المذهبى فى عقيدة مسيحيى الحبشة قبل مجىء البرتغاليين كفيلةٌ بأن تجعل القارئ يتوصل إلى النتائج التى نالها البرتغاليون من جرّاء جهودهم لنشر الكاثوليكية هناك حتى من قبل أن يقرأ عنها . لقد كان للعامل الدينى أثره الكبير سواء على السلطة الحكومية وعلى رأسها الملك أم على عامة الناس

---

(١) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار: ٣٩٤ - ٤٠٥

(٢) للتفصيل انظر MDR, op, cit, p205-209

وقد كان للأسرة السليمانية دوّر بارز في صبغ بلاد الحبشة بصبغة مسيحية واضحة، حيث كان خضوع ملوك الحبشة للمطارنة ورجال الدين المسيحي خضوعاً شديداً في معظم الأحيان، فقد كان المطران هو الذي يتوج الملك وكان الملوك لا ينفذون أمراً إلاّ بعد استشارة المطران، ولا يقومون بحرب إلاّ بعد مباركته لها واشتراكه فيها لضمان النصر وكان في إمكان المطران أن يتصدى للملك وأن يصدر ضده قرار الحرمان والطرد من الكنيسة أو من السلطة. (١)

وكانت بلاد الحبشة منذ وفاة زرء يعقوب عام ١٤٦٨ – ٨٧٣هـ تعاني من الاضطرابات الدينية والسياسية بسبب ما قام به الرهبان السوريون الذين كانوا قد وصلوا إلى الحبشة بعد مؤتمر فلورنسا الديني من نشر مبادئ تنكر جسد المسيح بخلاف ما كان يعتقده مسيحيو الحبشة اليعاقبة لقد ثار الاحباش ضد هذه المبادئ وحدث نتيجة لذلك انقسام ديني لأول مرّة في تاريخ الحبشة وأدّى النزاع على العرش إلى زيادة حدة هذا الانقسام، وإلى زيادة الاضطرابات السياسية في البلاد (٢)، وهكذا يمكن القول إن الأحباش كانوا شديدي الحماسة لدينهم وأنهم كانوا شديدي التعصب لمذهبهم اليعقوبي ومقرّ كنيستهم في مصر (٣) لدرجة أن بطريوك اليعاقبة بمصر كان لديهم كالخليفة على دين النصرانية، يتصرف فيهم بالولاية والعزل،

١) التعريف بالمصطلح الشريف . العمري . ص ٣٠ . وصبح الأعشى . القلقشندي . جـ٥ ص٣٠٩ والعلاقات بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . رجب عبد الحليم . ص ٨٩

٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٣٩٤ – ٤٠٥

٣) التعريف بالمصطلح الشريف . ابن فضل الله العمري . ص ٣٠

لاتصح ولاية ملك منهم إلّا بتوليته ، ولأن مو البطريرك عند ملك الحبشة ما لشريعتـــه من الحرمة (١). إن بلداً تتمسك بمذهبها الدينى إلى هذا الحد لايتوقـــــع المرء أن تنجح فيها جهود « الكثلكة » التى سهر عليها البرتغاليون أكثر من قـــرن من الزمان. ومهما يكن من أمر فإن التتبع التاريخى السريع لجهود المبشرين الكاثوليك على اختلاف طوائفهم فى الحبشة يبين بما لايدع مجالاً للشك مدى الفشل الذى منيت به تلك الجهود، ويعطى صورة واضحة للسياسة البرتغالية فى الشرق وخاصة فـــــى جانبها الدينى والذى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأهداف البرتغالية الكامنة وراء حركتي الكشوف والاستعمار، البرتغاليتين .

لقد غير البرتغاليون منذ البدء بين الأحباش وغيرهم من سكان الشــرق لأنهم كانوا يعلّقون آمالاً سياسيةً واقتصاديةً ودينيةً كبيرةً على تعاون الحبشة وملكهـــا معهم أثناء عملياتهم الاستعمارية في مياه المحيط الهندى ومن هنا بحث البرتغاليـون عن ملك الحبشـة (برستر جون) منذ أن وطئت أقدامهم الساحل الأفريقى الشرقـــــي ولكى يبرهنوا عن نواياهم الودّية تجاه الحبشة قام البوكيرك بالتمثيل بالعرب حيــث قطع أنوفهم وأنزلهم جرحى إلى الشاطئ دون أن يتعرض للأحباش بأي أذى وذلـــك عندما استوقف أسطوله أربع سفن حبشية قبالة الساحل اليمنى سنة ١٥١٣ ــ ٩١٨ هـ (٢)

١) التعريف بالمصطلح الشريف . ابن فضل الله العمري . ص ٣٠

٢) الأطماع البرتغالية في المقدسات الاسلامية . فالح حنظل . د . ص ١٣٦

ومع ذلك فإنه لم يؤثر عن الحبشة أية استجابة دينية فعلية للمذهب الكاثوليكي البرتغالي حتى سنة ١٥٣٨م ـ ٩٤٥هـ رغم البعثات الدبلوماسية والجهود السياسية التي بذلها الطرفان في محاولة للتعاون المشترك ضد القوى الإسلامية في منطقة البحر الأحمر.

ولما اشتد الصراع بين الإمام أحمد جران وبين القوات الحبشية، وطلبت هذه مساعدةً عاجلةً من البرتغاليين اضطر البرتغاليون الملك الحبشي إلى تعيين مطران برتغالي كاثوليكي يُدّعَى بيرموديز (١) سنة ١٥٣٨ ـ ٩٥٤ للعمل على نشر المذهب الكاثوليكي بين الرعايا الأحباش اليعاقبة. ومن الواضح أن هذه التضحية الدينية من ملك الحبشة كانت في مقابل حصوله على المساعدة السياسية والعسكرية ضد القوات الإسلامية الآخذة في مهاجمته بقيادة أحمد جران.

لما هزمت قوات الإمام أحمد جران وساد الحبشة نوع من الهدوء، تحرك البرتغاليون لتحقيق هدفهم الكبير لنشر الكاثوليكية بين الأحباش بعد فصم عرى الصلات التي كانت تربط الكنيسة الحبشة بالكنيسة المصرية. واستعان البرتغاليون على ذلك بعدد من أبناء جلدتهم كانوا قد استقروا في الحبشة وتزوجوا فيها وأصبحوا من صفوفها المختارة. وأرسل البرتغاليون كذلك عدداً من القساوسة الجزويت لتوجيه الجانب الروحي في عملية الكثلكة (٢) كما قاموا بنشر وترجمة عدة كتب إلى اللغة الأمهرية

---

١) الإسلام والحبشة عبر التاريخ . فتحي غيث . ص ١٧٣

٢) المرجع السابق ص : ١٧٢ .

توضح التعاليم الكاثوليكية وتقارن بينها وبين التعاليم الأرثوذكسية (اليعقوبية)[١]

وتجدّد الاستغلال البرتغالي لظروف الحبشة السياسية سنة ١٥٥٥م ـ ٩٦٤هـ فما أن انتصر الملك الحبشي على القائد نور، ابن أخت الإمام أحمد جران وخليفته، وعاد إلى قصره، حتى وَجَدَ بعثة برتغالية جديدة بقيادة رودريجز ومن بين أفرادها مبشّران من الآباء اليسوعيين يحملان خطاباً من نائب الملك في الهند يطلب فيه فصل كنيسة أثيوبيا عن كنيسة مصر وإعلان تبعيّتها لكنيسة روما ولكن الملك الحبشي الجديد رفض هذا المطلب فلجأ البرتغاليون إلى المراوغة في الوقت الذي اتصلوا فيه بأعدائه حيث امدوهم بالسلاح[٢] وحثوهم على التمرد والعصيان وفي هذه الأثناء جاءت بعثة بابوية برتغالية سنة ١٥٥٧م ـ ٩٦٣ إلى الحبشة بهدف تحويل الأحباش شعباً وحكومةً عن المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي وتيسير سبل الدعوة الكاثوليكية أمام مبشري الجزويت[٣]

ويتضح من ذلك أن الكاثوليكية البرتغالية في ذلك الوقت قد أحرزت بعض التقدم بين الرعايا الأحباش، ولكنّ الواضح أيضاً أن اتصالات البرتغاليين بالعناصر المعارضة واستغلالهم لظروفها السياسية باتت مكشوفة[٤] وخاصة بعد أن دخلت

---

١) الخليج العربي . جمال قاسم . د . ص ٧٧
٢) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٩٤
٣) Budye, op.cit, pp336-334
٤) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوي . د . ص ٩٧

الحبشة في حرب أهلية وانقسام ديني خطير أوشك أن يقضي عليها حيث انقسم الوطنيون إلى فريقين حزب يؤيد الكنيسة الغربية وهو حزب المعارضة، وحزب يؤيد كنيسة الاسكندرية وهو الحزب الحاكم وأتباعه . وبناء على ذلك طلب الملك من البعثات البرتغالية مغادرة البلاد، ومنعهم من الظهور في الكنائس، ومن نشر مذهبهم الكاثوليكي ومن الزواج من حبشيات ويعني ذلك أن جهود البرتغاليين التبشيرية في الحبشة قد منيت بنكسة خطيرة وذلك بالرغم من أن حاكم قاطعة دوباروا قاد حركة عصيان واسعة وأعلن تأييده لكنيسة روما، واتصل بالعثمانيين معلناً تبعيّة مقاطعته لهم ودخولها تحت سيادتهم فربما كان لذلك التمرد آثاره السياسية الخطيرة ولكن من الوجهة الدينية لم يكن يحمل أيّة عناصر إيجابيّة وخاصة بعد أن أعلن قائد التمرد تبعيّته السياسية للسلطة العثمانية في البحر الأحمر ومصر.

ويبدو أن عِظَمَ حركة التمرد قد ترك انطباعاً واضحاً لدى الملك الحبشي الجديد سارسا دنجل (١٥٦٣ـ ١٥٩٧ ـ ٩٧١ ـ ١٠٠٥ هـ) بمدى قدرة النفوذ البرتغالي من الوجهتين السياسية والدينية على التأثير في سياسة البلاد الداخلية . كما أنّ تعرضه للخطر العثماني قد تركَ لديه رغبة في التعاون مع البرتغاليين ولو على حساب مذهبه الديني ومن هنا نجده يتصل بفيليب الثاني مستنجداً ويطلب منه أن يرسل إليه عدداً من رماة البنادق والمدافع، وليضمن تحقيق مطالبه العسكرية طلب من البابا التبرك بإرسال البعثات، وأباحَ نشاطَ المبشرين الجزويت من جديد حيث أخذوا يتوافدون على البلاد، ويبْنُون الأديرة والكنائس التي تُعَلِّمُ المذهب

الكاثوليكى [١]. ومن الواضح جداً أن سارسا دنجل كان يريد استمالة البرتغاليين لمساعدته أكثر مما كان راغباً فى المذهب الكاثوليكى نفسه •

واستطاع المبشرون إقناع زا دنجل سنة ١٦٠٣م ـ ١٠١٢هـ بأن يعتنق المذهب الكاثوليكى [٢]. وتبع ذلك تحوّل كثير من الأحباش إليه، ولم يمض وقت طويل حتى اتصل زا دنجل بالملك الأسبانى فيليب الثانى مُبْدِياً رغبةً فى تطوير العلاقات السياسية وطلب منه أن تقدم البرتغال معونة عسكرية للحبشة وعرض عليه تجديد التحالف البرتغالي الحبشي لمواجهة الخطر العثماني [٣] كما اتصل في نفس الوقت بالبابا فى روما مُؤكِّداً ولاءه ومعترفاً بسلطانه الروحى عليه، ولكن توجه زا دنجل السياسى هذا واجهه معارضةً شعبية عامة تطورت إلى حرب أهلية، وحدث نزاع على السلطة أدّى إلى انقسام داخلى خطير [٤]، انتهى بتنحّي زا دنجل عن العرش [٥]

---

١) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوى . د . ص ٩٨

٢) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٩٣

٣) فتح العثمانيين عدن . محمد البحراوى . د . ص ٨٨

٤) المرجع السابق ص: ٨٨

٥) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . نفس الصفحة

وورث سوسنيوس (١٦٠٧ـ ١٦٣٢) ـ ١٠١٦ـ ١٠٤١هـ) سلطه مثقلة بالتفكك الداخلي وانتشار الفتن ، فضلاً عن العزلة السياسية التى كانت الحبشة تعانى منها بسبب وقوعها بين عدة قوى إسلاميه ، ولذا أراد أن يقوي مركزه السياسى فاعتنق الكاثوليكية سراً[1] في خطوة قصدَ بها تقوية علاقات العرش بالبرتغال من جهةٍ وبمركزِ السلطة الدينية في روما من جهةٍ أخرى ، ولكنّه عاد فأعلن اعتناقه للكاثوليكية جهراً سنة ١٦٢٢م[2] ـ ١٠٣٢هـ ـ وربما كان ذلك تحت ضغوط المبشّرين الجزويت، ثم تطور الأمر عندما أقنع مينور ، أحد مبشرى الجزويت ، الملك سوسنيوس سنة ١٦٢٦م ١٠٣٥هـ بأن يجعل الكاثوليكيه مذهباً رسمّياً للدولة[3] .

وبدا أنّ الكاثوليكية ستحقق نجاحاً كبيراً ، وخاصه بعد أن أقسم الملك يمين الولاء للبابا في نفس العام ، وبعد أنْ جدَّ الجزويت في نشر مذهبهم بكل حرية مدعومين من الملك الذى حاول فرض المذهب الكاثوليكى بالقوة، ولكن هذا الاندفاع نحو الكاثوليكيه لم يلق حماساً شعبيّاً كبيراً ،بل ما حدث هو العكس حيث ثارتْ معظم طبقات الشعب ثورةً عارمةً انتهت بتنحي الملك عن العرش لابنه فاسيلاداس[4] الذى ولى الحكم في الحبشه فيما بين سنتى ١٦٣٢ـ ١٦٦٧ ـ ١٠٤١ـ ١٠٧٦هـ .

---

١) الخليج العربي . جمال قاسم . نذ . ص ٧٧
Budge, op.cit, pp38o-39o

٢)

٣) Ibid, pp38o-39o والأحباش مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٩٣ .
والإسلام والحبشة . فتحي غيث . ص ١٧٢

٤) المرجع السابق . نفس الصفحة . واستعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٩ .
Budge, op.citpp38o-39o والإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ص ١٩

أدّى انتصار أتباع المذهب الأرثوذكسي (اليعقوبي) ، إلى زيادة تعلق الأحباش بمذهبهم من جهة ، وإلى زيادة حساسيتهم ضد المذهب الكاثوليكي من جهة ثانية [1] وخاصة بعد أن تبين العامة مدى العلاقة بينه وبين الفتن السياسية التي كانت البرتغال ضالعة في إثارتها بدون شك .

ولذا كان على الملك الجديد أن يتبع سياسة مختلفة كل الاختلاف عن سياسة سابقه ، وبناء على ذلك قام فاسيلاداس بتصفية حركة التبشير البرتغالي تماماً ، حيث أمر بطرد جميع الآباء الجزويت فوراً ، ونسخ كافة التشريعات التي أصدرها والده المعزول فيما يتعلق بالكاثوليكية ، وأعلن عودة البلاد إلى المذهب الأرثوذكسي اليعقوبي ، وجهر بعدائه للبرتغاليين ، واعتبر الاتصال بهم خيانة يستحق مرتكبها العقاب .

وأمام هذه التطورات وصل المبشرون الجزويت إلى حالة من اليأس ، دفعتهم إلى الاتصال بملكهم في أسبانيا حيث طلبوا منه أن يعمل على فرض الكاثوليكية في بلاد الحبشة في القوة لأن جهود التبشير لن تجدي نفعاً [2] .

أدّى توتر علاقات الحبشة مع أوربا الكاثوليكية إلى تحسن علاقاتها مع الدولة العثمانية التي كانت ترحب بكل سياسة تساهم في إبعاد النفوذ البرتغالي عن البحر الأحمر ، ولاح في الأفق بوادر سياسة جديدة تقوم على التفاهم الإسلامي الحبشي ضد الخطر الأوربي

---

١) الاسلام والحبشة عبر التاريخ . فتحي غيث .

٢) الأحباش بين مأرب وأكسوم . ممتاز العارف . ص ٩٤

الذى كانت البرتغال تحمل لواءه • ولم يجد فاسيلاداس وسيلةً إلى ذلك إلّا الاتصال باليمن ، وخاصةً بعد أن اتصل البرتغاليون بأعدائه وعملوا على الإطاحةِ به ، وبعد أن تأكد من أن العثمانيين لن يسمحوا له بالاتصال أو التعاون مع أيةِ قوةٍ خارجيةٍ قد تُلحِقُ الضررَ البالغ بالاستقرار السياسي في البحر الأحمر •

وهكذا اتصل فاسيلاداس سنة ١٦٤٢م ـ ١٠٥١هـ بحاكم اليمن التى كانت قد استقلت عن الحكم العثمانى سنة ١٦٣٥م ـ ١٠٤٤هـ وعرض عليه التعاون لصد الخطر البرتغالى ومقاومة نشاط الجزويت ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد فاسيلاداس يطلب من الحاكم اليمني ـ فى محاولة لتوثيق الصلات بين الطرفين ـ أن يرسل بعثةً دينيةً بهدف شرح مبادئ الدين الإسلامي (١) • ومهما يكن من أمر نتائج تلك البعثة ، فإنّ مما لا شكّ فيه هو مدى دلالة الموقف على ابتعاد الأحباش عن المذهب الكاثوليكي ، وهو ما يعنى ضياع الجهود التي بذلتها البرتغال ومبشروها لأكثر من قرن من الزمن •

ولم تمض عدةُ سنواتٍ حتى تمهّدت السبلُ لتعاون حبشيٍ عثمانى كان من بين أهدافه مقاومة أي نشاط أوربي فى أيِ صورةٍ من الصور في مياه البحر الأحمر •

وبحلول عام ١٦٤٨م ـ ١٠٥٧هـ وصل التعاون الحبشى الإسلامى إلى درجة عاليةٍ من التفاهم لدرجة أنّ ملك الحبشة قد عقد اتفاقاً مع واليي سواكن ومصوع العثمانيينِ ، يقضي بأن يُعْدِما جميع القسس الأوربيين الذين يحاولون دخول الحبشة عن طريق هذين

---

(١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٧ ـ ٧٨ . والأحباش . ممتاز العارف . ص ٩٥ والإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ص ١٠٢ . والإسلام والحبشة . فتحي غيث ص ١٧٤

العثمانيين (١) . وكان الملك الحبشي قد اتصل بإمام اليمن الجديد لتوثيق عرى الصداقة، وتبادل البعثات الدبلوماسية، في محاولة لتنسيق الجهود لصدّ التدخل البرتغالي المحتمل (٢).

لقد وضعت هذه السياسةُ حدّاً للنزعة الصليبية التي كانت تود التسرب للحبشة عن طريق المذهب الكاثوليكي من جهة وعن طريق تدخل القوى الأوربيه في منطقة البحر الأحمر من جهة أخرى ، ومن هنا فشلت كنيسة روما في محاولتها الجديدة والتي تزامنت مع التطورات السابقة ، حيث حاولت استبدال نشاط القسس البرتغاليين بقسس فرنسيين ، ولكنها فشلت تماماً (٣) ، وكان فشلها يعني فشل المذهب الكاثوليكي، وبالتالي فشل الجهود البرتغالية التي هدفت إلى كثلكة الأحباش لأكثر من نصف قرنٍ من الزمن دون جدوى ، ... وكذلك فشلت محاولات التسرب التي قامت بها القوى الأوربية التي كانت قد قدمت إلى الشرق ، ولم تتمكن من إقامة أية مراكز تجاريه أو سياسيه في منطقة البحر الأحمر (٤) إلا في وقت متأخر أو عندما تغلغل الاستعمار الأوربي في معظم بلدان الشرق الأوسط .

ووضعت خاتمةُ المطاف لجهود البرتغاليين التبشيرية في الحبشة في عهد يوحنا الأول (١٦٦٧م-١٦٨٢م ١٠٧٦هـ - ١٠٩٩هـ) ، الذي دعا إلى

---

١) الإسلام والحبشة . فتحي غيث . ص ١٧٤

٢) الإسلام في شرق أفريقيا . ترمنجهام . ص ١٠٢ . والمرجع السابق . نفس الصفحة .

٣) الإسلام والحبشة . فتحي غيث . نفس الصفحة .

٤) الموانيء السودانية . صلاح الدين الشامي . د . ص ١٢٤

مؤتمر ديني لمناقشة قضية بقايا آثار الكاثوليكية في الحبشة ، وانتهى الأمر بأن اتخذ قرار يقضي بإجبار بقايا البرتغاليين في الحبشة على اعتناق المذهب الأرثوذكسي ، وأن على الممتنعين مغادرة البلاد (١) .

وهكذا فشلت محاولات الإرساليات التبشيرية البرتغالية في اجتذاب الحبشة لتتبع كنيسة روما رغم جهود مئات السنين (٢) !

نتائج جهود البرتغاليين التبشيرية في سواحل شرق أفريقيا :

أقام البرتغاليون في موزمبيق إدارة للشؤون الدينيه ، كانت تتبع لمركز جوا الرئيسي ، وامتد نفوذها بحيث تناول مختلف أصقاع أفريقيا الشرقية ، في محاولة لنشر العقيدة الكاثوليكية ، ونشر الكنائس والأديرة في تلك النواحي . والملاحظ أن البرتغاليين قد جدوا في إقامة كنائسهم حيث أقاموها في كل المدن والأماكن ذات الشأن والأهمية ، فلا تكاد نقطة من بلاد المونوموتابا - مثلا - تخلو من الحصون الصغيره المشتملة على كنائس صغرى للصلاة في كل منها قس ينتظر حضور زنجي راغب في التنصر ، أو ليؤدي واجبه الديني نحو المرضى والجنود البرتغاليين (٣) .

---

١) الإسلام والحبشة . فتحي غيث . ص ١٧٤ .

٢) موجز تاريخ أفريقيا . رونالد أوليفر . وجون فيج . ص ١١١

٣) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٣٢٦

وأقيمت الكنائس في الموانئ الساحلية ، ومن ذلك أنهم أقاموا في جزيرة كريما بموزمبيق كنيسة كان يقوم على التبشير فيها قسد ومنيكاني [1] ، وكما أقاموا في مدينة صونة على ضيق نطاقها ، وهي من أعمال موزمبيق ، أربع كنائس ، وأقيمت كنيسه في باتا وأخرى في زنجبار ، كان يتولى أمر التبشير فيها قس من طائفة [2] الأوجستان

... وهناك عشرات الكنائس الأخرى التي لا ضرورة لذكرها هنا لأنها نماذج مكررة - تقريباً - للكنائس التي سبق ذكرها .

ومن الجدير بالذكر أن نشاط البرتغاليين التبشيري في سواحل شرق أفريقيا قد تكثف مع حلول النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بعد أن كانوا قد ثبتوا أقدامهم في تلك النواحي ، كقوه استعماريه ذات نفوذ معترف به من قِبَل القوى المحليّة الصغيرة المنتشرة على طول الساحل .

ويُلاحظُ ازدياد النشاطِ التبشيريّ البرتغاليّ في الفترة المذكورة من بروز عددٍ من الطوائف الدينية المسيحية ، فقد ألَّفَ سان فرانسوا اكزافيه أول طائفةٍ دينيةٍ لنشر الكاثوليكية بين الأفارقة ، وأنشأ لهذا الغرض عدة مراكز دينية على امتداد الساحل الشرقي لأفريقيا .

وألَّفَ سان دومنيك طائفةً ثانيةً أقامت عدة مراكز في منطقة موزمبيق واعقبتها طائفة الأوجستان ، وكان لها مراكز في ممباسا ، ثم أُنشِئَتْ طائفةُ الآباء

---

١) وثائق تارخية وجغرافية . جيان . ص ٣٢٨

٢) المرجع السابق ص ٣٤٣ - ٣٤٤

اليسوعيين الذين انتشروا فى مختلف بلدان العالم ، وجَعَلَتْ مركزَ نشاطها في موزمبيق وعلى ضفاف نهر كواما [١] .

وكان لتوطيد السيطرة البرتغالية فى ممباسا بعد إنشاء قلعة المسيح أثر كبير في نشاط البرتغاليين التبشيرى على طول السواحل الشرقية لأفريقيا شمال رأس دلجادو ، حيث قدمتْ جماعاتٌ من المبشرين الدومنيكان والجزويت وأتباعُ طائفة الأوجستان وغيرهم • وأقيمت الكنائس التبشيرية في كثير من مدن تلك المناطق [٢] وكان ذلك أول جهد تبشيريّ جديّ يبذله البرتغاليون هناك [٣] .

ومما يذكر أن البرتغاليين قد اتبعوا فى تنصير قادة الساحل الشرقى لأفريقيا شتى السبل ، فتارةً يكلفونهم بحماية الدعوه الكاثوليكية [٤] ، وأخرى يقيمون فى مدنهم الكنائس ، وثالثة يحقّرون أمامهم شأن الاسلام والمسلمين ومساجدهم [٥] ، ورابعة يحاولون غرس المذهب الكاثوليكي فى أبنائهم بانتزاعهم منذ نعومة أظفارهم وتلقينهم أصول المسيحية على المذهب الكاثوليكي فى المدارس والمعاهد التى كانت تُقَامُ فى جوا لهذا الغرض •

---

١) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٢٧٣-٢٧٤

٢) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٧٩

٣) استعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٢ - ٤٣ والبرتغال في أفريقيا . دفي . ص ٥ ،

٤) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان . ص ٣٤٤ . وقد حدث مثل ذلك مع حاكم زنجبار .

٥) الأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى وقد سبق ذكر طرف منها •

ومن أطرف القصص – التي تدل على مدى فشل البرتغاليين في تنصير أو كثلكة سكان تلك المناطق – أن البرتغاليين قتلوا سنة ١٦١٤ م – ١٠٢٣ هـ حاكم مالندى وانتزعوا ابنه يوسف الصغير الذي لم يتجاوز السابعة عشرة بعد ، وذهبوا به إلى جوا لتلقينه التعاليم النصرانية ، حيث تم تعليمه المبادئ الكاثوليكية على يد رهبان سان أوجستان . وبدا أن الأمور تسير على ما يرام ، وخاصة عندما تظاهر يوسف بأنه اعتنق المسيحية سنة ١٦٢٧ م – ١٠٣٦ هـ وظن البرتغاليون أن جهودهم قد أثمرت نجاحا عظيماً ، إذ لابد أن ينصر هذا الحاكم الصغير – من وجهة نظرهم – كافة رعاياه وسيكون انتصار الكاثوليكية عظيما . وبناء على ذلك تم تتويجه ملكاً بعد ثلاث سنوات من إعلانه اعتناق النصرانية وأعيد إلى مملكة والده ، بعد أن أضيفت ممباسا إلى حكمه وجعلت إدارة دولته منها .

ولكن الأمير المالندى يوسف أمضى عاماً في إمارته يتحين الفرصة للانقضاض على البرتغاليين حيث كان مُظهِراً النصرانية ، مُبْطِناً الإسلام ، وما أن اكتُشِفَ أمرُه حتى وجه نحو ثلاثمائة من رجاله للقضاء على البرتغاليين المقيمين داخل حصن ممباسا حيث أعملوا فيهم سيوفهم ، وتولى يوسف قتل قائد الحصن وزوجته وابنه ، والقس الذي كان يقيم الصلاة في المعبد ثم قتلَ رجالُه من لاذ بالمعبد من طائفة الأوجستان والتي كان قد أُنيط بها مُهمّة تلقينه النصرانية [1] على المذهب الكاثوليكي كما سبق القول ، ولم يكتف يوسف بذلك بل سارع إلى تدمير القلعة عندما أحسّ بالعجز عن حمايتها عند عودة البرتغاليين إليها مرةً ثانية [2] .

وللقارئ أن يتخيل بعد ذكر هذه القصة مدى الفشل الذي لاقاه النشاط التبشيري البرتغالي شمال [3] رأس دلجادو .

---

١) وثائق تاريخية وجغرافية . جيان ص ٣٠٠ – ٣١٢

٢) أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . د . ص ٢٢

٣) هناك اتفاق على ذلك . انظر وثائق . جيان . ص ٢٣١–٢٣٢ . والبرتغال في أفريقيا ط٦٦
واستعمار أفريقيا . زاهر رياض . د . ص ٤٣

وقبل ان ننتقل إلى الفقرة التالية لابدّ من القول إن اتّباع البرتغاليين لمثل هذه السياسة التنصيرية ناتج عن نجاحها إلى حد ما ، في مدينة موزمبيق ، نظراً لأن أهلها كانوا لا يدينون بدين سماوى ، وكان من السهل اجتذابهم إلى المسيحيّة ، وامتصاصهم في الحضارة البرتغالية[1] .

وانطلق المبشرون البرتغاليون من موزمبيق نحو الداخل ، بعد أن كانوا قد رسخوا أقدامهم في الساحل مع بداية القرن السادس عشر ، حيث تتبعوا خطوات التجار[2] . وبذا يكون المبشرون قد سبقوا المشروعات البرتغالية التوسعية في منطقة شرق أفريقيا وخاصه في حوض الزمبيزي ، حيث تسللوا إلى الداخل لنشر عقيدتهم الدينيه ، واستطاعوا أن يفرضوا إرادتهم على القبائل بالقوة[3] .

ومن أشهر جهود هم التبشيرية في المنطقة المشار إليها آنفاً ما قام به الأب جونسالف دى سلفيرا من طائفة الجزويت حيث استطاع سنه ١٥٦٠ م ـ ١٠٦٩ هـ أن يُنَصِّرَ حاكم مونوموتابا ووالدته وتبعهما في ذلك جمعٌ غفيرٌ من حاشيته قُدِّرَ بثلاثمائة شخص ولكن ما أن خيل للبرتغاليين أنهم أحرزوا نجاحا تبشيرياً حتى ارتد السحر على الساحر كما يقال في المثل ـ إذ أشاعَ بعض رعايا السلطان أن دى سلفيرا جاسوس ، ونصحه البعض بترك المسيحيةَ التى اعتنقها حديثاً ، وانتهى الأمر بأن قتل الملك وأقاربه دى سلفيرا نفسه كما قتلوا خمسين فرداً من تَنَصَّروا وظلُّوا على نصرانيتهم دون أن يرتدوا كما فعل الملك وأقاربه[4] .

---

١) دولة اليعاربة . عائشة السيار . د . ص ٨٦

٢) البرتغال . د في . ص ٧٨ . (٣) صراع القوى . محمد عدنان . ص ١٣٤

٤) وثائق تارخية . جيان . ص ٢٧٤ والبرتغال في أفريقيا . د في ٧٧-٧٩

وحاول الجزويت بعد ذلك استمالة الملك المونوتابى مرّة أخرى بعد أن نجحت الدسائس فى إغرائه على الفتك بالمسلمين ويبدوا أنهم قد حصلوا منه على إذن بنشر العقيدة المسيحيّة فى بلاده دون معارضة أحد •

وكان بذلك أمامهم فرصةً عظيمةً للنجاح التبشيرى وترويض المقاومة الأفريقية لنشاطه ولكن دوم سباستيان الذى ملك البرتغال فى ذلك الوقت أعرض عن تأييد المبشرين فى أعمالهم المبنيّة على المسالمة والتدرج ، وعتمد في تنفيذ مشروعه على الإرهاب والعدوان(١) والإغارة والفتح بهدف الاستيلاء على الذهب ، ومن هنا أدّى اختلاف السلطة مع مبشريها إلى فشل محاولة التنصير فى المونوموتابا مرّة أخرى •

ونشط الدومنيكان في المونوموتابا فيما بين سنتى ١٥٧٠ – ١٥٨٠م – ٩٧٨ – ٩٨٨هـ إلّا أن همّتهم قد فترت منذ سنة ١٥٩٠م ، مع تدهور السلطة البرتغالية فى الزمبيزى أثناء غارات الزمبا •

ومع أنهم قد عادوا إلى نشاطهم بعد ذلك ومعهم الجزويت ، إلّا أنهم لم ينجحوا فى إحداث أى تحول دينى فى منطقة المونوموتابا ، إذ لم يحلّ عام ١٦٢٨م – ١٠٣٧هـ حتى انغمس جميع سكان زمبيزيا من البرتغاليين سواء كانوا تجاراً أم مستوطنين أم مبشرين فى منازعات داخليّة ، قبل أن يعودوا ويحققوا نجاحاً برتغاليّاً محدوداً(٢) وخاصة على الصعيد السياسى .

---

١) وثائق تاريخية . جيان . ص ٢٧٤ – ٢٧٥ والبرتغال في أفريقيا . دفي . ص ٧٦-٧٨

٢) البرتغال في أفريقيا . دفي . ص ٧٦ – ٧٨

ومهما يكن من أمر فقد بدأت البعثات التبشيرية تفقد نتائج أعمالها منذ سنة ١٦٥٠م - ١٠٥٩هـ ، حيث تجلت عداوة الأفريقيين لها ، وانتشرت الأوبئة ودب الفساد ، مما كان له آثاره المدمرة حتى على المستعمرات البرتغالية ، في الزمبيزي ذاتها وتبع ذلك أن فكر الدومنيكان في زيادة ثرواتهم عن طريق العمل شأنهم في ذلك شأن باقي البرتغاليين .

ومن الجدير بالذكر أن الدومنيكان والجزويت قد حصلوا في القرن الثاني عشر (بعد فترة البحث) على أراض وإقطاعات واسعة فكانوا يجمعون ضرائب الرؤوس ويتاجرون في الرقيق وتابعتها الطوائف التبشيرية الأخرى على نفس الطريق[1] وهو ما يعني خروجها كلية عن الهدف الذي جاءت من أجله أصلا .

وهكذا ظل عدد المسيحيين يتناقص حتى قُدِّر عددهم في موزمبيق نفسها منذ وقت قريب ، بما لا يتجاوز الألفين والمائتين نسمة[2] ، وهو رقم صغير للغاية ويبرهن على الفشل الكبير الذي مُنِيَ به المبشرون البرتغاليون ، إذا ما قورن بنسبة الجهود وعدد السنين التي أمضوها يدعون بحماس لمذهبهم الديني الكاثوليكي .

---

١) البرتغال في أفريقيا . دفي . ص ٧٨ - ٧٩

٢) المرجع السابق ص ٧٩

وقبل أن نلقي نظرة سريعة على عوامل فشل المشروع التبشيري البرتغالي عامة لابد من الوقوف على بعض عوامل فشل التبشير البرتغالي في سواحل شرق أفريقيا ، وهي في الجملة تدخل في الإطار العام ، ولا تنفك عنه ، ومن ذلك أنه قد ترتّب على إحلال السيادة العمانية محل السيطرة البرتغالية انطلاقة جديدة للاسلام حيث أتيح للدين الإسلامي المناخ الصالح للانتشار دون عقبات (١).

ومما لا شك فيه أن انتصار الإسلام في شرق أفريقيا يعني من بعض جوانبه تقهقر الثمرات القليلة التي أنتجها النشاط البرتغالي التبشيري في سنواته المتطاولة من الاستعمار في مياه المحيط الهندي ، وكذلك لم تكن موزمبيق - مركز البرتغاليين الرئيسي في شرق أفريقيا - معدّة حينذاك للاستغلال الاستعماري الشامل ، فالملاريا والمقاومة والاضطراب ، وانحلال السلطة ، والفقر ، والتآمر ،كل ذلك كان يعطل أية خطط استعماريّة للبرتغاليين ، وخاصة في المجال التبشيري حيث أنه لم يكن في جزيرة موزمبيق -على سبيل المثال - سنة ١٦٢٥م - ١٠٣٤هـ من المسيحيين البيض والسمر والسود أكثر من بضعة آلاف وقد عاش التجار والمبشّرون والجنود حياة منعزلةً في أعلى نهر الزمبيزي وفي أسفله وفي أراضي المونوموتابا (٢) أيضا . ولم يلبث

---

١) الخليج العربي . جمال زكريا قاسم . د . ص ٨٥

٢) البرتغال في أفريقيا . دفي . ص ٧٥

البرتغاليون ، في شرق أفريقيا خاصة ، أن تحولوا عن الهدف الديني إلى هدف آخر تمثل في الرغبة في السيطرة الاقتصادية ، ومع ذلك فإنهم لم يهملوا النشاط التبشيري تماماً ، بل وضعوه جنباً إلى جنب مع الهدف السياسي (١) ، وكان فشل أحدهما يعني فشل الآخر بالضرورة . ويضاف إلى ذلك أن جهودهم في فصل الكنيسة الأثيوبية عن المصرية ، وانخراطهم في الخلافات السياسية وحبك الدسائس هناك ، قد زاد من كراهية الأفارقة لهم ، وقد لعب العرب دوراً في عرقلة النشاط التبشيري في شرق أفريقيا وخاصة في مملكة المونوموتابا . حيث نجح التجار العرب في التصدي لبعض الإرساليات التبشيرية التي قصدت تلك المملكة (٢) .

ويمكن أن يضاف إلى عوامل فشل النشاط التبشيري السابقة عدداً من العوامل الأخرى العامة ، والتي ظهرت آثارها في مختلف مناطق المحيط الهندي على وجه العموم ، ومن ذلك أن البرتغاليين عندما جاءوا إلى الشرق كسياسيين أو كمبشرين لم يجدوا أرضاً خالية ، وأناساً غُفلاً لم تشكلهم حضارة ولم تيدينوا بدين ، ولكنهم قد أصيبوا بالدهشة وشعروا بالرعب بسبب مواجهتهم أدياناً متقدمة ، وحضارات أصيلة ، أرقى في مجملها

---

١) الخليج العربي . جمال قاسم . د ع ص ٨٦

٢) المرجع السابق نفس الصفحة

مما كانوا يحملونه من ثقافة وحضارة [١].

وقد أثرت سمعة البرتغاليين السيئة على نشاطهم التبشيري [٢] ، فقد كانوا يعيشون في لقا - مثلا - عيش الفجور والشهوة ، ولا يرتبطون أدنى ارتباط بالأخلاق المسيحية ، وكانوا في جوا كذلك [٣]، فكانوا في عيدهم الأسبوعي يشربون الخمور ويضعون السلاح ، ويشتغلون بطربهم وملاهيهم [٤]. ويُضاف إلى ذلك ما شاع عن وحشيتهم في معاملة السكان الوطنيين، وحتى في أثناء محاولاتهم لنشر المسيحية سُجِّلت عليهم كثير من المواقف البشعة كمحاكم التفتيش وعمليات التعذيب والاحراق ، وهدم المعابد " الخ ".

وهذا يقود نا إلى مظهر أو عامل آخر هو أن البرتغاليين اشتهروا بتعصبهم الديني وتعاليهم واحتقارهم لمعتقدات غيرهم حيث أنهم كانوا يعتدون على المصلين ويسبون النساء ويهاجمون البيوت ، ويبالغون في إذلال أصحاب الأديان الأخرى ، وخاصة من يظفرون به من المسلمين [٥] .

---

١) المجابهة البرتغالية العثمانية . عبد الوهاب القيسي . ص ١٧٣

٢) صراع القوى في المحيط الهندي . محمد عدنان مراد . ص ١٢٥

٣) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٤٠

٤) الشعاع الشائع باللمعان . حميد بن زريق . ص ٢٥٤

٥) انظر GRay,op.cit,p15

ويضاف إلى ذلك أنه قد نشب صراعٌ رهيب بين طوائف المبشرين البرتغاليين أدى إلى قَصْرِ نشاطها على نقاطٍ ساحلية بسيطة — في الغالب — وعلى بعض الأعمال البسيطة في المستشفيات ، أو في مجال التعليم — وكان ذلك في الفترات المتأخرة جداً — ثم تطور الأمر وتوقف عملها كليّةً بعد ذلك حيث أنه كانت الأموال قد نضبت وفَتَرَ الحماسُ الديني الذي كان دافعاً قوياً في البدء [1] . ولما كان الاعتقاد يخضع للإيمان ولا يخضع لمنطق القوة فإن مجرد اعتماد نشاطهم التبشيري على الدعم السياسي والعسكري كان كفيلاً بأن يضع نهايةً مخزيةً لكل جهودهم في هذا المجال .

ومما يذكر أنهم كانوا يكتفون ممن يستجيب لهم بالإقرار الظاهري وبأداء بعض الحركات أو الشعائر ، مع أنه قد يكون غير مؤمن أصلاً بما دُعِيَ إليه وقد مرت أمثله على ذلك . وأخيراً لابد من القول إن انتشار المذهب البروتستنيتي ، وتحول البابا نتيجةً لذلك عن تأييد حكومة البرتغال في مختلف نشاطاتها ومنها النشاط التبشيري ، وذلك في الوقت الذي جاءت فيه قوى أوربية أخرى إلى مياه المحيط الهندي ، ولم تكن معنيّه أصلاً بتنصير الوثنيين من جهة ، ولم تكن تتفق مع البرتغاليين في الاعتقاد المسيحي على المذهب الكاثوليكي من جهة أخرى ، ومن هنا لم تقم القوى الأوربيه الجديدة برعاية صالح التبشير والمبشرين على وجه العموم . وبدرجةٍ أولى فإنها لم تتعاطف مطلقاً مع نشاط الهيئات الكاثوليكية البرتغالية [2] في الشرق وخاصة بعد أن أخذ العامل الديني منذ الربع الأول من القرن السابع عشر في التلاشي أمام هيمنة العامل التجاري والاستعماري [3] . وقد كان ذلك كفيلاً بأن يقضي على البقيه الباقيه من ثمرات الجهود البرتغالية في مجال التبشير المسيحي على المذهب الكاثوليكي في مياه المحيط الهندي .

---

١) تاريخ كشف افريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . د . ص ١٨٨ (٢) آسيا والسيطرة الغربية . بانيكار . ص ٤٠٠ (٣) فتح العثمانيين عدن . البحراوي . د . ص ١٠٩

لعب الصراع الإسلامي البرتغالي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر دوراً مهماً في تشكيل العلاقات الدولية بين الشرق والغرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وقد كشف تتبع هذا الصراع عن كثير من النتائج والملاحظات الجديرة بالأخذ في الحسبان .

تزامن بدء الصراع الإسلامي البرتغالي مع اشتداد التوتر السياسي بين القوى الإسلامية الرئيسية : العثمانيين والمماليك والصفويين . وكان لهذا التوتر آثاره السيئة على العالم الإسلامي في صراعه مع الغزو البرتغالي ، في الوقت الذي كان فيه خيراً وبركة على البرتغاليين الذين انتهزوا هذه الفرصة مستفيدين من تفكك السواحل والأقاليم الإسلامية وعدم تمتعها بالقوة الكافية في تثبيت أركان امبراطوريتهم المائية التي امتدت لآلاف الأميال عبر سواحل أفريقيا وآسيا .

ولم تكن مساهمة المسلمين في الاقتصاد العالمي وحركة التجارة الدولية مقتصرة على دور الوسيط ، وقد قام المسلمون بدور التاجر والوسيط والمنتج في ذات الوقت . وكان لهذا الدور آثاره الايجابية في مجالي الحضارة والعمران إذْ ساعد على ازدهار العديد من المراكز التجارية التي تميزت بعمارة خاصة واستعداد خاص لاستقبال التجار من مختلف البقاع كما ساعد على نشر الإسلام في كثير من بقاع آسيا وأفريقيا . وقد كشفت الدراسة أن المماليك لم يكونوا محتكرين للتجارة بين الشرق والغرب إذْ كانت مدنهم ومراكزهم التجارية مفتوحة لكل التجار سواء قدموا من أوروبا أو من أفريقيا والهند . ولم يتم احتكار بعض البضائع المهمة إلا في عهد بعض السلاطين المتأخرين . ومن هنا يمكن القول إن البندقية هي التي كانت تحرص على ممارسة الاحتكار التجاري في أوروبا لضمان هيمنتها الاقتصادية الكاملة على مختلف الأوضاع الأوروبية .

وتبيَّن من الدراسة أن الغزو البرتغالي للسواحل الاسلامية الشرقية قد ارتكز على عدة عوامل مهمة تميَّزَ عاملان منها بدور فاعل ، فكانا الدعامتين اللتين اشعلتا أوار ذلك الغزو وزادتا من حدة الصراع وضراوته .

وهاذان العاملان هما : العامل الاقتصادي الذي لعب فيه اختمار مجموعة من العوامل الاقتصادية الداخلية في البرتغال مع مجموعة من الآمال والاطماع الاقتصادية الخارجية دور الحافز الدائم على مدى سنوات الصراع . والعامل الديني الذي تميز بالتعصب للكاثوليكية والولاء للبابا في روما والحرص على نيل مباركته وتأييده لكل الجرائم البشعة التي ارتكبت في بلاد الشرق باسم الدين .

وتبع البرتغاليون في غزوهم للمياه الإسلامية الشرقية عدة أساليب توالت الواحد بعد الآخر تبعاً لطبيعة المرحلة وللأهداف المرجوة منها فقد بدأ البرتغاليون مهادنين هادئين وخاصة في الهند - حريصين على التجارة مع الشرق من خلال المنافسة الحرة . ولكنهم سرعان ما انتقلوا إلى المنافسة التجارية القائمة على القهر واستبعاد المنافسين بقوة السلاح حيث عملوا على طرد التجار المسلمين من مراكز الهند التجارية ونهبوا ودمروا ما وصلت إليه أيديهم من السفن والبضائع واتبعوا ذلك بسد المنافذ التجارية المهمة كمدخل البحر الأحمر والخليج العربي . وبعد ذلك عمدوا إلى تثبيت استعمارهم في الشرق وإقامة امبراطوريتهم المائية من خلال إقامة سلسلة من الحصون والمراكز التجارية المحمية والتي لعبت دوراً كبيراً في تجارة البرتغال وفي تنظيم العلاقات البرتغالية مع السكان الوطنيين على طول السواحل الإسلامية .

وأقام البرتغاليون إداراتهم الاستعمارية بالشرق على أساس تحقيق عدة أهداف منها تحقيق الاحتكار التجاري والسيادة الاقتصادية ليس في آسيا وأفريقيا فحسب ، بل في أوروبا ، وضمان السيادة البرتغالية في كافة المواقع والأقاليم الاستراتيجية المهمة على امتداد سواحل المحيط الهندي . ومواصلة العمل على نشر المسيحية والتخفي وراءها لتحقيق المزيد من الأهداف والأطماع الاستعمارية والتعاون مع كل القوى السياسية التي يمكن التعاون معها لتثبيت أقدام البرتغاليين

في الشرق . ومما يُذكر أن البرتغاليين قد ركزوا في تعاونهم على مملكة الحبشة وأن جهدهم في هذا المجال قد باءت بالفشل الذريع .

وتبين من الدراسة أن المماليك لم ينجحوا في التصدي للبرتغاليين لعدة عوامل من بينها تفككهم السياسي وصراعهم على السلطة ، وتدهور أوضاعهم الاقتصادية وتفشي الأمراض والأوبئة وتعدد الطبقات الاجتماعية ، فضلاً عن كونهم يعتمدون في قوتهم على البر ولم يكن لهم أي قوة بحرية ذات شأن في الوقت الذي بدأ فيه البرتغاليون غزوهم للشرق وتبين كذلك أن العثمانيين لم يقوموا بالدور المرجو منهم وأن جهودهم قد تركزت في ميدانين رئيسين هما البحر الأحمر والخليج العربي ، وأن الميدان الأخير لم يحققوا فيه نتائج محدودة في حين أبْدوا تفوقاً واضحاً في الميدان الأول حيث أفشلوا كافة المخططات البرتغالية الحبشية .

وإذا كان الصفويون قد قصروا جهودهم على تحرير بعض السواحل الفارسية وأبدوا تعاوناً واضحاً مع القوى الأوروبية القادمة إلى الشرق فإن اليعاربة لم يقبلوا بأقل من تحرير السواحل العربية وسواحل أفريقيا الشرقية وكان لهم الفضل في طي الصفحة الأخيرة في الصراع الإسلامي البرتغالي في مياه المحيط الهندى .

وبقي أن نقول إن الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية قد مُني بفشل ذريع ، فمن جهة لم يستطع تحقيق الحلم البرتغالي باحتكار تجارة الشرق لأَكْثَرَ من ثلاثين عاماً من بدء الغزو ولم تحقق جهودهم التبشيرية أي نتيجة تستحق الذكر إذْ لم يزد عدد من تنصر في الشرق على أيدى البرتغاليين عن بضعة مئات بل ما هو أشد من ذلك أن أوروبا نفسها قد تحولت عن الكاثوليكية وأن البابا قد تخلى عن تأييده للبرتغال لصالح القوى الأوروبية الصاعدة آنذاك .

في الشرق . ومما يُذكر أن البرتغاليين قد ركزوا في تعاونهم على مملكة الحبشة وأن جهدهم في هذا المجال قد باءت بالفشل الذريع .

وتبين من الدراسة أن المماليك لم ينجحوا في التصدي للبرتغاليين لعدة عوامل من بينها تفككهم السياسي وصراعهم على السلطة ، وتدهور أوضاعهم الاقتصادية وتفشي الأمراض والأوبئة وتعدد الطبقات الاجتماعية ، فضلاً عن كونهم يعتمدون في قوتهم على البر ولم يكن لهم أي قوة بحرية ذات شأن في الوقت الذي بدأ فيه البرتغاليون غزوهم للشرق وتبين كذلك أن العثمانيين لم يقوموا بالدور المرجو منهم وأن جهودهم قد تركزت في ميدانين رئيسين هما البحر الأحمر والخليج العربي ، وأن الميدان الأخير لم يحققوا فيه نتائج محدودة في حين أبْدوا تفوقاً واضحاً في الميدان الأول حيث أفشلوا كافة المخططات البرتغالية الحبشية .

وإذا كان الصفويون قد قصروا جهودهم على تحرير بعض السواحل الفارسية وأبدوا تعاوناً واضحاً مع القوى الأوروبية القادمة إلى الشرق فإن اليعاربة لم يقبلوا بأقل من تحرير السواحل العربية وسواحل أفريقيا الشرقية وكان لهم الفضل في طي الصفحة الأخيرة في الصراع الإسلامي البرتغالي في مياه المحيط الهندى .

وبقي أن نقول إن الغزو البرتغالي للسواحل الإسلامية الشرقية قد مُني بفشل ذريع ، فمن جهة لم يستطع تحقيق الحلم البرتغالي باحتكار تجارة الشرق لأكثر من ثلاثين عاماً من بدء الغزو ولم تحقق جهودهم التبشيرية أي نتيجة تستحق الذكر إذْ لم يزد عدد من تنصر في الشرق على أيدى البرتغاليين عن بضعة مئات بل ما هو أشد من ذلك أن أوروبا نفسها قد تحولت عن الكاثوليكية وأن البابا قد تخلى عن تأييده للبرتغال لصالح القوى الأوروبية الصاعدة آنذاك .

ومما لا شك فيه أن الغزو البرتغالي للمياه الإسلامية الشرقية كان فاتحة الشر على بلاد الشرق ، والمسؤول الأول عن تطلع الدول الأوروبية منذ مطلع العصر الحديث إلى غزو بلاد المسلمين لنهب خيراتهم وامتصاص ثروتهم .

ومن هنا يمكن القول إن آثار الغزو البرتغالي للمياه الإسلامية الشرقية لا زالت باقية إلى الآن ، ولعل ما يدور حولنا من الأحداث ليس ببعيد عن هذا المجال .

ملحق رقم(١)

تعليمات مجلس العشرة في البندقية للسفير البندقي لدى المماليك في مصر (فراسنوا تالدى) وهي توضح سياسة البندقية ومقترحاتها لمواجهة الأخطار الاقتصادية والسياسية المترتبة على نجاح البرتغاليين في الاتجار مع الهند وفي تثبيت أقدامهم في مياه المحيط الهندى :

البندقية ٢٤ مايو ١٥٠٤م

١- بعثة فرانسسكو تالدى إلى سلطان مصر . تقبل هذه التعليمات باسم الأمير نحن نضع فيك ياسيد فرانسسكو الثقة الكاملة . لذلك نرسلك إلى سلطان مصر باعتبارك مواطناً صالحاً . ولهذا نكلفك بأن تسافر بأول سفينة إلى جزيرة كريت ومنها إلى ميناء دمياط . وعليك أن تخفي عن الجميع صفتك الرسمية .

٢ - من دمياط تذهب إلى القاهرة وتعمل بكل ما أوتيت من مهارة وسرية أن تسمع صوتك للسلطان شخصياً ، وتَمْثُل أمامه عن طريق أمير الإسكندرية ، أو الدوادار أو كاتب السر أومن يبدو لك أن الأصلح . وفي غياب الأمير لك أن تلجأ إلى المهمندار (المندوب السفرى) الذي يجب أن تكلمه سراً ، ولا تنسى أن يكون حديثك مع السلطان نفسه سراً .

٣- لما تسمح لك الفرصة بالانفراد بالسلطان قدم له خطاب اعتمادك سفيراً لنا بعد التحيات الواجبة باسمنا وباسم دولتنا لفخامته، تهنئه بالصحة والسلامة بألفاظ مناسبة ، وتفاهم معه سراً فيما كان يتحدث به النبيل بنديتو سانودو)في العام الماضي عن الملاحة في المحيط الهندى ، والتي أصبحت في يد البرتغاليين ، وأن تفهم فخامته أنه يترتب على ذلك

خسائر للجميع له ولنا ولتجاره ولتجارنا . وبالنسبة للعلاقات القديمة التي بيننا وبينه والتي قامت على المصلحة المشتركة فإننا وضعنا مشاوراته معك ومع السفير سانود و موضع الاهتمام الكامل لإمكان معالجة الأمر في بدايته

٤- ولكي تكون على علم تام بكل ما يستجد في هذا الموضوع نبلغك بأننا أثناء بحثنا هذا الموضوع في السناتو مع مستشارينا وصل إلى بلادنا المبعوث السلطاني مطران أورشليم الأخ المحترم ماوروجواردیان من جبل صهيون ، ومعه رسالة من سلطان مصر مملوءة بعبارات الودّ والاحترام والرقة التي يبديها السلطان نحو دولتنا في كل مناسبة . فعليك أن تتولى نيابة عنا شكر السلطان الأفخم بعبارات ود واحترام مبادلتنا شعوره الطيب وإننا متأكدون جداً من أننا أكثر الجاليات رعاية في بلاده وأنّ تجارنا سيجدون كل عطف وعون ومودة من السلطان ورجاله مما يجعلهم يتلهفون على الذهاب للمتجارة في بلاده ولا يفكرون في هجرته إلى لشبونة مثلاً ، لأنه من المعروف ألّا يبقى أي فرد في مكان ما إلّا إذا كان يعامل معاملة طيبة ويحصل على فائدة كاملة .

٥ - ويجب أن تعلم فضلاً عن ذلك أن الأخ المحترم السيد ماور وجواردیان مطران أورشليم ومبعوث السلطان إلينا قد تحدث معنا شخصياً ، علاوة على ما جاء بخطابات السلطان في أن نكتب إلى الحبر الأعظم البابا وملك أسبانيا ، وملك البرتغال ليعملوا على وقف ملاحة البرتغاليين في الهند وتركيا لهم . كما طالبوا بأن يصدر مجلس السناتو قرارات يشيرون فيها إلى ذلك ، فعليك أن تقول للسلطان : (إننا بكل صراحة وأمانة قد وجهنا الأخ المحترم ماوروجواردیان لرحلة إلى

أسبانيا والبرتغال وزودناه بكل المعلومات التي لدينا لكي ينهي الموضوع حسب رغبة السلطان التي هي رغبتنا ، ولم نعط خطابات توصية إلى البابا في هذا الموضوع ولا إلى ملك أسبانيا ، ولا إلى ملك البرتغال حتى لا تحدث نتيجة عكسية ، ولكي لا نُتّهم بأننا متواطئون مع المسلمين ضد المسيحيين ، لأن مثل هذه الخطابات ستحدث ضجّة شديدة ضدنا في العالم المسيحي ، لأن الجميع يعرفون أن مجيء السيد ماوروجوارديان بناء على رغبة السلطان وبناء على طلبه ، فلو أننا أرسلناه من طرفنا بخطابات توصية لفقدنا كلّ سمعة طيبة في العالم المسيحي .

٦ - يجب أن تبلغ السلطان أن منع الملاحة في المحيط الهندي لا يمكن أن تأتي من جانبنا للأسباب السابق ذكرها ، لأن المسافة من بلدنا للبرتغال طويلة لا تقل عن أربعة آلاف ميل ، فضلاً عن المسافة من البرتغال إلى الهند ثم إن أسبانيا وملكها القوى المحالف للبرتغال يقع في الطريق بيننا وبين البرتغال علاوة على أنه استولى حديثاً على نابلي من لويس ١٢ ، وله حدود مع مملكتنا في أماكن عدة من البحر والبر . وقد ذكر هذا السيد ماوروجوارديان ، وزودناه بنفقات الرحلة إلى روما وأسبانيا والبرتغال . ونحاول أن نبلغ السلطان أولا بأول بخط سير وأخبار مبعوثه إلى أسبانيا والبرتغال البابوية .

٧ - يهمنا أن تذكر لسيادة السلطان أنه قد وصل إلى البرتغال ١٤ مركباً من الهند محملة بالتوابل من بين ما تحمله ٥ ألف حمل من الفلفل وقد أرسلت بواسطة ملك البرتغال إلى انجلترا أو الفلاندرز وفرنسا وإيطاليا وكل العالم تقريباً .

لفائدته وربحه بحيث أنه أصبح ملكاً غنياً جداً ويرجع ذلك إلى أنه وجد سعر التوابل بالإسكندرية مرتفع جداً ، وكذلك في دمشق أكثر من المعتاد وأنه لما كانت التوابل منخفضة الأسعار في الهند ولشبونة ، لذلك لجأ عملاء نابلي إلى أسواق البرتغال ، وهذا بالطبع أدى إلى ثرائه ـ فضلا عن أن ذلك هناك في ميناء لشبونة أسطولاً مكوناً من ١٢ سفينة مستعدة للرحيل فوراً إلى الهند و١٦ سفينة أخرى مستعدة للذهاب فعلاً بعد عودة السابقة لإحضار المزيد من التوابل .

٨ - وعليك أن تلفت نظر السلطان إلى أنه ابتداء من الآن ستكون الرحلة سهلة بالنسبة للبرتغاليين ولا نعرف طريقة تستطيع بها منع ملاحتهم إلى المياه الهندية والتي نرى أنه ينشأ عنها ضرر لا يمكن احتماله ولا يقبل السلطان به . وإننا فضلا عن مصالح تجارنا التي بدأت تنهار فإننا تحملنا خسائر في جماركنا وضرائبنا تبعاً لذلك .

٩- وإحقاقاً للواقع كان قد اقترح علينا الاشتراك في الرحلات لفائدتنا ودعينا فعلاً من قبل ملك البرتغال لإرسال تجارنا إلى أسواق لشبونة لطلب التوابل . وكثير من تجارنا ورعايانا يرغب في ذلك ، لأن تجارنا لا يدفعون في لشبونة ضرائب جمركية ، ومع ذلك فهم أحرار . إلا أننا لما كنا نقدر عظمة السلطان وإننا لم نرغم أبدا على ترك التجارة معه والتي كانت على اتصال معه منذ قرون عدة والتجارة هي مصدر حياتنا وربحنا ، كما أننا لم ننظر للدعوة التي وجهها إلينا ملك البرتغال والتي لا يزال حتى الآن يعرضها علينا . ومصداقاً لذلك أرسلنا سفننا هذا

العام إلى الاسكندرية لاعتقادنا أن السلطان المعظم هو الذى يستطيع وحدة أن يضع حدّاً لتهجمات البرتغاليين في مياه الهند ووقف تجارتهم حتى تعود تجارة التوابل إلى ما كانت عليه من قبل .

١٠ - وعليك يا سيد فرانسسكو أن تضع أمام أعين السلطان النقط الآتية ، يبدو أنها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للسلطان ليتخذها ضد البرتغاليين في الهند :

أ) العمل بأى وسيلة على وصول أكبر كمية ممكنة من التوابل إلى بلاد السلطان لكي نقاوم بها إغراق البرتغاليين لأسواق أوروبا بالتوابل ، لأن هذا سيمنع عن البرتغاليين المكاسب الضخمة ، وبالتالي يمنع سفنهم من الوصول للهند لجلب التوابل .

ب) يرسل السلطان من طرفه سفراء إلى ملك كوشين بالهند وكانانور والأماكن الأخرى التي يتعامل معها البرتغاليون وأن يطلب منهم باسم الدين والجوار والتعامل القديم الامتناع عن معاملة ومد العون إلى البرتغاليين وأن يضعوا العقبات باستمرار أمام البرتغاليين ، ويبينوا لهم الأضرار التي سوف تترتب على استمرارهم في التعامل مع البرتغاليين ويستطيع فخامة السلطان بحكمته أن يبينها لهم ويفسر لهم أن كثرة وصول البرتغاليين لبلادهم ستكون لها آثار سيئة ، وربما استولوا على بلادهم نفسها ويصبحون أسياد هذه الجزر وبلاد كوشين وكانانور .ونحن نؤمن بقدرة السلطان المعظم على عمل ذلك وإمكانه الوصول إلى اتفاق مع هؤلاء القوم .

جـ) ومن الممكن أن يسارع فخامة السلطان بارسال سفراء من لدنه إلى

كاليكوت وكامباى. وأمراء هذه البلاد رفضوا قبول التعامل مع البرتغاليين. وهؤلاء الأمراء بإمكانهم التأثير على إخوانهم ومواطنيهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ووجوب مرور التوابل كالمعتاد بمصر وسوريا ، ويذكرونهم بمدى الأضرار التي تحيق بهم من التعامل مع البرتغاليين وما يجره هذا كذلك على السلطان من أضرار .

د) يجب أن يرسل السلطان من لدنه قوات عسكرية قوية لمعاونة قوات الهند التي تحتاج لمزيد من الرجال والسفن والسلاح و قد فهمنا أن السلطان أرسل فعلا السفن والسلاح والجنود وهذا ما نمدحه عليه ـ لأنه إذا لم يجد البرتغاليون من يقبل التعامل معهم وإعطائهم التوابل ، فإنهم رجعوا أكثر من مرة فارغين من غير هذه التوابل ، فإنهم لن يفكروا أبداً في العودة لهذه الرحلة الطويلة بعد أن يفقدوا السمعة والوقت .

ولذلك فإنه يلزم من الآن القيام بإجراءات سريعة قوية لملاقاة هذا الخطر. وبيت القصيد هنا هو إرسال سفراء للهند وحث أمراء الهند على عدم التعامل مع البرتغاليين ، وإرسال الأسلحة والسفن للهنود للمعاونة في حرب البرتغاليين ـ وهي الوسيلة لاستعادة نفوذ السلطان وبالتالي نفوذنا .

١١- هذه هي كل الاشياء التي نراها ذات أهمية بالغة وضرورية وتلفتون نظر فخامة السلطان إليها ليتخذ بشأنها إجراءات سريعة وإننا متأكدون ـ كما سبق أن ذكرنا لسيادة السلطان ـ أنّ مصالحه العديدة في الهند والتجارة الهندية ستجعله يقوم بأكثر مما أشرنا إليه به .

١٢- ولكن نظراً لأن السيد المحترم ماوروجوارديان قد أبلغنا أن السلطان

الأعظم في حالة رفض البرتغاليين الاستجابة لطلباته فإنه سيمنع الزيارة للأماكن المقدسة المسيحية ببلاده ، ويغلق كنيسة القبر المقدس ودير سانت كاترين في سيناء ، وكنائس المسيحيين في مصر وسوريا ؛ ...

ونحن نوجه نظرك إلى أن تنصح فخامة السلطان إلى أن هذا الاجراء سيكون ضد مصالح السلطان نفسه ، وعلى حساب سمعته ، وأن فتح هذه الأماكن فيه فائدة مادية له لبلاده ، وغلقها - علاوة على الأضرار المادية التي قد تصيبه - فإنها لم تجعل أي مسيحي يعطف عليه أو يوقف حملات البرتغاليين إلى الهند بهذا السبب . لذلك يجب أن تنصحه بأن هذا العمل غير مُجْدٍ وأن الأماكن المسيحية المقدسة يجب أن تظل مفتوحة ليعلم الغرب مدى سوء تصرف البرتغاليين واعتدائهم على حقوق ومصالح السلطان ، وعليك استخدام منتهى اللباقة والكياسة والدبلوماسية في هذا المجال ...

- الموافقون ٧ - الرافضون ٥ - والمشكوك فيهم ٢

خطاب احتجاج موجّه من البندقية إلى السلطان المملوكي في مصر ، تشكو فيه البندقية من إساءة المماليك لمعاملة التجار والرعايا البنادقة على أثر ما وصل إليهم عن تطور العلاقات البندقية الصفوية ، وهو الأمر الذى تخوف المماليك من عواقبه وقد اتبعت البندقية هذا الخطاب بخطاب آخر موجه إلى قنصلها في مصر بهدف تنقية العلاقات البندقية المملوكية .

البندقية ٢٠ يناير ١٥١١ م

السيد السلطان الأعظم الافخم .

١- في الأيام السابقة سمعنا أن سيادتكم قد استدعيتم إلى القاهرة القنصل في دمشق والاسكندرية وتجارنا .وأخذتنا الدهشة ، وفي نفس الوقت تضايقنا مما حدث للقناصل وخاصة قنصل دمشق ونوابه وتجارنا وقد رأينا أنه من حيث صداقتنا الطيبة التي اتخذناها دعامة صلتكم بنا واحتفظنا بها معكم ومع أسلافكم العظام قد تكون شفيعة في أن يكون تجارنا معززين في دولتكم .

٢- وقد رأينا أن تجارنا ومواطنينا في دولتكم قد وضعوا موضع الاعداء الذين هم أعداء لنا ولكم سراً وعَلَنًا وبدون أي رعاية أو احترام وهذا سَبّب لنا الخسارة ولا شك أنه سبب لكم أيضا الخسارة .

٣- إن هذه المعاملة قد ازعجتنا ولا سيما أننا نعرف أن التحريض آتٍ من أولئك الذين يريدون أن يضروا بمصالحنا ومصالحكم ونحن موقنون تماماً أنكم لمّا تتسلمون خطابنا هذا وتعرفون وتتأكدون من الحقيقة سيعود تجارنا إلى مراكزهم وسابق علمهم مع تلافي الخسارة والضرر لكلينا . . . ولا شك أنكم ستعاقبون الأعداء ويتبع هذا طبعاً عودة الرحلتين السابقتين بدون أى تردّد .

٤- وقد علمنا الآن أن سموكم مستمرون في حبس القناصل والتجار، وأن غضبكم

منصبٌ عليهم لتسهيلهم وصول رسل الصوفي إلينا بدون أن نعطيك خبراً عنه . ونحن نعترف بأننا لم نعطك خبراً وإن كنا بطرق أخرى قد بيّنا لكم مصير وغرض هذه الزيارة .

٥- ويسرنا أن نذكر لسموكم أن السفن المذكورة أى سفن العدة المحملة بالبضائع ستصل في مواعيدها وإنّ ما حدث ما يمنع إطلاقاً من وصولها وذلك نفياً لأي فكرة عدائية تكون قد تسربت إلى نفوسكم منا .

٦- ونحب أن نذكر أن كل بلاد العالم قد شاركت في تجارة التوابل من البرتغال ما عدا تجارنا وكنا قد أصدرنا أوامرنا صريحة لتجارنا وشددنا في ضرورة تنفيذها .

٧- وإذا كان رسل الصوفي قد وصلوا إلى بلدنا فإنه لم يكن باستطاعتنا منعهم من الوصول لأننا اعتدنا صداقة الجميع والترحيب بالجميع وإن كنّا قد أعلمكم بهذة البعثة في حينها فلذلك لأن المحادثات بيننا وبينهم لم تكن لها قيمة أو أى وزن دولي كما أننا لم نسمع منهم أى عرض له وزنه ونفيدكم أنه بعد التحيات المعتادة أخبرنا رسل الصوفي أن سيدهم ينشد صداقتنا وأنه مستعد للمحافظة وتجديد الصداقة التي كانت بيننا وبين أسلافه . وقد أجبنا على هذا الكلام إجابات عامة وكنا لا نريد أن نضايق أسماع سموكم بأمور لا وزن لها ولا قيمة عن هولاء الرسل . لذا لا بد لنا أن نغفل هذا الأمر البسيط ولا سيما أننا قد علمنا أن هولاء الرسل كانوا بفرنسا قبل وصولهم إلينا ، ولم يكن وصولهم لنا إلا مروراً ببلادنا فقط في طريق عودتهم إلى بلادهم أى إن مقصدهم

الأســاسي كان فرنسا وليس البندقية التي مروا بها مرّ الكرام والتحية . فإذا كان الأمر قد سبب إزعاجًا لكم أو أنه سيسبب قطع العلاقات بيننا وبينكم التي ظلت مئات السنين فإن هذا نتركه لحكمتكم ونرجو سموكم ألاّ تستمعوا لترهات الأشرار وألفاظهم ولا سيما الأعداء المفروض علينا أنهم أعداء لكم ولنا ويجب أن نضع نصب أعيننا فقط التجارب السابقة والنتائج التي ترتبت على ذلك .

٨- ونستطيع أن نؤكد لسموكم أن أى حادث يحدث في الخارج لا بدّ أن نوافيكم به فوراً ولا يمكن أن يقال إننا قد خُنّا العهد، فإننا لا نذيع سراً إذا قلنا إن صداقتنا مع سموكم قد سببت لنا أضرارًا كثيرة ومتاعب في السنوات الأخيرة ولا سيما في التجارة التي أصبحت أسعارها رخيصة بعد وصول التوابل إلى لشبونة ثم موقف البابوية وملوك أوروبا بسبب العداء القديم بين الشرق والغرب .

٩ - إن حكومة الجمهورية واثقة من أن أعداء الطرفين لا بدّ سيلاقون جزاءهم ونأمل أن نكون قد وصلنا إلى حد إزالة ما يكون قد علق بأذهانكم من نحونا . . . وتعود ونؤكد لسموكم ولعظمتكم أن أى خبر يحدث لا بد أن يصلكم نبأه عن طريق رجالنا .

١٠ - ونفيد سيادتكم وفخامتكم أننا سوف لا نقدم أي اعتذار آخر إلا إذا أطلق سراح تجارنا وممثلينا وهم واقعون تحت العقاب الشديد .

١١- ونفيد فخامتكم كذلك أن جمهوريتنا لا تساعد القراصنة وخصوصاً أننا نتكبد نفقات ضخمة في إعداد السفن المسلحة للقضاء على

القراصنة كطائفة وعلى الحرفة نفسها كعملية مرذولة ومكروهة من الجميع فإذا وصل إلى سمعنا أن أى تاجر من تجارنا قد خالف هذه الأوامر ولم يحترم أمرنا في عدم مساعدة القراصنة فسنوقع عليه عقوبات شديدة ليكون عبرة لكل واحد ويمكن لسموكم أن تثقوا في كلامنا هذا ...

١٢- ولا نريد أن نؤكد لفخامتكم مراعاة قناصلنا وتجارنا ومعاملتهم معاملة حسنة كما نؤكد لسيادتكم أن السفن سترسل في مواعيدها ولا تحجز ونفيدكم أنه بمجرد علمنا بإبحارها من طرفكم في طريق عودتها إلينا سترسل السفن الأخرى ((سفن المدة التالية)) التي ستحمل أموالاً وسلعاً كثيرة لأن التجار يرغبون في المتجارة بدون انتظار .

١٣- كما نفيد سيادتكم أننا بسبب ضيق الوقت لم نستطع إرسال سفيرنا الكبير إليكم السيد ((تريفيزاني)) وهو سيصلكم في ميعاد قريب ودليل على حسن نيتنا نحوكم وتوكيداً للصداقة الطيبة بيننا وبينكم التي كانت منذ مئات السنين وندعو لسموكم بسنين طويلة سعيدة .

• ا

ملحق رقم (٣)

نص الاتفاقية المعقودة بين السلطان سليم الأول العثماني وطائفة البنادقة في ميناء الإسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر وهي في صورة اتفاق موجّه الى حاكم الإسكندرية العثماني ليعمل بموجب نصوصه :

٢٢ محرم ٩٢٣ هـ - ٢١ فبراير ١٥١٧ م

المادة الأولى : جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قِبَلُ صار الموافقة والتصديق عليها : رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع . لا يحق لأي فرد كان أن يهينهم أو يتكبر عليهم في الموانيء المصرية عامة . من حقهم البيع والشراء والأخذ والعطاء ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية .

يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسئولة وليس من حق أي فرد الخروج على هذه القوانين كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعادات المرعية بدون أي تغيير أو تعديل .

المادة الثانية : عدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما في داخل مخازنهم ، كما لا يحق لأي فردٍ أن يجبرهم على البيع إذا لم يوافقوا هم على ذلك كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها .

المادة الثالثة : بإمكان القنصل أن يبيع ويشترى بالنقد بدون حدود

المادة الرابعة : يحصل القنصل على مرتبه مجمداً كل أربعة شهور .

المادة الخامسة : القنصل دون سواه هو الذي يباشر الشؤون

القانونيـــة والقضائية لمواطنيه ويبتّ في الأمور لصالحهم .

أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ إلى القضاء الوطني الإسلامي لينقض قانوناً أو حكماً أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضي استقباله أو نظـر شكواه وعليه أن يعيده إلى قنصله ، وإذا رغب القنصل في طرد البنادقه فعلى القاضي أن يعينه في ذلك . كما منح القنصل حق إبداء الرأى في سفر الأفراد على سفن بلاده ، ولا يحق لأي فرد كان أن يغادر الإسكندرية على ظهر إحدى سفن البندقية ليعود إلى وطنه أو يبارحها لأي قطر شاء إلا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه

المادة السادسة : إذا وصلت أي سفينة من البندقية للاسكندرية أو باسم البنادقة فلا يحق لأى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد مـــن معلومات أو بيانات ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ويسمح لهم بصعـود السفينة بحالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المشتراه ((السلع التي تحملها السفن)) العسل ، والفاكهة .

المادة السابعة : ممنوع على أي فرد سواء كان حاكم المدينة أو عيّن مـن أعيانها أو تجارها أو أى فردٍ من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفـــن الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء ، أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لأي سبب سواء كان قرضاً أو شراءً .

المادة الثامنة : يصير تنفيذ كل التجديدات أو المباني اللازمة أو الأعمال الضرورية في فندق البنادقة.وإذا رغب القنصل في بناء مبنى جميل خـــاص

به فله ما يشاء ، وممنوع منعاً باتاً التعرض له أو رفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أي فرد مضايقتهم أو التعرض لهم إذا رغبوا في استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين .

المادة التاسعة : إذا رغب القنصل في مقابلة أي فرد من الحكومة في دواوينهم وامتطى صهوة جواده أو رغب في الخروج للحدائق العامة أو أي مكان من أطراف المدينة فله أن يفعل ما يشاء وليس لأي فرد أن يعترضه .

المادة العاشرة : السلع التي تتعرض للغرق يصير إنقاذها وترد لأصحابها البنادقة أما السلع التي تقذفها الأمواج إلى الشاطئ نتيجة الغرق لإحدى السفن فهي ترد لأصحابها إن عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد للقنصل . والسفن التي تصل للشاطئ سليمة بعد انقاذها يجب صيانتها .

المادة الحادية عشرة : السفن التي تلجأ للميناء لسوء الأحوال الجوية ولا ترغب في تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها إذا لم يكن عليها سلع للاسكندرية .. وإذا كان عليها سلع خاصة للاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها في أي ميناء إلا في الإسكندرية نفسها . وإذا كانت تحمل سلعاً لم ينص عليها في المعاهدات ولا يتاجر فيها في الإسكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على السواحل المصرية .

المادة الثانية عشرة : العلاقات السياسية

إذا حدث أى حادث لأحد رعايا السلطان في البندقية أو الجزر التي

تقــع تحت سيطرتها فلا يُسأل القنصل عن هذا . . كما أنه لا يتحمــل النتائج المترتبةعلى الحادث . أما من يكون مديونًا لأحد رعايا السلطان فإنه يحجز حتى يوفي الدين ويسري ذلك على الضامن ،ويجب أن يكــون جميع رعايا السلطان في أمان تام في موانيء البندقية والبلاد الخاضعة لها .

المادة الثالثة عشرة : يعفى القنصل البندقي من دفع ضريبة الإيراد أو ضرائب أخرى ما عدا في حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء .

المادة الرابعة عشرة : إذا أسر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثـم جاءوا لبيعها في موانيء السلطان فمحظور على أي فرد شرائها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردهـا للتجار . . .

المادة الخامسة عشرة : إذا حدث خلاف بين عربي وأجنبي سواء كان من البنادقة أو غيرهم أو القنصل أو تاجر أوأي مواطن عادي أو عضو في وكالتهم فلا يحق لأي فرد إهانته أو إلحاق الضرر به .

المادة السادسة عشرة :كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل في سجل خاص ويتعرف عليها مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالأجانب أو بالحكم في مصر .

المادة السابعة عشرة : للقنصل السلطة التامة إذا رغب أن يقيم نائباً عنه ((قنصل بالنيابة)) أو نائب قنصل ((فايس قنصل)) فــي

البرلس وله أن يفعل ذلك كل ما شاء دون استئذان السلطان .

المادة الثامنة عشرة : عرض قنصل البنادقة ، أنه حسب المعتاد ، كانت بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من زيت البترول اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن السلطات المصرية ترفض هذا البيع لكي تبيع ما لديها في مستودعاتها . هذا الأمر يجب أن يتدارك ، فسفن البندقية تستطيع من الآن فصاعداً بيع هذا الزيت دون إنزاله للساحل ولا يعترضها أي فرد ، وفي حالة وصول هذه السفن إلى بولاق تتبع القواعد المرسومة في هذا الميناء .

المادة التاسعة عشرة : أشار القنصل إلى العبيد والفقراء الاجانب الذين يعيشون في الإسكندرية واعتادوا الورود إلى فندق البنادقة لكي يأكلوا .. وكان إذا مات أحد العبيد في الفندق ، والقنصل مطالب بدفع ثمنه ، وكان الثمن الذي يفرض مرتفعاً . هذا يصير ممنوعاً من الآن فصاعداً .

المادة العشرون : محظور على موظفي الجمرك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة في حالة إعادة تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم .

المادة الحادية والعشرون : فيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكشافين تدفع دينار واحد من كل سلسة توابل مملوءة ويحملها الكشّاف البحري ويحصل الحمال على دينار عن كل سلة يحملها .

المادة الثانية والعشرون : انتقاص وتخفيض الضرائب التي تدفع عن بموت من الأجانب في بلاد السلطان .

المادة الثالثة والعشرون : الإفرنجي الذي يرد للقاهرة من الإسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تُحَصّل منه ضرائب لا في حِلّه ولا في ترحاله .

المادة الرابعة والعشرون : السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمة ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة .

المادة الخامسة والعشرون : في حالة نقل البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر بشيء ما كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكهة المحفوظة والمسكرة والطازجة للمسافرين .

المادة السادسة والعشرون : لا يجوز إطلاقاً مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم في حدائق الإسكندرية وعلى ضفاف القناة أوفي أي مكان آخر .

المادة السابعة والعشرون : من حق التجار البنادقة ممارسة التجارة البحرية وتنفيذ التعليمات والعمليات التجارية مع جميع الفئات من مسلمين ويهود ومسيحيين بلا أدنى شرط أو قيد ، ولا يجوز منع أي ترجمان من مباشرة أعماله أو تسجيل أي عقد أمام القاضي والقنصل وتجاره ووكالته التجارية وكل من يأوى إلى فندقه تجري عليه واجبات الحماية من السلطان .

المادة الثامنة والعشرون : للبنادقة حق شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم

في قواربهم وسفنهم الخاصة .

المادة التاسعة والعشرون : قيام الكشافين في عملهم في حالات الشحن والتفريغ يكون بموافقة ومرافقة البنادقة . وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يُعَوَّض عنه البنادقة .

المادة الثلاثون : لا يتصدى أي فرد للقنصل أو لتجار البندقية إلا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ويراعى ألاّ يُؤخذ الابن بجريرة الأب ولا الأب بجريرة الابن إلا إذا كان أحدهما ضامناً للآخر شخصياً وماليا .. أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة .

المادة الحادية والثلاثون : جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون للموانيء المصرية يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع .

المادة الثانية والثلاثون : قدم قنصل البنادقة في الاسكندرية تقريراً ذكر فيه أن تجاره كانوا يُعْفَون سابقاً من ضريبة البهار ، ولكن حكومة الغوري وضعت رسومًا جديدة بلغت ٥٠٠٠ دينار سنويًا تحصل من التجار ، والقنصل يطالب بإعادة هذه المنحة ومنحة الاعفاء .

(شملت ملاحق عن إرجاع وإعادة ما كان لهم من أيام المماليك من باقي الامتيازات والاعفاءات والاحترام والمعاملة الطيبة والحماية والرعاية في كل مكان يحلون فيه) .

ملحق رقم (٤) ٠

رسالة من دوم مانوئيل دى ليما

حاكم هرمز إلى د٠ جواو دى كاسترو حاكم الهند

هرمز في ٢٣ حزيران ١٥٤٧

سنيور Senhor

لقد وصلت إلى هذا الحصن في هرمز في ١٨ مايس (لكن) لم أتسلم مسؤولية هذا الحصن لمدة شهر وذلك لأن لويس فالكاو Luis Falcao رغب في أن يستكمل فترة حكمه (كحاكم) والتي كانت (في الواقع لمدة شهر آخر)٠ وقد تسلمت مسئولية الحصن في ١٩ حزيران، فوجدتُ المكانَ غيرَ مريح جداً، وليس هناك أي تاجرٍ يبيع الـ beatilha (كتان) أو أي نوع من التوابل كما أنه ليست هناك أي تجارة أو صناعة٠ وإنّ جميع من أتى للعمل في هرمز كان يندهش لمثل هذه الحالة٠ وفوق كل هذا فإنّ قائداً لحاكم لارستان Laristan وكان من رجاله البارزين موجودٌ في عسكره على البرّ مقابلَ جزيرة هرمز وبرفقته عددٌ كثير من الخيالة والمشاة٠ وكان مع عسكره عندَ عددٍ من الآبار التي كانت مدينة هرمز تعتمد عليها في جلب المياه، منذ بضعة أشهر. وإنّ أهالي موغستان Mogosta يخافونهم ولذلك التجأوا لهذه المدينة٠ ومن هنا مرّ الـ Cafillas فأوقفهم أهالي لارستان، الأمر الذي أدّى بهم إلى أن يمتنعوا عن دفع الضرائب إلى الملك، مولانا، في دار الكمارك٠ أما فيما يتعلق بأمر البصرة فإن جلالتكم V.S. يعلمُ بأمورها، فضلا عن ذلك فإنني سوف أخبر جلالتكم عن تلك البلاد وأوضاع البصرة بشكل أكثر تفصيلاً.

كان لويس فالكاو Falcao قد سمح لطرادات معينة بالسير بتجارتها إلى البصرة، ومنذ وصولي إلى هذه المدينة (هرمز) فإنه أيضاً قد سُمِحَ لبعض الأهالي أن يذهبوا بتسع طرادات٠ وحينما وصلت المدينة أُخبرتُ بأن بيلربي البصرة، Capitao وكان يدعى محمد باشا Mohamed boxa turco مزمعٌ على إرسال رسول لي٠

وصل ذلك الرسول في ٧ تموز حاملاً رسالة. وهو تاجر عربي يُدعى حاج فياض hagy Fayat وهو رجل محترم كثيراً ومعروف بين البرتغاليين -وإني مُرسل لجلالتكم مع هذه الرسالة ترجمة للرسالة التي كتبها لي (بيلربي البصرة)-وقد تحدثت مع حاج فياض هذا في عدة مناسبات خلالها قال لي بأنني ينبغي أنْ أُعطيَ ثقة تامة للأمور التي قالها لي . وكان عازماً على أن يقسم بقرآنه بأنّ كل ما قاله لي هو الصحيح . وسألته فيما اذا كان عازماً على أن يقسم بأنّ تصرفاته هذه كانت بسلامة نية، ثم طلبت بواسطة كرشيا ديلا بنها Garcia della Pinha مترجم هذا الحصن (هرمز) أنْ يؤدي يميناً عظيماً ، وقد أقرّ في هذا اليمين أن السبب الرئيسي لمجيئه هنا هو ليكون صديقاً مخلصاً للبرتغاليين ،و(حكَى) عن جميع الأمور التي يعرفها عن إياس باشا ، (قائلاً):إنّه البيلربي Capitao الرئيس في بغداد وهو الذي جاء لأخذ البصرة ، (وتحدث) أيضاً عن محمد باشا الذي كان بيلربي البصرة ، بالإضافة إلى ذلك فإنّه أدلى بمعلومات عن جميع المناطق الأخرى. وكان مطّلعاً على عزم إياس باشا بأن يجعل البصرة مزدهرةً جداً من خلال التجارة، وبذلك تُدِرُّ ريعاً كبيراً إلى التركي العظيم Great Turk -المقصود السلطان العثماني- كما أن رستم باشا ، الصدْر الأعظم Guazil زوج ابنة التركي العظيم قد اعْتَبَرَ أخذَ البصرةِ أمراً غيرَ مرغوبٍ فيه، قائلاً بأنها لم تكن ذات قيمةٍ إطلاقاً وأنها مكان خَرِبٌ. ولذا فإنّ الرجلين كانا متعارضين حول هذه المسألة - حتى أنهما،في فترة مبكرة،قدانتهت صداقتهما لذلك فإنّ إياس باشا عمل كثيراً من أجل أن يجعل البصرة مُهِمَّةً، وأنّها قد تُدِرُّ ريعاً كبيراً إلى التركي العظيم، وقد بذل ما في وسعه على هذه القضايا .

واستفسرت منه (أي الحاج فياض) عن حصن البصرة: ما حالته أو فيما اذا كانوا -يعني الاتراك - قد قاموا بأعمالٍ عسكريةٍ فيه. فقال لي بأنهم لم يقوموا بأي عمل (هناك) وسألته أيضاً عن العسكر الموجودين في البصرة، من هم ؟ فقال لي إن محمد باشا بيلربي البصرة عنده (٥٠٠) تركي يحملون السلاح الناري turcos espimardeiros وقائد العسكر- alcaide mor -وهو مُعَسْكِرٌ في قلعة الحصن. وفوق هذا فإن القائد والخمسمائة تركي الذين يحملون السلاح لم يتركوا الحصن أبداً ولأي سبب من الأسباب.

و هناك في المدينة (ذاتها) ١٠٠٠ (ألف) فارس تركي و ٧٠٠ جندي يحمل السلاح الناري و يبلغ مجموعهم جميعاً ألفين و مائتي تركي . وعند مدخل مضيق هرمز، حيث كان هناك مسجد ، شيّدوا سوراً دائرياً ، لكنه لم يكن قوياً ، و في داخله عشر قطع من المدفعية (جميعها) مدافع صغيرة ، و يحرس القلعة كل ليلة "٥٠" مدفعياً .

و عندما استولى الاتراك على حصن البصرة هذا وجدوا فيه (٢٩٠) مدفعا ، ستون من هذه المدافع برونزية (berços de metal) غير أن العددَ الأكبَر منها حديدي ، و يحتوى الحصن (أيضا) على عشرين Candis — وزن يعادل تقريبا ٢٥٠ باون — من البارود . و قد ترك إياس باشا بعد أخذ الحصن مائة مدفع و ثلاث مدافع حصار كبيرة basaliscos كان قد جلبها معه ، و لكنّه أخذ معه عند رجوعه إلى بغداد أكثر المدافع التي وجدها في الحصن .

و الأكثر من هذا فإنني استفسرت منه عن الأسطول التركي في السويس، فقال لي إنّ هناك (٤٤) سفينة من نوع Galley بعضها كان قد أتى من ديو Diu . والسفن تحت إمرة سليمان باشا الخادم . وكانت جميعها بحالة جيدة . و سألته عن نوع السفن التي وردت إلى مخا Mocha و لماذا ذهبت الى هناك؟ فقال لي إنها (١٤) سفينة مسلحة كانت قد جاءت إلى السويس تحت قيادة قائد تركي يدعى Oez baxa (ربما المقصود أويس باشا) . و قد جاء هذا القائد بجيشه لمحاربة الزعيم العربي المدعو الامام الزيدي emom Zeidi غير أنه (أي حاج فياض) لا يعرف أبداً فيما إذا كان في البصرة إشاعة عن أنّ هذه السفن سوف تقلع إلى الهند . وسألته عن نوايا إياس باشا و محمد باشا — و فيما إذا كانا ينويان عمل شيء ضد هذا الحصن (هرمز) ، فأجاب بأنّه لا يعلم شيئاً عن مقاصدهما غير أنّ الاتراك كانوا يرغبون كثيراً في إنعاش التجارة في البصرة، وأن الاتراك استدعوه في كثيرٍ من الأمسيات لكنّه لم يسمع شيئاً عن ذلك القصد ، وإذا كان لهم مثل ذلك القصد الشرير فإنه بإمكانهم أنْ يشيدوا كل ما يحتاجون إليه من السفن في نهر الفرات و ذلك لوجود غابات عظيمة بالقرب من مدينة بيرة جيك

ـ Birejlk ـ التي تبعد سبعة أيام عن البصرة. و من هذه الغابات يُجْلَب الكثير من الخشب الجيد بالإضافة إلى وجود أخشاب الصنوبر و منه يستطيعون بناء ما يريدون من السفن، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، لتوفره بكثرة. ومدينة بيرمجيك كبيرة و كثيرة السكان و هي تتمتع بنشاط تجاري كبير مع بلاد فارس و المناطق الأُخرى. و على بعد يومين من هذا الموضع تقع مدينة حلب، و التي تقع بين فارس و تركيا.

و قال بأنّ هناك طريقين من مدينة بيرمجيك إلى البصرة، أُحدهما يسير عبر مدينةٍ تُدْعَى Illaa الحلة، والآخر يسير عبر بغداد. و الطريق الأخير طريق مباشرٌ أكثر من الأول لكنه، وخلال ثلاثةِ أشهرٍ من السنة، يتعرض إلى صعوبة حينما تجف مياه النهر، عندئذ يصبح من الأفضل لمن يستخدم السفن الشرعية أن يسير عبر الحلة لاستمرار جريان الماء، كما أنّ هناك العديد من الأنهار التي تروي الأراضي الزراعية Semen-ceiras، و يبقى أوطأ مستوى للمياه طيلة أيام السنة على عمق ٥ر٢ـ٣ قامة Fathom (بالبرتغالية braços)، لذا فإنه بإمكان جميع السفن و الزوارق مهما كان كبرها السير فيه، و تستغرق الرحلة من مدينة بيره جيك إلى البصرة عشرين يوماً حتى عندما تكون مياه هذا النهر في أوطأ مستواها باتجاه البصرة. و هو يلتوي من نهاية إلى أخرى لكن، و بالرغم من ذلك فإنّه واسع و من السهل تمييزه من بين القنوات الأخرى التي حفرت لأغراض الري.

و قد قال لي حاج فياض أيضاً بأنه خلال هذا الوقت قدم إلى البصرة رسولٌ من الرقيق escravo من التركي العظيم حاملاً رسالة إلى محمد باشا. وقد استغرق وصوله (٤٢) يوماً من القسطنطينية إلى البصرة. و قد أقسم حاج فياض القَسَم الذي أخذ منه في قرآنه، بأنه سيقول لي الحقيقة عن جميع هذه الأمور، و أنه سوف يرسل لي من هناك (البصرة) كل الأخبار التي قد يحصل عليها. و قد طلب مني أن أعطيه إشارات خاصة عن طريقها يمكن معرفة ما الذي يقصد الأتراك عمله في البصرة، و أنه سوف يبعث هذه المعلومات بواسطة أحد أولاده. إنّ الحاج فياض هذا و ابنه يزورون كل سنة حلب و الإسكندرية و مناطق أخرى كثيرة، لذا فإنهما بالتأكيد يعرفان أموراً كثيرةً عن

فرمانات التركي العظيم • وقال لي إنني ينبغي أن أثقَ بهذه المعلومات لأنه ينتسب إلى طائفة من الأتراك – كانوا أتباع عقيدة مخالفة – وانه صديق للاتراك لأنه كان تاجراً لا غير ويتاجر دائماً في هذه المناطق • وكان العربُ الآخرون الذين قطنوا البصرة كذلك أيضاً • وقد أكّد لي أيضا بأن محمد باشا أراد تكوين علاقة صداقة معي فقط وأن الأتراك ينتظرون بأمل وقت وصولي إلى هذه القلعة (هرمز) التي سوف أمكث بها ثلاث سنين • وقد التمسَ مني أن أبقيَ على جميع هذه الأمور التي قالها لي سرّيةً إلى درجة كبيرة •

وقد أمر محمد باشا ، بيلربي البصرة ، وذلك خلال فترة لويس فالكاو Falcao بالاستيلاء على موضع يُدْعَىٰ الإحساء (بالبرتغالية Laçaa) – ويقع على ساحل الجزيرة العربية ، ليس بعيدا عن البصرة – وتسليمه الى عربي وجعله حاكما عليه (بالبرتغالية rey) •

وسألت حاج فياض هذا عدةَ مرات أن أُرسِلَ ممثلاً عني Feitor إلى البصرة وكان هذا الأمر الرئيس الذي كان محمد باشا قد طلبه مني ، وهو أيضا الأمر الوحيد الذي كان يرغب به كثيراً • ويرجع السبب إلى أنّ الـ Cafillas والتجار لا يريدون الذهاب إلى البصرة حتى يروا ممثلاً عني هناك • وقد استدعيتُ الأشخاص البارزين جداً في مدينة (هرمز) وكانوا حوالي ٢٨ أو ٣٠ شخصاً لأستشيرهم كي أعمل العمل الأفضل خدمةً للملك ، مولانا • ورَجَوْتُهم عن طريق الـ ourvydor – المستشار – أنْ يُقْسِمُوا بالكتاب المقدس Holy Gospels عمّا إذا كان في مصلحة أو منفعة خدمة الملك مولانا ، أن يذهبَ هذا الممثلُ إلى البصرة ، وكذلك أنْ يذهبَ عددٌ من الطرادات التي كانت في هرمز • قرروا الأصلحَ أنْ يكونَ هناك شخصٌ ثقةٌ في البصرة ، شخص يستطيع أن يبعث لي الأخبار وجميع ما يُحْتاجُ إليه ، كذلك نصحوا بأن يُسْمَحَ للطرادات أن تذهب إلى البصرة ويبدو لي أنه من النافع ، خدمةً للملكِ ، أن يكونَ ذلك • عندئذٍ لا يتمكنُ الأتراكُ اتخاذَ أيِّ قرارٍ دون أن أعلم به • فضلاً عن هذا فإنّه سيكون بالإمكان الحصول على أخبارِ ما يحدث في السويس والمناطق الأخرى لأنّ البصرة مقصد التجار من شتىٰ الأنحاء وفي الأغلب من القاهرةِ ودمشقَ وبيرة جك وحلب ، لذلك فإنّه لابدّ من وجود وسائل للتعرف على ما يقوم به

الأتراك وما ينوون عمله . بالإضافة إلى هذا فإنّ العرب المقيمين في البصرة سيزودونـــي بأخبارٍ عن هذهِ القضايا لأنهم أعداء للأتراك .

سأبعثُ إلى البصرة المدعو دومينجوس باربود و Domingos Barbudo ، حاملاً معه رسالةً مني إلى محمد باشا ردّاً على رسالته التي أرسلها لي. إنّ رسالتـــي لم تكن للاتّفاقِ على أي شيء، ولكنها كُتِبَتْ بكلماتٍ منمقةٍ (إلى الباشا) ، وإنّني ســـوف أقف وسيفي مسحوبٌ في يدي لما سيكتبه لي بالنسبة للبصرة (ذاتها) ، وكلما كتب لي كثيراً من الكلمات سأكونُ أكثرَ جديةً ومثابرةً، وبذلك أكون أكثرَ تيقظاً بالنسبةِ لهم . إنّ دومينجوس باربود و هذا رجلٌ من هرمز وذو سمعةٍ جيدة ، وهو شخص ذو معرفةٍ واسعةٍ واجتماعي ومعروف جداً بين العرب والتجار في البصرة ، وله خبرةٌ كبيرةٌ في تلك البلاد . إنني باعثٌ إياه لمدةٍ لا تزيد على ثلاثة أشهر على الرغم من أن هؤلاء الأشخاص يعتقدون بوجوب مكوثه في البصرة ، لأنـــه سوف يرى خلال هذه الفترة جميع شؤون البصرة ويعلمُ الأخبار من التجار الآتين من الإسكندريةِ والمناطقِ الأخرى ، كما أنه سيكون باستطاعته المجيء إلى هرمز مرةً ثانيةً في بداية تشريـــن الثاني ، وبذلك سيكون ملائماً ، لجلالتكم ، فيما يتعلق بأمرِ شؤون البصرة .

واعتماداً على ما قاله شيخُ هذه البلاد فإنّه يأتي من البصرة في أكثر السنوات من ٦٠٠ـ٨٠٠ فرس ويَدْفَعُ عليها التجار في جوا Goa الضريبة التي يعرفها جلالتكـــم . أما عن التوابل التي وردت هذه السنة من الهند فكانت قليلةً جداً ، وإنه لَمِنَ المؤسفِ مشاهدةُ أحوالهم لأنني لم أسمع عن أي تاجر اشترى حتى حفنةً من التوابل ، غيرَ أنّهُ عند مـــا قدم تجارُ البصرة فإنهم حينذاك استطاعوا شراء كميةٍ جيدةٍ من التوابل . والحقيقةُ إنّـــه لا يوجـد أيّ طريق آخر لجلب التوابل عدا ذلك الذي يمر عبر البصرة ، وإنّ جميع رعايـــا شاه Xeque إسماعيل ليشتروا حتى ١٠ عشرة كانديز candis ـ وهو وزن ـ من التوابل .

وقد طلب حاج فياض مني أن أكتب لجلالتكم فيما يتعلق بثلاثةٍ من أولادِ أخيـــه الذين هم الآن في جوا ، أحدهم يُدْعَىٰ جابر Jaber equirami والثاني (ربمـــا شاكر؟) Xaaacoar والثالث عباس abax royal وقد ذهب هـــؤلاء

الثلاثة من هرمز على سفينة من Cambay لـ أو Cambaya – وهي دولة تابعة لكجرات – إلى هنـــاك ويبدو لي أنها السفينة التي أسرها أنطونيو ميز Antonio Moiz . وفوق هذا فإن حاج فياض مستعدّ تماماً لخدمة الملكِ ، جلالتكم ، وهو يستحق كلّ جميلٍ يمنحه عليه جلالتكم، وذلك لأنه إذا ما أراد فإنّ باستطاعته التعرف على جميع الأخبار عن التركـــي العظيم ونواياه .

إنّ أمير قلهات Guazil (بالبرتغالية Callayate) وشيخ ربيـــعة Xeque rabia وممثل قلهات كتبـوا لي وزودونـي بالأخبار عن مضيق مخا . وقالوا إنـــه قد أتى شخص يُدعَى شيخ عبد الله وطراداتاً أخرى من عدن إلى قلهات . وقالوا أيضاً إنّه قد أتى من ميناء السويس قائد Capitao وبرفقته (٢٠) سفينة من نوع Galley وسفينتين كبيرتين عليهما ٣٠٠٠ تركي إلى ميناء مخا . وقد أعْطَى الأتراكُ أوامرهـــم بالاستيلاء على جميع البلاد وكانت حينذاك في حيـازة الإمام الزيدي الذي كان حاكماً (بالبرتغالية rey) لهذه المناطق من الجزيرة العربية . وكان ابن الإمام الزيدي قد قاد جنود والده قبل مجيء الأتراك الروميين rumes . وكان هذا الابنُ على خلافٍ مع الإمام، ولم يبـــالِ عمّا إذا كان بإمكان والده أنّ يحاربَ الأتراك أم لا . فعندما وصل الأتراك هاجموا قلعـــةَ تعز toes وأسروها ، بالإضافة إلى ذلك فإنهم استحوذوا على خمسةِ موانئ أخرى بعـــد أنْ هاجموها بخدعـة . وعلى أيـةِ حال فإنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على قلعة صنعـــاء (بالبرتغالية Canaa) ، وعندما رأى الابن ضياع البلاد دخلَ في علاقات وديـــةٍ مع والده – على الرغم من عدم اتفاقه معه – ثم هيّأ في إحدى الليالي جميع جنوده وانقـــض على الأتراك قاتلاً (٤٠٠) من فرسانهم . ويقول (شيخ عبد الله) أيضا إنه قد أتى إلى مسقط وقلهات موسمَ الرياحِ الموسميـةِ الأولَ الذي يستغرق ثلاثة شهور ، عشرةُ أو اثنا عشر فستاساً تركياً Fustas مثلما وقع في السنة الماضية . وإنّه لمن المؤكد بأن هناك بالفعل في عـــدن ثلاثةَ فستاسَ مجهزةً تجهيزاً جيداً ، وأكثرَ منهـا سيردُ من ميناء مخا ، وبأنها دون شـك ، كما يذكر شيخ عبد الله ، ستأتي . إنّ كثيراً من أصدقائه قالوا له بأنّهم متأكدون من ورودِ هذه السفن في هذه السنة . وقد نصحوه بأن ينقل مقرّه إلى خارج قلهات . إنّ ما ورد في السنـة

السابقة لا يتجاوزُ الأُربعة فستاس لكن لم يبقَ أحدٌ من البرتغاليين في قلهات، فقد غادروا جميعــاً في السنةِ السابقةِ إلى مسقط، وقد طردَ أُمير قلهات Guazil بمساعدة الملــكِ مليكِنا ،تلك السفن من الميناء، ولم يَسْمَحْ لها التزوّدَ بالماء. أما الآن فإنّه في حالــةِ مجيء هذه العشر أو الاثنتي عشرة سفينةً محملةً بجنود كثيرينَ، يُصبح من الضروري علــى البرتغاليين والمسلمين Mouros على السواء أنْ يساعدوا أُمير قلهات بالطريقة التــي تُمَكِّنُهُ من مقاومة الترك. إنَّ هؤلاءِ الأتراكَ سيصلون بعد قرٍ لا تزيدُ عن شهرين ونصف.

لقد وصلتْ مدينةَ هرمزَ في نهايةِ شهرِ حزيرانَ سفينةٌ آتيةٌ من مخا عليها تاجرٌ يقطنُ هرمزَ وهو من أهالي هذا المكان، فقال لي إنه قد جاء عبر مخا، فكان هناك سبعُ أو ثماني سفنٍ مسلحةٍ راسيةٍ في مخا لمدة ثلاثة أيام. ولم يسمحوا له مغادرة الأبواب، لذلك صَعُــبَ عليه تحذير الفستاس الذي أُرْسِلَ من قِبَلِ جلالتكم إلى مضيق (مخا)، وذكر أنَّ تلــك السفنَ التركية كانت مُتَأَهِّبَــةً، معتقدةً أنَّ الفستاس قد يدخل الميناء. وقد بدى له بــأنَّ ثمانيةَ السفن التركية التي قدمت قلهات ومسقط في السنةِ الماضيةِ كانت راسيةً حينئذ هناك.

وأعتقد أن هذه المعلومات قد تكونُ صحيحةً. فقد أمرت بتهيئة (٩) تسعــة الفستاس والكاتورس Catures الموجودة هنا (في هرمز). وسوف تغادرُ هذه السفنُ إلــى مسقطَ في نهاية هذا الشهر، تموز، وذلك لترسو هناك منتظرةً الفستاس التركيــة عندما تأتي في آب أو بدايــة أيلول. وسأكتب إلى شيخ ربيعة وأمير Guazil قلهات آمراً إيّاهما بأن يعدا أفضلَ ما لديهما من Terraquis - نوع من السفــن - وال Terraquis، سفن بإمكانها أن تسع لـ (١٠) أو (١٢) برتغاليا، وإذا ما صارت الحاجةُ ماسةً إلى البقيةِ فبالإمكان وضع العرب النشابين فيها. وبناء على ما قاله لــي بعض الأشخاص الذين كانوا على السفن القادمة من تلك الأجزاء بعد مروري بذلك الطريق أنّه قد ورَدَ مسقط ٤٠ أو ٥٠ جندياً برتغالياً، ويعد هذا إمداداً ممتازاً إذ باستطاعتهم الذهاب على متن السفن أينما كانت الحاجةُ ماسةً إليهم، ليحاربوا بعون الرب، السفــن

التركيةَ إذا ما قدمت مسقطَ . وإنّ الله بالتأكيد سيمنحنا النصرَ التامَ على السفن التركية.

ويبدو لي أنه في صالحِ خدمةِ جلالتكم وسيادتكم إرسال هذه السفن إلى البحر حيث أن السفن التي أبحرت من هرمز إلى الهند يَحْمِلُ كلٌّ منها برتغاليَّين أو ثلاثةً مع كثيرٍ من الأموال، فإذا ما أفلح هؤلاء الأتراك في نهبِ مسقط والعثورِ على السفن التي تحمل الكثيرَ من الزيرافينس Xerafins والطمغة tamgas (عملة) واختطافها والفرار بها إلى مضيق (مخا)، فستكون باعث إغراء لهم لأن يقدموا ضدَّ مسقطَ كلَّ سنة.

وقد اعتقد دوم بيو Dom Payo أنه من الأفضل له أن يمكث في هرمز وطلب مني أن أقلده قيادة الأسطول إذ يبدو له بأنه عن هذا الطريق يستطيع أنْ يخدم الملكَ خدمةً ملائمة . وقد سلمته الأسطول وهو ذاهب مع قائد الأسطول Capitao mor وإن البحارة والجنود الذين كانوا على متن السفينة سيعملون كرجال شرفاء يعتمد عليهم.

سوف أرسل في بداية آب إلى رأس الحد Ras Al-Hadd (Cabo do rroçalgate) اثنين من السفن من نوع Catures تلك المزودة بالمدافع . مع أوامر لها بأنْ تقفَ وتراقبَ وتكتشف السفن التركية القادمة من مضيق (مخا)، وإذا ما اكتشفت هذه الكاتوس السفن - التركية - عندئذ تُخْطِرُ الأُسطول المُنْتَظِرَ في مسقط.

وفي حالة عدم مجيء هذه السفن إلى مضيق (مخا)، فإن هناك الكثير الذي يمكن عمله ضد العدو noutaques (النواخذة) وهؤلاء النواخذة أناس مُغَفَّلُون، إذ إنه قد تحطمت سفينةٌ برتغاليةٌ كبيرةٌ كان على متنها Amdre Cortes ومحملةً بكثير من التجارات الفاخرة، على الساحل الرملي بينما كانت في طريقها قادمة من جزيرة مصيرة Maceira فأخذ النواخذة البضائع وقتلوا البرتغاليين الذين كانوا على سطحها ولم يتركوا أحداً ما عدا أمدرية كورتس وزوجته وإحدى بناته إذ أفلحوا في الهرب. وفَقَدَ

أمدرية كورتس جميع ممتلكاته لكنّه بسبب مقاومته الجيدة استطاع أن يُفْلِتَ من قبضتهم، على الرغم من أنه كان مجروحاً بثمان سهامٍ كبيرةٍ ولم يستطع الوصول إلى ال Parao التابعة له فَحُمِلَ إلى هناك. فضلاً عن هذا فإن النواخذة هاجموا طراداً مُسْلِماً وجرحوا عدداً من الأشخاص الذين كانوا على متنه لمقاومتهم الهجوم. لهذا السبب وللحوادث الأخرى يرسل البرتغاليون كل سنة أسطولهم، ويبحَثون من البرّ لغزو ولنهب ساحل النواخذة، وحرق أكبر عددٍ من طراداتهم. وسيحرس هذا الأسطول كلّ سنة سفن التجار فيخدم جلالتكم بغرضين: أن يسير ضد فستاس الأتراك، وأيضا أن يُحْرِجَهُمْ كما كان يفعل في السنوات الماضية.

سوف أكتب لسيادتكم رسائل أخرى عن هذه البلاد. أُقبّل أيادي سيادتكم متمنياً الرخاء لحياة مولانا الملك وازدهار أحواله. من هرمز في ٢٣ حزيران سنة ١٥٤٧.

دوم مانويل دي ليما Lyma

ملحق رقـــم ٢ (٥)

رسـالة الرئيس نور الدين (حاكم الهند) التي حملها
فيرنا وفارتـــو Fernao Forto إلى جـَوا

هرمز ـ ٣٠ أكتوبر ١٥٥٢.

ســينو

تسلمت من فيرنا وفارتو رسالةَ سيادتكم التي وردت في وقت مناسب جــــداً
وقد بينتْ دون أدنى شكٍ إهتمام سيادتكم بهذه البلاد ولخدمة سيدنا الملك. لأنّ هذه
البلاد كانت قد تخرّبت كثيراً ففقدتْ كلّ شيء. وعلى أية حال فإننا نعتقد بأن سيادتكم
سوف (يرسل إمداداً) يكفي لسد الاحتياجات الضرورية بما ينسجم والمعلومات التي لدينا
في الوقت الحاضر (ومفادها) أنّ سيادتكم على استعداد لأن يرسل أُسطولاً كبيراً إلـــى
هذه البلاد عندما تشتد الحاجة إليه. وثقْ رجاءً بأنّنا نشعر فعلاً أنّنا بعيدين عن جميـــع
المصاعب التي نتوقعها ويرجع ذلك فقط لأن سيادتكم تُفَكِّرُ بنا.

لقد كتبت لسيادتكم عن طريق روى لوبيز Ruy Lopes كيف حُوصِرْنَـا
من قِبَلِ الأتراك براً وبحراً، وقد وضع هؤلاء الأتراك أثناء ذلك الحصار ست قطع مـــن
المدافع الثقيلة (أعني) اربع مدافع من نوع basalisks وواحد من نوع espalhafato
ومدفع آخر من نوع Salvage بالإضافة إلى عددٍ من القطع الصغيرة منصوبة على سطـوح
بعض المباني العائدة للملك. وقد ألقى الأتراك القنابلَ على الحصن لمدة أُحَدَ عشـــرَ
يوماً، غير أنّهم لم يسببوا إلاّ أضراراً قليلةً لمتانـــةِ الحصنِ وقوّتهِ. لقد دَمَّرَ الأتراك أحـــد
مدافعنـا من نوع Camello de Ferro.

ودمّرنا بضربـــةٍ واحدةٍ من داخل الحصن مدفعاًلهم من نوع espalhafato
وقد أدّى ذلك إلى قتل أربعةِ برتغاليين وجرح ما بين (١٠) إلى (١٢). وحسبمـــا

ظهرَ بعدَ رحيلهم أنهم قد تكبدوا أضراراً كبيرة من ضربات مدافعنا الموجهة ضدَّ الأَكْفِيَةِ التي كانت تَقِيهم أثناء هجومهم وحصارهم لنا .

وفي الليلة الأخيرة عندما فكَّ الأتراك الحصارَ وجمعوا مدافعهم ، جاءوا بِمِدْفَعِيِّ برتغاليٍّ ، كانوا قد أسروه في حصن مسقط ، إلى الأسوار ، وذلك لكي يتحدث مع الرجال الذين على سور الحصن طالباً منهم أن يقوموا بإنقاذه ، والأسرى الآخرين ، ولم نكن نعرف شيئاً حتى تلك الفترة ، علما بأن رجالنا،في مناسبات كثيرةٍ في أثناء الليل،كانوا يصرخون في المرتدين (الموجودين في المعسكر التركي) طالبين منهم أنْ يأتوا ليتحدثوا مع الجنود الواقفين على السور غير أن المرتدين لم يستجيبوا إلى هذا الطلب . وقد ترك الأتراك في اليم الذي غادروا فيه اثنين من المسيحيين ،أحدهم روسيُّ الأصل والآخر إيطالي . وعن طريق هذين الرجلين علمنا كل ما حدث في مسقط ،وأن محمد بك ابن بيرى بك Barba Negra الذي كان قائداً أعلى للأسطول العثماني قد هاجم القلعة لمدة ستة أيامٍ،وبعد ذلك وصل والده بيرى برفقة ثلاثين سفينة من نوع Galley ، وبدأ (محمد بك) قصفه للقلعة بالمدافع من ست سفن من نوع Galley . وفي اليم التالي لوصول بيرى بك أعلن جواو دى لزبو Jaoo de Lisboa وجميع البرتغاليين استسلامهم بشرطِ أنْ يُسْمَحَ لهم بالمغادرةِ إلى هذه القلعة (هرمز) آمنين . غير أن بيرى بك دبر الأمر بمهارةٍ وذلك بأنْ وضعهم في سفينة للعبيد من نوع Galley وشدَّهم إلى مقاعدهم بسلاسل حديدية وعَرَّضَهم للضرب بالسياط . إنّ شخصاً كجواو دى لزبوا الذي أظهر ضعفاً كهذا يستحق العقاب . ولم يسأل القائد الأعلى للأسطول الثانى أبداً أمر افتدائهم ،حتى أنه في عدد من المرات عُرِضَت عروضٌ تتعلق بالنساء فقط لكنّ هؤلاءِ الكلابَ الكفرةَ أخذوا القضية بطريقةٍ بدتْ نتائجُها غيرُ مثمرة إطلاقاً .

وبعد هذه الحادثة وصل بيرى بك صباح يم الإثنين ١٩ أيلول إلى هذه الجزيرة (هرمز) وبرفقته خمس وعشرون سفينةً من نوع Galley وواحدة من نوع غليون،وهي

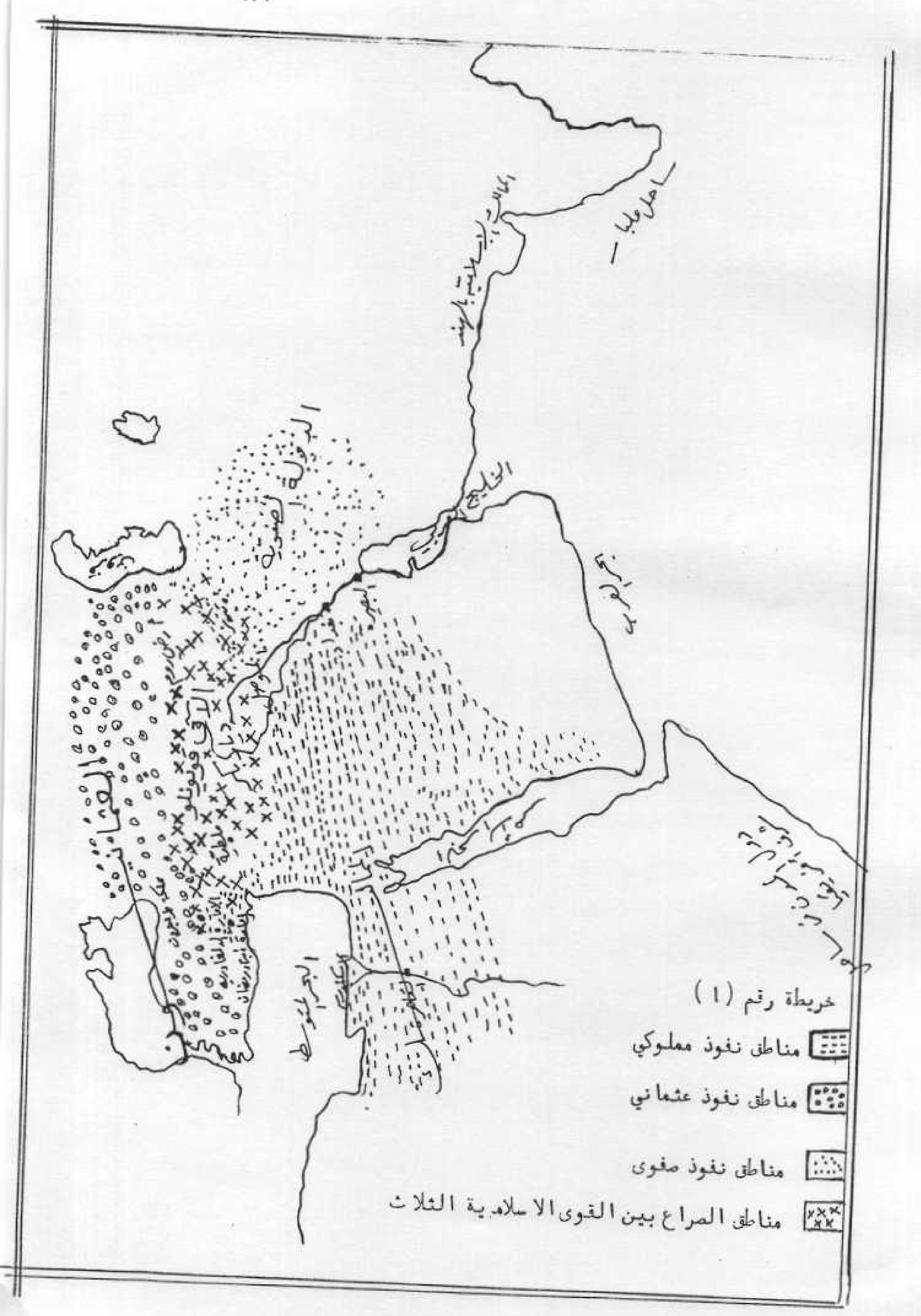
التى ارتحل بها من السويس، وغليون آخر كان قد جلبه مع اثنين من المدفع القديمة Quartao وعددٌ آخر كثير من البنادق و البارود، وقذائف المدافع و المؤن • وقد فقدت (هذه السفينة) في المياه الضحلة في عدن • وبعد أن بدأ باربا نيجرا Barba Negra رحلته إلى هذا المكان (هرمز) أخذ سفينتين برتغاليتين وأخذ ثالثة من نوع Catur في مسقط • وقد كتبت فعلاً إلى سيادتكم عمّا قامَ به هنا في هرمز • وعلاوةً على ذلك فإنه أسر سفينةً كبيرةً تعود لشخص يُدْعَى جواو نونيز Joad Nunez وهو رجل من Chaul • وقد سار الأتراك إلى جزيرة قشم (بالبرتغالية Queyxome) التي تبعد ثلاثة فراسخ من هنا • بعد أن مكثوا في هرمز مدة ستة عشر يوماً • وكان الأشخاص البارزون والتجار في مدينة هرمز • بيضائعهم الكثيرة من ذهب وفضة ونقد • يقطنون قشم • وقد سلب الأتراك جميع هذه الأشياء • ولم يفلت من أيديهم شيء •• وليكن أكيداً لدى جلالتكم بأنها كانت غنيمة دسمة جداً لا يتواجد مثيلها في العالم • قام بيرى بك بكل هذه الأمور مع سبعمائة مقاتل وألفين وخمسمائة بحار وملاح للسفن من نوع Galley، وهناك في هذا الحصن (هرمز) سبعمائة جندى قديرون جداً كأفضل ما يوجد من الجنود الحاملين للأسلحة والرماية arquebusiers •

ولو كانتْ معرفتُنا عن الأتراك أكثر مما هى لكان باستطاعتنا الاستيلاء على مدافعهم وَلَألحقنا بهم ضرراً كبيراً • فاعتمادا على ما قد وصل سمعنا أن التركيَّ العظيم (يعنى السلطان) قد أمر بيرى باك ألاَّ يَجِدّ بأخْـذِ هرمز قبل أن يذهب إلى البصرة ليأخذ / آخرين منهـا • غير أنه نتيجة لما وجده من ضعف في مسقط اعتقد بأن الحالة في هرمز ستكون متشابهة • ولذلك فإنه استطاع بالبارود الذي جلبه من مسقط أن يخضعنا لقصفِ المدافع •

وقد وردت الانباء من لارا Lara وشيراز بأن الشاه طهماسب قد زحف داخل أراضى السلطان العثماني عبر حدود تبريز • ولم أسمع بعد ذلك أكثر من ذلك عن هذا الموضوع • وحالما تصلُ أخبار جديدة فإننى سوف أكتب لسيادتكم (وأرسل الرسالة) بالسفن المغادرة لتلك الناحية •

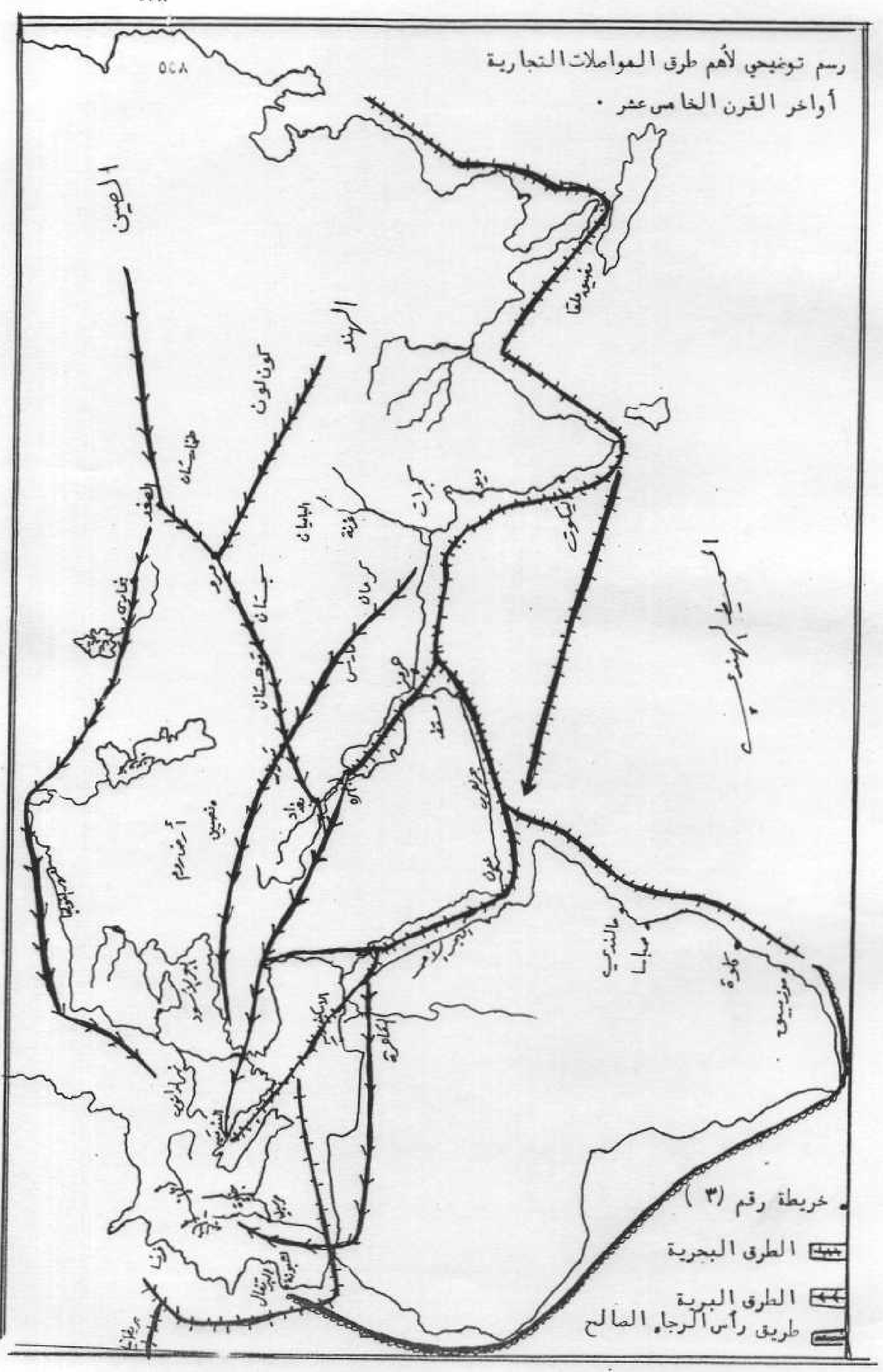
لقد أرسلت سفينة من نوع teraquim إلى جزيرة قشم لجمع الأخبار بشأن نوايا الأتراك . وبينما أكتب إلى سيادتكم اليوم ، الأحد بعد الظهر – ٣٠ تشرين الأول فقد علمنا من سفينة teraquim قادمة بأن جميع الأسطول التركي قد تَجَمَّعَ في هذا اليوم في مكانٍ من جزيرة قشم ثم ارتحل من ذلك الموضع حيث كانوا مرابطين به طيلة الفترة التي أعقبت مغادرتهم هذا المكان (هرمز) . وقد ساروا باتجاه البصرة ، في هذه الليلة ، وثق بالله بأن هذا جميعاً سيجلبُ الدمارَ لهؤلاء الناس ، وذلك لمجيء جلالتكم إلى هذه البلاد وذهابكم باتجاه البصرة ، وبهذا فإن بيرى بك سوف لا يُفْلِت من الشَرَك ، إن الرسالةَ التي بعثتها سيادتكم لي والموجهة إلى مراد رئيس (حاكم البحرين) قد حولتها إليه على الفور وكتبت إليه أن يستجمع قوته في حالة مجيء الأتراك للاستحواذ على (البحرين) ، وبذلك يمكنه الدفاع عن نفسه والتي قد تكون خدمة لمولانا . أطالَ الله في عمرك وأعمالك لسنين كثيرة . (كُتِبَتْ من هرمز في يوم ٣٠ تشرين الأول ١٥٥٢ .

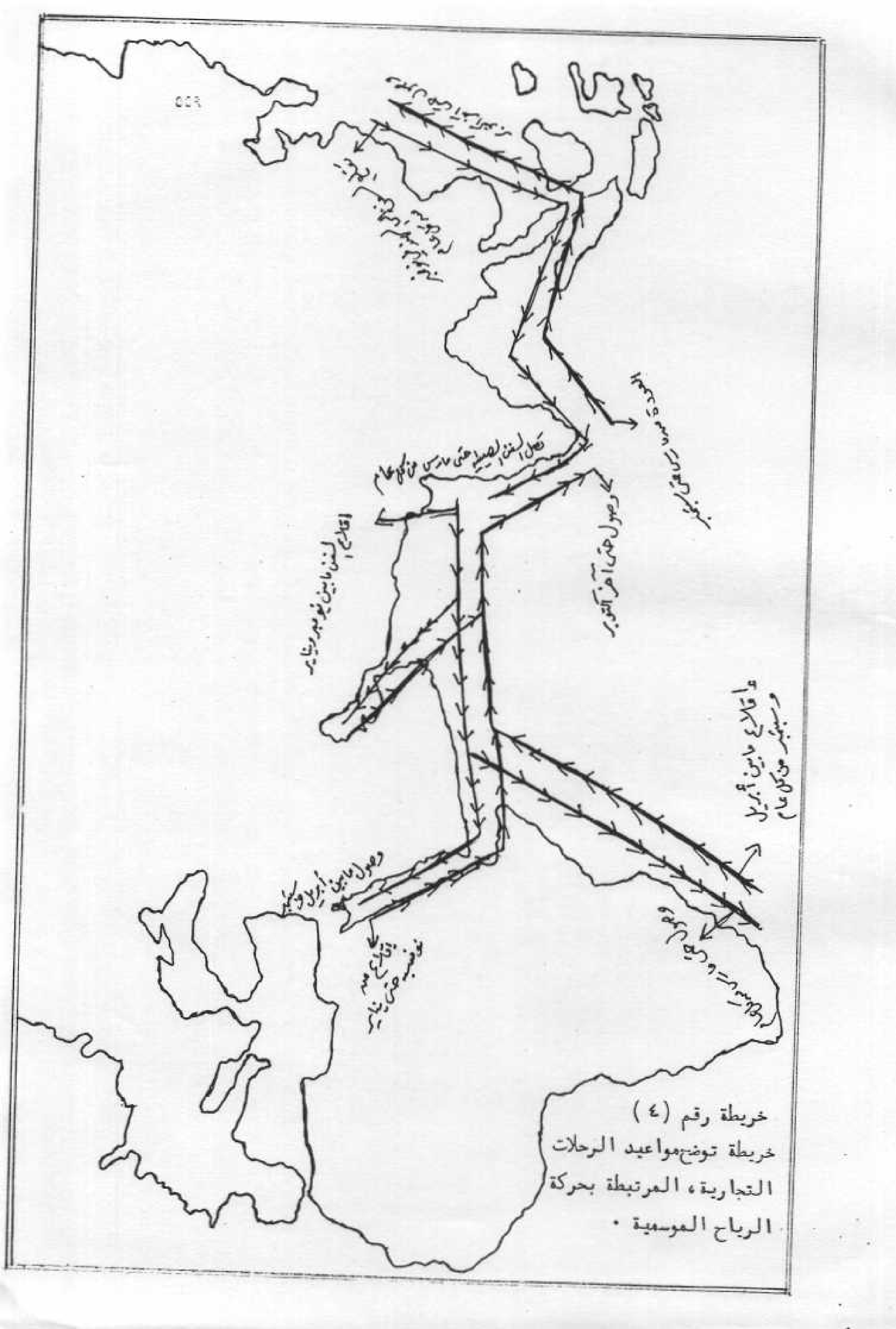
(الرئيس نور الدين أمير البحرين) .


خريطة رقم (١)
مناطق نفوذ مملوكي
مناطق نفوذ عثماني
مناطق نفوذ صفوى
مناطق الصراع بين القوى الاسلامية الثلاث

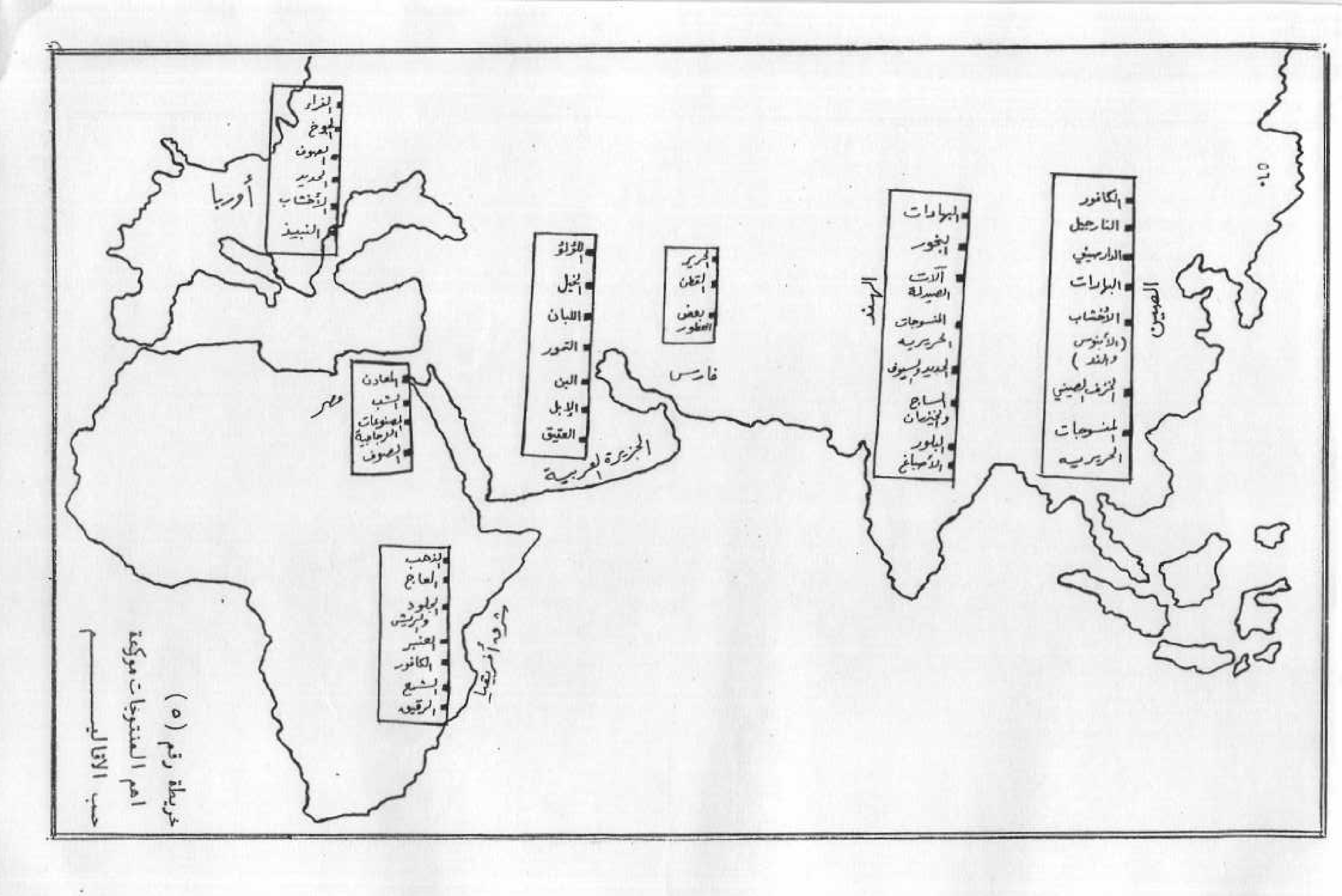
خريطة رقم (٢)

رسم توضيحي لاهم الدويلات الاسلامية شبه المستقلة


٥٥٨
رسم توضيحي لأهم طرق المواصلات التجارية
أواخر القرن الخامس عشر .
خريطة رقم (٣)
الطرق البحرية
الطرق البرية
طريق رأس الرجاء الصالح



خريطة رقم (٤)
خريطة توضح مواعيد الرحلات التجارية، المرتبطة بحركة الرياح الموسمية .

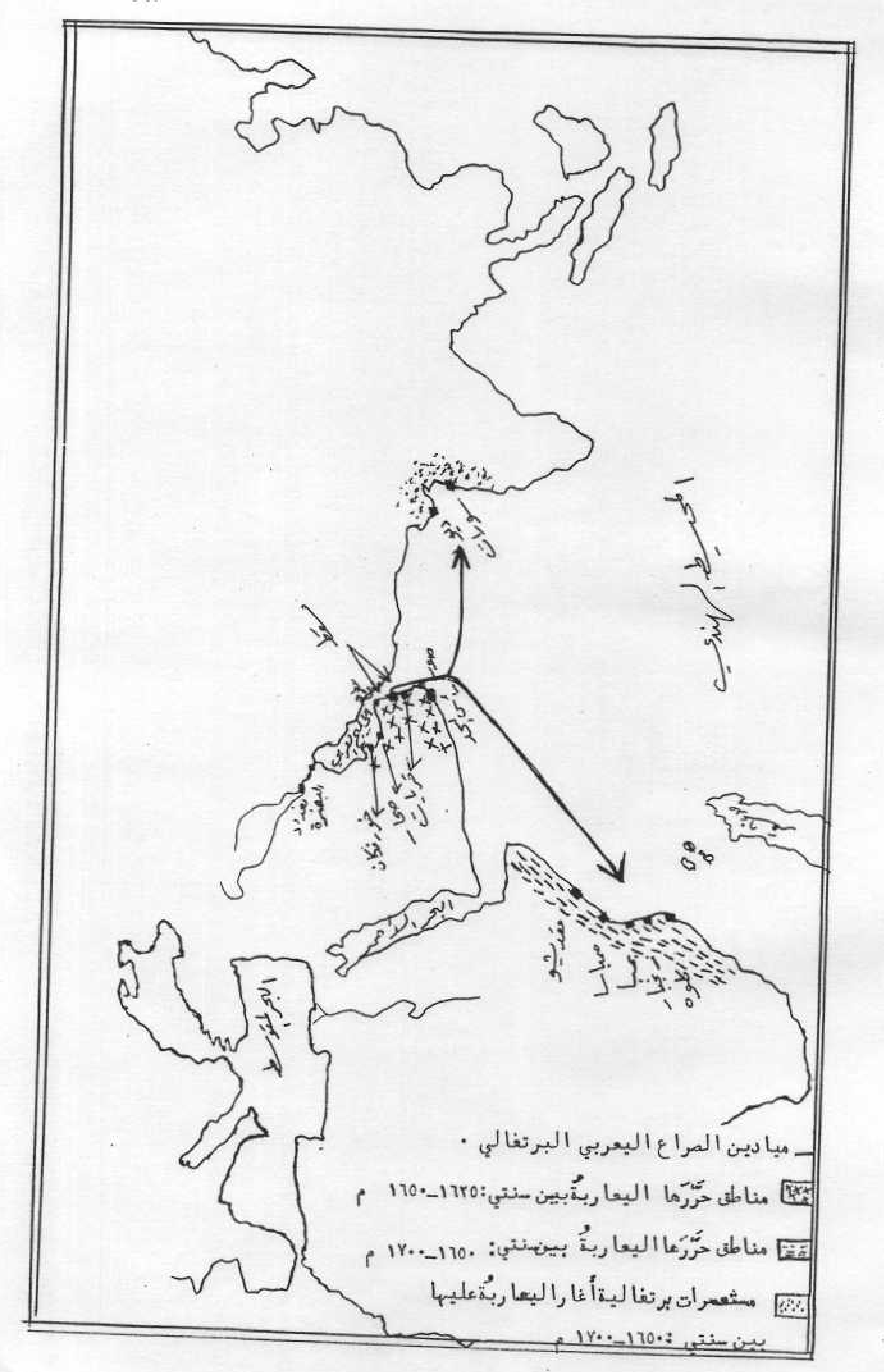


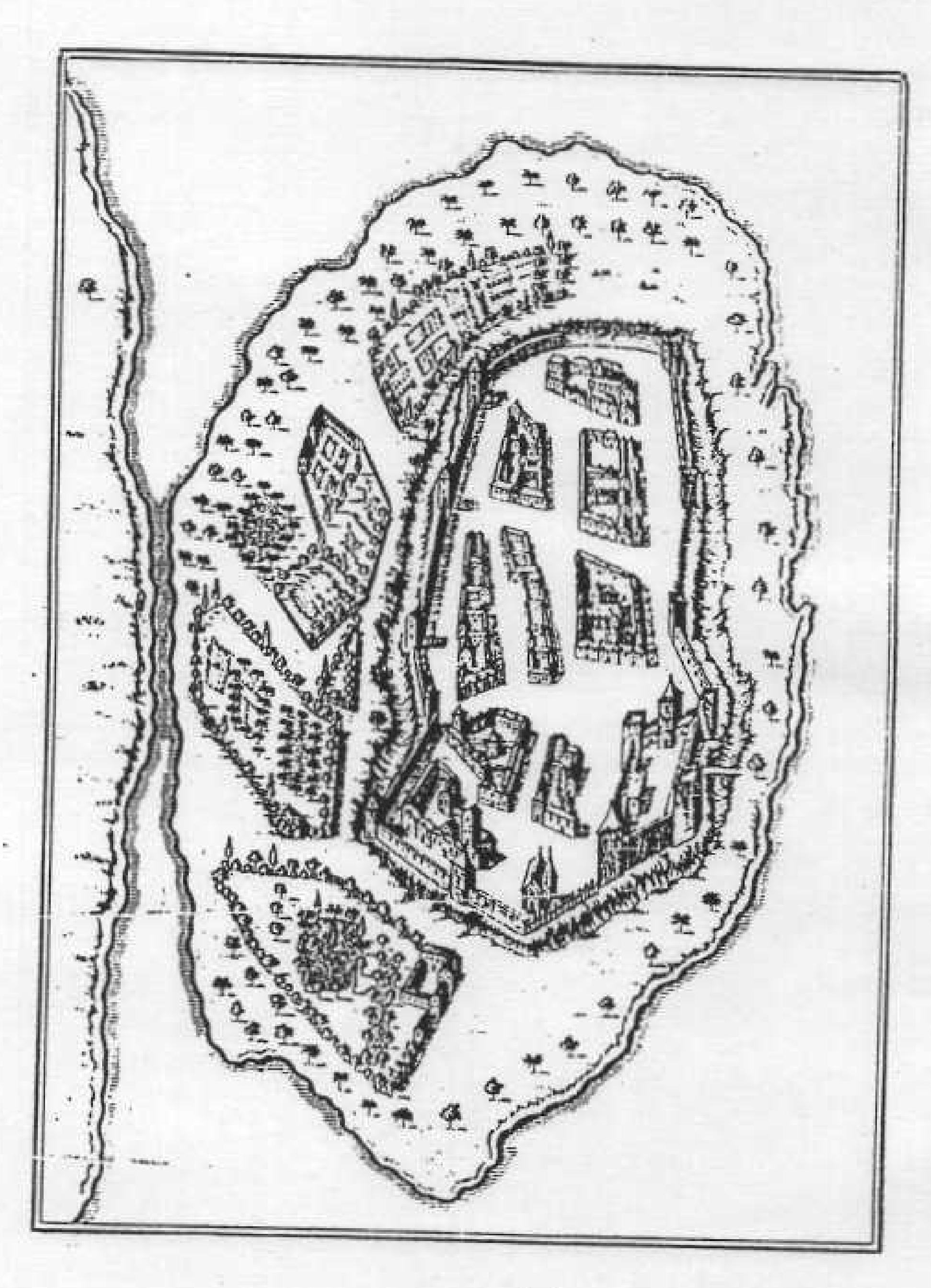
خريطة رقم (٥)
اهم المنتوجات موزعة
حسب الاقاليـــــم



خريطة رقم (٦)

■ أهم المراكز التجارية


المحيط الهندي
البحر الأحمر
ممباسا
ـ ميادين الصراع اليعربي البرتغالي .
مناطق حررها اليعاربة بين سنتي: ١٦٢٥ـ١٦٥٠ م
مناطق حررها اليعاربة بين سنتي: ١٦٥٠ـ١٧٠٠ م
مستعمرات برتغالية أغار اليعاربة عليها
بين سنتي: ١٦٥٠ـ١٧٠٠ م

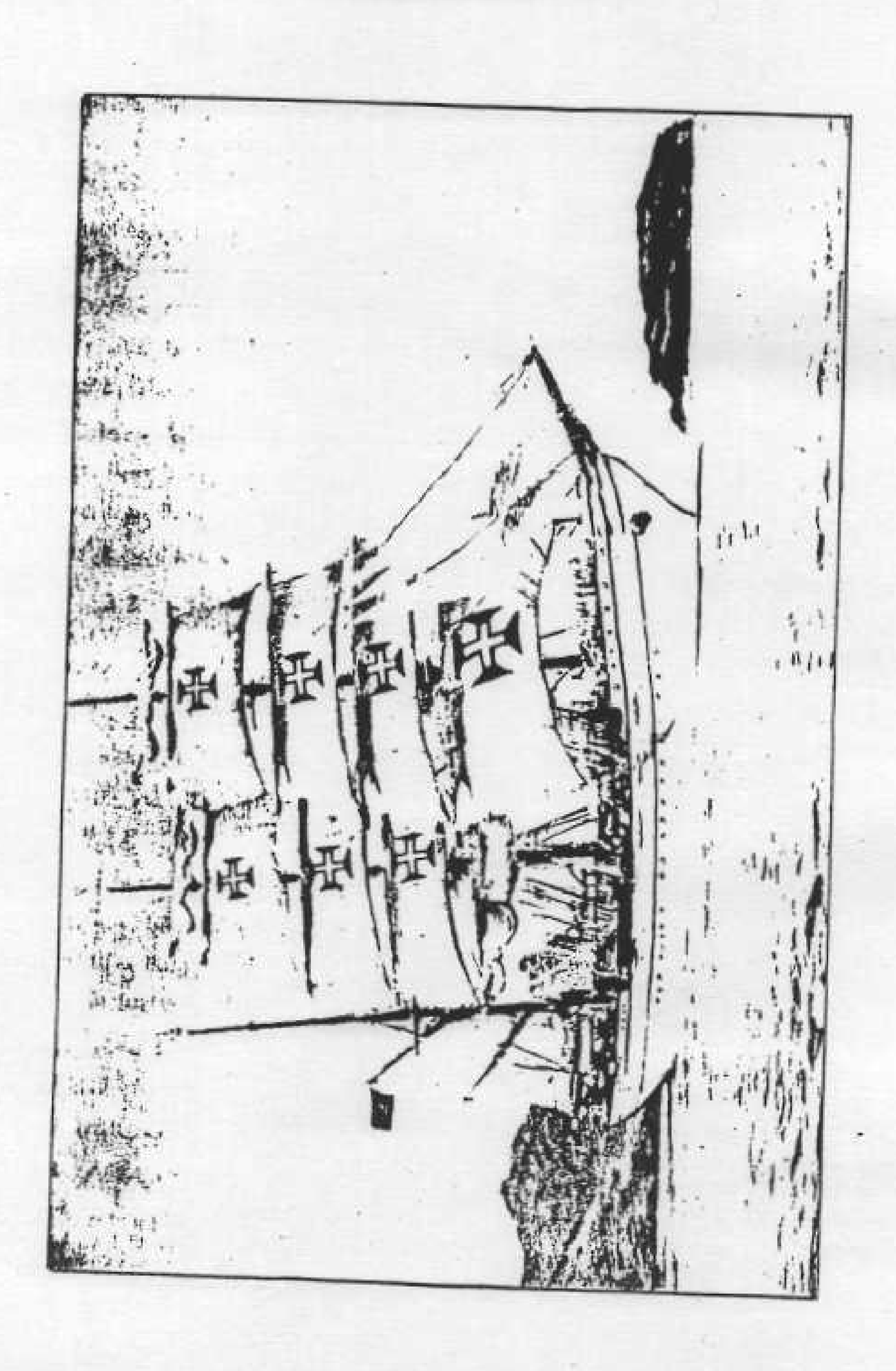


رسم توضيحي
لاحدى الحصون البرتغالية في شرق افريقيا

نموذج

لاحدى سفن الاساطيل البرتغالية

في القرن السادس عشر



ثبت المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربيـــــة

١- المصادر العربية المخطوطة :

- ابناء الزمن في تاريخ اليمن ، الصنعاني : يحيى بن الحسين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ . وقد حقق الجزء الأول منه الدكتور محمد ماضي . برلين ١٩٣٦م

- انباء الغمر بابناء العمر ، ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٣هـ ١٤٤٩م) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٧٦ تاريخ

- روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتوح . ابن المطهر : عيسى بن لطف الله (ت١٠٤٨هـ - ١٦٣٨م) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١١ تاريخ

- السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر . الشبلي اليمني : جمال الدين محمد بن أبي بكر الحسيني (ت ١٠٩٣هـ - ١٦٨٢م) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٣٢ تاريخ تيمور .

- الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية ، ابن داعر : عبدالله بن صلاح الدين بن داود ابن علي (ت ١٠٠٧هـ - ١٥٩٩م) نسخة مصورة بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٤٢١ .

- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ابن الديبع : أبو عبدالله عبدالرحمن بن علي الشيباني الشافعي (ت ٩٤٤هـ - ١٥٣٧م) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٤ تاريخ

- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر بامخرمة : أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ - ١٥٤٠م) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٧ تاريخ .

- اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية الكبيسي : محمد بن اسماعيل بن محمد (ت١٠٢٨هـ - ١٦٢٨م) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٤ تاريخ تيمور

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الإدريسي : أبو عبدالله محمد الشريف السبتي (ت نحو ٥٤٨هـ - ١١٥٤م) مخطوط بمكتبة الإسكندرية تحت رقم ١٩٣ .

٢- المصادر العربية المطبوعـــة :

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم المقدسي : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر البشاري (ت٣٨٨هـ - ٩٩٧م) ليدن ١٩٠٦م .

- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . النهرواني : قطب الدين محمد بن أحمد المكي (ت٩٨٨هـ - ١٥٨٠م) تحقيق بروك هوس ليبزج ١٨٥٧م .

- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤٣م) فاكس أفيا ١٨٩٠م .

- بدائع الزهور في وقائع الدهور ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي. تحقيق محمد مصطفى . ط ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤م .

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع . الشوكاني : محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ-١٨٣٤م) ٢ جـ القاهرة ١٣٤٨هـ

- البرق اليماني في الفتح العثماني . النهرواني : قطب الدين محمد بن أحمد المكي (ت ٩٨٨هـ - ١٥٧٩م) الرياض ١٩٦٧م

- بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد . ابن الديبع : ابو عبدالله عبدالرحمن بن علي الشيباني الشافعي (ت ٩٤٤هـ - ١٥٣٧م) تحقيق يوسف شلحر . دار العودة بيروت ١٩٨٢م .

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام . العرشي : حسين بن أحمد الزيدي (ت١٣٢٩هـ - ١٩١١م) تحقيق الكرملي ١٩٣٩م .

- تاريخ أهل عمان . مجهول . تحقيق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور . وزارة التراث القومي والثقافة . سلطنة عمان ١٩٨٠م .

- تاريخ ثغر عدن ، ٢ جـ بامخرمة ، أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ - ١٥٤٠م) ليدن ١٩٣٦م - ١٩٥٠م .

- تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة . الأزكوي : سرحان بن سعيد الأزكوي العماني . تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي . وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ١٩٨٠م .

- تاريخ اليعقوبي ، ٢جـ ، اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت٢٨٢هـ ٨٩٥م) نشر هوتسيما ١٨٨٣م .

- تاريخ اليمن ، عمارة اليمني : أبو محمد نجم الدين بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي (ت٥٦٩هـ - ١١٧٤م) تحقيق هنري كاي . ليدن ١٨٩٢م .

- تحفة الأعيان السالمي : عبدالله بن حميد

- التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية . النبهاني : محمد بن خليفة . القاهرة ١٣٤٢هـ

- تحفة المجاهدين في أحوال البرتكاليين . المليباري .: زين الدين المعبري (٩٨٥هـ - ١٥٧٩م) لشبونة ١٨٩٨م .

- تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد . ٢جـ . الأنصاري : محمد بن عبدالله بن عبدالقادر . الرياض ١٩٦٠م .

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ٢ جـ ، ابن بطوطة : أبو عبدالله محمد ابن عبدالله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م) القاهرة ١٩٣٨م

- التعريف بالمصطلح الشريف . ابن فضل الله العمري : شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن يحيى (ت ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) القاهرة ١٣١٢هـ.

- جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار . المغيري : سعيد بن علي ،تحقيق عبد المنعم عامر وزارة التراث القومي سلطنة عمان ١٩٧٩م .

- حقائق الأخبار عن دول البحار . ٢ج إسماعيل سرهنك ط ١٣١٤هـ

- حوليات دمشقية . مجهول

- رحلات ماركو بولو . ماركوبولو . ترجمة عبد العزيز جاويد ،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٩م .

- رحلة بن جبير ،ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني (ت ٦١٤هـ - ١٢١٧م) تحقيق حسين نصار القاهرة ١٩٥٥م .

- رحلة السيرافي ، السيرافي : بغداد ١٩٧٩م

- الروض المعطار في خبر الأقطار الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ - ١٣٢٦م) تحقيق الدكتور إحسان عباس ،بيروت ١٩٧٥م .

- سفرنامه . ناصر خسرو علوى تحقيق يحيى الخشاب القاهرة ١٩٤٥م

- سيرة الإمام ناصر بن مرشد ،ابن قيصر : عبد الله بن خلفان بن قيصر تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي . وزارة الثقافة والتراث القومي . سلطنة عمان ١٩٧٧م .

- الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان ،ابن زريق : حميد بن محمد بن زريق (ت ١٢٧٤هـ -) تحقيق عبد المنعم عامر وزارة التراث القومي . سلطنة عمان ١٩٧٨م

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م) القاهرة ١٩٦٣م .

- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص الشرجي : أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت ٨٩٣هـ - ١٤٨٨م) القاهرة ١٣٢١هـ

- ظفر الوالد بمظفور آله . الأصفر الغخاني : عبد الله حمد بن مكره .

- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني الصفاني : يحيى بن الحسين تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . القاهرة ١٩٦٨م .

- الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين . ابن زريق : حميد بن محمد بن زريق (ت ١٢٧٤هـ) تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد موسى القاهرة ١٩٧٧م .

- فتوح الحبشة . عرب فقيه الجيزاني : شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم ابن عثمان . تحقيق فهيم محمد شلتوت . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٤م .
- الفضل المزيد على بغية المستفيد . ابن الديبع : أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي الشيباني الشافعي (ت ٩٤٤هـ -١٥٣٧م) تحقيق يوسف شلحود دار العودة بيروت ١٩٨٢م .
- قوانين الدواوين، ابن مماتي : أبو المكارم الأسعد بن الخطير (ت٦٠٦هـ -١٢٠٩م) تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية القاهرة ١٩٤٣م
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ - ١٤٦٨م) تحقيق لويس راويس . باريس ١٨٩٤م
- كتاب صورة الأرض المعروف بكتاب المسالك والممالك . ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي . بيروت .
- كتاب المسالك والممالك، ابن خرداذبة : أبو القاسم . نشر دى جولي م ج ٦ ١٨٨٩م
- كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . الدمشقي : محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت٧٢٧هـ - ١٣٢٨م) ليبزج ١٩٢٣م
- مختصر تاريخ الإباضية . الباروني : سليمـــان
- مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الشافعي (ت ٣٤٦هـ - ٩٥٦م) تحقيق محمد محيي الدين بن عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨م .
- معجم البلدان ٠ ١٢ج. ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت٦٢٦هـ - ١٢٢٩م) القاهرة ١٩٠٦م
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ ج . ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م). القاهرة ١٩٣٠-١٩٧٢م
- النور السافر في أخبار القرن العاشر . العيدروسي : محيي الدين عبد القادر ابن عبد الله العلوي (ت ١٠٣٨هـ - ١٦٢٨م) بغداد ١٩٣٤م .
- وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية . جيان : ربان سفينة . ترجمه باختصار يوسف كمال القاهرة ١٩٤٧م .

٣- المراجع العربية والمعربة :

- أئمة اليمن . زبارة : محمد بن محمد بن يحيى الحسيني الصنعاني . تعز ١٣٧٢هـ

- أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر . فاروق عثمان أباظة ، الدكتور . دار المعارف القاهرة .

- الأحباش بين مأرب وأكسوم ، ممتاز العارف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٧٥م

- أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ستيفن هيمسلي . ترجمة جعفر الخياط ط ٦ ، مكتبة اليقظة العربية . بغداد ١٩٨٥م

- استعمار أفريقيا . زاهر رياض ، الدكتور ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

- الإسلام في شرق أفريقيا . سبنسر ترمنجهام . ترجمة وتعليق محمد عاطف النواوي ، القاهرة ١٩٧٣م .

- الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا . حسن أحمد محمود ، الدكتور . دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨٦م

- الإسلام والحبشة عبر التاريخ . فتحي غيث المهندس . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة

- الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا عبد الرحمن زكي ، الدكتور ، القاهرة ١٩٦٥م

- آسيا والسيطرة الغربية - بانيكار . ك . م . ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٦٢م

- أطلس التاريخ الأفريقي . كولين ماكيفيدي . ترجمة مختار السويفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٧م

- أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي . السيد رجب حراز . الدكتور . القاهرة ١٩٦٨م

- أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى . قاسم عبده قاسم . الدكتور . ط٢ ، دار المعارف ١٩٧٩م .

- البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه محمد عبد العال أحمد ، الدكتور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨٠م .

- البحرية في مصر سلاطين المماليك . ابراهيم حسن سعيد ، الدكتور ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م

- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية سعاد ماهر ، الدكتورة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٠م

- البرتغال في أفريقيا . جيمس دفي ، ترجمة جاد طه . القاهرة ١٩٦٣م

- البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي ، صالح أوزبران ، الدكتور ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي . البصرة ١٩٧٩م

- بلاد الهند في العصر الإسلامي ، عصام الدين الفقي ، الدكتور . عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٠م

- البندقية جمهورية أرستقراطية ، شارل ديل ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٧م

- بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، محمد عبد العال أحمد ، الدكتور . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠م

- بين الحبشة والعرب ، عبد المجيد عابدين الدكتور ، مصر ١٩٤٧م

- تاريخ الإسلام في بلاد الهند . عبد المنعم النمر ، الدكتور ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨١م

- تاريخ أفريقيا - جنوب الصحراء ، دونالد ويدنر . ترجمة الدكتور راشد البراوي مكتبة الوعي العربي - القاهرة .

- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام . القسم الثاني . أحمد مختار العبادي الدكتور . بيروت ١٩٧٢م

- تاريخ التجارة . جورج لوفران . ترجمة هاشم الحسيني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى . هايد . ف . ترجمة أحمد محمد رضا . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٥م

- تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية . محمد رفعت

- تاريخ الخليج . سير أرنولد . ويلسون ، ترجمة محمد أمين عبد الله . وزارة التراث القومي والثقافة . سلطنة عمان ١٩٨٥م .
- تاريخ الدول الإسلامية . أحمد السعيد سليمان .

- تاريخ الدولة العثمانية . علي حسون ، الدكتور ، ط ١ المكتب الإسلامي ، دمشق ١٩٨٠م
- تاريخ سواكن والبحر الأحمر . محمد صالح ضرار . الدار السودانية للكتب . الخرطوم ١٩٨١م .
- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية . إحسان حقي .
- تاريخ الصفويين وحضارتهم . بديع جمعة وأحمد الخولي ، الدكتوران . القاهرة
- تاريخ الصلات بين الهند والعرب والترك والفرس . محمد إسماعيل الندوي ، الدكتور ، ط ١ دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت .
- تاريخ غرب أفريقيا . فيج . جي . دى . ترجمة الدكتور السيد يوسف نصر . دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م
- تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها . شوقي الجمل . الدكتور . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٠م
- تجارة مصر في البحر الأحمر . منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، عطية القوصي . القاهرة .
- تقسيم الامبراطورية العمانية . سلطان القاسمي . الشيخ . الدكتور .
- التنافس الدولي في الخليج العربي (١٦٢٢-١٧٦٣م) مصطفى عقيل الخطيب المكتبة العصرية . بيروت ١٩٨١م
- الحركة الصليبية . جزءان . سعيد عبد الفتاح عاشور . الدكتور . القاهرة ١٩٦٣م
- الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المدّ الإسلامي عن أوروبا . محمد عبد اللطيف هريدى ، الدكتور . دار الصحوة للنشر ط ١ القاهرة ١٩٨٧م
- الخليج العربي . قدرى قلعجي . دار الكاتب ـ بيروت ١٩٦٥م
- الخليج العربي ـ دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول جمال زكريا قاسم ، الدكتور ، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٥م
- الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة محمد أرشيد العقيلي . ط ٢ ، دار الفكر اللبناني ١٩٨٨م .
- دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني . ليلى عبد اللطيف أحمد ، الدكتورة . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٨٠م
- الدولة الصفوية . تاريخها السياسي والاجتماعي ـ علاقاتها بالعثمانيين . أحمد الخولي ، الدكتور . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨١م .
- الدولة العثمانية ـ دولة إسلامية مفترى عليها ، ٤ ج ، عبد العزيز الشناوي ، الدكتور ، القاهرة .
- الدولة العثمانية في البلاد العربية . ساطع الحصري .

- الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤ م) محمد أنيس . الدكتور، مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٨٥م
- دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا . في الفترة من ١٦٢٤م - ١٧٤١ م، عائشة السيار الدكتورة - دار القدس - بيروت ١٩٧٥م .
- دليل الخليج ، القسم التاريخي . لوريمر . ج . ج . ترجمة وطبع الدوحة ١٩٦٧م
- زنجبار . صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم . الدكتوران . القاهرة ١٩٦٠م
- ساحل شرق أفريقيا . من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي . محمود محمد الحويري ، الدكتور . ط ١ ، دار المعارف . القاهرة ١٩٨٦م .
- السياسة الإيرانية في الخليج العربي . إبان عهد كريم خان . علاء الدين نورس ، الدكتور . معهد البحوث والدراسات العربية . بغداد ١٩٨٢م
- الشاه عباس الكبير (٩٩٦-١٠٣٨هـ ، ١٥٨٨-١٦٢٩م) بديع جمعة . الدكتور . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٨٠م
- الصراع على الخليج العربي . سليم طه التكريتي . بغداد ١٩٦٦م
- صراع القوى في المحيط الهندى والخليج العربي . محمد عدنان مراد . دار دمشق للطباعة والنشر . دمشق ١٩٨٤م .
- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى . نعيم زكي فهمي . د . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٣م
- عدن والسياسة البريطانية . فاروق عثمان أباظة ، الدكتور . القاهرة
- العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار محمد أحمد دهمان . ط ١ ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٦م
- العرب والملاحة في المحيط الهندى . جورج فضلو حوراني . ترجمة الدكتور يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٨م .
- العصر المماليكي في مصر والشام . سعيد عبد الفتاح عاشور . ط ٢ . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٦م .
- العلاقات بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى . رجب محمد عبد الحليم ، الدكتور . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٨٠م
- العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأموى . قايد حماد محمد عاشور ، الدكتور . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٠م
- علاقة ساحل عمان ببريطانيا دراسة وثائقية في العلاقات التعاهدية . عبد العزيز عبد الغني ، الدكتور . البصرة ١٩٧٨م .

- عمان عبر التاريخ ٣ ج ، سالم بن حمد بن شامس السيابي . وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ٢٠ ١٩٨م
- غزاة في الخليج : الغزو الهولندي للخليج العربي والمقاومة العربية . هيفاء عبد العزيز الربيعي . دار الكتب للطباعة والنشر . جامعة الموصل ١٩٨٩م .
- الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ - ١٦٣٥م) السيد مصطفى سالم، الدكتور ، ط٢ معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧٤م
- الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤م) نيقولاي إيفانوف . ترجمة يوسف عطا الله . سلسلة تاريخ الشرق العربي الحديث . دار الفارابي بيروت ١٩٨٨م
- فتح العثمانيين عدن ،وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر . محمد عبد اللطيف البحراوى . مكتبة دار التراث . القاهرة ١٩٧٩م
- في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الدكتور . دار الشروق القاهرة ١٩٨٦م .
- في طلب التوابل . سونيا . هاو . ى . ترجمة محمد عزيز رفعت القاهرة -١٩٥٧م
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . أرشيبالد . د . لويس . ترجمة أحمد محمد عيسى،مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .
- القواسم : نشاطهم البحرى وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية (١٧٤٧-١٨٥٣م) عبد القوى فهمي محمد . رأس الخيمة . دولة الإمارات العربية المتحدة .
- المآصر بين بلاد الروم والإسلام . ميخائيل عواد .
- المشيخات المتصالحة . دونالد هولي . نسخة مترجمة بالآلة الكاتبة بمكتبة اللجنة العليا للتراث والتاريخ . أبو ظبي .
- مصر في عصر المماليك الجراكسة . ابراهيم علي طرخان . ،الدكتور . القاهرة ١٩٥٩م
- المقاومة العربية في الخليج العربي . سليم طه التكريتي . دار الرشيد . بغداد ١٩٨٢م
- الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا . زاهر رياض . الدكتور . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨م
- المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري . أحمد دراج . الدكتور . القاهرة ١٩٦١م
- الموانئ السودانية . صلاح الدين الشامي . الدكتور . سلسلة الألف كتاب رقم ٣٧٨ مكتبة مصر، القاهرة ١٩٦١م
- موجز تاريخ أفريقيا . رونالد أوليفر . وجون فيج . ترجمة دولت صادق ومحمد غلاب الدكتوران، القاهرة . ١٩٦٤م
- موجز تاريخ الشرق الأوسط ، من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر . جورج كيرك . ترجمة عمر الإسكندري . مركز كتب الشرق الأوسط . القاهرة

- الموسوعة العربية الميسرة، ج٢ محمد شفيق غربال . وآخرون . بيروت والقاهرة .
- نحو الشرق . محمد عبدالمنعم الشرقاوي . الدكتور .
- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، في القرن السادس عشر . نوال حمزة الصيرفي بيروت . ١٩٨٢م
-

٤- الأبحاث والدراسات :-

- أحداث فاصلة في إحلال النفوذ الأجنبي في الخليج العربي، علي الغنام . مجلة الخليج العربي . العدد الثاني ، المجلد ١٧ ، سنة ١٩٨٥م
- إحلال النفوذ الأجنبي بالخليج العربي (دور الدولة الصفوية) مجلة الخليج العربي العددان . ٣ ، ٤ ، المجلد ١٧ سنة ١٩٨٥م .
- أخبار عن عمان في الأدب الجغرافي . ماديلا مارين . حصاد ندوة الدراسات العمانية ج٧ مطابع سجل العرب . ١٩٨٠م
- الاستعمار البرتغالي وأثره على الروابط العربية الأفريقية . جمال زكريا قاسم - الدكتور . ضمن كتاب العلاقات العربية الأفريقية . معهد البحوث والدراسات - القاهرة ١٩٧٧م
- الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي خلال القرنين السادس والسابع عشر . محمد عارف الكيالي . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية . ج١ رأس الخيمة ١٩٨٧م دولة الإمارات العربية المتحدة .
- أضواء جديدة على ((ملاح)) فاسكو ديجاما . محمد عبدالعال أحمد . مجلة الدراسات الأفريقية ١٩٧٦م
- الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية . فالح حنظل . الدكتور . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية . ج ١ رأس الخيمة ١٩٨٧م
- الأوضاع السياسية في الخليج العربي ، إبان الغزو البرتغالي . جمال زكريا قاسم ، الدكتور . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية . ج ١ رأس الخيمة ١٩٨٧م
- إيضاحات جديدة عن تحول تجارة البحر الأحمر . منذ مطلع القرن التاسع الهجري . احمد دراج . الدكتور . محاضرات الجمعية المصرية التاريخية ١٩٦٨م
- البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها . عبدالرزاق علي عثمان . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ج ٢ رأس الخيمة ١٩٨٧م
- بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى . سعيد عبدالفتاح عاشور . الدكتور . المجلة التاريخية المصرية ١٩٦٨م

- بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان . بروفيسور بكنجهام . س . حصاد ندوة الدراسات العمانية . ج ٦ مطابع سجل العرب - ١٩٨٠م
- بلاد الشام في علاقة المماليك والعثمانيين منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر حتى الفتح العثماني . تاج السر أحمد حران . الدكتور . المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ج ١ كلية الاداب الجامعة الأردنية عمان .
- تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي . محمود علي الداود . الدكتور ، مجلة كلية الاداب العدد السادس بغداد ١٩٦٣م
- التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق أفريقيا . جي . كيركمان . حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٥ مطابع سجل العرب ١٩٨٠م
- تحرير ساحل عمان . وانهيار الامبراطورية البرتغالية . صالح محمد العابد . الدكتور ، مجلة آفاق عربية . بغداد . مارس ١٩٨٥م
- التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي في الخليج العربي . هينا* عبد العزيز كريم . أبحاث ندوة رأس الخيمة التأريخية ج ١ . رأس الخيمة ١٩٨٧م
- التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر . بشير حمود كاظم . أبحاث ندوة رأس الخيمة التأريخية ج ٢ رأس الخيمة ١٩٨٧م
- التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، لورنس لوكهارت . مجلة الخليج العربي . العدد العاشر . جامعة البصرة ١٩٧٨م
- دراسة لمدينة ظفار . باولو إم . كوستا . حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٣ . مطابع سجل العرب ١٩٨٠م
- دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي . صلاح العقاد . الدكتور . حصاد ندوة الدراسات العمانية . ج ٤ مطابع سجل العرب ١٩٨٠م
- دور عمان في نشاط التجارة العالمية في العصر الإسلامي الأول . حبيب الحنجاني حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٢ مطابع سجل العرب ١٩٨٠م
- الروابط العربية الأفريقية ، قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر . جمال زكريا قاسم . الدكتور . ضمن كتاب الروابط العربية الأفريقية . معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧٧م
- صحار . مادة صحار . دائرة المعارف الإسلامية . ج ٤
- الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال . الشاطر بصيلي عبد الجليل ، المجلة التاريخية المصرية . العدد الثاني عشر . سنة ١٩٦٤م - ١٩٦٥م .
- الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة . عبد العزيز محمود عبد

الدايم . الدكتور . كتاب مصر وعالم البحر المتوسط . إعداد وتقديم رؤوف عباس
دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع . ط ١ . القاهرة ١٩٨٦م .
- الصراع العماني البرتغالي وتحرير الشرق الأفريقي خلال القرن ١٧ . صالح محمد العابد،
الدكتور . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية جـ ٢ رأس الخيمة ١٩٨٧م
- عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر
طارق نافع الحمداني الدكتور مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤٢ أبريل
١٩٨٥م .
- العرب في شرق أفريقيا . جلال يحيى . الدكتور . مجلة النهضة المصرية . عدد ٢٢
سبتمبر ١٩٥٩م
- العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم .
الدكتور . مجلة العلوم العلوم الإنسانية . عدد ٩ سنة ١٩٨٣م
- العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي (١٥٠٧-١٦٥٠م) محمود علي الداود .
الدكتور . مجلة كلية الآداب،عدد ٢،جامعة بغداد ١٩٦١م
- العلاقات بين الصين والعرب في العصر الوسيط . بروفيسور ذانج . هو . حصاد ندوة
الدراسات العمانية . جـ ٦ مطابع سجل العرب ١٩٨٠م .
- قلزم . بيكر وبكنجهام . مادة قلزم . دائرة المعارف الاسلامية
- المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية . عبد الوهاب القيسي . الدكتور
أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية . جـ ١ رأس الخيمة . ١٩٨٧م
- المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية . عبد العزيز الشناوي
الدكتور . أعمال مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية . جـ ٢ قطر ١٩٧٦م
- معركة تحرير مسقط . غانم محمد رميض . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية جـ ١ ،
رأس الخيمة ١٩٨٧م .
- المغاربة في مصر في العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨) عبد الرحيم عبد الرحمن
عبد الرحيم . الدكتور . المجلة التاريخية المغربية . تونس ١٩٨٢م . وديوان
المطبوعات الجامعية . الجزائر . ١٩٨٢م
- النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي . بروفيسور سارجنت آر
حصاد ندوة الدراسات العمانية . جـ ٦ مطابع سجل العرب ١٩٨٠م
- نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا . عبد الأمير
محمد أمين . الدكتور . أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية . رأس الخيمة ١٩٨٧م .

- Barbosa . D : A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteen century. Translated by : Henry . E and Stanly . J . Haklgut society . London . 1866.

- Greenville . F : Select documents - The East African coast Oxford 1962.

- Hamilton . A : a new account of the East Indies with the numerous maps and Illustrations.

- Saldanha . A : East India companies connection with the persian Gulf (1600 - 1800). Selection from Bombay state papers. Culcutta 1908.

- Sirhan Bin Said : Anals of Oman. Translated by : Ross . E.C. London 1872.

- Sousa Manuel de . F : The Portuguese Asia. 3 vols translated by : Steven , John.

- Texiera . P : Travels of Pedro Texiera with his Kings of Hurmuz . Translated by; William . F . Sinclair Haklyut Society . 1902.

-

- Badger . G. P : History of Imams and seyyids of Oman. by Salil Ibn - Razik . London . 1871.

- Bathurst . R. D : The Ya , Rubi.

- Bent. T : Southern Arabia during the years 1553 - 1555. London 1905.

- Boxer . C . R :
- The Duch Seaborne Empire 1600 - 1800 . London 1977.
- The Portuguese Seaborne Empire.

- Some aspects of the struggle between Omanise and the Pertuguese. A.D. 1650 - 1730. Proceedings of Arab Gulf Centres - Abu - Dhabi 1979.

- Commentaries

- Boxer . C. R and Carlos . A : Fort Jesus and the Portuguese in Mombassa (1593 - 1729). Four centuries of Portuguese Expansion. London . 1961 .

- Budge . E . A : A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia. 2.vols. London . 1928.

- Chittich . N : The coast, Madagascar and the Indian Ocean. Canbridge history of Africa. vol , 3. London 1977.

- Coupland . R : East Africa and its invaders from the earliest times to the Death of Seyyid said 1856. London 1938.

- Danvers . F. C : The Portuguese in India. 2 vols. London 1894.

- Davies . S : Exploring the world. London 1968.

- Dodwell . H. H and others : The Cambridge shorter history of India : Delhi 1964.

- Dufy

- Dunber, G : A history of India from the earliest times to nineteen-thirty nine. 2 vols. London 1929.

- Gray . J : history of Zinzabar from the Middle age to 1856.

- Green . J. R : Defet of the Spanish Armada in the world's great events.

- Hamilton . A : The trade relation between England and India 1600 - 1890.

- Ingham . K : A history of East Africa.

- Ingrams . W . H : Zanzibar ; its history and its people. Holand 1967.

- Jones and Monroe : A history of Abyssinia.

- Johnson . A . H : Europe in the 16th century (1434 - 1598). London 1927.
- Lane Poole . S :
* A history of Egypt in the middle age. London . 1930.
* Medieval India under Mohamadan rule. A.D 712 - 1764. London. 1925.
- Lewis . A. R : Egypt and Seria (The cambridge history of Islam) 2. vols. cambridge 1970.
  - naval power and trade. Newjersy . 1951.
- Lodge . R :- A history of morden Europe. London 1900.
  - Rise of the Dutch Republic, in the worlds great events.
- Low . C . R : History of Indian navy. London 1877.

- Marsh . Z and Kingsnorth G . W : History of East Africa. An introductory survey. 4 ed. combridge 1972.

- Miles . S. B : countries and tribes of the Persian Gulf . London 1966.

- Molmenti . P : Venice , its individual grouth from the earliest beginnings to the fall of Republic. part 1. London 1906.

- Morland . W . H : The ships of the Arabian sea about A.D 1500. The jurnal of Royal Asiatic society of Greate Britain and Ireland. London 1939.

- Okey . T : Venice and its story. London 1930.

- Oliver . R and Mathew .G : history of East Africa vol , 1 London 1968.
- Parry . J. H : Europe and Awider world (1415 - 1715). London 1905.
- Parry . V. J .The Ottoman Empire (1481 - 1520). In the new combridge modern history.

- Pirenne. J : The tides of history vol 2. London 1963.

- Prestage . E : The Portuguese pioneers. London. 1962.

- Ross . E . D The Portugese in India and Arabia between 1507 - 1517 in jurnal of the Royal Asiatic society. part iv, London 1921.
- Saldana . J A : Portuguese in the Persian Gulf. India geological memoies 1903.

- Serjeant . R. B : The Portuguese of the South Arabian coast. Oxford 1963.
- Skeet . Ian : Muscat and Oman . London 1974.
- Steensgard . N : The Asian trade revolution of seventeeth century. Chicago . U.S.A 1975.

- Stripling . G. W. F : The Ottoman Turks and the Arabs (1511 - 1574). University of Illinois . Urbana 1942.

- Sykes . S. P : A history of exploration from the earliest times to the present day. London 1949.

- Sykes . V : History of Persia . 2 Ed. 2 vols. London 1975.

- Vambery . C. F * Travels of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the year 1553 - 1555.

* The life and adventurs of Sidi Ali Reis.

- Weil : The navey of venice. London 1910.

- Wendell. P : Oman, a history . London 1967.

- Whiteway. R. S : The rise of Portuguse in India.

- Willson , S. A : The Persian Gulf. An historical sketch from the earlkest times to the beginning of the 20th century. London 1954.

ثالثا المراجع الفارسية :-

- إيران در زمان صفوية . أحمد تاج بخش . تبريز ١٣٤٠ هـ . ش
- تاريخ أدبيات إيران أز آغاز عهد صفوية . تازمان حاضر . رادوارد براون . ترجمة رشيد ياسيني . جاب دوم . تهران ١٣٢٩ هـ .ش
- تاريخ إيران أز مغول تا أنشارية . رضا بازوكي . جاب أول تهران . ١٣٣٤ هـ . ش
- تاريخ روابط إيران وأوروبا در دوره صفوية . نصر الله فلسفي . قسمت أول . تهران ١٣٣٤ هـ . ش
- تاريخ روابط خارجي إيران أز ابتداي دوران صفوية تابايان جنك دوم جهاني ، عبد الرضا هوشنك . موسسة انتشارات أمير كبير . تهران ١٣٦٤ هـ . ش
- تشكيل شاهنشاهي صفوية . نظام الدين شيباني . جامعة تهران . ١٣٤٦ هـ . ش
- زندكاني شاه عباس أول . نصر الله فلسفي . تهران ١٣٤٢ - ١٣٥٢ هـ . ش
- عالم آري صفوي . مجهول
- لب التواريخ . أمير يحيى بن عبد اللطيف الحسيني . بدون
- قسمتي أز مجراي خليج فارس . عباس إقبال . سال جهارم . مجلة ياد كار
- مطالعاتي درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس . عباس إقبال . تهران ١٣٢٨ هـ . ش



UNIVERSITY OF SINDH
JAMSHORO

ISLAMIC-PORTUGUES CONFLICT AND ITS EFFECTS ON INTERNATIONAL TRADE (1500-1730/906-1143)

By

REYADH MAHMOOD EL-ASTAL

DISSERTATION SUBMITTED FOR THE FULFILLMENT OF THE DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY IN ISLAMIC CULTURE

Under the Guidance of

Ret. Prof. Dr. Abu Al-Fath Muhammad Saghiruddin

UNIVERSITY OF SINDH
JAMSHORO

ISLAMIC-PORTUGUESE CONFLICT AND ITS EFFECTS ON INTERNATIONAL TRADE (1500-1730/906-1143)

SUMMARY

BY

REYADH MAHMOOD EL-ESTAL

THESIS SUBMITTED TO SINDH UNIVERSITY JAMSHORO, FOR AWARD OF Ph.D IN ISLAMIC CULTURE.

UNDER THE GUIDANCE OF
RET. PROF. DR. ABU AL FATEH MUHAMMAD SAGHIRUDDIN

ISLAMIC - PORTUGUESE CONFLICT AND ITS EFFECTS ON INTERNATIONAL TRADE (1500-1730/906-1143)

THE IMPORTANCE OF THE WORK:

1- Islamic Portuguese Conflict, On the Eastern Islamic Coasts, was one of the most important parts in the history of the world . It occupied a particular place in the chain of Conflicts between Muslims and Christians; and formed a good deal of the overlap and link process between the Middle Age and the Modern one, especially, in Asia, Africa and Europe.

2- It left its dangerous effects and deep imprints, not only on the Eastern Islamic countries, but also on the Italian States, Venice and Gunoa; and on Holland and England in the west of Europe as well. According to that, new relations and terms between the East and West, were created.

3- The Conflict turned up a new economic process; opened up new means of communications; and made up a revolution on the Levantine trade . transferred across the old fashioned routes.

4- Moreover several powerful states in both the East and West, were badly affected. Egypt was shaken by the diminution of resources and the collapse of spices trade across the Red Sea. Venice Lost her political and maritime strength; so that her merchant navy became ineffectual. Finally, she had to close her marts in A.D. 1573, after the capture of Cyprus by the Turks. The fall of Turkey has been more gradual, but none the less sure; and for many years to come, she has been the sick man of Europe.

5- Although the Conflict had utmost importance in the Modern Civilization, it had only a little share of historical studies, especially in the Islamic world.

6— Meanwhile it was important to note that Western historians, who used their own outlooks and tools, had inserted into the subject some disturbing opinions and attitudes. They might be considered a complete antithesis against ours; and it is a fatality of the present situation if we, the Muslims, accept these dangerous opinions as an axiomatic truth.

7— The previous studies maintained an incomplete concept which centred itself on a small region, or on a limited period of time. Thus, the research in question maint - ained its particular way of treating. It based on a compre- hensive concept; and considered the Eastern Islamic states as a Whole Complete Civilized unit in the face of the Portuguese Empire; she was the precursors of Modern Western Colo- nization; which was instigated by the deep roots lying in the heart of the crusaders' thought and policy.

8— Finally, It is necessary to say that the studies, previously men- tioned, cast out of their account an important part of the Conflict which occupied a good deal of the proceedings. It was the Islamic Portuguese Commercial competition which imposed its appearance and overlapped all over the other aims in due course of the events of the Conflict. Consequently, this part has been given the deserved concern.

CONTENTS

BOOK - 3

The Islamic resistance to the Portuguese invasion.

Chapter 1 : The Mamelukes opposition to the Portuguese.

Chapter 2 : The Turks efforts agianst the Portuguese colony in the Indian ocean.

Chapter 3 : The Safawids role in the Islamic resistance to the Portuguese invasion.

Chapter 4 : The role of El-Ya'ariba in the Islamic resistance.

*****

BOOK - 4

The results of the Portuguese invasion on the Eastern Islamic coasts.

Chapter 1 : The collapse of the Portuguese Eastern Empire.

Chapter 2 : The permeatance of the European colonial Manipulation.

Chapter 3 : The results of the Portuguese monopoly.

Chapter 4 : The failure of the Portuguese Catholic Preaching.

Summary.

Islamic-Portuguese conflict occupied, as it was , an important part in the chain of the conflicts between Muslims and Christians, which had the lasting effects on the history of the world. It is equally important to indicate that this conflict moved to the east and west alike. The conflict extended all over the Indian Ocean, from East Africa to the Arabian Gulf, and up to the Islamic Kingdoms, which existed in India during the 16th and 17th centuries.

International trade, between the east and west, was at that time, in it's full swing, not only in natural and industrial products; such as,dyes, spices, minerals, porcelain, silk, iron and gold, but also the slaves trade—which prevailed at the time, especially from Africa to the western countries—was at its highest peak. This trade was, by the force of geografical and political motives, under the control of the venetian - mameluks confederacy, who had been co-operated, for a lengthened period, to monopolize the profitable international commercial intercourse, between the east and west. Portugal was one of the cheif powers in Europe who had its own causes to compete with it's rival European State; viz, venice; and to lead a fierce conflict against the Mameluks and other Islamic countries. The exploration of the cape of good hope, at the end of the 15th century, gave her a golden chance, not only to make a revolution in oriental commerce, but also to give a mortal blow to the Islamic world in the Indian Ocean.

In order that, the thesis had discussed both, the political conflict and the commercial competition in addition to showing the cultural and mental facing between the two big civilizations, viz, the Islamic civilization — represented, at first, by the Mameluks state and then by the Ottoman Turks Empire, the Safawids state, and the Elya, ariba state after all— and the western one , represented , at first, by the Portugal state, and by the England and the Holand states after that.

The three main Islamic power; viz, Ottoman Turks, Mameluks and Safawids, was , at the end of the 15th century, in a dangerous political conflict, and the tension of relations between them had attained the emminence of its range. At the same time, the native powers on the south - east Islamic coast line, were weak and scattered political units ; and had no powerful forces, for withstanding the Portuguese invasion on the Indian Ocean. In these circumstances, the portuguese had been given a large chance to be victors intheir endeavours to monopolize the oriental commerce and to occupy the main Islamic centres along the south - east Islamic coast line with out facing any serious resistance.

Before the Portuguese invaded the Islamic eastern coasts in the Indian Ocean, the Muslims had played avigorous part in the international trade between the east and west . They took their part, not only in the transmission of the Indian goods and products, but also in producing their own important products. This notable part had developed so many of Islamic trade centres and marts, such as Kajurat, Hurmuz, Mascut, Adan, Jedda and Alexandiria which obtained the emminence of their glory at the end of the 15th century. The routes between them were populated with thousands of traders and travellers. The most important goods and products had been run between them without stopping . The commercial fleets carried the products from India up to Arabian Gulf to Busra, and a long the Red sea to Suez. To Egypt came all kinds of Europian traders to share in the international commerce by exchanging of their own products; such as, wool, wine, and furs,for oriental products, especially, spices and perfumes.

The Portuguese invaded the east Islamic coast line in 1500 for many causes : they wanted, at first to take revenge from the Muslims, who defeated them in the crusades. They hoped to dispossess the venitians of the profitable intercourse with the Muslims and to get the spices and other eastern products in a lower price. The third cause was their wish to convey their catholic religion to the east and to force the population to embrace it. So the Portuguese invaded the east Islamic coast line in series of lengthened expeditions. In their invasion, they conducted according to, as I see, four improtant significant stages. In the beginning they made more than one evasion to spy out the eastern maritime routes trade, peoples, and political powers. In the following stage they monopolized the

eastern trade by preventing the Muslims from navigation in the waters of the Indian Ocean; by occupying the important trade centers, and by blocking the gates of the Arabian Gulf and the Red Sea as they were the most important routes of the international commerce between the east and west. In the third stage, came after about ten years from the beginning of the invasion, the Portuguese occupied the important cities and coastal territories; such as, calicut, Hurmuz and Muzambiqe, in order to put their own hands, fully on the oriental products and on the levantine trade; and to prevent the Muslims from navigation in the waters of the Indian Ocean by force. In about 1509 they began the lasting and lengthened period of their colonization in the eastern Islamic coasts. In this stage, so many things of the Portuguese conduct can be seen. They made their full control in the Indian Ocean; monopolized the trade between the east and west fully; defeated the Muslims squadrans in many battles; and laid a Portuguese leadership and administration centre, which was under the command of a Viceroy of the Portugal King who took the coast of western India as a centre for his command. It was notable that the Portuguese colonialism in the conquered Islamic territories, had stoped many of administrative organizations, had imposed unfair commercial taxes, and had carried out their policy of military violence. To make sure of their successful policy they co-operated with the non - Islamic interior powers, especially with Abissenia.

The Portuguese invasion did not happen easily or without Islamic resistance. In the beginning they faced a fearful opposition, led by the coastal population and the territorial powers on the Indian Ocean. While the first important resistance came from the Mumcluks forces, who battled successfully againest the Portuguese invasion on the waters of the Redsea inspite of their defeating in Due in 1509. The Ottoman Turks lifted up the banners of the opposition againest the Portuguese highly since 1517. They maintaind their supremacy in the Redsea all times almost unimpaired. At the same time they succeeded, in a limited scale on the Arabian Gulf. On the other hand the Ottoman Turks made more than one vigorous attempt to defeat the Portuguese in India and East Africa, but invain; and they could no longer compete with the Portuguese powerful fleets on the Indian Ocean.

The third Islamic power, took part in the resistance of the portuguese invasion, was the Safawids who swung strongly between the acceptance of the Portuguese existence and refusing that ;

but we can't deny that the Safawids struck to the Portuguese amortal blow on the Arabian Gulf when they liberated the most important commercial Island of Hurmuz in 1622.

The Islamic - Portuguese conflict on the waters of the Indian Ocean, in 16th and 17th centuries ended up by the oposition of Elya,ariba, who liberated Muscat in about 1650 put an end to the existance of the Portuguese on the East African coast line in about 1730. In the mean - while they enfeebled their powers in India.

At this stage of the summary, we had better take a neutral look at the results of the Portuguese invasion on the south east Islamic coast line. The first result claimed on our attention, was that the Portuguese Empire in the east had collapsed gradully under the feet of the Islamic resistance and the feet of the Europian commercial and political compitition The Portuguese failed even in playing an important part in the policy of the Indian Oceans, and could no longer have the command of any important territory of the commercial or political centre.

The monopoly of the levantine trade ,which the Portuguese practised for a lengthened period, occupied the attention of the western Europian powers fully that they set up their policy not only to enfeeble the Portugal state in Europe, but also to defeat its forces in the east and to monopolize the oriental seaborne trade in steed of them. The two main Europian powers, should be mentioned, were the Dutch and the English companies, who lost no time in preparing their fleets and playing the round of the commerce, skilfully, carefully, and with a powerful military well. These two Europian powers, did not only deprive the Portuguese from their profitable intercourse with the east, but also occupied the most important territories in the Indian Ocean. In so doing, they became in a short time the new Eropian colonists in the east. They took both the command of the oriental seaborne trade and the command of the most important coastal territories depriving the Muslims from their own liberation.

The Portuguese efforts for the Catholic preaching ended up with quick failure. It is curious to note that they tried to 'Christianize' the natives of the Indian Ocean coasts especially, in India Percia and East Africa for more than 150 years, but their strenuous a-ttempts brought up no perceptible results, and the peoples, who had

accepted the Christian relegion fathfully or temporarily under a certain press did not increase more than a thousand person and most of them with drew their words, sooner or later.

The most important idea, should bear in mind, that the Portuguese could no longer monopolize fully the Levantine seaborne trade since 1530;and after about seventy years they began to lose their command of the policy and of the commerce on the Islamic territories of the Indian Ocean.

CONCLUSION:

One may indicate to some of the most important results:

1 — It may be stated that the tension and clonflict among the previous main Islamic powers offered the Portuguese a golden chance, when they planned to stabilize their maritime supermacy on the Indian Ocean Coast lines and to establish their Eastern Empire.

2 — The Eastern Islamic Coasts suffered from political separation, military weakness and interruption of political links with the three chief Islamic powers in Cairo, Constantinople and Tabreeze. These elements gave the invaders an easier task in the establishing of their own Eastern Empire in a very short time.

3 — So many Islamic entrepots and towns acquired a great importance, as to the international trade, during the Middle Ages. These centres endowed with a highly social, commercial, and architectural prosperity. Perhaps, it might be of great impotance to mention, here, Kajurat; Hurmuz, Adan, Mascut, Jedda, Cairo, Suez, Alexandria, Mumbassa and Kilua.

4 — The common policy of the Portuguese based on the theory of maritime supremacy, as they thought that if you had the command of the sea, you would have the mastery. Consequently, they hoisted national banners on their fleets and performed their wars with the complete blessing of the Pope. Moreover they were eager to develop their maritime strenghth and fleets in order to be more manageable for the future consideration of their commercial, military, and political schemes. Meanwhile none of the Local Islamic political powers had enough forces to encounter the Portuguese Invasion, even Hurmuz, though its maritime strength, did not have any military fleets at all.

5- The Portuguese monopoly of the Great Indian Trade. was based on a set of unfair elements, such as blockading the gates of the old fashioned routes; taking possession of all the most important entrepots; buying the levantine commodities in Lower prices; destroying the Muslims' vessels by firing or Capturing; circulating the spirit of fear and trouble by buccaneering; and transporting the levantine trade, directly, to all the marts in Europe.

6- The Portugues policy based, in some aspects, on making good use of the disaggreements which might occur, from time to time, among rebellious parties and governers; and exploited greatly these relations for their own interest.

7- The Portuguese succeeded for a very short time, of some thirty years, to monopolize the Levantine commodities. Next, they became unable to pursue the course of commercial supremacy. Hence, the levantine products, transported across the old fashioned routes, exceeded to that transfered by the Portuguese across the Cape of Good Hope.

8- Thus it has been proved that there were three Chief Islamic Powers at the bottom of the collapse of the Portuguese monopoly in the East. The first was the Turks who renewed the Mamelukes' terms with the western countries; revived some old fashioned routes; and fortified the RedSea waters, and the northern portion of the Arabian Gulf, Particularly El Busra, which turned again into an important entrepot. The second power was the safawids Who began their opposition to the portuguese monopoly at the turn of the 17th Century. They made friendly relations and successful intercourse with the new western powers existing in the Indian Ocean at the time; Liberated Hurmuz; introduced new porducts, such as, silk; and founded new entrepots; as, Gampron. Finally, there were AlYa'ariba who liberated Mascut; pursued the Portuguese fleets in India, in the Arabian Gulf; and in the East African Coast, and revived the Arabs' role on the international trade.

9— It is curious to note that all the Portuguese efforts for the preaching of the Catholic religion were met with a little response. Indeed, a few persons seemingly accepted the new preaching for a short time only. So, when the Portuguese mastery came to an end in about A.D. 1650 - A.H. 1061, the results of the preaching were doomed to speedy none-entity. Evidently, most of their exponents went back on their words; and reconversion was occurred instead.